ملوك العرب

تأليف

أمين الريحاني

الكتاب: ملوك العرب

الكاتب: أمين الريحاني

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الريحاني، أمين

ملوك العرب / أمين الريحاني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤٣٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٣٠٩١٥ / ٢٠٢١

ملوك العرب



الجزء الأول

مقدمة

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الأولى إلى الولايات المتحدة. فلم أكن أعرف غير اليسير من اللغتين العربية والفرنسية، وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تُسمِعه الأمهاتُ في لبنان صغارَهن. هس، جا البدوي، والبدوي والأعرابي واحد إذا رامت الأم «بعبعًا» تخوِّف به أولادَها.

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممَّن أتكلم لغتهم، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم. والبغض والخوف هما توأما الجهل.

أما الأمة الفرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها، ولكنها معرفة مطوَّسة. كانت المدارس تنشر أذنابها في لبنان: إن فرنسا لَأعظمُ أمم الأرض، هي أشرفها وأغناها وأرقاها، بل هي قطب المدنيَّة، وعاصمة النور والجمال؛ هي الطاووس بين الأمم.

أما أميركا فقد كنتُ فيما عرفته منها بعيدًا عن الأم وعن المدرسة. تناولتُ الكأس من يد الوجود، وقد ملأها الشعب الأميركي بنفسه. ومع ذلك فلم تخلُ مما تميَّزت به الكأسان الأوليان. رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المَشُوبة، وفيها أشياء من الجهل المتلألئ.

غدوتُ بعد عشر سنين في أميركا مُعجَبًا بنشاط الشعب الأميركي، وبحريته في الفكر والقول والعمل، خائفًا من نتيجة الجهاد المادي هناك، ومن التكالُب في سبيل الحياة الدنيا. وما كان خوفي على الأمة الأميركية وأنا في ذاك الحين، في عين نفسي، قطبَ كلِّ ما اهتممتُ له، ونقطة الدائرة في كل ما مِلتُ إليه. خفت أن أغلب في ذاك الجهاد، أشفقتُ على نفسي من ذاك التكالُب.

ونسيت فرنسا إلا في آدابها، تلك الآداب التي زادتني ضَعفًا وتردُّدًا في مضمار الحياة. صرفتني عن حقائق الوجود المادية، وزيَّنتْ لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية. صرت في نيويورك كئيبًا يحمل كتابًا، وغاويًا من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللًا! فانفتحت أمامي أبوابٌ من العلم متعددة، واتَّسع مجال الاضطراب والغرور.

ولكن الآداب الإنكليزية عادت بي إلى الشعب الإنكليزي فوجدته في أمور كثيرة — أخلاقية واجتماعية — أرقى من الشعب الأميركي، أو أحب إلى مَن كان مثلي. فكان لي في ذا العلم عونٌ على مقاوَمة تيار الاقتباس والتأمرُك، فلم أتخلَّق مثل سواي من السوريين هناك بأخلاق الأميركيين كلها، والفضل في ذلك هو

لفيلسوفهم إمرسون الذي كان دليلي الأول إلى محاسن الإنكليز فيما كتبه عنهم، وعن سجاياهم[١].

وقد عرَّفني إمرسون إلى كرْليل، وكان كرليل أول مَن عاد بي من وراء البحار إلى بلاد العرب. أجل، وقد يُستغرب قولي إني عرفتُ بوساطة الكاتب الإنكليزي الكبير سيّدَ العربِ الأكبر النبيَّ محمدًا[٢]، فأحسستُ لأول مرة بشيء من الحب للعرب، وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم.

ثم في غزواتي للكتب الإنكليزية غنمت كتابًا استوقفني ظاهِرُه الفخم، وراقتني الصور فيه. وما كان العنوان ليُنبِئني بشيء أكره أو أحب.

قرأت كتاب الإلهمبرا[٣]؛ فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء، وعرفت أن الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الأندلس.

لله أنتِ أيتها البلاد العربية التي لم يشأ الله أن أجهلك حياتي كلها، فبعث إليَّ – وأنا بعيد عنك – إنكليزيًّا يعرِّفني إلى رسولك، وأميركيًّا يصِفُ لي محاسنَ أبنائك.

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازَجَ عقليتي الأميركية الفرنسية الإنكليزية شيءٌ من الخيال الشرقي، فصرت أحلم بذاك المجد الماضي أحلامًا تمثِّلني حيًّا فيه أو تمثِّله حيًّا أمامي.

عدت إلى بلادي كئيبًا يحمل كتابًا، ويرغب في أن يكون الكتاب مائة كتاب وكتاب. وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير، فتغلغلتُ في سراديبها دون أن أرثي لحالي. وبينا أنا أتخبَّط في دَياجي اللغة عثرتُ على كتاب شعر أنساني الكسائي وسيبويه، وكلَّ مَن علم حرفًا في البصرة والكوفة.

جمعني الله – سبحانه وتعالى – بأبي العلاء المعرِّي بعد أن هداني بوساطة الفيلسوف الإنكليزي إلى الرسول العربي. قرأت اللزوميات مُعجَبًا بها، ثم قرأتها مترنِّمًا، ورحتُ أُفاخِر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر، الجسور، الحكيم.

عدت إلى أميركا أستصحِب صاحب اللزوميات، وكنت ترجمانه هناك. فساقتني المهنة إلى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية، فاجتمعتُ فيها بعدد من المستشرقين الذين صوَّروا لي الحياة رحلةً في الأرض دائمة، وصوَّروا الأرض بادية عربية، نبغ فيها محمَّد بن عبد الله القرشي، وامرؤ القيس الكِنْدي، الشعر والنبوءة والدهناء، والواحات في بحار من الرمل، والنخيل في الواحات يهمس في أغصانها النسيم، وتهزُّ جذوعها السموم، وصوت الساقية وهي تغني للأرض المنعمة في ظلال النخيل، وبنية البدو تغني لجمل

---

[١] السجايا الإنكليزية English traits by Ralph Waldo Emerson.

[٢] الأبطال Heroes and Hero-Worship by Thomas Carlyle.

[٣] الإلهمبرا The Alhambra by Washington Irving.

الساقية – وماذا في نيويورك؟

ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء؟

هذا الرحَّالة بلغراف[1] وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذٍ بطريركًا عظيمًا[2] يحدِّثاني عن شمر والقصيم والعارض والرياض. وذاك المستعرب بُركهارت[3] وقد دخل إلى مكة حاجًّا، مسلمًا صادقًا نقيًّا. وهذا العلَّامة برتن[4] يقص قصة عجيبة بطلها بزَّاز من سمرقند قد حمل الكيس – تفتا هندي شاش حرير يا بنات! ليكشف له أسرار الحريم، ثم ركب العيس، وكان دليله إبليس، فاقتفى أثر بُركهارت لغرض في النفس، ونظم قصيدة كفرية كفر بها عن كل مآتيه في التلبيس.

وهذا خليل[5] الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو، فقاسى في رحلته الأهوال، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال. اضطُهِد في بريدة، وطُرِد من عنيزة، وسُلب وضُرب، وتُرك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس. الدرويش خليل، كأنه كان يهوى الأخطار فيجذبها إليه. خليل النصراني، جاء بتعصُّب اسكتلندي يثير في العرب التعصُّب الإسلامي. خليل النصراني الكافر! قُطُّوا رأسَه بالسيف! ولكن الله أخرجه من شبه الجزيرة حيًّا ليكتب كتابًا لا يموت.

وكل هؤلاء من الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديمًا ولا شك بلادَ أجدادي، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبًّا بالعلم، فيكشفون منه المخبأ، ويجلون المصدأ، ويقرِّبون البعيد، ويغربون في اللذيذ المفيد. وأنا في نيويورك كئيب يحمل كتابًا، ويَطرق للمحرر الأميركي المتغطرس بابًا. أديب شعره طويل، وصدره عليل، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات. آلة كاتبة، يرقص حولها الهم والأمل متخاصرَيْن. أفٍّ لها من زوجة نقاقة، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة، وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث. طلَّقتُها ثلاثًا، وعدت إلى بلادي أعدُّ العدَّة لرحلة تبعدني عنها، وعن الكتب والمجلات، والأدباء والأديبات.

وكان لي صديق في دمشق يجرُّ قيودًا للسياسة ثقيلة، فحاول التفلت منها. كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه، فصفع السلطة وفرَّ هاربًا إلى الفريكة، فحلَّ فيها أهلًا ونزل سهلًا – سهلًا في القلوب، ومنحدرًا في الوادي. أقام مُحَمَّد كرد علي عندنا أسبوعًا عددناه من شوارد الزمان. الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين. سمعني صديقي أردِّد ذات يوم هذه الكلمات، فقال: لا تنخدع يا أمين، الوادي قريب من دمشق،

---

[1] Central and Eastern Arbia by W. G. Palgrave قلب البلاد العربية وشرقها.

[2] البطريرك الجريجيري.

[3] Travels in Arabia by J. L. Berkhardt سياحة في بلاد العرب.

[4] الحج إلى مكة والمدينة A Pilgrimage to AL-Madina and Mecca by Richard F. Burton.

[5] التجوال في البلاد العربية تأليف شارلس دوطي، وقد انتحل اسم خليل Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty.

ومن بيروت، وفي المدينتين للعبودية عبيد، وللظلم سادة رعاديد. لا بأس بالهمس: والحمد لله! ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنمُّ عليك وعليَّ.

فقلت: صدقت، وفي نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي، في نيتي رحلة إلى البادية، إلى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة، وكل عبودية. فهلَّل صديقي وقال: نسير معًا. واتَّفقنا يومئذ أن نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل، ويزوِّدوننا بكتب التوصية إلى أهلهم وراء النفود.

لكن الأيام عدوة الأحلام، أو أنها لا تحقِّق منها غير ما كان ناضجًا في القلوب. تعقَّبت السلطة الأثيمة صديقي كرد علي، فاضطر أن يتركني وحدي في الفريكة، ويفرَّ هاربًا من سوريا. ثم سافر إلى أوروبة، فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذَّه فاستزادها. فقالت له عُدْ فعاد، فتعددت رحلاته من المشرق إلى بلاد المغرب، وأثمرت ثمارًا طيبة تجدها في كتابه القيِّم «غرائب الغرب».

أما أنا فقد طوَّحت بي الأقدار، وأبعدتني ثانيةً عن الوادي، وعن البلاد العربية كلها، عادت بي إلى نيويورك. ثم نُكِبت الإنسانية بالحرب العظمى، فزلزلت الأرض زلزالها، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشرًا مسلحًا محاربًا، وقضت في الكثيرين ممَّن استَبْقَت على جميل الأحلام والآمال.

ومن الأحلام ما يصبح جزءًا من حياة الإنسان، فلا تنفك تزعجه وإن شاخت، فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها.

رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب، رافقتهم في المجلات الإنكليزية، والجرائد العربية، فكنت أقوم فيما أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والإعجاب. وتوفقت في تلك الأيام إلى زيارة الأندلس، فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون أرفين كتابَه النفيس، فسمعت أصواتًا تناديني باسم القومية، ومن أجل الوطن، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوءة.

أكبرت الملكَ حسينًا الذي استنفر القبائل على الترك، وأرسل أولاده الأمراء الأربعة إلى ساحات الوغى، وكان الناس في أميركا يُعجبون بالرئيس روزفلت[1] الذي قدَّم ثلاثة من أبنائه إلى وطنه، وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين أولَ مَن صوَّرته الآمال ملكًا يفتح لي بابها. وبينا أنا أفكر في طريقة تحمل إليه أمنيتي القصوى، جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس، وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة.

وأهم من ذلك يومئذٍ خبرٌ قرأتُه مدهوشًا مسرورًا؛ جاءني الصديق بصديق آخر، وهو من الخلَّان الأوَّلين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من أميركا، ويشجعونني في إقبالهم على رسالتي كتابةً وخطابة في سبيل الإصلاح الاجتماعي. وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي أبعدته عني الحرب العظمى،

[1] ثيودور روزفلت، رئيس الولايات المتحدة (١٩٠١–١٩١٢).

وحرمتني أخباره. فجاء العزيز سركيس، كأنه رسول العناية إليَّ، يبشِّرني بوجوده في خدمة الملك حسين.

هلَّلت وكبَّرت، وتناولت القلم، وكتبت توًّا كتابًا إلى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مائة سؤال وسؤال، أولها: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخِرها: هل ترافقني أنت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الأول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب، وفيه ما يلي:

اتفق أن وصل كتابك إليَّ وجلالة الملك حسين في جدة، فقرأته له كلمةً كلمة، وتباحثنا مليًّا في الموضوع ... وهو يرحب بك إذا حضرت. ومن رأيه أن لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها، فهو يساعدك على زيارة الحجاز من أقصاه إلى أقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويُطلِعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة إلى اليوم؛ ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوفٍ من جميع أبوابه. ومن رأيه أنك متى درست أخلاق قبائل الحجاز تكون درست أخلاق بقية القبائل؛ لأنهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب ... أما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة؛ لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز ... والسياحة توافق أن تكون في فصل الشتاء، ولا تستغرق أكثر من أربعة أشهر ولو انتهت في بغداد ... وإني بكل سرور أرافقك حيث شئت ... أما الكعبة فلا يُؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للأسباب المعروفة ... والسياحة تكلِّفك لا أقل من خمسمائة جنيه.

في هذه المعلومات يبدو للقارئ شيء من سؤالات سألتها ولم أقف فيها عند حد من التحفُّظ والمداراة. ولا لوم عليَّ وأنا بعيدٌ حقيقةً وعلمًا عن البلاد العربية، إذا استنرتُ بكل ما ينيرني في رحلتي قبل أن أُقدِم عليها. ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة — وأنا مسيحي — يليق بأميركي لا يعرف من العالم غير بلاده، فإذا قيل له إنه لا يُؤذن للمسيحي بالدخول إلى مكة، اعتراه الدهش والعجب.

أما أنا فما دهشت ولا أسفت، بل كنت أعلل النفس بتحقيق أمنيتي بعد أن أقابل جلالة الملك. كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الإصلاحية، ومنقذ العرب الأكبر؟! كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب، والإخاء والمساواة ركنان من أركان النهضة؟! ما أغرب الأحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب، وما أبعدها! لا أظن أن مَن كان قادمًا من القمر أو المريخ يحلم أحلامًا أغرب منها وأعجب.

وفي معلومات قسطنطين مما استُرعِي له نظر القارئ أيضًا قول جلالته: «أن لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها»، ولكنني لم أتقيَّد بهذا القول لأني كنت أعرف في الأقل أوليات الجغرافية العربية، وأتأكد أن «مَن يزور الحجاز من أقصاه إلى أقصاه»، لا يكون قد زار البلاد العربية كلها، ولا جزءًا كبيرًا منها. وهناك غير ما تقدَّم من المعلومات التي عرفت فيما بعدُ القصدَ السياسي فيها. وما كان صديقي غير ناقل في أكثرها كلامَ جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر أن أَزُور غير الحجاز. وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن وعسير مثلًا بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات. وتأكَّد مثلي

أن مَن يحصر زيارته بالحجاز لا يستطيع أن يؤلّف كتابًا عن العرب مستوفيًا من جميع أبوابه. وأدرك بعد رحلتنا الأولى من جدة إلى عدن بأن نفقات السياحة ستكون ضِعف ما ذكر، وأن مدتها قد تتجاوز السنة، ولا سيما إذا تمكّنت من السياحة في نجد. وما كانت زيارة الرياض وابن سعود بالأمر المستحيل. على أنني إذا ما ذكرتها الآن أضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها إلى الملك حسين.

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من أمراء العرب غير الحسين بن علي، وكلهم ملوك — وإن اختلفت الألقاب — مستقلُّون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصيًّا بعضهم بعضًا. فإننا إذا استثنينا الملك حسينًا، وابنه الملك فيصلًا، قد لا نجد بينهم مَن يعرف زميله الملكي معرفةً شخصية خاصة، أو يعرف من الأقطار العربية معرفةً حقيقية تامة غير القُطر الذي هو حاكِمه.

وليس في ملوك العرب اليومَ ملكٌ ساح في البلاد العربية كلها، وليس فيهم مَن يستطيع أن يقول: إنني أعرف بلاد العرب، وحكّامها، وسكانها، وقبائلها، وأحوالها الاقتصادية، والزراعية، وشئونها السياسية الداخلية والخارجية مما لديَّ من تقارير العارفين، وأخبار المنزَّهين عن الأغراض السياسية، والتحزُّبات المذهبية. ولا أستثني من هذا القول الملك حسينًا، أو الإمام يحيى، أو السلطان عبد العزيز آل سعود.

قد يكون الملك حسين أكثرهم علمًا بأحوال سكان البلاد من بدو وحضر، وبمذاهبهم، ونزعاتهم، ونعراتهم، وعداواتهم، وسياسة أمرائهم؛ لأن مركزه المشرف بالكعبة التي يحجُّها المسلمون من البلاد العربية كافة، بل من أقطار العالم الأربعة، يساعده على ذلك. وقد يعرف من أحوال جارَيْه الإدريسي وابن سعود ما يستطيع أن يستند إليه فينفعه في سياسته الحجازية، ولا ينفعه — بل قد يضره — في سياسته العربية. أريد بذلك أن علمه، وإن تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير، وما يستطيع كلٌّ من حاكِمَيْها أن يجنّد من الناس، ويجمع من المال، ومَن لهم النفوذ الأكبر في بلاديهما؛ فلا يصل ذاك العلم إلى عقلية الإدريسي مثلًا، أو إلى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية. إن لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتَين لا ثالثة لهما؛ صورة تجسّم نبوغه فلا يُكترَث بها، وصورة تنفي ذاك النبوغ فيُعوَّل عليها، فكيف السبيل مع هذا الجهل إلى التفاهم والولاء؟

أما الإمام يحيى فلا شك أنه يعرف — وهو العالِم الأكبر في أمراء العرب — أقطارَ اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز، معرفةً حقيقية تامة، ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها، وحقيقة حال أهلها من بدو وحضر، أو أنه لا يكترث بذلك. ولا شك أن السلطان عبد العزيز أكثر ملوك العرب علمًا بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشام، وفي مسقط وعُمان وما يليهما، ولكنه قلَّما يكترث إذا ذُكِر اليمن في غير السياسة. فإذا حدَّثته عن عادات أهل ذاك القطر القديم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، فكأنك تحدِّثه عن شعب ليس بعربي؛ فيتفكّه ويستفيد.

لستُ مبالِغًا إذا قلت أنْ ليس في البلاد العربية اليومَ رجلٌ واحد يعرف البلاد العربية كلها، وليس في العالم اليومَ – ويا للأسف – مَن يحيط علمًا بهذه الأقطار وبشئونها جمعاء، بحكامها وقبائلها، وزراعتها وتجارتها، وخراجها وحروبها، ومشايخها وأمرائها، بكل ما يختص بأمورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة البريطانية، أو بالحري وزارة المستعمرات فيها؛ فهي تُصدِر كتابًا عن البلاد العربية[1] مبنيًّا على وكلائها السياسيين، والسياح العلماء، تصحّحه وتعيد طبعه كلَّ بضع سنوات. وهو مع ذلك لا يخلو من الأغلاط إذا نظر فيما يختص بكل قُطر منه ابنُ القُطر العالِمِ بشئونه كلها. زِدْ على ذلك أن الكتاب لا يُنشر للعموم، وقلَّما يُرى خارج الدوائر الرسمية.

ولا أظن أن من وظيفة الحكومة البريطانية أو من واجباتها، فضلًا عن ميلها ومصلحتها، أن تعرِّف ملوك العرب بعضهم إلى بعض، أو أن تُطلِعهم على أحوال الأقطار العربية كلها، ولا أظن أن أحدًا من أبناء العرب يستطيع أن يقوم بهذا الواجب دون أن يرحل الرحلة التي قمت بها.

فها أنا إذن في هذا الكتاب، ولا فخر ولا اعتذار، أعرِّف سادتي ملوك العرب بعضهم إلى بعض، تعريفًا يتجاوز الرسميات والسطحيات، وليتحقَّق سادتي أنْ ليس في الثناء فيما كتبتُ تزلُّف أو مُداهَنة، ولا في النقد تشيُّع أو تحامُل، إنما غايتي القصوى تمهيد السبيل إلى التفاهم المؤسَّس على العلم والخبر اليقين.

كان قصدي الأول عندما سافرت من نيويورك أن أسيح في الحجاز واليمن ونجد، لعلمي أن في هذه الأقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة، ففي اليمن قحطان، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان؛ أيْ مُضَر وربيعة.

ولكن المشاهَدات الأولى غيَّرت من قصدي، فشذَّبت ونقَّحت فيه، حتى أصبح يشتمل على جميع شبه الجزيرة.

أما الحجاز، وإن كان من أصغر أقطار الجزيرة مساحةً، وأقلها سكانًا، فهو أهمها مركزًا، وأولها في السياسة الدولية مقامًا، وقد صار بفضل جلالة الملك محطَّ رحالِ الوطنيين المجاهدين في سبيل الوحدة العربية؛ فقلَّ مَن لا يعرف شيئًا عنه. الحجاز كتاب مفتوح، وأهمُّ ما في الكتاب اليومَ بعد الحرمين هو الفصل الذي عنوانه: «الملك حسين، النهضة العربية»؛ فقد اكتفيتُ بهذا الفصل، وولَّيت وجهي الأقطار الأخرى أبغي زيارتها كلها.

ولكني لم أتوفق إلى ذلك. أزمعت السفر إلى حضرموت عندما كنت في عدن، فاجتمعت وأنا في بيت شركة البواخر الهندية بربَّان البويخرة التي سافرت فيها إلى جيزان. وكانت هذه المرة تقصد مكلَّا ميناء

[1] Manual of Arabia هو كتاب تاريخي إحصائي جغرافي سياسي في البلاد العربية، تطبعه وزارة المستعمرات، وتوزِّعه على الوكلاء السياسيين والسفراء والقناصل لدولة بريطانيا فقط.

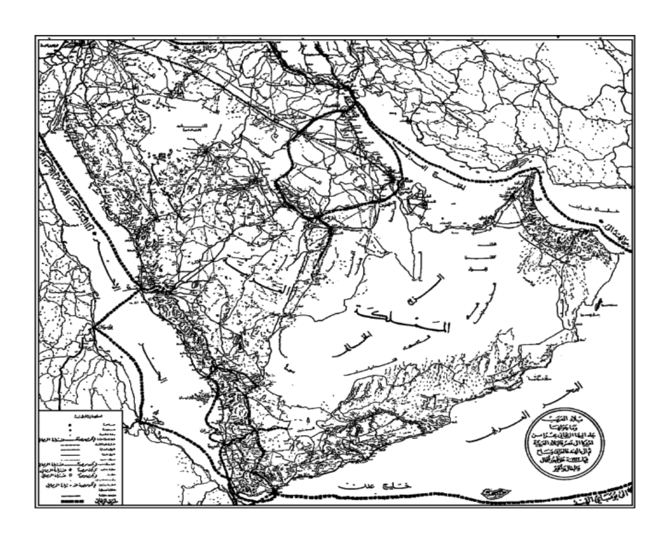
حضرموت، فقلت للربّان: إني معك ثانية. فضحك، وقال: لا أظنك تهوى الحياة! فقلت: وأي خطر على الحياة في بحر العرب، وفي فصل الصيف؟ فأجاب الملّاح الإنكليزي: هو فصل الموت، فصل الـ «منصون»[١].

ثم قال: وليس لمكلّا ميناء نرسو فيه، وقد لا تسمح الأنواء بالرسو في عُرْض البحر، وأنت تعرف باخرتي، عرفتها في هدأة البحر الأحمر، فكيف في حضرموت؟! اقبل نصيحتي ... إلخ.

فانتصحت آسِفًا. فجاء هذا الكتاب، وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت أخذته عن رجال من ذاك القطر، اجتمعت بهم في عدن والحديدة. وهذا بعض نقصٍ في كتابي.

أمَّا مسقط، وهو أول بلد في شبه الجزيرة دخله الأوروبيون والأميركيون[٢]، فلِظَنّي أن العروبة فسدت فيه لم أعرِّج عليه، وما ملت إليه. وقد أكون مخطئًا فأتوفق في المستقبل إلى تلافي هذا النقص الآخَر في الكتاب.

وهناك عمان وقطر، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوبًا إلى مسقط، وفيها أربع أو خمس «مشيخات» مستقلة. فما عذري فيها؟ أجيب بكلمة واحدة: العجز.



[١] المنصون Monsoon ريح تهبُّ في أشهر الصيف من الجنوب الغربي، وتجري في بحرَي الهند والعرب شرقًا لشمال، فتحمل الأمطار إلى الهند وجنوبي اليمن. وهي ريحٌ صرصرٌ شبيهة بريح السموم في الصحراء، تشتد منها الأنواء في الأوقيانوس الهندي والبحر العربي اشتدادًا يروع حتى الملّاحين.

[٢] في ٢١ أيلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها الخصوصي أدمون ربرتس Edmund Roberts معاهدةً ودية تجارية مع سلطان مسقط سعود بن سويد.

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتويًا إلى حدٍّ يخشى مع الزيادة الاستسقاء، أو بالأحرى أمسيت وذهني ونفسي كالإسفنجة، وقد امتلأت ماءً فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة. وما رأيت، وأنا في البحرين، أن أزور تلك «المشيخات» في عمان قبل أن أزور سلطان نجد في الرياض. فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت، ولكنني لا أزال أعلِّل النفس بما فات.

بقي ذاك القُطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة، سياسة «بعد الحرب»، وأمَّرت عليه النجل الثاني من أنجال الملك حسين الأمير عبد الله، فما تلك الإمارة في اعتقادي من الإمارات العربية الثابتة الدائمة. قد لا تزول في عهد أميرها الأول، وقد يكون أميرها الأول الحامل غدًا لواءَ الاتحاد إلى ما وراء الأردن، أو إلى ما دون العقبة وتبوك. أما إذا فازت سياسة التقسيم، وثبتت إمارة شرقي الأردن، فالعذر سلفًا إلى سموِّ أميرها، والتفكير ولو مؤخرًا إذا أبقانا الله وإياه على مسرح الحياة.

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصًا والإسلام عمومًا، والتي تهم الأوروبيين عمومًا، والإنكليز خصوصًا، يجدها القارئ في مكانها من البحث. أما الذين لا تهمهم السياسة بقدرِ ما يهمهم العلم والأدب والأسفار، فقد خصصتُهم بقسمٍ مما كتبت.

وليس في الكتاب – أدبًا كان أو سياسة، وصفًا أو نقدًا – إلا الحقيقة غير المجردة؛ لأن في التجرُّد، في العري، شيئًا من سوء الأدب، ولا سيما إذا كان المجرِّد والمجرَّد في الغُربة. ولا ينسى القارئ أني جئت إلى البلاد العربية من أرضٍ قصيَّة، يكثر فيها التجرُّد حقيقةً ومعنى. ثم سِحتُ في بعض أرض الهند حيث يستشعر الناس الهواء، ولا يلبسون أحيانًا غير نسيج من الشمس والغبار؛ فسئمت التجرُّد ولكنني لا أخفي الحقيقة فيما ألبسها، وكأنني بالقارئ يقول: إن في احتجاجك على العُري شيئًا من الدهاء. فأعتذر إليه فيما قد يُعدُّ مُكابرَة إذا اعترفتُ بالذنب. نعم، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعة التي ينددّ بها أرباب الدين على الدوام، وتمارسها على الدوام النساء.

وما الضرر في اليسير من المساحيق والألوان، وفي المهلهل المطرَّز من الكساء؟ إذا كانت الحقيقة المجرَّدة جميلةً فهي في ثوبها المهلهل أجمل. وإذا كانت تؤلم، فهي في زينتها أدعى إلى الألم والحزن. إلا أنها في كل حال لا تجالس التعصُّب، ولا تدنو من التشيُّع والتشنيع، فمن هذه الوجهة لك أن تحسبها مجردة كل التجرُّد.

وقد تجيء في بعض الأماكن ناقصة أو مخطئة، شأن كثير من الأمور والأفكار البشرية؛ ذلك لأن النقص في كل ما يُرى ويُدرَك موجود، والخطأ لا يُستدرك كله. فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي، ولا عُذرَ مع جهد تناهى.

على أني متيقِّن أن كل مَن يطالع الكتابَ من الناطقين بالضاد مهما يكن علمه في البلاد العربية وأهلها، يجد فيه بعض الجديد المفيد. ولإخواني الأدباء خاصة، في سوريا كانوا أو في مصر وأميركا، أقول:

تعالوا سِيحوا معي، فتعودوا إلى ما أبعدكم عنه التفرنُج والتأمرُك، إلى حقائقَ لمسنا ظلَّها في آداب العرب القديمة، وإلى حقائقَ أنستنا إياها الأيام والغُربة، وإلى حقائقَ يجهلها كثيرون حتى من العرب أنفسهم، وإلى حقائقَ ننقلها عن علماء الإفرنج ملتويةً مشوَّهة.

تعالوا سِيحوا معي فتعودوا إلى بلاد عجيبة على فقرها، وإلى شعبٍ كريم على آفاته، وإلى أمة حرَّة أبِيَّة على ذنوبها. أيها الإخوان الأدباء، إن في أكثر المدارس السورية روحًا أجنبيًّا من شأنه أن يُبعِد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان. ولو استطاع لأبعَدَهم كذلك عن اللسان — لَقتلَ فيهم حبَّ اللغة العربية. وفي البلادِ اليومَ سياسةٌ توسِّع الثلمةَ بيننا وبين العرب وبلادهم. أنظل دائمًا حيث كنا مدةَ خمسين سنة؟

إن البغض والخوف توءما الجهل، ومن المجهل ما يولد الحب والإعجاب. وإن الروح الذي يسعى في إبعادنا عن العرب لا يفلح — إن شاء الله — في مسعاه؛ فقد بددت الأيام والأوهام التي صوَّرت لنا الكمالَ كله في الأمم الأجنبية، وعسى أن هذا الكتاب يبدِّد الأوهامَ التي صوَّرت لنا «البعبع» في العرب.

أمين الريحاني

الفريكة، لبنان، في ٢٧ أيار سنة ١٩٢٤ و٢٣ شوال سنة ١٣٤٣

الملك حسين بن علي



جلالة الملك حسين بن علي

(١) الحجاز

- **حدوده**: يحد شمالًا العقبة وإمارة شرقي الأردن، جنوبًا القنفذة وجبال عسير، غربًا البحر الأحمر، أما شرقًا فحدوده مختلف عليها وغير واضحة.
- **عدد سكانه**: نحو ثلاثمائة ألف، وأكثرهم من البدو.
- **مساحته**: نحو خمسة وسبعين ألف ميل مربع.
- **أهم قبائله**: حرب، وعتيبة، وجهينة، والحويطات، وبنو ثقيف، وبنو سفيان.
- **الأشراف**: العبادلة (ومنهم البيت المالك)، وذوو حسن، وقريش.
- **أهم مدنه**: في الداخل: مكة، والمدينة، والطائف. وعلى البحر: جدة، وينبع، والوجه.

- **مذاهبه**: السنة: حنفيُّون وشوافع. والشيعة: جعفريُّون وزيديُّون.

(٢) البدو والحضر

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطئتُ لأول مرة أرضًا في شبه الجزيرة العربية، وقابلتُ ملكًا ما عرف العربُ غيرَه من ملوك العرب. جئت من نيويورك أزوره وفي قلبي بعض التردُّد مما تصوَّرته في رسمه الذي نشرته الجرائد، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسَّمهما لديه صديقان لي في خدمة جلالته، هما قسطنطين يني والشيخ فؤاد الخطيب. وقد اجتمعنا في جدة يومَ وصلت إليها، وكانت أولى دهشاتي فيها أن محافظ المدينة الذي تفضَّل فلاقاني على الرصيف بلَّغَ جلالة الملك بالهاتف خبر وصولي.

الهاتف في مكة المكرمة! ولكنه مستعرَب تمامًا، فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها آلو آلو، الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغةٍ عربية لا رطانةَ البتة فيها.

– مركز، أعطني مكة.

لا إبطاء، ولا تسويف، ولا مشاتمة.

– مكة، محافِظ جدة يتكلم. الديوان. خير. قُل لجلالة الملك ...

خير ... خير ... أبشِر.

ثم كلمني المحافظ قائلًا: سيدنا لم يتأكَّد قدومَكم في هذه الباخرة؛ لذلك لم ينزل لملاقاتكم، ولكنه يجيء اليوم.

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول: سيدنا دخل البلد. ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع، فسارعنا إلى باب القصر ننتظر قدوم جلالته، وكان قد اجتمع هناك نفر من أعيان جدة وعلمائها.

وقفتْ أمام الباب سيارة فخمة، فخرج منها ناظر الخارجية، ثم ناظر المالية، ثم الأمير زيد، ثم الملك حسين.

صافحته مسلِّمًا سلامًا عربيًّا: حيا الله مولاي بالخير. ولا أذكر بأية كلمة حياني. ولكنني لا أنسى أننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لأسير إلى جانبه.

دخلنا رَدهة الاستقبال في الطابق الثاني، وهي طويلة تشرف على البحر غربًا وشمالًا، وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت، بيت الضيافة، الذي أُنزِلت فيه. إن البساطة لتدنو في القصر من التقشف، فتبدو في السجاد العادي، وكراسي الخيزران، والدواوين المغطَّاة بقماش من القطن، والجدران العادية الخالية حتى من

الآيات، كأنها تتنازل إلى شيء من المدنية إكرامًا للزائرين الأجانب فقط ... ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الأميركية. وهناك مظاهر أخرى في ظاهر صاحب الجلالة؛ أيْ في حديثه، وفي لبسه، وفي إكرامه الضيف.

من عادة المصوِّرين أنهم بصناعتهم يحسِّنون في بعض الأحايين صور الناس، ويظهر عفوًا في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم. أما رسم الملك حسين الذي نُشر في أوروبا وأميركا أثناء الحرب فهو لا يشبهه، ولا يمثِّل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها شيء من الغم، ومن الجلال المقرون باللطف، وليس فيه تصنُّع واعتناء.

كانت دهشتي الثانية أني اجتمعت بمليك كنت أظنه من رسمه رجلًا قطوبًا، جافًّا قاسيًا، فكذَّب ذلك الرسمَ الوجهُ منه والحديث. أجل، إن في محيَّا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم أشاهد مثله في غيره من ملوك العرب، بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأديب الغربي. ولا غرو، وهو من بني نُمي من سلالة الرسول، وقد أقام عشرين سنة في الأستانة. إن في وجهه كما في حديثه إذن عنصرَين من الأنس والكياسة مما غابا — ويا للعجب — في رسمه، الأول أخلاقي نبوي، والثاني اجتماعي اكتسابي؛ فهو رقيق الأديم صافيه، عدل الأنف دقيقه، له جبين رفيع وضَّاح، يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة. وفي ناظرَيْه نور يشعُّ من حدقتَين عسليتَين تحيط بهما هالة زرقاء. وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفتُ أجذبَ منها للقلوب غير ابتسامةِ خصمِه ابن سعود السلطان عبد العزيز.

أما صوته فألطف من النور في عينيه، وأما أنامله فإن فيها دليلًا أفصح وأصدق مما في كتب الأنساب على طيب الأَرُومة، والشرف الأثيل. وقد كبرت هذه المحاسن في نظري؛ لأنها عارية من مظاهر الأبَّهة والجلال. فإنك لا تميز الملك عن أحد مشايخ العرب إذا كان مسافرًا، لولا عقال من الحرير أصفر فوق كوفية أخف اصفرارًا منه. وهذا العقال إرثٌ ثمين، وهو عقال بني نُمي، عقال بيت الشريف، بل تاج الملك فيه. وإذا اعتمَّ الملك فلا ترى فرقًا بينه وبين أحد الأعيان أو العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء. هاك في القيافة مظهرًا من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وأمرائها.

جلس الملك في زاوية من الديوان، وأشار إلى يمينه فجلست، وفيَّ بعض الحياء من التصدر في حضرته. ثم دخل أعيان جدة، وكبارها مسلِّمين على صاحب الجلالة، المنقذ الأكبر، مهنِّئيه بقدومه السعيد، فانتهت في سلوكهم الديمقراطية. وغدوت حائرًا لا أدري أيبتدئ في الحجاز التترُّك في البلاد العربية أم ينتهي؟!

دخل عرب المدينة، عرب جدة، مطأطئين الرءوس، مكتفين، صامتين، خاشعين. فكان الواحد منهم يقبِّل يد الملك مرة، والآخَر مرتين، والآخَر ثلاث مرات. ومنهم مَن قبَّل منها الكف والظهر، ومنهم مَن زاد على ذلك فقبَّل الركبة الملكية، وكان جلالته يأذن بذلك، ويقبِّل بعض الزائرين في وجوههم، وقد يسحب

يده مانعًا مَن هم أرفع مقامًا من الجميع؛ أي الأشراف العبادلة، وهم أقارب الملك الأدنوْنَ.

إن التقبيل درجات إذن في الاحترام وفي العبودية، وكلٌ من المقبِّلين والمقبَّلين يعرف مقامه فلا يتعدَّاه، ولا يخجل من أن يعرفه سواه. أجل، إن بين مَن يقبل ركبة الملك، ومَن يقبّله الملكُ في جبينه، أو يمنع عنه يده، بَوْنًا شاسعًا في المقامات لا يخفى على أحد من الناس. وإذا خفي على عرب البادية، على البدو؛ فلأنهم لا يفهمون هذه الرسميات، أو لا يكترثون بها.

يجيء البدوي إلى البلد فيقف تحت نافذة القصر، وينادي «يا بو علي»، وهو سامد الرأس، صريح الكلمة، لهجته لهجة الاكتفاء والقرناء، قل هي لهجة أبناء القفار. والملك حسين يَقبَلها كما يَقبَل قبلة الاحترام والإجلال من المتمدنين المتزكين، بل يَقبَل فروضَ العبودية من الحضر باشًّا كما يَقبَل هاشًّا من البدو خشونة الحرية، ولا يتغيَّر في الحالَين، ولا يأمر بتهذيب هذا أو بتثقيف ذاك. أيدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي؟ هو أعلم مني ومنك بأمور مُلكه وبدعائم السيادة فيه.

إن الحضري عادةً تاجر، والبدوي غالبًا مقاتل، والاثنان لازمان، فنأخذ من الأول لنعطي الثاني، ونذلُّ الأول أحيانًا لنتمكَّن من الأخذ والعطاء، ولا سيما إذا كان الثاني خشنَ الخُلق، صعبَ الشكيمة، ويحمل فوق ذلك البندقية. والبدوي لا يفهم غير لغتين: لغة الدينار، ولغة السلاح، بل لغة القوة التي تتمثَّل في سلاح أمضى من سلاحه، وساعِدٍ أشدَّ من ساعِده. أما جلالة الملك حسين، فلسوء الحظ لا يُحسِن في معامَلة البدوِ اليومَ غير لغة واحدة هي لغة الدينار.

«البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء، ولكنهم صادقون». أقول: صادقون. وهم يرعَوْن العهود.

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر، بل فيه باب للريب فسيح. إلا أنه أراد كما علمت بعدئذٍ غمزَ قناة الإنكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم، وقد عاد إلى هذا الموضوع مرارًا في المقابَلات التالية. إنه في أحاديثه السياسية كثيرُ الألغاز والرموز، قلَّما يصرِّح بفكره، وقلَّما يشرِّف عدوه بذِكْره. ولكنه في الجلسة الأولى لمس من الموضوع أطرافه، واستعاض عن البحث بذكر الآيات، ورواية الأشعار، وهو شغف بالأولى، وله حافظة لا تزال على سنِّه قويةً.

كان الكلام في العرب والإسلام، وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية أو بحديث شريف أو ببيت من الشعر: «مَن أعزَّ العرب أعزَّ الإسلام»، «اعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا»، «الإسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير مَن اعتدى عليه»، «لا نحارب إلا دفاعًا عن أنفسنا». أقول: «دفاعًا عن أنفسنا. الإسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة، وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات، حبذا السوريون لو جاءوا من أميركا، وأقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون. أقول: ويسعدون؛ فيساعدوننا في تشييد المُلك العربي، وتعزيز الوَحْدة العربية».

وكنت قد رفعت إلى جلالته سلامَ إخوانٍ لي في نيويورك، وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر.

«نحن نشكركم على هذه الزيارة، ونكبرها منكم؛ فقد جئتم من أقاصي البلاد وأعظمها – أقول: وأعظمها – إلى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة، ولكنكم جئتم تلبُّون دعوة القلب. سمعتم – يا حضرة النجيب – صوتَ الضمير، عدتم بعد هجرة طويلة إلى الأصل، بارك الله فيكم».

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوتٌ تضيع عنده الكلمة، فيعيدها مُثبتًا ممكِّنًا – أقول يا حضرة النجيب –كذلك يتكلم.

وكان أعيان جدة وكبارها جالسين على الدواوين، وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين، لا يُفصِح عن حالهم غير السكوت والخشوع. ثم نهضوا مستأذنين، وقبَّلوا يد الجلالة مودِّعين، كما قبَّلوها مسلِّمين. فنهضت على إثرهم، فأشار جلالته تلطُّفًا أنِ اجلس. فعدت إلى مكاني، ثم قال، والاعتذار في صوته وكلامه، صحيح فصحيح: «إن حياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت يا أيها العزيز، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة ...» فحاولت أن أباريه في هذا الميدان، فذكرت التنازُل الجميل في مجيئه من مكَّة ليقابلني، فأسكتني بإشارة من يده، وأفحمني، بل زادني خجلًا وعيًّا، إذ قال: «ألَا نقطع فرسخًا لنلاقي مَن قطَعَ البحار وتجشَّمَ الأخطار في زيارتنا؟!».

(٣) من الضبِّ إلى الطبِّ

إن الملك حسينًا ليعتقد بمبدأ التبادل في المحامد والواجبات، إن كان في السياسة أو في الاجتماع. وعنده من الدين على ذلك براهين. لقد أمرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة؛ هذا هو التبادل بالمحامد والواجبات. وقد أخذ الإنكليز منا عهدًا بالقتال فأقمنا على العهد، وقطعوا لنا عهدًا بالاستقلال والوَحْدة العربية، ولكنهم – ويا للأسف – نقضوا العهود.

عندما يذكر جلالته الإنكليز يستحوذ عليه الحنق والغمُّ، فينادي أحد نظَّاره، الناظر الحضرمي، ويكون قد دبَّر له حيلةً للتسلية، أو مفزعة ينشرح لها صدره. والناظر الحضرمي ضعيف العصب، سريع التأثر من غريب الحركات والأصوات، شديد الخوف من الحشرات والزحافات، وفي المبادهات. وبكلمة صريحة هو جبان؛ الجبان الأول في الديوان الهاشمي، أما الثاني فهو الناظر الشاعر؛ إذ كل شاعر في رأي جلالته جبان.

أما الملك حسين فلا الأصوات ولا الخيالات، ولا «بعبع» السياسات، يُحدِث فيه ما يُعَدُّ عيبًا في الرجال. إنه لَشديد البأس ثابت الجنان. يومَ ضربَ الأتراكُ مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت لا يبالي. أما الأتراك فهم في نظره مثل الحشرات والزحافات التي يرثي لحالها ويستخدمها أحيانًا لترويع الناس. فقد علمت أنه شغفٌ بها ويدرس أخلاقها وعاداتها. وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته؛ لأنها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدِّد الهموم الملكية، وتذبح الغمَّ الأكبر الذي يتولَّاه لمجرد ذكر الإنكليز.

جاءني أحد عبيده ذات ليلة يقول: سيدنا يبغيك. فأسرعت إليه، فإذا بقنصل بريطانيا هناك. وبعد أن حدَّثنا ساعة عن الإبل والأهوية في الحجاز، وعن البدو وعاداتهم، سألني قائلًا: «أتعرف أيها العزيزُ الضَّبَّ؟» فقلت: في الكتب فقط يا مولاي. فقال: «سنريك الضبَّ حتى إذا كتبتَ عنه تُحسِن الوصف». وضرب كفًّا على كفٍّ، فحضر عبد من العبيد: «هات الضب».

نظرت إلى القنصل وكان ينظر إليَّ، كأنْ قد خطر بباله ما خطر ببالي، فتبادَلنا ابتسامة فيها الدهش والإعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالته أستاذًا في التاريخ الطبيعي والحيوان.

دخل العبد وبيده حيوانٌ شبيه بالحرباء، فأخذه الملك منه ووضعه على الديوان بينه وبيني.

«هذا يا حضرة الفاضل الضب، وهذا ذَنَب الضبِّ». قال ذلك وهو يربِّته بيده. ««أعقد من ذَنَب الضب». ترى أن المثل صادق، وذنبه هو سيفه ودرعه».

قال القنصل: إنه يشبه الحرباء، وأظنه هو بعينه. فترجمتُ كلامَه لجلالة الملك فقال: «الحرباء غير الضب، والفرقُ البيّن في الذَّنَب».

ثم أومأ إلى القنصل أنْ تقدَّمْ وافحصْه، فنهض ودنا من الضب، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي، وضغط عليها؛ فبدَتْ في وجه القنصل علائمُ الألم، فضحك جلالته، واستأنف الحديث: «هذا ضب صغير يا حضرة القنصل، وقد رأيت منه ما يزيد طوله عن الباع، كأنه ضبُّ السياسة. والذنب —كما ترى — هو نصفُ جسمه، إذا ضرب به أدمى، فقد يقتل خصمه بضربتين. أقول: بضربتين. أما هذا الصغير فلا شرَّ فيه يُتَّقَى، ولا خير يُرجَى».

دخل إذ ذاك الحاجب ينبئ بقدوم الناظر الحضرميِّ.

فقال الملك: «بلى بلى، فيه خير (أيْ في الضب)، وهو يواري الحيوان تحت جبته».

دخل صاحب الإقبال الناظر الحضرمي، فأشار الملك إلى مجلس قريب منه، وما كاد يتبوَّءُه حتى مُدت إليه يد الجلالة، وصاحبها هادئ البال، وفيها الضب، وضعته في حرج الناظر المسكين، فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب، ووثب على الديوان وثبةً جاب فيها الباب، واصطدم بالحاجب هناك؛ فقهقه الملك وكاد يستلقي، وضحكنا كلنا ضحك الصبيان، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالسًا متكتفًا على عادته، وقد كان يحاول إخفاء سروره في ابتسامة قيَّدها التأدب. ولكن صيحة الحضرمي ووثبته فكَّتا منا القيود، فتساوى في فترةٍ بهيجةٍ الملكُ والشاعر والعبد المملوك. إلا أن جلالته كان أول مَن ثاب إلى الرَّزانة، فخاطب الشاعر موبِّخًا: لا حق لك أنت بالضحك، لا حق لك حتى تركب الطائرة أو في الأقل الخيل. والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثنين خوفَ زميله الحضرمي من الحية والضَّبِّ.

عندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل: هي ألذُّ ساعة قضيتها مع جلالته، وهو في غير موضوع السياسة أفصحُ المحدِّثين وألطف الجلساء. فظننت ذلك من مثله جورًا في الحكم، ولكني علمت بعدئذٍ ما يقاسيه الوكيل البريطاني في جدة من فك ألغاز الديوان الهاشمي، وكشف الستار عن رموزه، وخبرتُ بنفسي أثناء إقامتي هناك ما لجلالته من القوة في التعقيد، والبراعة في التورية والإبهام، بل هو يطوف حول نقطة سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها، فيدنو منها اضطرارًا في بعض الأحايين، ثم يبعد عنها منقلبًا مسرعًا، وجليسه — وهو يعدو مباريًا، وقد اعتراه من التطْواف الدُّوار — يدق رأسه بالحائط أو يصطدم بباب في هيكل الأسرار، فيتلفت ليرى أين هو من صاحب الجلالة فيراه — وا أسفاه! — بعيدًا، ويقف خجلًا مبهوتًا لا يدري ما يقول. والمصيبة في السكوت مثلها في النطق؛ فإذا قال: فهمت يا مولاي. كان من المجاملين، وإذا سكت ظُن سكوته استهجانًا، فيهزُّ رأسه تخلصًا من الاثنين، وينتظر الفرج من غوامض الحكمة في بوارق الختمة.

وطالما استمالتني إشارة مولاي اللطيفة، فملت بعقولي إلى السر في يديه وفي ناظريه، وكنت كالمسحور في فيضٍ من المغناطيس يسيل من أنامله ومن نظراته. وما السياسة، وما الحقائق، وما الحكمة كلها، عند سحر ينسيك شقشقات الناس، وخزعبلات الأمم؟!

أجل، إن لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية، والغوامض السياسية، وقفات في حديثه تُزري بالفصاحة والبيان، وإشارات تفكُّ طلاسم الكهَّان، ونظرات تقيِّد منك العقل والجنان. يبسط يدَيه إشباعًا إذا أحسَّ من نفسه أنه أفحمك، ويضمُّهما إلى صدره تلطفًا إذا توقَّع منك جوابًا، ويعالج عقاله أو يحرِّك عمامته إذا رأى منك فتورًا أو إدبارًا، ويغيِّر جلسته على الديوان إذا أوجس فيك الملل. فماذا تهمك معانيه ومقاصده، وهو أمامك السحر الحلال مجسَّدًا!

كنت أغتنم الفرصة عندما يفك حبوته أو يعقدها، فأسأله سؤالًا لا علاقة له بالموضوع، ملتمسًا لفعلتي العذرَ في حب العلم، وفي السياحة من أجله: «نعم أيها العزيز، الباقي من قريش قُربَ خمسة آلاف، وهم ثلاثة أقسام: قريش الأعاضيد، وقريش الغَميس، وقريش الطائف. ولا يزال بينهم وبين السلالة النبوية كثير من الحس والعطف ... أما بنو سعد، وهم الذين أرضعوا النبي، فديرتهم قربَ الطائف، وفيهم بيت يُحسِن أهلُه الجراحة، ويتوارثونها بعضهم عن بعض ... هل تعلم يا حضرة النجيب أن الحُمَّى تُداوَى بالكَيِّ؟ بنو سعد الجرَّاحون يداوونها بالكَي».

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه؛ إذ إنه مرض مرةً بالحُمى، واكتوى فأراني أثرَ الكَيَّيْن؛ واحد في زنده الأيمن، والآخَر في ساقه اليسرى.

«السر في مكان الكي؛ فهم يختارون أماكن في الجسم تتصل بالأعصاب التي تنتهي بمجموعها عند

موضع المرض؛ لذلك لا يتركون الكي مفتوحًا ليخرج منه الصديد، كما يفعل غيرهم، بل يختمونه حالًا بشيء من الملح، أقول: بشيء من الملح، يذرونه عليه».

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على ألم، فسألني عنها فأخبرته، فقال: «وقد يشفيك الله بواسطة طبيبٍ من بني سعد». وبعد يوم وصل الطبيب من مكة. جاء بأمر جلالته يداويني، فسألني ثلاثة سؤالات فقط، ولم يفحصني والحمد لله فحصًا طبيًّا، ثم قال: لا ينفعك الكي. سخِّن السمن، وخذ الثوم دقَّه، وامزجه فيه، وادهن ثلاث مرات كلَّ يوم، وستشفى بإذن الله تعالى، وتذكَّرْني بالخير. قال هذا وودَّع وانصرف.

وها إني أذكرك يا أخا العرب، يا راعي الأباعر، ويا طبيب الملوك، يا خير مَن قابلته في حياتي من الأطباء، وسأذكر دائمًا تلك البساطة فيك، وذاك النور في ناظرَيك، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك. وسأذكر كذلك أنك لم تصِفْ لي ما هو أصل علاجاتك كلها كما يفعل الأخصائيون في البلدان المتمدنة، بل أشركت مع علاجك الله، فكنت أكبرَ الحكماء، وأصدق الأطباء. سأذكرك دائمًا يا راعي الأباعر، ويا طبيب الملوك؛ لأني كلما ذكرتك أنسى آلامي، وهذا لعمري خيرُ علاجٍ وأنجعُ دواء.

(٤) الإبداع في الإصلاح

إن لجلالة الحسين طريقة في الإصلاح تختلف مبدئيًّا عن طريقة عمه الشهير عون الرفيق الذي حمل مرةً على الأولياء، وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم. أما جلالة الملك إذا حافظ على تقاليد فيها بقية، أو ليس فيها شيء من الخير، يسعى هادئًا، ويتخذ ألطفَ الأساليب في إصلاحها أو إبطالها.

من مظاهر الحج العجيبة — مثلًا — أن بعض الحجَّاج من الهند، لشدة إيمانهم وتفجُّر بركان اجتهادهم، كانوا يرمون بأنفسهم في بئر زمزم تبرُّكًا واستغفارًا، واعتقادًا منهم أنها أسرع وأسلم طريق إلى الجنة. فلم يقل الملك حسين إن هذا غلو في الدين، ولكنه أمر بوضع شبك من الحديد على فم البئر، فقطع بها الطريق القصيرة — المقربة في لغة أهل اليمن — على المستشهدين.

ولعله يقبل اقتراحَ أحد رجاله المجنونين بالمشاريع الاقتصادية جنونَ أولئك الحجاج بالدين؛ فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتُباع للحجيج. ماء مقدس ومعدني معًا! إنها لَنعمة تُشكر وتُستثمر، تُستثمر في سبيل الصحة العامة. وقد باشَر جلالته بعض الأمر المتعلق بها.

ليس مَن ينكر أن الأمراض والأوبئة كانت ملازِمة للحجيج في الماضي، إن كان في الأماكن المقدسة، أو في الطريق منها وإليها. وقد أدرك الملك حسين ذلك، واكتشف السبب. إن قُني الماء في منى مكشوفة، والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهمهم المكروب، وهم يدوسونه بأرجلهم، ويرجمونه بالأوساخ، ثم يشربونه ويقضون عليه، للطاهر كل شيء طاهر. والملك حسين كذلك يقول هذا القول، إلا أن الحنفية لا تضر

بالطهارة، وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلَّل. ومَن ذا الذي ينكر في مكة أو خارجها أن الشرب بواسطة الحنفية أسهل منه عبًّا أو صبًّا؟!

عقد الملك النية على أن يحجب عن الحجاج وجه المياه، فأمر بأن تغطى القُني في منى، ثم تُوضع القساطل والحنفيات ليشرب الحجاج منها، وهكذا قضى على المكروب أو كاد، ثم أسَّس مستشفى في مكة[1] مجهَّزًا بالآلات، والأدوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الأوبئة، ومكافحة الأمراض. إنه ليبغي سلامة الحجاج، وصحة العرب قبل كل شيء.

وهناك في جزيرة أبي سعد في مياه جدة محجر صحي يفتخر الملك به، ويلفت إليه نظر الإنكليز قائلًا: «وما الفائدة من محجر الطور، ومحجر قمران، وهذا محجرنا كامل الأجزاء، نظيف الزوايا والأرجاء، ولا يُظلم فيه الحجَّاج، ولا يُغبنون؟! هم أبناؤنا وإخواننا، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم أكثر منا».

قد رافقت جلالة الملك إلى تلك الجزيرة، وكان فيها يومئذٍ مائة ونيف من حجاج جاوا، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها، فعفروا — ولا استعارة — أمامها وجوههم، وقبَّلوا اليد والجبة والركبة والرِّجل الملكية، ثم التراب، ثم بدءوا بالشكوى. وقد علمت أن الماء قليل، وأن الخدَّامين، وعلى رأسهم رجل تركي، يتاجرون به، وأن الطعام رديء، وأثمانه غالية، وأن غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها. أما البيوت التي يقيم فيها الحجاج ثلاثة أيام فهي نظيفة؛ لأنها خالية خاوية، يلعب فيها الهواء على الدوام. وهذه لعمري فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة.

انتهى إلينا يومَ كنتُ في جدةَ خبرُ البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق، وكانت يومئذٍ قد وصلت إلى مصر، فاقترحت على جلالة الملك أن يدعوها لفحص المحجر في جزيرة أبي سعد؛ لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص فيه، فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت، وأمر ناظر الخارجية أن يبعث حالًا بنبأ برقي إلى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بأن يدعو البعثة المذكورة لزيارة المحجر الصحي في جدة، وفحص أسباب

---

[1] جاء في تقرير بعث به إليَّ الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة: أخذنا في توسيع نطاق المستشفى، فجعلنا فيه أربعة أقسام ذات شأن احتوت على مائة وأربعين سريرًا، قسم منها لتمريض الجنود وأفراد الشرطة، وقسم لتمريض الأهالي، وقسم لتمريض النساء، وقسم لتمريض الأطفال. وقد اختص المستشفى الأهلي لتمريض الفقراء المحتاجين. أما عدد الذين حضروا إلى المستشفى في خلال ثلاثة أشهر فهو كما يلي:

- ٣٤٩٥: برَسْم المعاينَة.
- ٣٣٠: برَسْم المعالجَة في المستشفى.
- ٣٩١٧: تغيير القروح.
- ٣٤: الوَفَيات.
- ٢١: عمليات جراحية.

التطهير والصحة فيه، ولا أظن أن جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيرًا.

«تأمَّل يا حضرة النجيب طمع الناس؛ يأخذون من الحجاج في الطور راتبَ تطهيرٍ قَلَّما يفيد، ويأخذون راتبًا في قمران، ويبغون فوق ذلك مدَّ أيديهم إلى أبي سعد لتتم لهم السيادة على الحجَّاج أبنائنا وإخواننا؛ وهذا مستحيل. أقول: مستحيل».

إن من بنود المعاهدة بينه وبين الإنكليز، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس وحداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها، أن يكون لبريطانيا الحق في تعيين أطباء بريطانيين في جزيرة أبي سعد؛ فأبى الملك حسين؛ لظنه أن الإنكليز في طلبهم هذا يبغون أكثر من معاش بعض أطبائهم، وأكثر من السيطرة على الحجاج. وقد لا يكون لهم في الأمرَيْن غرض يُخشَى. إلا أن أساليبهم الحديثة لتدخُّلهم في شئون البلاد، وبسط سيادتهم عليها تشمل الأسباب الصحية، وقد تنحصر أحيانًا بها.

والحق يُقال؛ إن محجر أبي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر إلى محجر الطور في شمال البحر الأحمر، ومحجر قمران في الجنوب منه، فإذا أمر الملك بإقفال أبي سعد يقفل بابَ الصحة الوهمي الذي يتذرَّع الإنكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده، ويرجع إلى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قمران فينتفع بها. وقد يتوصَّل إلى إصلاح أبي سعد أو بالحري إبطاله في المستقبل، على طريقته المخصوصة في الإصلاح والعمران التي تقدَّم ذكرها.

وإلى القارئ مثالٌ آخَر منها: إن في مكة جوقة موسيقى ملكية أمسى أمرُها من التقاليد الهاشمية المقدسة، وهي تضرب أمام القصر ثلاثَ مرات كلَّ يوم، وتزعج جلالته كلَّ يوم ضِعفي الثلاث المرات، بل تكاد تُخرِجه من ثوب الحكمة وثوبه. ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها، ثم مُداوَاتها بالتي هي أحسن. ومن تقاليد هذه الجوقة أن رجالها لا يُعزَلون، ولا يُبدَّلون فيخدمون فيها مدة الحياة، وعندما يموت أحد أفرادها يعيِّن الملك مَن يخلفه. وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في وضع حدٍّ لهذه النكبة واستئصالها.

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف، فلم يعيِّن خلفًا له، ومات في السنة الماضية أحد الزمَّارين فقال الملك: وما الضرر إذا نقصت زمرًا؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيمًا. وإنه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجًا من الجوقة كلها.

أين المُصلِحون يجيئون مكةَ طالبين العلم والإرشاد؟ ألا إنهم إذا كانوا مثلي ومن مِلتي فلا يتجاوزون في

مسيرهم حدًّا[١] ولا أظنهم ينالون جزاءَ سعيهم أكثر مما نلت.

بعد أن أقام جلالته أسبوعين في جدة عاد إلى مكة لأشغال هامة، وظل معي من قِبَله وزيرُه الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته — أيْ حاشية الشيخ فؤاد — المؤلَّفة من امرئ القيس، والنابغة الذبياني، والأخطل، والمتنبي، وكان الشيخ قسطنطين يني راعي الكاس والقرطاس، فلا يَدَع فرصةً تفوت، أو كلمةً من الشعر تموت.

ومع ذلك غدوت كئيبًا، فكتبتُ إلى جلالته كتابًا أشكو فيه ألمَ الفراق، والألم الأخير الأشد من تقليدٍ عقيم يضطره أن يحرمني زيارة أم القرى. فكتب إليَّ يعتذر — وتوقيعه الملكي في رأس الكتاب — عذرًا لطيفًا عذبًا، يصحُّ فيه ما قيل في الشعر. كتب جلالته:

عزيزي المحترم

بعد إهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام. بأنامل الشوق تلقَّيْتُ رقيمك، وبقدر ابتهاجي به، وما احتوته مباحثه الكريمة، كان خجلي من بقائكم في جدة هذه المدة، ومخلصكم جنى على نفسه حرمان لذَّاته، واستفادته من فضائلك وكرائمك، فإني مهما جسمتْ ضرورةُ أسبابِ هذا الحرمان لا أجده إلا حجةً عليَّ. وعلى كل حال، ففي كمالاتك ومداركها ما يُغنِي عن كل بيان، وبها متسع محيط كل ما هو في معنى ذلك. وليس لي ما يهون تلك الرزية التي أحكم بها على نفسي إلا اعتقادي بأن أسبابها ودواعيها هي مما تَهتمُّ لها فضائلكم. والله يحفظ ويمنُّ عليَّ بتلافي ما فات عزيزي.

فهل في مروج الذهب ورياض الجنة ألطفُ من هذا الكلام وأعذب؟ عاد جلالته بعد أسبوع من مكة ليودِّعني، ومعه الضب يراضيني به. وكفى بمجلسه رضوةً وسلوانًا.

(٥) تلميذ في البداوة والحكمة

لا حاجةَ في الضيافة العادية إلى صلة بين الضيف ورب البيت، فإنك تَقبل ما يقدم لك أو ترفضه، وتطلب أو تتمنى ما تشاء، ولا رسول بينك وبين مضيفك غير رسول الأدب والذوق. أما في الضيافة الملكية فالأمر غير ذلك، والقاعدة الأولى فيها هي أنه لا يجوز أن ترفض شيئًا يُهدى إليك، أو يُنعم به عليك.

وملوك العرب — على ما يُظن فيهم من البداوة والخشونة — هم مثل سائر الملوك في أنهم لا يُبادِهون الضيف فيرتبك؛ لذلك هم يعيِّنون، فوق مَن ينتدبون لخدمته، رجلًا يقيم معه، فيكون له رفيقًا وسميرًا، ويكون

---

[١] في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي: حَدَّاء (بالفتح ثم التشديد وألف ممدودة): وادٍ فيه حصن ونخل بين مكة وجدة يسمونه اليومَ «حدًّا». قال أبو جندب الهندي:

بغيتهمُ ما بين حداء والحشا وأوردتهم ماء الأثيل فعاصما

بينهم وبينه رسولًا يحقِّق البغيات، وينبِّه إلى ما فيه تدارُك المزعجات.

كان صديقي قسطنطين يني هذا الرفيقَ السمير الرسول، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدِّثني بالألقاب، فذكرته بأيام الفريكة، والعزلة في الوادي، ثم قلت: ومَن يقيم في أميركا عشرين سنة مثلي لا يتغيَّر رأيه في الموضوع. وقد أخبرني بما كان من أمر صديقي سركيس قبلي، فقلت: وعسى ألَّا أضطرَّ مثله أن أرفض شرفًا هاشميًّا. إن أمري في يدك يا قسطنطين، تدارَكِ النعمةَ قبل حلولها. فقال: والهدايا؟ فقلت: أقبلُ كل ما يجيئني منها.

وجاء في اليوم التالي عبدٌ من عبيد جلالة الملك يحمل إليَّ كسوةً عربية، وخنجرًا مكيًّا، وقطعةً مزركشة بالذهب من ستار الكعبة. لله در قسطنطين، الرسول الأمين، القائل لجلالته: هذا الريحاني ناسكٌ تليق به الآثار القدسية، ولا تليق به الألقاب. وفي الحقيقة إن قطعة من ستار الكعبة هي علق من الأعلاق لا يحوزها غير المقرَّبين.

لبست القميص البدوية ذات الأردان، ثم العباءة، ثم عقال الذهب، وتمنطقت بالخنجر[١]، ورحت توًّا أشكر صاحب الجلالة. فلما رآني في هذه الصورة بسط ذراعَيْه هاتفًا: «يا حبيبي يا عيني!» وضمَّني إلى صدره وقبَّلني؛ فأحسست من شدة التأثُّر بشيءٍ غشي عيني، فبادرتُ إلى مكان المنديل من ثوبي الجديد، فما وجدت حتى الجيب فيه، فمسحت الدمع بردني، فضحك جلالته وقال: حقًّا إنك بدويٌّ الآن.

وجلسنا نتحدَّث في السياسة. ثم جاء قنصل فرنسا وبعض التجَّار مسلِّمين، فانتقل جلالته إلى البدو — إكرامًا لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة — وحدَّثنا في حقوق الحماية والخُوَّة.

ثلاثة لهم حقوق الخوة والحماية: الضيف السارح[٢]، والطنب السابح[٣]، ورفيق الجنب[٤]. وإذا دخل الضيف السارح بلدًا أو «ديرة» يضيفه أولُ بيت يمر به. له الحق الأول في الضيافة، أقول الحق الأول. فإذا تجاوزه السارح إلى جاره يَعدُّها إهانةً فيطالب الجار به: مرَّ الغريب ببيتنا قبل أن يمر ببيتكم. وإذا كان لا يطالب بهذا الحق يُنظر إليه بعين الاحتقار. ومَن أضاف سارحًا أيها العزيز، عليه أن يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد أن يرتحل. والاستنجاد، نعم له حدود. يرفع العرب الاستنجاد إلى خمسة أجداد فقط، وما وراء

---

[١] يُدعى الخنجر في الحجاز «قدمية»، والقاف تُلفَظ جيمًا — جدمية — لأنه يُحمَل من قدام، ويُدعى في اليمن «جنبية»؛ لأنه يُحمَل على الجنب.

[٢] مَن كان في سفر.

[٣] مَن دخل الديرة مستنجدًا. ويُراد بالطنب بيت الشعر، وهو من باب تسمية الشيء بجزءٍ منه. ويُراد بالبيت صاحبه، وإن كان سابحًا سائحًا لا بيتَ له ولا مقر.

[٤] أيْ رفيق السفر.

ذلك فلا حقَّ فيه لمستنجد. ولا فرق بين العرب والأشراف من هذا القبيل إلا في القصاص. حياة الشريف إذا قُتِل عمدًا بحياتَين.

وللبدو طرائق في المحاكمة، وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوكُ العرب كلهم؛ فلا يضطرونهم في كل أحوالهم إلى الخضوع للأحكام الشرعية. ومن تقاليد البدو مثلًا أن على كل أعرابي أن يحكم في خصومة إذا رُفِعت إليه. أما إذا كانت الخصومة بين قبيلتَين فتُسمع غالبًا في ديوان الملك الخاص.

حدَّثنا جلالته في طريقة المرافعة قال: ينتخب كل فريق اثني عشر رجلًا لإثبات دعواه، فينتخب المدَّعي رجالَه من قبيلة خصمه، والعكس بالعكس. ويكون من الاثني عشر رجلًا أربعةٌ هم الجزَّامون، وأربعة هم المساوون. ويحلفون كلهم اليمينَ المعظَّمة قبل أن يشهدوا، يقول الجزَّام: القضية كذا وكذا. ويقول المخبر: سمعت بما يختص بها كذا وكذا. ويقول المساوي: إذا كان كذلك، فينبغي أن يكون كذا وكذا.

أي إن الجزَّام يبسط الدعوى، والمخبر يشهد، والمساوي يحكم فيها. وإنك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئًا من أحكام الأمم المتمدنة، بل فيها ما هو أقرب للحق، وأضمن للعدل؛ لأن كلًّا من المدَّعي والمدَّعَى عليه ينتخب رجاله، أيْ وكلاءه وشهوده وقُضاته، من قبيلة خصمه، وما أشبه المساوين عند البدو بالمحلَّفين عند الأوروبيين.

قلت ذلك لجلالته فقال: الله — سبحانه وتعالى — لم يخصَّ الأوروبيين بكل فضيلة. عندنا — نحن العرب — بعض الفضائل، وأنت أيها العزيز النجيب أعلم بذلك. ليس كل ما يجيء من أوروبا خاليًا من الغشّ أو من الشوه والشين. قد يجهل الأوروبيون أشياء نعلمها ونعلِّم بها. خذ الطب مثلًا، قد شاهدتَ أيها العزيز أعظمَ الأطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية، وعسى أن يشفيك الله بواسطة طبيبنا، فتقول لهم إذ ذاك: جاءني الشفاء من جوار مكة من الله.

ثم قال: وقد يكون فيما تشكو منه بعض الوهم أيها العزيز. أقول: بعض الوهم، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان. أذكر لك مثلًا في الإبل. من النوق، لمزاج فيهن أو لعِلَّةٍ عصبية، مَن لا يرضعن ولدانهنَّ، فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه أمه إلى ناقة أخرى، وهذه لا ترضعه؛ لأنه ليس بولدها. فيحتال الأعرابي على الناقة، ويسلِّط عليها الوهم. أقول: يسلِّط عليها الوهم، وكيف ذلك؟ إنه يضع في حيائها خرقةً مطوية، أو شيئًا آخَر يسمُّونه الدُّرْجة، ثم يشدُّ على عينيها عصابة، وعلى أنفها أخرى، ويترك الناقة كذلك أيامًا، فيأخذها غمٌّ كغَمِّ المخاض، ثم يحل الرباط عنها، ويخرج الدُّرْجة ويلطِّخ بها ولد غيرها، فتظن أنه ولدها فتُرضِعه.

وكان ينتقل جلالته من موضوع إلى آخَر، وفي كلٍّ منها المستغرَب من اللذة، والبسط المفيد من الحِكَم والأمثال. وهي ببلاد وشعب يعرفهما كما يعرف الكتابَ الكريم.

ما حرمنا الله كلَّ فضيلة أيها النجيب، ولا حرمنا كلَّ ثمرة من خيراته. قد أنزلناك بوادٍ غير ذي زرع. هذا صحيح. ولكن الحجاز – على فقره – يُفاخِر سائر الأقطار العربية بشيئَيْن، بعسله ورمَّانه. عندما جاء الخديوي عباس حاجًّا أكل من عسلنا، وكان يقول بعد الشهادتَين: وأشهد أن لا عسل في العالَم مثل عسل الحجاز. أما الرمَّان، وهو يجيء من وادي لِيَّه قرب الطائف، فيصير كبيرًا كالجبجب (البطيخ)، وهو كبير الحبة خالٍ من البذر، أكبر وألذ ما في الدنيا. أرسلنا مرةً صندوقًا منه إلى السلطان عبد الحميد، فقال: هذا أجمل رمَّان جاء من أجمل بقعة في أرض الله، وهو يليق بالهدية. كذلك ينادي بائع الرمَّان: من وادي ليَّه، للهدية. نعم، أيها العزيز في عسلنا ورمَّاننا برهانٌ أن الله – سبحانه وتعالى – لا ينسانا نحن العرب، عرب الحجاز.

وكيف ينساهم وفي جدة مظهر من مظاهر الوَرَع والتقوى ما شاهدتُ مثله في مكانٍ آخَر. هو نادٍ قليل الأعضاء، ولكنهم كلهم حكماء، صغير الحلقة، ولكنها حلقةُ نورٍ صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام. هو نادٍ فريد في بابه لا رئيس له، ولا بيت، ولا قانون، يجتمع أعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد، فيصلون المغرب أولًا، ثم يبادرون إلى أُكْرَة من حديد فيتمرَّنون ويتبارون في رَمْيها، ثم يجلسون في حلقة على الرمل، ويتحدثون في الأدب والشعر والتاريخ.

إنه يُدْعَى نادي الصلاة، ولكنه في غاياته الثلاث – أيْ رياضة الجسم، ورياضة العقل، بعد الرياضة الروحية – قد جمع بين أطراف الحكمة كلها. لا أظن أن في العالم شرقًا وغربًا ناديًا آخَر مثله، ولا أظن أن فريقًا من الناس غير أعضائه – غربيين كانوا أو شرقيين – توصَّلوا قولًا وفعلًا إلى غايات الحياة القصوى، أي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح، وسلامة العقل، وسلامة الجسد معًا.

وما أجملها ساعة نذكر الله فيها، ثم نذكر نعماءه في الأجساد، فنسعى دائمًا في حفظها صحيحة سليمة، ونذكر نعماءه في العقول، فلا نُهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحةً ونشاطًا.

إن نادي الصلاة في جدة هو مقاصد الحياة كلها، ويصح أن ندعوه نادي الحكمة العَمَلية المثلثة الزوايا، فإن الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد.

أما أعضاء النادي فهم – كما قلت – من صفوة الناس، كلهم أتقياء عقلاء حكماء، وقد شرَّفوني يومَ كنتُ هناك بأن أدخلوني في الحلقة المباركة على نقصٍ وخللٍ في مثلثة الزوايا عندي. فقد غلبني شيخُهم الأكبر في رمي الأُكْرة، وغلبني شيخهم الأصغر في المساجَلات الأدبية والشعرية. أما في الصلاة فكنتُ أشاركهم، دون أن أقفَ في الصف وراء الإمام.

ومَن هو الشيخ الأكبر الذي يرمي الأكرة كالشاب؟ ومَن هو الأصغر؟ أما إذا أدخلت القارئ إلى النادي الفريد في قصده ومقره، فينبغي لي أن أتمِّم العمل فأعرِّفه إلى الأعضاء، وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط.

هـذا الحـاج زينـل علـي رضـا شـيخهم الأكـبر، يحترمـه التجَّـار في الحجـاز، وفي بمبـاي. ويعرفـه ويحبـه كـل الأولاد في جدة؛ ذلك لأنه في عيد الفطر يخصُّهم بقسم مما كسب في الاتِّجار؛ فيجلس في إيوان داره وإلى جنبه أكياس من النقود الفضيَّة، ريالات وروبيَّات، فيوزِّعها على الفقراء، وخصوصًا على الأولاد يمرون أمامه صفوفًا في ذلك اليوم، وكثيرًا ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات، فيأخذ قسمته ثلاثة أضعاف، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك مجبور.

وهذا أخوه الحاج عبد الله محافظ جدة، وهو حكيم الحلقة الأكبر، وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد، وإنَّ عدْل الحاج عبد الله في الحكم ليجاري البر والحكمة في أعماله الخيرية، وأهمها المدرسة العمومية التي أُنشِئت في جدة.

وهذا الشيخ مُحَمَّد نصيف أديب جدة الأكبر، وأمير الكتب فيها، فإن عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف، لا يقنيها للعرض فقط، بل لينتفع وينفع بها. يجيء الأدباء إلى دار الشيخ مُحَمَّد كأنها دار الكتب العمومية، فيُعِيرهم ما يشاءون منها، ويشتري ما يعرضون من مخطوط أو مطبوع. وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي تُوجَّه إليه، ويهدي إلى مصادر الثقة في العلوم الأدبية والتاريخية والفقهية.

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية، وأخوه عبد القادر، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر، بل يشركون بين الاثنين، أو بالحري يجعلون الواحد مقدمة للآخر؛ فيلبسون الدمقس والإستبرق، ويتطيَّبون بعد الأكل وقبل النوم، ولا يستكثرون الخمسة الجنيهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة، ولا الخمس الصلوات يصلُّونها كل يوم.

وهذا الشيخ مُحَمَّد الطويل، أصغر الأعضاء قدًّا، وآنقهم كساءً، وألطفهم مبسمًا، وأقدرهم في عَدِّ الأموال وتصريفها. أجل، إن الشيخ الطويل هو المصرف الهاشمي، هو خزينة الملك حسين، هو ناظر الجمارك في القُطر الحجازي. وعليه دفع الكبيرة والصغيرة، فإذا شاء جلالة الملك أن يُنعم أحدًا بمائة روبية يحيله على الطويل، وإذا شاء شراء باخرة أو سرب من الطائرات، فالدفع على الطويل.

ولا أظنُّ أن أخصائيًّا أوروبيًّا يفوق الشيخ مُحَمَّد في علمَيِ الإدارة والاقتصاد، ولا يفوقه يقينًا في النزاهة والإخلاص.

وهذا الملا حسين الشيرازي العالم بأسرار الميكانيكيات والتصوُّف، يُصلِح القناديل وآلات الخياطة، ويروي من أشعار مولانا جلال الدين رومي باللغة الفارسية، فيشدو ولا شدو البلابل، فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة الشريفة، ثم يترجم لي بعربيةٍ أفخم وأشرف.

قال مولانا جلال الدين: إني عودٌ قُطِع من الشجرة، وصُنع منه الناي، فهو في صوته يحن دائمًا إلى

الغاب.

وإني وإن كنت ضيفًا سارحًا أحس بأني عودٌ قُطِع من تلك الشجرة المباركة؛ شجرة نادي الصلاة في جدة، وصُنِع نايًا صغيرًا. والناي يحنُّ دائمًا إلى الغاب.

(٦) قرون السياسة

في كل كبير تجتمع الأضداد، ولكل كبير من العرب اليومَ قِبلتان: قِبلة الدِّين، وقِبلة الدنيا، فيولِّي وجهَه الأولى مرةً أو خمسَ مرات كل يوم، ثم يتطلَّع إلى المغرب بقيَّة يومه. يا قبلتي ساعة نلبس، وساعة نأكل، وساعة نركب السيارة. ولكن القبلة الجديدة كثيرة الأسباب، كثيرة النفقات. فينبغي لنا إذن أن نستعين عليها بالمعاهدات الدولية، والقروض المالية، وإما بالبعثات الفنية والامتيازات. وقد جرَّب جلالة الملك حسين الطريقتَين، ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد.

في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني إلى سوريا ليبحث له عن أخصائيين مهندسين وأطباء، فعاد قسطنطين إلى جدة ومعه بعثة كاملة من الفنيين، أبناء العرب النجباء، المخلصين للقضية العربية، والمخلصين كذلك للذهب الوهَّاج، كما اتَّضح بعدئذ.

جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين، فأقاموا في الحجاز سنةً ينقِّبون ويبحثون، ويقيلون، ولكن أعمالهم لم تُسفِر عن شيء مفيد، ولا يعلم جلالته اليومَ أكثر مما كان يعلمه قبل قدومهم.

نعم، إن في جوار الوجه نفطًا ينبع على الشاطئ من البحر، وفي جبال الحجاز نحاسًا وطلقًا وحديدًا، وفي مكانٍ حول مكة معدنًا من الألماس، وليس في البلاد العربية شركة مالية فنية تستثمر هذه المعادن، فتُخلِّص جلالتَه من ظل مخالب الشركات الأجنبية.

أما شركة النعماني، وفيها لا شكَّ مالٌ وعِلم أجنبيان، فلم تحُز الحُظوة لدى جلالة الملك. وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه، على شروطه الحسنة الممتازة[1] لأسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الإنكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات.

---

[1] من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من أجل البحث والتنقيب أراضيَ الحجاز كلها، أن صاحبه يدفع للحكومة الحجازية أربعين في المائة من صافي أرباح عملية الاستثمار، وتحتفظ الحكومة بحق الأفضلية في شراء خمسة وعشرين بالمائة من البترول المستخرَج بأسعارٍ تُبنى على أساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل إلى حدود أوروبا.

وتتكفَّل الشركة بإنشاء خط حديدي بين جدة ومكة، وخط ثانٍ بين ينبع والعلا لحساب الحكومة. وتسلِّم هذين الخطين إلى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها، فيصيران مِلكًا للحكومة. وتستوفي الشركة قيمة ما تصرف على إنشاء الخطين مع الفائدة القانونية من واردات الأربعين بالمائة العائدة إلى الحكومة.

وقد يكون لـ «شركة المشاريع العامة»[١] في جدة كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعدُ على سواه.

قلت: إن أعمال البعثة الفنية لم تُسفِر عن شيء مفيد. وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة، وليس في الحجاز أرضٌ توجب الاهتمام بعلم الزراعة. وقد أنزلناك بوادٍ غير ذي زرع.

أما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يُقبِلون عليها. ومعلوم أن أكثر أهل الحجاز من البدو، وأنهم لا يحتاجون إلى مَن يعلِّمهم القتالَ وحملَ البنادق، وقد يستنكرون ذلك.

أما إذا كان لا بد من جيش منظَّم فالحكومة تضطر على ما نظن أن تدفع للبدو، بدل أن يدفعوا لها راتبَ التعليم، وليس لجلالة الملك من الموارد الآن ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة، التي يرجو منها إعادة الجيش الهاشمي المنظَّم إلى مكانته وقوَّته قبل وقعة تربة[٢]، وما وقعة تربة غير نكبة نكب الحجاز بها، ولا يزال متأثرًا منها.

فلا عجب إذا كان سيد البلاد يرهق أهلَه ليُعِيد إليهم — بوساطة الجيش النظامي — عزًّا قضى «الإخوان» عليه. ولا غرو أنه يخصُّ التجار بما يستوجبه تسليح البدو. فإذا أبَوْا يستشيط غيظًا، ويسترسل إلى نزعة فيه تركية اكتسابية. قيل لي: إنه في ساعات الغضب مخيفٌ هائل، وإنه إذا استدعى أحدًا منهم إلى مكة، بريئًا كان أو مذنبًا، يكتب الرجل وصيَّته قبل أن يخرج من بيته.

رسا الأسطول الإنكليزي ذات يوم في مياه جدة، وكان حديث الناس، فقال أحد الظرفاء، بل البسطاء: إن الأسطول الهاشمي أكبرُ وأعظم منه، ولو لم يكن كذلك لما جاء الأسطول الإنكليزي مسلمًا مواليًا. فوصلت الكلمة إلى جلالة الملك، فطُلِب الرجل إلى مكة، وأُنزِل السجن عند وصوله إليها، وظل فيه أربعة أشهر دون أن يعرف ذنبَه، ودون محاكَمة، ثم جيء به إلى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الأكبر، فقرصت اليد الملكية أُذنَ ذاك المسكين، وأسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يُعِينه في المستقبل على حُسن الكلام في الحكومة الهاشمية أو في أسطولها.

حدَّثتُ أحد وجهاء جدة في ولدٍ له ذكي، ورغَّبت إليه أن يرسله — لا إلى أوروبا — بل إلى مصر، أو إلى سوريا ليتلقَّى العلوم فيها. فقال: وهذه رغبتي، ولكن سيدنا لا يأذن بذلك. وقد تأكَّدت أن في جدة غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم أولادهم خارج الحجاز — في القاهرة أو في بيروت — ولكن سيدنا لا

---

[١] هي شركة وطنية ترمي إلى تحصين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة، ويدخل في برنامجها الذي أجازته الحكومة الهاشمية أن لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل أن تعطي امتيازًا لإحدى الشركات.

[٢] جرت وقعة تربة في البلدة التي تُدعى بهذا الاسم، وذلك في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد «الإخوان»، وجيش الأمير عبد الله المنظم الذي كان محاصرًا المدينة، ولم ينجُ منها غير الأمير وبضعة من رجاله. راجع تاريخ نجد وملحقاته، للمؤلف نفسه.

يأذن به.

أَلَا هو الشرع، لِنَعُد إلى الكتاب والسُّنة. وإن كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم، قولًا أو عملًا، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حريَّة قد تُخرجه عن المشروع والمنقول، بل كل ما فيه جرثومةُ علمٍ قد تكون نتيجتها، ولو بعد جيلَيْن، حيوانَ كُفرٍ كبيرٍ، فهو من الويلات التي يحاربها المتشرّع الحكيم، والحاكم البعيد النظر. أجل، إنه يحاربها قبل أن تظهر إلى عالَم الوجود.

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهمُّهم فوق كل شيء سعادة المسلمين الدائمة السرمدية، وهذه السعادة التي ذكرها النبي ووصفها الله في كتابه وصفًا جميلًا لا تقوم بالموسيقى، والرقص وشرب الخمر، وكسب المال، أو بالتعلم في المدارس الأجنبية.

وإذا ما تساهل جلالته في أمورٍ لا تمسُّ «السعادة السرمدية» بضرر، كالطائرات مثلًا أو الدبابات التي يَعدُّها للزحف على «الإخوان»، أو كآلة لتصفية الماء، الذي جعله الله في أرضه المقدسة مالحًا، أو كمعمل لصنع الثلج؛ فهو لا يتساهل قطعًا فيما يبلبل الأذهان، ويفسد الأخلاق، ويخرج العرب ولو قيْدَ فِتْرٍ عن دِين هو كَنْزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة.

«لا يلزمنا نحن العرب من العلم — يا أيها النجيب — غير ما يوافق حالَنا وبلادَنا، ويمكِّننا ضمن حدود الدِّين، أقول: ضمن حدود الدين، من الانتفاع بالكمالات».

إن في جدة أفاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالَمَيْن؛ عالَم المادة، وعالَم الفكر، وخبروا الزمان، ولم يفقدوا كَنْز الإيمان. وهم يرون في التعلُّم، حتى في مدارس الأجانب غير ما يراه صاحب الجلالة، ولكنهم ...

إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتي وإنْ قلتُ اليقينَ أطلتُ هَمْسي

وفي جدة أناسٌ فيهم ما في غيرهم من أصناف الناس من النزوع إلى الكيف، فيطربون لصوت العود، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس. ويُحسِنون لعب الـ «بوكر»، ولكنهم إذا جاء المعلم يتأدَّبون، وإذا غاب يلعبون. يكفي أن أقول إن في جدة غير نادي الصلاة، فيها نادي الكأس أيضًا، ولكن أعضاءه الذين لا يتجاوزون العددَ المقدس، لا يجتمعون إلا مثل الفوضويين سرًّا. حدَّثني أحدهم، وكان الأحرى به أن يستعمل ضمير المتكلم بدل الغائب، قال: عجيبٌ يا أستاذ أَمْرُ الناس في هذا البلد. ولا تستغرب قولي إن الخوف يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الأكبر؛ فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مَأْتم، وعندما يعود إلى مكة يُعيِّدون، فيُخرِجون من الصناديق الكأس والإبريق، وترى حتى الجليل مسترسلًا في التهليل. هذا الشيخ قاسم يشهد على ما أقول.

فقال الشيخ قاسم، وهو البارع الحاذق في أفانين الحديث، فيغيِّر الموضوع دون أن ينتقل منه أو أن يسيء: عندما كنت في الأستانة كنت أقول لزميلي سليمان البستاني: لا يُصلَح هذا الكون إلا بأمرَيْن: أن

أصير أنا بابا رومه، وتصير أنت شيخ الإسلام.

فقال الضابط: لا يصلحه إلا السيف.

فأجابه الشاعر: قد كان السيف بيدكم، وما أصلحتموه.

فقال التاجر: مصيبتنا البدو، البدو مشكل لا يحلُّه إلا الله.

فأجابه الحكيم: جهلٌ مُسلَّح يُزيله عِلمٌ مُسلَّح.

— أحسنت أحسنت. وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد أُسِّست لهذه الغاية.

— أقول لك بحرية: إن «الهاشميات» كلها لا تصلح شيئًا. يظل ذوو حسن[1] إلى آخِر الدهر عُصاةً، وبدو الروَيس[2] لا يتغيرون ولا يصلحون، والبقوم[3] يتذبذبون، وينافقون، ولا يُذعِنون إلا للقوة، وأنتم ... صلِّ على النبي.

بينا نحن في هذا الحديث جاء الأمير زيد يُنبِئني بأن جلالة الوالد قادم لزيارتي؛ فارفضَّت الجلسة، وبعد دقائق دخل عبد يقول: سيدنا. فخففنا إلى استقباله، ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلًا من رجله يلبسه فوق حذائه، ودخل فجلس في كرسي إلى جنب الديوان الذي خصَّني به. ثم جاء الخادم بالقهوة، وجاء عبدُ جلالتِه بالفنجان الملكي الخاصِّ الذي يحمله في بيت من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين.

وكان للكآبة يومئذٍ خيالٌ على جبينه العالي، بل ظلٌّ في وجهه الصافي الأديم. وكان الحديث في السياسة، وفي النهضة، وفي مؤتمر فرساي، وفي الإنكليز، وفي فيصل.

«لا تظنَّني أشكو يا أيها العزيز النجيب، أقول: إننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعَّبت المشاكل، وتعدَّدت الصعوبات، ولا نبغي غير عز العرب. والسوريون من صميم العرب، فإذا صعدنا في الكمالات، وبعدنا عن مفاسد المُفسِدين، ودسائس النفعيِّين، ولا أستثني أقربَ الناس إليَّ — أقول: أقرب الناس إليَّ يخونون أو يخطئون — فالحجاز يتبع سوريا، وأنا يا حضرة الفاضل أتبع مَن تختارون للخدمة وللزعامة. أقول: أتبع مَن تختارون ...» وكان الكاتب الأول في الديوان الهاشمي الشيخ أحمد السقاف، وهو كاتب سر جلالته، يحمل حقيبة، فأمر بفتحها، وقدَّمها للملك فأخرج منها أوراقًا رسمية أطلعني عليها.

---

[1] هم أشراف ذوي حسن، يقيمون بين الليث وجدة، يقطعون الطريق برًّا وبحرًا فيسلبون وينهبون، ولا تستطيع الحكومةُ الهاشمية تأديبَهم.

[2] بدو الرويس مثل ذوي حسن الأشراف، ولكنهم يمارسون مهنتَهم في الشمال بين ينبع وجدة.

[3] البقوم: عشيرة تسكن تربة والخرمة، وفيها من الأشراف الذين «دينوا»؛ أي اعتنقوا المذهبَ الوهابي. فالملك حسين يدَّعي رعايتهم؛ لأنهم من بني لؤي، أشراف الحجاز، والسلطان عبد العزيز آل سعود يدَّعي ذلك لأنهم وهَّابيون. وقد فصل السيف، سيف نجد، بينهما في وقعة تربة.

«ما جئتك شاكيًا يا أيها النجيب العزيز، ولكنها العهود، وحقوق الأب على بَنِيه ... إن أحقر البدو لا يخون عهدًا يعاهد به. ولو اتبعوا نصيحتي، لو امتثلوا لأمري، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات. فتحوا للفرنسيس بابَ سوريا، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية».

قد علمتُ بعدئذٍ من شرح المتن لجلالته، أن الضمير في «اتبعوا»، و«امتثلوا»، و«فتحوا» هو عائد إلى مَن كان يمثِّله في الشام، وفي فرساي، وعلى رأسهم الأمير فيصل، وعلمت كذلك أن جلالة الملك حسينًا كان يرغب بالقدوم إلى سوريا، وبأن يمثِّل العرب في مؤتمر السلم الأول. إذن هو ناقم على فيصل، وقد قيل لي إنه يومَ عاد الأمير آخِر مرة من أوروبا إلى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليُلاقِيه في جدة كما كان يفعل سابقًا.

إنها لمن المُحزِنات. أما الحقيقة في القضية، الحقيقة كلها، فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف. فلو مثَّل الملك حسين العربَ في باريس ولندن أيامَ المؤتمرات، لكان الأمرُ ولا ريب أثبَتَ في يديه، ولكانت النتيجة أحسنَ للعرب، ولكن وجود الملك حسين في الشام، في سوريا، يضيع ما قد يكون كسبه في مفاوَضة الأحلاف بباريس؛ ذلك لأن السوريين كانوا أميل إلى فيصل منهم إلى والده؛ لعلمهم أنه عصري، رَحْب الصدر، دَمِث الأخلاق.

فالصلابة التي تفيد في لندن وباريس لا تفيد في الشام، ومهما قيل في الملك حسين، ومهما تعدَّدت مَناقِبه الشريفة، فهو في صفته الدينية لا يُعزز زعيمًا كان أو مليكًا، في بلاد تعدَّدت أديانها، واشتدت من جرَّاء ذلك النعرات والنكبات.

ولكننا إذا ما نظرنا إلى القضية من وجهة الملك الأبوية، نرى في حقوقٍ تقضي عليها الحوادث ويمحو أثرها الزمان، مأساةً بشرية في قلبها شيخٌ جليل نبيل. وهو مع ذلك ثابت في عزمه، وفي ديوانه، وفي جريدته. يهز على أعدائه السيف واليراع، ولا يهمه من المُلْك ما ضاع، وما لا يُعطى منه ولا يُباع، فهو — ما دامت له قوةٌ — يطالب به على الدوام، ولا يرضى بغير «مَلِك العرب» لقَبًا، وإن كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقًا، والقنفذة جنوبًا، رضي أمراءُ العرب أم لم يرضوا.

ملك مغبون، وشيخ في بيته محزون، لا يشكو الزمان، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية. ولا يلوم العربان، وفي صدره من العربان دملة دامية، ولا يندم على ما تقدَّم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب؛ فهو النهضة أولًا وآخرًا، وهو لا يزال بإذن الله قويًّا عصيًّا، مهما كان من أمر «فيصلنا»، و«زيدنا»، وعزيزنا في شرق الأردن. قد قال بلزاك: «إن أبناءنا أعداؤنا». وما أصدقها كلمة، ولا سيما على الأُسَر الشريفة المالكة!

(٧) بين الأستانة ومكة

إن الملك حسينًا إذن لَأكبر ملوك العرب سنًّا، وأظهرهم جلالًا، وأرفعهم من الوجهة الدينية مقامًا، وأغمضهم في السياسة مسلكًا، وأضعفهم اليومَ سلطة، وأشدهم كربًا وغمًّا. هو مَلِك الحجاز في المعاهدات الدولية، ومَلِك العرب في الجريدة الرسمية، والمنقذ الأكبر في عين أولئك الذين لا يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز. وليس مَن ينكر أنه كان منقذًا في برهةٍ من الزمن لا أظن التاريخ يعيدها، أو الأقدار تسمح بتمديد أسبابها، فتمكَّن المَلِك حسين من تحقيق آمال المتهوّسين وآماله الوطنية، بل أحلامه الهاشمية.

إن فضله الأكبر لَفي ثورته على الأتراك، وإن كانت المصلحة والمساوَمة فيها مَرْعيةً أكثر من المبادئ التي أعلنت من أجلها، ثم في نشره الدعوة العربية في أوروبا، وإن كان ذلك ضمنًا من سبيل آل البيت الخاص، ثم في الثبات المدهش في مطالَبته بحقوق العرب، وإن كانت عمومية إلى حد الإبهام.

إن في النهضة العربية مجد الملك حسين وأنجاله البواسل الذين حارَبوا في سبيلها، وإن في الوَحْدة العربية المفازات التي ضاعت فهلكت فيها كلُّ آمالهم. ومَن المسئول في ذلك؟ إن في سيرة الملك حسين ما يجعل غوامضَ الموضوع ظاهرةً جلية.

وإليكها بالإيجاز: هو حسين بن علي بن مُحَمَّد بن عبد المعين بن عون[١] وُلِد سنة ١٢٧٠ﻫ في الأستانة، وجاء في السنة الثانية من سنِّه إلى مكة مع والده وجدِّه، ثم عاد والده الشريف عليّ إلى فروق وأقام فيها إلى أن توفَّاه الله سنةَ ١٢٨٧ﻫ، وكان خلال تلك المدة عضوًا في المجلس الأعلى، ثم صار وزيرًا، وعُين عضوًا في مجلس شورى الدولة، فزاره ابنه الحسين، وكان لا يزال في طور الفتوة؛ فنشأ هناك في بيئة تركية عربية.

ثم عاد إلى الحجاز بعد وفاة والده، فأقام في كنف عمه الشريف عبد الله بضع سنين، وتزوَّج بابنته عبديه خانم[٢]، كان الشريف عبد الله يومئذ أمير مكة، وهو مثل أكثر كبار الأشراف ربيب الأستانة التي أكسبته شيئًا من الكياسة الإسلامبولية، وأشياء من السياسة التركية.

---

[١] فيما تسمى الطبقة الرابعة ممَّن تولَّوا سدانة الكعبة، التي تبدأ سنة ٥٩٨ﻫ/١٢٠١م، وتستمرُّ إلى يومنا هذا، فروع من البيت الهاشمي أسَّس كلَّ فرع منها رجلٌ كبير نبغ في قومه. فالفرع الذي أسَّسه في مطلع القرن الماضي من زمن إبراهيم باشا الشريف مُحَمَّد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيد الذي تغلَّب عليه. وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعان الإمارةَ وسدانةَ الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الأشراف الأكبر مُحَمَّد بن أبي نمي. ويتصل نسب أبي نمي بكبير آخَر في السلالة الهاشمية هو قتادة بن إدريس، وقتادة من ولد موسى الجون، وموسى هذا هو ابن حفيد الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، وابن بنت الرسول.

[٢] هي أم أبنائه: علي، وعبد الله، وفيصل. وبعد وفاتها تزوَّج الملك حسين بتركية من أُسَر الأتراك الكبرى هي أم ابنه زيد.

وكان للحسين أعمام آخرون تولوا الإمارة بعد عبد الله، منهم الحسن الصالح، الذي قُتِلَ في جدة، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته إلى الوهَّابية، فحمل حملته المشهورة على الأولياء، فأمر بهدم القبور والمقامات، وكان جهاده يذهب حتى بقبر «أمِّنا» حواء لولا تدخُّل القناصل، وقولهم للشريف عون: لك ما تشاء في الأولياء، ولكن حواء أم الناس أجمعين، ونحن نحتجُّ على هدم مقامها. فاقتنع الشريف بما قالوا، وعفا عن ذلك المقام الأكبر[1].

وفي أيام الشريف عون ظهرت مواهب ابن أخيه الحسين، فتلألأ ذكاؤه، واشتدَّ عزمه، وكان في شعوره ومساعيه عربيًّا كريمًا، غَيُورًا على قومه وبلاده، لجوجًا متهوسًا. ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذٍ مثاله الأعلى. فراب الأستانة أمره، فاستُدعِي إليها سنة ١٣٠٩هـ ليكون ضيفَ البادشاه، وأسيره مثل مَن تقدَّمه من الأشراف، فأُشرِب هناك روح السيادة العالية، ومبادئ السياسة التي اشتُهر بها المابين.

صعد الشريف حسين في الدواوين إلى مقام المقرَّبين من السلطان، وأُسنِدت إليه رتبة الوزارة مثل أبيه، وعُيِّن مثله عضوًا في مجلس شورى الدولة، فاستمرَّ في وظيفته إلى سنة ١٣٢٦هـ، أيْ أول سنة الدستور العثماني، وكانت مدة إقامته هذه المرة في الأستانة سبع عشرة سنة، ثم عاد إلى أم القرى أميرًا عليها، وظل مخلصًا للدولة أو متظاهرًا بالإخلاص حتى السنة الثانية من الحرب العظمى عندما أعلن الثورة، وشهر الحرب على الأتراك.

إن ما يُستغرب من أمره في مدة إمارته هو أن الحجاز في تلك الأيام – أيام راتب باشا السوداء –كان نهبًا للنَّاهبين، ومحطَّ رحال السفهاء من الاتحاديين، فتعددت من فوضى الأحكام المظالم، وغدا العدل شريدًا، والأمن طريدًا، فكان الحجاج والمطوِّفون يُسلَبون حتى في ظل البيت الحرام في رائعة النهار. ومع ذلك فلم يُغضِب الشريفَ حسينًا إثمٌ من مآثم الترك يومئذٍ أكثر من خروجهم – وهو في نظره الإثم الأكبر – على التقاليد الإسلامية البالية. إنها لعمري فضيلةٌ فيهم يستحقون من أجلها احترامَ الأمم المتمدنة.

أما الملك حسين فسجَّلها عليهم في رأس المفاسد والآثام، وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي

---

[1] هذا المقام أو القبر هو في جدة، طوله خمسة وسبعون قدمًا، وأمنا حواء مدفونة فيه. وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الأخرى للعائلة الأولى البشرية، وكل واحد منها يبعد مئات الأميال عن الآخر، قد يكون قايين فر هاربًا بعد أن قتل هابيل، فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن، ومات ودُفن هناك، فإن الصيادين يدلونك على كهفٍ عالٍ في الجبل إلى اليمين وأنت سائر من التواهي إلى عدن القديمة: هذا قبر قايين! أما قبر أبينا آدم فقد سمعت به في النجف، بل هو هناك، وقلَّ مَن يعرف ذلك من غير أهل الشيعة الذين يزورون المشهد، أي مقام الإمام علي؛ فهم – أي الزوَّار – عندما يقفون تحت القبة المباركة أمام ضريح الإمام، يسلِّمون قائلين: السلام عليك يا علي، وعلى ضجيعَيْك آدم ونوح. أبونا آدم مدفون إذن مع علي في النجف، وبين النجف وجدة حيث قبر أمنا حواء ما يزيد على السبعمائة ميل. لا بأس بالأساطير إذا كانت تنير. اللهم لا تشتِّت هذه الأمة العربية، وإن كثرت ذنوبها كما شتَّتتَ العائلة البشرية الأولى.

أصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦/٥ رمضان سنة ١٣٣٤، فجاءت قسمين: قسمًا نشأ مع الدستور وكان ملازمًا له، فصبر جلالته ثماني سنوات دون أن يحرك ساكنًا عليه، وقسمًا نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة. وقد ذكر من الذنوب الأخيرة في منشور الاستقلال «مخالَفة نصوص الشرائع الإسلامية»، و«إهانة النبي»، و«التبديل في شريعة الوراثة الشريفة»، و«المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل»، و«إعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم»، و«إصدار الأحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة»، وبعد ذلك احتجَّ على إعدام الأحرار في سوريا.

ومنشور استقلال العرب هو أساس الوحدة العربية، أوَلَا يحق لنا أن نتساءل نحن العرب غير المسلمين: ماذا يهمنا من نهضة أساسها سورة البقرة؟ وأي دخل لنا في ثورة أُعلِنت في ذاك السبيل، ولتيك الأسباب الدينية؟

على أنه إذا أنعمنا النظر في سيرة الملك حسين، وفيما له من الدهاء، وغريب أساليب السياسة، نتأكد أنه اتَّخذ الدين أو العاطفة الدينية في العرب سبيلًا إلى تحقيق مقاصده.

لست أنكر إخلاصه في احتجاجه على ما يعتقده بدعةً في سلوك الاتِّحاديين، إلا أن الحكمة في سياسته قصرت دون المراد. قال: النهضة العربية عززوها، وهو عالم بأن أحد رُكنَيْها مسيحيو سوريا الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها، والركن الثاني مسلمو سوريا، وأكثرهم يعطفون على الأتراك، ويستحسنون الإصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الراقي منهم إلى إدخالها في الإسلام. ليس ما يجلو الحقائق مثل الأيام، ولا ما يُظهِر كامنَ الشعور مثل الحوادث.

ولعمري إن ملوك العرب لا يفلحون، لا يفوزون فوزًا تحسن نتائجه وتدوم، ما داموا يتخذون الطائفية وسيلةً لتأدية سيادتهم، وتحقيق مقاصدهم، وتعزيز العصبية فيهم. والملك حسين في فوزه وفي خيبته برهانٌ شريف على ما أقول.

إنه لَيصعب على مَن نشأ بين الأتراك، وتشرَّبَ روحهم، ومارَس سياستهم عشرين سنة ونيفًا، أن يتجرَّد تمام التجرُّد من آفاتهم، أو أن يحاربهم بسلاحٍ هم أعلم به منه، وأقدر على استعماله.

ولا يفوتنَّك أن الأتراك حاوَلوا مرارًا أن يعلنوا على أوروبا الجهادَ ولم يفلحوا، فهل يفلح جهادُ فريقٍ من المسلمين على إخوانهم في الدين، وفي هذه الأيام؟ إنها لَمِن المحزنات. ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين أولًا، فإن انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها إنما هو رأس الخيبة والفشل في سياسته كلها.

يدعونه عبد الحميد الصغير، ولعمري إذا صحَّ التشبيه فالتصغير لا يجوز؛ لأن الأمور تُقاس ببيئاتها، والأشياء كلها نسبيةٌ بما فيها من خير أو شر.

إن مكة في نظر المسلمين لأعظم من فروق، وقد قيل لي إن سجنها أظلمُ من أعماق البسفور! فما قول أهل جدة وقد شاهدتُ بعيني، ولمست بيدي ذاك الخوف المستولي عليهم؟ الخوف من رجل مكة الظالم، ومن سجن مكة المُظلِم، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم، هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة أو المعروف.

(٨) بين مكة ودَوْنِن إستريت

بيناكان جلالة الملك ونجلاه الأميران عبد الله وزيد جالسين ظهرَ يوم من الأيام إلى المائدة في الطائف، دخل الحاجب يقول: غريب في الباب يبغي سيدنا. وكان الرجل رسولًا خفيًّا جاء الحجاز متذرِّعًا بالحج، وهو يحمل إلى الشريف حسين من مندوب بريطانيا في مصر اللورد كتشنر دعوةً للانضمام إلى مصافِّ الأحلام. فأبى يومئذٍ الشريف، ثم كتب إليه خلَفُ اللورد كتشنر السر آرثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردَّد وتودَّد.

وكان لا يزال محافظًا على ولائه للعرش العثماني، مع أنه لم يحضر إلى المدينة ليسلِّم على أنور وجمال عندما زاراها في طلائع سنة ١٩١٦. وقد كان نصح الأتراك ألَّا يدخلوا في الحرب العظمى، ولكنه بعد دخولهم عرَضَ عليهم المساعَدةَ بشروط، منها: العفو عن المسجونين السياسيين في سوريا والعراق، وإعطاء البلدَيْن نوعًا من الاستقلال بإنشاءِ حُكمٍ لا مركزي فيهما. وعندما رفض الترك طلبه وألحُّوا عليه — رغم ذلك — بالتجنيد في الحجاز، راح إلى قريةٍ خارجَ مكة يعتزل السياسةَ إلى حين.

ثم حدثت الفظائع في سوريا، ورأسها شَنْق أحرار العرب، فأثارتْ غضَبَ الشريف، فكتب إلى جمال باشا يحتجُّ على أعماله القاسية، فأجابه جمال أن يتَّقي نفسه بدل أن يدافع عن سواه. وكان الأمير فيصل في الشام يومئذٍ فخاف الملك عليه، وأحجم عماكان يدبِّره من أمر الثورة إلى أن يخلص ابنه من الخطر هناك. فكتب إلى جمال باشا يقول إنه مهتم بالتجنيد، وسيشترك العرب مع عساكر الدولة وحليفتها ألمانيا في الزحف على ترعة السويس، اللهم إذا أسرع فأرسَلَ الأمير فيصلًا إلى الحجاز لهذه الغاية. فجازت الحيلة على جمال باشا، وجاء الأمير فيصل إلى المدينة ومعه عشرة آلاف ليرة وأربعة آلاف بندقية.

وكان الإنكليز في أثناء ذلك يُواصِلون مفاوَضاتهم السياسية مع الشريف المتردد المتودد، فأرسلوا إليه المستر ستورس الذي صار بعدئذٍ حاكمًا على القدس، والكرنل هوغارث، ثم الكرنل لورنس، فأسفرت المفاوَضاتُ كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الأول من ١٩١٦م، وهذه هي:

- **أولًا**: تتعهَّد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها، حدودها شرقًا خليج فارس، وغربًا بحر القلزم، والحدود المصرية، والبحر المتوسط، وشمالًا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات، ومجتمعة مع الدجلة إلى مصبهما في خليج العرب، ما عدا مستعمرة عدن؛ فإنها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات

والاتفاقات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود، بأنها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها، أمراء كانوا أو من الأفراد.

- **ثانيًا**: تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي تدخُّل كان بأي صورة كانت في داخليتها، وبسلامة حدودها البريَّة والبحرية من كل تعدٍّ، أيًّا كان الشكل، حتى لو وقع فتنة داخلية من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء، تساعد الحكومة المذكورة مادةً ومعنى على دفع تلك الفتنة. وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة؛ أيْ إلى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية.
- **ثالثًا**: تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى إلى أن تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية. ويُعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغٌ من المال يُراعى فيه حالة الحكومة العربية.
- **رابعًا**: تتعهَّد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج إليه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة والذخائر والمال مدةَ الحرب.
- **خامسًا**: تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها.

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق يَعِدُ ويسوِّف الإنكليز، ويُعِدُّ العدةَ سرًّا للعمل الخطير، يتأهب للوثوب. وكان قد كتب إلى المندوب السامي في مصر كتابًا يعلمه بذلك، فأجابه السر آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ ١١ آذار سنة ١٩١٦م/٦ جمادى الأولى ١٣٣٤هـ، يقول فيه:

قد تلقَّينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الأمين، وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها، وتَرَونها موافِقةً للأحوال الحاضرة. إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها. ويسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم، وأن كل شيء رغبتم بالإسراع فيه وفي إرساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا، وستحضر الأشياء الباقية بكل سرعة ممكنة، فتبقى في بورت سودان تحت أمركم إلى حين ابتداء الحركة وإعلامنا رسميًّا بها.

وقد انتهت إلينا إشاعات مؤداها: أن أعداءنا باذلون الجهد في أعمال السفن ليبثوا بوساطتها الألغام في البحر الأحمر، ولإلحاق الضرر بمصالحنا هناك، فنرجوكم أن تُسرِعوا بإخبارنا إذا تحقَّق ذلك لديكم.

مرت أربعة أشهر على الاتفاق البريطاني العربي قبل أن يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الإمارة بمكة. وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب وأهوالها أكثر من سواه من الأقطار العربية. فسُدت أبواب البحر،

وانقطع الحجَّاج عن الحج، ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد، فضجت الناس، وهلك مئات من الجوع. وقد قال جلالة الملك إنه ظلَّ وأهل منزله سنتَين يأكلون الدُّخن.

مرت الأربعة الأشهر وكان قد أصبح الأمير فيصل في مأمن من الأعداء، ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يُستهان به. وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت تَرِدُ عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفد عداته وقواته.

فتوكَّل الشريف على الله، ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ/٢ حزيران ١٩١٦م قبل الفجر، وبيده بندقيته أطلقها طلقة واحدة كان لدويّها صدًى في جدَّة والطائف والمدينة. أُعلنت الثورة في مكة وجدة في اليوم الأول، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني. وكان ما لديه من القوات العسكرية موزَّعة متأهِّبة كلها، فحاصر الأمير زيد بجنوده قلعة «أجياد» بمكة، وهجم الأمير عبد الله على الطائف، وكان الشريف محسن قائدًا في جدة، والأميران علي وفيصل، وقد خرجا من المدينة يجمعان العربان ليحاصر الترك فيها.

وقد برهن أبناء الشريف خصوصًا صغيرهم الأمير زيد على بسالة فيهم أظهرها القتال، وعزَّزها الجلد في النضال، ولم يمرَّ شهر على حصار قلعة «أجياد» التي كانت تصب نارها على مكة، وخصوصًا على قصر الإمارة فيها، والشريف في غرفته الخاصة في ذاك القصر يدير الحركة، ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت تخترق السقوف والجدران؛ لم يمر شهر حتى كُلِّلَ الحصار بالنصر.

سلمت «أجياد» في ٤ رمضان. ثم استولى الأمير عبد الله على الطائف في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة.

وفي ٢ محرم ١٣٣٥هـ/٣١ تشرين الأول ١٩١٦م بُويع الشريف حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الأحلاف الكبرى، أيْ إنكلترا وفرنسا وإيطاليا، مَلِكًا على الحجاز، وجاء الأسطولان الإنكليزي والفرنسي إلى جدة يحملان إلى جلالة الملك تهانئ تلك الدول أحلافه، فخطب في حضرته أميرال الأسطول الفرنسي، ودعاه بأعظم أمراء العرب.

قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة، وذلك الإطراء من الأميرال الفرنسي، ولكنه لا ينسى ما خُطَّ على الورق، وما لديه من الرسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يومَ شرَّفني بزيارته في دار الضيافة. هو ذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر ردجينلد ونغت، مؤرَّخ ١٩ نيسان سنة ١٩١٧م/٢٧ جمادى الثانية ١٣٣٥هـ، وفيه ما يلي:

أؤمل ألَّا يبرح من بال جلالتكم أن الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات، وهي حامية ذمار الحق والعدل، والحليفة الوفيَّة التي لا تخون العهود.

(٩) الوَحْدة العربية[١]

إنه لَيصعب على مَن أنعم النظر، وكان مُنصِفًا أن يقول مَن هو رأس البلية في القضية العربية. وإذا ما بغينا الحقيقة كلَّ الحقيقة في الموضوع، أي موضوع الفشل، يبدو أمامنا في أربعة أجزاء تجسَّمت في إنكلترا وفرنسا، ومَن تولى الزعامة من العرب، ثم العرب أنفسهم. رأس البلية إذن تنين ذو أربعة رءوس.

ولكنَّ هناك عاملًا واحدًا يُعَدُّ من أهم أسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل آخَر، ألا وهو السياسة الدولية السرِّيَّة؛ لنجتنب التعميم. إن المعاهدة السرية — التي كانت سرية — بين فرنسا وإنكلترا، أيْ معاهدة سيكس بيكو، هي من أهم أسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية.

وقد تمَّ عقد هذه المعاهدة في ١٥ أيار سنة ١٩١٦، أيْ قبل أن يُعلن الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يومًا. فبينا كان السر آرثور مكماهون يفاوض مكة، ويقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل سيكس قد أتمَّا عملهما المشئوم، فقسَّما البلاد السورية إلى مناطق سياسية اقتصادية، زرقاء وحمراء وسمراء، وهي كلها اليوم إذا اعتبرت مصلحة البلادِ مناطقُ سوداء.

على أن الحكومة الإنكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد، أو دون شرط، فقد كتب السر إدوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ إلى سفير فرنسا في لندن المسيو كمبون كتابًا مؤرخًا ١٥ أيار سنة ١٩١٦ يقول فيه إن حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) إكرامًا لمصالح الأحلاف العامة، بشرطِ أن يشترك العرب بالحرب، ويكون لهم المدن السورية الأربع؛ أيْ حمص، وحماة، وحلب، ودمشق.

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الإنكليز البلادَ السورية كلها، ثم تنازل عن مرسين وإسكندرونة، واستمر يطالب بالمدن الأربع والسواحل أيضًا، ثم اعترف للإنكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشارفة — وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالأشغال — على ولاية الموصل. نعم، إن الشرط ينصُّ حرفيًّا على الاستيلاء، مشارفةً كان أم إشغالًا، والاستيلاء يبدأ غالبًا بالشروط، وينتهي بالإطلاق.

أيجوز أن نقول إذن إنه لولا المعاهدة السرية بين فرنسا وإنكلترا التي تقدَّمت المعاهدة بين إنكلترا والشريف، لكانت تحقَّقت اليومَ الوَحْدةُ العربية؟ ليس مَن ينكر أن تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال، في سوريا وفلسطين، ولكنها لم تصل بكل أسبابها المدمرة إلى شبه الجزيرة، وإني في هذا القول لا أنطق بغير نصف الحقيقة.

أما نصفها الآخر فهو أن الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذٍ اهتمامَه بسوريا وفلسطين، ولا

---

[١] لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب.

جزءًا من ذا الاهتمام. وماذا في شبه الجزيرة، إذا مال بوجهه إليها، غير الأمراء الأعداء، والقبائل المتمرِّدة، والصحارى والقفار؟ أما سوريا وفلسطين، قبلة العرب الفاتحين، فينبغي أن تكون جزءًا من الحجاز، أو يكون الحجاز جزءًا منهما. لا فرق عند الشريف، وفي ذلك الانضمام تتحقَّق الوَحْدة العربية.

أفلا ترى في هذه الخطة أن صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالأساس؟ وليس الأساس أيها العربي الغيور في سوريا وفلسطين، بل هو في نجد واليمن وعسير، في الأمراء الأعداء والقبائل المتمردة. فلو تمكَّن الملك حسين من ضم كلمتهم إلى كلمته، وجمع شتاتهم تحت رايته؛ لكانت له سيادة تُذلِّل عندها عقبات الشمال، وتزول ألوان المناطق السياسية كلها. ولكنه، وقد فشل في سوريا وفلسطين، أمسى ولا نفوذ له يُذكَر في شبه الجزيرة.

أقول هذا وأنا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية، بل قبل أن صار ملك الحجاز. وإنه في ثباته ومضائه، في دهائه وإبائه، عندما كان يمهِّد السبيل إلى العمل الخطير، ذاك العمل الذي لم يُقدِم عليه إلا بعد أن نال من دول الأحلاف مَطالِبه المادية كافة، من سلاح وذخيرة ومئونة ومال، وأخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها؛ إنه، وإن كان مبدؤه المساومة، لَجديرٌ بالإعجاب والإجلال. ولكنه بعد أن صار ملكًا طمع بأن يكون ملك العرب.

ولم يكن في أساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع؛ فهو فوق احتقاره أمراءَ العرب الحاكمين، أضمر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة. ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقًّا، فإن الخطل في سياسته العربية تقدَّمَ السداد في ثورته الحجازية.

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجًا، وقد انكشف الستار، ولم يَبْقَ في القضية سرٌّ يستثمره الدهاء؟ إنه لَوَهمٌ قديم طُلي بذهبِ حلمٍ جديد، ولكنَّ الملك حسينًا أصلبُ ساسةِ الأرض اليومَ رأيًا، وأيبسهم عودًا؛ فهو وإن شابت الأوهام، وهرمت الأحلام، لا يطوي العلم، ولا يكسر الحسام. وقد يموت شاهرًا سيف السياسة والدهاء على أعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي، والوحدة العربية. ما أعظمها وما أجملها ثقة، تلك الثقة بالنفس!

أجل، ومَن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا غير رجل طماح، ثقته بنفسه أعظم من ثقة الإنكليز بأنفسهم؟ ومَن مِن أمراء العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه وإخوانه في الجزيرة يعلِّل النفسَ بتحقيق تلك الأماني، أماني الشريف، وأماني الملك، وأماني المنقذ الأكبر؟ وهي كلها واحدة لا تتغير.

ولكنها لا تتفق مع أماني الآخرين. قلت: إنه أضمر لهم العداء في الشرط الثاني من شروطه الخمسة، فقد جاء فيه أن «لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الأعداء، أو من حسد بعض الأمراء»، تتعهَّد بريطانيا أن تساعده عليهم «مادةً ومعنًى».

ولا ريب أن ابن سعود والإدريسي كانا في ذهن الملك عندما أمر وزيره أن يكتب هذا الشرط، ولا ريب أن معتمد بريطانيا كان يدرك ذلك؛ لِمَا بين الملك وابن سعود والإدريسي من العداء القديم. ولكن سلطان نجد وسيد عسير من أصدقاء بريطانيا وأحلافها، فكيف يمكنها أن توافِق على شرط قد يوجب عليها مُحارَبتهما من أجل الملك حسين؟

وكيف يستطيع الإنكليز أن يقوموا اليومَ بشروطِ اتفاقٍ نسخته سلفًا معاهدة سيكس بيكو؟ إن تلك الصفقة لَصفقةُ يائسٍ مستهتر، وإن في تلك الشروط دليلًا على سذاجة في المنقذ الأكبر مهما كان دهاؤه السياسي. وإن في قول بريطانيا بها دليلًا على جهل في معتمدها، أو حماقة في رُسلها، أو خدعة في حكومتها مهما كان من قول رجالها في برِّها بالوعود، ومحافظتها على العهود.

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وُعُورةَ المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية، يريدها أولًا سورية، وقد لا يريدها إلا هاشمية. فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة أشهر إلى نائب ملك بريطانيا في مصر كتابًا يقول فيه: «فمتى أضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمِّل من النتائج، يتحتم عليَّ الانسحاب من الأمر، والتنازل عنه».

ثم قال وهو لا يزال يصرُّ على الشروط الخمسة: «فإذا كان لا بد من التعديل، فما لي سوى الاعتزال والانسحاب ... وإنها (أي بريطانيا) لا ترتاب في أني وأولادي أصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم وإخلاصهم ... ثم تعيِّنون البلاد التي يستحسن إقامتنا فيها للسفر إليها في أول فرصة».

ولا تزال هذه لهجة الملك، ولا يزال هذا قصده منذ ذاك الحين إلى يوم تشرَّفتُ بمقابلته في جدة، وقد قال لي يومَ ودَّعتُه، وهو يقبض على لحيته: «إني لا أبغيها (أي الزعامة)، لا أبغيها. ليتفق أمراء العرب عليها، وأنا أعتزل. ليتفقوا على تأييد الوَحْدة العربية، فأنسحب إذا شاءوا، وأشاركهم بما يتفقون عليه، تابعًا كنتُ أو متبوعًا. أقول يا حضرة النجيب: تابعًا كنت أو متبوعًا».

وهذا ما وطَّد فيَّ يومئذٍ أحدَ المقاصد من رحلتي، فشجَّعني في رسالتي الوطنية العربية، وحبب إليَّ خدمةَ جلالته في تمهيد السبيل إلى التَّفاهُم بينه وبين أمراء العرب[1].

[1] لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب.

الإمام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله



حضرة الإمام يحيى (بريشة المؤلف)

(١) اليمن

- **حدوده**: جنوبًا: خط يمتد من المخا على البحر الأحمر إلى تعز فماوية فقعْطبه. شمالًا: خط يمر في بلاد خولان، وبني بشر إلى نجران. غربًا: البحر الأحمر من الشيخ سعيد إلى ميدي. وشرقًا: البحر السافي أو الرَّبْع الخالي.
- **ألويته**: لواء صنعاء، ولواء الحديدة، ولواء تعز، ولواء صعدة.
- **عدد سكانه**: نحو مليونيْ نفس ونصف مليون.
- **مساحته**: نحو أربعين ألف ميل مربع.
- **أهم قبائله**: حاشد، وبكيل، وحمدان، والحوارثة، وذو مُحَمَّد، وذو حسين، وبنو إسلام، وبنو مطر،

والمكارمة.

- **أهم مدنه**: صنعاء، وذَمار، ويريم، وإبْ، وتعز، وزبيد، وبيت الفقيه، ومناخة.
- **مذاهبه**: الزيديَّة، والإسماعيلية، والسُّنة (شوافع)، واليهود.

(٢) التبليغ في الترويع

كنتُ ذاتَ يوم في إدارة إحدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان، يبغي كتابًا يعلِّمه الحديث في اللغة الإنكليزية. فسألته: من أين أنت؟ فقال: من اليمن. وكنتُ يومئذ في أهبة السفر إلى بلاد العرب، فاستأنست بالرجل وبلهجته، وقلت، وأنا راغب في الاستفادة: اجلسْ وحدِّثْني عن بلادكم. فقال على الفور: بلادنا طيِّبة الهواء والماء، ولكن أهلها دائمًا في احتراب. فقلت: ومَن يحاربون؟ فأجاب: حاربنا الأتراك، وحاربنا القبائل، وحاربنا الإدريسي، ويحارب دائمًا بعضُنا بعضًا.

— وهل الإمام يحيى حاكم اليمن كله؟

— لا، هو يحكم جزءًا صغيرًا منه. نحن أهل اليمن لا نخضع لأحد دائمًا. نحب الحرية، ونحارب من أجلها، نذبح أقرب الناس إلينا لنكون مستقلِّين. نقول للإمام: هذا الرجل لا نشتهيه (لا نريده) حاكمًا، ونقيم منا شيخًا علينا، ونقول له: أنت حاكمنا، أنت إمامنا.

قلت: وإذا أبى عامل الإمام التنازُل عن منصبه؟ فأجاب بلهجة هادئة: والله نذبحه.

ثم سألته ما إذا كان من أجانب في اليمن؟ فقال: لا. وإنه لا يُؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالإقامة هناك.

— وإذا جاءكم الأجنبي؟

— والله نذبحه.

— وإذا ساح متنكرًا.

— إذا عرفناه فوالله نذبحه.

— أوَمَا يُؤذَن للسوري وهو عربي مثلكم؟

— إذا كان مسيحيًّا فهو والفرنجي سواء عند أهل اليمن. وقد يحميه لسانه، أو يصرف النظر عنه.

قلت: وإذا انكشف أمره فعرفتموه؟ فأجاب الرجل دون أن يغير لهجته الناعمة اللطيفة: والله نذبحه. كأنه يقول: نضيِّفه ونكرمه.

سافرت من نيويورك وفيَّ من قصة «نذبحه» ما يُضحِك ويُزعِج معًا. ثم رُوِّعت في مصر؛ قلت في بيت

بعض الأصدقاء: إني مسافر إلى اليمن. وكان الأديب السوري نعوم شقير[1] حاضرًا فقال على الفور: غير ممكن. فذكَّرني – رحمه الله – بالقصة، وحاقت بي أشباح من بلاد «نذبحه»، فقلت: ولماذا؟ هل من خوف على حياتي؟ فأجابني ثانية: مستحيل، غير ممكن. ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان، إذ قال: لا يأذن بذلك أولياء الأمر.

– ومَن هم أولياء الأمر؟

– الإنكليز.

– وهل للإنكليز سيادة في اليمن؟

– هم في عدن يرصدون الأبواب. ما لك واليمن؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج، وهذا يكفي. في اليمن حربٌ اليومَ، والأخطار كثيرة. زِدْ على ذلك ...

ولم يزد شيئًا جديدًا! سكت فروَّع، ثم قال: مستحيل سفرك إلى اليمن مستحيل. ودعاني للعشاء في بيته. فقلت: إني أقبل دعوتك بشرطِ ألّا تقول إن سفري إلى صنعاء مستحيل. فقبل الشرط – رحمه الله – وما لمسنا في تلك الليلة في الحديث حاشيةً من حواشي اليمن.

جئت إلى جدَّة، واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني، وخطر لي أنْ لا بأس بل لا بد في السفر إلى جبال اليمن من رفيق، فسألت جلالة الملك حسين أن يأذن لقسطنطين أن يرافقني، فأجاب تلطُّفًا سؤلي. فسافرنا متوكِّلين على الله، أنا في ثياب إفرنجية وعقال، أحمل جوازًا أميركيًّا، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي، يحمل جوازًا حجازيًّا. وكانت العلائق بين الإنكليز والملك مُتراخيةً في ذاك الحين كما أسلفتُ القول.

وصلنا إلى عدن فاستقبلَنا على الرصيف ضابطٌ إنكليزي، وبعد أن اطَّلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلًا: بأمر من الحاكم. فقلت: وهل هو أمر عام أو أنه يختصُّ بنا فقط؟ فأجاب: هو أمر عام يا سيدي. ثم أخذ عنواننا ووعدنا بأن يُعيد الجوازات إلينا في ذاك اليوم، ولكن ذاك اليوم والأيام الثلاثة التالية شهدت على الإنكليزي؛ فتيقنَّا أنه لا يبرُّ دائمًا بوعده.

وقد كنتُ أحمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطن، فقدَّمته للقنصل الأميركي، وسألته أن يطلب من الحاكم إعادةَ جوازي. ثم أعلمته بقصدي، فصفر مدهوشًا، ثم قال: وقد يُقطَع رأسك، ولا أحد يسأل عنك! أنصحك لا تسافر، هذا إذا أُذِن لك. في البلاد حربٌ اليومَ، والطرق غير أمينة، وأنا لا أقدر أن أحميك.

[1] له تآليف أدبية وتاريخية منها: «تاريخ السودان»، وكان قبل وفاته يشتغل في تأليف «تاريخ لحج».

فقلت وكاد يملكني الغيظ: اسمع يا رجل، قد تنازلت في العاصمة، وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها، ولا أسألك الآن غير كتاب تكتبه إلى الحاكم، تعرِّفني إليه، وتقول له: إني أبغي مقابلته. فكتب القنصل الكتابَ في الحال، ولكن الحاكم أبطأ في الجواب كما أبطأ في إعادة الجوازات.

جاءني القنصل صباحَ اليوم الثالث، وفيه بعض الاضطراب يقول: لستُ أدري ما السبب في التأخير، ولكني اجتمعت في النادي مساءَ البارحة بالمعاون الأول. تعالَ نزوره الآن. فذهبنا إلى دار الوكالة فاستقبلَنا المعاونُ قائلًا للقنصل: قد كتب إليك الجنرال، وعيَّن هذا اليومَ للمقابَلة. وتلطَّف حضرته بأن قابلنا في تلك الساعة. دخلنا إلى مكتب الجنرال سكوت وكيل بريطانيا، والحاكم المدني والعسكري في عدن، فإذا هو كهلٌ طويلُ القامة طَلْق المُحَيَّا. صافحَنا وأمر بالجلوس، فجلس معنا المايجر رَيْلي معاونِه الأول، وكان القنصل أول المتكلمين. ثم قال الجنرال يخاطبني: قيل لي إنك شاعر. فقلت: صدق مَن أخبرك. فضحك وتتبع الموضوع، فكان الحديث في شعراء العرب والعجم، فذكر الجنرال عُمر الخيام، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به أكثر من سواهم؛ لأنه بشير الخمر واللهو والغناء. ثم قال: أما الشاعر الذي ترجمته إلى اللغة الإنكليزية ... فساعدته في لفظ اسم أبي العلاء المعري. وشرحتُ إجابةً لطلبه الفرقَ بين الشاعرين: فلسفة المعري عقلية، وفلسفة الخيام محض حسية.

أعجبني من الجنرال أنه لم يفاجئني، فيجبهني، كما يفعل موظف أميركي في الحديث عما أبغي منه. وكان في ذلك أشبه بموظف شرقي. ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة. تطرَّقنا من الشعر إلى العقائد الدينية، ثم إلى السياحة؛ فجهرتُ بقصدي، فقال: أَوَلا تهمك الأخطار؟ فقلت: هي لذة الأسفار. فقال: ولكنَّ في السفر إلى اليمن خطرًا أكيدًا، خطرًا كبيرًا على المسيحيين، ونحن لا نستطيع أن نحميك فيما تجاوز حدودَنا.

فقلت: يا حضرة الجنرال، هذا قنصلي وقد غسل يديه مثل بيلاطس في قديم الزمان. وأنا راضٍ بذلك. فإذا كنتُ لا أطلب الحمايةَ من حكومتي، أفيجوز لي أن أطلبها منكم؟ إني مسافر إلى صنعاء يا حضرة الجنرال، وليس لي مهمة سياسية، لا علاقة لي بأية حكومة من حكومات العالم. إلا أني أحب العرب، وأنا أصلًا منهم، وأحب في سياحتي أن أخدمهم ما استطعت. فإذا تأكَّدتُ بعد البحث والمشاهَدة أنهم في حاجة إلى مساعَدة إنكلترا، أنصح لهم بالتفاهم وأحثُّهم عليه. وإني أجهر أمامك، وأمام قنصل أميركا بذلك؛ لعلمي أننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن، ولا مطامع لنا في البلاد العربية. فإذا كنت أستطيع أن أخدم إنكلترا فيما أعتقده نافعًا للعرب أفعل ذلك مسرورًا ومجانًا، لا أسألكم مكافأةً غير إذن بالسفر إلى صنعاء. وإذا مهَّدتم لي السفر إلى نجد كذلك أكون لكم شاكرًا، ولمصلحة العرب خادمًا أمينًا.

فقال الجنرال: لا دخلَ لحكومة عدن بنجد، أما السفر إلى صنعاء فهو –كما قلت – محفوفٌ

بالأخطار، وخصوصًا إذا كان المسافرون مسيحيين. فإذا أذنًا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسئولين قطعًا عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود.

فقلت: وهل تريد أن أكتب لكم صكًّا أتنازل فيه عن حقوقي، بل عن حياتي؟ فضحك، ثم سكت، ثم وقف قائلًا: سأنظر في الأمر، وأكتب إليكم قريبًا.

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة: يظهر أن الجنرال يعرفك، وسأبحث لأعرف بعض ما يعرفه أو يظنه غير ما سمعناه الآن. وما كان متوانيًا أو مبطئًا، فأوقفني في اليوم التالي على ما كنتُ أجهله من غرائب الأمور التي أصبحت في البلد حديثَ الناس.

- **أولها**: أني رسول الملك حسين إلى الإمام يحيى. والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي؛ فكيف يأذن لنا الإنكليز بالسفر إلى صنعاء وهم لا يرتاحون إلى عقد معاهدة بين الملك والإمام؟
- **وثانيها**: أني قادم من أميركا من قِبَل الشركات المالية، أبغي امتيازات من حاكم اليمن. والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بأمري؛ فكيف يأذنون بالسفر إلى صنعاء وهم المنافسون؟ فإذا كان هناك من امتيازات، فإنما يبغونها لأنفسهم.
- **وثالثها**: أني ممثِّل حزب النهضة العربية في مصر، وقد جئت سائحًا في البلاد أبثُّ هذه الفكرة، فأستثير العرب على الإنكليز، والبرهان ... سبقنا في البرق إلى عدن.

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك؟ وهل يستغرب صدور الأمر إلى إدارة الشرطة بمراقَبتنا أنا ورفيقي؟

ولَّى الأسبوع وأنا أنتظر، وأحاول في الظنون التثبُّت والإنصاف. وكنت أثناء ذلك طلبت أن أزور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج، وأراد القنصل مرافَقتي، فقيل لي: ينبغي أن أكتب إلى سموه، وأن أستأذن كذلك الإنكليز. فكتبت إلى سمو السلطان وإلى معاون الحاكم، فجاءني الجواب من الأول مؤهلًا مرحبًا، وجاءني ورفيقي بوساطة القنصل إذنٌ من الثاني مصحوب بكتاب يقول فيه: إن الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع، وإن السفر بدون حرس لا يكون، وإن أمر الحرس «منوط بهذه الدائرة»، أيْ دائرة الحاكم. أظنه خاف أن نسافر من لحج بدون إذن منه، ونستغني كذلك عن الحرس. على أننا والحق يقال بتنا والخطرُ الأكيد أحبُّ إلينا من الترويع والقيود.

دفع القنصل الكتاب إليَّ، وحذَّرني من أولئك العرب الذين يتكلَّمون اللغة الإنكليزية: أكثرهم يَزُورون الماجر ريلي بعد أن يزوروك. ثم قال: ويظهر أن اعتراض أصحابنا على رفيقك أشدُّ من اعتراضهم عليك. فأكَّدتُ له أن رفيقي صديقٌ قديم، وأن لا صفةَ له رسمية في هذه السياحة، وأني أرفض السفر إذا صدر

الإذن لي وحدي.

بعد ثلاثة أشهر – أيْ بعد رجوعي من صنعاء – عرفتُ السبب في إبطاء الجنرال الحاكم؛ فقد اضطره أمرنا إلى مراجَعات كثيرة طويلة بعيدة، اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن، وبوزارة الخارجية الأميركية بوشنطن.

عندما رأت الوكالة البريطانية أنْ لا بد من الإذن اتخذت خطة أخرى، فسعت بوساطة أصحابها، ومنهم أولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية، أن تقنعني بأن السفر إلى صنعاء من الحديدة أسهلُ طريقًا وأقل خطرًا.

وقد أرادتْ بذلك أن أزور أولًا صديق الإنكليز السيد الإدريسي، فأرى في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم الإمام، فرفضتُ بتاتًا، وكتبت إلى معاون الحاكم جوابًا على ما جاءني في كتابه إلى القنصل، أسأله أن يتفضَّل فيرفقنا بالحرس اللازم إلى حدودهم، أي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم. فجاءني منه جواب يقول فيه: قد كتبت إلى سلطان لحج بخصوص طلبكم، وسأُعلِمكم بما يجدُّ.

أقف عند هذا الحد في القصة لأرجع إلى مصدر آخر من مصادرها الغريبة. بعد أن زرت الوكالة البريطانية رحت أقصد وكالةً أخرى سياسية. يمَّمْتُ في فم البركان، في عدن القديمة، ومعي رفيقي قسطنطين، بيتَ القاضي عبد الله العرشي وكيل الإمام يحيى، وسفيره إلى الإنكليز في عدن. فلما وصلنا إلى دار السعادة اليمانية بادَر إلى استقبالنا عند الباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة، تحتها قميص أخرى من الصوف زرقاء، وفي رجله الخف، وعلى رأسه – وقد نزع العمامة – طاقية بيضاء. هو القاضي عبد الله سفير الحضرة الإمامية.

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية، وكان إلى جانب مسند القاضي عدد من الجرائد المصرية والسورية، وفيها جريدة نيويوركية أشار إليها فضيلته قائلًا: نعم، الغيرة غيرة أبناء العرب في أميركا على الوطن واللغة.

ولكنني أقف حائرًا في مطالعتي هذه الجريدة عند ألفاظ وتعابير ليست من العربية بشيء. أَفَلا يقرءون النحو واللغة على أساتذة من العرب هناك؟ أما هذه، وأشار إلى مجلة مصرية، فأسلوبها «ناهي» (جميل) ... ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف أن يومَ وصلتنا برقيتكم من بورت سودان وصلت هذه المجلة وفيها مقال عنكم، طالَعناه والإعجاب بكم يسابق الشوق إليكم. فشكرنا الله الذي حقَّق أملنا باللقاء ... ومولانا الإمام هو عالِم كبير، وشاعر مجيد، وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيلَ لها في البلاد العربية كلها ... يومَ وصلتنا برقيتكم يا حضرة الكامل أشعرنا بالسلك (تلغراف) حضرة الإمام. ومتى جاء الجواب نسارع إليكم به. نحن في خدمتكم. وهذا قليل تجاه مَن وقف نفسه على خدمة العرب ...

وفي اليوم التالي جاء فضيلته لابسًا ثيابه الرسمية، راكبًا السيارة، يزورني في الفندق. وكان في معيته كاتب سره، واثنان من العبيد. دخل أحدهما عليَّ يقول: مولانا القاضي. فلبست عقالي، وخففت إلى استقباله. ولولا العبد المبشِّر بقدومه لما عرفته لأول وهلة؛ أين القميص والطاقية والخف من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها! وهذا البرد اليماني المخطَّط بالأصفر والأحمر، وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني. وهذه العمامة العامرة الباهرة الألوان، والسيف يحمله بيده، والجنبية في زناره، هو ذا حقًّا سفيرُ الحضرة الإمامية دام نصرها.

والغريب أن القاضي كان في تلك الزيارة رسميًّا في حديثه كما كان في ثيابه. فما أنعش لي أملًا، ولا قال إنه زار كذلك صباح ذاك اليوم الوكالةَ البريطانية. فلا غرو إذا فتحت أذني لرواة الأخبار الذين قالوا إنه راح يستشير الحاكم في أمري، وإنه لا يُقدِم على عمل لا يُستحسَن في دار الوكالة، وإنه يقبض منهم، لا من الإمام، المشاهرة. وقال بعضهم – بئس المفسدون – إنه يقبض من الاثنين، وإنهم – أي الإنكليز – إذا شاءوا أن يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشَرةً إكرامًا لقنصل أميركا، ولكنهم يوعزون إلى القاضي عبد الله بأن يقول لي إن الطريق إلى صنعاء محفوفة بالأخطار، فلا يستطيع أن يرفقني بالحرس اللازم، وغيرها من الأقاويل. لله منك يا عدن، ما أكثر الدسائس فيك والجواسيس!

جاءني بعد أيام كتاب من فضيلة القاضي «مجددًا للوعد مؤكدًا للوداد»، يبشِّرني فيه بوصول برقية من حضرة الإمام مجيبًا بالإيجاب. ثم قال: فأي وقت تريدون أن تسافروا عرفوني، فأرسل معكم أحد خاصتي إلى أمير الجيش في ماوية[1] وأعطيكم كتابًا إليه فيكرم وفادتكم، ويرفقكم بمَن يقوم بخدمتكم وحراستكم إلى السدة الشريفة. أنتم منا، وعلينا واجب الحب والإكرام.

وصلني هذا الكتاب وأنا في لحج ضيف سمو السلطان عبد الكريم فضل أنتظر الفرج من الوكالة البريطانية. وكنا – على جميل ضيافة سموه وحفاوته بنا – في حالةٍ تعدَّدت همومها؛ فقد مرض أولاد الرفيق قسطنطين بالحمى، ومرضت أنا بـ «القال والقيل»، وكان داء الجدري متفشيًا في البلد، فخفت أن يكون قد أُصِيب رفيقي به. وأطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم: لا تأذنوا لفلان وفلان أن يتجاوزوا الحدود قبل أن يجيئهم الإذن منا. فإذا تمثَّل القارئ تلك الحال، وقد بقينا أُسَراء في القصر بلحج، يدرك شيئًا من سروري بكتاب القاضي عبد الله العرشي.

أسرعت بإعلام القنصل، فراح إلى دار الوكالة يسألهم البت في الأمر. ومرت خمسة أيام حسبتها خمس سنين، وأنا أجتهد أن أكون محسنًا بالإنكليز الظن. ولكن سئمت التسويف والمماطَلة، ونفرت من الأثرة في

[1] هي عند حدود اليمن الجنوبية، وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلًا من عدن.

أمرٍ أربعةُ أخماسِه بيد سواهم حقًّا وعملًا.

ولو كان كله موكولًا إليهم لما كنت ألوم. فها إن صاحب البلاد يرحب بنا، ووكيله في عدن يَعِدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق من ماوية إلى صنعاء، والسلطان عبد الكريم – رغم رسائل الوكالة – يرفقنا ساعةَ يشاء بحرس إلى حدوده. وأنا ورفيقي، وحياتنا على كفنا، مكتفيان بهذه الضمانة.

– وإذا مت يا مولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري) أموت واللهِ في حبكم، في حب العرب.

فضحك سموه، وأمر لي بمداعة [1] وأمر كاتب سره أن يكتب إلى الحاكم في عدن، يقول إنه مستعد أن يرفقنا يوم نشاء بالحرس إلى ماوية، فجاءني بعد يومين الكتاب التالي:

دار الوكالة. عدن، في ٥ نيسان ١٩٢٢

إلى المستر أمين الريحاني

أيها السيد العزيز

قد كتب الحاكم إلى سلطان لحج يسأله أن يرفقكم أنت وقسطنطين يني بالحرس إلى حدود حمايتنا عندما تُزمِعون الرحيل. ولكنه رغب إليَّ أن أعلمكم بأن البلاد في اضطراب، وأن السفر فيها خطر على المسيحيين، وأنه وإن كان قد سأل السلطان أن يرفقكم بالحرس إلى الحدود، فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة. وَلْيكن معلومًا لديكم بأن الحاكم غير مسئول البتة عما يحدث لكم فيما دون حدود المقاطعات المحمية.

لكم بإخلاص

ب. م. رَيلي

المعاون الأول للحاكم بعدن

ذكَّرني هذا الكتاب بالكلمة الأولى التي قالها القنصل لي: قد يُقطع رأسك، ولا أحد يسأل عنك ... وكنت قد تركت عنده من أمتعتي ما لا أحتاجه في السفر إلى اليمن، وأعطيته عنوانَيْن، في بيروت، وفي نيويورك؛ لينعيني في الأقل إلى أهلي.

---

[1] تدعى النارجيلة في اليمن مداعة، وأظنها تحريف مدعاة لفظًا ومعنى. ففي القاموس المدعاة تفيد الدعاء إلى الطعام، وفي اليمن المداعة هي الدعاء إلى الأنس والسرور. وقد قال الشاعر فيها:

مـــــــــداعتي أنيســــــــــتي ... جليســـــــــتي في وحـــــــــدتي

تقـــــــــول في كركرهـــــــــا ... بالله خـــــــــذني بالـــــــــتي

لست أدري وأنا أعيد ذكرى تلك الأيام ما الذي تغلَّب فيَّ على ذلك الترويع، إذا لم يكن ثباتي على أحد أمرين، وهما ثقتي التامة بإخواني العرب، وعزمي على إنجاز ما باشَرته من السياحة الدراسية. نعم، قد كنت مزوَّدًا بكتب التوصية من الملك حسين. وقد رأى القارئ فيما تقدَّم ما له من المنزلة عند الإنكليز الذين حاولوا أن يمنعوا صديقي عن السفر؛ لأنه في خدمة جلالته. وأما أولياء الأمر من رجال الإمام يحيى، فسيرى القارئ ما لملك الحجاز عندهم من المنزلة.

أما الخطر وإنْ جسَّمه الإنكليز، فقد كان – والحق يقال – في حيِّز اليقين، وخصوصًا في بلاد الحواشب، إحدى السلطنات الداخلة في حماية الإنكليز، الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي. وكانت عساكر الإمام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت إلى الحواشب، ونكَّلت بهم، فأرسل الإنكليز على اليمانيين طائرتين رمتهم بالقنابل، فتفرَّقوا وعادوا خاسرين؛ لذلك كان العداء لا يزال متمكنًا بين الإمام والحواشب. ولذلك أطلقوا الرصاص على رجال الوفد اليماني عندما مروا بأرضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز إلى صنعاء. فماذا عسى أن يكون حظنا منهم، ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الإمامية؟

قيل لنا إننا إذا اجتزنا سالمين المُسَيْمير، عاصمة السلطنة الحوشبية، نكون قد اجتزنا منطقة الخطر الأكبر في طريقنا. ولكن كلمة قالها القاضي عبد الله العرشي بصفته الرسمية – إذا لم يكن الأمن موجودًا فنحن نوجده من أجلكم – وكلمة كتبها، تطردان كل ما تهافت على آذاننا، وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل. أما الكلمة التي كتبها إلى حضرة الإمام، وقد أذن لنا بنسخها، فإننا ندوِّنها في هذا السِّفر لغرضَين، فيطَّلِع القارئ أولًا على أسلوب المراسلة في اليمن اليوم، ثم على مثال من كرم الأخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالَعه في مجلة عربية، قال عافاه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمد الله مدة مولانا، ومالك أمرنا أمير المؤمنين، والحجة على الخلق أجمعين، المتوكل على الله رب العالمين، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يُردَّد في كل وقت وحين.

وبعدُ، فصدورها للسلام، مقبِّلة بواطن الأكفِّ والأقدام، وهي لكم صحبة السيد الماجد... أمين الريحاني الذي فيه سبق الإشعار من المملوك إليكم بوصوله إلى عدن، وقصده الوصول إلى حضرتكم الشريفة للمزاورة والمعرفة، وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة. وقد وجدته على جانب عظيم من الحب والمودة للعرب، ومن اللطف ... وعرفت أن لا مانع من توجُّهه إلى حضرتكم، وكتبت في التوصية به، وتسهيل سفره، وحسن وفادته إلى أمير الجيش في ماوية، حماها الله. وسيتضح لكم حُسن نيته، وما هو عليه من المحبة والمودة للأمة العربية كافة عند المواجَهة، وربما تستفيدون منه ومن نصائحه، ومعرفته بالأحوال ما يكون فيه

نفع الوطن وعمرانه. وليس لمن مثلي أن يشير إلى مَن مثلكم، فقد نوَّركم الله بمعرفة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه. وفي هذا كفاية. والله تعالى يصلح بكم جميع الأمور، والسلام عليكم.

من المملوك عبد الله العرشي

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠

قبل أن أختم هذا الفصل المؤلم المفكه معًا، ينبغي أن أسجِّل على أولياء الأمر فعلة قد يفيدهم نشر خبرها. عندما صدر الإذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلًا عربيًّا ليرافقنا سرًّا في رحلتنا إلى صنعاء، فيتجسَّس أخبارنا، ويدوِّن أحاديثنا كلها، وأعطته الوكالة كتابًا مختومًا ليفضَّه بعد أن يخرج من لحج، ويعمل بموجبه.

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة إلى ربه، وأبى القيام بتلك المهمة. بل إنه فضَّ الكتاب في السوق بعدن، وأطلع بعض التجار على ما احتواه. سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من أخبار الجاسوسية، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها.

(٣) في الطريق إلى صنعاء

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة، وخرجنا من لحج نبغي الدُّكيم التي كانت يومئذٍ حدود السلطنة اللحجية شمالًا، وفيها حامية إنكليزية من الهنود، وكانت الحملة قد سبقتنا إليها، ومعها الحرس يركبون الهجن، ورسول القاضي عبد الله العرشي إلى أمير الجيش، وبعض المسافرين الذين أحبوا أن يرافقونا.

وكان في الدكيم أيضًا عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع، جاءوا بأمر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم. والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب. ليس في العالم جندي أخف منه حملًا، وأشد منه بأسًا. ولا أظن أن في جنود الأمم المتمدنة أجسامًا مثل أجسام العرب في اليمن الأسفل. هاك الحوشبي مثلًا، وجلده الأسود أو الأسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول، وعضلاته الشديدة المفتولة تتحرك كالأجزاء الدقيقة في آلة كهربائية، وقامته المتناسقة الأعضاء تُسر بالعري، فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بها عورته؛ هو ذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك، إذ يَثِب صاحبه والبندقية على كتفه، والأمان في قلبه، كالغزال الشارد أمامك.

من هؤلاء الحواشب ولدٌ لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى إلى جنبي، وهو ينظر إليَّ من حين إلى حين كأنه يبغي الحديث. سرنا في وادي دُبَن، وهو طويل يتصل شمالًا بمدينة إب، والشمس حتى في نيسان تشوي الضَّبَّ، وكنا بدأنا في التصعيد، فتراءى لنا خيال أسحم على الأفق البعيد، فوق قنن من الجبال كثيرة. فهتف الجندي الصغير قائلًا: هذا وَرْوَه — جبل وروه — تراه من عدن، وسنراه غدًا من ماوية. لم أتأكد القسم الأول من مقاله؛ لأني لم أهتم وأنا في عدن بالجبال. ولكني تأكَّدت المبالَغة في القسم الثاني منه.

رافقنا وروه يومًا واحدًا، وغاب عن الأبصار، وكذلك الجندي الصغير الذي تأسَّفتُ على فراقه. كان يحدِّثني وهو ينقل البندق لثقله من كتفٍ إلى كتف، ويمشي على بؤسِ حاله سامِدَ الرأس.

— العفو يا أمير، حضرتك من الشام؟ أجبته بإيجاب.

— وهل راضية الشام بالسلطان؟ أخبرته بأن حكم السلطان فيها قد انتهى، فما سرَّه الخبر، فقال: السلطان رجل طيب يا أمير، ما فيه شرٌّ.

سألته: وهل تحب الأتراك؟ فهزَّ رأسه، وأشار بعينَيْه أنْ نعم، ثم قال: علي سعيد باشا [١] رجل طيب، كنا في أيامه مستريحين، وكانت الظلط[٢] كثيرة. أما الآن يا أمير، فلا سعيد ولا ظلط. انظر إلى ذاك الجبل. وراءه الصَّبيحة أشر العرب، وهم دائمًا يعتدون علينا نحن الحواشب المحافِظين على الأمن. الحوشبي فقير ولكنه منيع، ورفع بندقيته مشيرًا إليها، ثم قال: سلامة القوافل في يده.

أما الصبيحة يا حضرة الأمير فهم يحاربوننا لأنهم لا يحبون الأمن، ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورِزْقنا لنحمل هذا البندق؛ لنوجد في البلاد الأمنَ للعباد، وحضرة الأمير — العفو — لا يقدر أن يسافر وحده، لا والله. بنادقنا وحياتنا مِلك السلطان، وهي الآن تحت أمر الأمير. هل أنتم تحكمون في بلادكم؟

قلت له: إن اسمي أمين لا أمير، وإني محكومٌ مثلكم لا حاكم.

— ومَن يحكمك يا حضرة الكامل؟

— يحكمني الآن الإنكليز. هل تحب الإنكليز؟

— يقول السلطان إن الإنكليز ما فيهم شرٌّ.

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم؟

— إي والله نحبه، علي بن مانع رجلٌ طيب، ما فيه شر. ولكن مَن هو الحوشبي، وما هي أهميته؟! البندق على كتفه، والموت قدامه، ولا يعرف في الليل إذا كانت تُشرِق عليه الشمس.

سِرْنا في الوادي وادي دُبن، والجبال حولنا وأمامنا، تمنع عنا الهواء، ولا تقينا حرَّ الشمس، فوصلنا الظهر إلى الخَنْدُق، وهي قرية خيامها من القش والغرْف، فيها سَمْسَرة [٣] للقوافل والمسافرين، فاسترحنا هناك ساعة الغداء، وأرسلنا هجانًا يحمل منَّا كلمةَ سلامٍ إلى سمو السلطان علي، ويُنبِئه بقدومنا.

---

[١] علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن أثناء الحرب.

[٢] الظلط: النقود الذهبية والفضية.

[٣] الخان في اليمن يُدعى سمسرة، والمقهى مقهاية.

استأنفنا السيرَ بعد الظهر، فالتقينا في نصف الطريق بين الخُندُق والمسَيمير فرقةً أخرى من جيش السلطان، يتقدَّمها ابنه الصغير راكبًا جوادًا رائعًا، جاءوا من قِبَله يلاقوننا، فدوَّت في الوادي أصواتُ البنادق ترحيبًا، أطلقوا ثلاث طلقات، فأجبناهم بمثلها، ورحنا وابن السلطان يتقدَّمنا، ورجله الحافية في الركاب، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة، الطويلة الذؤابة، الكثيرة الألوان كأنها عمامة العيد، ترقص فرحًا على رأسه، وهو على ظهر الجواد أثبتُ منها.

وصلنا عند الغروب إلى قصر السلطان في المسيمير، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن، قائمة على ربوة خضراء، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضيٌّ، إلى جنبَيْه الحقول المزروعة وهي تتموَّج حول أكواخ من القش. إن الجمال الذي يُجَلْبب المكان لَيُنبِئ بالسلم القروي، ولكنه مفقودٌ فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه، ولا في قلبه. ومن المسئول سيجيب السلطان على سؤالنا. هذه جنود تطلق البنادق ثانيةً ولاءً لا عداءً، تأهيلًا لا تهويلًا.

دخلنا إلى بيت في القصر أُعدَّ للضيوف، وبعد قليل جاء سموُّه للسلام يتبعه الخدم، وبين أيديهم أطباقُ الطعام: خبز بسمن وسكر، ومرق وبرغل، ولحم، وعسل، فجلسنا في حلقة على الأرض ننطح بأيدينا الزاد. وكأن السلطان وهو ينظر إلينا أُعجِب بسَفِّي البرغل سفًّا، فقال: أنت منَّا يا أمين! أنت والله منَّا ...

كان السلطان علي نحيلًا كالخيال، عصبيَّ المِزاج، حادَّ الطبع، حُرَّ الكلمة. حدَّثنا بعد العشاء عن أحواله قال: أنا بين أربعة يا أمين، والأربعة يقصرون حياتي هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء. هو ابني الوحيد يا أمين، ولكني أذبحه والله ولا أسلِّمه رهينةً لأحد[1]، أما الأربعة فالواحد منهم فوق[2] يشهر علينا الحرب؛ لأننا هادئون ساكنون، لا نعتدي على أحد، والآخَر تحت [3] يغزونا لظنه أننا أغنياء، وأن خزانة الإنكليز تحت أمرنا، والثالث هناك [4] لا يخاف الله، والرابع[5] عدونا اليوم صديقنا غدًا، لا نعرف والله متى ينقلب، ولماذا ينقلب! وعلينا أن نحاربهم كلهم. وإننا والله نحاربهم يا أمين، ونحاربهم حتى نفنيهم أو يفنونا ... لا والله، لا نأخذ من القوافل إلا مجيديًّا واحدًا على كل جمل، والإمام يأخذ مجيديَّيْن، وصاحب لحج يأخذ ثلاثة.

— وكم تأخذون مشاهرة من الإنكليز؟

نظر السلطان علي إليَّ ويده على لحيته، وثلاث أصابع من الأخرى مرفوعة، وقال: ثلاثمائة روبية، وهي

[1] يشير إلى الرهائن التي أخذها الإمام يحيى من عمَّاله، وسيجيء ذِكْرها.

[2] أيْ إمام صنعاء الإمام يحيى.

[3] أيْ عرب الصبيحة.

[4] أيْ عرب الضالع جيران الحواشب شرقًا.

[5] أي سلطان لحج.

والله غير كاملة. يدفعونها لنا كل ستة أشهر، ولا يدفعون غير ألف وستمائة روبية، احسبها. وعلينا أن نؤمن للقوافل الطرق، وأن نطعم أهلنا ورجالنا، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون، وينسوننا حين يشبعون. الإنكليز ضرورة يا أمين.

قلت: ولو دفع لك الإمام مشاهرة مثل الإنكليز أتتركهم وتواليه؟

فأجاب على الفور: لا والله، أنا متعاهد والإنكليز فلا أخلف، وسأبقى صديقهم دائمًا. إي والله، الإنكليز يا أمين يعقلون، عندهم حكمة كما عندهم مال. نعم، هم غير مسلمين، والمسلمون إخوان. ولكن القلب يعرف الأخ يا أمين، والسياسة لا تعرف غير الضرورة.

إن الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الإمام، لا لأنه عدوهم في الحرب فقط، أيْ في ضرورات السياسة؛ بل لأنه خصمهم كذلك في المذهب؛ هو زيدي شيعي، وهم سُنيون.

ودَّعْنا السلطانَ تلك الليلة، شاكِرِين له حُسْن الحفاوة والضيافة، وأعلمناه أننا سننهض باكرًا للرحيل، فلا نكلِّفه مَشقَّةَ القيام مثلنا ليودِّعنا ثانية. وفهمنا منه أنه قبل بذلك، إلا أننا في صباح اليوم التالي بينا كان المكارون والخدم يحمّلون، دُهِشْنا بل ذُعِرنا لحادث فيه منتهى الغرابة؛ كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم، فسمعنا بغتةً أن إناءً من الفخار تكسَّر فيه، فظننا أنه وقع من السطح، ولكنَّ إناءً آخَر تبعه – رأيناه يُرمى من النافذة ولم نَرَ الرامي – فأصاب أحد العساكر فرفع صوته شاكيًا. ثم جفنة، ثم قطعة أخرى من الفخار تحطَّمت بين أقدام البغال، فعَلَتِ الضجَّةُ في الحوش، وسمعنا رجالًا يصيحون: هم يطردوننا، عجِّلوا يا ناس، هذه ضيافة ابن مانع، عجِّلوا بالرحيل.

خرجت وقسطنطين مسرِعَيْن، فركبنا وسِرنا نتقدَّم الحملة. نزلنا من الجبل إلى السهل فالنهر، وقلبنا – أقول وقلبي ولا أتّهم رفيقي – يختلج حنقًا ورعبًا. ظننا أننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عندما وصلنا إلى النهر، ولكننا قبل أن اجتزناه سمعنا أصواتًا تنادي: قفوا، قفوا. فلم نقف، فأطلقوا إذ ذاك البنادق طلقاتٍ متعددة، فقلت لرفيقي: هو ذا الخطر الذي نتوقَّعه. دنَتِ الساعة يا قسطنطين، قِفْ وأشهِرْ سلاحك.

بعد قليل قرب القوم منَّا، فإذا هم خدم السلطان يحملون على رءوسهم الأطباق، ومعهم بضعة عساكر، جاءوا بالفطور! إيْ بالله. كيف نسافر قبل أن نفطر؟ وكيف نسافر قبل أن نودِّع السلطان الذي نهض باكرًا للوداع؟

سألناهم عن الفخَّار الذي رمونا به، فأخبرونا أن السلطانة، وهي في خِدْرها رأتنا من على السطح في أُهْبة الرحيل، فنهضت كذلك باكرًا من أجلنا، فأرادت تنبيهَ الخدم النائمين في الطابق الأسفل، ولم تشأ أن

تُسمِعنا صوتها، أو ترينا من النافذة وجهَها، فرمتهم بالفخَّار تستفيقهم لينهضوا، ويهيئوا لنا الطعام. الضيوف، انهضوا للضيوف، والحقوهم بالفطور، وأطلقوا الرصاص إذا كانوا لا يقفون.

أكثر الله أيتها السلطانة من فخَّارك، وجعلَنا ألسنةَ فَخَارِك. إنك في الضيافة شاعرةُ الأقران، وفي البلاد العربية فريدةُ الزمان. وكيف لا وأنتِ السيف في إكرام الضيف. تضربين من أجلنا الكسل، وتلحقيننا بالعسل.

تروِّعين أيتها الحوشبية الألمعية ولا تجوعين. قد كنتِ حديثنا وموضوع إعجابنا حتى في بلاد الزيود، التي تُنسي المرءَ الحبيبَ والمعبود. وقد تُنسِي الغريبةُ الجديدة غرائبَ عديدة، كما حدثت في ماوية أول بلد من بلدان الزيود[١] شمالي عدن.

دخلناها في أصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه، فشنف آذانَنا لما كنَّا مصعدين إليها صوتٌ كان وقعه جميلًا في ذاك الوادي الموحش، وفي تلك الساعة. فاستأنسنا به أيما استئناس. كأننا عند حدود الإمام عدنا إلى المدينة والنظام. ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت، وهو جندي بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحِّبًا بنا باسم أمير الجيش.

وكانت فاتحة الألطاف. فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطني، ورأينا فرقةً من الجنود النظامية مصطفَّة خارج السور لاستقبالنا، وعلى رأسها ضابط تركي؛ فترجَّلنا نرد السلام، ودخلنا البوابة إلى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور، اللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل، المسلَّحين بالبنادق والجنبيات، وعندما وصلنا إلى الباب يتقدَّمنا كاتب سر الأمير، واثنان من رجاله، أوقفنا الحارس هناك، ونادى بكلمةٍ حارسًا آخر داخل القصر، فجاء الجواب مؤذنًا بالدخول.

دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب، صعدنا في دَرَج لولبي مظلم، ذكَّرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير، كل واحدة منها دكة، وعلى كل دكة واحد أو اثنان من ذوي الشعور الطويلة، والثياب المنيلة، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في أجسامهم[٢].

كنت وأنا أتلمس طريقًا أتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر، وأتصور نفسي أسيرًا فيه، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري، وما هي إلا فاتحة الكروب، فعندما وصلنا إلى

---

[١] الزيود ينتسبون إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهم وإن قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع الجمع زيديون، بل زيود كأنهم يريدون بذلك أن زيدًا متجسد في كل واحد منهم، وأن أمتهم أمة الزيود.

[٢] هم يغمسون ثيابهم بالنيل، ويلبسونها قبل أن تنشف ليسيل الصباغ على أجسامهم، ويدخلها فيسد المسام من الجلد، ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد. وقد قيل لنا: إن عساكر الإمام وكثيرين من أهل اليمن يتنيلون لا اتقاءً للبرد بل حدادًا على الحسين. على أن الوهم في هذه العادة أصبح من التقليد كما يظهر؛ لأن السادة وهم أولى بالحداد لا ينيلون ثيابهم.

الطابق الأخير أوقفنا الحرس ثانيةً أمام باب صغير، ثم دخلنا فإذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة إلا واحدة منها، وهواؤها – وقد امتزج بالدخان –كثيف فاسد، وأرضها مفروشة بالقشّ والحشيش، وإلى جانب الأربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة، أصحابها جالسون على الأرض صفوفًا ملزوزة، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون(١)، وفي الزاوية عند منضدة صغيرة، إلى جنبها مداعة، بين أكمة من الأوراق ورزمة من القات، رجل صغير المنكب والعمامة، حاد النظر واللسان، ناصع الجبين والبيان، قدَّمَنا إليه كاتبُ الأسرار، فعرفنا أنه السيد الأمجد علي بن الوزير أمير جيش الإمام في لواء تعز.

صافحناه وهو جالس كأنه أحد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد، فأشار إلى فتر من السجادة

---

(١) ساعة القات عند أهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الإنكليز، ولكن القات غير الشاي، القات مخدِّرهم، وتَبْغهم، ومُسكرهم، وهم يُدمِنونه إدمانَ الأوروبيين الخمر. قال شاعرهم العامي:

زمــــردًا يقطـــــف الأصــــحاب أو قـــــاتًا ... يصـــــفو بـــــه العـــــيش أحيـــــانًا وأوقـــــاتا

يا عـــاذلي عـــن حصـــول القـــات مـــت كمـــدًا ... لا نـــــترك القـــــات أحيـــــاءً وأمـــــواتا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف:

بـــــراك معـــــراج قلـــــبي حـــــين يصـــــعدُهُ ... جبريـــــل روحـــــي إلى أعلـــــى سمـــــاواتي

إن في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الأولى أي الكيف، وشيئًا من خاصة الأفيون المخدرة، وبعض ما في المُسكرات مما ينبّه الفكر. وبكلمة أخرى: هو يطرب النفس، ويخدِّر الحواس، ويشحذ الذهن، بل يبعث على اعتقاد أهل اليمن في صاحبه النشاط، فيقويه على السهر والعمل في الليل. قد تحقَّقت بنفسي أنه يؤرق، ويُحدِث في المعدة يبوسةً وانقباضًا، وفي الفم جفافًا وعقوصة مثل البلوط، فيطلب صاحبه الماء كثيرًا. ولكني لم أحس بشيء من الكيف؛ أيْ خفة النفس. ولم ينتبه الفكر إلى غير الأوهام التي تستحوذ على الناس، فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة. قد يكون هذا وهمًا مني؛ لأن تأثيره فيمَن يستعمله مرة غير تأثيره فيمَن يستعملونه دائمًا، ويفضِّلونه على خبز يومهم.

جميع الناس في اليمن، من رجال ونساء وأولاد، ومن أغنياء وفقراء، يأكلون القات؛ يخزِّنون. والتخزين هو أن تمضغ الأوراق مضغًا بطيئًا طويلًا كما يمضغ بعض الأميركيين التبغ، ويحفظونها تخزينة (أيْ كتلة) في الفم يجترونها، ولكنهم لا يبصقون مثل الأميركيين إلا عندما تذوب التخزينة، فيبصقون إذ ذاك في إناء من النحاس ما تبقى منها، ويخزنون غيرها. إن مجلس القات لا يتم بغير أباريق الماء وكئوس النحاس الجميلة الشكل، الشبيهة بالكئوس الذهبية التي تُستعمل في الكنائس وقتَ القداس. أما الأغرب من ذلك، أهل اليمن لا يشربون قهوة البن، بل يكثرون من قهوة قشر البن يغلونه كالشاي، فتظنُّه البابونج لطعمه بدون سكر، وهو على ما أظن مفيد؛ لأنه يقاوم بعض المقاوَمة مفعول القات، ويخفِّف من أضراره. لا ريب في أن القات مُضِرٌّ بالصحة والنسل، فهو يُفقِد المرءَ شهوةَ الأكل، ويفسد أسباب الهضم، ويُحدِث مثل الأفيون شللًا في مجاري البول، ولا يقوي الباه بل يُضعِفه.

إن اسمه العلمي Catha edulis، وهو نبت شبيه بالبطن إلا أن شجرته صغيرة، وورقه مثل ورق العفص، يزرعه أهل اليمن في البساتين مثل أشجار الثمار، ويبيعونه بأسعار غالية إذا كان من النوع الجيد؛ أي الرخص الصغير الأوراق. هم يقطفونه أغصانًا ويرسلونه إلى المدن رزمًا ملفوفة بالحشيش الأخضر، ومربوطة بقشر الشجر، ثم يجيئون بالرزم إلى المجالس، مجالس القات، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الأرض، ثم يبدءون بالتخزين بعد أن يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل)، فتمسي الغرفة في تلك الساعة كمقهى الحشَّاشين في دخانها وكربونها، وكالإصطبل في فرشها.

حشرنا فيه بين شيخين هائلين، وكان كل من أولئك الأجلاء المحترمين ينظر إلينا شزرًا كأنه يلتمس لنفسه عذرًا من مجرد النظر، «وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون، ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح أو التساهل».

بعد أن سلَّمنا على الأمير قدَّمنا له كتابًا من القاضي عبد الله العرشي، وفيه يعرِّفه إما خطأً وإما تلطُّفًا إلى السيد[1] أمين الريحاني، فظنني حضرته من أشراف المسلمين، وأراد أن يعرف إلى أي الفراعين أنتسب، فسألني قائلًا: هل أنت حَسَني أو حُسَيْني؟

وقع السؤال عليَّ كالصاعقة، فبلبل الخاطر مني لأول وهلة، وعقَلَ اللسان، فجالت في ذهني، بل جرت كمجرى البرق صورٌ كلها سُود تُنذِر بالبلاء. أفلم ينذرنا الإنكليز بالخطر على المسيحيين؟ أفلم يحذِّرنا عربُ عدن ولحج من الزيود المتعصِّبين؟ وها نحن في مجلس أميرهم وعلمائهم، وفي قلعةٍ ظلماتُها كظلماتِ السجن أو أشدَّ، وروائحها مثل نظرات أصحاب العمائم بل أحَد، ولا نزال والحمد لله في بداءة الرحلة، وهل أنت حَسَني أو حُسَيْني؟

جاوِبْ يا فتى، هل تكذب على الأمير فتنتسب، وما الحَسَن وما الحُسَيْن في مثل تلك الساعة؟ أذكر أني في خمس لحظات غيَّرت ديني خمس مرات، فكنتُ أنتقل كالبرق من الحَسَن، إلى مارون، إلى الحسين، إلى داروين.

أما إذا اكتشف الأمير بعدئذٍ حقيقةَ دينك – اصدقْه بالخبر يا رجل ولكن – هل تعلن أمام الجَمْع الزيدي الرهيب مارونيتك أو مسيحيتك أو داروينيتك، قد يوقفونك فيأسرونك، يرجعونك إلى حيث جئت، هذا أخف ما في البلية، ومن جهة أخرى أشدها.

جالت هذه الصورة والسؤالات في نفسي، جرت مجرى الكهرباء، وأنا أثناء ذلك أسيرُ خوفٍ أشدَّ من خوفي ساعةَ أطلَقَ الحواشبُ الرصاصَ ليُوقفونا للفطور.

وما خفتُ على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي؛ من الفشل، من الرجوع إلى عدن مدحورًا مذمومًا، ولكنه سبحانه – بعد أن غيَّرتُ فكري خمسَ مرات في خمس لحظات – فتح عليَّ فقلت مجيبًا: أنا عربي يا حضرة الأمير، أحترم كل المذاهب الإسلامية، وأحبُّ كل العرب، وأتمثَّل دائمًا في مثل هذا الموقف بقول الشاعر:

---

[1] لا يُدعى سيدًا في اليمن غير مَن كان من السلالة النبوية. وليس هناك غير طبقتَيْن من الناس: السادة وهم الذين ينتسبون إلى الحسن أو إلى الحسين، والعرب وهم الفلاحون، البدو منهم والحضر.

ولكـــلِّ رَبْـــعٍ مـــن رُبوعِـــك حرمـــةٌ وهـــوى تغلغَـــلَ في صـــميمِ فـــؤادي[1]

أظن أن الأمير استحسن الجواب، أو أنه أحسن أمام العلماء المداراة. وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجلٌ بَشٌّ لقدومنا بشاشة الصديق، فلمسنا القلب منه في سلامِه، وتبادلنا وإياه الثقة والولاء، فقال يعقب على جوابي مخاطبًا الأمير: حضرته من سادات لبنان.

فبدت منه – بارك الله فيه – شارةُ القبول والاقتناع، وغيَّر الحديث دون أن يبعد كثيرًا عن الدين. بدأ الأمير علي وهو فصيح اللسان بخطبةٍ رأسُها النبي والإسلام، وذيلُها أولئك الذين يُفسِدون بالبِدَعِ الدينَ؛ يتقرَّبون حبًّا بالمال أو السيادة من الإفرنج، ويدنِّسون الشرف النبوي بالنياشين الإنكليزية، يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى أبواب الحرمين ... إلى أن قال: الإيمانُ بالله رأسُ الفَلَاح والصلاح، والجهادُ في سبيل الله واجبٌ على كل مسلم سَلم إيمانه. وفي سبيل مَن يجاهد الملك حسين وأولاده؟ في سبيل الله؟ أستغفر الله.

فتصدَّى قسطنطين للدفاع عن المَلِك، وقلت أنا كلمةً أُثبِتُ ما قال الرفيق فيما يختص برفضه المعاهدةَ مع الإنكليز. ثم قلت وأنا أَتُوق إلى الهواء: قد يريد الأمير أن يصلي المغرب. فأَذِنَ لنا بالانصراف، وأمر كاتبَ سِرِّه ورجالَه أن يصحبونا إلى المضيف، ويعتنوا بأمرنا. صافَحْناه مودِّعين، فلم يقف لنا ولا وقَفَ أحدٌ من العلماء. في مجالس القات تقل الترهات.

(٤) اليمن الأخضر القديم

مشينا من قصر الأمير إلى قصر الضيافة، بل إلى قلعةٍ أخرى عالية مظلمة، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قِلاعٌ وحصون، فأنزلنا في الطابق الأعلى، في غرفةٍ سقفُها واطٍ، ونوافذها ضيقة صغيرة، ضاق منها صدري، فهربتُ إلى السطح، ونصبتُ سريري هناك.

وكان كاتب سر الأمير الأديب التركي، الذي أدرك بعضَ ما فيَّ من الانقباض والاضطراب، يحاول تسكينَ خاطري وتسليتي بما قصَّه علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الأسفل. فقلت له، وأنا أحس أن الحيوان المسجون فيَّ وفي تلك البقعة يشتهي الفلاة: إننا نروم الوصولَ إلى الحضرة الشريفة بأسرع ما يمكن، ونلتمس من أمير الجيش، وإن كان ذلك مخلًّا بآداب الضيافة، أن يسهِّل أمرَنا فنسافر في الغد. فوعدنا خيرًا.

ثم جاءنا بعضُ وجهاءِ البلد زائرين، وفيهم أحد أقارب الأمير يحمل إلينا هدية من القات، فاستقبلهم الرفيق قسطنطين، وحدَّثهم وتناقَشَ وإياهم في موضوع الطائرات. نقرأ عليها الفاتحة فتسقط كالطير المذبوح إلى الأرض، فأفحم القسطنطين، وبادَر إلى القات يكتشف فيه اليقين. أمَّا أنا فاعتصمتُ بالسطح أبغي

[1] كل مرة أذكر هذه الحادثة أشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرَّج عني في موقفٍ حرج جدًّا.

العزلة والهواء، فصحبني ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان، فشكا إليَّ أمورًا وأسرَّ أخرى: لا شكَّ أن حضرة الإمام رجلٌ كبير قدير، ولكنه ظالمٌ يُرهِق الرعيةَ بالضرائب المتعددة، ولا يُنصِف السنيين الشوافع في بلاده، ولا يُحسِن السياسةَ مع الإنكليز، فقد استنزل على جنوده هوْلَ طائراتهم، ولا يفتح المدارس في البلاد، ولا يعزل الظالمين من عمَّاله مثل عامل هذا البلد، ولا يَجُود بما رزقه الله، وهو الغني الأكبر في اليمن كله.

نمْتُ تلك الليلةَ وأنا أفكِّر بالسلاح الجديد، أي الفاتحة ضد الطائرات، وبما عدَّده الشافعي من سيئات حكم الإمام. فحلمتُ حلمًا غريبًا عجيبًا ما ذكرت منه عندما استفقتُ غير أني كنت والإمام يحيى نطير في طائرة صُنِعت في إنكلترا، وكُتِبت على جناحَيْها فاتحة القرآن، ونُقِشت على ألواحها آياته البينات. فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طائرةَ المؤمنين؟

سافَرْنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغالَ بدل الطائرات، مصحوبين بحرسٍ من جنود الأمير المنيلة أثوابهم، المدهونة بالسمن شعورهم. فتهنا في ضوء القمر ساعةً عادت فيها إليَّ الأحلام، وأنا على ظهر الدابة شطران: شطر نائم، وشطر يقظان، فكانت تدور الأرض تحتي بما فيها، وتمر بي الأشجار كأنها عرائس من الجن. وكنت أسمع القسطنطين يناديني فأظنه في قارة، وأنا في أخرى، ثم رئيس القافلة: هذه هي الطريق، ثم أحد الجنود: هداك الله يا مقدم. فيُخيَّل إليَّ أني في أرضٍ غريبةِ الظل والسراب، فيها أشباحٌ تتكلَّم العربية.

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا إلى قريةٍ تُدعى الشيخ صلاح، فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم. فنام رفقائي في كن صغير لا يليق في بلاد الله بغير المواشي — ما رأيت أناسًا يخشَوْن البردَ مثل أهل اليمن — ونمت أنا في الفَلاة على سطح ذاك الكن، ساعتَين لا غير، ثم نهضنا قبل الطيور نستأنف السير، والتعب لا يزال حليفَ الجوع علينا.

فطرنا عند شروق الشمس وسِرنا في أرضٍ خضراءَ تفُوح من أدغالها روائحُ النبات الطيبة، ومررنا بوادي الذهب، ولا حيف بالاسم؟ فهو من أجمل الأودية وأخصبها في اليمن الأسفل، تجري فيه المياه، ويُزرع ثلاثًا في السنة الواحدة. رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان[١] ثم اجتزنا وادي نحلان، وفيه رأينا لأول مرةٍ سلكَ التلغراف الذي يصل تعز بصنعاء، وصعدنا من الوادي في نقيل[٢] المحرس إلى رأسه، فأشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة، ومن القمم الخضر والجرد دون تلك السهول. ثم دخلنا فيما يُدعى «نجد الأحمر»، وهي بقعة من الأرض الحمراء، صخورها تعلو أربعة آلاف قدم عن البحر، فجفَّ

---

[١] من مزروعات اليمن الحنطةُ والشعير والذرة والدخان والعدس والبطاطا والورس والحلبة والقات.

[٢] النقيل في اصطلاحهم: هو العقبة أو الطريق السالكة في الجبال العالية.

الهواء، وبرد الماء، وتعدَّدت حولنا النباتاتُ والرياحين التي ذكَّرني بعضُها بلبنان، فهو ذا البيلسان، وذاك اليانسون، وفي تلك الأدغال شجيرات من البطم والغار.

عندما وصلنا إلى أعلى درجات نقيل المحرس تراءى لنا منها جبل بُعدان، ووراءه جبل حبْ أعلى وأبعد منه، وانكشف أمامنا مشهدٌ آخَر من السهول والهضاب في وسطها، عند منحدرٍ من جبل بُعدان، مدينة إب القديمة، التي تتساوى في علوها ووادي نخلان؛ لأننا بدأنا في النزول إليها، فوصلنا بعد ساعتين إلى ساحةٍ تُدعى عند أهل المدينة ساحةَ الاستقبال، هناك يترجَّل المسافر إذا كان معروفًا، وينتظر قدوم المرحِّبين.

ترجَّلْنا طائعين، وكان قد تقدَّمنا أحدُ العساكر ينبئ العسامل بقدومنا، فبتنا ننتظر «استقبالًا يليق بنا» كما قال فيقنا رسول القاضي عبد الله العرشي. وما عتمت أن تحرَّكت الجموع وخرجت من المدينة، فشاهدنا عسكرًا زاحفًا إلينا، وسمعنا أصوات الأبواق والطبول، جاء العامل إسماعيل باسلامه بخيله ورجاله، بجنده وجمعه، وبنوبته وأهازيجه، يستقبلنا ويرحِّب بنا باسم الإمام، وبعد السلام ركبنا وانخرطنا أنا ورفيقي في ذاك الجمع المنيل المهلل، نحسب أنفسنا في حلم من الأحلام، أو في موكب من مواكب الجان، والجنود مسترسلو الشعور، مكحَّلو العيون، مزينة عمائمهم بالورود والريحان، حولنا وأمامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب:

يا مَـــن يخـــالف أمـــرَ مـــولانا ويَعصـــيهِ	لا بـــــــد مـــــــن يـــــــومٍ تـــــــراهُ
لا بـــدَّ مـــن يـــومٍ يشـــيب الطفـــل فيـــهِ	والطـــــــير يرســـــــي في سمـــــــاهُ

دخلنا المدينة دخول الفاتحين، ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت العامل إسماعيل، المشهور في بلاد اليمن، أعلاها وأسفلها، بكَرَمه وفَضْله وعَدْله، فتمتعنا بعد أيام من المشقة والشقاء بنواعم العيش وطيباته، ومثلما أسرعنا من ماوية أبطأنا في إب، بلا حياء في الحالين. فجاءنا ونحن هناك برقية من الأمير علي بن الوزير يقول فيها إنه محزون لفراقنا، فأخجلنا وعاد بنا إلى ما كدنا ننساه من التأدُّب في الغربة.

من حسنات إسماعيل باسلامه أنه لا يخطب في ضيوفه، ولا يفاخر بدينه، ولا يهدِّد بلادَ الكفر بالدمار. هو رجل هادئ الخاطر، وديع النفس، غني كريم، يحبه جميع من يشتغل في أرضه، كما يحبه جميع مَن في حكمه. وهو يخلص للإمام إخلاصًا لا يشك الإمام به، ولا يخشى من تقلُّبه. إنه العامل الوحيد – على ما علمت – الذي لا يأخذ الإمامُ رهينةً[1] منه. وقد يكون السبب في تساهُله ورحابة صدره أنه سُنّي

[1] سمعت بالرهائن في لحج فاستغربتها واستنكرتها، وكدتُ أنكر صحةَ ما سمعت. إلا أن أغرب الأمور هي أقربها في بعض الأحايين إلى الحقيقة. فالإمام يحيى يتقاضى كلَّ موظف من موظفي حكومته الكبار، الملكيين والعسكريين، رهينةً واحدة، ابنًا أو أخًا أو نسيبًا عزيزًا، يُبقِيه في حوزته كفالةَ الإخلاص والوفاء في التابعية. وهؤلاء الرهائنُ – عند الإمام على ما قِيلَ أربعةُ آلاف منهم – يقيمون في المدن المختلفة، كل بعيد عن أهله ومسقط رأسه. فتعلِّم الحكومة بعضهم، وتأسر البعض، وتمنح الآخرين، بكفالة أحدِ وجهاء المدينة، حريةَ الجولان فيها.

حضرمي. وقد تكون هذه الخلال من فِطرته، وصفاء أَرُومته. على أن المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذَّى خصوصًا في الشرق بالمذاهب والأديان. إن أول رجل لمس قلبُه قلْبَنا في اليمن هو شافعي، وأول رجل أضافنا ولم يَسُبَّ الكفارَ هو شافعي. على أني ظن أن إسماعيل باسلامه، ولو كان من عبَّاد الأشجار، يظل في فضائله الجمَّة قريبًا من الله والناس.

جاءنا صباحَ اليوم التالي يسلِّم علينا وبيده طاقة من ورد نيسان قدَّمها لي. وزرت وإياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار أنواعها، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة، فرأينا الزيتون، والموز، والعَمب، والعنب، والتفاح، والرمان زاهية كلها زاهرة. إن هذه الأشجار تنمو كلها في اليمن الأسفل؛ لأن تلك البقعة من الأرض في حين أنها تعلو خمسة آلاف قدم عن البحر فإنها لا تبعد أكثر من عشر درجات عن خط الاستواء.

أما مدينة إب فمسوَّرة، وهي وسخة ومزدحمة، تروق الناظر إليها من الخارج فقط. بيوتها من الحجر، وأكثرها ثلاثُ طبقات، تُستخدَم الأولى للمواشي والدواب، والثانية للخدم، والثالثة لأهل البيت. ليس في المدينة مدارسُ غير ما في المساجد لتعليم القرآن، وليس فيها أحد من الأطباء، ولا نقطة ولا حبة من الدواء، ويكثر فيها الجدري، والحمى، وأكل القات. إننا كلما صعدنا في اليمن نرى «التخزين» في ازدياد، وصحة النسل في نقص ظاهر، ولا سيما في الأولاد. فإن وَفَيات الأطفال في اليمن كثيرة؛ إذ قلَّمَا يعيش للرجل الواحد من عشرين ولدًا مثلًا أكثر من سبعة أو عشرة أولاد. وأظهر ما فيهم النحول، والشحوب، وضَعْف الأعصاب.

قلت إن إب جميلة من بعيد، فالقادم إليها من ماوية أو تعز يراها في السهل، وحوله الرُّبى كأنها حفنةٌ من اللؤلؤ على بساط أخضر، مفروش في بحيرة جفَّت مياهها. والقادم إليها من يَرْيم يراها قائمةً على رأس الجبل كصخر في مَرْج أو كبُرْج في جزيرة. ولها ساحةُ وداعٍ كما لها ساحةُ استقبال. مشى معنا إليها إسماعيل باسلامه ومعيته، وأرفقنا إلى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي. فسِرْنا بعد استراحة يومَيْن في نعيمِ ضيافته، ونحن نخشى أن يزدادَ عددُ الحرس كلما دنونا من صنعاء.

مررنا في طريقنا إلى يريم بوادي المرفِد الذي يفوق وادي الذهب جمالًا وخصبًا، وشاهدنا فيه لأول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه وزهره الليمون، وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب، وبساتين غضَّة من العنب والموز، تجري في ظلالها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره. وبدأنا بعد الظهر نصعد في نقيل ذاك الجبل، وهو أعلى نقيل في اليمن، فوصلنا إلى وسطه عند الغروب، وبتنا تلك الليلة في قرية تُدعى المَنزل.

ولما وصلنا إلى رأس النقيل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة، والهواء — على حمو الشمس — باردًا، فشعرتُ بالبرد لأول مرة في اليمن، ولا غَرْو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية آلاف قدم، أيْ علو ظهر

القضيب في لبنان. ومن تلك الذروة الهائلة، المدهشة المنعشة، رأينا منبسطًا أمامنا، وتحتنا قاعُ الحقل، وإلى الجنوب منه ظفار[1] التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها. إن ذاك القاع في مزروعاته المتنوعة، وبقاعه المحصودة، لَشبيهٌ بطنافس خضر وصفر وبيض وسُمْر تملأ العين بهجةً والنفسَ سرورًا. نزلنا إليه، وسرْنا مُعجَبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة إلى ما يدنو من خط الاستواء.

أمَّا استقبالنا في بريم التي كانت تُدْعى مَرْيَمه في عهد حِمْير، فقد كان مثل استقبالنا في إب، وذا مظهر – فوق ذلك – فريد؛ فقد خرج لمُلاقَاتنا أولادُ المدرسة مع شيخهم الفقيه، فاصطفُّوا إلى جانب الطريق، ينشدون ويهلّلون مُرحِّبين. ما فهمت من النشيد غير كلمة نصر الله المسلمين، رسول الخير الأمين. ولكني علمت أن الأولاد هم من الرهائن عند الإمام. إنه لَحُكْمٌ عسكري قاسٍ شديد، بل حُكْمُ اشتباهٍ وارتياب، فلا عجبَ إذا أخلص العمال لرئيسهم الأكبر، ولكل واحد ولده عنده أو أخ أو قريب عزيز.

سألنا صاحب سمسرة في الطريق: هل عندكم حليب؟ فقال: لا غنمَ عندنا، ولا بقر، ولا معزى. ولو كان عندنا فليس مَن يرعاها. شبابنا في عسكر الإمام، وأولادنا هاربون من التجنيد، والعمَّال أخذوا أغنامنا كلها زَكاةً وضرائبَ لبيت المال.

ولكننا عندما وصلنا إلى ذمار قابلنا أمير الجيش فيها ابن الوزير الثاني، السيد عبد الله، صنو ابن عمه في ماوية، سمعناه يقول: هذه بلادنا، وهي بفضل حضرة الإمام بلادُ العدل والدين والصدق والوفاء، الحكم الكامل العادل تراه عندنا في اليمن، فلا خمرَ ولا فِسْق ولا زِنى، ولا قتل ولا سرقة، ولا رباء ولا رشوة ولا اغتصاب؛ كل ذلك لأننا محافظون على ديننا، عاملون بكتاب الله، مجاهِدون في سبيله تعالى ... ثم قال: نحن نقول ونفعل، وغيرنا يقولون ولا يفعلون، أو إنهم يقولون الحقَّ ويفعلون الباطل. العرب كذَّابون ساقطون، يفضِّلون مالَ الأجانب على الجهاد في سبيل الله. نحن حارَبْنا الأتراك مرارًا، وجاهَدْنا الكفَّارَ الخَوَنة في تهامة، وسنحارب كلَّ مَن يحاول اختلاسَ فترٍ من أرضنا، أو هضْمَ ذرةٍ من حقوقنا، سنحارب حتى الموت. نحارب، وإذا غُلِبنا نتقهقر، نحارب ونرجع إلى الشمال، نحارب ونعتصم بالجبال، نحارب ونلجأ إلى الصحراء، وإذا لم يبقَ لنا غير موطئ الأقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله، واثِقين برحمته، وَطِيدي الأمل بعَوْنه. ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب؟ أين فيصل اليوم؟

قلنا: هو في العراق، مَلِك العراق.

فقال: وأي خير وأي شرف في مُلْكٍ عربي زِمامُه بيد الإنكليز؟ لكان أحسنَ فيصل لو ذهب إلى ابن

[1] لا يزال في ظفار آثارٌ حميرية رأينا من شكلها الحلي الذهبية والتماثيل الرخام عند أحد التجار في عدن، وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان وبينون وسلحين.

سعود ليُصلِح بينه وبين أبيه الحسين. الملك حسين! إن قلامةَ ظفرِ الإمام والله لَخيرٌ منه. يا لَلعار! أيفتح أبوابَ الكعبة للنصارى الكفار؟

حاوَلْنا إصلاحَ ظنِّ الأمير فيما أُشِيع عن الملك حسين. وأنا أعلم أنه لم يأذن للمسيحيين بالدخول إلى مكة. فما هدأت تأكيداتُنا من ثورة غضبه.

العرب كذَّابون ساقطون يحبون المال. وقد يصيرون بعدئذ – إن شاء الله – مثل أهل اليمن. هذا إذا اقتدى أمراؤهم بمولانا الإمام، وأخذوا من أحكامه مثالًا لأحكامهم. فتطهر البلاد كلها من الفِسق والفجور، من الزنى والخمر، من الرباء والرشوة كما تطهَّر اليمن.

وكان الرفيق قسطنطين قد رمَقَني بنظرةٍ فهمتُ معناها عندما ذكر الأميرُ في مطلع حديثه الفِسق والزنى. ثم عند ذكره ذلك ثانيةً همَّ رفيقي بالكلام فمنعتُه بإشارةٍ من يدي، فلامَني عندما خرجنا من المجلس؛ لأني حلت دون جوابه. وما جوابه؟ أضحكني من الأمير ما غاظ القسطنطين؛ ذلك لأننا في إحدى الليالي السابقة، جاءت المرأة التي طبخت لنا العشاء، والنساء في اليمن خارج المدن الكبيرة سافِرات، تعرض نفْسَها علينا بثمن فسطان من الشيت. وقد قال لنا أحد العساكر بعد أن خرجنا من ذمار: لولا رفيقُكم السيد لكانت النساء تجيئكم من كل سمسرة [1].

كنت في كل قُطْر من الأقطار العربية أفتح الأذن دائمًا لجميع الناس، فأسمع الشريف والبدوي، والجمَّال والجندي، والتاجر والسياسي، فأدوِّن أحاديثهم دون رأيي لي فيها إذ ذاك أُبْدِيه. وإني أسألك أيها القارئ، وأنا أشارِكُك الآن فيما سمعت وشاهدت، أن تُرجِئَ رأيَك كذلك إلى أن تسمعَ الحديثَ كله إن كان عن الإمام يحيى أو عن سواه. وها قد أسمعتُك كلامَ أبناءِ الوزير، وهم من كبار رجال الإمام، وحديثَ أحد الشوافع العقلاء، وهم باطنًا أعداءُ الإمام، وحديثَ صاحبِ سمسرة، وهو ممَّن يدفعون ضرائبَ الإمام. وإليك الآن بحديثِ مَن يحارِب لتعزيز وتمديد حكم الإمام.

كان في حرسنا جنديٌّ اسمه أحمد، حارَب على صغر سنه، في ثلاثة حروب مع الطليان في طرابلس الغرب، مع الإنكليز في الهند، ومع الترك في اليمن. قال أحمد: أُخِذت خدعة من عدن. قيل لي إن في الغرب حربًا بين الأتراك والكفَّار، فركبت الباخرة، ونزلت في طرابلس، وبعد أن صرت في عسكر الطليان

[1] إن بعض الأفاضل في اليمن وخارِجَه أنحوا عليَّ باللائمة لذكري هذا الحادث. فلِمَ لم يلوموا لأني نقلت كلام ابن الوزير الأمير عبد الله؟ لا فسق ولا زنى في اليمن! أيبغون الحقائق التي تدغدغ تَقْواهم دون سِواها؟ على الكاتب أن يَصدُق قرَّاءَه الخبرَ في كل شيء. أمَّا الحادث نفسه فهو عادي في أي بلد من بلاد الناس، ولولا خطبة الأمير عبد الله لَمَا كان له في الرحلة مكان، ولكني آسف لأني دقَّقتُ في التسجيل فذكرتُ اسم البلد والبيت (في الطبعة الأولى)، وعرَّضتُ المرأةَ للإهانة. إني أعتذر إليكِ أيتها المجدلية اليمانية، وأسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال.

عرفتُ أنهم يحاربون الأتراكَ المسلمين، ولكنهم أعطوني مالًا، وأسمعوني الكلامَ اللطيف، وعامَلوني معامَلةً حسنة، فحارَبتُ واستغفرت الله، الطليان أحسنُ من الأتراك، وأحسنُ من الإنكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام. أمَّا الأتراك فلا يهمُّهم النظام، ولكنهم لا يدفعون مثل الطليان. والآن يا أفندي – اقترَبَ مني لِيَهمسَ كلمته همْسًا – لا مال، ولا نظام، ولا لطيف كلام. أمَّا حضرة الإمام فهو رجلٌ عظيم، رجلٌ صالح عادل عزوم. ولكن عمَّاله طمَّاعون يشتهون دائمًا الفلوس ... قسمتنا خمسة ريالات في الشهر، عندما يدفعونها. ولكنهم يسيِّروننا في البلاد من طرفٍ إلى طرف، وليس في قميصنا بغشة – أيْ قرش – واحدة. والأهالي لا يحبوننا؛ لأنهم يدفعون ضرائبَ كثيرة، ولا يُطعِموننا ولا يُؤووننا إلا إذا دفعنا. وماذا ندفع؟ ما في هذه القميص شيء – نفَضَها ليُرِيَني أنها فارغة – وثمنها يا أفندي أنا والله دفعته. ويجب أن أدفع أيضًا ثمنَ النيل لأَقِي جلدي من البرد. والقات؟ مَن يدفع ثمن القات؟ نحن في اليمن فقراء، وحُكْم الإمام يزيدنا فقرًا.

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسةَ عشرةَ وهو متزوج، فسألته: أين زوجتك؟ ففرقع أصابعه وهو يشير إشارةً يمنية لطيفة، وقال: هي هناك وراء الجبل. وهو لم يَزُرْها منذ سنة. «ولا أعود إليها والله حتى يصير في جيبي ظلط». فقال أحد رفاقه: مسكينة تموت ولا تَراك.

وقال آخَر لحيته بيضاء، ظننته يتجاوز الخمسين: لا والنبي! لا أزال في الثلاثين. أما هذا الشيب فهو من هنا – وأشار إلى قلبه وسَكَت. ثم راحوا كلهم، ويد الواحد في يد الآخر، يعدون وينشدون:

يا الله اليــــــوم فــــــرج وفــــــك العســــــر،

يا مفــــرج علــــى الــــنفس في ضــــياقها[١]،

بــــــدل العســــــر بكــــــل يســــــر،

وفــــتح أبــــواب قطــــال[٢] غلاقهــــا،

كيــــف قــــوم محــــوَّز[٣] وقــــوم أخــــر

في المقايــــل[٤] علــــى شــــرب تنباكهــــا.

لم أَرَ عربًا يتكتَّمون في أمورهم مثل عرب اليمن، وخصوصًا الزيود. ولكنهم إذا سنحَتِ الفرص ووثقوا من محدِّثهم يجهرون، فيفصحون ويصدقون. والسيد والأعرابي واحد من هذا القبيل. أرفقنا أمير الجيش في

[١] في ضيقها.

[٢] قد طال.

[٣] محاصر.

[٤] جمع مقيل.

ذمار بأحد السادة إكرامًا أو استعلامًا، لا فرق، فكان يركب بعيدًا عن الجنود، ولا يقترب منهم إلا آمِرًا أو ناهيًا. وظل في اليوم الأول بعيدًا كذلك عني؛ فما كان بيننا من الكلام إلا السلام.

ولكنه في اليوم الثاني سألني همسًا أنْ أُطلِعَه السرَّ في حفظ الماء باردًا في قنينة الـ «ترموس» التي كانت معي. فأخبرته ورسمتُ الشكلَ في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء. فدُهِش وقال: الإفرنج أصحاب عقول – عقول ذكية. وهم يستخدمونها دائمًا في كل شيء. ونحن لا نستخدم عقولنا إلا في الحروب. سأسافر يومًا ما إن شاء الله. سأخرج من اليمن متنكِّرًا... أهل اليمن يا أمين يغارون جدًّا على دينهم، ويظنون أنْ ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار، ولكني سأسافر – إن شاء الله – وإن كفرت.

سألني السيد محمد أن أعطيه عنواني، فكتبته في ورقة، فأخذها وخبَّأها في طيَّة من طيَّات عمامته البيضاء، وقال: ستبقى سرًّا بيننا، وعندما نصل إلى صنعاء أنت تنزل ضيفًا على حضرة الإمام وأنا أذهب إلى بيتي، فلا نتقابل بعد ذلك، ولا لزوم.

وفي اليوم الثالث اقترَبَ مني وأنا أكتب، فقال: ما الذي تكتبه في دفترك؟ فقلت، وكنت خلال السفر قد سألته عن أسماء بعض النباتات والأزهار: ما أعلَمْتَني به. فقال: وما الفائدة من كتابة أسماء الأزهار والأشجار والحجار؟ فقلت: قد تَهمُّ معرفتُها مَن يجيء بعدي. فاقتنع ظاهرًا، ثم قال: هو ذا اليوم الثالث وأنا رفيقك، أفتأذن بسؤال؟ فقلت: نعم، بعد أن تجيب سؤالي: هل أنت مسافر إلى صنعاء لشغل خاصٍّ بك، أو بأمر من أمير الجيش؟ فأجاب: لي حاجة في صنعاء، ولكني لولاك ما جئتها اليوم. أرسَلَني الأمير رفيقًا حبًّا وإكرامًا. وما قصدك يا أمين من زيارتك اليمن؟

– مُشاهَدة البلاد، وتأليف كتابٍ فيها وفي أهلها.

– وهناك مقاصد أخرى؟

– نعم، أراكم حيث كان أجدادكم منذ ألف سنة، وسأقول هذا لحضرة الإمام، فعسى أن يسعى فيما يدفعكم إلى الإمام، فيفتح المدارسَ في البلاد، ويمهِّد سبيلَ العلم والتعليم.

– العلم ناهي[1] ولا ريب في ذلك، أنا من رأيك، وأقسم بالله وبهذه الشمس الغاربة إني صديقك. فقال لي: هل يطمع الإنكليز ببلادنا؟

– لا أعلم، قد أكذب إذا قلت لا، وقد أكذب إذا قلت نعم.

– ألستَ رسولَ الإنكليز إلى الإمام؟

[1] ناهي: جميل.

– لا، حتى ولا رسول أي دولة من الدول. لا ناقةَ لي في السياسة ولا جَمَل، ولكني أقول لك إني أخو العرب، وصديقُ العرب، وأشتهي أن أراهم جميعًا في ائتلافٍ بعضهم مع بعض. أشتهي أن أرى الأمراء ساعِين في سبيل الوَحْدة العربية وتعزيزها.

– ناهي، ولكن كيف تتم الوَحْدة؟ اعلم أن الإمام رجلٌ عظيم، أعظم العرب اليوم، وهو يطمح إلى حُكْم اليمن كله بأسره، ثم إلى حكم البلاد العربية كلها بأسرها.

– قد يكون الإمام رجلها وابن بجدتها. ليجتمع الأمراء ويتفقوا على ذلك.

– ولكن كيف يجتمعون وأين؟ ومَن يدعوهم؟

– يا حضرة السيد، قلت وأنت الصادق: إن عندي رسالةً أبلِّغها الإمام. فلو أطلعتُك أنت على كل شيء، فبماذا أحتفظ للحضرة الشريفة؟

ابتسم السيد مُحَمَّد، وقال: كلام حكيم. ولكني أنا أُطلِعك على ما لا عِلمَ لك به. شكوتَ بيوتنا الضيقة، وسقوفها الواطئة، ونوافذها الصغيرة، فلو سحتَ في عسير لَوجدتَ البيوت هناك أضيقَ وأظلم. أتعرف السبب؟ لا يزال أهل اليمن وعسير وحشيّين، لا يثق الواحد منهم بأخيه، ولا يركن إليه، حياتهم خوفٌ دائم واضطراب. هكذا ينامون في عسير — وبادَرَ إلى بندقيته فوضَعَها بين جنبَيْه وضمَّها إليه — هم كالحيوانات البرية يخشَوْن كلَّ مَن يدنو منهم. وفي اليمن، قد رأيت بعينك، الناس كلهم مسلَّحون، وكلهم يقاتلون ويقتلون لأمرٍ طفيف. نحن نغار على حقوقنا. ما قيمة هذا؟ — وأخذ بيده فنجانَ القهوة — ولكنه لي، هو حقي. فإذا أخذتَه مني، اغتصبتَه، وما سمعتَ احتجاجي أقاتِلُك، أستلُّ عليك هذه الجنبية، أذبحُك. هذه طريقتنا في اليمن. وإذا حدث قتال بين بيتَيْن في هذه القرية مثلًا ينضمُّ أهلها وقد انقسموا حزبَيْن إلى المتقاتلين، فتشبُّ في.

السيد الإِدريسي



حضرة السيد مُحَمَّد بن علي الإدريسي

(١) بلاد السيد أو ما يحكمه الإدريسي من عسير

- **حدودها**: غربًا البحر الأحمر، شمالًا أبو مَتْنه على البحر، جنوبًا الحديدة، شرقًا جبال اليمن (وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان **١٣٤٠** كما يلي: آخر جبل ريمه جنوبًا للإمام يحيى، وجبل براع المجاور لريمه للسيد الإدريسي، وآخر جبل صعفان شمالًا للإمام، وأول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد).
- **سكانها**: نحو مليون نفس.
- **مساحتها**: تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلًا شمالًا بجنوب، ومعدل عرضها غربًا بشرق سبعون ميلًا. السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه أربعون ميلًا.

- **أهم قبائلها**: رجال المع والمسارِحة، وبنو مِروان، والقُحراء، وبنو هلال، وبنو عبس.
- **أهم مدنها**: صبيا، وجيزان، وميدي، واللحيَّة، والحديدة، وأبو عريش، وباجل.
- **مذاهبها**: السنيُّون: شوافع. الشيعة: جعفريون، وإسماعيليون. البارسيون واليهود والهندوس.

(٢) سطح اليمن

الكريم مَن لا يعلِّلك إذا عجز عن الإكرام والمساعدة، وإذا أكرمك فلا يمتُّ عليك. والكريم إذا كان موظفًا لا يقول: لا، بعد أن يقول: نعم، وإذا قال: نعم، يشفع الإجازة مثلًا بالصنيعة، والصنيعة بالبشاشة. إن الإنكليزي في بلاده، وفي حكومة بلاده هو هذا الرجل. أما خارج إنكلترا، ولا سيما في الشرق، فهو مثل الواحة في الصحراء؛ لذلك هو أكبر قدرًا، وإن لم يكن أرفعَ مقامًا، من زميله في إنكلترا.

قد كان حَظِّي في رحلتي أني مررت ببعض الواحات، منها واحة في دار الاعتماد بعدن، استأنست بظلها وانتعشت. أقول «بعدن» على الرغم مما لقيت فيها من العقبات. فقد كانت خطتي في السفر أن أزور الإمامَ يحيى في صنعاء، ثم أسافر منها إلى الحديدة لأزور السيد الإدريسي في عسير. ولكن الإمامَ والسيدَ أعداء، والبلدَيْن في احتراب. أمَّا الإنكليز، فإذا كان لا حقَّ لهم في اليمن الأعلى، فهم يستطيعون أن يمنعوني من الدخول إلى بلادٍ صاحِبُها حليفهم، ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلًا في يدهم. سألت المعاوِن الفاضل في دار الاعتماد، بعد أن صدرت الإجازة بالسفر إلى صنعاء، أن يُعطِيَني كتابَ تعريفٍ إلى وكيلهم السياسي في الحديدة، فأجاب: هو اليوم في عدن، وسأقول له أن يزورك. وكان كذلك. فاجتمعت بوساطة المعاون بفاضلٍ من أفاضل الهند، روحه شرقية، وعقله شرقي غربي، هو الدكتور محمَّد فضل الدين؛ الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا.

وكنت وأنا في طريقي إلى صنعاء أشكر الاثنين دائمًا؛ لأني كرهتُ أن أعودَ من حيث أتيت لا لما قاسَيْنا من المشقَّات فقط، بل لرغبتنا في أن نحيط علمًا بالبلاد وأهلها، ولكني وأنا في صنعاء ظننتُ مرةً أن الإمام لا يأذن بالسفر إلى بلاد العدو، فتمثَّلَتْ أمامي تلك الطريق إلى عدن، وآفاق الحياة فيها مُربدَّة كلها. ثم جاءنا أحد السادة يزيدنا كربًا وغمًّا فيما صوَّره من الأخطار في منطقة الحدود بين الحجيلة وباجل: إذا سلمتم فيها، فلا تسلمون من الأسر. الإدريسي لا يركن إلى أحدٍ قادم من عند الإمام.

ولكن حضرة الإمام عندما فاوَضْناه في الأمر حقَّق لنا أملًا في إرساله كتابًا مني إلى الدكتور فضل الدين بوساطة عامل حراز في مناخة، وأمير الجيوش الإدريسية في باجل. وقال تهدئةً لبالنا: إذا جاء الجواب بالإيجاب، فلا بأس بسفركم.

إن المسافر في البلاد العربية ليتعلَّم قبل كل شيء الصبر، صبرنا عشرة أيام، وقطعنا الأمل، ولكننا وجدنا شيئًا من التعزية في الآية: وعسىٰ أن تكْرهُوا شيْئًا وهُو خيْرٌ لكُمْ، فلا تخلو الطريق بين بلدين

متحاربين من الأخطار. وبينا أنا أفكِّر ذات يومٍ فيما أقول لمولاي الأمير في ماوية، وقد سألني: أحَسَني أنت أم حُسَيْني؟ وعرف بعدئذٍ أني مسيحي، وكيف أجيب في يريم ذاك الشيخ الفقيه الذي جمع أولاد مدرسته صفًّا، وأنشد وإياهم: نصر الله المسلمين، ورسول الخير الأمين. بينا أنا في هذه الورطة دخل الحاجب، وبيده ثلاث لفائف قدَّمها لي قائلًا: من الإمام؛ ففضضتُ الأولى فإذا هي:

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبد الله بن الحسن العمْري – حفظه الله وتولاه – وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وصلى الله وسلم على مُحَمَّد، وآل هداته، والله يحفظ ولي النعمة، ويديم بقاه، آمين.

وصلت إلى هذا الحد، وكدت من الغيظ أشتعل فصحت بالحاجب: يا رجل، هذه الرسائل ليست لي. فأجاب وهو يحلف برأس الإمام أنْ قد جاء بها رسولٌ من الديوان يقول: هي لأمين ريحاني، فاستأنفتُ القراءةَ حيث وقفت مغضبًا:

صدر السلام، وصدر جواب البوسطة المرسول إلينا. العنوان لنا، والمكتوب للريحاني كما تطَّلِعون، والله يحفظكم.

عامل حراز علي الأكوع

في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠

ثم في حاشية:

والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم، ونعوذ بالله من النار.

وكانت اللفافة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأجلِّ المحترم الشهم أمين الريحاني، سلَّمه الله

بعد السلام والإكرام، ورد كتابكم مع كتابٍ إلى حضرة الحكيم مُحَمَّد فضل الدين، وبوقته أرسلناه تلغرافيًّا إليه، وورد جوابه، وها هو مقدم إليكم، إذا أشعرتمونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيلة ليرافقكم إلى باجل.

قائد الجيوش الإدريسية مُحَمَّد طاهر رضوان

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

وكانت اللفافة الثالثة (حديدة ٨٣٣ ٧–٨ سنة ٤٠):

إلى صديقنا أمين الريحاني

حيَّاكم الله وعافاكم. سرَّنا عزمكم لطرفنا. أهلًا وسهلًا بكم. حين وصول تلغرافكم أشعرنا حضرة

القائد الشيخ الهمام محمَّد طاهر رضوان قائد الجيوش الإدريسية بباجل ما يلزم. وقريبًا نراكم – إن شاء الله – بأحسن حال.

محمَّد فضل الدين

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

والحمد لله! قد اطمأنَّ بالنا، وحسن حالنا. لا تظنَّ أيها القارئ أن اهتمامنا بمثل هذا الأمر، وإشغالك به هو ضرب من السخافة؛ فإنك إذا رافَقْتَنا في السفر، وأدركت بعض مقاصدنا، وأحْسَسْتَ ببعض ما كنَّا نُقاسِيه في سبيلها، تتأكَّد أن صغار الأمور تَحُول أحيانًا دون كبارها. فالحمد لله إذن على ساعة في رمضان سعيدة، بدَّدتْ غيماتٍ ماوية ويريم من سمائنا، وفتحت لنا طريق الحديدة، فصفا الذهن للمفاوَضات السياسية، التي استمرت بعد ذلك عشرة أيام. ثم استأذنَّا حضرة الإمام بالرحيل، فكان في توديعه لطيفًا كريمًا: «ما تمكَّنَّا ونحن في رمضان أن نقوم بالواجب، ونودُّ أن تبقوا عندنا إلى شهر العنب[1]. قد تعود إلينا يا قسطنطين، أمَّا الأستاذ أمين فسيسيح في البلاد الغربية، ويرى غيرنا. فلا تظلمنا يا أمين بالمقابَلة بيننا وبينهم».

ثم أمر لنا بالركاب، وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زبارة غيورًا على راحتنا، فلم يدع شيئًا من مُريحات السفر وحاجاته إلا وفَّره لنا. مثال واحد من غيرته وعزمه: عندما جاءت المطايا صباحَ يوم الرحيل رأى أن سرج إحداها بلا ركاب، فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتبرَّم، فضرب السيد عليٌّ يده على وسط الرجل، وأخذ الجنبية[2] منه قائلًا: رُحْ هاتِ الركاب. فراح المكاري إلى المدينة راكضًا، وعاد مُلَبيًا. ولم يُرجِع السيد عليٌّ الجنبيةَ إليه إلا بعد أن تشفَّعْنا به. «إذا كان هذا إهماله، وهو لا يزال تحت عيني، فكيف يكون في الطريق ورأس الإمام!».

وأشفع القسم بخطبة وجَّهها إليه، وإلى رفاقه كلها وعيدٌ وتهديد. شيَّعنا السيد علي والسيد أحمد الكبسي من قِبَل الإمام إلى خارج السور، فودَّعناهما هناك شاكرين متأسفين، إذ كنا نجتمع بهذين الفاضلين أكثر من سواهما، وكان السيد أحمد خصوصًا أقرب الجلساء إلينا، وأكبر المؤنسين.

سِرْنا من صنعاء غربًا نبغي البحر، وما كنا لنتصوَّر ما وراءه من الجبال، وما بين جبل وآخَر من هول المسافات، حتى وصلنا ذاك اليوم إلى رأس بوعان. ولكننا أيها القارئ العزيز لم نصل وإياك إليه. إننا لا نزال بين صنعاء وجبل عصر في سهلٍ وَسِيع، فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمر البور «كباقي

[1] عنب صنعاء مشهور بجودته وأنواعه، وهو ينضج هناك في آخِر حزيران.

[2] للجنبية – أي الخنجر – عندهم قيمتان: قِيمة حقيقية فيما يصلح له، وقِيمة عرضية اجتماعية؛ أيْ فيما توجبه المروءة واللياقة. فهي أعزُّ ما يحمله اليماني، وفي انتزاعه منه أشدُّ تأديبٍ له، وأكبرُ إهانة.

الوشم في ظاهر اليد»، إذا آثَرْنا استعارةً من شعراء الجاهلية، أو كالشامات في وجوه البدويات إذا شئنا التشبيب، أو كبعض الأوراق الخضرا – وهذا أقرب إلى ما كنَّا نشعر به ونحن نجتاز تلك الأراضي المهملة – في شجرة عرَّاها الخريف، ولكن للشجرة ربيعًا يعود إليها. وهذه البلاد في مكان من الأرض شاءت الطبيعة أن يكون ربيعه دائمًا، وما شاء الإنسان غير الكسل والخمول.

إن الهواء والسماء والماء تبسم كلها لأرض اليمن، ولكن اليماني لا يستخدمها إلا فيما يحتاج مباشَرةً إليه، فمما لا ريب فيه أن في السهول حول صنعاء ماءً حيثما بحثت؛ لأنه في قديم الزمان –كما يقول بعض العلماء –كان يجري نهرٌ هناك، ولا تزال المياه تتدفَّق من جبل لُقم في قُنِيِّ المدينة، ولكن الصنعائي يغنِّي طيلةَ نهاره لجمل الساقية، أو يقضي نصف نهاره في «تخزين» القات، ولا يسعى في إحياءِ أرضٍ فيها قيْدَ عشرةِ أَذرُع، وأقل من الماء والثراء. أجل، إن بين لقم وعُصر، وما يُدعى في الشمال الأرحاب من المياه ما يكفي لإشغال مئات من السواقي والجمال، فلو استُخدِمت لكانتْ تلك السهول بساطًا واحدًا أخضرَ ناضرًا.

وهذه هي طريقُ العربات التي بناها الترك. إنه لَيَحزنك كذلك مَرْآها وذِكراها. بدأنا نصعد فيها إلى جبل عُصر، فحدَّثنا خرابُها بفشل الدولة، وشكا إلينا إهمال الإمام. هي طريق الحديدة إلى عاصمة الأذواء، إلى قلاع الزيود، بُنيت لرُسل الخراب، لا لرُسل العمران، بُنِيت لجر المدافع ونقل الجيوش، لا للتجارة والمواصَلات المثمِرة خيرًا. تلفَّتْنا من آخِر منعطف فيها فإذا بصنعاء، وقد احتجبتْ بحجابِ ذهبٍ شفاف، نسجته لها الشمس الشارقة فوق لُقم العاري العقيم.

وما أجملَ ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب؛ مدينة عجيبة كان لها من أسباب العمران والمجد والشهرة ما لأكبر مدن العالم المتمدِّن اليوم. لها تاريخ غابر مجيد، لها مدنية قامت بين شمس المجوس، وكواكب الأوثان، وتعدَّدت فيها الأسرار والكهان، وعزَّت عندها آمالُ الإنسان، فكانت ملكة سباء، وكان حِمير، وكان قحطان، ثم التوحيد، وشوكة قريش وعدنان، وما تقدَّمه وتَبِعه من علماء وشعراء، ونوابغ في فن البناء. فضلًا عما خصَّتها الطبيعة مما لا يزول أبدًا ولا يَحُول؛ فهي على علوها لا تعرف الثلج، وهي على دُنوها من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزواتٍ واهنات. وفيها الغزير من الماء القراح، فلو عُبِّدت إليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال، واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لَتَقاطَرَ إليها الناس صيفَ شتاءَ من كل النواحي حولها، ومن البلدان العربية والآسيوية والأفريقية كلها، ولَغَدَتْ في أقل من عشرين سنةً باريس البحر الأحمر.

أي صنعاء عاصمة الزيود والجمود، إننا نغار عليك من الاثنين، ونود أن يعود إليك مجْدُ الأجداد محمولًا على أَكُفِّ العلوم الحديثة التي من شأنها أن تُصلِحَ أحوالَ الإنسان، فترقيه في جسمه وعقله وروحه، وفي بيته ومدينته وبلاده، وما سِواها من العلوم لا نبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب.

أي صنعاء عاصمة الأذواء، إننا في حبنا أبناؤك، وهم مثلنا من الناس، ونحن وإياهم من سليلة واحدة، نفادي حتى بشيء من معالم الوطنية من أجلهم، فتصحُّ أجسادهم إذا اتَّقوا الأمراض، وتنجلي عقولهم إذا فتحوا المدارس، وتصفو روحيتهم إذا أدركوا من الدين حقيقته الأولى، وسِرَّه الأعلى. أما الذين أدركوا بعض تلك الحقيقة، وبعض ذلك السر، فهُم يشاركونك في صلاتك، في فاتحة كتابك وختمته، ويودُّون أن تُشارِكيهم في صلاتهم. نظرة أخرى يا صنعاء، ونستودعك الله ... قد أكلنا من ثمارك، وشَرِبنا من مائك، ونمنا تحت سمائك، وانتعشنا بعليل هوائك، وكنَّا قبل ذلك نحبك، فكيف بنا بعد ذلك؟ فإذا جاء بعدنا مَن يصلِّي صلاتنا وصلاتك، ومَن يحبك حبَّنا، ويغار عليك غيرتَنا، ورأى فيك بعض ما تاقت إليه النفس منا، وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم، بعض الفنون، بعض الطرب، بعض العمران — فسنغبطه، ونحن بعض السر الأكبر في الفضاء، وفي اللانهاية، وستغبطه منَّا العظام والتراب.

وهذه أقحوانةٌ في الطريق، وأقاحٍ في الحقل بيضاء صفراء تبشِّر بالربيع، ولكنه ربيع آبدٌ نحيل، يكاد يَطَأ الثَّرَى فتظهر مُنقطعة آثاره الناعمة، ومثله لا يحيا في مثل هذا العلو بأرض الشام، إنما نحن على ألفِ قدمٍ فوق صنعاء، وتسعة آلاف فوق البحر، وقد احتجبت عنَّا المدينة المحبوبة احتجابًا — أبديًّا؟ الله أعلم.

وتلفَّتَتْ عيني ومذ خفيت عني الطلول تلفَّتَ القلبُ

وهو ذا النبي شعيب قريب بعيد، هنالك على الأفق أمامنا يلوح كالطيف أسحم رائعًا هو أعلى الجبال في شمال اليمن بعد شُبام، فيرافقنا اليومَ وغدًا.

سِرنا أربع ساعات، فوصلنا إلى مَتْنه، وهي للقادم من مناخة أو من الحديدة آخِر مرحلة إلى صنعاء. مَتْنه! كانت في أيام الترك مربعًا لعرائس الحبور، ولرسل السلامة والسرور. فكَمْ من أبناء الدولة المجاهدين — المَسُوقين إلى الجهاد في اليمن — كانوا يخرجون من تهامة، فيموتون في قَيْظ السبخاء، وفي الشعاب، وفي «النقيل»، وفي مضايق الجبال، وفي مكامن الأودية، فيهتف مَن يصلون منهم إلى هذا المكان سالمين: أربع ساعات إلى صنعاء، بادشاهم جوق باشا، وكانوا يقضون يومًا أو يومين ها هنا ينتظرون المتخلِّفين من إخوانهم فيعيدون، ويهلِّلون، ويبذلون من «الظلط» ما لا يزال صاحب «السمسرة» يتلمَّظ بذِكره، فيهز رأسه اليومَ آسِفًا محزونًا، ويُرِيك البيت الذي كان قصرًا في تلك الأيام ... وكَمْ من يهوديات صنعاء خفَّفن فيه من كرب المجاهدين وغمهم!

الطلول الدوارسُ هجرتها الأوانسُ

وقفنا في مَتْنه إكرامًا لعساكرنا، وقد اشتهوا القهوة، قهوة القشر. وجميعهم مسرورون؛ لأنهم مسافرون في رمضان (فَمَن كان مِنكُم مَرِيضًا أَوْ علىٰ سفرٍ فعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَر) كلهم إلا واحدًا، هو رئيس القافلة، أبي التمتُّع بتحليل النبي، وكان الجائع النعسان على الدوام. فما نادَيْناه مرةً إلا كان ينعس فوق حماره، وهو

يمشي الهوينا مشيةَ البقر، ولا يلذُّ له إلا مؤخر القافلة. اسمه – الدليل لا الحمار – حمدان، فسمَّيناه نعسان، فزاد ذلك في الطين بلة، وكأنَّ الإهانةَ لحقتْ به وبحماره فصار لا يُرى في مقدم القافلة ولا في مؤخرها. «يا حمدان النعسان، أنت الدليل، وما نحن بفقهاء لتدلَّنا إلى الوراء. رُحْ يا حسن فتِّش عن النعسان». فيعثر الجندي به وهو يتسكَّع في منعطف الطريق، فينتهره ويَسُوق بالبندق حماره. فيجيئنا التقي النقي، الصائم النائم، وهو يتمتم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعليك السلام يا حمدان، وصلنا إلى بوعان، وهي بضعة أكواخ عند جسر لطريق العربات، جميل الهندسة، متين البناء، حجارته سوداء وحمراء وبيضاء، أحسنُ ما في هذه الطريق جُسورُها. في بوعان إسطبل يُدعى مقهاية[1] دخل «القراش» أي الدواب والعساكر إليه، ورحنا أنا وقسطنطين نبغي ظلًّا تحت الجسر، فبسطنا غذاءنا إلى جنب الماء هناك. وبعد أن أكلنا واسترحنا قليلًا استأنفنا السير، فودَّعنا طريقَ العربات التي تمر في سفح جبل بوعان، وتلف في الأودية لتصل إلى مفحق، ومنها إلى مناخة. صعدنا في الجبل في طريق وعرة زلاء، وقلعة بوعان إلى شمالنا تنطح السحاب، حتى وصلنا إلى أعاليه، فصفرت فيه الرياح، وأعلَمَتْنا بمظهر من مظاهر الطقس غريب؛ فالشمس شمس الصيف، شمس اليمن المحرقة، والزهور زهور الربيع، أما الهواء فلا ربيعَ ولا صيفَ فيه. كنت إذا أغمضت عيني أظن نفسي في أعالي لبنان في الشتاء، هذه ثلاثة فصول في وقت واحد.

إن رأس بوعان لسطح اليمن، وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان، الشرقي: أيْ باب صنعاء، والغربي: أيْ باب مناخة. دخلنا الهيكل من باب صنعاءَ، فمررنا برواقه بين أنصاب جليلة، وعُمُد رائعة، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الأكبر. وما هي إلا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي، باب المخاوف والأهوال. إن المسافر لَيجدُ نفسه في غير ما أَلِفَه من الأرض، فيحس هنيهةً أن دورة الدم فيه قد وقفت تمامًا، فيشهق ولا يتنفس، ويهتف ولا يتكلم، هناك مشهد من الجبال والأودية رائع، مخوف، يهمس ربه في أذن الإنسان: لا تكن مُكابِرًا، ولا تكن فَخُورًا.

لا أظن أن في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط، بل يتراكم أمامك في اليمن عندما تقف على ذروة بوعان، فتشرف منها على بحرٍ تجمَّد تحتك، رءوس أمواجه قنن الجبال، وسطحه الأودية المتشعِّبة الملتفة بعضها على بعض، وهنالك وراء القنن الشاهقة، والصخور الشامخة المسنمة، والهضاب الهرمية، والأودية المدلهمَّة، والمنحدرات الهائلة، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز، وفي الشمال سريح وكوكبان، هنالك الغيمة التي هي مناخة، وشكلها كسرج الفرس، دلَّني عليها حزام، فما صدقت أن سنكون فيها مساء الغد، وما هول المسافات والشواهق بشيء عند هول الوهاد والأعماق. لبنان! نعم

[1] في الطريق من عدن إلى صنعاء يُدعى الخان سمسرة، وفي الطريق من صنعاء إلى الحديدة يُسمُّونه مقهاية أو قهوة.

ذكرت لبنان. ولكنه وإن فاق بوعان وشبام علوًّا، فهو يضيع في جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف، مناخة! سنكون غدًا هناك. إنك إذا وقفت في بوعان لا تصدِّق أن بشرًا يستطيع أن يقطع تلك المسافات في أقل من أسبوع.

وإن الطير نفسها لتتعثَّر بسنام الصخور والقنن، فلا تظن أن ما خلقه الإنسان على شكل الطير يستطيع أن يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبابرة، والكامنة رءوسها كُمُونَ العدو في السحاب. أمَّا إذا حلَّقت الطائرة فوقها فهي ولا شك تضلُّ السبيلَ فيما يشبه تحتها أمواجَ البحار.

من سطح اليمن في بوعان شرعنا ننزل إلى قبوه في مفحق، وبين الاثنين درجات لا تُعَد، ووهاد لا قعْرَ لها ولا حد، ومُنحدَرات لا وطيدَ فيها غير صخور تظلِّل الجادات، وتُسَد فيها المنعطفات، فيزل عندها حتى الإنسان، فكيف بالحيوان؟! مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة، والرِّجْل تبغي السلامة، فكنا نضطر أن نقف لنحقِّق البغيتَيْن.

وكلَّما وقفنا لاح لنا في المشهد شيءٌ جديد جليل، في شِعبٍ هناك أو في نقيل. إن جبال اليمن كجبال سويسرة في وهادها، وأكبر منها في اتساعها، ولكنها غير مأهولة، وتقل فيها الأشجار والمياه.

في الطريق من صنعاء إلى مناخة لم نمر بمدينة واحدة، وأكبرُ قرية شاهَدْناها هي الحَيمة؛ قرية عجيبة في وضعها ومركزها، تراها إلى اليمين في الطريق من بوعان إلى سوق الخميس، وبيننا أودية متشعبة عميقة، وعلى كتف إحداها أرضٌ بدكات في شكل نصف دائرة ذكَّرتنا بلبنان، وما أكثر ما يذكِّرك في اليمن بلبنان! أرض الحيمة كلها مزروعة، وفيها العودان: البن، والقات. وفوق تلك الدكات البلدة، وهي عدة أقسام، عدة أحياء؛ كلُّ حي قرية بذاته، بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض. وبين كل حي وحي مسافةٌ يتخلَّلها شِعب أو نقيل. أما السبب في هذا التقسيم والتباعُد في قرية واحدة، فهو يتصل كما أُخبِرت بثارات توارثَها الأهالي، وهم من عشائر مختلفة، فاتخذ كلُّ قوم حيًّا منفردًا بعيدًا عن الآخَر، وشادوا فيه بيوتهم، بل حصونهم ليكونوا في مأمنٍ من رصاص البنادق إذا شبَّتِ الحرب بينهم. إنك لَتراهم مع ذلك يحرثون الأرض ويستثمرونها. أجل، ليس في الطريق من صنعاء إلى مناخة أخصبُ وأجملُ من بساتين الحيمة الغضَّة، ودكاتها المستديرة الخضراء.

وصلنا عند الغروب إلى سوق الخميس، وهي قرية صغيرة قائمة وسط المنحدر بين بوعان ومفحق، تحتها الوهاد وفوقها الجبال، وفيها مركز للسلك الذي يصل مناخة بصنعاء. استقبلنا العامل ورجاله فأنزلونا في دار الحكومة، واستأذنونا بعد العشاء بأن يَعقدوا عندَنا جلسة القات، فقبِلْناهم مُكرَهين ضيوفًا؛ لأننا في مرحلةٍ استمرتْ إحدى عشرة ساعة، وفي أوعر طرق اليمن التي اجتزناها، كنا قد أشرفنا من شدة التعب على الهلاك. جاءوا برزم القات، وبالمداعات، فأقفلوا النوافذ، ونزعوا عن رءوسهم العمامات، وطفقوا

يدخِّنون «ويخزِّنون» دون انقطاع، حتى أمست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفالج. خرجت إلى الفلاة لأنجوَ من الاختناق، ولما عدت ألفيتُ القسطنطين – زاده الله قوةً وعافية – يفكه الجلوس بأخبار الطائرات، وقد تأسَّف عندما نهضوا بعد منتصف الليل يودِّعون ليستأنفوا الجلسةَ في غرفة أخرى. فتحنا النوافذ لنطهِّر البيت، وماكدنا ننام حتى استفقنا على صوت الطبل، طبل السحور.

قمنا، و«لا حول ولا» على الأسِنَّة نشدُّ للرحيل، فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل، نازلين من جبل إلى جبل، ومن وادٍ إلى واد – نازلين إلى جحيم اليمن، إلى القعر الذي لا قعرَ دونه في تلك الأرض، إلى مفحق. وما مفحق غير اسم لشِعب ضيِّق مدلهم، شاهدنا فيه لأول مرة الرباح، وهو سعدان كبير، وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد، ومن النباتات الشوكية وأنواع الصبير ما لا نعرف له اسمًا غير الصبير وصبر أيوب.

من سطح اليمن في بوعان إلى قبوه في مفحق مسيرة ست ساعات، فيها منتهى الوحشة والوعورة. ثم من مفحق عدنا إلى التصعيد، ثم النزول مرارًا، فمررنا بمقهاية تُدعى العجز، استقبلتنا فيها امرأةٌ ذات وجه بشوش فتك الجدري بمَحاسِنه، فلم يُبْقِ على غير الشكل والعيون. سقت «القراش» بقربةٍ ملأتها من البئر بيدها، وكانت في عملها وحديثها سامريةَ بلاد الزيود. قد شاهَدْنا غيرها من أخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلخال يشتغلن في الحقول، وأكثرهن يحملْنَ في وجوههن نبأ حُسنٍ ذهَبَ فريسةَ الجهل والوباء، وكأنَّ الناس هناك ألِفُوا هذا التشويه، فلا ينفرون منه ولا يحزنون.

وصلنا بعد الظهر إلى سفح جبل حراز، فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الأخير إلى مناخة، ففكهنا أحد الرفاق بقصةٍ أَنْسَتْنا بعض أتعاب الطريق. كان الحديث في النساء، والمحدِّث رجلًا خفيفَ الظل، حَسَن النكتة، رافَقْنا من متنة ورجلين آخَرين أحدهما شيخ شائب، والآخَر جمَّال حطاب. قدَّم لي المحدِّث نربيش المداعة قائلًا: لا يهمهم الجدري ما دام الفقيه بخير. لهذا الرجل – أشار إلى الشيخ الذي كان نائمًا – امرأة مثل مَن رأيت؛ وجه حَسَن، ولسان حلو، وله فتاة اشتهَتِ الأمُّ أن تعلِّمَها القراءة، فاستحضرت الفقيهَ إلى البيت، فقرأت المسكينة أسبوعًا فقط ثم – وضرب كفَّه الأيمن على قبضة اليسرى – وقعت في الشَّرَك، طلبها الفقيه من أمها فأبَتْ؛ فأفرَغَ البندق في بطنها. ورأس الإمام! فقلت: قتَلَ الأم؟ فأجاب: قتَلَ الفتاة! وهو ذا الحين في السجن بصنعاء. وهذا الشائب – مسكينٌ يحب أن يحملَ كفَنَه معه في السفر – هو زوجُ الأم، وأبو الفتاة، راح يطلب من الإمام دمَ الفقيه، وأهلُ الفقيه يشتهون دفع الدية.

– وهل تُقبَل الدية؟

فأجاب وعينه تغمز وتلمز: إذا كان الفقيه علَّمَ الأمَّ كذلك فلا خوفَ على حياته. تقبل الأمُّ الدية، ورأس الإمام، وتسترجعه لتستكمل القراءة. وما قولك وهذا زوجها، وهي كمَن رأيت، ألَا تظنُّها تقبل؟

– وإذا أَبَتْ؟

– المأمور يا أفندي يرتشي برطل زبيب.

فهزَّ الجمَّال رأسَه إثباتًا، وقال: في أيام الدولة كنَّا نرشيهم بالظلط. الترك يأكلون الزبيب.

فقال القصاص: خير الجود الموجود. كانت الظلط في تلك الأيام مثل الزبيب اليوم. وكان يحملها الترك من مناخة إلى بوعان، ثم إلى صنعاء في موكب عظيم. أنا مشيتُ مرةً فيه، ونجوتُ والحمد لله. موكب عظيم يا أفندي. هذا الضابط حامل الظلط، وهذا الجيش قدامه ووراءه إلى يمينه ويساره، وهو في الوسط مثل العروس يحرسها ألفان من النظام[1]. وهناك وراءه بوعان الثائرون يكمنون للترك، فيسلبون الظلط، ويذبحون النظام.

فهز الجمَّال رأسه إثباتًا وقال: وكنت أنا أشتغل للترك، أنقل لهم الحطب، مجيديان أجرةَ الجمل. وكان أبي وأخي وعمي يُحارِبونهم هناك، عند بوعان، كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك.

رحمة الله عليهم، ما أفادتهم المدافع والحصون وطرق العربات، ولا نظن أن عسكرًا من عساكر الدول الفاتحة في الماضي أو في الحاضر يقوى على حصون الطبيعة، وأهل الحصون في هذه الجبال.

بعد أن صعدنا في نقيل مناخة، واستوينا إلى رأسه نظرنا إلى المسافات الهائلة التي قطعناها، فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الآفاق البعيدة شرقًا وشمالًا يثبتان ما نقول. إنك إذا قطعتَ تلك المسافات راكبًا، خفيفَ الثياب، لأَسيرُ هولها ووحشتها، فكيف بك إذا كنتَ جنديًّا تحمل عشرة أرطال على ظهرك، وقنطارًا من الهم في صدرك؟ أجل، إن اليمن ضريح الدولة، ولا يزال أهل اليمن يترحَّمون عليها.

(٣) إلى الحدود

إن مناخة قائمة على قنة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس، وهي قسمان: قسم في الصهوة، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية، ولكنها في الحالين حصينة منيعة؛ فهي في عُلوِّها ٥٠٠ قدم فوق صنعاء، ونيف عن ثمانية آلاف قدم فوق البحر، مسرح للغيوم، وموطئ للنسور والعقبان. وقد كانت بالأمس موطئ قدم الدولة في اليمن الأعلى، ومركز جندها الأهم. فيها ثكنة هي في مقدم الصهوة عند سنامها، ثكنة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة الحديثة البناء، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة، ولا يربو سكانها على خمسة آلاف، منهم ألفان يحملون البنادق.

وفي مناخة اليومَ مركزُ قضاء حراز، ودائرةٌ للسلك والبريد، ومفرزة من الجنود، وهي محطة للتجارة بين الحديدة وصنعاء. أما الحصون فلا حاجةَ إليها؛ لأنك إذا وقفت على سطح من سطوح البلد تشرف من

[1] الجيش النظامي.

الجهات الأربع على الهائل البعيد الغور من الأودية والوهاد والشعاب. لا أظن أن عسكرًا من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب، قادمًا من الحديدة، أو من الشرق قادمًا من صنعاء. أما إذا نفدت الذخيرة فيها، فيتخذ المحاصرون سلاحًا آخَر من الحجارة يقذفون بها على العدو، فتفعل ما لا تفعل البنادق، كما تيقَّن الترك في شهارة. لا عجبَ إذاكانت الرهائن، وقد عرفنا شيئًا من طباع أهل اليمن، أساسَ حكمِ الإمام، وحصنه الأحصن؛ إذ لو أعلن عاملُ حراز استقلالَه مثلًا، أو أبى أن يرسل أموال الزكاة، أو تصرَّف بقسم منها هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين، فلا أظن أن إمام صنعاء يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه.

أُنزلنا في بيت كبير هندسته أوروبية بناه أحد ولاة الترك، ووكل أمرنا إلى خادمٍ عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق، اقتبسهما ولا شك من سادته السابقين، فأقمنا يومًا هناك نستريح مماكابَدْناه من المشقَّات.

زرتُ العامل الشيخ علي الأكوع ليلًا في مجلسه، فاستقبلني وهو في قميص النوم، وأمر لي بمداعة ورزمة من القات. واجتمعت عنده ببعض العلماء، وفيهم سيد مُعجَب بعرب الأندلس، وبأحد أدبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتَيْن. أعجبني حديث الرجل، ومما قاله: لا يفلح العربُ إلا إذا بعدوا عن بلاد العرب.

تفضَّل حضرة العامل، فأرسل مع نجَّاب علمًا بوصولناكتبتُه بيدي إلى قائد الجيوش الإدريسية في باجل. وكان قد أعلم بذلك ولي الأمر في الحدود، وأعدَّ لنا أكياسَ البن التي أمَرَ بها الإمام (هدية إمامية).

ولم يلحَّ الشيخ الأكوع علينا بالإقامة مثل سواه، ولا تحرك خارج بيته أو ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الإكرام كعامل الإمام لا، لم يكلف نفسه زيارتنا، ولا تذرَّع برمضان أو اعتذر. أعجبني الرجل في سلوكه الفريد. هو حرٌّ شاذ الطباع، لا يعمل غير الواجب عليه، بل يعمل بما يأمر الإمام عملًا تامًّا لا نقصَ فيه ولا زيادة.

أقمنا يومًا في مناخة نتمتع بمحاسنها ونستريح. صعدنا إلى السطح قبل أن أحاطت بها الغيوم، فكان أدهش ما شاهدناه قريبًا منا صخرة قائمة كمسلة فرعون وراء القشلاق، وحولها بعض البيوت من لونها، تدور إليها جادة ضيقة زلَّاء، فتصل إلى قرية وراء الصخرة تدعى كاهِل، ووراءها على مسافة منها قرية الهِجْرَة المعتصمة بقنة أخرى من جبل حراز، ثم سرحنا النظر بالآفاق البعيدة عن حراز، فإذا بوادي موسيه منبسط أمامنا شمالًا بغروب، ووراءه جبلا حِفاش ومَلحان، وبالأودية الشرقية التي اجتزناها أمس، ووراءها النبي شعيب، وتحته بوعان. وهناك قنن عديدة شيَّد فوقها ابن اليمن حصونه، فهو من هذا القبيل إنجيلي يبني بيته يقينًا على الصخرة. وقد ألفيناه في هذه الجهة الغربية أكبر همة، وأكثر نشاطًا من سواه في النواحي

الأخرى. دليل ذلك الأرض المحروثة، والدكات، والمنحدرات الخضراء.

سررنا بيوم في مناخة سرورنا بيوم في إب، فحملنا ذلك ونحن شاكرون في الحالين على المقابلة بين العاملين. إن عامل مناخة عربي ذو فضل، وعامل إب عربي ذو فضل ونوافل. هذا حلو الشمائل دمث الأخلاق، وذاك على شيء من طباع البدو الذين لا يسيئك منهم لا الكلام ولا السكوت. لم يفاخرنا الشيخ الأكوع بحكم الإمام، ولا تبجَّح مثل أمراء الجيش وبعض السادة في ماوية وذمار. إنها لمن حسناته التي تسر، ولا سيما مَن كان مثلنا قادمًا من تلك النواحي الشرقية.

في صباح اليوم التالي جاءنا من قِبَله عدد من العساكر، ضِعفا ما صحبنا من صنعاء؛ ليرافقونا إلى حدود الإمام. فاستأنفنا باسم الله السير، وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن من أعلى سطوحه إلى أوطأ أرض فيه، إلى وادي حجام في سفح جبل وسل، وهي أوطأ من وادي مفحق، ودونها عقبات كَئُودات، فيها النزول أصعب جدًّا من التصعيد. أما وسل فدونه جبال وقرى نعدُّ منها ولا نعددها، هذا جبل الطويلة، وهو خط طويل مستقيم على الأفق الشمالي يتصل ظله شرقًا بالحيمة. وهذه قنة سبام التي تظلل مناخة بعد الظهر، وهي أعلى قنن اليمن على الإطلاق. وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل رَيمة، وأعلى قنة فيه بِراع. وهذه على إحدى قنن مسار قرية تشاركه في الاسم، وبينها وبين شبام الهِجرة. تلك القرية العجيبة الرائعة، المزدحمة بيوتها في نتوء برأس الجبل، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في لزّها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك.

عندما نجتاز الهجرة نطل على وادي حجام ومنحدراته كالدرج تحتنا، واحد تلو الآخر، كلها زاهية بأنواع النبات والزهر، خصبة غضة. وقد امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه اليمانيون في الدكات، في أماكن تظللها الصخور والهضاب، أي في الشعاب التي لا يصل إليها غير نصف يوم، كل ما نحتاج إليه من الشمس.

إنك لتعجب من تلك البيوت، بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء منها، في أماكن يكاد يستحيل على الإنسان والحيوان الوصول إليها.

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه، بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة من الباطنية الذين أبادهم الزيود بالسيف كما أخبرنا السيد محمد. ولكن الإبادة لم تكن – على ما يظهر – تامةً، فأقام مَن نجا منهم في هذا الحصن الذي يُدعى العتَّارة، وفي ضواحيه.

إنهم فرع من فروع الإسماعيلية[1] العديدة يُدعى الداودية، وهم قومٌ أشداءُ حارَبوا الأتراك، ثم حارَبوا الإمام، واستعانوا بالأتراك عليه. وهو اليوم يُعامِلهم في بلاده كما يعامل اليهود، فيأخذ منهم الزكاة، ويسمّيها الجزية، أو أنه يفرض عليهم الجزية ويسميها الزكاة، على أنهم لا يدفعون بأية حال إلا كرهًا؛ لأنه في مذهبهم لا يجوز أن يدفعوا الزكاةَ إلى أحدٍ من أئمة أو من أمراء المسلمين.

نودّع الداودية في العتَّارة، ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس، فنطل على اللكَمة، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتدُّ شمالًا بغرب، وتحتها العريف، ووراءها جبل صِفعان، وفيه حصن مَتْوح. أما وراءنا فقنة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال، ترافقنا أربع ساعات إلى أن نقرب من وسل.

وما وسل غير بيتين، ومقهاية، وبستان من القات. وهناك امرأة أخرى تبادر إلى استقبالنا وخدمتنا. بدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في العالم، النساء العاملات مثل الرجال، سقت المرأة «القراش»، وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر، «تقشرنا» [2] وأدركنا ها هنا لزوم الفنجان الخاص الذي يحمله السادة مع كيس النوم في أسفارهم. أما الكيس، إذا كان المسافر يضطر أن ينام في مثل هذه المقهاية، فهو ألزم ما يلزم. هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصًا في الجيش، إلا أنهم لا يربطونه حول العنق، كما قد تظن أيها القارئ، بل فوق الرأس. هم يجعلونه كبيرًا لهذه الغاية؛ فيتمكَّن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلًا فيمسي إذ ذاك كله، هو ورأسه، في الكيس، فيستنشق ما دام نائمًا كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق، ولا ينهض صباحًا، ووجهه كالرغيف المحروق، كأنه أكل نارًا في نومه.

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل أن يحتلوا الكيس. فما قول سادتنا الأطباء الذين يهدِّدوننا بالموت إذا أقفلنا النوافذ عند النوم. هل جرَّبوا حامض الكربون في أنفسهم؟ أَوَليس من الحكمة إذا اضطر عدة أناس أن يناموا في غرفة واحدة صغيرة أن يعتزل كلٌّ عن الآخر بهذه الطريقة، أن يحجر كلٌّ على نفسه في الكيس؟ أليس خيرًا له أن يأكل هواءه – حامض كربونه – من أن يأكل هواء غيره؟

---

[1] الإسماعيلية نسبةً إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر، أخو زيد إمام الزيود. من فِرَقها المهمة «النزارية»، وهم ينتسبون إلى المعز الفاطمي، يقيمون في بمبي الهند، وعددهم نحو مائتَيْ ألف أكثرهم تجار ذوو يسار، وإمامهم الأكبر أغا خان. ومنها «السليمانية» في اليمن، ويُسمُّون أيضًا المكارمة، هم أصلًا من نجران، من قبيلة يام الكبيرة، عددهم هناك لا يتجاوز العشرة آلاف، وداعيهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الإدريسي. في الهند من السليمانية نحو ألف أكثرهم متوظفون في الحكومة. ومن الإسماعيلية «الداودية»، وهم من بني مرة أي مرة اليمن لا نجد، يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبَلَي حراز وهمذان، ويسمون كذلك «البُهرة»، عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة آلاف، ولكن البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون، يربو عددهم على الثلاثمائة ألف، أكثرهم من التجار ذوي اليسار، وداعيهم اليوم طاهر بن مُحَمَّد سيف المقيم في سوراة. كل هذه الطوائف إسماعيلية – كما قلت – لأنها تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكلها باطنية؛ لأنها تبطن بعضَ أسرار الدين، ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير.

[2] تقشرنا على وزن تقهونا.

إن في أحياء الفقراء بالمدن العظيمة كلندن ونيويورك، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء، كثيرين ممَّن يحسبون الكيسَ نعمةً لو علموا به. فهو — والحق يقال — أحسنُ دواءٍ للقذارة، ما لازمت القذارة والفقر والشقاء، وما دام الأغنياء المالكون تلك البيوت أخدان الحكومة التي لا تُوجِب عليهم التحسين فيها. أدخِلْ رأسك في الكيس أيها الفقير العزيز، أنت الساكن في الطرف الشرقي بلندن أو في الحي الشرقي بنيويورك، أدخِلْ رأسك في الكيس تنجُ ليلًا في الأقل من أنفاس عيالك ومن أقذار بيتك.

أمَّا الكيس الأعظم فهو هذا الفضاء، ولعمري إن من كان هواء الجبل إرثه لا يُلقِي رأسه تحت سقفٍ ساعةً واحدة. إلا أن العربي عمومًا، واليماني خصوصًا، يخاف هواءَ الليل، ويتأثر من البرد أكثر من سواه. كأن شدة الحر تُضعِف الدم، أو تغيِّر في تركيبه فترق الكريات الحمر فيه، فيؤثر إذ ذاك البردُ في صاحبه تأثيرًا مُضرًّا. والذين ينقلون من الأقاليم الباردة ويقيمون زمنًا في إقليم حارٍّ يمسون مثل أهله.

هذا الرفيق قسطنطين، وهو مثلي من الشمال، إلا أنه أقام بضع سنين في جدة، فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سُمٌّ زعاف. وكَمْ تناقَشْنا في الموضوع، وكنت في حجتي وفي غيظتي أسيء إليه! فلو سكتنا وعُدْنا إلى أجسامنا، إلى صحتنا تتكلَّم عنا؛ لكنت — ولا ريب — مغلوبًا؛ لأن فيه من العافية — وهو الذي يقفل النوافذ كلها — ما لو وُزِّع على خمسة مثلي — أنا الذي لا أستطيع أن أنام دون أن أفتح النوافذ كلها — لأهَّلهم كلهم للجندية. وهذا مع صحة أهل اليمن إجمالًا؛ ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي أصبحتْ في الغرب آياتٍ مُنزلات، وهي لا تخلو من الخرافات. ليس الهواء الطلق وفوائده موضوعَ بحثنا الآن، إلا أني أقول، قبل أن نترك مقهاية وسل وبستان القات، قد تكون الرئة في الهواء المفعم بالأكسجين كالإسفنجة إذا امتلأت ماءً، والاكتفاء حد الفائدة في كل شيء.

أما وقد اكتفينا من هواء الجبال زادًا، فصرنا نتوق إلى هواءٍ فيه رائحة الملح، إلى هواء البحر، وهو لا يزال بعيدًا. لولا ذلك لَمَا كان الحر في وادي وجام شديد الوطأة، خصوصًا على مَن كانوا يرتعشون في ظل شبام منذ ست ساعات.

جلسنا للغداء عند بئر قديمة تحت شجرة من الإثب، وهي أكبر أشجار اليمن، فسمعنا أصواتَ السعادين في الحرج فوقنا وأطلقنا عليهم الرصاص، فبادَلونا الإكرام، ورجَمونا. نعم، رجمونا بالحجارة، فكانت الحجارةُ أشدَّ علينا من الرصاص عليهم، فارتحَلْنا من ذاك المكان، تقهقرنا مغلوبين، ولكن سالمين.

عبرنا الوادي، ووصلنا بعد ساعتين إلى حدود الإمام في قاع صعفان، وهناك محطة التجارة بين تهامة واليمن. هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد الزيود، بين السيد الإدريسي والإمام يحيى. هناك في تلك البيوت والخيم مركز الشيخ حمزة، حيث ينبغي أن نصرف عساكرنا؛ لأنهم غير مأذونين باجتياز الحدود، ونستصحب حرسًا من رجاله.

ترجَّلنا خارج الخيام، ومشينا إلى بيت حقير بينها، فاستقبلنا عند الباب رجلٌ صغيرُ الجثة، برَّاق العين، عريض الصوت، ليس عليه من الثياب غير الفوطة يتَّزر بها والعمامة، فسألته عن الشيخ حمزة، فأجاب: ها هو كله. وقبل أن دعانا إلى الجلوس سلَّم، وقال: قد تحيرتم – أيْ تأخرتم – نحن هنا وعساكر السيد في عبال بانتظاركم منذ أيام، لكم الآن الخيار في أمرَيْن: تبيتون عندنا، أو تُكمِلون إلى عبال. كل شيء حاضر هنا وهناك. مَن هو أمين الريحاني فيكم؟ فأجبته كما أجاب سؤالي عنه: ها هو كله.

فلم يضحك، ولا غيَّر لهجتَه.

– نحن يا أمين تحت أمرِ مَن أوصانا بكم. نحن قدامكم ووراءكم. على الرأس أمر السيد، وعلى العين أمر الإمام. راحتكم علينا، وسلامتكم مطلوبة من الله ومنَّا. فإذا اشتهيتم السفر الآن كان السفر، وإذا اشتهيتم الإقامة فأهلًا وسهلًا.

طابت لنا كلمات هذا العربي فأحببناه. استقبلنا بقلب عارٍ مثل جسمه، فكان صريحًا مليحًا، وكان شريفًا أكثر منه لطيفًا. فوددنا المبيت عنده، لولا أننا خفنا أن نثقل عليه. ولما أعلمناه بما اخترنا من الأمرَين آسِفين قال: خذوا القهوة إذن، وامشوا لتصلوا قبل الغروب. فدخلنا البيتَ وجلسنا لأول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الحبال، تُستخدَم كذلك للنوم، كالعنقريب السوداني.

الشيخ حمزة تاجر كبير، يسيِّر القوافل بين تهامة واليمن الأعلى، فتحمل جماله وحميره الكاز والأقمشة إلى مناخة، وتعود منها حاملة البن والجلود. وهو كذلك الوكيل السياسي بين البلدَيْن المتحاربين، ومندوب الإمامَيْن. رجل السِّلْم والتجارة والأمن الشيخ حمزة. عنده لكل شيء حساب، وعنده حبر وورق وكاتب، هو ابنه الذكي. عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمةً من الشيخ إلى العامل في مناخة يُعلِمه بوصولنا، فراح إلى الزاوية في بيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الكاز إلى صندوق آخَر هو المنضدة، وأمره أن يأخذ الورق ويكتب. فأخذ الكاتب طلحية، وقسمها قسمين، فأشار الأب أن اقسمها ثانية، ففعل، ومرةً أخرى حتى أصبح وبيده ثمن منها، فقال: اكتب الآن:

من حمزة خادم الإمام – أطال الله بعمره – إلى عامل مناخة، حضرة الشيخ علي الأكوع. سلام. الجماعة وصلوا بخير، وسنوصلهم بخير إلى عبال.

أخذ الرسالة فلفَّها لفافة، ودفعها إلى العسكري، ثم خاطَبني قائلًا: هذا يقرأ ويكتب، هو فقيه. وابتسم الشيخ، فكانت أول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القاتم العبوس. ثم ركب معنا، وشيَّعنا إلى خارج حدوده بابتسامة أخرى.

كنا نقيس الأخطار في الطريق بعدد الحرس؛ ومن صنعاء إلى مناخة اثنان فقط، ومن مناخة إلى الشيخ حمزة أربعة. وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده، فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا

الأعرابي، وقد اطَّلعتُ على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل، يصحبنا بعشرة من رجاله، ويوكل أمرهم وأمرنا إلى شيخ الحجيلة بنفسه – شيخ الحجيلة العظيم في الأمس. هو رجل صغير يابس مصفرُّ الأديم، ذو لحية محنَّاة، وشارب مقضوب، وعين غائرة. ركب حماره، وبندقيته بين يدَيْه مطروحة على السرج قدامه، وسار معتزلًا الجنود العُراة، بعيدًا كذلك عنا، غير مكترث بنا.

دنا مني أحد المكارين وقال: هذا شيخ الحجيلة أو كان. وكان في ذاك الحين أكبر قطَّاع الطرق في هذه النواحي. تحت أمره مائة بندق، يُوقِفون القوافل ويَسْلبونها، ويأتون بالغنيمة إليه. مَن منَّا في اليمن وفي تهامة كان يجرؤ أن يمرَّ بهذه البلاد في أيام الدولة؟ سألت: وهل كان يقطع الطريق يومَ كان شيخ الحجيلة؟ فأجاب بالإيجاب، ثم قال: كان يأخذ من الترك، ويأخذ من العرب. كلهم كانوا يخافونه، ولا أحدَ يعترضه بشيء.

سبحان الله! هو الآن رسول الأمن والسلام بين القُطْرَين، وصديق الشيخ حمزة الذي يُحسِن ولا شكَّ اختيارَ رجاله وأصدقائه لمقاصده التجارية والسِّلمية المفيدة. اجتذبني خبر الرجل إليه، فسقت بغلتي نحو حماره، وسلَّمتُ فردَّ السلام. ثم سألت سؤالًا أجابني عليه دون أن ينظر إليَّ: هذا قاع الحجيلة، وقريبًا نصل إلى البلد.

كنا وقتئذٍ نجتاز أرضًا لا سيادةَ فيها للإدريسي، ولا للإمام، يصح أن تُدعى بلاد الجن. ولولا تيقُّظ الشيخ حمزة وحزمه لما كان يأمن فيها إنسان، أو تسلم فيها قافلة. هي نقطة الحياد بين عبال آخِر حدود السيد، ومضارب الشيخ حمزة آخِر حدود الإمام. أما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الأميال، في وسطها الحجيلة، وهي اليوم أثرٌ من آثار الحرب المفجعة. شريط التلغراف فيها مُقطع، والعُمُد مكسَّرة، وما تبقَّى من مظاهر الحكم التركي – مناضد وكراسي ودواوين – رأيناها مُبعثَرة تحت سقوف متهدمة. أمَّا أهل البلد فلا يزالون مشتَّتين في تهامة، وفي الجبال. لا عجبَ إذا كان العرب يفضِّلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب. قد هيَّجَ هذا المشهد فيَّ الأشجان، وأثار في الشيخ كامنَ الغضب. وكنت لا أزال أستدرجه إلى الحديث فقال: ما الإدريسي وما الإمام؟ عندهم كل شيء، ما عدا الأخطار والفقر، وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم. بعيد عن الحرب، قريب من السادة، هذه بلية السيد وبلية الإمام. ولكان الله يغفر ذنوبَهم لو بعدوا عن السادة وخاضوا المعمعةَ مع الجيوش. عندئذٍ تنتهي الحرب... كلنا والله نشتهي السِّلم. ولكن أين رجُل السِّلم؟ أين هو الرجُل الذي يستطيع أن يُصلِح بين السيد والإمام. لا في عسير ولا في اليمن موجود. لا يتم الصلح إلا بأحد الكبار، يجيء من وراء البحار ... ثم تنهَّد وقال: مصيبتنا من الله. فقلت: من الله وحده؟ أَلَا دَخْل الإنسان فيها؟ فقال مستحسنًا سؤالي: ثُلثها من الله، ولكنه لم يشأ مُواصَلةَ الحديث فساق حماره، فلحقت به وسألته عن الثلثَين الآخَرَين. فأجاب وهو يستحثُّ حمارَه ليبعد عني: وثلث من السادة. فسقت بغلتي إليه وسألته معتذرًا أن يُعلِمني بالثلث الأخير، فأوقف الرجُل حمارَه ونظر إليَّ

وقال: الثلث الأخير، لا والله بل الأول هو منكم.

ظنني الشيخ معتمد الإنكليز، ولكنه لم يخطئ برأيه في قضية اليمن وعسير. إنه أقربُ رأيٍ إلى الصواب سمعته. وهو ينطبق على العرب كلهم، وما يُكابِدون من السياسة الإنكليزية ومن السادة – حيث لا سادة ولا أشراف فقُل العلماء – ومن التقادير.

(٤) نساء تهامة

إن العرب على الرغم من المصيبة المثلثة التي تقدَّم ذِكْرها لَمبدعون مُدهِشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية. وهم على ما بينهم من روابط الدين والعنصر واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهرًا ومعنًى؛ فلا يختلط اليماني بابن عسير، ولا هذا بابن الحجاز. يخالطون ولا يختلطون. حتى إذا جرَّدتهم مناسك الحج مثلًا من الثياب، فالإحرام لا يساوي بين ذي القرون – الجدائل – وذي الشَّعر الطويل السبط، وذي الشَّعر الكَثِّ الجعد الذي يشبه شَعر النساء الأوروبيات في هذا الزمان.

إنك لتسافر في أميركا مثلًا من طرف البلاد الشرقي إلى طرفها الغربي، فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والأزياء ما يستوقف النظرَ أو يستحقُّ الذِّكر، بل قَلَّما ترى اختلافًا ظاهرًا أو معنويًّا. أما في بلاد العرب، فكلما انتقلت من جهة فيها إلى أخرى تغيَّرت الثياب والأزياء والعادات، وتغيَّرت كذلك المساكن. فلو اجتمع الحجازي والتهامي واليماني واللحجي والحضرمي والنجدي والعراقي، لكان في اجتماعهم معرضُ أزياء وثياب غريب مفيد.

من مناخة إلى عُبال! كأنك انتقلتَ من سويسرا إلى بلاد المكسيك. وإن جَمال عُبال في القاع الفسيح ساعةَ الشفق ليُضاهِي جَمال مناخة في رأس الجبال ساعة الغروب. عبال، قرية ساكنة مطمئنة، بيوتها الهرمية من القش شبيهة بخيام الهنود الحمر في المكسيك، وأبناؤها يشبهون العرب في سائر الأقطار بأمرَيْن: يتكحَّلون، ويتطيَّبون، وفيما سوى ذلك يختلفون. فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزيَّنة، هم أشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات. فهم يَدهنون شَعرهم بالأدهان، ويربطونه بشرائط من الحرير أو الجلد، ويزيّنونه بالريش أو الزهر أو الرياحين، ويقصونه مثل البنات اليومَ ليساوي القذال، ولا يقصرونه كالرجال، وهم يتَّزِرُون بالفوطة مثل أهل لحج. وقد تكون طويلة ملوَّنة مخطَّطة، فيشدونها على الحقوَيْن، ويلبسون فوقها صدرة بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن أو الجلد للخنجر دائمًا، وغالبًا للخنجر والخرطوش. إن أول ما يُدهِشك من أولئك الشبان شعورُهم المزيَّنة كشعور النساء، وأرجُلهم المخضَّبة بالحناء.

وفي عبال نعود إلى السفور، إلى أول الإسلام. في عبال تعدَّدت المدهشات، وكان أشدها وأحبها إلينا

النساء، وقد وقفْنَ في أبواب الخيام يتفرجن على الغرباء. ولا نظن أنهن كن أشد تعجبًا منا، ونحن نتفرج عليهن. الجمال الأسمر نشدناه في كل مكان، فما لقيناه حتى وصلنا إلى تهامة. والرعابيب، ها هن ذا في عبال. وسيبهجك منهن ما ستراه غدًا في باجل. نزلنا في بيت أخلتْه لنا إحدى النساء بأمر من الشيوخ، ثم جاءت تخدمنا، فسألنا مستطلعين حالها، فقيل لنا إنها متزوجة، مطلقة، وتكره الرجال، أي نعم تكره الرجال. فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن أختها في عواصم التمدن والجمال؟

اجتمع في الباب وخارجه الأولاد والرجال متفرجين مستغربين. فجاءت العساكر تبدِّدهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر إلى زيارتنا. وهو رجل طويل القامة، مهيب الطلعة، فخم اللباس، متطيِّب متكحِّل حافٍ، إلا أن رجلَيه المخضبتين تلمعان بالحناء. دخل يحمل بيده السيف، وبالأخرى أغصانًا من الحبق، قدَّمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا. هنَّأنا بوصولنا إلى بلاد السيد سالمين، ثم قال معتذرًا: لا يمكننا ونحن في رمضان أن نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس. أنتم الآن في بيتكم، وإنْ كان لا يليق بكم. ولكنكم ستنامون والبال مطمئن. عندنا سلام وأمان. ولكنا نرجوكم ألَّا تحكموا علينا بما يظهر، نحن نفتخر والله بضيوفنا، ونود أن نُنزِلهم في بيوت من الرخام والمرمر. فاحمونا وأنتم أهل الفضل من العين واللسان.

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودَّع، ولم نسعد برؤيته مرة أخرى؛ لأن سفرنا من عبال كان ليلًا. ولكنه أرسل إلينا ابنه قائد الجيش، فأسمعنا خطبة شبيهة بخطبة أبيه، وأعطانا ريالين قائلًا: رمضان يسوِّد الوجه. أنتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون؛ فقبلنا المال منه شاكرين؛ لأن رفضه رفض الضيافة، ويُعدُّ إهانة. وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم. ولكننا، على شدة شوقنا إليه، لم نسرَّ به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة. إن أهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم، ومحارَبتهم الأتراك في مواقع متعددة.

نمنا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الأَسِرَّة، تحت سماء تهامة الصافية الحارة، فما احتجنا فراشًا غير حبل مشبوك، ولا غطاء غير شبك النجوم. إن التعب في النهار مصدر النعم في الليل. فما كان في مراحلنا اليمانية العديدة أطول من هذه الثلاث الأخيرة وأوعر[1]؛ لأن الطريق من عدن إلى صنعاء، وإن كانت أطول فهي أسهل من طريق الحديدة. هذه تشبه من حدود الإمام اليوم درجًا طويلًا عالي الدرجات لا انقطاع فيه، وتلك تشبه درجًا منبسطًا عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم. وبكلمة هندسية: إذا مددت خطَّين؛ واحدًا من عدن وآخَر من عبال إلى صنعاء، تكون زاوية الأول حادة، وزاوية

[1] ركبنا في المرحلة الأولى إحدى عشرة ساعة، وفي الثانية عشر ساعات، وفي الثالثة من مناخة إلى وسل أربع ساعات ونصفًا، ومن وسل إلى الشيخ حمزة ثلاث ساعات ونصفًا، ومن الشيخ حمزة إلى عبال ثلاث ساعات، أي إحدى عشرة ساعة كالمرحلة الأولى.

الثاني مستقيمة. والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة.

أسرينا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكان قمر رمضان كمنجل من فضة فوق قنة شبام. وكان قد نهض الهواء كذلك فأنعش فينا ما خدره الحر، وأزال ما تبقَّى في الأجفان من أثر النعاس. بيْدَ أنه لم يحرك في أحدٍ من الربع اللسان، إلا واحدًا كانت عقيرته تذكرنا بالشام ومصر فيما رددت من الأغاني القديمة، وقد أبحرت أنغامها، ثم أَتْهَمت، ثم أَنْجَدت، فأفسدتها الأسفار، وأكسبتها المسافات على رداءتها ذِكرًا من الأوطان عزيزًا. ولكنها لم تكن عندي ساعة غناء، بل ساعة تأمُّل وصلاة.

يا ذا الجلال الأزلي، ألحفني بشيء من جلالك، يا ذا النور الدائم، أمددني بقبس من نورك، يا ذا القوة غير المتناهية، ابعث منها في قواي.

فهل من حاجة أن أصف ما حل بي، وهذه حالتي الروحية، من مجرد الصدى بعد السكوت «يا رايحة عالشام خديني معاك»؟ ما عرفت صاحب الصوت حتى ولَّى؛ لأننا لولا وطء الدواب كنا كالأخيلة الساكنة السارية في الليل، فلم تتباين في نور القمر الضئيل الوجوه. ولكني سألت عند الفجر عن المغني، فقيل لي إنه رافقنا ساعةً إكرامًا، وعاد إلى عبال. وشد ما كانت دهشتي وأسفي عندما علمت أنه الرجل الذي كبَّسني[1] مساء البارح، فحرَّك الدم في العروق، وأزال من المفاصل التعب، ومن الأعصاب الأوجاع، ثم نهض وإيانا، ورافقنا إكرامًا دون أن يمنن، وشاء فوق ذلك أن يسلينا بأغاني بلادنا.

فيا أيها المحسن المجهول، يا أيها العربي الكريم، ما اخترت لإكرام الضيف أحسن من يدٍ مَرِنة تسكن الآلام، ومن صوت يغني، مهما شذَّ والتوى، يذكر الغريب بالأوطان. وما كان أشبهك بعكرمة الفياض، فلم نعرفك مؤاسيًا منعمًا، ولم نعرفك مشيعًا مكرمًا. جئتنا من الغسق، وأنعشتنا في الليل، وشيَّعتنا في ضوء القمر، واختفيت دون أن تبوح باسمك كالطيف في الظلام. ومهما كان اسمك، وأينما كنت، فأنت أخو الإنسان، وأمير الذوق والإحسان.

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربع بدل شيخ الحجيلة ابن شيخ عبال، وبدل رجال الشيخ حمزة عساكر السيد ابن إدريس؛ وهم من العبيد صحيحو الأجسام، خفيفو الأقدام، قليلو الكلام. لا يختلف الواحد عن الآخر، وكلهم سود بغير لون السواد؛ فهذا كقهوة البن، وذاك كالشوكالات، والآخَر كالأبنوس المصقول. سألت «الأبنوسي» وهو يركض ويثير بحافريه الغبار: هل أنت دنقلي أو سوداني؟ فأجاب: أبي طلع من البحر، وأنا وُلِدت في البر، في هذا البر. لا أعرف غير ذلك. والمؤكَّد يا أفندي أني أسود. قال ذلك

[1] من العادات الحميدة في تهامة والحجاز التكبيس. وكلمة تكبيس لفظة تُستعمل في اليمن لعلم جاءهم على ما أظن من الهند. فيكبسون المرء من رأسه حتى قدمَيه. ويدلكون الأعصاب دلكًا، ويفركون العضلات ويمسِّدونها بعدئذٍ تمسيدًا. إن المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشيء استئناسه بالمكبِّس. وحتى الصغار هنا يُحسِنون هذا العلم.

وراح يضحك ويهز عطفَيْه.

بعد أن اجتزنا قاع عبال، وصلنا في الساعة الأولى من النهار إلى البحاح، وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة، فدخلنا وكنا أول الزائرين، فخرجتْ من البيت صبية حسناء، ممشوقة القوام، في جلباب أنيق الشكل فوق دثار أزرق طويل الذيل، كأنها من بنات المدن، وقد تدثَّرت عند نهوضها فوق قميص النوم، هشت لنا وبشت، وأسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر، إلا أنهم يُضِيفون إليها بعض الأبازير، كالزنجبيل والهال —كثير من الأبازير— يسمونها حوائج. وكان حُسن الصبية يتجاوز قوامها ووجهها إلى الذوق والخلق، فسألتْ وهي تشبُّ النار: تبغونها بحوائج. فأجاب العبيد صوتًا واحدًا بالإيجاب، وشربوا هنيئًا وثلثوا. أما نحن، أنا والرفيق قسطنطين، فكنا نشتهي قهوة البن ... حوائج وهذه الحسناء. امضِ يا أمين.

ومما زاد في كربة الرجال صباحَ ذاك اليوم أنْ لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسناء أخرى، رعبوبة في شعار شفاف، تنشر للشمس شعرها، كأنها خرجت من الحمام، أو من مسرح الأحلام. فحثثنا المطايا مُسرِعين إلى القاع، إلى الفلاة، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبال. قال وهو يحدِّثنا عن العرب والترك: ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس، لا الشمس تحرق رأسه، ولا الرمل يحرق رجلَيْه. والترك، ما الترك؟ هناك — أشار بيده وهو ينتقص أصابعه — هناك، عند تلك القرية، تحت ذاك الجبل، حفرنا الخنادق، كنا تسعين، تسعين فقط، وأطلقنا البنادق على عساكر الدولة، على النظام، وهم خمسة آلاف ومعهم الأطواب، من الفجر إلى أن صارت الشمس فوق رءوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة، كلة نار، ونحن نطعمهم الرصاص. وعند الظهر، والله، ونور هذا النهار، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحدًا، ومشينا إلى القاع. كانت الأرض مغطاة بالقتلى، مئات من الترك أكلوا رصاصنا وسكتوا، سكتوا إلى آخر الدهر، والباقي تشتَّتوا وهربوا، فما لقيناهم، ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات. يا له من يوم! كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخبيها وراء الخنادق ويعود يفتِّش عن غيرها ... ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس، لا الشمس تحرق رأسه، ولا الرمل يحرق رجليه ... هؤلاء من رجالي. يمشون بل يركضون كما تراهم الآن، اثنتي عشرة ساعة كلَّ يوم، ولا يتعبون ولا يتذمَّرون. ولا يَشْكون غير حلم السيد، فهم يغلبون الزيود، ويأخذونهم أسرى، والسيد لا يأذن بتذبيحهم.

سرنا ساعة في قاع المطحلة، فخرجنا من ظل الجبل، ولاحت لنا على الأفق غيمة سوداء هي باجل. كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات البرانيط، وهنَّ يشتغلن مع الرجال في الحقول. إن البرنيطة أو الشبقة لَقديمة العهد في تهامة، وبعض نواحي اليمن الأخرى، وهي صنع أهلها، يلبسها الرجال والنساء، وكلهم عرب، وكلهم مسلمون. لكن الشمس لا تعرف حدودًا في العنصر والدين، والإنسان في مقاوَمته العناصر الطبيعية

لا يراعي التقاليد.

وبأي سلاح تحارب هذه الشمس، شمس تهامة، إذا اضطرك رزقك أن تشتغل أو تسافر نهارًا. أبالكوفية، وهي إذا تلثَّمتَ بها تدفع ثائر الغبار والرمال فقط؟! قد تقي العيون من وهج الشمس، ولكنها لا تقي الرأس من سهام أشعتها الكاوية. أما العمامة فلا بأس بها لأصحاب التجلة والكرامة، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون إلى السعي في سبيل الرزق. قد برهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على أن الغريزة في الإنسان، شرقيًّا كان أو غربيًّا، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير. ومن عواملها الأولى حفظ الحياة والدفاع عنها. وقد أحسن أيما إحسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج، فلا تمنع الهواء، واسعة الأطراف تظلل الوجه والقذال، عالية القبع، تحفظ الرأس من سهام الشمس.

ويا لها من شمس لا تحجب ظلمها ساعةٌ من النهار. كانت لا تزال في صهوة الأفق عندما دخلنا باجل، فعرفناها من ساعتها، وما وددنا الإقامة في بلدة هي وحدها الحاكمة بأمرها فيها. ولكن باجل تُنسي السائح لأول وهلة حتى الشمس، خصوصًا إذا دخلها مثلنا يوم سوقها. هي قرية كبيرة، بيوتها من القش، وبعضها من الآجرّ الأحمر، يقام فيها سوقان في الأسبوع، فيؤمها الناس من القرى والمضارب المجاورة، وينزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية، فيبيعون ويشترون طيلة النهار.

مشينا بين صناديق من الكاز، وأثواب من الخام، بين المواعين المصفوفة على الأرض والأكياس، بين الأبازير والحبوب، وإلى جنب كل «فرش» رجل أو ولد أو امرأة. والناس في الساحة رائحون جاءون، والنساء وبأيديهن السلال أكثر ما هناك يكثرْنَ البيع والشراء. أعجبنا من هذا المشهد مظهره النسوي؛ لأننا لم نَرَ في بلاد اليمن، في البلاد العربية كلها خلا العراق، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا إليها.

وكلهن سافرات، يلبسن الشبقات، وأكثرهن حسان الوجوه والقدود. أما البنات فما رأيت منهن غير الممشوقة الهيفاء، وهي لولا لونها أشبه بالإنكليزية قوامًا ونحولًا، وخفةً ومشيًا. لكن لبسها قد يُنسب لولا السذاجة والفقر إلى التهتُّك. هي تلف ذراعًا من القماش حول وسطها فيصل إلى الخلخال ولا يخفيه، وتلبس فوقه صدرة ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه، فيبدو شيء من الكشح بينهما. ولها مشية ينكشف بها الساق، وإذا ساعدها الهواء، تنكشف الركبة كذلك. ولها لسان لا أثر فيه لما في قدِّها ومشيها من حسن وبراعة. سمعناها تشتم الصبيان، فاستعذنا بالله، وأسفنا لبذاءةٍ تشينها.

أما تلك العربية التي «تمشي الهوينا مشية البقرِ»، فلم نجدها في باجل. ها هنا حركة كأنها أوروبية. ها هنا نشاط أميركي. وتلك الشبقة على رءوسهن ورءوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال. كنت أظنني في مدينة من مدن المكسيك الجنوبية. وأغرب من ذلك أن هذه الحركة في بلد إسلامي وفي شهر رمضان. بل

في بلدٍ حرُّه[1] حتى في شهر أيار لا يُطاق نهارًا. ولولا أنه جاف لما كانت باجل[2]، ولما كان في ذا القاع أهله.

استقبلَنا بعضُ رجال القائد العام، فأنزلونا بيتًا رأس محاسنه النظافة، ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهَرَ في الحديث، وفي الخدمة، وكذلك في الطبخ، فضلًا عن شيء في أخلاق الشوافع، عن شيء من الكياسة بل الإخاء، يمتازون به عن سواهم. تركونا بعد الفطور وشأننا، ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الأسود، وآخَر من الموز، فأبهجنا الأول؛ لأننا لم نكن نتوقَّع العنب في هذا الشهر من السنة. ولكننا في تهامة؛ فلا عجب إذا نضج في أيار، وهو لا يزال حامضًا في صنعاء، وزهرًا في لبنان.

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ مُحَمَّد طاهر رضوان عامل باجل، وقائد العساكر الإدريسية فيها، فسلَّم واعتذر. هو يشتغل في الليل، ويصعد صباحًا إلى ربوة خارج البلدة لينام. سألنا عن السياسة الأوروبية، وعن الإنكليز، وعن مصر والهند، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران — بخلاف المألوف — إلى شيء من الحكمة والذوق، فقد كان يسأل مستخبرًا مستفيدًا، دون رأي خاص يبديه. ولكنه فيما يختص ببلاده كان مفيدًا مفضلًا. فعلمنا من حديثه أن القُحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي سردود ووادي سهام، وأنهم على العموم من أفضل قبائل اليمن وأشجعها، ومن أشد الشوافع بأسًا، وأكرمهم خُلقًا. وعلمنا كذلك أن السيد الإدريسي يسير في بعض أموره على خطة الإمام في الرهائن. فها هم في البيت تحتنا عشرون رجلًا، وفيهم العبيد، من الزرانيق. سمعناهم في الليل يجوِّدون، وينقرون الدفَّ وينشدون، وما سمعنا من فمِ أسيرٍ أجملَ من سورة يوسف إنشادًا. سمعنا كذلك «الزامل» في البلد لأول وهلة، وسألنا عما إذا كان عسكر السيد ينشد أناشيد عسكر الإمام. فقيل لنا: بل هم عساكر الإمام. فما صدقت حتى عايَنت. وقد تأكدت أن بعض الزيود يجيئون تهامة و«يتعسكرون» عند السيد؛ لأنه يُحسِن معاملتهم، ويدفع راتبًا أكثر من «ابن حميد الدين»، ولكنه ساءني في رجال السيد أنهم إذا ذكروا الإمام يدعونه احتقارًا «ابن حميد الدين»، وما سمعنا في صنعاء واحدًا من رجال الإمام يقول مرةً في السيد ما يُشتمُّ منه المقت والتحقير.

أقمنا في باجل، وسافرنا مساء اليوم التالي. لا سفر في تهامة نهارًا لمثلنا في الأقل. وكانت ليلةً ليلاء، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفنا فيها؛ لأن الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته. وكنت كل مرة تطأ الدابة حجرًا فتعثر أرى وهدة انفتحت أمامي، وآية الوهاد أشد هولًا من وهدة الظلام؟ ومع أن إسراءنا كان من قاع بسيط فسيح، بعيد عن الجبال والربى، فما اطمأن ولا يطمئن قلب الغريب إليه. كانت تمر بنا القوافل كالأطياف، فتسلِّم على أطياف تمر بها، والأمن والظلام رفيقان ملازمان. إنه ليطمئنك مثل هذا

---

[1] في ٢٤ أيار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مائة درجة فارنهيت.

[2] باجل على مسير ثلاثين ميلًا من البحر.

الأمن نهارًا في اليمن وعسير، فكيف به ليلًا؟ وكيف به في بلدين متحاربين؟ مهما قيل في العرب، إنهم في حروبهم متمدنون، يحترمون حقوق الناس، ويحافظون على أرواح العباد. قد صحبتنا أيها القارئ في طريق التجارة بين البلدين، فتيقَّنت ولا شك أن في هذا الشعب الماجد الباسل من الحكمة والشرف وكرم الخلق والذوق ما لا يظن مثله في مثله.

وصلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل إلى مقهاية الطم، فاسترحنا فيها ساعة، ثم استأنفنا السير، وكان قد هلَّ الهلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل. وبعد ساعة من سيرنا في أرض رملية تتخللها السبخة بين أحراج من الشَّورى، ذاك الشجر الذي لا ينبت إلا بالقرب من البحر في تهامة، أطلت علينا ربة النور والنار. ولكننا عندما دنونا من البحر شممنا رائحة الملح، وأحسسنا بالرطوبة في الهواء؛ فاستعذبنا الاثنين.

البحر! ذاك الخط الأزرق على الأفق أمامنا، ذاك العلم الأزرق على ساحل العزلة العربية، ذلك الطريق إلى الأهل، إلى الأوطان، إلى المدنية، وفيه الأمل الكبير بالعود إلى الحياة والجهاد. البحر! إن ألطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامة وأبهج ما شاهدتْه آنئذ العينُ إنما هو البحر.

(٥) الحديدة

هو ذا شبح الحرب! من مدافن الآرغون، من خرائب فرنسا في الشمال جاء يلاقينا في الحديدة. هو أول من حيَّا صامتًا عند دخولنا البلد، أول من وقف في الطريق يلفت إلى حاله نظر الغرباء، ثم تبعنا كالظل، وما توارى عن الأبصار إلا في جوار السلطة والمدنية. فلا عجب، ونحن ضيوف الأولى، وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية، إذا نسيناه كما ينسى العابر شحاذًا في الطريق. نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمَّد فضل الدين وكيل بريطانيا العظمى في الحديدة وسفيرها إلى السيد الإدريسي.

صعدنا إلى الطابق الأول فإذا فيه صناديق من حديد، صناديق كبيرة ذات أقفال ضخمة، كانت مملوءة في الماضي بالصكوك والأوراق، وبالذهب والفضة. هو ذا شبح آخر يحيِّينا صامتًا، شبح القوة وراء العروش، وفي الحروب والجيوش، شبح المال. إنما نحن في دائرة البنك العثماني، ولم يبقَ منه غير هذه الصناديق الفارغة، وبعض المواعين المكسرة.

صعدنا إلى الطابق الأعلى، إلى مكتب الوكيل وبيته، ففُتح لنا باب من خشب الهند فخم كبير، نقشه يبهر الأبصار، ويؤهله لأعلى مقام في دور الآثار، فدخلنا إلى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين الهندية، والطنافس العجمية، ومزيَّنة جدرانها بالرسوم الهندسية، والآيات القرآنية. وفي سقفها العالي من صناعة النقش بالدهان ما يحيِّر شكلًا ولونًا ودقةً غواةَ الفن. وإلى أحد طرفَيها، بين السقف والأرض، ردهة خاصة تحجبها شعرية من الخشب الهندي، كانت مُعَدة للحريم، يطللن منها على القاعة

تحتهن في أيام العيد، وفي ليالي الأنس والطرب، وهو ذا شبح آخر يستقبلنا صامتًا، شبح الثراء والجاه، شبح القصف والترف، شبح السرور واللذات.

كان القصر الذي دخلناه لأكبر الأغنياء في الحديدة، بناه لعينه وقلبه، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته. فصار بعد موته إجارًا للبنك العثماني، ثم بعد الحرب فتحًا للوكالة الإنكليزية. وها نحن اقتداءً بالإنكليز نحتلُّ قسمًا منه. فإن حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحِّبًا خيَّرنا في أمرين: إما أن ننزل في البيت الذي أعدَّه لنا، وإما أن نقيم وإياه في القصر. ومَن ساح مثلنا في اليمن قلَّما يسيء الاختيار، وقلَّما يستحي بذلك. قلنا نحدث أنفسنا: من المؤكد أنْ ليس في الحديدة كلها مثل هذا القصر. ثم خاطبنا صاحبه قائلين: ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا. فرحَّبَ ثانيةً بنا، وأصبحنا من تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعيمًا ليس من جاء من الجبال فقط، بل من يجيء من وراء البحار.

عجبنا لسماحة الوكيل، وكرم أخلاقه عندما عدنا إلى المرآة بعد غيبة طويلة. فإننا كنا بعد شهرين فطمنا عن الشعر المشط والمقراض، كأبناء عسير في رءوسنا، وكالروس البلشفيك في لِحَانا.

ولكنه أمر أولًا بإعداد الحمام، ثم استحضر المزيّن الهندي ليعيد إلينا شيئًا من الرونق في الأقل.

وكانت باسم الله بداءة احتلال دام شهرًا فقط، وبداءة صداقة لا تقاس بمقياس السياسة، ولا تُقيَّد بعوامل الاحتلال وأسبابه. أما الأشباح فكنا محاطين دائمًا بها. شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان. وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود إليه. وشبح اللذات كان يحفُّ بنا ويرفُّ فوق رءوسنا ليل نهار، ويؤلمنا في ساعات يسودنا فيها ما يسود الرجال. إلا أنه لم يكن يُحزِننا حزنًا شديدًا غير الأول. قد هربنا من دمار الحرب وويلاتها، من ظلماتها في العقول، من فسادها في النفوس والقلوب، من سمومها في الأمم المتمدنة، وها هو شبحها في الحديدة يذكِّرنا بها، ويرينا شيئًا منها.

ضُرِبت هذه البلدة من البحر مرتين: الأولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الإيطالية، والثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آلنبي على الترك في فلسطين، فكان ضرب الحديدة جزءًا من الهجوم العام. وكان قنصل الإنكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تَصدر منها الأوامر بإطلاق المدافع، وكانت دار القنصلية بأمر القنصل، الهدفَ الأول لقنابل الأسطول؛ لأن فيها حسب ادِّعائه أوراقًا سرية، ولكن الإشاعات لا تثبت الادِّعاء. قيل إن القنصل دمَّر بيته، أمر بتدميره؛ لأن فرشًا شاء حرقه طمعًا بالتعويض. وقد دفعت له الحكومة بعدئذٍ أضعاف قيمته تعويضًا. هذا شبح الحرب، وأثر من إفسادها في الأخلاق.

وفي الحديدة وأهلها غيره من الآثار المحزنة مما كنا نشاهده، ونسمع به كل يوم. ميل في الناس ولا حجة، أمل ولا يقين، شكوى ولا عمل، تحزُّب ولا قوة، قوة ولا قصد ولا حُسْن نية، وبنايات في المدنية ولا

سقوف، وسقوف ولا نوافذ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها، وأخشاب تحت الردم وآمال، وبنٌ في بيوت ذهبت القنابل بحياة أهلها، وحزن تحت سقوف هجرها الناس إما خوفًا وإما فقرًا، ووحشة في أسواق كانت يومًا عامرة بالتجارة. أضِفْ إلى هذا كله ما قد يكون السبب في ذلك كله؛ أيْ صورة حكم أو «لا حكم» لا نرضاه لمولانا السيد، ولا لأصحابنا الإنكليز.

الحديدة التي كانت من أجمل البلدان العربية على البحر، وأكبرها تجارة، هي اليوم مجردة عن الاثنين. فريسة الحرب هي وفريسة السياسة، ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقَّى فيها من حياة ومن أمل. أجل، هي بين الإنكليز والسيد والإمام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودَّها، ولكن التحاسد بينهم يفوق الحب والإخلاص، فلا تركن إلى أحد منهم، بل هي تخشى إذا ما أظهرت ميلها أن تفقد الثلاثة، وهناك الشر الأكبر، وهناك الفوضى.

أما الشوافع فيها فهم لا يميلون إلى الإمام، ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد إلى البلد شيئًا من تجارتها وبهائها. وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي أو اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة؛ لأنه لا يتأكد أنها ستكون دائمًا في حوزته. والإنكليز لا يتدخلون في غير ما فيه حفظ الأمن والنظام؛ لأن موقفهم فيها إنما هو موقف المقامر. فهي بيدهم الورقة المجهولة في الصفقة الأخيرة، وبكلمة أخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع الإمامين.

وهناك فئة من التجار يبغون إمام الزيود، فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالإنكليز؛ لأنهم لم ينالوا من أحدهما غرشًا واحدًا تعويض ما خرَّبته مدافع الأسطول. وتراهم، إذا ذكروا التعويضات، يعودون دائمًا إلى قصة القنصل الذي هدم بيته حبًّا بها، على أن الإنكليز يتملَّصون من دفعها إلى الأهالي بقولهم: إن ذلك متوجِّب على صاحب الحديدة، وقد أهدوه المدينة؛ حبًّا به، أو نكاية بالإمام على السواء. ولكن صاحب الحديدة يبغي مع الهدية شيئًا من أسباب الحكم الأولى، شيئًا من المال. فمن أين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الإنكليز، وهو لا يجمع من أهلها زكاة ما يكفي لإدارة شئونها.

إن البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضًا. فإن إدارة الحديدة في يد خمسة من الحكام أولهم اسمًا عامل السيد، وآخرهم رسمًا الوكيل السياسي، وبين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس المينا يشاركونهما المسئولية ووجع الرأس. إلا أن الوجع الأشد هو في العاصمة في جيزان؛ لذلك فوجئت الحديدة ذات يوم بإرادة إدريسية محورها قرض قيمته ثلاثون ألف ليرة، تُعطى به صكوك على الجمرك. فجس العامل والوكيل نبض البلد، وأشار بنصف القيمة، فتردد التجار، وتأوَّهوا، واعتذروا. وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة. فإنهم إذا اشتركوا بالقرض اليوم، وانتقلت المدينة غدًا من يد السيد إلى يد الإمام، فمن يدفع الدين يا ترى؟ لا لوم عليهم إذن، ولا لوم على حاكم البلاد، وليت شعري من الملوم؟ الحالة السياسية

وحدها؟ لا ريب عندي أن وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن أشد منه في الحديدة وفي جيزان.

وبين جيزان وعدن وصنعاء قلب مدينة يحترق وكيس مدينة يئن. قلت: إن الحديدة تخشى أن تُظهر ميلها، وهي في هذا المثلث السياسي. فقد أقدمت على ذلك مرة، وكانت منها الأولى والأخيرة، عندما ضرب الإنكليز البلد، وأنزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن الناس أنها بداية الاحتلال، فسُرَّ التجار بذلك خصوصًا الهنود منهم. وبعد ذلك، بعد أن غيرت الحكومة الإنكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدة، ومنهم صاحب التعويضات الذي مرَّ ذكره، وكلهم في الحمق والتصلُّف واحد، غيَّر التجار والأهالي رأيهم بالإنكليز. فلما سئلوا رسميًّا كما سئل السوريون مرة: من تريدون أن يحكمكم؟ أجابوا بصوت واحد: الترك. فقال القنصل: هذا مستحيل. فقالوا: نبغي إذن الحكومة المصرية، نبغي الانضمام إلى مصر.

ثم جاء أحد أعوان المعتمد في عدن يمثِّل آخِر فصل من رواية الاستفتاء، فجلس في القصر ودعا إليه تجار المدينة وأعيانها، وسألهم ثانية فأجابوا كما أجابوا سابقًا؛ فأُفهِموا أن رجوع الترك إلى الحديدة أمر مستحيل، وكذلك حكم المصريين فيها. في تلك الأثناء، أي قبل انتهاء الفصل الأخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طابور من العساكر الإدريسية، فخُتِمت الرواية في الشهر الأول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الإدريسي الذي استمر منذ ذاك الحين. ليست هذه النتيجة الواحدة لذاك الاستفتاء، إن له نتيجة أخرى ظهرت خصوصًا في التجار الذين جهروا بميلهم إلى الأتراك وإلى المصريين.

عندما تأسست الحكومة الإدريسية في المدينة، استدعى العامل إليه التجار الخمسة الذين تولَّوا الزعامة فتكلموا باسم الأهالي، وأشار عليهم أن يزوروا حضرة السيد في جيزان، فاعتذروا وترددوا. ثم استدعاهم ثانية، وبينا هم ينتظرون في دار الحكومة أحاطت بهم العساكر، وكانت الركائب حاضرة، فأركبوهم وساقوهم إلى العاصمة التي هي على مسيرة أربعة أيام من الحديدة، فأُنزِلوا في القلعة، وظلوا سبعة أشهر أُسَراء فيها، ثم أُعلِموا بذنبهم وبالجزاء، فدفع مَن يستطيع الجزاء مالًا، وقدَّم الآخرون أبناءهم رهائن «المحسوبية» والإخلاص. أَمَا حان لأمراء العرب أن يعدلوا فيما يمسُّ بكرامتهم الشخصية عدْلَهم في غيرها من الشئون؟

لا عجب إذا كانت الحديدة تخشى الاستفتاء إذن، وتخشى إظهار ميلها إلا سرًّا وهمسًا في بعض الأحايين، وإذا فعلت تقع على ما أظن في شَرَك الفوضى، وما يتبعها من الغزوات، من السلب والنهب والتدمير. أمَّا الإنكليز فالعرب لا يبغونهم محتلِّين، لا يبغونهم على الإطلاق. ولو لم يكن الوكيل السياسي مسلمًا لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته ومسئولياتها. أمَّا إذا قاموا يطلبون الإمام، قبل أن يقرر الإنكليز أن يعيدوا الحديدة إليه، فيضربهم السيد، ويستنفر عليهم القحراء، وقد يغري بهم الزرانيق. وإذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها، ويعلنون رغبتهم رسميًّا، فقد يحرك الإمام عليهم إما زبوده، وإما مَن يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق.

الزرانيق أكثر القبائل التهامية عددًا، وأشدهم بأسًا، وأقلها صدقًا ووفاءً. هم لا يطيعون الإمام، ولا يطيعون السيد، ولا يأبهون بالإنكليز. هم مستقلون من كل حكم، وكل نظام، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها. بل هم مثل أشراف ذي الحسن في الحجاز، قطَّاعو طرق وقرصان بحر، يهرّبون السلاح، ويتاجرون بالرقيق، وبما عندهم من قوة حربية. بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدة وزبيد في طرف تهامة الجنوبي، وميناؤهم الأول الطائف في خور غُلَيْفقه. إنهم يُقسمون قسمين: زرانيق الشام، أي القسم الشمالي، وزرانيق اليمن، أي القسم الجنوبي. أما قوتهم الحربية فتدنو من عشرة آلاف بندق، ثلثاها في زرانيق اليمن.

كان الزرانيق أيام الترك كما هم اليوم عُصاةً عُتاة، يأخذون المشاهرات من الدولة، ويقطعون مع ذلك أسلاك التلغراف، وينهبون في البر القوافل، وفي البحر السنابيك. أما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء؛ هم دائمًا يمثِّلون في رواية تهامة السياسة دورين وثلاثة أدوار في وقت واحد، ثم يميلون في النهاية إلى مَن يزيد في المال أو في السلاح. كان أحد شيوخهم يفاوض مرةً الإنكليز ليستنصرهم على الترك، ويطلب سلاحًا منهم وذخيرة. ثم قبِلَ وظيفة من والي اليمن، فصار قائمقام زبيد. ثم نصر قبيلة القحراء عندما أسرت البعثة الإنكليزية في باجل، ثم ساعد مَن سعى في إخلاء سبيلها. فلا عجب إذا مال قسم من الزرانيق إلى الإمام يحيى اليوم، وقسم إلى السيد الإدريسي.

أنت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم، وتذكر أنهم أرونا الرهائن، أما الحقيقة فغير ما سمعت، وإليك الخبر اليقين: جاء عدد من الزرانيق، خمسة وعشرون، إلى الشيخ محمَّد طاهر رضوان يقولون للسيد: القبيلة كلها، ونحن الكافلون، بشرط واحد. فانخدع القائد، وأعطاهم ما يبغون من المال. ثم عادوا: الرسالة لا تتم إلا بدفعة أخرى. فلم ينخدع القائد ثانية، فقبض عليهم، وأسرهم، وقيّدهم بالحديد، وادَّعى لغرض سياسي أن الزرانيق كلهم مع السيد — وهذه رهائنهم.

قلت: إن في الزرانيق سياسيين دُهاةً، كما أن فيهم لصوصًا عُتاة. لما أسر قائد باجل رجالهم قالوا: هؤلاء لصوص تتبرأ القبيلة منهم، وأنكروا أنهم من الزرانيق. ولو كان من مصلحتهم يومئذٍ أن يحاربوا الإدريسي لكان أولئك الرهائن من سراة القبيلة، فيتذرَّعون بهم، ويعلنون من أجلهم الحربَ على إمام صبيا وجيزان. إن عند الزرانيق شيئًا كذلك من الشرف، شرف اللصوص، ولهم الجواسيس في الحديدة، وفي باجل، وفي بلاد الإمام يحيى مثل ما للحكومات المتمدنة. جاءهم الخبر ذات يوم، كانوا ناقمين فيه على السيد، وعلى الإنكليز، إن سنبوكين من السلاح أقلعا من الحديدة، ووجهتهما جيزان، فأسرع قرصان الزرانيق شمالًا، فلحقوا بالسنبوكين. قطعوا عليهما البحر، أطلقوا عليهما الرصاص، فقتلوا عسكرهما، وعادوا بالسنبوكين غنيمة. ولما أفرغوهما علموا أن أحدهما ملك نوتي في الحديدة، لا ملك الحكومة، فأعادوه إليه! إن لهم حتى في اللصوصية قواعد يحافظون عليها، وحقوقًا يحترمونها. وأغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الأدلة

على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الأحكام، والتفرد المضعف المهلك في السيادة.

إن في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديمًا مشهورة بالعلم والصناعة، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام، وزرانيق اليمن، وبيت الفقيه حرة مستقلة ذات سيادة مطلقة، لا تعترف بأحد من الأئمة، ولا بأحد من الأجانب، ولا بأحد من الزرانيق سيدًا عليها، بل هي نفسها مقسومة خمسة أقسام، خمسة أحياء. لا يزيد سكان الحي الواحد على الألف، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة، يحكمه باسم الله وباسم الألف حرٍّ مستقل شيخٌ لا صلةَ بينه وبين زملائه، إنه لا عجب ما كان وما يكون في الأحكام الحرة المستقلة. وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصُّب ساداتها، وبفسق نسائها، وليست في منسوجاتها كما كانت في الماضي.

لا عذر لحضرة الإمام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف. لا يمكننا أن نعزو ذلك إلى النفوذ الأجنبي والدسائس الخارجية؛ إذ لا أثر لذلك في بيت الفقيه وفي الزرانيق. إن مثل هذه القبائل العاصية العاتية، المتاجرة بقوتها، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لأكبر العقبات في سبيل القومية الناهضة والوحدة العربية. إن البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح، هذا الإجرام باسم القومية، هذه اللصوصية باسم الاستقلال. ليبدأ كل أمير في بيته، فيحكمه باسم الله حكمًا قاسيًا عادلًا، ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان، ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز. فلا يهم إذ ذاك من يستولي على الحديدة، وعندي أن من يستطيع من الإمامين — إمام صنعاء، وإمام صبيا وجيزان — أن يغلب الزرانيق ويؤدبهم، ويُدخِلهم في حكمه يستحق أن يكون صاحب الحديدة.

(٦) أديان وأشجان

العيد! وحق لنا أن نعيد؛ لأننا اشتركنا في رمضان مع الزيود ومع الشوافع، فقلَّ نومنا وأكلنا، وحُرِمنا طيبات الحياة فقلَّت ذنوبنا، وطالت مثل النسَّاك شعورُنا، وكثرت تقشفاتنا وأوساخنا. العيد! نهضت صباح اليوم المبارك، فارتديت أفخر ما عندي، قميصًا حجازية بدوية، و«قدمية» مكية، وكوفية مزركشة هندية، وعقالًا مقصبًا شريفيًّا، ونزلت أهنئ مضيفي وصديقي مُحَمَّد فضل الدين.

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر، فُرِشت بسجادة ووسائد، فأصبحت ديوانًا يجلس فيه الوكيل المحترم؛ هو عرشه ساعة الاستقبال، ومكتبه في غير الأمور السياسية، والمرصاد الذي يرصد منه ما حام على الأفق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق. وجدته صباح العيد جالسًا على العرش معتمًّا بعمامة هندية وافرة، طويلة الذؤابة، باهرة الألوان، وبيده سِفْر إنكليزي في الفطريات كان يترجمه إلى اللغة الهندستانية.

سلَّمت وهنأته باسم الله، فأُعجِب بقيافتي، وأشركني في عرشه، ثم دخلنا في موضوع لا صلةَ له ظاهرًا بالعروش والعمائم، أو برمضان المبارك والنوافل الروحية، ولكنه يتَّصل باطنًا بهاكلها. الدكتور محمَّد فضل الدين رَجُلان مثل كل ذي فكر وعلم وحجى؛ رجل يعرفه الناس والحكومة البريطانية، وهو الملازم فضل الدين من أطباء الحكومة الهندية، ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس، وهو محمَّد فضل الدين من لاهور في الهند، ومن كل مكان في الفلسفة الروحية.

أما الرجل الأول، أي طبيب العيون، ووكيل بريطانيا السياسي فنتركه للناس، ليس فيه ما يميزه عن زملائه الأطباء والوكلاء السياسيين. ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال إرثه الشرقي. إن لفضل الدين قلبَ شاعرٍ، وروحَ صوفيٍّ. أضِف إلى ذلك أنه جبلي، هو من قرية صغيرة في جبال الـ «بنجاب» التي تضاهي بجمالها جبال لبنان.

دخلنا في الموضوع الذي أشرت إليه، وفيه تتشابه العمائم والتيجان، وتضمحلُّ أشكالها الظاهرة، ووقفنا عند أول أبوابه لنستقبل أول مهنئ بالعيد السيد محمَّد العربي عامل الحديدة، ومندوب الإدريسي فيها. السيد محمَّد ابن عم حضرة الإمام، ولكنه مصري المولد والقيافة والحديث، حلو الشمائل، دمث الأخلاق. وقدكان في نيتي أن أزور المدينة ذاك اليوم مستطلعًا حال أهلها، فجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئني وشريكي في العرش بالعيد. جاء الحديديون زرافات ووُحدانًا من موظفين وتجار، وسوقة وسادة، ونوتيين وأدباء. فيهم من أجناس الشعوب: العربي، والسوري، والمصري، والسوداني، والصومالي، والهندي، والجاوي، والإيراني. وفيهم من تعدُّد المذاهب والأديان: الشافعي، والمالكي، والحنفي، والزيدي، والجعفري، والإسماعيلي، والماروني[١] والبارسي عابد النار، والهندوسي عابدة البقرة، والبوذي عابد اللاشيء في اللانهاية السرمدية. وفيهم من القيافات والأزياء: العباءة، والعقال، والجبة، والعمامة، والصدرة، والسروال، وقميص النوم والنعل، والفوطة، والعري ألوانًا وأشكالًا. أجل، قد عرض أمامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب، ومعرض أديان، ومعرض أزياء في الملابس والعري قلَّما نشاهده في مكان آخر.

تعددت الشعوب في الحديدة، بل في تهامة، وامتزج دم السوداني بدم العربي، ودم الصومالي بدم الهندي، ودم الجاوي بدم الإيراني، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة. إن صفاء الدم في النسل لأعز ما في الأمم، وإن حفظ العنصر والنسب مع الرقي العقلي والأدبي لأجمل ما في الشعوب. أفلا تتقزز من هذا الشريف الغائر العين؟ الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني، وهو من أبناء بنت الرسول؟ أوَتروقك طلعة ذاك السيد صاحب العين اللوزية (جاوية صينية)، والأنف المفلطح (تكروني دنقلي)، واليد

[١]هو ترجمان قنصل فرنسا في الحديدة.

العربية الجميلة؟ وهل تسرك رؤية ذاك، هندي الأم، صومالي الأب، عربي اللسان، إسلامي الدين، ولا شيء فيه من صدق العقيدة، ومن الفصاحة والحسن والبراعة؟ فلا هو مسلم، ولا هو عربي، ولا هو صومالي، ولا هو هندي، لا في أخلاقه، ولا في وجهه، ولا في ملابسه.

إن مَن يعتقد من العلماء بأن امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسِّن النسل ليغير عقيدته، لينبذها إذا جاء الحديدة. ولو كان ذا الامتزاج يقرِّب أصحاب الأديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة الواحدة، خصوصًا في الشرق، بسيئاته كلها. ولكن الهندي يظل هنديًّا، والبارسي يظل بارسيًّا، والمسلم يظل مسلمًا، ولو امتزجت في سليلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها.

كنت جالسًا أنا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائرًا أحدُ الهندوس، أصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين، وتبوح بكل أسرارهما، فسألني أن أقدِّم له بيدي فنجانًا من الشاي، ففعلت، فرفض. ثم قدَّمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسمًا. والسبب في رفضه فنجان الشاي أن هذا الهندوسي يتنجَّس منَّا؛ من المسيحي ومن المسلم، بل من كل مَن لا يعبد البقرة مثله. ولا خجل في فعلته ولا حياء.

وهناك مَن يلبس دينه كما يلبس ثيابه، وهي قديمة ولكنها نظيفة، باليد اليسرى دون اعتناء. إن للمعلم الكبير زرادشت رعيَّة في الحديدة لا يتجاوز عددها الواحد الفرد، وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علمًا بدينه الجميل وبحاله. هو خان باهادور الفارسي أصلًا، الهندي بلدًا، الزرادشتي دينًا، الإنكليزي لسانًا، خان باهادور، وحديثه كزقزقة العصفور، فيه تكسير وفيه تنغيم. على رأسه عمارة أبناء قومه شارةُ مذهبِه، وعلى قامته الطويلة الـ «فراك» الإسلامبولي مزرورًا تحت الذقن، وتحته بنطلون إفرنجي أبيض عريض، وعندما يجلس يظهر خلال الـ «فراك» طرف قميص بيضاء تدعى في دينهم «سُدْرا»، أي الصراط المستقيم، وفيها جيب صغير يدعى «كيس صواب»، أي كيس الأفكار والأعمال الصالحة.

— ولكن الكيس فارغ يا مستر أمين. لا شيء في «كيس صواب».

— السبب لا شيء. تسألني؟ تراني وحدي في هذه المدينة. منذ عشرين سنة أنا وحدي في الحديدة، مقيم بين أناس لا يعرفون شيئًا من ديننا. يظنون أني أعبد الشمس. ومَن يعبد الشمس في الحديدة، هذه الشمس الظالمة المحرقة، مَن يعبدها؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة، وكلهم مثلي بشر، أبناء إله واحد؟ بدأت أشك في هذا الدين، في ديني. لو كان الإله العظيم يهتمُّ للحقيقة لما تركها وحدها في إدارة القهوجي[1]، وقد يكون يهتم يا مستر أمين، وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بالـ «سدرا». كنت أشغل فكري بالآخرة، فأين

[1] خان باهادور في الحديدة وكيل شركة بواخر القهوجي بعدن.

أُدفَن مثلًا، وليس في هذا البلد برج من أبراج السكينة[1]؟ في الهند نضطر أن نلبس مثل الهندوس، ونتكلم لغة الهندوس، ونطهِّر (نعمِّد) أبناءنا ببول بقر الهندوس. البارسي يا مستر أمين يقتبس كل شيء. ها هنا في الحديدة ترى المسلم والبنيان[2] والمسيحي، وكان فيها اليهود، وتراني أنا خان باهادور البارسي الوحيد فيها أقتبس كل شيء، أدين بكل الأديان؛ أنا مسلم، ويهودي، ومسيحي، وهندوسي، وبارسي ساقط لا ينفع ... الصلاة؟ أصلي قليلًا. فلو كنت أصلي مع الجميع لما بقي لديَّ وقتٌ للقهوجي وبواخره. أتعرف يا مستر أمين أن اليهود والمسلمين والنصارى إخوان لنا، هم منا؛ بيننا وبينهم قرابة تتصل بزرادشت وإبراهيم الخليل. مَن هو إبراهيم الخليل؟ أَلَا تعرف وأنت العالم المطَّلِع على كل شيء؟ إبراهيم الخليل هو زرادشت بنفسه[3]، هو نبينا ونبيكم، اضطُهد في إيران فسافر إلى فلسطين. زرادشت هو خليل الله، وخليل الله إبراهيم الخليل هو زرادشت. لا تتعجب إذن من قولي إني مع الكل. نعم يا مستر أمين أنا مع الكل، ولكني لا أخاف لأني متمسك بالـ «سُدْرا»، ألبسها كما ترى دائمًا، و«كيس صواب» لا يظل فارغًا دائمًا إن شاء الله. عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم. أسمعه يردِّدها دائمًا، فصرت أردِّدها مثله: الله كريم. إذا كان صراط خادمي الصراط المستقيم فأنا معه، وإذا كان في ضلال فهذه «سدرتي» يا مستر أمين، وهذه كذلك الـ «كستي». حياتي مضمونة في الآخرة، وإن كانت في هذه الدنيا لا تساوي مسمارًا في باخرة من بواخر القهوجي. الشركة الدينية لضمان الحياة الأبدية، مؤسِّسها خان باهادور، هي شركة قوية يا مستر أمين، وأحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي. أَلَا تريد أن تشترك فيها؟

البارسيون يغسلون أولادهم ببول البقر[4]، والعادة هندوسية اتبعوها في الهند خوفًا من الاضطهاد، لكنهم يربطون على وسطهم أثناء الغسل الـ «كستي»، أي زنار الإيمان، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان. ويردِّدون هذه الكلمات: الأفكار الصالحة، الأقوال الصالحة، الأعمال الصالحة. وكل ما يحرز البارسي منها يضعه في «كيس صواب» ليوم الحساب. كان صديقنا خان باهادور يرينا الكيس، وهو شارة قدر طابع البريد على قميصه، ويقول: الكيس كبير يا مستر أمين، ولكنه فارغ ... الله كريم. خان باهادور يموت في الحديدة وتأكله العقبان، وهو مرمي على شاطئ البحر. ولكن سيصلي من أجله المسلم

---

[1] برج السكينة عند البارسيين هو برج عالٍ يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقبان.

[2] هم الهندوس أو التجار منهم.

[3] هذا رأي في إبراهيم الخليل غريب، وقد سمعت في الهند أغرب منه؛ أخبرني أحد العلماء هناك أن بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله.

[4]

عجبت لكسرى وأتباعِهِ — غسل الوجوه ببول البقرْ

أبو العلاء المعري

والهندوسي والمسيحي. وكل واحد منهم يضع شيئًا في كيس صواب. الله كريم. الشركة الدينية لضمان الحياة الأبدية، الله رئيسها يا مستر أمين ...

كنا أنا وفضل الدين نقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم، وحديثنا الحياة والآخرة، وسر الوجود والخلود. وما أحلاها ساعة أنستنا السياسات والمذاهب كلها. إن في شخصية فضل الدين الروحية والعقلية من الأدب الشرقي ما هو مزيج من الإسلام والصوفية، بل في عقيدته الإسلامية شيء من الأسرار البوذية والغوامض الهندية، ولا عجب إذا ظل هذا الأساس الهندي، وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير. كنت أشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالإسلام، دين التوحيد، أني مثله مسلم، وكنا عندما نصل إلى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الإلهية؛ فنتأكَّد أننا واحد في الشك وفي اليقين.

— أتعتقد يا فضل الدين بتكرار التجسد؟

— لا أحب أن أعود إلى هذا العالم وهذه الحياة. أمَّا إذا كان في تلك النجوم حياة أخرى بشرية أو روحية محضة، فلا شك أنها تكون أسمى من الحياة التي نحن فيها.

— يروعني التأمل بحدود الإدراك في الإنسان، بل يملؤني حزنًا وغمًّا. خذ العقل واركن إليه فيخونك في النور أحيانًا وفي الظلام. وراء ذاك الأفق يهجرك أو تحت هذه المياه. لكن أليس من المحزنات أن يضمحلَّ هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا، ويعرف أجزاءها، وألوانها، وسرعة دورانها.

— لا يدهشني ذلك ولا يحزنني. في اضمحلال العقل — على ما أظن — تتحرر الروح. العقل للروح مثل السجن للجسد. وأظن أن الحياة مجردة عن الهيولية، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود، بل عن الإدراك البشري الذي يدور على محوره لا يعرف غير الـ «أنا» فيه، هذه الروح خالدة، وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك، وأظن كذلك أنها تكون مقرونة بإدراك يوافق طبيعتها، ويوازي قوتها، فتكشف حقائق في الكون جديدة، وتتغلب تدريجًا على العناصر المادية كلها، وأدواره البشرية والروحية جميعها. نعم يا عزيزي الريحاني، إن العقل في الحياة سجن الروح، وكثيرًا ما أشعر بظلمه، وأتألم من قيوده.

— وما برهانك أن الروح تحيا حياة مستقلة مجرَّدة خالدة بالرغم من انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجنًا؟

— إنها تحيا بسبب هذا الانفصال، وليس بالرغم عنه. برهاني؟ لا برهان عندي غير تلك الأنوار، أنوار النجوم والكواكب. إن فيها، في أشعتها، وفي فلكها عقلًا يديرها، وقد يكون ذلك العقل مكونًا من أرواح مَن تقدَّمَنا مِن الناس، وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها، منفصلة في الفردية، متصلة في الجوهر

الكلي. قد تكون تلك الأرواح كنه الجاذبية في الأفلاك.

— أرواحنا إذن تحوم حول تلك الأنوار كالفراشة، ولا تحترق؟

— فراشة النفس، نعم، وهي من نور، فتجذبها نار الحب، نار الألوهية إليها ولا تحرقها. وعلى ذكر الفراشة قرأت مرةً قصةَ حكيمٍ صيني حلم في نومه أنه فراشة في بستان الحبور، تنتقل من زهرة زكية إلى أخرى، وعندما استفاق حزن لما شاهد من حقيقة حاله، فسأل نفسه حائرًا بائرًا: هل أنا رجل يحلم بأنه فراشة؟ أم فراشة تحلم بأنها رجل؟

— جميل، جميل. ومَن يزيل الحيرة من قلب الحكيم؟ يُخيَّل إليَّ يا فضل الدين أننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة، وكل حقيقة تتكون تكوُّنًا روحيًّا جديدًا كلما طوي رمزها. وفي كل تكوُّن تزداد انتشارًا وقوَّة وحبًّا؛ فيكون رمزها في هذا العالم شبيهًا بها، ممثلًا لها، عظيمًا في الناس. ويستمر هذا الطيُّ والنشْر، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقة، إلى أن تجتمع بالفيض الأوليِّ، الفيض الإلهيِّ الباهر؛ فيكون في ذلك أوج مجدها، النهاية في اللانهاية، ويكون آخر التجسُّدات لرمزها المادي البشري. هذا ما تراه عين البداهة في التجسُّد والخلود، وهذا ما أفهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي.

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك، العقل عدو البصيرة، العقل — أعود إلى ما قلت — سجن الروح.

— وما دمنا في السجن لا أرى أصلح من البصيرة غذاءً وهواءً. وفي البصيرة كذلك شيء من الخيال هو خير التعزية إذا نكب البرهان.

— وما الفرق بين الخيال والأوهام الدينية؟

— الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد الخادم العبد بالجنة.

— وهل تسميها جنة العبيد — عبيد الأوهام؟

— قد سماها أحد مفكري العرب[1] بجنة البُلْه.

— إني أفضِّل أن أكون فراشة.

— فراشة من النور تجذبها إليها نار الألوهية، ولا تحرقها؟ إني أشاركك في التفضيل.

في صباح اليوم التالي أهداني صديقي كتابًا صغيرًا ما عرفت من عنوانه شيئًا من أغراضه، ولكن مؤلفه السيد أحمد بن إدريس مؤسس الحكم الإدريسي في عسير، هو من أولئك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين إلى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي. أمر عجيب يتلوه في تهامة أمر أعجب. كيف لا وهذا

[1] أبو حامد الغزالي.

الصوفي يؤسس فيها ملكًا عالميًا، الطريقة فيه أساس الحكم، والحكم أساس الطريقة. ولكن الطرق تُفسِد التصوُّف، فكيف بها في الأحكام؟

لعمري إن أجمل الكمالات التي نتمنَّاها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالأعمال السياسية والاجتماعية والأدبية كلها؛ فتصفو مجاري العقل في مواردها، وتدقُّ خيوط النفس في منسوجها، يقل الجشع والخداع والوهم في نواحي الحياة. ولكن التصوف اجتهاد شخصي، ونعمة فردية، لا تُورَّث، ولا تُعلَّم، ولا تُنشَر بالإجازات. ومن الأسف أنه لا يبقى منها بعد موت صاحبها غير الطريقة، أو الحلقة وخزعبلاتها، والمشايخ وشعوذاتهم.

قال فضل الدين عندما أهداني الكتاب: الجهل المخيم في هذه البلاد يفسد أغراض هذا الرجل الكبير. تجيء المرأة إليَّ وهي تشكو من مرض أو ألم، فأعالجها فتشفى بفضل «الشيخ أحمد». يجيء البدوي وهو يصرخ من أوجاعه، ويصيح: جِرني يا شيخ أحمد، يا شيخ أحمد لا تنسني! يغيظني هذا الإشراك، بل هذا الكفر. أكاد أجن منه. قلت مرة لأحد المرضى: رُحْ إلى الشيخ أحمد يداويك. ورفضت مرةً أن أعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من الشيخ أحمد إلى النبي، فصحت بها: لا أحمد ولا محمَّد يا كافرة، استغيثي بالله، اتَّكِلِي على الله وحده. أما حلقة الذكر فسنشاهدها في الحديدة.

وكان قد توفي فيها يومئذ شيخ الطريقة المرغني[1] فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من أجله، ضمت أربعمائة من المصلين، واستمرت خمس ساعات. صحبني تلك الليلة إلى مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة، وكاتب العامل، وأحد أصحاب فضل الدين؛ فجلسنا في منصة في صحن المسجد، أشرفنا منها على الحلقة كلها. وكان الناس جالسين على الحصر في الإيوان، وعلى الأرض في الفلاة، ووقف في الأبواب وحول الجدران جمْعٌ من المتفرجين، وجلس في الصدر في حلقة خاصة أبناء الشيخ المتوفَّى، ومشايخ الطرق الأخرى، ووسطهم سراج منير، وقارئ كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تُفتتح بها حلقات الذكر.

إن المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية، فهم يعدِّدون فيها فضائل الفقيد، فيجيئون بنبذة من سيرة حياته، ويذكرون بعض كراماته. استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة، وعندما وقف القارئ الوقفة الأخيرة فيها هتف المصلون: آمين. ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيد الأبرَّ، فكانت مثل المناقب طويلة، وما كنت وحدي متضجِّرًا. قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه: طويلة، والله طويلة. الشيخ يحتاج إلى الصلاة لا إلى الأشعار.

[1] الطريقة المرغنية لأحمد المرغني الذي أخذها عن أحمد بن إدريس، منتشرة في عسير وعدن، والسودان.

ولكن الشعراء لا يملون إسماع قوافيهم، هو ذا آخر لا حسنة حتى في صوته، ولاحقٌ جعلنا نترحم على السابق. ثم هتفنا مع المصلين: آمين، آمين. وكان الحرُّ شديدًا، والهواء ساكنًا عنيدًا، لا يحرك منه لسانًا فينعش قُوَانا، والرطوبة أثقل ما فيه، واللزوجة أفجع قوافيه؛ فاستجرنا منه بروح الشيخ الطاهرة، ورفعنا الأدعية والطلبات إلى سدتها الجليلة الباهرة: يا لطيفة، يا شريفة، ياكليمة أبي حنيفة، يا مسكتة الشعراء، ومنطقة الأولياء، يا مسكِّنة النهقات، ومحرِّكة الحلقات، اسمعينا، ارحمينا، آمين.

استُجِيبت في الحال طلبتنا، فوقفت الحلقة أربعة صفوف، الواحد وراء الآخر، ووقف الشيخ أحد أبناء الفقيد في وسطها فحرَّكها باسم الله. بدأ بصوت هادئ وإشارة لطيفة، بدأ بـ «لا إله إلا الله»، فمالت الحلقات إلى الأمام، ومالت إلى الوراء، وراحت تكررها، وتردد الشهادة. وكان صوت الأربعمائة مصلٍّ، وكأنه صوت واحد، وحركة الأربعمائة مجلٍّ، وكأنها حركة واحدة، يتدرجان سرعة وهياجًا عملًا بلهجة الشيخ وبإشارة يمناه، وهو يجول في الحلقة مستحِثًّا محرِّضًا.

إلا الله! وضرب كفًّا على كف، فرددت الحلقة: إلا الله! بسرعة لمح البصر، ثم أمست كأنها تصيح: لله لله لله، وسكتت فجأةً كمَن أغمي عليه. ثم عادت تدريجًا إلى الميزان الأول في الصوت والحركة: لا إله إلا الله. وجلس الشيخ، فقام آخَر يثب وثبًا ويقول: حيُّم قيُّم[1]. شرعنا نتقدم هياجًا. دخلنا في دور الزبد والرغاء. حيُّم قيُّم! وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الأرض، ثم نطحًا في الجو، واستمرت في حيُّم قيُّم نصف ساعة، والشيخ يثب وسطها ويحلج، وصفق كفًّا على كف، كل مرة ينقلها من درجة في السرعة إلى أخرى، وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعًا من فاز بنعمة في «الحال».

ثم نهض فتى لا يتجاوز الثانية عشرة سنًّا، هو أصغر أولاد الفقيد، فبدأ حيث انتهى أخوه. وكان يتلوى كالسكران، ويرقص تارة، ويثب طورًا كالمجنون. مثَّل الفتى دوره تمثيلًا أدهش حتى الذين ألفوا الحلقات ومدهشاتها، وأضحكهم كذلك. كهرب الفتى الحلقة. أضرم فيها النار. قبض على ما تبقى من رشدها، ورماه خارجًا. صاح بها فرددت الصيحات، وصرنا لا نفهم ما يراد. إلا أنها أشبه بالأنين، كأن الأربعمائة رجل أصيبوا بألم شديد، فأنُّوا أَنَّةً واحدة. وبدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد. هو ذا عبد أمسى جمادًا، فرفعه اثنان فوق رءوسهم وأخرجوه، وذاك وقد خرج من الحلقة، فراح يدق رأسه بالحائط؛ فسقط صريعًا مغمًى عليه، وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من أعمدة المسجد فأمسكه رفيقاه، فتفلت منهما وضربهما، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة، حملوه مضرجًا بدمه إلى خارج المسجد.

بدأت تظهر كرامات الشيخ. سقط أمام الفتى الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة، والزبد

[1] أي الحي القيوم.

يسيل عليها من فمه، فوثب فوقه، ولم يأبه له، وهذا آخر يخلع ثيابه:

خلعـــت عـــذاري واعتـــذاري لابـــس الـــ ـــــخلاعة مســـــرورًا بخلعـــــي وخلعـــــتي

رمى بعمامته وبجبَّته وبدثاره إلى الأرض، فأوقفوه عند هذا الحد، وأخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية. استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة: يا لطيفة، يا شريفة، ياكليمة أبي حنيفة، يا مسكنة العباد، ومنطقة الجماد، يا ربة الحال، وسراج الترحال، قفي، والطفي، لا تقتلينا بالكرامات، ولا تُسْكِرينا بالشعوذات، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات، آمين، آمين.

(٧) أحمد بن إدريس والتصوف

كتبت عند وصولي إلى الحديدة كتابًا إلى السيد مُحَمَّد إمام صبيا وجيزان أستأذنه بزيارته، وبتُّ أنتظر الجواب، وأنتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق، فصارت تعمل يومًا في الأسبوع، وتعيِّد ستة أيام فعيدت معها. وكان سروري مزدوجًا؛ لأني اجتمعت أيام العيد بقطب دائرة التقديس، السيد أحمد بن إدريس، كبير بيت الأدارسة، ومؤسس ملكهم في عسير، وفزت بطرفة من ترجمة حياته، وبنفحة من قدسياته، فجئت أمتع القارئ بها عله إذا كان ماديًّا يستفيد، وإذا كان روحيًّا يستزيد.

إن في العالم الإسلامي قطبين للصوفية وموردين هما: إيران، وبلاد المغرب، والسيد أحمد، نور من أنوار الثاني، فقد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب، وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب.

وُلد في بلدة العرائش على ساحل البحر من أعمال فاس في السنة الثانية والسبعين والمائة بعد الألف (١٧٥٨م)، وهو شريف حسني من السادات الأدارسة المشهورين في بلاد المغرب. درس العلوم في مدينة فاس، ثم شرع يعلم هناك في «ما شاء الله»، أي في المواضيع التي شاءت العزة السرمدية تلقينه إياها بالوسائط وبدونها.

كان السيد أحمد وهو في الدور الأول من استشراقه على الأسرار الإلهية والكونية يكثر الترداد على المشايخ العارفين الأبرار الذين أصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك.

أما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد أحمد في فاس، فقد صار بعدئذ شيخه الأكبر، ونور طريقه الأنور، ولا أهمية للسِّنِّ في الموحيات، ولا للشيخوخة في الربانيات. فمن جمال هذه الأرواح القدسية وكمالاتها أن المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف أن يأخذها، وهو شيخ طاعن في السن عن تلميذه، بل عن أحقر الناس، وأصغرهم لديه.

قد اجتمع السيد أحمد بشيخه التازي بوساطة عالم من علماء شنقيط يدعى المُجَيدري، وكانت في الاجتماع الأول فاتحة الألطاف والأشراف. ولا عجب إذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له

بابًا، أو يشير إلى باب من أبواب الحقيقة الكلية الأزلية.

إني أتصور المُجَيدري يقول للتازي: هذا الشاب الإدريسي مجدٌّ مجتهد، وهو على سنه طويل الباع في أسرار الكتاب والسنة. فيقول التازي: قد علمت بذلك قبلك. سمعته في بادئ أمره يدرِّس فقلت في نفسي: لا بد أن يشرق على كلماته نور الإذن الرباني. وها دنت الساعة يا مجيدري، ايتِني به فأجمعه برسول الله.

وكذلك كان، ذهب السيد أحمد مع المجيدري إلى الشيخ عبد الوهاب، وأحس من أول لحظة أن ها هنا الباب الأول، ها هنا سراج الطريق، فلازمه وانقطع إليه بكليَّته. وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق أستزة الغيب، فيرى ما لا يُرى، ويشعر بما يحدث بعيدًا عنه على الطريقة التي يدعوها العلماء بالكشف[1]. منها أنه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط. وقد علل الشيخ التازي للسيد أحمد هذا العلم بالغيب تعليلًا لطيفًا جديرًا بالذكر أن المربي أو الوساطة الأولى بين النفس والمصادر الروحانية إذا اتجه في ساعات الحال إلى أحد تلاميذه يراه بعين الغيب، ويراه ما دام حيًّا في حالات شتى، «تارة أنور وتارة أظلم بحسب سلوكه وطاعته، وتارة أقرب إلى الله وتارة أبعد». أما إذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعهده فيه، فيستنتج من ذلك أنه مات. أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الإنسان إطلاقًا؟ هو ما دام حيًّا متقلب، أو بالحري يتنازعه دائمًا عاملان، عامل الخير فيقربه من الله، وعامل الشر فيبعده عنه، ولا يوحِّد العاملين أو يزيلهما إلا الموت.

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد أحمد غير الوساطة الأولى. أما الثانية وهي بشرية كذلك، فتجمعه بالخضر أبي العباس. إلا أنه قبل أن نصل إلى الخضر لا بد من الدخول في الباب الثاني، أي شيخ الشيخ التازي. نعم، قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس. وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ست وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشرة سنة منها.

قد أخبرتك كيف اجتمع الإدريسي بالتازي، فأخبرك الآن كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ.

يظهر أن شيخ سيدي أحمد كان تاجرًا أول أمره، أو أنه كان يتَّجِر في بعض الأحايين ارتزاقًا. فمر يومًا بالدباغ وهو يريد أن يتجر في الحنطة، فدنا الدباغ منه، وهمس في أذنه: لا تتَّجر في الحب، واتجر في السمن. اشتره من يوم كذا، وبعه في يوم كذا، ولا تبقه بعده. فعمل التازي بما قال؛ فربح ربحًا كثيرًا. فجاء إليه شاكرًا، فقال الدباغ: ليس المقصود هذا، وإنما المقصود أن تتجر تجارة لن تبور أبدًا. فقال التازي: كيف ذلك؟ فأجاب الدباغ: أخرج مما ملكت يدك فتصدق به. فعمل بأمره ولزمه منذ ذلك الحين، واطلع على

(1) Clairvoyance.

أسرار في العلوم والتفسير تلقنها بوساطته من الخضر أبي العباس. وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ، وكان هو وتلميذه الإدريسي يزوران ضريحه، وينشدان هناك الأشعار:

لقد نبتت في القلب منكم محبةٌ كما نبتت في الراحتين الأصابعُ

•••

تعشقتكم طفلًا ولم أدرِ ما الهوى فشاب عذاري والهوى فيكمُ طفلُ

من كرامات التازي أنه غاب عن بلده مرة يذكر إخوانه في الله فمات ولده، فأخبر بذلك، فأرسل إلى أهله يقول: لا تدفنوه حتى أحضر. فحضر بعد ثلاثة أيام، فخاطب ابنه قائلًا: من قال لك تموت؟ قم بإذن الله. فقام الولد حيًّا. إن كاتب الترجمة التي أعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عادي مألوف. وإني ناقل الخبر حبًّا بنشر ما أظنه إلهيًّا لحقيقة كلية، لا بد في مستقبل الإنسان والإيمان أن تصبح قوة من القوى البشرية العامة يستخدمها صاحبها لخير الناس. يستخدمها في الشفاء من الأمراض على الأقل. فإذا مرض أحد في بيتك تقول له: من قال لك تمرض، اشفَ بإذن الله تعالى. فيشفى في الحال.

وكان التازي يهذر أحيانًا بين أصحابه امتحانًا لهم، فيقول مثلًا: وددنا لو جاءنا أحد بثمر من القوقاس، أو بعنب من البحر. فيقول بعض أصحابه: كبر سن الشيخ. ولكن السيد أحمد، وقد كان أطوع له من بنانه، كان ينهض فيتهيأ ويتزود للسفر، ويجيء إلى شيخه، فيقبل يده مودعًا، ويقول: سأجيء لك بعنب من البحر. فيقول له التازي سرًّا في أذنه: يا أحمد، أمرنا كله جد، من يُعطِ الجد يُعط الجد.

ما أكبرها، وما أجملها كلمة! أخذها السيد أحمد عن شيخه التازي، وجاء بها إلى مصر. من يعطِ الجد يُعط الجد. كان يومئذ في العقد الرابع من العمر، فأقام في أرض الكنانة قليلًا، ثم سافر إلى مكة، فأقام فيها ثلاثين سنة يجادل ويناقش العلماء، ويشرح ويعلم العلوم الروحية. وكان يقول دائمًا: لكل نبي دعوة مجابة، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة. هذه هي نقطة الخلاف بين السالكين من سنيين وشيعيين، وأهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذاك الحين على الحرمين.

أما إذا قبلت قاعدة السيد أحمد، فينبغي لك أن تقبل كذلك نتائجها، فتقول، والمنطق أساس المعقول: ولكل شيخٍ طريقةٍ عند وليه طلبة مقبولة، ولكل سالكٍ عند شيخه شفاعة، ولكل امرئ عند السالك مثلها ... إلخ. هذا نظام في العقيدة والإيمان يفسد غالبًا الغرض السامي منهما. قد رأينا مثالًا منه في حلقة الذكر، وهناك أمثلة أخرى عديدة فيمن يلجئون إلى الأولياء وإلى المشايخ، بل إلى الأشجار والأحجار عند ضريح من كان من الأبرار. ليس المقام مقام جدال في الدين، وتفضيل بين السالكين والموحدين، ولكني أقول: إن السالك الحقيقي يصل في نهاية أمره – اللهم إذا كان مجدًّا مخلصًا – إلى أسمى درجات التوحيد.

هذا السيد أحمد بن إدريس الذي لم ينقطع قط عن صحبة المشايخ العلماء يأخذ عنهم وعن المتقدمين

من السالكين، حتى قيل له من الحضرة الإلهية: لم يبق على وجه الأرض أحد تنتفع منه إلا القرآن، فقضى بعد ذلك سنين عديدة لا يشتغل بغير الكتاب، ودرس حقائق معانيه. وأظن أنه قال أثناء ذلك كلمته المأثورة: طريقي سُم السعادة. ثم تدرج منها إلى كلمة أكبر وأجمل: طريقتي ما فيها كون[1] القدم الأول ها هنا والثاني عند الله. هو ذا الصوفي في أسمى درجات التوحيد.

قد تدرج السيد أحمد في الوسائط كذلك؛ فقد كان بينه وبين النبي –كما تبين – وساطتان بشريتان، هما التازي والدبَّاغ، وثالثة روحية هي الخضر أبو العباس. والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الوساطة بينه ﷺ، وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به ويأخذ عنه في اليقظة وفي المنام، وكذلك السيد أحمد، فقد استغنى رويدًا رويدًا عن الوسائط كلها، كما استغنى بالقرآن عن العلماء أجمعين، وصار في آخر أمره – ويصح أن نقول في بداءته – يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام.

قال السيد أحمد: اجتمعت بالنبي اجتماعًا صوريًّا، ومعه الخضر، فأمره النبي أن يلقنني أوراد الطريقة الشاذلية[2]، فتلقنتها بحضرته ﷺ، ثم لقنني بأمر من النبي أيضًا سائر الأذكار والصلوات. ثم رفع النبي السيد أحمد إلى مقام الخضر، وصار يكلمه بدون وساطة: يا أحمد، قد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض، وهي التهليل المخصوص[3]، والصلاة العظيمية[4]، والاستغفار الكبير[5]. المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة. وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير: خزنتها لك يا أحمد ما سبقك إليها أحد. علمها أصحابك ليسبقوا بها الأوائل.

لعمري إن من يتجه بكل قواه العقلية والقلبية والروحية إلى كتاب، أو إلى أمر أو إلى عقيدة أو إلى طريقة، صوفية كانت أو تجارية، يرى منها ومن نفسه العجب. فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر بالنبي، ويقرأ ويردد كلمات النبي، ويتوسل بـ «الصلاة العظيمية» إلى النبي في اليقظة وفي المنام؟ إن

---

[1] يريد بالكون الوجود بعد العدم، والعدم بعد الوجود؛ أيْ لا عدم في طريقته سابقًا ولاحقًا.

[2] قد سمَّى السيد أحمد طريقته أحمدية نسبة إلى اسمه، وهي تُدعى كذلك في تهامة وعسير. أما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية؛ لأن أتباعها يسلكون بالتهليل والأدعية مسلك الشاذليين. وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية، تتصل بوساطة شيوخ بني ناصر في المغرب بالشاذلي. وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين أشرف الطرق الشاذلية هناك، ولا يسمون بها إلا العلماء.

[3] أي لا إله إلا الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله.

[4] منها: «اللهم إني أسألك ... أن تصلي على مولانا مُحَمَّد ذي القدر العظيم ... صلاة دائمة بدوام الله العظيم، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهرًا وباطنًا، يقظة ومنامًا، واجعله يا رب روحًا لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم» (كتاب الأحزاب والأوراد).

[5] منه: «أستغفر الله العظيم ... وأتوب إليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والآثام ... من الذنب الذي أعلم، ومن الذي لا أعلم عددها ما أحاط به العلم وأحصاه الكتاب وخطه القلم ... كما ينبغي لجلال وجه ربنا وجماله» (كتاب الأحزاب والأوراد).

صورة أصورها في قلبي كل يوم لتنعكس أمامي من حين إلى حين، فأراها بالعين المجردة كما أراها بعين الروح، وإن شئت فقل بعين الخيال، يقظة ومنامًا، فضلًا عن أن السيد أحمد الذي ابتدأ بالتازي معلمًا وانتهى بمحمد، أصبح والنبي شيخه الأكبر ونوره الأنور. وهو – أي السيد أحمد – القائل: الاستفادة من شيخك أكثرها يكون بالتوجيه القلبي. اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه. هو ذا الصوفي الحقيقي يتكلم، وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة.

أما من وجهة علمية عرفية، فقد كان السيد أحمد سيد العارفين، وقطب المحققين، جامعًا بين علمَي الظاهر والباطن، وله فيهما الباع الطويل على الأخصّ في علمي القرآن والحديث «روايةً ودراية» كما يقول صاحب الترجمة «وكشفًا وتحقيقًا»، وهو يريد بذلك المعقول والمنقول، الحقائق الوضعية والتقاليد، ما رُوي منها وما أدركته البداهة وأقره العقل. وإني أزيدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلو فيه ولا مبالغة: «قد خصه الله بالمواهب المحمدية، والعلوم اللدنِّيَّة[1] والاجتماعية الصورية». كل هذا صحيح شريف، وأشرف ما فيه تخلقه بأخلاق النبي أو ببعضها.

على أن هناك أمرًا يختص بعلوم السيد أحمد، قد يُظن في ظاهره الشعوذة التي أجله عنها. ولكنه استحال عليَّ فهم السر في يده، فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون، ينظر إليها فيرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون، بل كان إذا سئل عن شيء في القرآن ينظر إلى باطن كفه، ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدينية، وإذا سئل عن حديث شريف ينظر إلى ظاهر كفه، ثم يتكلم بما يبهر العقول. فما الصلة يا ترى بين كفه وتلك العلوم والأسرار؟ حبذا لو أذن الشيخ السنوسي بشرح «أحزابه وأوراده». فقد يكون تمكّن من إماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد أحمد وفي يده. ولكنه لم يأذن للسنوسي بشرح الأحزاب خوفًا من أن تُفسِدها الشروح. فقد قال له: لا تخزبها يا ولد السنوسي، إنما شرحها في جنة عدن.

أما السيد أحمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد أحمد الإدريسي، فهو من علماء المغرب الكبار. وقد أعجب جدًّا بالسيد أحمد، ولزمه مدة إقامته في مكة، فأخذ عنه، وأذعن له الإذعان التام. لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الإدريسية والشاذلية، ولكنها تُدعَى مُحَمَّدية لاتصالها بوساطة الإدريسي، فالتازي، فالدباغ، فالخضر بالنبي. وقد عادت إلى المغرب بوساطة السنوسي، وسارت إلى أفريقيا بوساطة مُحَمَّد المجذوبي السواكني، أحد أولياء السودان «الشهير في وقته بين الخلائق، بالكشف الصادق، والكرامات الخوارق». فقد صحب السيد أحمد مدة طويلة وأخذ الطريق عنه.

ثم اتجه القلب إلى اليمين، فبعث الله منها أحد السادة، جاء مثل السنوسي للحج. وليس خيرًا من مكة

---

[1] العلوم اللدنية التي هي من لدنه تعالى إما رأسًا بالوحي وبالبداهة، وإما بوساطة بشرية أو روحية.

لمن يروم الصيد، صيد القلوب، التي تحوم كلها هناك. جاء السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل مفتي زبيد في عصره، فألفى فيها السيد «كالعافية للسقيم، وكالشفاء للجرح الأليم»، ولما عاد إلى وطنه حدَّث في زبيد عن شيخه الإدريسي، وأثنى عليه كثيرًا. ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه «النفس اليماني، والروح الريحاني»، وبينما هو وبعض العلماء يومًا في ذكر كراماته – بذكر الصالحين تتنزل الرحمات – هزَّهُم الشوق إليه، ومثلهم الوجد بين يديه، فقال السيد الأهدل: هذه ساعة الإجابة إن شاء الله. ارفعوا أيديكم بالدعاء أن يأتي الله به إلينا. فلما تم المجلس قال: أرِّخوا اليوم وهذه الساعة. وكان في مكة يومئذ أن حرك الله داعي السفر في قلب السيد أحمد، ثم أمر به فخرج يبغي مريديه يوم هاجهم الشوق إليه. وعندما وصل إلى تهامة كان أول نزوله في زبيد عند السيد الأهدل عبد الرحمن.

جاء الإدريسي اليمن مبشرًا بعقيدته، داعيًا إلى طريقته، ناشرًا ما منحه الله من أسرار الكتاب والسُّنة. وكان حيثما نزل محترمًا مبجَّلًا، فنُظمت في مدحه القصائد، وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد، وبيت الفقيه، وتعز، ووصاب، وتهافت عليه الناس خاصةً وعامةً يستنيرون بمشكاته، وينتفعون ببركاته. بل كان العلماء والمشايخ له سامعين، وعنه آخذين، وكانت زبيد نقطة دائرة آماله. أقام أول مرة فيها عشرين يومًا، وعاد بعد أن طاف في تهامة إليها، فأقام فيها بضعة أشهر، فأخذ الناس يتسابقون إلى اقتبال دعوته، ونشر طريقته، التي أجازها للسيد عبد الرحمن بن سلميان الأهدل هو وأولاده إجازة عامة «في جميع العلوم المقربة من الله تعالى»، ولا تزال زعامتها في بيت الأهدل إلى اليوم.

مما يحزن في أخبار رحلة السيد في اليمن أن تلك البلاد كانت منذ مائة سنة أرقى مما هي اليوم. فقد كان أهلها متيقظين، وفي العلم راغبين. فكان الشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى، واليوم لا تجد في تهامة كلها شاعرًا واحدًا ينظم باللغة الفصحى. أنلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد، أم نلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس؟ إني متيقن أن لا تصوف في الجماعات، وقد استحال عندهم طرقًا وحلقات.

عاد السيد أحمد شمالًا في رحلته فزار الحديدة، ومُراوَغه، وباجل، ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من أبي عريش، فاستقرَّ فيها واستوطنها، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفية وفاتحة الطريقة الأحمدية.

شـــــرفت صـــــبيا بكـــــم فغـــــدت	مـــــــــوردًا للعلـــــــــم والنـــــــــزل
ليـــت شـــعري مـــا الـــذي فعلـــت	فعَلَـــــت قـــــدرًا علـــــى زُحَـــــلِ

إن آخر من أخذ عنه أثناء إقامته هناك هو الشيخ إبراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية؛ فقد صحبه في صبيا مدة السبع السنوات الأخيرة من حياته، فاغتنم فيوض بركاته حتى النفحة الأخيرة منها التي فاضت من نفس السيد أحمد، ورأسه الشريف على ركبة تلميذه، وذلك في تسعة بقين من رجب هي السنة الثالثة والخمسون والمائتان وألف (١٨٣٧م).

قد قيل إن الرشيد كان أقرب الناس إلى شيخ صبيا ووليها، وأرسخهم قدمًا في علومه وأسراره. ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك. حلقة حضرناها في عدن فيها ولدان ينغمون، ورجال يطيبون ويتصابون، وصفوف من الحسن والشوق تميل بعضها إلى بعض، وعيون ترنو إلى القمر في السماء، ثم إلى الأقمار أمامها، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل، بل التمثيل. إنه في تعليم الولدان لأستاذ بارع يعلِّمهم الغناء، والحداء، والسجود، فيستصبي في أذكارهم الجلمود، ويغرس في الحلقة سرَّ الوجود؛ خاتمة المحامد والورود. إن مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جدًّا. وإني أجلُّ السيد أحمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان، وأعتصم بروحه الشريفة الطاهرة منها.

حققني يا إلهي بإنسانيتي حتى أكون إنسان العين الكلية الإلهية التي لا يحصرها شيء، ولا يقدر قدرها سواك.

واسمعني غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من أحوالي بجميع كلياتي؛ حتى لا تخلو ذرة من ذرات أجزاء ذاتي من ذاك السماع الإلهي لحظة، ولا أقل من ذلك.

واجعلني يا إلهي لك عبدًا محضًا عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على أحد من خلقك.

وتجلَّ لي يا إلهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الخفية الإلهية كلها حتى أعطي كل مرتبة إلهية حقها في نفسي.

وتجلَّ لي يا إلهي بسر توحيد الذات المطَلسم في آية الأنانية المرسومة: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني.

وتجلَّ يا إلهي يا ذا الجلال والإكرام، فأجد لذة الوحي الإلهي مني إليَّ دائمًا أبدًا سرمدًا... منزهة أن يلحق بها أو تقرب منها لذة في جميع الوجود، بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض، من غير أن تفارقني تلك اللذةُ لحظة، ولا أقل منها حتى أكون حقًّا إلهيًّا في نفسي[1].

من أين للعامة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون، أن يدركوا مثل هذه الروحيات، ويتذوقوا مثل هذه الإلهيات؟ بل من أين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين أن يتفهموا معاني شيخهم الأكبر في «الاستواء الجامع لمراتب الحقيقة الإلهية»، وفي «آية الأنانية الموسوية»، و«بسبر توحيد الذات»، و«بإنسان العين الكلية الإلهية»؟ إنهم لو أدركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوُّقات لفروا من الحلقات هاربين، وراحوا أفرادًا ساكتين قانتين سالكين. إن بشرًا يصبو إلى قلب الإلهيات، بل إلى ذروتها، ويبتغي أن يكون إنسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها، فيرى في كل مرتبة، في كل دين، في كل مذهب، صلة إلهية فيعطيها حقها من نفسه؛ إن مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس، لكنه قد يضرُّ

[1] كتاب الأحزاب والأوراد.

كثيرًا فيما يقام له بعد موته من التكيَّات، وما يسوَّد باسمه من الجربزات.

أجل، وقد يضر أشد الضرر بفلسفةٍ في الزهد والفقر تصلح للزاهدين، ولا تصلح للأمم والشعوب إلا إذا عمَّتهم أجمعين. ولعمري إنها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصًا للإنسان، ونعمة ويمنًا، بعرق جبينك تأكل خبزك. إنها لحقيقة اقتصادية وإلهية معًا، ولكني أنا الكسلان أتفلسف في الزهد، وقد أكون صادقًا في زهدي مقتديًا بالنبي القائل: لكل نبي حرفة، وحرفتي الفقر والجهاد. وقد أكون كذلك فصيحًا بليغًا، فأكتب رسالة «كيمياء اليقين»، كما فعل سيدي الأبر أحمد بن إدريس، فأبرهن فيها أن طلب الرزق حرام، وأجيء بالشواهد الدينية، والأحاديث النبوية، والنوادر والملح، أثبت ما أقول، وأستغوي به الناس، فأظلم أمة كاملة بحديث من الأحاديث النبوية: لو ركب الإنسان الريح، وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وأدركه حتى يدخل فمه.

ما أجمله وألطفه حديثًا، وما أقرب الموت من حقيقته. قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها أمة جمعاء. إني إذا اخترت لنفسي الفقر والزهد أخطئ إذا استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس، أو مثلًا يتمثلون به، فكيف بي إذا قصصت تعزيزًا لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة. كان امرؤ يصلي في المسجد، ويلزمه دائمًا ليل نهار، فسأله الإمام: من أين تأكل؟ فقال له: من ملك السماوات. فقال: وهل يدلي لك بالقفة؟ فأجاب: نعم. فأخذه الإمام إلى بيته ودلاه في البئر، وذهب إلى السوق، وكانت امرأة الإمام وخادمتها وأمامهما أكلة طيبة همتا بأكلها، فطرق الباب طارق، فخبأت الأكل في البئر، دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها، وأكل هنيئًا. دلى له الأكل ملك السماوات. أجل، رزقك يتبعك كالظل. كنز المؤمن ربه، قد وعد الله العباد برزقهم، والله صادق بوعده ... إن الاهتمام بالرزق إذن تكذيب لله. ها هنا قلب الجمود فيما التوى من الإسلام، وموطن الضعف والخمول في معظم المسلمين.

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير، كتاب «الأحزاب والأوراد»، غير رسالة «كيمياء اليقين» العجيبة التي يستوقف عنوانها المبتكر الأنظار، ويفكه فحواها الأبرار والتجار، ويساعد كذلك من يبغي في الصوفية والزهد مسلكًا صالحًا قويمًا – إن فيه كذلك «الحزب السيفي»، وقصته أغرب ما فيه.

قد عرَّفتك تعريفًا سطحيًّا بالمجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع «سيدنا أحمد بمولانا عبد الوهاب التازي»، وأزيدك الآن به علمًا. يظهر أن روحية المجيدري كانت مزدوجة، أي مركبة من روحيتي الأنس والجن. ويظهر أنه كان يباري الدباغ بالأسفار في عالم الغيب يقظةً ومنامًا، فاجتمع هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقًا لسيدنا علي ﷺ. من المعلوم في التاريخ أن عليًّا حارب الجن وغلبهم، ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده إخوانهم الكفار. ومن أولئك الصحابة قطب الجان القفائي الذي كان لعلي كالخضر أبي العباس للنبي. هو القفائي الشهير الذي اجتمع به المجيدري فلقَّنه «الحزب السيفي» عن الإمام علي، ثم

تلقاه السيد أحمد عن المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد. اللهم افتح لنا.

إن الفرق بين هذا الحزب وغيره من الأحزاب يحملنا على تفضيل الخضر في الرواية والحديث، بل فيه ما يحط من قدر الإنس والجن وساطة، ولا يزيد الإمام عليًّا والسيد الإدريسي رفعةً وفضلًا. فيه من مرادفات الأدعية والمحامد، والطلبات والاستغاثات، ما تجده في غيره من الصلوات. وفيه من التسخط والغضب على الأعداء، والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك، ويزعزع فيك لأول وهلة الإيمان بالصالحين الأبرار، ولكنك إذا تبصرت قليلًا يطمئن بالك، وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب. خذني بحلمك فيما ستسمع. إن من يستحسن شيئًا ليرغب فيه، فلو كان السياسي أو التاجر أو الجندي أو الكاهن أو الطبيب أو المحامي يدعو على أعدائه دعوات سيدي أحمد، لقلت: كفر بالله. ولكن المجنون بالحقيقة الكلية، المجذوب إليها بجمعيته، ومن صحَّ إيمانه، وصدق يقينه، وكرمت أخلاقه، وسمت أشواقه، وتنزهت عن اللؤم والجشع والأنانية والكبرياء والنفاق أعماله، وكان مجاهدًا في سبيل الفضائل الروحانية، والخلقية كلها، إن هذا الرجل يشتهي أن يطهر العالم والناس من أضدادها.

وإن أعداء مثلِ هذا الرجل لأعداءُ الحقيقة والصدق والأمانة والإيمان والشرف وكرم الأخلاق؛ فيحق له أن يستجير منهم بالله، وأن يسأله تعالى – وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين – أن يباعد بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب. وفوق ذلك، نعم، وأكثر من ذلك: اخطف اللهم أبصارهم بنور قدسك، واضرب رقابهم بجلال مجدك، واقطع أعناقهم بسطوات قهرك، وأهلكهم ودمِّرهم تدميرًا، كما دفعت كيد الحساد عن أنبيائك، وضربت رقاب الجبابرة لأصفيائك، وخطفت أبصار الأعداء عن أوليائك، وقطعت أعناق الأكاسرة لأتقيائك، وأهلكت الفراعنة، ودمرت الدجاجلة لخواصك المقربين، وعبادك الصالحين ... اللهم بك نصول على الأعداء، وإياك نرجو ولاية الأحباء، والأولياء، والقرباء، آمين[(١)].

هذا في كتاب الأحزاب، ويتلوه من المحامد ما لا يضاهي ورعًا وإنسانية ما جاء في أوله، أخص منها المحمدة الثانية، وهي جامعة مستوفية وجيزة بليغة. هي روح المحامد كلها.

الحمد لله بجميع محامده كلها، ما علمت منها وما لم أعلم، على جميع نعمه كلها، ما علمت منها وما لم أعلم، عدد خلقه كلهم، ما علمت منهم وما لم أعلم.

ولكن السيد أحمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها، فقد كانت له فترات من الحياة فيها الظلام أكثر من النور، والبؤس أشد من الحبور، فخرج لذلك من التعميم إلى التخصيص، ومن الحمد على ما لا يعلم إلى الشكوى مما هو معلوم محسوس. أجل، وقف مرة في «كنف الله وجواره» يعدد مثْل أيوب

---

(١) كتاب الأحزاب والأوراد.

الصديق المصائب والآفات والأمراض والمفاسد كلها، ولم ينسَ الفالج والباسور، ولا استثنى وحشة القبور.

هذا ما في «الحزب السيفي» الذي تلقَّاه الإدريسي عن المجيدري عن قطب الجان القمائي عن الإمام الأكبر – ﷺ أجمعين.

ولكنت وقفت ها هنا في التعريف لولا حاشية «لبعض الواجدين المحققين من أهل العمل» التي تذكرنا بالمتنطِّعين والمشعوذِين. قال المذكور في كلامه عن حزب آخر[1]: إن المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر؛ أي إنك إذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر، وإذا قرأت الحزبَين تغتني، فما أشبه هذه الشروط، بل هذه الرشوات في الأوراد والأحزاب بالغفرانات عند المسيحيين. إنها – والحق يقال – لآفات التقوى، وسيئات الصلوات.

أسألك اللهم بنور عظمة ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره أحد غيرك.

لولا لطفك بحجبك النورانية لاحترقت صور الكون كلها.

إن دون الله – عز وجل – سبعين حجابًا من نور وظلمة، وما تسمع نفس شيئًا من حس تلك الحجب إلا زهقت.

ما قرأت في الاستعارات الصوفية، وما سمعت من أنغامها، وما شاهدت في صورها، أجمل من «حس تلك الحجب»، وقد حركتها النسام الربانية، فهمست أسرارها همسًا في الأكوان.

وأسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق أنبيائك والمرسلين، وطاشت بجماله ألباب ملائكته الكروبيين، وانعدمت فيه معارف أوليائك وأصفيائك المقرَّبين، حتى تاه الكل في الكل، وتحير الكل في الكل ... أن تخرجني من شهود كل شيء سواك ... فتتفجر أرض طبعي كلها عيونًا عشيقة ... هنا وهناك ... وراء الوراء بلا وراء، ودون الدون بلا دون.

وهذه في نظري أجمل الأزهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية إذا فاز بها السالك المالك، هنا وهنالك.

(٨) الأدارسة في عسير

واجعلني يا إلهي لك عبدًا محضًا عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على أحد من خلقك.

أحمد بن إدريس

[1] الحزب المُغْني لسيدي أويس القرني. ولم يذكر شيئًا من مصادره الإنسية أو الروحية أو الجنية.

إن الرجل الذي تُوفي سنة ١٨٣٧م في صبيا، فكُفِّن بكفن التقديس، وشُيع إلى القبر وليًّا، لم يبغ السيادة على أحد من الناس، ولم يحلم على ما أظن وأعتقد بملك عالمي إدريسي. ولكن من ضريحه، وقد أمسى مقامًا ومزارًا، مُدت يد السيادة، وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب: خصوصًا البدو منهم، وأذعنوا لها. ولا غرو والدين عندهم أساس الملك في الدنيا، والسبب الأول في خرابه لو أنهم يفطنون، يموت الرجل الصالح الأبر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة، المجردة من الربوبية على أحد من خلق الله، فيُرفع إلى مقام الأولياء، ويُؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي جديد.

كانت تهامة وعسير يوم تُوفي السيد أحمد بن إدريس في حكم مضطرب لا تركيًّا يُعرف ولا مصريًّا. ومع أن البلاد، من القنفذة حتى المخا، كانت في حوزة إبراهيم باشا بن محمد علي الكبير الذي احتلَّها بجنوده سنة ١٨٢٦م باسم الباب العالي، فالأهالي على الرغم من الإحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر، نافرون منه ثائرون عليه.

ومن أسباب ثورتهم على المصريين والحجازيين أن كثيرين منهم، اقتداءً بزعيمهم أبي نقطة، انتحلوا المذهب الوهَّابي، وكانوا من أنصار الأمير سعود الكبير الذي استولى على الأقطار العربية كلها. وقد كان انتشار الوهَّابية في تهامة أحد الأسباب في نجاح الطريقة الأحمدية، بالمقاومة التي تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات. وقد فازت السيادة الروحية المغربية نهائيًّا على السيادة الوهَّابية، ولا سيما لأن «توهيب» الناس يومئذ في تهامة لم يكن غالبًا عن اعتقاد، بل كرهًا للحكم الشريفي الذي كان يومًا تركيًّا، ويومًا مصريًّا، ويومًا عربيًّا، ودائمًا حكمًا ظالمًا جائرًا.

استمرت هذه الحال عشرين سنة، وعندما قررت الدولة أن تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠م كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من أمراء العرب، هم: الشريف محمد بن عون في مكة، الذي كان يساعد المصريين في حملاتهم على تلك البلاد، والشريف حسين بن علي من أشراف أبي عريش الذين كانوا يحكمونها، والإمام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقًا في حوزته وجزءًا من بلاده. فاتفق محمد علي باشا يومئذٍ مع أقدر الثلاثة وأدهاهم، وهو الشريف حسين، فسلَّمه زمام الحكم في تهامة، على أن يدفع سنويًّا إلى الدولة قيمة من المال.

كان الشريف حسين في حكمه ظالمًا، وفي سياسته مراوغًا مستبدًّا، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله، وبإخراج الإنكليز من عدن؛ فنشبت بينه وبين إمام صنعاء حرب استمرت بضع سنين، تناوبته فيها الهزيمة والنصر، فوقع مرة في يد الزيود أسيرًا، وبسط بعدئذ سيادته على أساكل تهامة كلها حتى المخا؛ فأنَّ من جوره ومظالمه الناس.

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩م تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا

في الحديدة، واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد إلى مقره في أبي عريش.

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه أن إمام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الحديدة من الشريف حسين، وكان الإنكليز يومئذ كما هم اليوم متذبذبين بين الاثنين، أي بين حاكم الأساكل وحاكم الجبال.

نزل توفيق باشا في الحديدة، وبسط شيئًا من حكمه في تهامة، وتقدم بجيوشه إلى صنعاء –كما أسلفت القول في فصل سابق. وقد كان اليمن الأعلى أهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء، فعادت تهامة إلى ما كانت فيه من الاضطراب، لا يحكمها فعلًا الأتراك، ولا أشراف أبي عريش، فجاء ابن إدريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكمًا روحيًا، بل حكمًا حقيقيًّا، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالًا وجنوبًا في البلاد.

جاء الناس من تهامة وعسير، ومن اليمن يزورون المقام في صبيا ويتبركون، وكان السيد مُحَمَّد بن الولي الجديد مقيمًا هناك، تتنازعه عوامل الدنيا ونوافل الدين. ولكن المقام صار عرشًا، وصار سيد المقام تدريجًا سيد الأقوام، فسرت في مجاري القدسيات السياسة، وشرع أبناء إدريس يناهضون سرًّا وعلنًا أشراف أبي عريش حتى تغلبوا عليهم. ثم حاولوا بوساطة العشائر، أبناء الطريقة الأحمدية الجديدة، أن يتغلَّبوا على الأتراك، فلم يفلحوا في بادئ الأمر. ولكنهم استمروا يستثمرون تلك السيادة الإرثية التي أصبحوا بسببها أثبت قدمًا، وأبعد نفوذًا، وأوسع جاهًا من سائر أعدائهم في البلاد. وقد تجاوز ذاك الجاه عسيرًا، فوصل بالمهاجرة إلى مصر، وبلاد المغرب.

جاء ابن إدريس مهاجرًا من الغرب، وراح ابن إدريس مهاجرًا من بلاد العرب. ولد للسيد مُحَمَّد ولد دعاه عبد المتعال، فلما شب سافر إلى مصر وتزوج، وأقام هناك في قرية الزينية قرب الأقصر، وولد للسيد عبد المتعال عدة أولاد سافر بعضهم إلى المغرب، فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك، وأقاموا في القيروان. إن لهم كذلك بيوتًا في الزينية، وفي أرجو بالسودان. أما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم: السيد مصطفى، والسيد السنوسي، والسيد العربي، أبناء عبد المتعال. وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الأكبر على مقامهم وسليلتهم، فلم يتزوجوا من غير بيوت الأكفاء والأقران.

أما جدهم السيد مُحَمَّد، فقد استرسل إلى أهوائه، فأساء إلى شريف إرثه، بل إن فعلته التي أضرت ولا شك بسليلته لتتجاوز الإساءة؛ لأنها حدثت وهو لا يزال في ظل أبيه الأبر، قريبًا من آثاره القدسية. قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب عنصرًا ولونًا بالمزاوجة، وقدمت شهودًا أحياء على بعض نتائجه. إن من يحب بيت إدريس، ويغار على خيره واسمه، ليأسف جدًّا لما بدا من السيد مُحَمَّد الأول – رحمه الله – وما كان عمله ليستوقف الأنظار، ويحزن الأنصار، لولا مقامه الديني والمدني؛ لأن من يقتنون الجواري في الحجاز وعسير، ويتزوجون بهن حتى من الأشراف كثيرون. إلا أن من كان بعيد النظر حكيمًا يدرك أن البيت

الشريف السالب السيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين: شريف مكة، وشريف صنعاء، إذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله.

اقتدى السيد مُحَمَّد بالسادة زملائه، فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابنًا دعاه عليًّا، فكان بداءَة الدم الأسود في سليلة بني إدريس بعسير، ثم تزوج السيد علي بفتاة هندية هي أم السيد مُحَمَّد الثاني، فلم يصلح في خطأ أبيه شيئًا ظاهرًا. ومع أن هذا الولد الهندي الأم، السوداني الأب أنجب ونبغ في بيته، فلا النجابة ولا النبوغ يُصلِحان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه.

وُلد السيد مُحَمَّد الذي يستحق أن يدعى الكبير في صبيا سنة ١٨٧٦[١]، وجيء به شابًّا إلى مصر، فدخل كلية الأزهر، وتخرج فيها. ثم سافر إلى كفره بالمغرب، فقرأ هناك على السيد السنوسي، وجاء منها إلى السودان، فأقام في أرجو بدُنقُلَه، وتزوج بابنة هارون الطويل شيخ الطريقة الأحمدية هناك. رسا وتزوج في بلاد السود، بلاد أبيه وجدته؛ لأنه لم يكن في دمه وهيئته ما يوفقه إلى غير ذلك. ولكن نفسه الكبيرة الشريفة أبت عليه الخمول والاستعباد. وكانت الأسفار قد زادت بعلومه ومداركه؛ فكبرت معها المطامع، واستيقظت قواه فشد للرحيل.

عاد السيد مُحَمَّد من دنقله إلى عسير، إلى مسقط رأسه، إلى قاعدة ملكٍ جله في ذاك الحين صوري متزعزع، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد أطنابها، وكان الترك جنوبًا يحكمون حيثما يستطيعون، ويستغوون رؤساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منها؛ فانقلب عليهم الطامعون، واستمالهم الإدريسي إليه. وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون، فاستفاد بما هم فيه، واستعان بزعيم على أخيه، حتى ساد أكثرهم فثبت كل كبير في قومه، واقتدى بإمام صنعاء، فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة، ثم مد سيادته شمالًا وشرقًا إلى الجبال، فجمع عدة أفخاذ وبطون من العشائر تحت لوائه الذي رُفع برهة عند حصن أبها، وعلى حدود حاشد وبكيل.

ولكن نجم السيد مُحَمَّد لم يعلُ ويتلألأ في سماء آل إدريس إلا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الإفرنج، أي حربها سنة ١٩١٢ مع إيطاليا، ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الأحلاف؛ فقد كان في الحربين خصم الترك اللدود، والحلف الذي لا ينقض العهود. أخذ من الإيطاليين سلاحًا، فأشهرها نارًا وسياسة على عدوهم وعدوه. وأخذ من الإنكليز مالًا وسلاحًا، فخدم الأحلاف في الجزيرة خدمة، وإن صغرت، لا تشوبها الأطماع، ولا يفسدها الخداع. وقد كان لا يزال له غير الأتراك عدوًّا، فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين، ولكن انتصاره على الزيود في ذاك الحين كان يعد انتصارًا على الأتراك.

---

[١] تُوفي في نيسان سنة ١٩٢٣.

إن من فضائل السيد مُحَمَّد ثباته منذ بداءة أمره على مبدأ واحد؛ فقد كان عربيًّا صميمًا، جسورًا في سبيل ما يبغيه، يحالف أية دولة كانت على أعدائه الترك، ومن كان حلفهم من أمراء العرب عليه. فما تذبذب في مبدئه، ولا تحول عن عزمه، حارب الأتراك وحليفهم الشريف، وصديقهم الإمام، فكان في الغالب منتصرًا، ودائمًا عزيزًا. لا أنكر أن الأحوال كانت حليفته، ولكنه سلَّحها من لدنه بالعزم والمضاء.

ومما يجهل الإفرنج والعرب أن السيد محمدًا كان أول مَن انضم إلى الأحلاف من أمراء العرب، وأول مَن حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الألمان. فقد عقد معه الإنكليز بوساطة حكومتهم في عدن المعاهدة الأولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهَّدوا أن يمدُّوه بالسلاح والمال، ويحموا أساكل بلاده من التعديات الخارجية؛ فباشر في الشهر التالي القتال. خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر ألف مقاتل على الأتراك، فدحرهم دحرات متواليات، ووصلت جنوده شرقًا إلى قرب صَعْدة، وشمالًا في تهامة إلى القنفُذة. ولكن الإدريسي بعد أن استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ أخلاها للملك حسين إكرامًا لأصدقائه الإنكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلَّق بجزيرة فرَسان، وكان قد أخرج الحامية التركية منها واستولى عليها.

كان السيد مُحَمَّد حصيفًا ذكيًّا ذا دهاء، يستعين على عدوه بكل ما حوله من شقاقات وزعامات، بالزرانيق مثلًا على الأتراك، وبالشوافع على الزيود، وبالعشائر على الأشراف، وبالإنكليز على الجميع، وكان له عون كبير في إرثه الروحي ضاعَف نفوذه الشخصي، وزاد ذكاءه الفطري لمعانًا.

إن مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلة في معظم شأنها على الإنكليز لا تُستغرب من أميرٍ يُعد في البلاد دخيلًا، وهو في الدفاع عن نفسه وفي تجهيز العساكر يحتاج دائمًا إلى المال والسلاح.

أما خراج عسير فلا يتجاوز المائة ألف ريال؛ أي اثني عشر ألف جنيه شهريًّا، منها ثلاثون ألف ريال من الحديدة[1] بيد أن جنده لا يتجاوز في أيام السلم الخمسمائة نفرًا، وهو يقوم إذ ذاك مقام الشرطة في البلاد.

ولكن الإدريسي يستنفر في الحرب القبائل بوساطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون ألف مقاتل ويزيد، وهم يحاربون على الطريقة الأولى حرب البدو. يجيء رجال كل قبيلة أو بطن أو فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح، فيعطيهم الإدريسي ما يحتاجون إليه زيادة، ويمدُّهم بالذخيرة، ويدفع فوق ذلك رواتب مُرْضِية. ولكن الغنائم هي الجاذب الأكبر في حروب العرب كلها، لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر. أما الأمير الكريم الذي يُغدِق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على أقرانه في السياسة، المنتصر على أعدائه

[1] منها ١٥ في المائة عشور؛ أيْ حبوب وغيره، و٨٥ في المائة ذهب وفضة.

في الحروب، ولم يكن في سلاح السيد مُحَمَّد الإدريسي وقواته في حروبه كلها أمضى من هذا السلاح، أي الكرم. فقد كان يحسن كذلك إلى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمُّون صبيا من بلاد المغرب، ومن مصر.

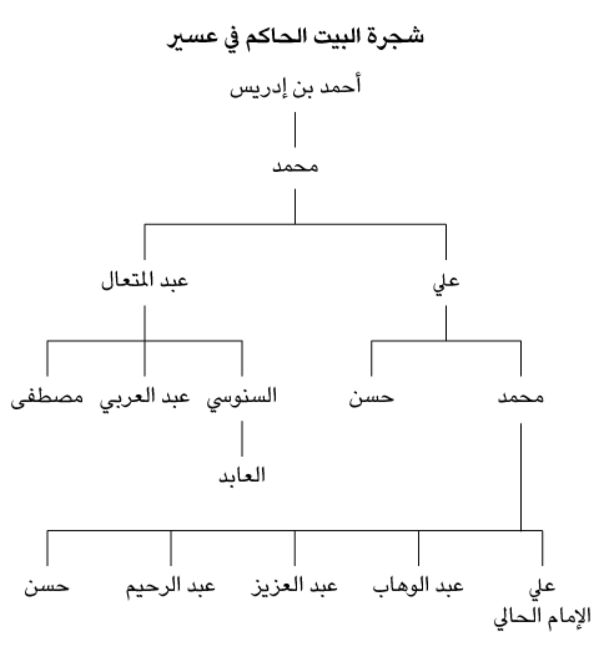
دعوته بالكبير، وهو لا مشاحة أكبر مَن حكم في عسير من بني إدريس، بل هو مدنيًّا سيدهم، كما أن جده السيد أحمد أميرهم الأكبر روحيًّا. وفي الاثنين، الصوفي والسياسي، مصدر القوة والضَّعف في الحكم الإدريسي. إن في الأساس الديني لهذا الحكم قوة تعزِّزه في البداءة، وتضعفه في النهاية، تعزِّزه في دور التأسيس والنشوء، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء. ولا بد في الدورَين من التطور، ولا بد في التطور من التفكُّك في العناصر المذهبية؛ أيْ إن حكمًا مثل حكم الإدريسي يضعف في التوسيع، يرق في الامتداد؛ لأن أساسه المذهب، وأساس المذاهب الطريقة، والطريقة لها مقام قد تصفو في جواره، ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه، وها هنا لعمري فشل الصوفي.

أما السياسي فمصدر الضعف فيه، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد مُحَمَّد، إنما هو في الدم الذي تخلَّل صفاء النسل، وسلامة النسب في بيته. وليس نبوغه وسمو أخلاقه بحجةٍ على ما أقول. فلو كان المرء شاعرًا أو صوفيًّا أو فلَّاحًا أو تاجرًا لما هم لونه، ولما أثَّر الدم في حياته ومقاصدها، ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد أعدائه من الحجج القاطعة عليه. خدمت الحروب الأجنبية مقاصد السيد مُحَمَّد، فاتسع ملكه، وما ازدادت شوكته؛ فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوبًا بين ميدي واللُّحيَّة عند سيل يُدعى وادي العين، فامتدت بعد الحرب حتى دخلت في ملكه الحديدة، ومعها اللحيَّة، والصليف، وباجل، وعُبال، والزيدية، ولكني لم أشاهد عندما كنت هناك، لا في الحكم المدني، ولا في السيادة الروحية، ما يساعد على عمرانها، ويثبت قدم السيد فيها.

فهل تتغير الأحوال فتخدم خلفه فيما ضنَّت به عليه؟ إن ابنه البكر عليًّا في التاسعة عشرة من سنه، وقد بايعه الناس بعد أن عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد مُحَمَّد، فرفضها متعللًا بصحته وعزلته. والسيد حسن في العقد الرابع من العمر، وهو يتحدى في سلوكه وزهده وجده السيد الأكبر.

وُلد السيد علي الإمام الحالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من أم سودانية هي –كما تقدم – ابنة الشيخ هارون الطويل، وهي أول حرم الإدريسي، وكانت قد أقامت وابنها علي سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد مُحَمَّد منها، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ إلى صبيا، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة، ونشأ في ظل أبيه، متشربًا مبادئه في السياسة والوطنية. إن العارفين هناك وفيهم سلطان

لحج يثنون عليه، ويقولون إنه على جانب كبير من النباهة والهمة. أمَّا المقرَّبون إليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الإدريسي المولود في مصر، المقيم في جيزان، هو أديب، عصري الروح، ذكي الفؤاد، له آراء حديثة صائبة في عمران البلاد، قد يوفق في قربه وقرب أبيه من حضرة الإمام إلى تحقيقها[1]، وللسيد علي أربعة أشقاء هم: عبد الوهاب، وعبد العزيز، وعبد الرحيم، ثم حسن الصغير. وأمهاتهم جميعهن حبشيات.



شجرة البيت الحاكم في عسير

(٩) على ظهر الباخرة

جاء الجواب من الإمام مرحبًا بنا، ورست في مياه الحديدة ذاك اليوم باخرة وجهتها جيزان، فآثرناها على السيارة التي استمرت معيَّدة، وقمنا نتأهب للسفر بحرًا إلى العاصمة. لكن التأهب لا يشغل كثيرًا من

[1] لم يتوفق السيد العابد، ولا أبوه، ولا عمه السيد مصطفى، ولا الإمام الشاب، ومَن تبقى معه من العشائر في دفع إغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥؛ فاستولوا باسم الإمام يحيى بن حميد الدين على الحديدة –كما تقدَّم – وعلى الأساكل البحرية الأخرى. واستمر بعد ذلك الحكم الإدريسي مضطربًا متزعزعًا إلى أن تنازل الإمام علي عن الإمارة لعمه الأمير حسن، الذي عقد وجلالة ملك نجد والحجاز الملك عبد العزيز بن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض أمراء العرب والإنكليز، أيْ إن لبها هو ما معناه: سنحميك بشرط أن تسمع وتذعن. وفي سنة ١٩٣٣ ضمت عسير نهائيًّا إلى المملكة السعودية.

أصبح في ملابسه وحاجاته أخفَّ من الجندي في تهامة. إن قصة ثيابي محزنة، نثرتها في الطريق برًّا وبحرًا، تركت الرسمية منها في مصر – ومن غير الإنكليز من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي إلى البادية؟ ثم تركت الشتوية منها في جدة، والصيفية في عدن، وها أنا في الحديدة أفاخر الدراويش، والسالكين بما ارتقيت إليه من القناعة، والبساطة، والحكمة. أجل، وما فضل المسافر إذاكان لا ينتفع بشيء من عادات البلاد وأهلها؟ خرجت من القصر في قيافتي الحجازية أحمل عصاي، وفوطة فيها ما لا يستطيع حتى السالك أن يستغني عنه.

أما رفيقي الجديد – وقد يسأل القارئ عن الرفيق الأول، عن القسطنطين، فالجواب واجب قبل أن أستأنف السفر. فجعت في الحديدة بفراق قسطنطين، فقد وصله كتاب من جدة فيه أن الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتًا في غيابه، وأن الفارس الفيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من نصابه، وأن نظارة الطيران المكسَّرة الأجنحة، والطيارين يائسون، وأن مدير الميناء هجر الشراع، وراح يرعى الإبل، وأن الشريف الإيطالي الذي استودعه ماله فرَّ هاربًا، وأن «توتو» كلبته المعبودة، وقد أضناها الشوق والنوى، مشرفة على الموت: فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه ما حل بتوتو لكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال.

جاءني صباح يومٍ، والكتاب بيده، والدمعة تترقرق في زاوية عينه، وهو يقول: اعذرني يا أمين، أود أن أرافقك في الرحلة كلها، ولكن توتو – اقرأ – اقرأ ما يقوله الطبيب، توتو في حالة الخطر، ولا عزيز في الدنيا –كما تعلم – أعز عندي منها، هو ذا المركب في الميناء، سأركب اليوم فأراها بعد يومين، اعذرني يا أمين.

ثم نادى خادمه، وبدأ يجمع ثيابه. فقلت أَوَلا يبقى المدني معي؟ فقال الولد وهو يثب من رأس الدرج إلى أسفله وثبة واحدة: وأمي، أنا مشتاق إلى أمي! مبالغًا على عاداته في الضم والتشديد. أطال الله بعمر أمك يا مدني، وحرس الله توتوك يا قسطنطين، يا من لا يبالي بما يفعل، ويقول يا عدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه. رأيتك ذات يوم عائدًا من الباخرة تحمل رزمة كبيرة، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان، ما قد يكفي عشرة رجال شهرًا، فظننت أنك تنوي المتاجرة في الحديدة بالسكاير، ولكني سمعتك تقول: قد لا يرسو في المينا باخرة أخرى هذا الأسبوع.

كنت أشفق عليك منها، أيها الرفيق العزيز، وكنت أرى لك الخير الجم في نجد. أجل، كنت أبغي تأديبك هناك، وفطمك عن هواك، فيا ليتك دمت رفيقًا لأراك «تُبسَط» في بلاد الوهابيين إذا داومت التدخين. فما شأنك الآن، وتلك اللفائف التي كانت تتلو الواحدة الأخرى في فمك؟ وكنت تدخن في أول الرحلة المعطرة الذهبية الفم، فصرت تدخن، لهفي عليك، ما لو شمت رائحتها «توتو» لأغمي عليها. وأنت الشاعر الذي لا يسر بغير الجميل من منظور، وملموس، ومشروب، ومشموم. فأسأل الله أن يعصمك دائمًا من كل مكروه، ومن كل هوس يشوه النفس، وأن يمكنك دائمًا من تلك المعطرة الذهبية الفم، ويعلمك فوق

تلك الحكمة والاعتدال، دمت محروسًا في كل حال، رفيق الحقيقة، شقيق الخيال.

أما الرفيق الجديد فيحمل في أسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة، ولا يقتدي ظاهرًا بالسالكين في سواها؛ فقد كان معه كذلك من الأمتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة، وخادم هو من السادة؛ ليفرش له السجادة. وكنت أنا في ذي الأبهة جزءًا منها أفتش عن رفيقي الصوفي، فلا أجد غير الوكيل السياسي، وأغرب ما في حاجاته، ومواعينه سجادة الصلاة.

خرجنا من القصر، فإذا بثُلَّة من الجنود العارية في الباب رافقتنا إلى الرصيف، وكان هناك وجهاء المدينة، والمتوظفون في انتظارنا للوداع، لوداع الوكيل المحترم، وأنا في معيته عباءة وعقال ليس غير، فما سرني ذلك؛ لأن البشرية آنئذ تغلبت فيَّ على الصوفية. ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين. لم يشأ أن يرافقوه في السنبوك إلى الباخرة، فاستأنست بذلك، وحمدت الله.

لا بد أن يظهر التصوف في صاحبه في كلمته أو إشارته، ولو في الدقيقة الأخيرة من ساعة الرسميات والترهات.

وكان الهواء ساكنًا، والحرُّ من شمس النهار كامنًا فيه، والبحر رهوًا، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الأمواج، فأشغل النوتيون المجاذيف، ووصلنا بعد ساعة إلى جانب بويخرة لا صوت فيها، ولا حركة، ولا نور غير ذاك الأحمر الضئيل في رأس الدقَّل، فنادى أحد رجالنا الربان فلم يجبه، ثم نادى وكرر النداء، فنهض أحد النوتيين يفرك عينيه، ثم نهض آخرون، وبادروا إلينا يسبون ويزجرون — «لسنا بلصوص يا كلاب أنزلوا السلم لحضرة الوكيل». فأنزلوا السلم، واعتذروا، فصعدنا إلى ما هو أشبه بمركب فحم منه بباخرة.

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة، قضى الحر والليل اللزج عليها، فلصقت بعضها ببعض، ونامت نوم الأموات بين البضائع وفوقها، تحت الألغام وعلى الصناديق، في الأقذار، في كل مكان. صعدنا سلمًا آخر إلى ما يسمى الدرجة الأولى، فرأينا في الغرف المفتوحة أبوابها أناسًا نائمين نوم الأطفال. ما أيقظَ نداؤُنا أحدًا منهم، ثم نزل الربان وهو إنكليزي حليق في ثوب النوم، فسلَّم على الوكيل واعتذر؛ فاستأنست بصوته المومئ إلى ما في نفسه من التهذيب والكياسة، ثم نادى أحد الخدم، فكفَّر عن إهماله بأن أمر لنا بزجاجة من السودا باردة، وبكأس من الوسكي؛ فشربنا وشكرناه، ورغب في الحديث فحدثناه، فكان انتقالنا في ساعة إلى شيء من المدنية مستحب، وأدب في ربان باخرة مستغرَب.

وكأنه أحسَّ بما تسلل إلى الأجفان، فنهض يتقدمنا إلى ظهر الباخرة، إلى كنفه الخاص، حيث الأسرَّة العسكرية، فنمنا كلنا تحت القبة الزرقاء، وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع. ساعة فقط، ثم ضجات وقرقعات، وأصوات تزعج الأموات، وسلاسل تُشد، وأبواب تُسد، وحبال تئن، وجرس يطنُّ، وصوت الربان فوقها يحرك العبيد والحديد. سرت الباخرة، وهدأت الأصوات والضجات، فعدنا إلى ما يشبه

النوم، وانبلج الفجر بعد قليل على وجوه صفراء، وعيون فيها الذبول والعياء.

أول ما شاهدته قربي دولاب الربان، ووراءه ولد في ثوب أزرق على صدره نيشان، يقرأ الحُك، ويدير الدفة. وكان الربان واقفًا قبالته وراء طاولة عليها الخارطة البحرية. فقلت في نفسي: لا خوف على من ينام بين الخارطة والحك. أما الولد صاحب الثوب الأزرق، والزنار الأحمر، والنيشان فهو من الذين ورثوا الحرفة عن أجدادهم. هو من سليلة أولئك البرتقاليين الذين فتحوا الهند قبل الإنكليز، ولكنهم لم يثبتوا فيها أعزاء، فقد كان الجزويت في استئثارهم عونًا للإنكليز عليهم. أما أبناؤهم اليوم، وقد اختلط دمهم بدم الهنود، وسلم شيء من دينهم الكاثوليكي، فهم يقيمون في منطقة على شاطئ الهند، ويدعون غوا[1]، ويستخدمهم الإنكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها. ذكرت النيشان، وما هو إلا تطريز بالخيط الأحمر والأصفر، يطرزون به قمصانهم، كل لنفسه في ساعات الراحة من العمل. ما رأيت في النوتيين أنظف ثوبًا، وأخف حركة، وألطف شكلًا، من ولد الـ «غوا» ابن الهند والبرتقال.

كشف الفجر عن البويخرة وركبها؛ فكان فضاحًا. هناك رهطًا كرهط الحجاج في أشكالهم وألوانهم قومياتهم، وقيافاتهم، وعدم اكتراثهم بما هم فيه من ضيق وحريق وقذارة. كل يهتم بأمره، لما يلزم المؤمن، ويتحتم عليه ساعة الفجر. هذا يصلي، وذاك يدق البن. هنا امرأة تنفخ النار، وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة، وآخر يدخن المداعة. هذا يعد أكياسه، وذاك يلبس ثيابه، وهناك فوق زنابيل التمر شاب أحكم بين رجليه مرآة صغيرة، وهو يلف عمامة على رأسه لفًّا هنديًّا بتأني الفتاة التي تجلس إلى المرآة تزين شعرها، وإلى جانبي سابر الغور يرمي بحديدته إلى القعر، ويسحبها مناديًا بالإنكليزية: سبعة، ثمانية، عشرة ونصف! فلا نزال قريبين من الشاطئ شاطئ تهامة الموحش العقيم، ولا يزال رفاقي نائمين إلا فضل الدين، فقد كان تلك الساعة من المصلين.

إن الباخرة التي نحن فيها مسافرون، وقد صنعت في بلاد الإنكليز، هي من بواخر القهوجي المشهور في عدن والبحر الأحمر، صاحب صديقنا خان باهادور، الفيلسوف الحديدي. والقهوجي اسم لشركة من «عبدة النار» نوتيوها كما ذكرت من الـ «غوا» نصف المسيحيين، وربانها، ومعاونه، والمهندس من الكفار الذين صنعت الباخرة في بلادهم. هذه شركة ملاحة شرقية هندية، ولكنها لا تستغني عن الإنكليز مديرين لبواخرها. وهذا الإنكليزي، وقد اعتاد أن يأمر في الشرق، لا يمتعض من حال توجب عليه الائتمار بأوامر الهنود سادته.

قال الربان هاي: كنت قبل الحرب أسيِّر باخرة في المحيط الأطلنطي محمولها خمسة وعشرون ألف طن.

---

[1] نسبة إلى منطقة غوا Goa.

وتراني الآن على رأس هذا المركب العجيب أخدم القهوجي البارسي بخمس ما كنت أتقاضاه من شركة إنكليزية. وما العمل؟ حامض القهوجي خير من مر البطالة في بلادي ... ولكني أحب العرب وأحترمهم. ما رأيت شعبًا هادئًا في السفر كريمًا، على ما تراهم فيه، مخلدًا إلى السكينة، جليدًا قنوعًا سكوتًا مثل العرب.

نزلنا إلى المائدة في ثيابنا الرسمية، أنا في قميص البدوية، وأرداني مربوطة حول وسطي، وفضل الدين في سرواله الهندي، وتكّته تصل إلى ركبته. وجاءنا الربان هاي – بارك الله فيه وفي ذوقه – حافيًا يلبس «البيجاما»، ثوب النوم. جلسنا إلى المائدة وهو يقول: خلعت نعلَيَّ إكرامًا لكم أيها الأفاضل. أهلًا وسهلًا بكم إلى بيت القهوجي، بل إلى بيتكم. الباخرة لكم، تأمرون فيها بما تشاءون.

كذلك كنا نجتمع إلى المائدة، ورئيسها هذا الإنكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه أحسن من «أفريقيا»[1] باخرة، وأحسن منا ركبًا، وهو دومًا لا يرى غير الحسن في الناس. وما كان في حديثه مرة مستهجَنًا، بل دائمًا مفكهًا مفيدًا. الرسميات؟ ربطنا في عنقها صخرًا، ورميناها في البحر؛ فبدت لذلك الباخرة الصغيرة، وبفضل الربان هاي، ونحن في كنفه على الظهر في عزلة الأماجد وعزهم، بدت كيختنا الخاص، لا نتكلف فيه شيئًا يزعج أو يسيء، ولا نضطر إلى إجهاد النفس حتى في لبس النعال. بدو متحضرون، برابرة متمدنون؟ إي وأبيك. إنما هذه هي اللذة الصافية الحقيقة في الأسفار البحرية.

كنا نسير في مضايق خفية وظاهرة قرب الشاطئ بين جزر صغيرة لا أسماء لها، إلا قمران وهي أكبرها. ولها في جنوبي البحر الأحمر من الأهمية ما للطور في الشمال؛ لأن فيها محجرًا صحيًّا للحجاج القادمين بحرًا من الشرق، من الهند وجاوَه، ومن العراق وإيران، فيعرجون عليها للتطهر في رواحهم ومجيئهم، قبل الحج وبعده، فتتقاضاهم السلطة الإنكليزية رسمًا مدة الثلاثة الأيام التي يقيمون فيها. وجلالة الملك حسين يحتجُّ على الرسم، وعلى الثلاثة الأيام، وعلى محجر قمران، وعلى الجزيرة كلها بحذافيرها. لا لزوم لها، وعندنا جزيرة أبي سعد. هذا صحيح، ولكنَّ في قمران مركزًا لاسلكيًّا أفادنا، ومعمل ثلج أنعشنا ونحن في الحديدة، وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا، فلا نشارك جلالة الملك إذن إلا في قسم من احتجاجه. لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم.

وها هي الجزيرة إلى شمالنا، ونحن نسير بينها وبين الشاطئ. وها هي الخارطة على منضدة الربان تنبئ بالأعماق المختلفة تحتنا وحولنا. من هو يا ترى أول من سبر هذا البحر العربي، البحر الأحمر، وغيره من بحار الشرق؟ من ذا الذي ركب الأمواج والأهوال، ومد يده إلى مكامن اليم يستطلع أسراره، ويكشف للنوتي أخطاره؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر، وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه؟ من ذا الذي فتح

[1] اسم الباخرة.

سبل البواخر، وأمَّنها في الليل بالأنوار؟ هو الإنكليزي ابن البحار وسيدها. ليعترف بفضله كل من سيَّر باخرة في البحار الشرقية، ولجأ إلى علومه ليسلم من الأخطار.

أجل، قد تستغني البواخر الشرقية عن الربان الإنكليزي، ولكنها لا تستغني مهما كانت عظيمة عن خرائط الإنكليز البحرية. هبْ أن دولة بريطانيا تفككت غدًا وتقسمت، وعادت إنكلترا كما كانت عهد السكون الأولين، حكومة صغيرة، وأمة مثل جزائرها حقيرة، فهي تظل غنية بعلومها ورجالها. ولا خوف – وايم الحق – على أمة عندها العلم وعندها الرجال. لا تَرْتَبْ أيها القارئ العزيز بما أقول، إن الإنكليزي الأصيل هو مثل هذا الربان الذي يسقط من عرشه، ويظل مليكًا بأخلاقه في أحط الحالات الاجتماعية وأحقرها، مليكًا يعمل ليومه، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر. بل يعمل العمل المفروض عليه مجدًّا مخلصًا نزيهًا.

كان معنا في الدرجة الأولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على ظهر الباخرة، ولا يؤاكلنا، رجل طويل القامة، حسن الطلعة، قوي البنية، مفتول الساق، وهو من سادات صَيوون، مدينة العلم في ذاك القطر، ومن أدبائها، حادُّ الذهن، فصيح اللسان. حدثته فحدثني متنازلًا متكلفًا، وما كان فيما باح به ليخرج من دائرة التكتم والتأدب. إلا أني علمت من تلويحاته أنه عالم من العلماء، وخطيب من خطباء حضرموت المشهورين. وهو ينظم كذلك الشعر. قرأ شوقي، وحافظ إبراهيم، والمنفلوطي، والبستاني، وغيرهم من شعراء وأدباء مصر وسوريا، ولم يسمع بالريحاني إلا مؤخرًا في عدن.

– سمعت أن الأستاذ جاسوس للإنكليز.

– قد يكون ذلك.

– وكيف ينخدع به أمراؤنا يا ترى؟

– العصمة لله.

– صحيح، ولكني سمعت كذلك أنه رسول الملك حسين وفي خدمته، وأنه مع ذلك يحسن اللغة العربية.

–كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية.

– صحيح، وفي حضرموت كذلك.

– وهل أنت مسافر إلى جيزان؟

– إن وفق الله.

وكان قد أخبرنا الربان أن السيد من تجار حضرموت، حسب ادعائه، وأنه مسافر إلى ميدي، ولكن رفيقًا من عدن أخبرني أنه رآه في دار الاعتماد هناك يبغي مقابلة المعاون. ثم علمت أنه من زعماء الحزب

الكثيري في حضرموت القائم على الحزب القُعَيطي وسلطانه، وأنه جاء ليرفع قضيته إلى الإنكليز في عدن، وإلى السيد في جيزان، أما فضل الدين الذي يعرف السادة من رائحتهم، فقال إذ رأى الرجل: هو ذا سيد شحاذ، كثيرون مثله يجيئون إلى جيزان؛ ليمدحوا السيد ويستجْدوه. وعندما نزل مساء ذاك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين متحاملًا، فقلت: بل هو تاجر كما قال الربان. فأجابني: هو شحاذ كما أقول، وسيرجع وسترى. قد قدر الله أن يكون الرجل رفيقنا إلى جيزان ومنها، فسيسمع القارئ عنه ومنه فيما بعد.

ميدي بنت الحرب، أي إنها نشأت في أثنائها، وهي أكبر مدينة تجارية اليوم بين الحديدة وجيزان. بيد أنه لا وكالة لشركة القهوجي فيها، فيضطر الربان أن يقاول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة إلى الميناء، ويدفع أجورهم، وأكثر هؤلاء من العبيد والمولدين. هذه كلمة تمهيد لما أقص عليك. نمت تلك الليلة على عادتي، فاستفقت منتصف الليل لأصوات تلج وتضج، وقد اختلط اللسانان فيها الإنكليزي والعربي، وتناكرا.

— يا أولاد الزنى، تجيئون في هذه الساعة من الليل تساومونني؟

عرفت من الصوت أن الربان يتكلم. ثم — وهي الكلمة العربية الوحيدة التي يحسنها — امش، امش.

وكان الربان الثاني، وهو رجل ضخم الجثة، عريض الصوت قد استفاق مثلي، وسمع زميله يتسخط ويسب، فخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط: دعهم يا قبطان، وعد إلى سريرك. أولاد الزنى غدارون، ثم الربان. يا نتانة العبيد، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه إلا بشروط. امش، امش! وإلا أكسِّر رءوسكم. إذا كان القهوجي يعبد النار، فهل يحق لكم أن تسرقوه، يا نتانة العبيد يا أولاد الزنى؟! إذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة — امشِ.

ثم الربان الثاني، وهو يقلب في سريره من جنب إلى جنب ويئن: دعهم يا قبطان وعد إلى سريرك؛ أولاد الزنى أنا أعرفهم، غدارون.

الربان: ما في شغل لكم، امش. الباخرة تسافر هذه الساعة، امش.

زعيم العمال — على ما ظننت — باللسان الإنكليزي المفجع: يشتغلون يا قبطان كما تريد. يشتغلون بروبية واحدة. أنا الكفيل.

ثم سمعت الربان وهو عائد إلى سريره يقول: إذا كان الإنسان يعبد النار فهل يحق لهؤلاء العبيد أن يسرقوه.

ولكن العبيد قبلوا — شكرًا لغضبه وأمانته — أن يشتغلوا بروبية واحدة، فباشروا عملهم في الليل، وأتموه قبل الفجر. هذه هي الحادثة التي أيقظتني تلك الليلة؛ فسلبني العبيد بعد ذلك في ضجيج العمل

والقرقعة الراحة والنوم. ومع ذلك قد كنت مسرورًا بما علمت. لا أظن أن شركة القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف أن ربان إحدى بواخرها يدافع عن مصلحتها هذا الدفاع. ولا أظن أن الربان هاي – وأنا أعرف شيئًا من طباع أمثاله الإنكليز – يخبرها ويمنُّ عليها. فهو يعمل ما يعتقده واجبًا عليه ويسكت.

(١٠) جيزان

وصلنا إلى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر، فانكشفت أمامنا ونحن في السنبوك بقعة من الأرض سوداء بين الشاطئ والماء، لا يمكن للمرء اجتيازها إلا حافيًا مشمِّرًا، فلاقانا إلى حد الجزر رجال يحملون الكراسي، أو بالحري الأسرة التي تشبه العنقريب، فأنزلونا وأجلسونا فيها، وحملونا على مناكبهم إلى البر في شبه السبخة التي كانوا يغرقون فيها إلى الركبة، وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الإدريسي الذي رحب بنا باسم حضرة الإمام، ومضى وإيانا إلى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قريبة منها ومن البحر. والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية، أي إنه ضخم البناء رفيعه، صغير النوافذ قليلها، والنصف الآخر جديد بناه السيد مصطفى الإدريسي، وأعده للضيافة التي يليق بها. فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس، ويلعب فيها الهواء والغبار، وعلى حرشين الواحد ضمن الآخر، وحمام ومائدة إفرنجية، وسطح مسوَّر جميل.

كنت مما سمعته عن جيزان أمثل لنفسي بيتًا من النقش نقيم فيه، وجواري حبشيات يخدمننا، وولدانًا يقفون فوق رءوسنا، وبأيديهم المراوح يروِّحون. أما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار أيديهن في الدواوين البيضاء الشريفة، والوسائد الوثيرة اللطيفة، وأغطية الفرش النظيفة. وأما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات.

جيزان بلدة قديمة في تهامة، تكاد تبعد عن أبي عريش شرقًا بعدها عن صبيا شمالًا. فهي من البلدتين رأس المثلث على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات. بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة آلاف نفس، ولكنها كانت في الماضي على ما يقال أكبر مما هي اليوم وأوسع عمرانًا. بناها أحد المحسنين إلى الإنسانية؛ ليقرِّب أبناء الجبال من البحر والرزق، أحد المحسنين المدفونة أسماؤهم في آثارهم.

نظرنا إليها وهي من القلعة شمالًا، فإذا هناك مجموعة أكواخ من القش هرمية الشكل، تتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الأقدمين، مربع أعلاها أصغر من مربع أدناها، وبينها مفردات وثريات من النخيل، وحولها ذاك الخط الذي يحيط بها كنعلة الفرس، وهو أزرق ساعة المد، أسود ساعة الجزر، أصفر في ساعات الشفق والغروب. وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي إليه أحد الحرس في النهار. وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع، وهو بناء صغير ذو مئذنة متواضعة، وإيوان تحتله الشمس طول

النهار. ووراء القلعة، أو بالحري القصر شرقًا بجنوب، قلعة أخرى تشرف على البلد والبحر، فيها بعض المدافع، وحولها المتاريس.

سررنا ببيتنا الجديد، وهو أحسن ما في جيزان مركزًا وبناءً، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا أبهة فيها ولا جلال، ولكنها تومئ كلها إلى حياة بشرية بسيطة، أجمل ما فيها، من وجهة فلسفية، القناعة والصبر والسكينة والاطمئنان. على أني من وجهة اقتصادية، حرت في أمر أصحاب هذه الفضائل القدسية، حرت في أمر أهل هذه البلدة، وموارد رزقهم.

عندما رسونا في مياه جيزان كان أول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل وأكياسًا صغيرة ثقيلة، أكياسًا عديدة فيها الذهب والفضة. فسألت الربان هاي عما إذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان؛ فضحك، ثم قال: إني أعجب لهذا الأمر. من أين يجيء الذهب إلى هذه البلدة؟ وفي كل سفرة نحمل منه أكياسًا إلى عدن.

أجل، إن في جيزان ذهبًا وفضة، وإن كنت لا ترى فيها سوقًا أو أثرًا ظاهرًا للتجارة. وإن في جيزان ستة آلاف نفس تحيا وتحمد الله، وإن كنت لا ترى حولها بقعة أرض خضراء. فمن أين يجيئهم الرزق، وكيف يتاجرون، ويثرون، ويتمكنون من تخزين أموالهم ذهبًا وفضة في المصارف بعدن؟ سؤال بدهي حري بالجواب.

كانت جيزان في سنتي الحرب الأوليين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة، وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة أو جله يستقي من مواردها، فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها، ثم انتقلت التجارة إلى ميدي. أما اليوم فجيزان هي إحدى عاصمتي الإدريسي. وهذا أول مصادر الخير فيها. هي نقطة دائرة خصبة أنحاؤها، غضة حواشيها، يؤمها الناس من المغرب الأقصى، ومن مصر، ومن أعالي عسير، ومن المدن في تهامة جنوبًا وشمالًا، فيجيء معهم الرزق، التجارة، والكسب، والخيرات. يحمل الحنطة إليها تجار ميدي، وأبناء الجبال، ويحملون من معادنها الملح، ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها بواخر القهوجي والسنابيك. جيزان مركز استيراد وتوزيع، جيزان مورد تجري إليه الأموال من هذه الجهة ومن تلك، فتتوزع منه إلى الجهات كلها، وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يُرى، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان، وتغدق على كل محترم كسلان. أما سيد هذه الحركة الخفية، وقطب تلك الأريحية، فهو السيد الإدريسي.

جاء رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا إليه، فركبنا الـ «موتر» (السيارة)، وسرنا في أسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا، ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها إلى ربوة تشرف على البحر، يحيط بها سور كبير. استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الإدريسية أصحاب الشعور المنفوشة، والصدور المكشوفة، والبنادق المشوفة، لا ضباط من الترك ها هنا، ولا صوت الزامل ولا البرزان. نزلنا من السيارة، ومشينا به صفين من الجنود إلى بوابة حارسها مولد عمليق، سلَّم ويده على رأسه، وأدخلنا آمنين، فإذا نحن

في حوش كبير، وبين آخرين من الجنود. مشى فريق منهم إلى باب دخلناه، فإذا بقَيِّم مولانا وأعوانه يسلِّمون ويرحِّبون. حلُّوا محل الجنود، فتقدمونا إلى حوش ثالث، واستقبلنا عند بابه وزيرا حضرة الإمام والحاشية، فدخلنا وإياهم إلى رواق صغير، وقفنا فيه عند باب كبير فخلعنا نعالنا هناك، ودخلنا إلى المقام الشريف المنيف، إلى قدس الأقداس والتقديس، إلى مجلس مولانا الإمام ابن إدريس.

وما المكان غير بضعة أبواع من أرض الله، وسقفه القبة الزرقاء، وهو محاط بأربعة جدران عالية في أحدها باب يُفضي إلى بيت الحريم، وفي الثاني باب يدخل الإمام ويخرج منه، وفي الثالث باب المسجد الخاص. أما الساحة، ففي وسطها منصة تعلو قدمًا واحدة عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند. هو ذا المجلس الشريف والمقام المنيف، وفي صدره حضرة الإمام جالسًا، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص.

وقف لنا ورحب بنا ترحيبًا جميلًا. فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الإمامة على أحد المقربين منها، قبَّله في وجهه، وسلَّم عليَّ مصافحًا، ثم أمر لنا بالجلوس على ديوان قربه. وكان في المجلس ساعتئذ السيد السنوسي، والمفتي، وقاضي القضاة، وغيرهم من أصحاب الوجاهة والعلم.

رأيتني لأول مرة أمام سيد من السود، إمام زنجي يسود مليونًا من العرب، وفيهم ألوف من السليلة النبوية، فسادني لأول وهلة الصمت، ولكنه ما كاد يتكلم مسترسلًا حتى ارتحت إلى حديثه، وملت إليه، فرأيتني رويدًا رويدًا مُكْبِرًا الرجل معجبًا به. كان السيد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن إدريس — رحمهم الله أجمعين — جاحظ العين صغيرها، رفيع الجبين، دقيق الأنف، ضخم الشفة والرقبة، مستدير الوجه، نحيف اليدين، عريض المنكبين، طويل القامة، شديد البأس واللهجة والغضب. لم يكن فيه من ملامح الزنوج البارزة غير فمه، وشكل وجهه، ولونه الشديد السواد. وكان فيه من أثر العنصر السامي الآري — أسلفت القول إن أمه هندية — ما ذكرت، أي الأنف والجبين واليدين. وكان يلبس النظارات الملونة لضعف في عينيه، ويجلس متربعًا على الديوان، ويتكلم بصوتٍ عالٍ فيه بعض الغنة، وله في الوقفات إشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الألف والهاء، ثم الهاء والألف؛ ليثبت ما يقول.

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافة والإكرام، فقال: هذا ما نبغيه، وهو قليل في جانب ما تسعون إليه. أنتم تسيحون في البلاد العربية لخيرها وخير أهلها، وتقاسون المشقَّات من أجلهم ومن أجلنا نحن حكامها؛ فتستحقون أضعاف الإكرام الذي تشكروننا عليه. ولا شكر يا حضرة الأديب على الواجب.

فقلت: وأنا كذلك أقوم في رحلتي بما أعتقده واجبًا عليَّ. إني أشعر بأن في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب. أظن ذلك، بل أعتقده. نعم، وإن كثيرًا في برِّ الشام من قحطان، من بني غسان مثلي.

فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه: ونعم النسب. غسان ريحانة العرب، ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان أو من عدنان. نحن يا حضرة الأديب عرب قبل كل شيء، ونغار على أصغر صغائر الأمور الوطنية من المطامع الأجنبية والسياسية الأوروبية.

ثم انتقل فورًا إلى أميركا. كأنه لم يشأ أن يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه. وكانت سؤالاته تدل على أنه عالم ببعض شئون تلك البلاد، إلا أنه لم يطالع تاريخها. قصصت عليه قصة نيويورك وأصحابها الهنود الأولين، وبيعهم المدينة إلى الأوروبيين بشيء من الودع، لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالا؛ فسر جدًّا بها، وسألني قائلًا: وهل ملك أميركا اليوم من الهنود؟

حدثته عن الجمهورية الأميركية ورئيسها.

فقال: وهل للأميركيين دين؟ فأجبته قائلًا: شيء من الدين، نعم. ثم سألني وكأنه كان يستدرجني إلى أمرٍ أراده؛ لأنه كان عالمًا بما في أميركا من الأديان.

— وهل الكاثوليك هناك أكثر من البروتستانت؟ وكم عددهم؟

— لا يقل عن عشرة ملايين.

— كثير، وما تأثيرهم في السياسة؟

— يزداد نفوذهم يومًا فيومًا.

— وهل يكون رئيس البلاد منهم؟

— ليس ما يمنع ذلك دستوريًّا، ولكن الحكم في البلاد للأكثرية، وبالانتخاب.

فاستزادني إيضاحًا في طريقة الانتخاب، وكان يعي الكلام ويتأمَّله، ويهز رأسه من حين إلى حين استحسانًا.

— ولكنهم يبذلون أموالًا كثيرة في انتخاب الرئيس، أفما كان خيرًا بأن يعطوه ربعها راتبًا، ويقيموه ملكًا عليهم؟ فيوفروا ملايين من الريالات.

— كان جورج وشنطون يا مولاي رئيسًا أولًا وثانيًا — هي القصة التي كنت أقصها على أمراء العرب وفي مجالسهم، وصرت أخجل أن أرددها: «ما هربنا من الملوك لنقيم ملكًا علينا». كلمة قالها جورج وشنطون — أبو الجمهورية — أعجب بها كل من سمعها في الجزيرة.

أما السيد مُحَمَّد فقال: أمرنا نحن العرب غير أمر الأميركيين. إذا رفض أميرنا الإمارة فعشرون حوله يطلبونها، ويتنازعونها، ويحتربون من أجلها. على الأمير الحاكم إذن — وهذه حالنا، مهما تعددت تكاليف الملك، واشتدت صعوباته — أن يقف مكانه كالجندي، ويقوم بواجبه دفعًا للفوضى، وحقنًا للدماء.

ثم انتقل مرة أخرى فورًا، وما كان أسرعه انتقالًا وأبعده، فسألني سؤالًا جغرافيًا: وهل أميركا بعيدة عن خط الاستواء؟

— أميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يومًا في البحر. وأميركا كلها، أي قارة العالم الجديد، هي شطران: الشطر الأكبر شمالًا، والشطر الأصغر جنوبًا من خط الاستواء.

— وهل يمكن الوصول إلى روسيا عن طريق أميركا؟

— بحرًا من سان فرنسيسكو إلى اليابان، ثم إلى سيبيريا فروسيا، نعم.

— نعلم هذا، ولكن هناك طريق أقصر، بين آخر برِّ أميركا، وآخر بر روسيا مضيق، أتذكر اسمه؟

— مضيق بيرنغ.

— نعم، مضيق بيرنغ ما هي المسافة بين البرين؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث. ما جال قط في ذهني أني سأسأل مسائل جغرافية في مجلس الإمام، لا أستطيع الجواب عليها، ولا تأهبت لمثل هذه المبادهة المزعجة. فقلت: لا أدري. ولكني أظن ... وكان ظني بعيدًا عن الحقيقة، ولا عجب. إن آخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت أدرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك، وكان أستاذنا يقول بين المزح والجد: من يجيد السباحة يمكنه أن يسبح من أميركا إلى روسيا.

لكني لم أتذكر القصة إلا بعد خروجنا من مجلس الإمام، فتأسفت جدًّا. ولمت ذاكرتي ووبختها؛ لأنها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق، فتنسيني قصة أفكِّه حضرة الإمام بها، وتعيدها إلى الذهن ساعة لا تفيد، ثم قلت في نفسي: سأقصها في المقابلة الثانية — إن شاء الله. ولكن الإمام لم يدن بعدئذٍ من الموضوع، ولا أنا، والحق يقال، تذكرت القصة إلا مرة واحدة؛ وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين، فكيف يجوز أن أوقف البحث لأقص قصة مهما كانت مضحكة؟ هل أقول له: على ذكر بني عائض يا مولاي، أو على ذكر القنفذة أقص عليك قصة مضيق بيرنغ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة ورغبتي في قصها.

خرجت من مجلسه، وفيَّ من الرجل تذكارات كلها حب وإعجاب، وهي اليوم، وأنا بعد سنتين أعيد ذكرها، لا تحرِّك فيَّ غير الإعجاب والحب، فيصح إذن أن أنقل إلى القارئ كلمة من مذكراتي في جيزان.

أول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح، المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية، ثم وقفاته في الحديث، وكلمته — إها — في التمكين والتثبيت. وأول نظرة في مواهبه وأخلاقه تريك أنه ذكي الفؤاد، شديد العارضة، حصيف حكيم، وهو ساذج، كريم الأخلاق. لا أثر للروحانيات في وجهه،

ولكن قياس الفراسة الذي يصح في البِيض قلما يصح في السُّود. إن في الولايات المتحدة سودًا يسرقون الدجاج، وسودًا لا يحيون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح — جاء في المزمور الواحد والخمسين: طهرني بالزوفى فأطهر. اغسلني فأبيض أكثر من الثلج. وهم يؤمنون بكل الأنبياء، وبكل شيء. إذا خيرت أحدًا منهم في رئاسة الجمهورية، وقيثارة داود يفضل القيثارة، ولا غرو ... قد تكون روحانية السيد مُحَمَّد إذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه، لا تظهرها غير الأعمال. وإني متيقن أنه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك.

نظرة ثانية. أضف إلى ما تقدم أن السيد مُحَمَّد الإدريسي صريح في حديثه، صادق فيما يقول، ساذج فيما هو دون معقوله ومعلومه. كبير الخلق والقلب. يميل إلى السلم والائتلاف ... أحسن ما في العبد قلبه إذا حسنت أخلاقه، وأكبر ما في السيد مُحَمَّد قلبه ولا غرو ...

تعددت الجلسات والأحاديث التي كان قطب دائرتها: أولًا: الملك حسين، والوحدة العربية، وثانيًا: الإمام يحيى والصلح. وكان اجتماعنا دائمًا ليلًا؛ لأن الحر في جيزان لا يأذن بالتجوال، أو بالأعمال نهارًا. فكنا بحكم الشمس والبحر، والميزان دائمًا فوق المائة (فارنهيْت) في الظل، نستسلم إلى ما تبطل فيه الحركات كلها، إلا حركة التنفس. وهذه تضعف أحيانًا فنقف نستغيث. ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة وأصيلًا، ونفكر ليلًا عما نهمله عمدًا أو في حالات الإغماء من المحامد.

خبرت الحر في أماكن كثيرة، من المكسيك إلى عدن والعراق، فما وجدت حرًّا جامعًا محاسن الحر كلها، وفي أعلى درجة منها مثل جيزان. إن الشمس هنا قريبة جدًّا منك، كأنها على الأرض تشتعل فترسل أشعتها عكسًا إلى كبد السماء. بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة، فتجلس على ركبتك تقبلك في فمك قبلة تدوم دون انقطاع اثنتي عشرة ساعة. وإذا نظرت إليها وأنت تلجأ إلى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الأبيض، فتبدو أشعتها فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر، وكالوهج الأصفر ساعة الأصيل، فترفع يديك إلى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية.

أما الرطوبة، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك، فلها لون يجيئها من يدي المد والجزر، ولها جسم يجيئها من كرم العناصر في تهامة، ورائحة هي رائحة الطحلب والسبخة والملح، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام، تلصقها بك إذا دنت منك، فهي كورق الغراء الحلو تجذب الذبابة إليها فتعلق بها، بل هي كثوب يُلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من أجل معبودتك الشمس، فتلبسه كرهًا، وأنت تشتهي فوقه ثوبًا من الأمواج. لله موجة تعيد إليك الحياة، ولكنك في القلعة، في القصر، ضيف محترم، والأمواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها، فلا يليق بك، في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام فيؤلم، ما يجوز للصبيان.

(١١) بين الإمامين

كنا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور، فننتقل من غرفة إلى غرفة، ومن رواق إلى رواق؛ اتقاء وجه الشمس.

وما كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطبًا، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي، وعلى رءوسهم الأطباق، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء، وتحت الغطاء الرأس المقطوع. فنجلس إلى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حيًّا، وقد حُشي بالأرز والبيض والزبيب، وفي الوسط الرأس ينظر عطفًا إليك. أخجلني والله وحبب إليَّ التنحس في مذهب الهندوس.

والحق يقال: إنني مللت اللحم، خصوصًا في مثل ذلك القيظ، وكنت أشتهي بعد سف شيء من الأرز بقعة خضراء أرعى فيها. وأشتهي قبل كل شيء الماء فأجده في النعارة فاترًا، فأصبه في الكأس، فإذا هو أصفر اللون، فأغمض عيني وأشرب باسم الله.

أما كرم الأدارسة فما كان ليخلَّ قطعًا بقاعدة الضيافة عندهم — «قوزي» كل يوم. أغدق الله عليكم أيها الأفاضل، وبارك الله فيك يا جيزان، بركة تشمل من أجل سادتنا بني إدريس آلة لتصفية الماء ومعملًا للثلج.

— هات المروحة يا أَبْكر.

يدخل السيد أبكر، وبيده عدة مراوح، وعلى لسانه خبر ما سر فضل الدين.

— قل له الحكيم نائم. ليجئني منتصف الليل.

ثم يدخل الحاجب: الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الأستاذ.

— صلِّ على النبي: هات القميص والعباءة يا أبكر.

وكان فضل الدين يدفع عني أحيانًا مئونة المقابلات في النهار.

— قل للشيخ: إن الأستاذ لا يستقبل إلا ليلًا — بعد منتصف الليل.

كذلك تنعكس الحياة في تهامة، تُقعدنا الشمس، تنهكنا، فيجيئنا الليل منجدًا، ويوقظنا القمر، ساعة من الفرج — إلا أننا والحق يقال لم نكن لنسرَّ بشيء سرورنا بكلمة الحاجب: جاءت الخيل. والخيل من حضرة الإمام، ومعها رسول يدعونا إليه، فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش، ونحضر مجلس الإمام فنستأنس، ونواصل السعي في سبيل السلم، فالتضامن من بين ثلاثة من ملوك العرب.

— المسألة بيننا وبين الشريف[1]— الكلام لحضرة الإمام — قريبة ميسرة. نحن أولاده، نحترمه ونجله. ولكننا نطلب منه أن يبادلنا الاحترام، قال تعالى: وشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، أها؛ ليسألنا، ليشاورنا نعم، هو لنا بمثابة الأب، ونحن أبناؤه الراشدون. عندنا حكمة، أها، حكمة في الدين وفي السياسة، وعندنا قوة. القبائل في يدنا ... والله لا تمر أربعة أشهر على المعاهدة إلا نكون أصلحنا الأمر بينه وبين ابن سعود، فتسير القوافل آمنة إلى مكة والمدينة ... إن عند الشريف الحرمين، ونحن نبذل أنفسنا من أجل الحرمين. لا خير في حياة المسلم إذا كان لا يغار على الحرمين ويسعى دائمًا في المحافظة عليهما.

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود، فقلت: إذا أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم والإمام يحيى. فيتم إذ ذاك الاتفاق الرباعي، أو المحالفة الرباعية، وهي — كما أظن — حجر الزاوية في الوحدة العربية.

فقال سيادته: هذا كلام حق، ولكن الأمر بيننا وبين ذاك الرجل[2] بعيد.

— وليس على الله يا مولانا أمر عسير.

— نعم، صدقت، وما نحن يا حضرة الأديب بعيدين مما تروم. ولكن ذاك الرجل أضر بنا واللهِ ضررًا جسيمًا. ونحن نفعناه. وكان نفعنا مجردًا عن كل ضرر وغش، أما نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه؛ لذلك ترى الأمر قريبًا بيننا ... العرب خداعون غدارون.

كان يردد — رحمه الله — هذه الكلمة كل مرة يجيء فيها على ذكر هذا الرجل، أي الإمام يحيى، في المقابلات الأولى. ولكنه عندما تحقق مقاصدي غيَّر لهجته.

— نحن أول من حمل على الأتراك في الحرب الكبرى، أول من انضم إلى الأحلاف. أما هو فاتفق والترك، وانسحب إلى شهارة، وأقام هناك بعيدًا عن ساحة القتال. أيُّ خير جاءنا نحن العرب من الترك؟ أية منفعة نفعونا بها؟ نحن حاربناهم قبل الحرب، وحاربناهم أثناء الحرب، وسنحاربهم إذا عادوا إلى بلادنا. نحن كنا نحاربهم في تهامة؛ لنردهم عن ابن حميد الدين.

أوقفناهم مرارًا في زحفهم عليه، دفعناهم عنه فراح يعقد وإياهم صلحًا وراء ظهرنا، هذا في أثناء الحرب، أما قبلها فكنا وإياه متعاهدين، عقدنا محالفة لمحاربة الأتراك وطردهم من اليمن. ولما جاءوا يمرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال أوقفناهم، وقلنا لهم: كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله. وصل الترك بعدئذ إلى صنعاء فهموا بضربنا من وراء، من الجبال، فلم يمنعهم ابن حميد الدين، حليفنا صنو عهدنا؛ كأن العهد عنده

[1] أي الملك حسين.

[2] أي الإمام يحيى.

قصاصة من ورق.

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الإمام يحيى إلى السيد، والثاني جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بيانًا، وعقليتهما جلاءً[1].

في كتاب الإمام إلى «الصنو السيد العلامة» بعد السلام مقدمات إدارية في تاريخ المفاوضات، ووسائطها[2]، ثم إنه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الأجنبية «وصون هذه القطعة العربية، أي اليمن من تدخل الأجانب، وعدوان يحدث من أي جانب».

«واعلموا يقينًا أن ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليد واللسان. ووالله لولا أن نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الأصقاع لما حركنا ساكنًا، ولما أظهرنا كامنًا. ونصرح لكم بأنه مع ما بينكم وبين الدول من الروابط والسلم بما لهم من المقاصد الضارة بالإسلام والمسلمين، ومما يرومون من التسلط العام، والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام، وبأنهم لا يدفعون الأموال والذخائر إلا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم. ولم يحملهم على إظهار عدواننا إلا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية. ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون، قد أنصفتم بما أوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والنحر والتشمير لدفاعهم، ومنعهم، وحربهم في البر والبحر[3]، وذلك هو الغرض المقصود. ولكن بقي أمر، وهو: هل لهم من حجة يحتجون بها، ويجعلونها ذريعة لهم إلى مقصدهم الخبيث من ادِّعاء الحق في أي جانب لهم من اليمن؟ وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة تزول به كل وسيلة لهم إلى أي تجاوز. المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ألَّا تكتمونا شيئًا؛ فإنه لا مخبأ بعد بوس، ولا عطر بعد عروس. وأنتم أعرف بسياسة الدول ومسالكها إلى الوصول إلى أغراضها بما تبرمه من متلونات الحيل. وهذا إليكم كتاب أخ إلى أخيه للنظر فيما يعز الإسلام والمسلمين، ويدفع كيد وضرر الكافرين».

وختام الكتاب انتحاب مجد الإسلام الغابر، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين «تسلطوا بأنواع التسلطات الخبيثة على المسلمين، فصاروا لا يملكون مستقلين قياد أنفسهم، ولكنها الأهواء عمت

---

[1] بعد دخول الإنكليز الحديدة، وخروجهم منها، واستلام الإدريسي زمامها سعى بعض رجال الإمامين في عقد الصلح بينهما. وقد ذكر الإمام يحيى أسماء ثلاثة من رسل السلم والوفاق.

[2] تاريخ الكتاب ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٩، والإشارة الإدارية فيه هي: بعد وصول نقيب حسن بن مقبل، واتفاقه (اجتماعه) بالقاضي عبد الله الفخري، واطلاعهما على ما بيد شرفي، والعرض علينا.

[3] أي الإنكليز. وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سيئ؛ لأن شرفي لم ينطق بهذا الكلام أو بمثله، ولا السيد الإدريسي، ولا أحد خاصته. من أين للإدريسي أن يحارب الإنكليز برًّا وبحرًا، فضلًا عن أنه كان يومئذ صديقهم وحليفهم. أما القصد منها فظاهر، وقد كان الإدريسي يخشى تقرب الإنكليز من الإمام، كما كان الإمام يسعى ليبعد بين السيد والإنكليز.

فأعمت، ولو عقل المسلمون، وعملوا بما أمر الله به ... إلخ».

أما جواب السيد محمّد بن إدريس إلى «الجناب الشريف، والمقام المنيف الصنو العلامة الإمام يحيى بن حميد الدين»، فبعد حمد الله والسلام، يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي، ويؤكد له أن بغيته المقصودة، وضالته المنشودة «أن نرى أنفسنا على محكم الإخاء والوفاق مع جميع الأمة فردًا فردًا، فضلًا عمن هو مثلكم ممن ضمنا، وضمه رحم العلم والنسب»[1].

ولو نظرنا إلى ما جرى من الحوادث، حتى كاد لم يكن هناك رحم توصل ونفوس بين يدي الله عما تفعل تُسأل، فدعا الأخ أخاه إلى حكم السيف والسنان، بل كرَّ عليه بما هو أنكر من وخزات القلم واللسان، لطال الشرح، وتمادى الحال. ولكن حيث أوجب تعالى على الكافة أن يكونوا إخوانًا، وفي الحق أعوانًا، فلا مخلص لنا ولكم لدى الباري من الحجة، إلا أن نسلك واضح طريق هذه الحجة ... أما ما أشرتم إليه فيما بيننا وبين الأجانب، فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما قد مضى بيننا وبين الطليان، وقد أمددنا بما علمتم، ثم وقع الصلح بينهم وبين الترك، فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة[2]. بل ظهر للعموم ما أجراه الله على يدنا من الخبر المعلوم لاتضحت لكم الحقيقة الحاضرة، وعرفتم المثل السائر: ما أشبه الليلة بالبارحة. وفي الجملة ما حالنا وحال أهل اليمن إلا كما قال حجة الإسلام:

غزلت لهم غزلًا دقيقًا فلم أجدْ ... لغزلي نساجًا ... ...

إن الله – تبارك وتعالى – إذا فتح بابًا للخير فلا راد لفضله. وأما ما طلبتم البيان فيه عن اليمن، وما ترمي إليه السياسة الأجنبية، فمن المعلوم أنها لما قامت الحرب الأوروبية أعلنت دولة بريطانيا مساعدة العرب إذا أرادوا الاستقلال دون أن تتدخل في شيء من شئونهم.

ولكن من الأسف أنهم على آراء متفرقة، وأهواء مختلفة. ومرت هذه الفرصة وكادت تمر، ولم يرفعوا إليها رأسًا ... على ما نشهده الآن في الاختلاف وعدم الانتباه، لما يرفع شأنهم دينًا وسياسة. أثبتوا على أنفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم أعين العالم، وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر الأمم. فلا حول

---

[1] أما العلم فلا مشاحة أن السيد محمّد كان صنو الإمام بالعلوم الإسلامية والفقه واللغة. وأما النسب فقد طعن الزيود به طعنًا يثبت ما قلته في التسرّي واختلاط دم السود بدم الأشراف في فصل سابق.

[2] «انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة» عندما تعاهد وإيطاليا اتهم بدسيسة يراد منها إدخال الأجانب إلى البلاد العربية. قالوا: هذا أجنبي – والزيود يحسبون الأدارسة دخلاء في اليمن – ويتواطأ والأجانب علينا، فكان أنه أخذ مال الأجانب وسلاحهم، واستخدمها في محاربة أعدائه الأتراك. أما الإيطاليون، وهم في الشاطئ الإفريقي من البحر الأحمر قبالة الإدريسي، فلم يطئوا أرض تهامة، ولا أثر لنفوذهم هناك اليوم. ثم اتهم التهمة نفسها عندما دخل الإنكليز الحديدة، وما عتموا أن خرجوا منها.

ولا ... ومثلكم على وفورٍ من العلم والسياسة، وبمحلٍّ من المعالي والرئاسة، فلا يخفى عليكم كيف يكون لَمُّ شعث هذه الأمة، وما هو الأقوم عند الله طريقة في زوال هذه الغمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

في ١٥ شعبان سنة ١٣

في هذين الكتابين يتضح أمران:

الأول: أن دعوة الإمام يحيى دينية ظاهرًا، وسياسية ضمنًا، ودعوة السيد الإدريسي دينية أساسًا، وسياسية قومية عملًا.

الثاني: في كتاب إمام صنعاء غموض مقصود، وعموميات قلما تفيد، وفي كتاب إمام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه إبهام.

(١٢) المعاهدة

من طبع الضعيف وإن كان مستقلًا أن يوالي الغني، ويستنصر في أموره القوي. ومن مظاهر القوة أن الضعيف في مكانه وبيئته هو غالبًا أقوى منها في غير مكانها وبيئتها، فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف، فيقوى بها، وتنتفع به. وما دام الانتفاع متبادلًا متساويًا، وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان في الفريقين شيء من الوجدان، فالولاء بينهما أمر طبيعي. أما إذا اختل التوازن في المنفعة، ومالت كفة الميزان، فهناك السيادة الفاسدة، أجنبية كانت أم وطنية، من القوي كانت أم من الضعيف. هناك الاستيلاء، والاغتصاب، والظلم، والاستبداد، فالقوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط، يضمه إليه فيبتلعه أو يستعبده. والضعيف — الضعيف الوجدان — يخادع القوي وينافق؛ فيكسب بعض القوة التي يسيء استخدامها، فلا ينفع نفسه نفعًا يذكر، ولا ينفع أحدًا من الناس. هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما تماثلها في السياسة، وفي الملك.

كان السيد الإدريسي يدرك أمرين في حياته جوهريين: أولهما: أنه قوي في ذاته، وثانيهما: أن ملك الإدريسي ضعيف بين أقوياء هم أعداؤه. بديهي إذن أنه — وهو الطموح الحكيم — إذا عَرَفَ قويًّا يروم الولاء والاه، واستنصره على الأعداء. وكذلك كان. جاء القوي عدو الأتراك — إيطاليا ثم بريطانيا — والمرء في أيام الحرب أبعد عن المخاتلة والخداع منه في أيام السلم، فنفع الإدريسي، وانتفع به. ها هنا قوة وضعت فيها حكمة ووجدان، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل.

أما بعد الحرب فانقلبت الحال، وساءت الأعمال. أمست حليفة السيد، ولا قصد لها ظاهرًا في بلاد العرب غير نفوذ تمده إلى مقامات السيادة؛ لغرض مجهول كثر المتكهنون به، وقل المدركون، دون أن تبذل شيئًا مما كانت تبذله أثناء الحرب.

زد على ذلك أنه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف، وليس لها الآن غير أعداء سياسيين؛ فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الأمير علنًا، وتفاوض عدوه سرًا حتى ساء حالها، وساءت أعمال رجالها.

وبودي أن يعود الفريقان – البريطانيون وأصدقاؤهم العرب – إلى شيء طبيعي عادل في العلائق السياسية والولائية، تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية. إلا أن ذلك لا يكون إلا بالسياسة العربية القومية الصريحة من قبل الإنكليز، وبالصدق والنزاهة، والإقبال على الحسن من التمدن الأوروبي من قبل العرب.

كانت بريطانيا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة، وتدفع الأموال فتسيطر بوساطتها على الرجال، فانتفعت منفعة محلية وقتية، وما كسبت بوجه الإجمال من العرب غير المقت والاحتقار. ولعمري إنها فيما كسبت غير مظلومة؛ فقد أفسدت أموالها الأمراء، وأهلكت بسلاحها العشائر، وهي لا تزال تسعى في نفوذها، وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة.

وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الأحوال. فالسيد الإدريسي نفسه لم يذعن لممثلها الإذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها، ويسلح العشائر بسلاحها. وكثيرًا ما كان يردهم فيما يقترحون خائبين «لم يربط الإنكليز أحد مثلي، أنا رقَّصت الإنكليز». سمعته يردد هذه الكلمات مرارًا في حضور وكيل بريطانيا السياسي صديقي مُحَّد فضل الدين.

ومهما كان من زعمه فلا أحد ينكر أن السيد كان عربيًّا حرًّا صميمًا، يأبى التسيطر الأجنبي كما يأباه غيره من ملوك العرب الكبار، إلا أنه لا يرى الضرر والكفر في موالاة أجنبي ينتفع به. أما الانتفاع أثناء الحرب فعرفناه، فماذا عسى أن يكون في أيام السلم؟

حبذا دوام العلائق الودية بين أمراء العرب وبريطانيا. ولكنها لا تدوم –كما قلت – على الطريقة القديمة. لا ولاء متبادل، ولا إكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس، والدسائس والإرهاب.

إن الحكمة كل الحكمة، والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة، وحب السيادة التي لا طائل تحتها. وإذا كان لا بد من السياسة إلى حين، فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن الـ «لا»، والـ «نعم» معًا، وعن الختل والخداع.

إني لا أرى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلًا قويمة إلى الولاء الأكيد بين الأمم، وفيه النفع معكم، ونمنحكم الامتيازات، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلًا، والمعاهد العلمية، ونؤمّن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الأحمر، ومن الخليج، ونحافظ عليها، فتمدوننا في مقابل ذلك بالمساعدات الثقافية والسياسية والمالية التي من شأنها المتبادل الدائم.

إننا نتاجر ترقية البلاد، وتعميرها، وإحياء موارد الرزق، والثروة فيها، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمندوب تستبدلون القناصل بهم، فتستقيم العلائق بيننا، وتصفو موارد الثقة والوداد[1].

هذا ما أشرت به شفاهًا، وأشير به كتابة على الدوام، وقد كان السيد الإدريسي من رأيي، فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين إلى بند يحدد علاقة الأمير العربي بدولة أجنبية قال: ولا بأس من ذكر بريطانيا في المعاهدة، بل يجب ذكرها. فقلت: وإن كنت من رأي سيادتكم في تفضيل بريطانيا على سواها من الدول الأوروبية، فلا أستحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين. ولم أكتم السبب فيما دعاني إلى مخالفته، بل صرحت برأيي، وكان فضل الدين حاضرًا الجلسات كلها؛ دفاعًا عن القضية العربية، والقصد الأكبر فيها، وهو تآلف ملوك العرب، وتحالفهم في سبيلها. فقد كان الملك حسين ناقمًا يومئذٍ على بريطانيا، وكان الإمام يحيى حربًا عليها، وأنا أبغي عقد معاهدة بينهما وبين الإدريسي، فكيف السبيل إلى ذلك وأحد الثلاثة يقيد نفسه ببريطانيا، ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله إياها على سواها من الدول الأوروبية؟! فقلت مصرًّا: خير لكم يا مولاي ولبريطانيا ألَّا تذكرها في المعاهدة. وإني لا أرى ما يوجب ذكرها هنا خصوصًا في معاهدة بينكم وبين أمير عربي آخر.

كنت أفكر بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمة تقرب أمراء العرب منه، وتربطهم بالمعاهدات وإياه، خدمة تفيده أكثر من إرساله الوفود إلى لندن وجنيف. وكانت هذه الرغبة تشير مما أفعل وأقول. ولم يكن الإمام يحيى ولا الإدريسي مغبونًا في عمل مجرد عن الأغراض السياسية والذاتية كلها؛ فخفت أن يفسده ذكر بريطانيا، فيرفض الملك أن يوقع المعاهدة بسببها، وينكر الإمام كذلك مساعي الملك في سبيل الصلح بينه وبين الإدريسي؛ لذلك دافعت عن نظريتي بحجة ويقين، ودافع السيد عن نظريته لا اعتقادًا فقط على ما أظن، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الإنكليز. فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال: قد نلت من السيد ما لم ينله أحد قبلك.

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر لبريطانيا، ولا كلمة تشير إليها. وكان البريطانيون مع ذلك راضين بها. مما دل على أن بريطانيا لا تعارض في عقد معاهدات ودية اقتصادية – دفاعية كذلك – بين أمراء العرب إذا وُفِّق الأمراء إلى من يسعى في هذا السبيل سعيًا فيه نزاهة ووطنية حقة، ثم شيء من الاعتدال والإنصاف.

وها إني أثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والإمام يحيى.

التمهيد واحد في المعاهدتين.

---

[1] في معاهدة جدة التي عقدت في ٢٠ آيار سنة ١٩٢٧ بين ملك بريطانيا وملك نجد والحجاز برهان ساطع على أن الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية البريطانية، وتتساوى فيها الحقوق والواجبات.

- **المادة الأولى**: البلاد العربية أقصاها وأدناها بلاد إسلامية، لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية، واتحاد اللسان. وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير أشكال إماراتها الموجودة، وتحويل أمرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون إدارة شئونها، وأعمالها، وسياسة داخليتها. وإنما المطلوب اجتماع الكلمة القومية [١] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله، وتصلح به أحوال البلاد من غير تدخل أجنبي يخلُّ باستقلال البلاد العربية [٢] على ما سيعرف من المواد الآتية:
- **المادة الثانية**: يعترف جلالة الملك للسيد الإمام الإدريسي بالإمامة، ويعترف سيادة الإمام لجلالة الملك بالملك[٣].
- **المادة الثالثة**: يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت إدارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية. ويختص سيادة الإمام الإدريسي بإدارة بلاده الداخلية والخارجية. وليس لأحدهما أن يعقد معاهدة أجنبية فيما يتعلق بإدارة الثاني من البلاد، ولا أن يغير شيئًا جاريًا من طرف صاحب إدارتها، ولا أن يتدخل بإدارة داخليتها لا خاصة ولا عامة[٤] إلا بعد المشاورة والاتفاق بينهما. وإذا فعل أحدهما شيئًا من ذلك، أو عقد مقاولة أجنبية فيما يتعلق ببلاد الآخر منفردًا فلا يعتبر ما فعله، ولا يعتمد عليه. وليس لأحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الآخر فيما يتعلق بخاصية عاقدها وبلاده، ولا تعتبر في بلاد الثاني إلا إذا تم الاتفاق على ذلك. ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل، حتى يصلح كل فريق الجهة التي إليه، ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين[٥]، ولو كانت جرت المذاكرات بالوفاق مثل ما جرت الآن قبل سنة تقريبًا؛ لتمكن الجميع من اجتياز الحدود المعتدلة، وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة أعلاه؛

---

[١]قبل السيد محمد بالنص الذي قدمته وهو: وإنما المطلوب اجتماع الكلمة القومية، راجع شرح هذه المادة في معاهدة الإمام يحيى.

[٢]راجع الشرح في معاهدة الإمام يحيى.

[٣]كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هذه المادة؛ لأن المادة الثالثة تفي بالغرض المطلوب، فقبل السيد اعتراضه. ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة هذه الرسالة: بعد إهدائكم التحية الزاهرة. صدرت نسختان: إحداهما بدون مادة الاعتراف بالإمامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة؛ لأننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحًا، وفي الأخرى تلك المادة، فلكم الخيار في أية النسختين أردتم.

[٤]كان قد أصر الإمامان بالوقوف عند هذا الحد، فأقنعتهما بإضافة الجملة الشرعية بعدها، أي «بعد المشاورة والاتفاق بينهما» إلى آخر الجملة، أي «فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه»، والغرض منها تقييدهم فيما يمهد السبيل إلى الوحدة العربية.

[٥]ما يلي أي من «ولو كانت جرت المذاكرة» إلى آخر المادة، أضافها السيد محمد، فارتأيت أن تضمن في كتاب خصوصي إلى جلالة الملك؛ لأنها جملة شرحية لا أساسية، فلم يستحسن رأيي، وأمر أن تكون جزءًا من هذه المادة. وفي ذلك دليل آخر على سلامة نية السيد وتساهله – رحمه الله.

حيث كان لا حائل بين الجوارين، ولا منازع آخر بينهما. أما الآن بالنسبة للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين بعدم الاعتراض في مسألة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الآخر منه بالكلية[1] أو إرضائه بجزء لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار. وهذا يقتضي أن نقوم بسعي الإصلاح بينه وبين السلطان عبد العزيز بن سعود[2]؛ لأجل تمييز حدود معتدلة بين الأطراف الثلاثة.

- **المادة الرابعة**: الاتفاق على مدافعة من أراد الاعتداء على أحد الطرفين. وهذا حق المسلم على المسلم. والكل منا يبحث في تلك الحادثة، والسعي فيها بما أمكن من الإصلاح، سواء كان مما يرجع إلى الخارج، أو المعارض في الداخل. فإذا لم يكن إلا مجرد الاعتداء والبغي، فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه. ويلزم الإمداد بقدر ما أمكن من مال أو رجال أو سلاح أو معدات حربية، وعلى طالب المدد أن يقوم بلوازم المطلوبين[3].
- **المادة الخامسة**: إذا وقع تشاجر بين رعايا الفريقين يرد إلى حكم الشرع، فينصب قاضيان من الجهتين، أو قاضٍ من إحداهما حسب التراضي لفصل المادة.
- **المادة السادسة**: الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من أي تدخل أجنبي. فإذا حدثت مسألة مهمة كالعقود والمعاهدات يلزم كلًّا من الطرفين أخذ رأي الطرف الآخر؛ حتى يؤمن الالتباس في الموضوع، ويكون العمل بقوله تعالى: وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ. وقوله – عز وجل: وشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ.
- **المادة السابعة**: تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل أمور الصادر والوارد، والمحافظة على اطمئنانها.
- **المادة الثامنة**: التي تختص بصندوق توفير مال الزكاة، هي مثل المادة العاشرة في معاهدة الإمام يحيى، والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبل الفريقين هي مثل المادة الثامنة، والمادة العاشرة، أي الأخيرة، هي مثل المادة الأخيرة كذلك في معاهدة الإمام.

(١٣) جوار وسادات

وقف الحاجب في الباب يقول: الحاج مُحَمَّد؛ فنهض فضل الدين واستوى جالسًا على الديوان. ومن هو الحاج مُحَمَّد؟ هو في عاصمة ابن إدريس نائب إبليس. درويش وجريدة اخبار وحجَّام، وطبيب يطِبّب العيون،

---

[1] يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد، وهو محتل مدينة أبها التي كانت قاعدة لواء عسير في الماضي.

[2] ولا شك أن السيد الإدريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء.

[3] في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم، أي المادة السادسة من معاهدة الإمام يحيى، والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض.

ويتاجر بالدر المكنون، ويمارس كل الفنون. هو من مراكش، جاء مثل كثيرين من إخوانه إلى بلاد السيد حاجًّا، وبقي فيها ينتقل مع الإمام فيعيش في ظله المغذي الروح والجسد معًا، والحاج مُحَمَّد جبار يكسِّر بيده الحجارة. صافحته مرة واحدة، وصرت بعدئذ أكتفي بالسلام من بعد عشرة أقدام. أعجب بتلك اليد، يد ولا مخالب البهبوت، كل أصبع منها نبوت، وهي مع ذلك يد ساحر، يمدها إلى أدق أعضاء الجسم البشري إلى العين فيشفيها – بشهادة الدكتور فضل الدين – من الآلام. يقبض السكين، وبغيرها وغير الله لا يستعين، وما فشل مرة في عملية من العمليات، ولا عصته العيون والحدقات.

لكن ذلك لا يؤهله لإكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل غيره في النهار. دخل يلهث والعرق يتصبَّب من جبينه، فجلس على الأرض، طوى نفسه على السجادة أمامنا، وبدأ باسم الله.

سار الـ «مَوْتِر» إلى صبيا منذ أيام، وعاد اليوم كاملًا بكل أجزائه والحمد لله، وحضرة القاضي فيه سالمًا متعافيًا – بإذن الله. وقد وفق بين السيد ... وجارية من جواريه جاءت تشكوه إلى مولانا. ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يومًا كاملًا، فعول السيد على بيع الجارية، فاحتجَّت معتصمة بالشرع والحق في جانبها؛ لأنها – وقد ولدت له ولدًا – أصبحت زوجة شرعية. ولكن السيد يقول: هي جارية نحس، جارية جانية، لو أنها ولدت ابنة حية لما استحقت أن أرفعها إلى مقام الزوجة، فكيف وهي تجيئني بالأموات. جانية تستحق فوق البيع الذبح. ولكني أرحمها وأبيعها فقط. فقال القاضي، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة: بمثلك وأنت من أهل البيت يليق العدل ويليق الحنان. فقد قال ﷺ. قال: نسيت يا دقتور الحديث. ولكن القاضي أقنع السيد؛ فدخلت التقوى والحنان إلى قلبه، فقاطعه فضل الدين قائلًا: نار الجحيم في قلبه. فقال الحاج: ولكنه رحمها يا دقتور. قال لها: سأشرفك ببذرتي مرة أخرى، فإذا جئتِني بولد ذكر حي كان لك ما تريدين، وإلا أتبعتك بابنتك، قبِّلي يد القاضي، وركبته، ورجله، واشكري الله على مجيئه. وجيزان تشكر الله على عودته سالمًا في الـ «موْتِر».

رفع الحاج مُحَمَّد رأسه، ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه، ثم طوى نفسه ثلاث طيات – إليتيه على كعبيه، وصدره على ركبتيه – ومد عنقه نحو فضل الدين، وهمس قائلًا: سيدخل عم مولانا الإمام على فتاة أخرى. أبو فراخ يبغي شراء فرخة سوداء، وراح أمس يستأذن صهره. وراحت المسكينة إلى الإمام تبكي وتستغيث. فقال الإمام إلى عمه الشائب: لا أسمح لك بها إلا إذا كتبت كتابك عليها؛ أخذتُ ابنتك بالكتاب والسنة فكيف أحل لك ما لا أحله لنفسي؛ فقبل أبو فراخ بذلك، وسيدخل هذه الليلة على الفرخة الدنقلية ... لا والله ما أريتها، ولكني سمعتهم يقولون إنها أجمل ما جاء من وراء البحر؛ درة سوداء.

ورفع الحاج رأسه، وصعَّد الزفرات، ثم قال: والسيد – عافاه الله وحجب عليه – جاءته إحدى جواريه بولد ... أبعد الله الدنقليات عن بيت سادتنا. فرخة سوداء، رأس البلاء، في كنف إدريس. الأدارسة يا

دقتور يذبحون أنفسهم، ولا يذبحون سود الفراخ.

ضحك الدكتور، وأمر له بالقهوة فشرب الحاج، ومسح بقميصه العرق من جبينه ووجهه، واستأنف الحديث: سيرجع غدًا وفد ابن سعود. أعطى مولانا كل واحد منهم كيسًا وكسوة، وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف، فتناقشوا وعلماء شنقيط في التوحيد والأولياء. خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين. تذكر الرجل الذي ذبح ابنه في أبها؛ لأنه افترى على زوجة أبيه، وفَرَّ هاربًا إلى صبيا، فقبض عليه فيها، وسجن بأمر من الإمام. جاء كتاب من عامل أبها يقول فيه: أرسلوا الجاني إلينا؛ أنتم لا تحسنون القصاص، شرائعكم لا تنفع؛ عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات. أحيلوه علينا عندنا السيف. وأمس قال أحد هؤلاء الوهابيين: لا يطهر الإسلام من الشرك إلا السيف، وهو حجتهم الوحيدة. من يصلي إلى العظام في القبور، ويستغيث بالأشجار والحجارة يشرك بالله، يكفر بالله، والكافر يقتل. فرد عليه أحد علمائنا بقوله: وأنتم تستغيثون بالنبي، أنتم كذلك مشركون. فقال الوهابي: نذكر النبي إجلالًا، ولا نستغيث به أبدًا. فقال عالمنا: الذكر والإجلال يتضمَّنان الاقتداء، والاقتداء هو ضمنًا النداء، وفي النداء الاستغاثة. فقال الوهابي: هذا إبهام وكفر الإبهام أشد من الكفر الصريح. دامت المناقشة ساعتين، فدخل إذ ذاك مولانا فقال: لا تشعلوها يا أبناء نجد، وجادِلْهُم بِالَّتِي هِي أَحْسنُ، ثم قال: والإنكليز مشركون ليس علينا أن نهديكم إلى الدين الحنيف ... منْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (الآية)، ونحن أصدقاء الإنكليز. نخلص لهم ما داموا مخلصين لنا، وأنتم في نجد كذلك، إن الله يهدي من يشاء. هذا ما قاله مولانا الإمام. وقف الحاج مُحَمَّد هنيهة وقد عمد إلى طرف قميصه فأمرَّها أولًا وثانيًا على جبينه، ثم دنا من فضل الدين هامسًا: سنبوك جوارٍ يصل إلى ميدي بعد يومين. ثم مال بوجهه إليَّ وقال: السيد الحضرمي يسلم عليك.

كنت قد نسيت رفيقنا في الباخرة، وها إن الحاج محمدًا يثبت ما قاله فضل الدين – قرأ السيد قصيدة في مجلس الإمام يمدحه فيها، فأمر له مولانا بمائة ليرة، وهو عائد معكم في الـ «موتر» إلى الحديدة.

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذًا بالله. ثم دعاني وهو واقف أمام الشباك لأشاهد ما شاهد في ذاك الحين، فرأيت في الرواق الخادم أبكر – السيد أبكر – وحوله بعض أبناء قريته، جاءوا يسلمون عليه ويقبلون يديه – هذا سيد. ولكنه خادم مخلص لا بأس إذا قبَّل يده أبناء بلده. ولكن في السادة الشحاذ، واللص، والزاني، والقاتل، والمتاجر بالرقيق، والناس يقبلون أيديهم وركابهم. إن مراوغة[1] مدينة السادة، كلها سادات، وفيها من كل من ذكرت. ينزل السيد إلى السوق حاملًا السلة، فيملأها مما يحتاج إليه من خضر وحبوب ولحم وحلوى، دون أن يدفع غرشًا واحدًا. ولا أحد يقول: لا، ولا أحد يجرؤ

[1] مراوغة على مسافة عشرين ميلًا شرقًا من الحديدة.

أن يمنع رزقه عن السادات. وفي أشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون، هذا فضل الشحاذة عند السادة. جاء في الكتاب: وأَنذِرْ عشِيرتك الْأَقْرِبِينَ، فمن ينذرها اليوم؟ عادات وقباحات يبرأ منها الإسلام. إذا تزوج السيد بنتًا من غير آل البيت، وولدت له ابنًا فمن الواجب عليها أن تقبّل يده، وركبته، ورجله كل يوم؛ لأنه سيد، ولأنها من عامة الناس، وابنها يحتقرها، ينظر إليها نظر السيد إلى العبد. مثل آخر: سيد عنده جارية، وخادم متزوج بامرأة حرة؛ فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها، ولو صارت أمًّا وزوجةً شرعية. وكثيرًا ما يحدث في مثل هذه الحال أن السيد يبيع الجارية إلى خادمه، ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها. فساد لا يطهره غير الجحيم ... من فضل الأتراك أنهم كانوا يعتقون الجواري والعبيد، ويعطونهم شهادات العتق. وكان السادة يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات، أما الآن فلا قيمة لها ... ولا تظن أن سادات حضرموت أرقى من سادات اليمن. هذا واحد منهم عرفناه رفيقًا، وسيرافقنا مرة أخرى أعوذ برب الفلق.

ولكننا علمنا بعدئذ أن حضرة السيد سبقنا إلى ميدي، وسيرافقنا من هناك، فقال فضل الدين: الحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية. ركبنا السيارة صباحًا يصحبنا جندي من جنود الإمام، وهو سيد من سادات اليمن الأعلى يناهز الستين عمرًا، دقيق الأنف والفم واليدين، حليق الشارب، أبيض اللحية، بَهِيُّ الطلعة، لطيف المحيَّا. جلس بعد أن سلم إلى جنب السائق، وبندقيته بين يديه، فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلًا من جيزان. وكان السهل الذي رحنا «نموتر» فيه كبلاد حرب كله درب. مررنا بملاحة هي للحكومة قرب قرية تدعى مضايه. ولم يكن في الأرض حولنا ما يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد أميالًا إلى جانب الشاطئ؛ كأنها جدار أخضر قائم بين البحر والسهل. أما عود هذا الشجر فأبيض، والمتكسر منه شبيه بالعظام، يجمعه العرب حطبًا. وأما الورق الشبيه بورق الغار، فيرعاه الغزلان. كنا نرى أسرابًا منها عادِيَة، شاردة، نافرة من كل ما تحرك في تلك الأرض سواها.

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غريب. إن مياه البحر تجري تحت الأرض، خلال شقوق في التربة رملية، فتتسرب إلى مسافة خمسة أميال في بعض الأماكن، وتظهر فورًا في السهل بحيرات مالحة، تجف في الصيف مياهها، فتبدو سبخات موحلة لزجة إذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرُّها منها.

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدُّبه. سألته سؤالًا فأدار بوجهه، وأجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة إنه من عرب حاشد، من الحوارث فيهم، وإن جبال حاشد هي كالحلقة حولهم. نعم، هو زيدي، ولكنه منذ عشر سنين «في خدمة الإمام»، أي الإدريسي. بعد أن أجاب سؤالي أمال وجهه وسكت. أعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيه ظاهرة: حسن طلعته، وحسن منطقه، وحسن أدبه. وهو سيد زيدي، بل هو سيد من الأماجد، شريف حتى أطراف أنامله كما يقول الإنكليز. وفيه برهان جلي على أن في

التعميم ضلالًا. أجل، إن في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال: الشريف طبعًا، والشريف وراثة، والذي لا شرف له.

وصلنا إلى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل أن يشتد حر الشمس، فأقمنا فيها يومًا نستطلع أحوالها، ونستكشف أسرارها. أما الأسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرمية، وأما الأحوال، فأول ما يظهر منها أناس أكثرهم من السود والمولدين يزدحمون في أسواق تباريهم فيها الروائح والأقذار.

ولكن للأشغال، للصناعة والتجارة أثرًا باهرًا فيها لا تجد مثله حتى في الحديدة؛ ذلك لأن ميدي اليوم هي كجيزان في أثناء الحرب العظمى، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطئ البحر الأحمر الغربي المفتوحة للبواخر والتجارة، فتسير منها إلى العقبة، عقبة اليمن، فجبال عسير، وفي السهول شمالًا إلى جدة. أما تجارة ميدي، فأكثرها بالسلاح وبالرقيق وبالتهريب. إذا احتاج إمام صنعاء مثلًا إلى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي، أو يطلبها لترسل عن طريق ميدي. وإذا أراد أحد تجار الحجاز أن يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمرك، يستجلبها إلى ميدي، ومنها برًّا إلى جدة. وإذا أراد أحد السادة شراء جارية حسناء يجيء إلى ميدي، فلا تضل خطاه ومناه. وإنك لتجد فيها اللؤلؤ، ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال، والبنيَّات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان. ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع، أي في الرقيق والسلاح، وسهام الملاح.

إن الدكتور فضل الدين بصفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين بالرقيق، وعدوهم الألدُّ، أخبره الحاج مُحَمَّد المغربي بأن سنبوكًا عن الجواري يصل قريبًا إلى ميدي؛ فباشر عند وصوله البحث والاستقراء. جاء أحد «أصدقائه» من تجار الرقيق مسلِّمًا. فسأله كيف السوق؟ فقال: واقفة يا حكيم.

— يلزمنا جارية للأستاذ.

— غرضك يا حكيم على الرأس والعين. ولكن لا يوجد اليوم.

لا والله ولا واحدة.

— ولا عند أصحابك؟

— لا والله السوق واقفة. لم يدخل ميدي سنبوك واحد منذ شهرين.

— غرض الأستاذ عزيز لدينا. فتش ولو على دنقلية. والثمن يرضيك.

— سنبذل الجهد، غرضكم يا حكيم وغرض الأستاذ على الرأس والعين.

راح ولم يرجع. وجاء آخر فكانت أجوبته تومئ إلى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل. فأنكر بتاتًا.

— لا جواري في ميدي، ولا أحد يتاجر بالرقيق اليوم. لا والنبي، ولا أحد يشتري.

— وها من يشتري ويدفع ما تشاء. هات لنا ولو سودانية.

— توكل على الله، غرض الحكيم نشتريه بعيوننا.

— وراح كذلك ولم يرجع. ثم جاء رجل طويل القامة، طويل الشارب، أجشُّ الصوت، جاحظ العين. فسلم سلام الأحباب، وتربع على الديوان.

— سترى قريبًا ما يسرك يا حكيم. والله ما نبغي إلا خدمتكم وخدمة مولانا السيد. لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي. نظفنا البلد. والتجار كلهم يلعنوننا. لا يهم والله إذا كنتم راضين. أول سنبوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولانا، ونعلمكم بذلك.

وقد علمت بعدئذ أن الرجل من أكبر تجار الرقيق في تهامة. له قصر كبير بين ميدي واللحيَّة يستخدمه لتهريب الجواري والسلاح. والرجل عالم بقصد الحكيم، ويظن أنه يخادعه. على أنه ينجح أحيانًا فيما يحتال به. فإذا حجز سنبوكًا مرة في السنة، وسلم من فيه إلى الحكومة يشتريهن بعدئذ بوساطة أحد رجاله ويأخذهن إلى القصر.

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال: بعد شهر في الأقل. صاحبه سافر البارح إلى جيبوتي عيننا عليه، كن مطمئنَّ البال.

وقد يكون «صاحبه» أحد رجاله. عرفنا بعدئذ أنه كان صادقًا في بعض ما قال. ولكن الرجل لم يسافر إلى جيبوتي. إن في هذا الخبر بداءة حادثة يجيء ذكرها في حينه.

نزلنا الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلى الساحة لنركب السيارة، فلقينا هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي ينتظرنا.

وضع الخادم أبكر أمتعة سيده في السيارة عند أرجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا إليه، ثم أشار فضل الدين إلى السيد أن يجلس جنب السائق فأبى، وقال: ارفعوا هذه الحقيبة فأجلس معكم.

فضل الدين: يد الأستاذ تؤلمه، وهو يحتاج إلى شيء يسندها إليه.

تفضل اجلس قدامنا.

السيد مثلي لا يجلس جنب السائق.

فضل الدين يتلو الفاتحة، والسيد يحوقل، ثم: اجلس أو نمشي.

فهز السيد رأسه، فأمر فضل الدين السائق بالسير، فرفع السيد أمتعته إلى السيارة، وصعد إلى جنب

السائق وهو يتلو الفاتحة. فقلت أنا مع الاثنين: اهدنا السراط المستقيم.

والظاهر أنه لم يكن فينا أحد ممن «أنعم الله عليهم»، أو أن السيد هو سيد برج النحوس، فجذبنا كلنا إليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه. بل أعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجمًا نهتدي به. ضللنا الطريق، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب، ولا أثر فيه يُرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد. بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من ميدي، فمنَّ الله علينا برجل هدانا الصراط المستقيم. ثم ضللنا ثانية وثالثة قبل أن نصل إلى حبْل، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق، وعدنا اتفاقًا أو إلهامًا إلى أثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويخفَى في نور القمر الضئيل.

وصلنا إلى اللحيَّة عند شروق الشمس، فألفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الإيطالية والبريطانية؛ لأنها ضربت مرات من البحر في الحرب الإيطالية التركية، وفي الحرب العظمى الأولى. إلا أنها لا تزال على شيء من العمران في أبنيتها الكبيرة، وفي أسواقها التي لا تشبه أسواق ميدي بالروائح والأقذار، ولا بالناس، وحركة الأشغال. هي قريبة من البحر، ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض أرجائها، ولا سيما في دائرة الحكومة، حيث استقبلنا بعض الأفاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقًا في خدمة الدولة، منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضرًا ليلة الوليمة والرقص التي أحياها جلالة الملك حسين إكرامًا لي، فكتب إلى أبيه يصفها. ومما قال: وكنا ساعة الفجر لا نزال نرقص حول النار. هذا أجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت أخبارها إلى اليمن.

وأما سكان اللحيَّة، وفيهم السوداني والصومالي والمولد، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة آلاف، وهو خمس سكانها قبل الحرب. وفيها ثكنة مهجورة، وقلعة متهدِّمة، وأخربة –كما قلت –كثيرة. فقد كانت في آخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر؛ لأن عساكر الإدريسي بقيادة ضابط بريطاني كانوا مخندقين خارج المدينة، وكانت أبو حلق على مسيرة ساعة منها جنوبًا، في يدهم. فتجيئهم الذخيرة والمئونة والماء كذلك من المراكب الحربية. وما عتم أن تغلب الأسطول البريطاني، فخرج الترك من المدينة، ودخلت عساكر الإدريسي إليها. وبعد قليل وصل إلى تلك البلاد خبر الهدنة، فأرَّخه الإنكليز هكذا: ١١–١١–١١، أي إن الخبر وصل إلى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة ١٩١٨. كان السيد مصطفى يومئذ نائبًا عن ابن عمه الإمام، والدكتور فضل الدين طبيبًا في الجيش الإدريسي؛ فنزل بعض الضباط البريطانيون إلى البر يعيدون معهما للخبر السعيد. احتفلوا بالنصر، وبانتهاء الحرب في بلاد لم تنته – وا أسفاه – فيها الحروب.

استأنفنا السير صباح ذلك اليوم، فمررنا ونحن قريبون من الشاطئ بالتُّمْنيَّة، وهي قرية صيادين، وكذلك بالخوْبَة التي لم يكن فيها ساعتئذ غير الأولاد، فخرجوا جميعًا يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة.

وظل بعضهم وهم يثبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق، فتقهقروا إلا واحدًا ظل في ثباته وعَدْوه، ثم سمعناه يقول للسائق: دَلَهْ دَلَهْ، أي على مهل. كأنه أراد أن يرافقنا، بل يسابقنا إلى الحديدة.

سمعت السموات والأرض طلبة الولد، فوقفنا فجأة، وقفنا تمامًا. غرقت دواليب السيارة في الرمل، فخرجنا كلنا إلا السيد الذي ظل جالسًا، وجاء الولد يساعدنا، فدفعناها إلى الأمام. أخرجناها مع من فيها من الرمل، وعدنا إلى مجالسنا، وفضل الدين يقول: والحمد لله يا سيد. فأجاب بلا خجل ولا اعتذار: والحمد لله.

دع السيد يا دكتور واستقبل السراب. هو ذا السراب، وقد تراءى لنا بعيدًا فظنناه لأول وهلة إحدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب إليها مياه البحر، أو لسانًا من البر امتد إليه. وكانت أكواخ القرية تنعكس في السراب، فيشبه ظلها ظل الأشجار – ظلال في المياه، ولا مياه ولا ظلال. أما لون السراب فكان أشبه بلون السماء منه بلون البحر؛ لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها واحة في وسط البحيرة، أو بستان معلق في الفضاء، تحته وفوقه السماء. ولما دنونا منها بدت أكواخًا لا ريب فيها، وكانت المياه، أي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا، حتى غاب رويدًا رويدًا عن الأبصار.

بعد أن اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل، فخرجنا ندفع ونجرُّ، والسيد في مكانه لا يتزحزح. فرجوناه أن يتفضل فينزل في الأقل؛ فتخف علينا المصيبة، ففعل مترددًا، وما كادت رجله الشريفة تطأ الأرض حتى تحركت الدواليب، وجرت السيارة باسم الله، فركض السيد وراءها وهو يظن أنها ستستمر جارية.

وصلنا إلى الصليف المشهورة بملحها. وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة بريطانية منحتها الدولة امتيازًا لاستخراج الملح من أرضها. إنها لقرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر، والهلال ذيل ضلعٍ، أي جبل يمتد شرقًا إلى الزيديَّة في سفح جبال اليمن. خطر لي ونحن نجتاز هذا الجبل الضيق الطويل، هذا الضلع في الأرض، خاطرٌ قد يهمُّ البريطانيين والإمامين فيما يريدون من تحقيق الصلح. ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة بين اليمن وعسير، بين إمام صنعاء، وإمام جيزان، فتكون الزيديَّة وما دونها جنوبًا للزيود، وتكون الصليف وما دونها شمالًا للأدارسة. والجبل فاصل بين الاثنين.

تغيَّرت التربة دون ذاك الجبل جنوبًا، فقلَّت فيها السبخة، وكثرت الرمال، وقلَّت كذلك المياه المالحة، وبدت هنا وهناك – في النبات والأشجار – دلائل الماء القراح. فهناك السلم والألب والعشر والنخيل. وهناك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن، شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه. تبارك الماء العذب ولكن الرمال ... كنا قد علقنا ثلاث مرات أخرى فيها، وما كان السيد يشرف الأرض برجله إلا بعد أن ندعوه رسميًّا.

انتصف النهار، واشتد القيظ إلى درجة يكاد لا يحتملها حتى أبناء البلاد، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوِّها الرمال نحس بالنار تخترق نعالنا فتحرق أرجلنا. وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوك يغيظ حتى الأولياء.

فضل الدين، ويده على السيارة، ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق: يا سيد يا ابن النبي، تعالَ ساعدنا، وإلا تبقى هنا. فنزل هذه المرة السيد، ولبس نعله، وجاء على مهل يعيننا، فوضع يده على السيارة، وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها باللمس والصلاة؛ فازدادت السيارة تمردًا، وفضل الدين غيظًا، فقال: سيادتك مثل السراب، بل السراب أحسن لأنه يسرُّ العين.

كنا ساعتئذ في أشد حالنا، أصيب السائق بدوار؛ فوقع مغمى عليه، وكدت أنا أقع كذلك من شدة القيظ والعياء، وفضل الدين وحده يعالج السيارة، ويستعيذ بالله من برج النحوس. فأرسلنا السيد الصالح أبكر إلى تربة أقرب قرية منا يستنجد رجالها، فعاد بعد ساعة، ومعه بعض الأقوياء من العرب والسود يرأسهم قزم جبار سلَّم علينا فأضحكنا، وحرك السيارة فأدهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجًا.

— السلام عليكم وعلى بنت الجن. هل تبغون تكسيرها أو تسييرها. إذا تبتم إلى الله نكسرها، وننزلكم عندنا، وتركبون غدًا الهجين مثل المؤمنين.

خلصونا مما كنا فيه — بارك الله فيهم — وأخذ الصغير البخشيش فتقاسمه ورجاله، وودعنا قائلًا: احمدوا الله وتوبوا إليه، ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في بنت الجن هائمين.

ما كدنا ننتهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة، وكان السائق لا يزال متأثرًا مما أصابه، فغاصت السيارة للمرة العاشرة، وعلقت الدواليب وقم يا سيد.

فقال السيد المحترم: لا أقوم ولا أنزل حتى نصل إلى الحديدة. فقلت، وكانت شعلة الغيظ قد اضطرمت فيَّ أيضًا: ستنزل هنا، وتبقى هنا: إن من يراك يظنك قويًّا نشيطًا، ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية، يا لضيعة النسب!

لم يجب الرجل بكلمة. وظل ساكتًا حتى وصلنا إلى الحديدة، فودعنا هناك، واعتذر عما بدا منه.

وبعد يومين جاء الخادم يقول: رأيت السيد الحضرمي في السوق والتجار الحضارمة يمشون وراءه بعيدين عنه، وهو يمشي ويهز كتفيه كأنه حاكم البلد.

ثم علمت أنه من كبار سادات صيوون، ومقامه هناك شبيه بمقام أسقف عندنا. فمثلت لنفسي أسقفًا رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق، ونستعينه على جرها من الرمال، ونقول له فوق ذلك: أنت مثل السراب. بل السراب أحسن منك لأنه يسر النظر. فأسفت لما بدا، ووددته رفيقًا مرة أخرى لأكفر عن

ذنب كان فيه، سامحه وسامحنا الله شريكًا كريمًا[١].

(١٤) تجارة الرقيق

أيما رجل كانت له جارية فأدبها، وأعتقها، وتزوجها فله أجران. (حديث شريف)

كنت أنكر وجود النخاسة في العالم اليوم، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني. كنت أظن أن التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعًا في هذا الزمان، فخاب في البلاد العربية ظني. كنت أؤمل – على فرض وجود الرقيق والنخاسة – أن تكون الحكومة ناهضة للأمر، متعقبة المجرمين، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة الأثيمة، فوجدتها في الحجاز، وفي عسير نائمة وا أسفاه أو متناومة، أو عاجزة. بل وجدت الحكومة أحيانًا حليفة الرعاع.

أما الحكومة البريطانية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الأحمر، وفيما تحجز بواخرها الحربية أحيانًا من السنابيك حاملة الرقيق. ولكنها لا تكمل عملها؛ فهي بعد أن تحجز السنبوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معًا. أو بالحري تعيد العبيد إذا شاءوا إلى بلادهم، وتبعث الناخوذاه، والنوتيين إلى جيبوتي؛ لتحاكمهم الحكومة الفرنسية.

والحكومة الفرنسية الجيبوتية – رعاها الله – تحمي أكبر تجار الرقيق في المنطقة، أي سلطان تاجورا[٢].

أما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم أتشرف بزيارته، فالذي يظهر من أمره هو أنه أبعد نظرًا، وأكبر دهاءً من الذين يحمونه. هو سلطان نعم، ولكنه كذلك عامل حاذق، وتاجر ماهر، يحب المال كثيرًا، وله في إحرازه حرفتان غير «التسلطن»، واحدة شريفة، وهي السكافة – ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله – والأخرى ... تباركت ثمرة بطنك أيتها الحبشية. إذا كسدت النعال عند السلطان، فلا تنفد الجواري، ولا تكسد سوقهنَّ.

إن لسموه في الحبشة رجالًا يجيئونه دائمًا بمن يبتاعون، أو يخطفون، أو يستغوون من البنات والصبيان، وهو يبيعهم إلى تجار الحجاز وعسير. إلى تاجورا إذن لا إلى جيبوتي يجيء تاجر الرقيق، فيرحب به السلطان الإسكاف، ويفتح له الكيس؛ فيملأه التاجر ذهبًا وفضة، ويعود بسنبوك إلى بلاد العرب ملؤه الجواري والعبيد. قد قيل لي: إن الحكومة الجيبوتية الفرنسية تقاسم السلطان الدنقلي أرباحه في هذه التجارة المستنكرة. ومما لا ريب فيه أنها تحسن معاملته، وتكرمه، وتجامله. دعاه مرة الحاكم الفرنسي لينزل بضعة أيام

[١] جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه، وفيها مقال طويل كتبه أحد الحضارمة هناك، يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي، كبير قومه، وفخر السادة العلماء، ويطعن عليَّ طعنًا عجيبًا، كسف الغيظ فيه كل أقمار العلم والأدب في صيوون. ولكن الكاتب لم يتصد لنفي شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من أخبار السيد المحترم.

[٢] تاجورا مقاطعة شرقي جيبوتي ذات استقلال داخلي شبيهة بالنواحي المحمية حول عدن.

ضيفًا عليه في جيبوتي، فقبل السلطان الدعوة.

جاء إلى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالًا يليق بمقامه، وأنزل في قصر فخم جيء بفرشه ورياشه من باريس. فحدثت السلطان نفسه أن هؤلاء الفرنسيين تجار مثله، ويربحون من بلاده أرباحًا كثيرة. فلماذا لا يقتدي بهم؟ اغتنم السلطان هذه الفرصة الثمينة، فدعا تجار المدينة إلى القصر، وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش، ووضع المال في كيسه، وعاد إلى قاعدة ملكه.

إن تاجروا إذن مصدر التجارة بالرقيق، وإن سلطانها — وهو تحت الحماية الفرنسية — سلطان تلك التجارة. أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية في الشرق، ونفور الشرقيين منها؟

حدثت وكيل المعتمد في عدن بالأمر، فقال أنْ لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاقبة النخاسين؛ لأنهم غالبًا من بلاد لا سيادة لهم — أي للإنكليز — فيها. فقلت: ومن وجهة خلقية، ومن وجهة دينية، ومن وجهة محض إنسانية، إذا جردنا المدنية الغربية من الخلق والتهذيب والحب الإنساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها لسيادة الشرق يومًا. وإذا المعتمد مثل بنخاس من تهامة، أو من الحجاز، أو من اليمن، فأمر بشنقه في ساحة عدن، أيظن أن السيد الإدريسي أو الملك حسين يحتجُّ عليه؟ وإذا احتج ملوك العرب كلهم أتظن أيها القارئ أن العالم المتمدِّن ينصرهم في هذا الأمر على البريطانيين مهما كان حقهم الشرعي؟ أينصرهم العالم، والنبي نفسه يأمرهم بإعتاق الرقيق؟ إني أبصر كل من يسعى في محق النخاسة، وإن تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها، أو يتغاضى عنها، وإن كانت حكومته مقدسة.

إن في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة، ومنهم من يأسف أنها غير مستمرة، ويلعن المراقبة البريطانية، إلا أني سمعت أن الملك حسينًا يستنكرها، وينهى عنها. لا ريب أن جلالة الملك حسين يستنكر العبودية، وهو أعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والإعتاق. ولكن حكومته — وا أسفاه — هي يومًا نائمة، ويومًا متناومة. وقد تأكدت أنها تشارك النخاسين فيما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جدة.

حدث أنها حجرت ذات يوم أحد سنابيك الإثم والعار بما فيه من جوارٍ وعبيد، فآوتهم وأحسنت معاملتهم، ثم — ماذا؟ قد أطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جدة، وفيه ما يلي: قيل إن الحكومة باعت الأرقَّاء على حسابها، والحقيقة أنها إذا أذنت ببيعهم على حساب أصحابهم، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة، أي خمسة وعشرين ريالًا على كل رقيق ... يجيء النخاسون بالعبيد إما بحرًا في السنابيك، وإما برًّا من ميدي. وقد أطلعت القارئ على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة، وما قاله بعض النخاسين وهم يخادعون البريطانيين والحكومة الإدريسية. على أن أحد السادة قال لي — وأثبت قوله بعض الموظفين — إن الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد، بالمرصاد؟

أعود إلى يوميتي، فأنقل منها ما يلي:

دخل على الوكيل مأمور الميناء يقول: سنبوك جوارٍ رسا في الميناء، وناخوذاه ورجاله دخلوا البلد. وقد علمنا أيضًا أنهم سائرون إلى ميدي، وأنهم لم يرسوا في الحديدة إلا ليبتاعوا بعض الزاد.

الحديدة في ٢ تموز ١٩٢٢/٣ ذي القعدة ١٣٤٠

الوكيل: قل لمدير الشركة أن يحضر حالًا.

(بعد عشر دقائق حضر المدير)

هل علمت بسنبوك الجواري الذي في الميناء؟

المدير : نعم.

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله إلى المدينة؟

المدير : معهم إذن يا سيدي من الحكومة.

أمر الوكيل مدير الشرطة أن يحضرهم أمامه. فأحضرهم بعد نصف ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة، شديد الوطأة، حادُّ النظر، دخل المكان كأنه سيده، وتقدم إلى الوكيل فصافحه مصافحة الأقران، وجلس على الديوان. مَن الرجل؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الإدريسية بميدي الذي أشار إليه تاجر الرقيق هناك، جاء الحديدة خصوصًا ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظًا إلى مقره.

بعد استنطاق الناخوذاه، علمنا أنه جاء من تاجورا، وأن معه أربعة وعشرين رقيقًا منهم عشرة صبيان، والبقية بنات، يتراوح عمرهنَّ بين الثامنة والثالثة عشرة، وأن صاحب «المال» – البضاعة – سبقهم إلى ميدي. وما هم إلا مأجورون مأمورون. أما إذن الحكومة فها هو المحافظ بنفسه.

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية، ولكنه طبيب، وله كذلك صلاحية طبية، فسأل الناخوذاه أن يحضر الأرقَّاء ليفحصهم قبل أن يدخلوا المدينة، فوعد أن يجيء بهم بعد الظهر.

تكاد تكون الحديدة اليوم منقطعة عن العالم، والسبيل الوحيد إلى المراسلات البرقية هو بوساطة سنبوك إلى جزيرة قمران، أي ست ساعات في الريح الموالية، ومنها باللاسلكي إلى عدن. صدر الأمر بإعداد السنبوك للسفر، وولى الأصيل، ودنا الغروب، ولم يبرَّ الناخوذاه بوعده. على أنه جاء في المساء يعتذر، فلم يتمكن من شدة النوء والريح من إنزال العبيد إلى البر، ولكنه سيحضرهم صباح الغد – «والله بالله»، وأشار بيده إلى السماء.

وكان قد كتب الوكيل إلى عامل الحديدة بالكتاب التالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قد بلغني أن بالقرب من ميناء الحديدة اليوم سنبوكًا يحمل عددًا من

الجواري والعبيد، قبل خمسة وعشرين، جاء بعض تجار الرقيق بهم من الشاطئ الإفريقي. وهم متوجهون إلى ميدي إلى قصد التجارة. وقد سمعت أيضًا أن الحكومة الإدريسية أباحت لهم ذلك، الأمر الذي استغربتُه جدًّا، فجئت ألفت إليه نظر سيادتكم، وأُعيد ما قلته مرارًا أن التجارة بالرقيق – فضلًا عن أنها مذمومة في الكتاب الكريم – منهي عنها ضمنًا، وفضلًا عن أن الدول المتمدنة، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعًا باتًّا، فهي تشين الاسم الإدريسي، وتضرُّ بالحكومة الإدريسية أدبيًّا وسياسيًّا ضررًا جسيمًا. وإني في طلبي من سيادتكم أن تحلوا المسألة محل الاعتبار والاهتمام أُفصح عن عقيدتي، وعواطفي كمسلم، وعن رغبة الحكومة البريطانية التي أمثلها. أما السنبوك المذكور فأملي أن تتخذ الحكومة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه، ومعاقبة ناخوذاه وبحريته، وتجار الرقيق فيه، ثم تعتق أولئك البنات والصبيان من الأسر. فإن في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الإدريسية اسمها شرفًا، وعدلها عدلًا، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ أحكامها المبنية على الشرع الكريم. وفقكم الله إلى ما فيه خير الجزاء.

محمد فضل الدين

معتمد بريطانيا السياسي

جاء الجواب، فلم يكن مرضيًا، على ما فيه من عذر ووعد وتأكيد، أما الجواب الفعلي الحقيقي فإليكه من يوميتي:

جاء مأمور الميناء هذا الصباح وفي وجهه خبر مفجع، ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر. نعم، أنزلوا الجواري والعبيد ليلًا خارج المدينة، وجاء ... «أحد موظفي الحكومة في الحديدة»، فاختار من الجواري واحدة واشتراها، ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة برًّا إلى ميدي.

في ٣ تموز/٤ ذي القعدة

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي: وهل أعدوا لهم الركائب للسفر؟

فأجاب المدير: أعدوا لهم يا سيدي السياط.

امش ... امشوا. وهم يمشون حفاة عراة من الحديدة إلى ميدي، مائتي ميل في شمس تهامة وقيظها. وإنك إذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في النهار تخترق النار نعلك، وتحرق رجليك.

رحماكم أيها السادة؛ أنتم أعيان الحجاز، ووجوه اليمن، أنتم حياة التجارة بالرقيق، أنتم أمل النخاس الأكبر ومورد رزقه، أنتم الطالبون، أنتم الراغبون في الاستعباد. فإذا كنتم حقًّا مسلمين، فعودوا إلى كتابكم واقرءوا – عفا الله عنكم – ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالإعتاق الجزئي المتدرج، ثم في سورة البلد وسورة التوبة، وفيهما الأمر بالإعتاق التام.

قال الرسول: أيما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها فله أجران (حديث شريف).

ولا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل فتاتي وفتاي (حديث شريف).

فهل من يأمر بالإعتاق التام يقرُّ دوام العبودية؟ وهل من يدعو إلى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة؟ إنه لمن العار أيها السادة أن تنادوا بالحرية والاستقلال، وتدَّعوا البِرَّ والإحسان، وتفاخروا بالعلم وحب الإنسان، ثم لطمع بالخدمة مجانًا، أو لغرض في النفس تستعبدون في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة، ولا عذر لكم في ذلك، ولا ما يحلله أو يجيزه لا خلقًا ولا شرعًا ولا دينًا. وإذا اتخذتم الآية: وما ملكتْ أيْمانُكُمْ حجة وسلاحًا، فإنكم تحتجُّون وتتسلحون بالحرف على المعنى، وبالعرض على الجوهر، وبالحال – وقد زال – على الحقيقة. تتسلحون بظاهر الأمور، وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم، يشهد على جهل فيكم، أو على علم أفسده حب الذات.

أجل، إن أكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الأشراف والسادة والأعيان، فلا أظنهم يجهلون أن النبي أراد محق العبودية تمامًا بالطرق الممكنة في زمانه؛ فنهى عن ظلم العبيد، وأمر بتعليمهم، وبالإحسان إليهم، بل أمر بإعتاقهم.

هلا ذكرتم – وأنتم تفاخرون بأنكم من السليلة النبوية المباركة – ما جاء في الكتاب، هلا أنصتُّم إلى الحديث الشريف، هلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي، إليكم صحيح البخاري، اقرءوا فيه الفصل في الإعتاق وفضله.

دخلت جارية على عائشة فقالت: اشتريني وأعتقيني. فقالت عائشة: نعم. فقالت الجارية: ولكن لا يبيعونني حتى يشترطوا ولائي. فرفضت عائشة. ولما علم النبي بذلك غضب وجاء إلى عائشة يقول: اشتريها وأعتقيها، ودعيهم يشترطون ما شاءوا.

فهل من يقول هذا القول، ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة؟ إن من يستعبد الناس لا يستحق الحرية. إن من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب إنسان. وإن من يشتري الرقيق يفادي بشرفه، ويفقد كرامة نفسه. أجل، وإن أمة لا تستنكر النخاسة، ولا تنهض عليها فتمحقها لأذلُّ في عين الله ممن لا يعرفون الله، وأحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة، ويأكلون لحم الإنسان.

(١٥) خطوات إلى الوحدة

ودَّعت الحكومة بعد حادثة الرقيق التي ذكرت. بل ودعت تهامة آسفًا لما كان من ختام رحلتي فيها. على أنه لو حدثت قبل سفري إلى جيزان، وكانت فاتحة الأشجان، لما أظنني كنت فزت بما أبغيه من عقد معاهدة بين السيد والملك. وكيف أفوز ومثل هذه الحوادث، بل هذه المآثم التي تقترف تحت عين الحكومة، تثير السخط والغيظ، وتضعف فوق ذلك العزم واليقين في من يسعون في سبيل الأمة وعمرانها.

بيد أن لنا فيمَن يشعرون شعورنا في البلاد العربية، ويرون رأينا أملًا بمحق تلك التجارة المعيبة،

واستئصال شأفتها. أقرب السبل إلى ذلك إنما هو العزم في الحكومة، والوجدان في السادة والأعيان، ثم اتفاق بين الملوك والأمراء الحاكمين على المؤازرة في مكافحتها. ولكنت سعيت في إضافة مادة في هذا الموضوع إلى المعاهدة لو كان لي سابق علم به. فعسى أن ما فاتني لا يفوت غيري ممن سيقتفون الأثر، ويسعون في إنجاح العمل.

قبل سفري من الحديدة أرسلت المعاهدة إلى جلالة الملك حسين مشفوعة بالكتاب التالي:

صاحب الجلالة العظمى، أيده الله

حيَّا الله مولاي الملك بالخير والسعادة. أما بعد، قد أرسلت كتابًا مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي، فعسى أن يكون حاز موضوعه استحسان جلالتكم. والآن، وقد عدت من جيزان، أسارع إلى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها، وتم الاتفاق عليها.

إن في سيادة السيد الإدريسي قلبًا كبيرًا، وله نظر في الأمور غالبًا ثاقب، وعنده لجلالتكم من الإخلاص ما لا غبار عليه. من حديثه الذي علق في ذهني: المسألة بيننا وبين الشريف قريبة سهلة ... وقد أطلعني سيادته على نسختين من معاهدة أو تمهيد لمعاهدة كان النظر فيهما سابقًا مع السيد السقاف. فأضفنا بعض ما جاء فيهما إلى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته، ثم أضاف سيادته إليها – بعد تكرار البحث والمداولة – المادة الخامسة، وما جاء في المادة الرابعة ابتداءً بـ «وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما أمكن من الإصلاح»، إلى حد «مجرد الاعتداء والبغي»، وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداءً بـ «ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين» إلى آخرها. وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص إصلاح ذات البين قبل العداء، وبالنص في مسألة الحدود على هذا الشكل، أي التعهد من جلالتكم بعدم الاعتراض في لواء عسير إلى أن يتم بينكم «تمييز حدود معتدلة فاصلة بين الأطراف الثلاثة»، وعسى أن يكون الأربعة كذلك. فإني أعتقد أن لحضرة الإمام يحيى رغبة بالتسوية أيضًا، اللهم إذا جئناه من باب يأمن إليه. وإن مفتاح هذا الباب بيد جلالتكم الآن. أما ما أضيف إلى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو إلا الأساس للعمل.

بقيت مسألة أخرى. كان قد أضاف سيادته بندًا بخصوص بريطانيا العظمى، وحاجة أمراء العرب إلى موالاتها وصداقتها. فبحثت وسيادته في الموضوع، وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئيًّا عن رأيه، وقد تضمن في المادة الأولى من المعاهدة في قولنا: «وتصلح به أحوال البلاد من غير مداخلة أجنبية تخلُّ باستقلال البلاد العربية»، وقد اقتنع سيادته بقولي أن ينبغي أن يكون الولاء والاعتماد من الأمور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا، لا من الأمور المسجَّلة في المعاهدات الرسمية. فتنازل عن تلك المادة. إني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الإمام، وآخر من السيد السنوسي، فعسى أن تنال استحسانكم، فتوقعوها قريبًا، وتعيدوها

مع الوفد إلى جيزان. لست أرى غير هذه الطريقة إلى تحقيق آمالنا في الوحدة العربية؛ لأن الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفًا بأحوال الجزيرة هي أن أمراءنا اليوم، وإن كانوا يميلون إلى الاتفاق، لا يزالون متنافرين متشاقّين. وقل كذلك متحاربين، فينبغي إذن أن تكون الخطوة الأولى خطوة سلم وولاء بين الأقران والأكفاء، يتبعها خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية. وإني لأسعى طاقتي في هذا السبيل. ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الأمر ذوي الآراء. فالأمر الآن لجلالتكم، ولا شك أنكم ستسعون، وسيكلَّل سعيكم بالنجاح في إصلاح ذات البين بين السيد الإدريسي والإمام يحيى، كما أنه سيسعى هو في الإصلاح بينكم وبين ابن سعود. وفقنا الله إلى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريبًا. أيدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة.

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبت إلى صاحب الإقبال وزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب ما يلي:

عزيزي الشيخ فؤاد

السلام عليك، عسى أن تكون بخير، وأن يكون وصلك كتابي السابق الذي أرسلته مع العزيز قسطنطين، وها أنا ذا أكتب إليك الآن بخصوص معاهدة أخرى تباحثنا والسيد الإدريسي فيها، وتم الاتفاق عليها. وقد أرسلتها إلى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها علمي وإخلاصي. لا بد من الصراحة في الأمر. إن الاتفاق بين أمراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية. والاتفاق لا يكون إلا إذا تنازل كل أمير عن بعض خصوصياته. أنتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية، ونحن نبغيها، والأمراء الذين حدثتهم يبغونها، ولكنهم حراصٌ على استقلالهم، وهم يخشون نفوذًا يظنونه سرى إليكم وتمكن منكم. قد أزلت هذا الظن من صدورهم، ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك، أظن أن قسطنطين أخبركم بذلك، وبما أصلحته من سوء الظن في القنصلية الأميركية بعدن.

بقي أن أقول هذه الكلمة: لا تطالبوا الآن بتوحيد العَلَم، وتوحيد النظام العسكري، وتوحيد السياسة الخارجية. لا. ولا بالاعتراف بأن جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب؛ لأن ذلك مبتسر، وقد يفسد ما هو ألزم في البداءة. إن الوحدات هذه درجات في سلم الرقيِّ القوميّ السياسي، ولا بد أن تصلوا إليها وتصعدوها. الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه. عليك إذن وعلى الأمير زيد أن تُنْعما النظر في المسألة، وتبذلا الجهد في إقناع جلالة الملك حسين إذا كان لم يقتنع بما كتبته إليه.

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين أمرًا بسيطًا، ولكنه مهم إذا اعتبرناه مقدمة لخطير الأعمال. ومن ألزم الأشياء التي ينبغي أن تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية. فقد تباحثت والسيد الإدريسي

خصوصًا بذلك، وهم مستعدون أن يقوموا بنفقات آلة تُركب في جيزان أو في صبيا. إني أفضل صبيا. وستبحثون مليًّا في الأمر عندما تؤمُّون جيزان، والمعاهدة بيدكم، وقد وقعها جلالة الملك حسين. أما إنكلترا فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات، راغبة فيها. وأما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن أمراء العرب لا من شأنها. فمتى تمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للإمامين في مكة، ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم تتوفقون – إن شاء الله – إلى تقرير أمور أخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي.

وعندي أن من أهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص بادِّخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الإنشاءات العمومية المشتركة أسبابها ومنافعها. في هذه المادة إذا عمل بها بداءة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان. وإني رسول هذه الفكرة أبثها في ديوان كل أمير وكل سلطان عربي. صندوق توفير من مال الزكاة، هو ذا استقلال العرب ومفتاحه إذ كانوا يفقهون. صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلًا في مد سكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن. وإذا احتاج حكام البلاد إلى أخصائيين من الأجانب يستأجرونهم ويدفعون أجورهم من أموال عربية، ويشترون ما يحتاجون من موارد وأدوات بأموال عربية. فلو كانت المعاهدة بين الملك والإمام، وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة، ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الآن خيرًا ونفعًا للجميع، وقعوها إذن. وفقكم الله، وأطال بقاءكم.

صديقكم المخلص

ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير.

رغبت في خدمة الإمام بتقريب قضيته من فهم البريطانيين ومصلحتهم، وبتقريب البريطانيين من عقلية الإمام، وبتمهيد السبيل إلى الصلح بينه وبين الإدريسي، فاقترحت أن يُعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الآراء، ويتعارفون ويتفقون، فأبى حضرته لأسباب أدركها، ولا سبيل إلى تداركها. إن الإمام طامع بالاستيلاء على اليمن كله، وهو طامع كذلك – على ما أظن – باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين.

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز بكل من اليمن وعسير في البداءة، ولو بخيط من حرير؛ لاعتقادي أن جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة. فلم يوقع واحدة منهما، ولا أظنه استحسنهما لأسباب أدركها ولا سبيل إلى تداركها. لم يعترف الإمام يحيى ولا السيد الإدريسي بأن الملك حسين هو ملك العرب[1] ولكنهما مدا إليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها.

---

[1] كان مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية أبسن: كل شيء أو لا شيء. وقد كانت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية: لا شيء – إلا الغم له وآله ولكل مريديه. إني متيقِّن – وأظن أن كل من له شيء من العلم في الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين – أنه لو وقع الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤. راجع تاريخ نجد وملحقاته.

سلاطين ومشايخ لحج ونواحي المحمية



سمو السلطان عبد الكريم فضل

(١) لحج والنواحي المحمية

- **حدودها**: جنوبًا ساحل البحر العربي، من باب المندب إلى بَلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والأربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي. شرقًا حضرموت. غربًا البحر الأحمر. شمالًا البلاد التي يحكمها الإمام يحيى. وقد قلقلت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين أصحاب الحماية.
- **مساحتها**: نحو ألفين وخمسمائة ميل مربع.

- **سكانها**: نحو ثلاثمائة ألف نفس.
- **أهم قبائلها**: العَبَادِلة، واليَوَافِع، وآل فضل، والعوالق، والحواشب، والصُّبَيْحَة.
- **أهم مدنها**: شقره، والحوطه، وبلحاف على البحر العربي، ولحج، وأبين، وأنصاب، ومُسيمير، وحبان.
- **مذاهبها**: السنة: شوافع وحنفيون. الشيعة: جعفريون، وإسماعيليون، وزيديون. وفي عدن: اليهود، والهندوس، والنصارى. وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الإسلام.

(٢) الثالوث المادي في عدن

قال المستر لويد جورج مرة: إن المبدأ المرن في السياسة هو أصلح المبادئ لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية. لا تكن قاسيًا فتكسر. ولكننا نظلم الإنكليز إذا ظننا أن هذا المبدأ هو دائمًا مبدؤهم في البلدان التي يحكمونها خارج الجزائر الإنكليزية. أما في البلاد العربية فلا ريب أن المرونة هي غالبًا روح سياستهم قولًا وعملًا. وقد يتخللها في الأزمات إطلاق مدفع أو في الأقل مناورة بحرية، فتعود السياسة بعدئذ إلى مجاريها الملتوية المائعة.

إن من يُنعم النظر في بلاد العرب وأحوالها الجغرافية والسياسية والدينية، وفي تشتت أمورها، واختلاف نزعاتها، يرى بعض الحكمة في خطة سياسية تمتد إلى كل مكان دون أن تنقطع أو يعتريها شيء من الضعف. مدَّها، مطَّها، من عدن فتصل إلى صنعاء رقيقة لطيفة، مطَّها من الكويت فتصل إلى ما وراء الدهناء، ومن شرقي الأردن فتصل إلى الجوف، فتداعب أطرافها الوهابية، وتتعلق بأنامل ابن سعود. مطها من الحديدة فتنعقد في صبيا، ومن جدة فتلتوي وتدق، ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة، ولكل مطَّة خُطَّة، ولكل يد تمط أسلوب خاص بصاحبها. في اللين ربقات لكل الرءوس، والسوائل تدخل في كل الكئوس.

إن أجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الاعتماد بعدن من الربقات السياسية. هذه ربقة تسر، وهذه ربقة تخنق، وتلك تؤلم ولا تضر، وبينها كلها درجات في الضغط والإرخاء، في الربط والحلّ، توجبها أحوال اليمن الأسفل، والعشائر القاطنة تلك الأنحاء. وكيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة، يستر بها عورته، ومن هو في لبسه، وفرش بيته، وأخلاقه وتهذيبه من أرقى أمراء العرب. أجل، إن بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهمه من الأمر غير الحكم والمصلحة أن يشملها كلها بنفوذه، ويقيدها بحكمه، إلا إذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية.

ولهذه القاعدة مظاهر شتى، أولها المعاهدات الولائية، في المشاهرات المالية، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء إلى عدن من السلاطين أو يسافر منها، ثم الألقاب والنياشين، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على

بيت مالك أو عكس ذلك، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام. وأخيرًا، بل يصح أن يكون الأخير أولًا، المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير؛ عملًا برغبتهم، وبمصلحة بريطانيا.

نعم، ما من أمير أو سلطان أو شيخ قبيلة إلا يبغي الاستقلال التام، ولا بأس إذا قُيد بمشاهرات وبهدية كل عام. هذه لعمري بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الإنكليز الكبرى. وكأني بهم يقولون للأمير العربي: أنت تبغي الاستقلال. أنت مستقل، نحن نعترف بذلك، وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك.

نحن لا نبغي إلا ما تبغيه، وهذا عهد الولاء والحماية. ولكن في هذا العهد الربقة التي تخنق، فيه البند المشهور: لا يحق للسلطان أو الأمير أن يتعاهد وأحد زملائه أو يبيع أو أن يؤجر أو يهب شيئًا من بلاده إلى أحد أمراء العرب أو الأجانب، أو يمنح امتيازًا دون أن يستشير ويستأذن الحاكم في عدن.

هي سياسة التفريق[١] وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك، فالإنكليز وهم سادة عدن ونواحيها لا يبغون غيرهم من الأوروبيين هناك، وأمراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهبًا وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطان من جند وسلاح. كلمة الإنكليزي وعهده: سنساعدك يا حضرة الأمير لتحفظ استقلالك، فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج.

أما الحماية، فأمرها عجيب، وفيها غالبًا تنعكس الآية، فيحمي العرب الإنكليز، لا الإنكليز العرب. لذلك هم يستحقون في الأقل المشاهرات. ومنهم «أصدقاؤنا المخلصون المحبون» الذين حازوا من ملك إنكلترا، وإمبراطور الهند لقبًا[٢] أو رتبة ونيشانًا، فتطلَق لهم المدافع ترحيبًا وتوديعًا في عدن.

هذه خطة الإنكليز في عدن والنواحي التسع المحمية، وهي تختلف عن خطتهم في عسير – مثلًا – بعض الاختلاف، ولا تلتئم أساسًا بخطتهم في العراق. وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة، بين عدن وبغداد، مظاهرُ أخرى في المرونة ستراها في الكويت وفي البحرين.

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من أملاك الدولة العثمانية اسمًا، وفي حوزة سلطان لحج فعلًا، وكانت قبل ذلك – أي قبل أن تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن، أو إمام صنعاء – تفاخر المدن

---

[١] كانت سياسة حاكم عدن الأول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة: فرِّق تسد؛ لأن الحكومة أو بالحري إدارة شركة الهند يومئذٍ لم تشأ أن تمده بما يحتاج من الجنود لحماية عدن، فإذا قامت على الإنكليز إحدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة أخرى عليها. «حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية، فلا تضطر إلى جنود بريطانيا». «وإنه وإن كان هدر الدماء مما يؤسف له، فمثل هذه السياسة تفيد الإنكليز في عدن؛ لأنها توسع الثلمة بين القبائل.» هذا ما كتبته إدارة شركة الهند إلى الحاكم هينس، نقله الكرنل جاكوب في كتابه الإنكليزي «ملوك العرب».

[٢] النياشين البريطانية التي تمنح للإنكليز والأجانب في الشرق تنحصر برتبتين K. C. I. E أي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I أي Knight Companion of the Star of India.

بمجدها، والأساكل البحرية بتجارتها. فقد جاءها في سنة ١٧٠٩م بعثة فرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن، يصحبها رجل اسمه لاروك، كتب كتابًا صغيرًا يصف فيه تلك الرحلة[١].

فعرَّفنا هذا الأجنبي بعدن العربية في ذاك الزمان، وبحاكمها الكريم الأخلاق الذي أرسل عندما أبصر مراكب الأجانب رجالًا من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم، وخدامين يحملون إليهم الزاد، والحلوى، والمرطبات.

أقام الفرنسيون في عدن بضعة أسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح اليوم. قد كانت في تلك الأيام عدن العرب والتوحيد، بل عدن الشرق الصميم، الرقيق الجانب، الكريم الخلق، العزيز الشأن.

والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفًا تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذاك الزمان. رأيت الصورة، وقرأت الكتاب، فقلت: أين أرميا ينثر الأشعار في ندب الديار؟ أين سورُكِ الذي كان يطوق الجزيرة يا عدن؟ وأين قصورك تفوق قصور ابن ذي جَدَن؟ وأين حمَّاماتك الجميلة المرصوفة بأنواع الرخام، المزدانة ببقية من عمد الأصنام؟ وأين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء، والمآذن الدقيقة البناء؟ وأين آثار أدبائك وشعرائك، ومن كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك؟ بل أين تلك اللغة اليوم من رطانات وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب إليها؟ بل أين تلك الروح روح قحطان، وتلك المكارم مكارم عدنان، وذاك المظهر الشريف النقي مظهر الوحدة القومية، تزينه الفصاحة والفروسية؟

قلت: إن عدن تلك الأيام كانت عدن العرب والتوحيد. ولا أريد بالتوحيد الدين فقط، بل القومية واللغة أيضًا. أما الوحدة القومية فكان قد تخللها شيء من خليط الهنود الذين هاجروا إلى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل أن احتلها الإنكليز. وكان البُنيان [٢] في عدن يوم جاءتها البعثة الفرنسية، والمسيو لاروك يذكرهم في كتابه، ويقول: إنهم يهود المدينة، أي التجار والصيارفة فيها. وكان العربي اليماني الزيدي يكرمهم، ويتخذ له منهم الأخدان، ويحسن إليهم كل الإحسان، وهو لا يدري أن أبناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب.

أما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيد، مدينة عمومية لا عربية ولا شرقية ولا أوروبية، مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية. هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق، ومن الوجهة التجارية مركز استيراد وتوزيع مهم في البحر العربي، ومن الوجهة البحرية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك مستودع رئيسي للبواخر الإنكليزية في الطريق بين الجزر

[1]Voyage dans l'Arabie Heureues par la Roque.

[٢]بنيا في لغتهم: صاحب حانوت، والبنيان: فينيقيو الهند، كثيرو الأسفار والاتجار.

البريطانية والهند. لا يفوقها سوى جبل طارق والسويس.

إن المدينة تقسم قسمين: عدن الفحم والحصون والسياسة، وتدعى التواهي، وعدن التجارة والموبقات، وتدعى كمب، أي المعسكر. في الأولى وهي على الشاطئ دار الاعتماد، والقنصليات، وبيوت الضباط، والموظفين، والإنزال، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة بأسعار غالية. وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة أميال، في فم البركان، أو ما كان بركانًا في قديم الزمان، وفيها أربعون ألفًا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان. فيها المسلم الذي يصلي إلى الله، والبارسي الذي يصلي إلى الشمس، والبُنيا الذي يصلي إلى الأوثان، والمسيحي مكرم الصور والصلبان، والإسماعيلي صاحبُ صاحبِ الزمان، واليهودي مسبّح الذهب الرنان. وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم، ومن يحرقونهم، ومن يحملونهم إلى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان.

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون، ويربحون ولا يفاخرون. أما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي أم هندية أم أوروبية، وأما أديانهم فهي كالأشجار والأدغال في الغاب، وهم في ظلالها لا يتغيَّرون ولا يتطورون. الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات. قلت: إن يوم زار المسيو لاروك عدنًا لم يكن فيها غير الإسلام وحفنة من اليهود والبُنيان. أما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مائة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان، بسلام وأمان. وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية، تصونه التقية، ويعززه الدينار والقوة، هو مذهب الاحتلال. والتاجر، وطنيًّا كان أو أجنبيًّا، هو دائمًا مع الحكومة، أو بالحري لا يهمه من الحكومة غير الأمن والنظام. ومهما قيل في حكومة عدن البريطانية فالأمن والنظام ركنان فيها ثابتان.

تدعى عدن الثانية المعسكر؛ لأن فيها الثكنات، وقسمًا من جيش الاحتلال. وهي في حلقة من الجبال السحماء، يكلل قننها حصون قديمة مهجورة؛ لأن الإنكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية. أما أشهر ما فيها من الآثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر، فهي أسداد الماء[1]؛ تلك الأسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين، بناءً متينًا محكمًا، محفورًا بعضها في الصخور. سد فوق سد، يصب الواحد مياهه حين يمتلئ في السد تحته، حتى تفضي بعد امتلاء عدة أسداد إلى الخزان الأخير القائم عند سفح الجبلين.

ولكن هذه الأسداد – وهي من أجمل الأعمال الهندسية في العالم – لا تمتلئ لقلة الأمطار إلا مرة أو مرتين كل بضع سنوات.

وفي التواهي – أي عدن السياسة – دائرة أشغال هي أهم من كل ما ذكر هناك. وبين تلك الربى

---

[1] تاريخ هذه الأسداد مجهول. فمن المؤرخين من يقول إنها بنيت في القرن الخامس للمسيح، ومنهم من يعود بها إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح. ومما لا يختلف في أمرها أنها كانت مردومة عند الاحتلال البريطاني فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦، وأنها تسع ثمانين مليون غالون من الماء.

المكللة بالحصون الحديثة، المتصلة بعضها ببعض بوساطة الأنفاق، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب أو بالسياسة. رابية عامرة نيّرة منيرة، بيوتها كلها حديثة هندسة وبناءً، ومهنةُ سكانها أهم من المهن الرسمية كلها.

هي قرية قائمة بذاتها؛ فيها المطعم، والحانة، والنادي، وأسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها. وإليها ومنها تمتد الأسلاك، أسلاك السحر الحديث، سحر العلم والعمل. من الشرق وجزر الشرق الكبيرة، من أستراليا والفيليبين، من أفريقيا وأوروبا، من قارات الأرض تجري أمواج السحر في أسلاك العلم والعمل. فتُهَمْهِم وتطنُّ تحت الماء في أعماق البحار، وتبرق على صدر اليبس، ونورها كامن في السلك، والسلك في القماش، والقماش في القار، والقار في الحديد.

هي أنباء العالم، أنباء التجارة والاجتماع والسياسة، يحملها البرق تحت الأمواج فتصل إلى عدن، تلك الربوة المهمة فيها، إلى مركز البرق هناك. ثم تتوزع منه كما تتموج إليه أمواجًا، فترتبط الأمم الشرقية بالغربية، وتقضي على المسافات في المعاملات والمراسلات، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الرابية شرقًا وجنوبًا، والنصف الآخر غربًا وشمالًا. وهذا السلك هو قوام الاتصال بين الشرق والغرب، بل هو قوام التجارة وأحد أركان المدنية والعمران.

لا شك أن في العالم مراكز برق أكبر من تلك التي في عدن. ولكن ليس في العالم – على ما أظن – أهم منها. اقطع ذاك السلك، أوقف العمل على تلك الرابية، أسكت المائة آلة التي تدندن ليل نهار هناك، فتعود البحار إلى ظلمها القديم، واستبدادها في المسافات، وتمسي قارات العالم القديم كلها – آسيا، وأوروبا، وأفريقيا، وأستراليا – وكل منها في عزلة الجزر أو الجبال، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول أو البخار.

أجل، إن شركة التلغراف في عدن لإحدى أيدي المدنية والعمران. وهناك في تلك الأهرام والركام على شاطئ البحر يدٌ سوداء، ولكنها في العمران بيضاء، هي يد الفحم والبخار، وفوقها وفوق المدينة نور وهَّاج ينير الميناء ليلًا، ويدير حركة البواخر والمراكب بأنواره الملونة. هو ذا ثالوث عدن المادي. عرش البرق على هذه الرابية، وعرش النور على جارتها، وعرش البخار على الشاطئ فوق ركام الفحم العالية. إن فيها كلها حياة يكبر الغربيون أسبابها، ولا يزدريها باطنًا الشرقيون. وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجارة والبحارة! ليطفأ نور تلك المنارة، منارة عدن، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر. لتقفل أبواب شركات الفحم، فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب، وتنقطع إذ ذاك هذه الصلة الحديثة بين القارات كلها.

لا بد إذن من البرق والنور والبخار في عدن، ومن يد تديرها وتحافظ عليها وتحميها. واليد اليوم بريطانية، وقد تكون غدًا يابانية، أو عربية، لكن الغد لله. يهمنا اليوم ويهم العالم أجمع أن تبقى هذه المحطة

الكبيرة، هذه الصلة المهمة، في كنف الأمن والنظام. ولو كان فيَّ ذرة من اليقين أن الإمام يحيى يستطيع أن يقوم مقام البريطانيين لما فضلت أحدًا وطنيًّا كان أو أجنبيًّا عليه. إني آسف أن الروح العربية تقلَّصت في عدن واضمحلَّت، وإنه ليحزنني ويحزنك أيها القارئ العربي – وقد أشرفنا على شيء من مجد غابرها – أن نراها في يد الأجانب. ولكننا في زمان سيده المال، وحاكمه الاقتصاد، ومديره الأول العلم. وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الأكبر.

لنعدل حتى في أنفسنا. لنقل الحق ولو كان علينا، إن عدنًا محطة في طريق العالم، وإن للعالم كله مصلحة فيها. مهما استأثر الإنكليز إذن فهم ولا ريب قائمون ببعض الواجب عليهم، وإن العرب أنفسهم لَينتفعون بحكم فيه الأمن والنظام. على أننا نبغي من الإنكليز أكثر مما يشاهده السائح في اليوم الأول من إقامته في عدن. نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم. نبغي منهم الإنصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني. نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعمير البلد، وصحة أهله في أجسامهم وعقولهم – المحافظة على شيء من الروح العربية – مدارس تعلم الناشئة لغتهم وآداب بلادهم – ماءً يصلح للشرب[1]. مضى على الإنكليز في عدن خمس وثمانون سنة، وهم لا يزالون يستخدمون الإنسان والقربة لرش الأسواق.

قلت الإنصاف، وهاك مثالًا واحدًا من آفاته: في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالأوراق المالية والنقود، ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع لمصرف الهند – البريطاني – المشهور، وهذا المصرف لأنه الوحيد يستبدُّ بالتجار استبدادًا يعرقل التجارة، ويضعف أسبابها. قد شكا كثيرون منهم الأمر إلى القناصل علَّ مصرفًا أميركيًّا أو فرنسيًّا أو إيطاليًّا يفتح له فرعًا هناك؛ فيخفف بالمناظرة استبداد واستئثار مصرف الهند. ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية، ولحكومة عدن ولا ريب يد فيها.

إني لا أرى عذرًا لمثل هذا الاستئثار الذي يعدُّ صغارة في الاستعمار. بيد أن من العدل ألا أفرد الإنكليز بالذنب، وأخصهم دون سواهم بالتثريب. فالفرنسيون في جيبوتي مثلًا، والإيطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الإنكليز في عدن. قد لا تجد تاجرًا واحدًا إنكليزيًّا أو إيطاليًّا في جيبوتي، فكيف بمصرف غير فرنسي؟ وقد لا تجد عاملًا فرنسيًّا أو إنكليزيًّا في مصوع، فكيف بمصرف غير إيطالي؟ إن هذه الروح الأوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار، وإن شئت فقل روح الاستئثار والاحتكار، لمن أول أسباب الانحطاط الأوروبي في الشرق. فإذا كنت لا تطيق أخاك الأوروبي مزاحمًا، إذا كنت تضن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة، فكيف تطيق الوطني أو تحسن به الظن في الأقل؟ وبأي حق – والحال هذه

---

[1] المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم. والماء وهو مالح يجر من بئر في الشيخ عثمان، ويوزع ببراميل تجرها الجمال. والطرق وهي دائمًا في حاجة إلى الإصلاح والإنارة لا تزال على الطريقة القديمة. أما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال (هارولد جاكوب في كتابه «ملوك العرب»).

– تطلب منه الثقة والاحترام؟ إني مخلص لك أيها الأخ الأوروبي في ما أقول. قد يطيعك الشرقي ويخدمك، ويكون لك جاسوسًا على أخيه، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك. وليس هو وحده المسئول الملوم. عد إلى نفسك أيها الأخ الأوروبي، وفكر فيما أقول؛ إني أبغي لك ولابن الشرق خيرًا في بلاده مشتركًا، متبادلًا، متساويًا.

لكن روحك أيها المستعمر لا تعجب المنصفين من الأمتين. كأني أسمعك تقول: جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمَّرناها، وليس لغيرنا الحق أن ينتفع منها وفيها انتفاعنا. هذه هي روح الاستعمار الأوروبي في عدن، وفي جيبوتي، وفي مصوع، وقل إن شئت في الهند، وفي الجزائر، وفي طرابلس الغرب، وهي الروح التي تفسد على الشرقي أهم مظاهر الحكم الغربي، أي الإدارة والنظام، فحبذا الحكمة في أطماعهم تلطفها، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة. لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون. ولكني أهاب على الأوروبيين من يوم يعم فيه البلاء؛ فينهض الشرق – الشرق العاقل، والشرق المجنون، الشرق المتعصب، والشرق المتساهل – ينهض نهضة واحدة على المدنية الأوروبية كلها؛ بحذافيرها؛ لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها، غير الشره والشهوات، والاستئثار والمنكرات. بودي قبل أن تأزف تلك الساعة أن يعدل الأوروبي، ويعقل الشرقي، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان، وينتفع الواحد من الآخر.

قلت: إن الأمن والنظام في عدن ركنان ثابتان، ولا شك أن البريطانيين قد بذلوا في سبيلهما قسطًا من القوة جسيمًا، ومثله من السياسة والدهاء، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس أكرم منهم فيها. بيد أن احتلالهم عدن واستيلاءهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والخداع.

قد علموا عند احتلالهم عدن بأنه يجب لحمايتها جيش كبير يقيم فيها. ولكن إدارة شركة الهند يومئذ فضَّلت تلك الخطة التي تقدَّم الكلام عليها، ثم عندما تسلَّمت الحكومة البريطانية زمام الأمور في الهند، استخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن، ورأت أنها تحتاج إلى قوات بحرية وبرية ترابط فيها. وقد تعجز مع ذلك عن الحماية إذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع تصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من جهات ثلاث: من الشرق، والغرب، والشمال، ويحاربون كالقرود، ويعتصمون بالجبال. فاتخذت لذلك سياسة لينٍ تدعمه الشدة، وباشرت المفاوضات، وابتاعت من الأراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ أخذه بالقوة. فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه، وهو خط يمتد من الغدير على البحر غربًا إلى دار الأمير شمالًا، ومنها شرقًا بشمال إلى أم العُمُد بحرًا. ثم أقامت في هذه المنطقة البريطانية الاستحكامات العسكرية، ونقلت إليها الجنود من الهند، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها، من الصُّبَيْحة والحواشب واليوافع وغيرهم.

فما العمل إذن؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن آلاف الجنيهات يوميًّا إذا فرضنا أنه يتعين علينا أن نقيم فيها دائمًا عشرة آلاف جندي. وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظنناها درعًا منيعًا آلافًا أُخَر. ولكني أقف عند حد في النفقات لا يتجاوز إلا القليل من هذه القيمة كل يوم، وأفترض أن الحكومة البريطانية تستطيع بذلك أن تدوّخ العُربان وتؤدبهم، وتستولي على بلادهم، فتدخلها في منطقة الاحتلال. ولكنها تضطر عندئذ أن تضاعف قواتها العسكرية، فتتضاعف النفقات؛ لتدفع عن هذه المقاطعات غارات عرب الجبال من زيود وشوافع شرقًا وشمالًا. النتيجة: إننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والأخطار. فالولاء إذن خير من العداء. على أن لا بد لنا من قوة نرهب بها أولًا من نبغي ولاءه، فإذا كسرنا هذا الأمير، ونكَّلْنا بذاك الشيخ، ثم صافحنا والينا وبذلنا المال مشاهرات، كان لنا من الصداقة والإذعان ما نريد.

وكذلك كان. مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها إنكلترا بكثير من المال والرجال. حاربت القبائل، ثم عاهدت أمراءهم واحدًا واحدًا. ضربتهم، وفرَّقتهم، وأقامت الحدود بينهم، ورفعتهم إلى مقام السلاطين، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية. وما هي تلك المشاهرات بالنسبة إلى نفقات الحرب والدفاع؟

إليك جدول الحساب الآخر. في المنطقة المحمية تسع ولايات، أو إمارات، أو سلطنات. فلو فرضنا أن كل أمير يتقاضى الإنكليز أربعمائة روبية كل شهر — وهي أكبر المشاهرات، إذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج — وأن في كل إمارة زعماء، رجال الأمير أو أعداءه، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة، فيبلغ ما تدفع عن ولاء الأمراء التسعة ورجالهم سبعة أو ثمانية آلاف روبية كل شهر، أي خمسمائة ليرة إنكليزية. وإذا فرضنا أن في الافتراضين، أي حساب الجيش، وحساب الأمراء، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها. إن النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير، عشرون ألف جندي للدفاع يقوم مقامهم عشرة أمراء أو سلاطين. هذه هي النسبة الأساسية. مَن الكاسب إذن؟ أمن يدفع المشاهرات أم من يقبضها؟

إنها من الإنكليز سياسة العزم، تتلوها سياسة الحكمة، أي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الأشغال. فهم لا مراء تجار لا يبارون، كما أنهم ساسة محنكون. فإذا خيِّروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو. إنها إذا اعتبرنا مصلحة بريطانيا أولًا، ثم العالم الذي تهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية، لكانت النتيجة صفقة غانمة. أما إذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الأسف والغم؛ لأنهم الخاسرون في كل حال، الخاسرون وإن تضاعفت الأموال.

(٣) من أجل شركة الهند

لا يزال أولو العلم يذكرون — برغم عاديات الحرب الكبرى وذاريات مؤتمر لوزان — تلك المسألة المشئومة في سياسة أوروبا والشرق الأدنى التي تعثر في أذيالها أكبر السياسيين، بل تحطمت في طواحينها أكبر

الأحلام، وأفسدت في ظلالها أحسن المقاصد والنيات، فكان انتفاع كل أمة منها وبسببها بالنسبة إلى ما أفادت به من الشرف والوجدان. ألا وهي المسألة الشرقية. ولا يزال أولو العلم والإنصاف يذكرون كذلك، برغم انقلابات كان للدهر فيها اليد الكبرى – قلت الدهر، وأريد الحوادث التي تسيطر على الرجال والأمم – وبرغم صيحات الهند التي اختلطت فيها أصوات «الخلافة» بأصوات الـ «صَوارَج»[1]، وبرغم تهاليل في أنقرة والأستانة، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر الديك «الغالي» فيها الأسد البريطاني، إن بريطانيا في مقدمة الدول، وأحيانًا وحدها كانت تدافع دائمًا عن سلامة الدولة العثمانية. ولم يكن دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة، بل كان يتجاوزها إلى السيف والمدفع والأموال. بيد أنه لم يكن مجانًا لوجه الله.

ليس القصد من هذه الكلمة أن أجدد ذكر تلك المسألة السياسية الخطيرة التي يظن الناس أنْ قد حل عُقَدها مؤتمر لوزان. وإنما قصدي أن أعود بالقارئ إلى تسعين سنة مضت، فأقص عليه قصة تتعلق بعدن، وبشركة الهند الشرقية، وبدفاع بريطانيا عن الدولة العثمانية.

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة وبريطانيا في تلك الأيام أن محمد علي باشا بوساطة ابنه إبراهيم كان قد استولى على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيرًا، وتهامة، وجزءًا من اليمن. فسعت الدولة أن تخرجه من هذه الأقطار فلم تفلح.

ورأت بريطانيا أن مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم مع مصالحها، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالهند، وبشركة الهند الشرقية، فامتشقت الحسام، أو بالحري حركت الأسطول دفاعًا عن الدولة، وكانت هي العامل الأكبر في إخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحابهم من اليمن.

ثم عقد مؤتمر لندن، فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تُفضِي إلى الحرب بين فرنسا وبريطانيا، أعيدت بموجبها سوريا إلى الدولة العلية، وأثبت محمد علي في ولاية مصر. ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذاك المؤتمر السياسة الفرنسية التي كانت تخشى مقاصد الإنكليز الخفية. لم تكن تلك المقاصد يومئذ غيرها اليوم، وقد كشف الزمان عنها الحجاب، وحققت بعضها الحوادث. فها قد انفتحت طريق البر من مصر إلى سوريا، فالعراق، فالهند.

أما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة، فهي طريق البحر. وقد كانت بريطانيا في تلك الأيام، أيام البخار الأولى، تفتش عن مكان في البحر الأحمر أو البحر العربي يصلح لأن يكون مستودعًا للفحم؛ لتموين البواخر في طريقها إلى الهند ومنها. فرأى رجال شركة الهند الشرقية أن عدن أصلح مكان لهذه الغاية، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها، ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة أن يرفعوا فوق قلاعها العلم

[1] صوارج كلمة هندية يراد بها الاستقلال الداخلي، أو ما يدعى بالإنكليزية Home Rule.

البريطاني.

وكان إبراهيم باشا وهو في تهامة يبغيها كذلك، ويخابر سلطان لحج بخصوصها. أوجس الإنكليز خوفًا من إبراهيم، فاقترنت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين.

كتب رئيس الوزارة البريطانية يومئذ اللورد بالمرستون إلى مُحَّد علي باشا سنة ١٨٣٨ يقول إن لا حق له في البلاد العربية، فيجب أن يسحب جنوده منها. ثم عقد معاهدة مع الدولة تخوِّل الإنكليز الاتجار في الممالك العثمانية، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزًا تجاريًّا في تلك الأنحاء، على أنهم كانوا يبغونها مستودعًا للفحم كما قلت. وما هي أهميتها للدولة في كلا الحالين؟ عدن، أين هي عدن؟ وراء ثلاثة بحار، في آخر البلاد العربية، تبعد ألوف الأميال عن الأستانة، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها.

منح السلطان عبد المجيد الفرمان. ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلن أن السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب، وأن الفرمان وحده لا يكفي، فينبغي للاحتلال حادث يتذرعون به. كانت المراكب البريطانية تمر في تلك الأيام بعدن للمتاجرة، فحدث ذات يوم أن مركبًا شراعيًّا غرق هناك، فسطا عليه العرب ونهبوه، فبعثت إدارة الشركة القبطان هينس على مركب حربي في ثلاثمائة من الجنود يطلب التعويض، فجاء إلى عدن وفاوض السلطان، سلطان لحج، الذي كان مقيمًا فيها، فأبى سموه، فاحتج الإنكليزي بالفرمان، فاستشاط السلطان العربي غيظًا. ومن هو سلطان العثمانيين؟ وهل يهب بلادًا ليست له؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك٢ سنة ١٨٣٩، فأمر السلطان الحامية بالدفاع، فحدث قتال لم يدم طويلًا، سلَّم العرب، ولكن سلطان لحج في ازدرائه الخط الهمايوني، ومقاومة الفاتحين تمكَّن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه، وقطع الإنكليز معه عهدًا بأن يدفعوا له تعويضًا عن الاحتلال ستة آلاف ريال مسانهة، كانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مائة ألف روبية.

احتلَّ الإنكليز باسم شركة الهند الشرقية قسمًا من عدن يدعى التواهي، ولم تكن يومئذ غير أعشاش لصيادي السمك، لا يتجاوز سكانها الستمائة نفس. وظل السلطان مقيمًا فيها مدة قصيرة، ثم تراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانيا، فحدث قتال ثانٍ كان للإنكليز رغبة فيه – يقول عرب عدن: كادَ الإنكليزُ كيدَهم المعروف – فانتصروا على العبادلة، أي قبيلة السلطان، وأخرجوهم من التواهي، واستولوا على عدن استيلاءً تامًّا. منذ ذاك الحين لم يأذنوا لسلطانهم أن يكون له في عدن بيت ولو صغيرًا، ثم جددت المعاهدة التي من شروطها:

- أن يعترف السلطان بسيادة الإنكليز، ويقبل حمايتهم في مملكته.
- أن تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالًا تامًّا.
- أن تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأسًا دون تدخل الإنكليز. «قد كان هذا التدخل أحد

أسباب الخلاف بين الفريقين».

- أن يكون له الحق بأن يصدر ما شاء من القوانين في بلاده.
- ألَّا يعقد معاهدات مع الأجانب (أمراء العرب لا يعدون من الأجانب)[1].
- أن يكون له راية خاصة وجند، وحق بمنح الألقاب والرتب.
- أن تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين، وأن يكون ما بعدها بما فيها بلدة الشيخ عثمان من أملاك سلطنة لحج.
- ألَّا يجوز لأجنبي التملك في لحج أو الدخول إليها بدون إذن من السلطان تعطيه الحكومة البريطانية.

الخط تحت الكلمات الأخيرة مني لألفت النظر إليه خصوصًا، تأملها ترى أن فيها مثالًا للقاعدة المرنة في السياسة، لم يقل الإنكليز: بدون إذن تعطيه الحكومة البريطانية، وهي حقيقة الحال؛ لأنهم يتحاشون أن يمسوا كرامة السلطان، فمطوا البند ليبرر السيادتين ويرضي الفريقين.

أنت يا صاحب السمو صاحب الأمر، ولكننا نحن خدامك نتولى أمره، نتوكل عنك في إعطاء الإذن. وهو للآن كذلك. إذا وصل السائح إلى عدن، وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه أن يقوم بواجبين: أولهما: أن يكتب كتابًا إلى سموه يستأذن بالزيارة، والثاني: أن يطلب الإذن من دار الاعتماد. فإذا كان هناك من مانع يعلمون سموه بذلك، ويرفضون الإذن عنه. وإلا فيمنحونه ويحددون مداه ومدته، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم فيها غير أيام معدودة.

أشرت في الفصل السابق إلى صعوبة الدفاع عن عدن إذا كانت وحدها البلدة المحتلة ما لم تخصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات، وإذ ذاك تضطرها الحاجة إلى مكان يقيم الجنود فيه. وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن، فتطلعوا إلى بضعة أميال شمالًا، وفيها بلدة الشيخ عثمان، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم. قالوا: نشتريها، فقال: لا.

لجأت إذ ذاك دار الاعتماد إلى وسائل لا تحللها الحكومة البريطانية في بلادها. كان للسلطان شقيق يحب المال أكثر من حبه الشيخ عثمان، وكانت لهذا العبدلي يد في إدارة أمور السلطنة، معززة بثقة أخيه، فتقرب الإنكليز منه، وتم سنة ١٨٨٢ الاتفاق بينهم وبينه سرًّا على التنازل عن الشيخ عثمان مقابل مبلغ قدره عشرون ألف ريال (أربعون ألف روبية)؛ أي ألفان وخمسمائة ذهب إنكليزي. فأمضى صك البيع بالنيابة عن أخيه السلطان، فعدَّه الإنكليز صكًّا شرعيًّا، وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية،

[1] قد تدرجوا من هذه القاعدة إلى قاعدة أعم، فصار الأمير العربي لا يستطيع أن يعقد مع أمير عربي آخر معاهدة دون أن يستشير ويستأذن حكومة «جلالة الملك».

وهي على مسافة عشرة أميال من عدن.

أما السلطان فلما علم بالأمر طرد أخاه من البلاد، وصادر أملاكه، وحرمه حقوقه في الأسرة المالكة. ولكن ذلك لم يؤثر في خطة الإنكليز وسياستهم. دخلوا الشيخ عثمان، وأقاموا فيها حامية قوية لم يستطع السلطان ولا خلفاؤه أن يقاوموها. ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعًا، فرَضُوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم، وعقدوا معاهدة جديدة مع الإنكليز قبلوا فيها أن تكون دار الأمير، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان، الحدود الفاصلة بين لحج والحكومة المحتلة.

ومنذ ذاك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن إلى توسيع الحدود مرة أخرى، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الأمير.

أما الشيخ عثمان فقد أصبحت بلدة عامرة بالعساكر الهندية والحانات، وبالصوماليات السافرات، وبأنواع الموبقات. وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر، وبساتين أغنياء عدن، وجنينة حيوانات سكانها غزال، وقنفذة، وسعدان.

(٤) سلاطين لحج

في سنة ١٧٠٩، عندما جاءت البعثة الفرنسية إلى اليمن، كان حاكم عدن مستقلًا عن إمام صنعاء. وبعد ست وعشرين سنة من ذاك الحين استولى على عدن أول سلطان من سلاطين لحج. كان هذا الرجل قائدًا من قواد الزيود، طامعًا بالسيادة والمجد، متساهلًا على ما يظهر في الأمور الدينية. أقامه إمام صنعاء عاملًا على اليمن الأسفل، فتوسع بالإجازة الإمامية، وأقام نفسه حاكمًا مطلقًا مستقلًا، بل أقام نفسه سلطانًا. وبما أن عرب البلاد التي استولى عليها من الشوافع، فلا يعززون حاكمًا زيديًا ولو أطاعوه، نبذ من أجلهم وفي سبيل مطامعه مذهب أجداده، واتخذ المذهب الشافعي صراطًا إلى النجاح قويمًا. وهو مؤسس سلطنة لحج.

ثم خلفه في الحكم أمراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة، وبحبهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة، وموضوع اهتمام سلاطينها. والعبادلة من اليمن الأعلى، زيديو الأصل كما تبين يمتون بنسبهم إلى عرب حمدان.

من سلاطين لحج أربعة مشهورون: أولهم محسن بن فضل الذي احتل الإنكليز عدن في عهده. وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ أول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان أحمد، فاستمرت مرعية إلى سنة ١٨٢٧، فنقضها السلطان محسن. ولكنه غُلب في نهاية أمره، فاضطر أن يعقد وإياهم معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما أوضحت في الفصل السابق. ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا نرى لهما غير الأثر

الضئيل في المعاهدات الحديثة، أولهما: ألّا يحق للأجنبي، وإن كان موظفًا بريطانيًا في حكومة عدن، أن يدخل إلى لحج بدون إذن من سلطانها، والثاني: أنَّ من يرتكب جرمًا من البريطانيين أو من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها.

قبل الإنكليز في البداءة بهذين البندين، ثم سعوا في توسيع سيطرتهم شيئًا فشيئًا، فعدلوا البند الأول بل نقضوه بإضافتهم إليه تلك العبارة الاعتمادية، فقالوا: لا يحق لأجنبي أن يدخل إلى لحج بدون إذن سلطانها، والإذن يطلب من دار الاعتماد بعدن. وقد أسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي، فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الأجانب.

كان السلطان محسن غيورًا على استقلاله، توّاقًا إلى السيادة الواسعة النطاق، محسنًا إلى العشائر، محبًّا للعلم والعلماء. ولكنه كان متقلبًا في سياسته، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يومًا واحدًا في مقاصد الإنكليز. غلبوه أولًا وثانيًا في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا التواهي، وفي السنة التالية عندما حاول أن يخرجهم منها، فدارت عليه الدوائر، وكان هو من الظاعنين. أخرجوه من عدن، ولم يأذنوا بأن يكون له بعدئذ بيت فيها، ولا أذنوا بذلك لأحد من خلفائه.

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوئ الإنكليز، ولا همَّه ظاهرًا أمرهم، بل ولَّى وجهه الشمال والغرب، فسعى أن يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها. هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي. وقد كان مقدامًا حكيمًا، يقرن البطش بأصالة الرأي، ويرى – وهو أمي – أن لا عز للملك بغير الثروة، ولا ثروة بغير الزراعة، ولا زراعة بغير الأمن والعدل. فسعى في سبيلها كلها سعيًا شريفًا. امتشق الحسام وكان منتصرًا في غزواته كلها، فاستولى على الحواشب، ومكّن نفوذ العبادلة في العشائر، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الإنكليز وإعجابهم، ولكنهم غلبوه بسياسة اللين، بالقاعدة المرنة، فأعاد إلى سلطان الحواشب ملكه بعد أن استولي عليه بضع سنين، فاستحكمت بعدئذ العلائق بينه وبين عدن والمسيْمير[1]. حكم السلطان فضل ثلاثين سنة، وكان في حكمه عادلًا حكيمًا، فسَنَّ شرائع لا تزال حتى اليوم مرعيَّة تتعلق بالزراعة، وبإدارة الأوقاف، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض.

أما خلفه السلطان أحمد بن فضل بن محسن قرين السلطان محسن في الذكاء، وحب العلم والعلماء، فقد كان أشد حنكة ودهاءً من أسلافه، ولكنه لم يكن مثلهم كريمًا، احترمه البريطانيون ظاهرًا، وتعمَّدوا في معاملته ما كان من خلقه أي التكتم والمواربة.

وقد كان بين السلطان أحمد والإمام المنصور والد الإمام يحيى صلة ولاء أدت إلى اتفاق سري بينهما،

[1] المسيمير: هي عاصمة سلطنة الحواشب.

من شأنه مقاومة الترك والنزعة التركية في اليمن. ولم يقف السلطان أحمد عند هذا الحد في مناوأته الأتراك، بل مد يد الولاء والعون إلى السيد الإدريسي، فكان سرًّا عضدًا له في عسير، وأرسل إلى الشريف حسين – وهو يومئذٍ أمير مكة – دعوةً للانضمام إليهم أو الكف في الأقل عن مساعدة الأتراك على إمام صبيا وجيزان[1].

هو ذا السلطان أحمد عدو الترك، وأول من سعى على ما أعلم في سبيل الوحدة العربية. فقد دعا أمراء العرب إلى مؤتمر عام يعقد في إحدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الأمة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها. ولكنه بعد أن أرسل منشوره إلى الأمراء، عدل عن عمله لأسباب مجهولة. وقد تكون الحرب التركية الإيطالية أحد تلك الأسباب؛ لأنه تغير في سياسته وفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيرًا سريعًا مفاجئًا.

كلما جئت على ذكر الأتراك في البلاد العربية أراني مُكْبِرًا السيد محمد الإدريسي وثباته في مبدئه وجهاده؛ فقد كان الإمام يحيى عدو الأتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى. وكذلك كان سلطان لحج السلطان أحمد بن فضل، فتحول في الحرب التركية الإيطالية عن سياسته ومبادئه، كأنه لم يسعَ سرًّا وجهرًا في تقويض السيادة التركية في البلاد العربية. وقد كان من أمراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال أيضًا، فدُعِيَ لذلك إلى مصر ليقابل مندوبها السامي رءوف باشا، فلبى الدعوة، وعاد من القاهرة يحمل وسامًا من أوسمة الدولة، ويحمل غراسًا من أرض الفراعنة.

إن للسلطان أحمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج؛ فقد جلب الأغراس من مصر ومن الهند. وكان في اهتمامه بها مثالًا للفلاح عاليًا. وقد كان شغفًا كذلك بالأوسمة، فصكَّ منها باسمه، وشرع يمنحها الناس من عرب وهنود وإنكليز. ثم باشر تنظيم المالية والجمرك، فسَنَّ قوانين عديدة، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى. لا مرية في القول إنه كان سلطانًا كبيرًا ذا همة قعساء، وذكاء ودهاء. هو السلطان الزراع السياسي، محب الأبهة والأشجار الغريبة. ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها.

وما كان في خلفه ما يومئ إلى التوفيق والتحسين من هذا القبيل.

كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلًا ورعًا تقيًّا، يحترم علماء الدين والسادة الأشراف احترامًا جزيلًا، ولم يكن له إرادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة. ولكنه لم يهتم لإدارة الملك، فاتَّكل في ذلك على ابن عمه محسن بن فضل شقيق السلطان الحالي.

---

[1] كان الإدريسي في تلك الأيام خارجًا على الدولة، ومهددًا بمؤامرة تركية شريفية زيدية. فسعى السلطان أحمد أن يقاومها ويدفعها باتفاق أو حلف عربي فلم يفز بذلك. جاء عزت باشا إلى الحجاز في آذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الإدريسي، فأنجده بحملة يقودها نجلاه الأميران عبد الله وفيصل. وكتب إلى السلطان أحمد يستنصره على عدو الدولة، ويسأله أن يسعى في سبيل الصلح بينها وبين الإمام يحيى. ولكن سياسة السلطان أحمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين.

كان السلطان محسن[1] أديبًا ذكيَّ الفؤاد، عصريًّا في آرائه وأعماله، محبًّا للإصلاح والعمران، عالي الهمة، بعيد النظر، شديد البأس، ثابت العزم والإرادة. فباشر في أيامه القصيرة إصلاحات كثيرة في الجندية والمالية والمعارف، ولكن الأقدار لم تشأ أن يكملها بنفسه، فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعًا. إن مثله من أمراء العرب الشديدي النزعة إلى القومية العربية، الراغبين في تعليم الناشئة على الأسلوب الحديث، الساعين في تحقيق آمالهم الوطنية العالية، ليؤسَف على موتهم في ريعان الشباب. وقد وقف السلطان محسن ثروته على إنشاء مدرسة عصرية، ومستشفى، وصيدلية في الحوطة، فتأسست المدرسة، وسيتم قريبًا بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي.

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه وأخلاقه، ولا أقول في ملابسه التي هي هندية أوروبية. أما ملامحه العربية فمثل أخلاقه وحديثه لا غبار عليها. هو نحيل الجسم، مستطيل الوجه، دقيق الأنف، غائر العين، عصبي المزاج، وفي الخامسة والأربعين من العمر. لكنه يظهر أكبر من ذلك؛ لما في وجهه من تجعُّد وقتام، ولما قاساه أثناء الحرب من الشدة والأحزان. وهو مثل أخيه الباسل، وأبيه سلطان لحج الكبير، يكره النفوذ الأجنبي، ويسعى سعيًا هادئًا سلميًّا في مقاومته وتقويضه. ولا عجب إذا كان من مساعيه أن يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل أبوه فأضاعها من خلفه.

على أن السلطان عبد الكريم يفتقر إلى شيء من شدة أبيه وطموحه، ومن نشاط أخيه وعزمه. فهو — والحق يقال — أقرب إلى الأدب والزراعة منه إلى السياسة والإدارة. له ذوق في الموسيقى، ويحسن بعض الإحسان العزف على البيانو، وله رغبة في المطالعة، فيهتم خصوصًا بتاريخ العرب والإسلام. وهو مثل السلطان أحمد شغف بالزراعة، يقضي ساعات من يومه في بساتينه؛ لذلك قيل فيه على ما أظن إنه قليل الاكتراث، ضعيف الإرادة. وقد يتخلل عزمه — وهو عصبي المزاج — فترات يسيء الناس فهم أسبابها ونتائجها.

ومن مزاياه أنه يحترم الرأي، والحرية الفكرية في الناس. أما علاقته مع البريطانيين، فالمداراة أظهر ما فيها. على أن له في دار الاعتماد مقامًا محترمًا، وكلمة مسموعة، فيستشيره أولو الأمر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر وأحوال البلاد الداخلية.

إن في لحج نهضة في التعليم تذكر، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية، سيدتهم معنويًّا وسياسيًّا أيضًا. فإن أم السلطان عبد الكريم من اليوافع، وبينه وبين العوالق ولاء وثيق العرى، وله على الصُّبَيحة والحواشب سيادة لا بد أن تمتد إلى سواهما.

---

[1] كل أعضاء الأسرة المالكة يلقَّبون بالسلاطين، وهم يدعون السلطان الأكبر «الوالد المالك والسلطان المعان».

أما الإمارة في لحج، وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا إرثية؛ لذلك تقدم السلطان عبد الكريم اثنان من إخوته بعد موت أبيه السلطان فضل. ولكن الانتخاب، أي المبايعة هي من قبل الخاصة، فالمبايعون هم العقال[1]، أي حكام النواحي الذين يعينهم السلطان، فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز أن يكون من غير الأسرة المالكة.

إن ولي العهد وهو يُنتخب في عهد السلطان الحاكم يصبح منذ ذاك الحين مقيدًا بالسياستين: سياسة لحج، وسياسة عدن، ورهين الإرادتين: إرادة المعتمد، وإرادة السلطان التي قد تكون – وإن كانت وطنية – جائرة مثل الأولى. هو ذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها. لا أقول إن الإنكليز اخترعوا هذه الطريقة في الإرث، ووضعوا قواعدها، ولكنهم – ولا شك – ينتفعون بها للتدخل في شئون البلاد.

حبذا لو ساعدوا في تغيير هذه الطريقة؛ فيكتسبوا حب الناشئة العربية الراقية، وثقة أولياء الأمر في البلاد، ولا أظنهم يفقدون في ذلك شيئًا من حقوقهم الشرعية أو من نفوذهم الصالح المفيد. أما غير ذلك من حق أو نفوذ فهو يضرُّ بهم أكثر من ضرره بالعرب. أجل، إن الحقيقة البليغة الرائعة التي يجب أن تتدبرها اليوم وزارة المستعمرات بلندن هي هذه: كلما قلَّ تدخُّل بريطانيا في شئون الأمراء الوطنية والخاصة تعزَّز مركزها لديهم. أو بالأحرى كلما امتنعوا – حكمة ونزاهة – عن مد يدهم إلى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود، ولا أظنهم يبغون أكثر من ذلك.

(٥) لحج في الحرب العظمى

في باب المندب، على مقربة من رأس البر اليمني، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية أثناء الحرب، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهمهم امتيازات النفط والمعادن.

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الإمام يحيى بن حميد الدين، وقد كانت أثناء الحرب في يد الأتراك، تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة. وعندما انضمت الدولة العثمانية إلى الدول الوسطى، وشهرت السيف على الحلفاء، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن، فلما علم بذلك الإنكليز أوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند إلى السويس، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات فيها. ولكنهم لم يستطيعوا –

[1] حاكم الولاية يدعى في اليمن عاملًا وفي نجد أميرًا، وفي هذه النواحي عاقلًا.

لشدة الأنواء – النزول إلى الجزيرة، فنزلوا إلى البر[1] قريبًا منها في حمى مدافع السفن الحربية، فتقهقر العدو إلى داخل البلاد. ثم دمر الإنكليز قلعة ترْبه وغيرها من الحصون في تلك الناحية، وغنموا بعض المدافع؛ فظنوا أنهم أوقفوا الأتراك في الزحف على عدن. نعم، أوقفوهم سبعة أشهر، وبعدها أعادوا الكرَّة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلُّوها، ومشت جنودهم من ماوية إلى لحج تقصد الهجوم على عدن.

وكانت السلطة البريطانية فيها قد احتاطت للأمر بما لديها من قوات الدفاع القليلة، فأمرت بنقل الحامية من عدن إلى الشيخ عثمان ثم بالتقدم إلى لحج. جاء في التقارير الرسمية: «إن شدة الحر، وقلة الماء، وفرار الهجانة المأجورين أخرت الجنود في الطريق، وحالت دون الغاية المقصودة».

على أن طليعة الجيش البريطاني وصلت مع ذلك إلى محجَّتها في ذاك اليوم، ونازلت الأتراك خارج لحج قبل أن تصل الجنود إليها، فدارت الدائرة على البريطانيين؛ فتقهقروا عن لحج مهزومين، فدمرها الأتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها، ثم زحفوا على الشيخ عثمان، فاحتلوها في اليوم التالي.

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ إلى عدن أخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز، فعادوا إلى لحج، وتحصنوا فيها، وظلت شرذمات منهم في أم العُمُد والوَهط، فحاول الإنكليز مرارًا أن يخرجوهم منهما فلم يتمكَّنوا إلا بعد أن أنجدتهم عشائر العرب التي استنجدوها. ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ أن يخرجوا الأتراك من لحج. فظلوا فيها إلى نهاية الحرب.

هذا ما وصل بالطرق الرسمية إلى الدوائر الحربية في الغرب من أخبار تلك الزاوية العربية القصية، وليس فيه كلمة عن نكبة لحج، وعما حل بالأسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانيا. فجئت أروي الخبر كما سمعته وتحققته من مصادر شتى هناك.

في السنة الثانية من الحرب، أي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثين طابورًا، أي نحو خمسة عشر ألف جندي، أكثرهم من السوريين. وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الأمير لواء علي سعيد باشا الجركسي الذي سعى أن يضيف إليه قوة من العربان. كان علي سعيد باشا كريم الأخلاق جوادًا، فأحبه العرب، وانضم إلى جيشه بضعة آلاف من الحواشب، واليوافع، والصبيحة[2]؛ فعول على مهاجمة عدن، ولم يكن قصده غير إشغال البريطانيين هناك. وبما أن لحج – وهي في طريقه – سلطنة

[1] قد أغضب هذا الاعتداء الإمام يحيى فاحتج عليه، فكتب إليه الكرنل جاكوب المعاون الأول يومئذٍ في دار الاعتماد يقول: إن الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد، وأن ليس لهم في ذلك قصد خفي أو سياسي، وأن جلاءهم قريبًا عن تلك الناحية يثبت ما يقول (ملوك العرب لجاكوب).

[2] وقد كتب إلى الإمام يحيى يطلب منه المساعدة فلم يلبِّ الإمام طلبه. بل إن الإمام — كما قال علي سعيد باشا — عندما سلم إلى الإنكليز: كان يعارض رأيه في الزحف على عدن.

مستقلة بعث إلى سلطانها يستأذنه بالمرور، ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه؛ فأبى السلطان علي لأنه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها. ما أشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبلجيك وأهلها: ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون.

خرجت جيوش علي سعيد باشا من ماوية، وسقطت على لحج، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاورة فأنجدوه، وخرجوا وهم بضعة آلاف يلاقون الأتراك، وهم ضِعْفاهم عددًا، وأضعافهم عدة. فاصطدم الجيشان قرب الدكيم، على مسافة عشرة أميال من لحج، فانهزم اللحجيون.

ولذلك أسباب ثلاثة: لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل، لم يكونوا على شيء من النظام، لم تصلهم النجدة من الإنكليز إلا بعد الهزيمة. وقد جاء في التقارير الرسمية أن لإبطاء تلك النجدة ثلاثة أسباب أيضًا، ولكن هناك سببًا آخر غير القيظ، وقلة الماء، وفرار الهجانة، فقد سمعت في عدن أن الجنود الهندية عصوا يومئذ ضباطهم؛ لأنهم كرهوا أن يحاربوا إخوانهم المسلمين. والحقيقة التي لا ريب فيها أنهم أبطئوا في الإنجاد ثم انهزموا.

عندما دخل الأتراك لحج كان السلطان علي وأسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن أنفسهم، فاضطروا أن يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تخترقها القنابل، فبادروا في الغسق إلى الفرار ووِجْهَتهم الشيخ عثمان. أما الجنود البريطانية، فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين، فالتقوا بالسلطان وأسرته تحت جنح الظلام، فظنوهم من كشافة العدو، فأطلقوا عليهم النار، فقتلوا عددًا منهم، وأصيب السلطان علي برصاصة في رجله، فنقل إلى عدن وتوفي من أثر الجرح هناك[1].

دخل الأتراك إلى لحج فدمروا قصور السلاطين، ونكلوا بأهل المدينة، ففر إلى عدن من سلم من الأسرة المالكة وكثيرون من الأهالي. وعندما خلَّف السلطان عبد الكريم السلطان عليًّا كان من أول أعماله أنه احتج احتجاجًا شديدًا على بريطانيا؛ لأنها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين أجداده، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج، وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها.

أقام السلطان والأسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم، في حين أن أملاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الأتراك يتمتعون بها وبخيراتها. حتى أصبح هؤلاء في غنى عن الإمداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن. بل كانوا بعد أن استقر أمرهم في لحج على شيء من اليسر، وجانب من الأمن والاطمئنان يُستغرب مثله في أيام الحرب بين

---

[1] «إننا في إهمالنا مسئولون عن وفاة السلطان علي المبتسرة» (هارولد جاكوب في كتابه ملوك العرب).

المتحاربين.

والسبب في ذلك بُعد الفريقين – على ما أظن – عن ساحة الحرب الكبرى، وعن مركز حكومتيهما. كان الجنود والضباط يسمعون – ولا شك – بويلات تلك الأيام وأهوالها، ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات. فلما أمن الإنكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا لحج للأتراك. ولما أمن الأتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للإنكليز. قنع كل بما ملكت يده، وكُللت القناعة بكرم الأخلاق.

أجل، بينما كانت رحى الحرب تطحن الإنسانية في شمالي فرنسا، وتملأ الأرض هولًا وقبورًا، كان الترك والإنكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلون المعروف والإحسان، وكان للقائد الجركسي علي سعيد باشا الفضل الأكبر في ذلك بشهادة الإنكليز أنفسهم. أما العرب فلا يزالون يذكرونه اليوم بالفخر والإعجاب.

قلت: إن شيئًا من اليسر عاد إلى لحج بعد نكبتها؛ لأن الأهالي والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون؛ فازدهت تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعي وادي دُبن بالاخضرار والثمار. أما عدن – وهي في فم البركان – فلا ترى فيها ولا في جوارها عشبة خضراء. فتبادل القائدان السلام، ثم الكلام، ثم: – هذه بقولاتنا نرسلها إليكم كل يوم على الرأس والعين. فشكر الإنكليز الترك قائلين: وهذا الأرز والسكر لكم منهما ما تبغون. وهذه فوق ذلك السكاير. فهتف عسكر الدولة: عاش الإنكليز.

كذلك تم الصلح بين الأحلاف والدول الوسطى، أو بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج؛ قبل أن انتهت الحرب بسنتين. ولما أعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا إلى عدن ليسلم سيفه إلى الإنكليز؛ فاستقبل فيها استقبالًا جميلًا. دخل المدينة لا كالمهزوم، بل كالفاتح المنصور.

(٦) التمدن الحديث في لحج

كتبت بعد وصولي إلى عدن في طريقي إلى صنعاء كتابًا إلى صاحب السمو السلطاني عبد الكريم بن فضل؛ أرغب إليه في التشرف بزيارته. وكتبت بوساطة قنصل أميركا إلى دار الاعتماد أستأذن بذلك، فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحبًا بي، ثم جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه إذن باسمي واسم رفيقي وإذن آخر باسم القنصل الذي شاء أن يرافقنا.

ركبنا من محطة عدن قطارًا عسكريًّا، خطه ضيق، وعرباته قديمة، جيء به من الهند، وقاطراته أثر من الآثار في تاريخ البخار. فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في أرض سبخة قريبة من البحر، ومرت بآكام من الملح مستخرج منه، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها. ومنها إلى دار الأمير، أي الحدود بين عدن ولحج، ثم صُبر، فجلاجل، فنوبة الهراني، فالحوطة. وكلها ما عدا العاصمة، ودار الأمير أسماء لأكواخ

من القش واللبن وسط شيء من شجر الأسل، وأميال من القفر الذي تهب فيه رياح البادية تحمل السَّمُوم والموت من الربع الخالي. ويمتد خط الحديد من الحوطة إلى مكان يبعد ستة أميال عنها يدعى الحُداد.

أما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلًا. اجتزناها بساعتين – حتى البخار يتباطأ، يستشرق في الشرق – ووصلنا إلى العاصمة بخير وسلامة، فرحَّب بنا في المحطة ولي العهد، وأخو السلطان، وغيرهما من القصر، وهم في ملابس تدهشك منها لأول وهلة الألوان الزاهية البهيجة، ثم شكلها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز. وما أشبه اللحجي في فوطته المخططة التي تصل إلى الركبة وعمامته الطويلة الذؤابة بالإسكتلندي إذا لبس ثوب عشيرته، أي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش.

ولكن السلطان أحمد – وهو قائد الجيش – يلبس مثل أخيه السلطان المالك عبد الكريم، إلا أن له شغفًا بالألوان الباهرة. رأيته أول مرة في بنطلون أبيض ضيق حول الساق، وفوقه معطف إلى الركبة إسلامبولي الشكل، إلا أنه من الحرير الأزرق المخطط، يشطره زنار وافر مشدود إلى وسط نحيل، وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة، وعلى رأسه عمامة صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي – هي الموضة عند أعيان لحج – وطي أضلعه ما يناقض كل ذلك، أي روحٌ عصريةٌ حتى الكفر. سنعود إلى السلطان أحمد بعد أن نقابل سمو أخيه.

ركبنا من المحطة في سيارة أوصلتنا إلى القصر، فخف إلى استقبالنا عند الباب سمو السلطان، وهو يلبس فوق ثيابه الإفرنجية عباءة بنية، وعمامة ملونة هندية، ومعه حاشيته ووزيره الأول السيد علوي الجفري. ثم صعد بنا إلى ردهة الاستقبال في الطابق الأول، وهي رحبة أنيقة جليلة، يدخل إليها نور الشمس في جلباب من التقوى يُلبسه إياه الزجاج الملون في النوافذ –كأنه من كنيسة مسيحية – وتلطِّفه السُّجُف البيضاء المخرمة، كأنها من قصر إنكليزي، إن في هذه القاعة مجلسين إفرنجيًّا وعربيًّا، فرش الأول غربيُّ الشكل إلا أنه من صناعة الهند، تحتل زاوية منه آلة الفونوغراف، وفرش الثاني دواوين عربية تُقطِّعها المساند والوسائد. وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري، ذاك السفر الجليل المدهش، الفريد في بابه، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية، أي شرحُ شرحِ الشرح. ولا يجوز ذكره بغير الإجلال كامل الأسماء، فهو القسْطلاني على صحيح البخاري، والخزرجي على القسطلاني، والإمام النووي على الخزرجي.

– وهو ذا يا صاحب السمو المستر كروس قنصل أميركا في عدن.

فرحب سموه به وأجلسنا – إكرامًا له على ما أظن – في المجلس الأول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الإفرنج. ثم تعطف فأجلسنا كلنا محل الأهل والأحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف وتقربنا من البخاري.

–كان قنصل أميركا السابق صديقنا يزورنا من حين إلى حين. ولكم كان له عندنا من الحب والإكرام.

قال هذا السلطان، وكنت أنا الترجمان، فسررت بالقنصل لأنه قليل الكلام. شَكَر سموَّه وسكت. فاستلمت أطراف الحديث شاكرًا، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل، ثم المعروف من ظاهر سياحتنا، فأوقفتني عند هذا الحد كلمة من السيد علوي شوَّقت إليَّ حديثه، وهو لطيف الابتسامة، برَّاق العين، فصيح اللسان، يستأنس به جليسه من مجرَّد النظر إليه. ولكني عرفت أنه الوزير الأكبر، وأنه أهل لذا المقام العالي لأنه مثل القنصل الأميركي قال كلمته وسكت.

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل، وقد عرفناها.

فأضاف السلطان عبد الكريم إلى ذلك كلمة أخرى لطيفة: وسيزيدنا الأستاذ معرفة — إن شاء الله. زيارة مثله لا تنقضي في جلسة واحدة. ثم سألنا عن صحة الملك حسين، فكان دور القسطنطين، الذي أجاب بما يسرُّ المحبين، ويريح بال المعجبين برجل مكة الأكبر. ثم مال سموه إلى القنصل فقال: يجب أن تغضَّ النظر يا حضرة القنصل، ليس عندنا ما يليق بكم ويشرفنا في نظر الأمة الأميركية العظيمة غير حبنا لكم وإخلاصنا.

ترجمت إلى اللغة الإنكليزية هذه الكلمة، وفيها جميل التواضع واللطف، فأدهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين، قال لا فض فوه: سأنقل كلام سموكم إلى حكومتي، وأحب أن أقول بالأصالة عن نفسي إن في العرب فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الأمم الغربية.

هنأته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه. ومن أدرى بإخواني الأميركيين مني؟ لقد كنت أخشى منه سكوتًا يسيء أو كلمة توجب الشرح والتفسير. وهو مثل أكثر الأميركيين لطيف كريم فيما يفعل أكثر منه فيما يقول.

بعد أن شربنا القهوة نهض السلطان، وتقدمنا إلى الجهة الأخرى إلى المجلس العربي قائلًا: هذا بيتكم. ربما أنتم تعبون. وراح تتْبعه حاشيته إلى داخل القصر. فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء يأبى الكتمان.

— سلطان عربي في ثياب هندية إفرنجية.

— سلطان كريم حكيم.

وقال المستر كروس: سلطان متمدن.

وستدهشك من تمدن هذا السلطان أشياء أخرى كثيرة. هذه مجلة عربية من مصر، وهذه جرائد من القاهرة ومن الأستانة. وهذه في ألواح الفونوغراف أغانٍ مصرية وأناشيد إنكليزية، وهو ذا يا مستر كروس النشيد الوطني الأميركي تسمعكه جوقة لحج العسكرية! سررنا بالنشيد الأميركي؛ لأنه كان من أجمل آيات الترحيب والإكرام. والحق يقال: إن ما من أحد يزور لحج إلا ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه

مجالسه، وموائدته، وسياراته، وخيله، وكتبه. إنك لترى أشياء من الشرق والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور لحج.

ثمنا في الأسرة ضمن الكلل، وجلسنا والسلطان إلى مائدة تعددت وتنوعت ألوانها، فكأن الطاهي شرقي خدم في مطبخ فندق أوروبي، وشربنا التنبك في المداعة الهندية الشكل، الطويلة القوام، واللَّ [(١)]، وركبنا السيارة يصحبنا ولي العهد، وأحيانًا السلطان نفسه أو أخوه السلطان أحمد إلى خارج البلد، نشرف على بساتينها، إلا أن الدهشة الكبرى كانت في غرفة «البلياردو»، وفيها طاولة إنكليزية كبيرة أعدت عليها ذكرى أيام كنت بهذه اللعبة هائمًا مبرّزًا.

أما محاسن لحج ومستغرباتها فأكثرها في قصور الأمراء والبساتين، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين. إنك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الأشجار. فهذا التفاح الشامي في جوار العمْب الهندي. ولكن الزراعة – على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها – لا تزال في طور النشوء. مشينا صباح يوم وسمو السلطان إلى أحد تلك البساتين، فكان أول ما أوقف النظر منا رجال يحفرون بئرًا كما لو كانوا في أيام عاد وثمود. فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل أجرة العمال إن لم تكن أقل؟! إن أرض لحج صالحة للآبار الارتوازية. وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي دُبن تحتاج إلى هذه الآبار؛ لأن نهري الوادي يجفّان في الصيف، فلا تكفي الأرض مياه الصهاريج.

ها هنا وجدنا النقص في الزراعة، فإن أرض لحج خصبة جدًّا، ويمكن أن يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلًا منه في البساتين إذا بُنِيَ سدٌّ في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُبن، تصب مياهه في الصيف، فيسقي الأرض المزروعة كلها.

– أظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَمْب ناتجًا عن أمرين: عدم التلقيح، وقلة الماء.

– ولكن عمبنا في لحج على صغره أطيب من عمب الهند.

والعمب والحثاء[(٢)] من الأشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة. مشينا في ظلالها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين.

– هذا السمُر الذي يذكره الشعراء.

فقال رفيقنا الأمير صالح وهو شاعر:

كأني غداة البين يوم تحمَّلوا ... لدى سمُرات الحي ناقف حنظلِ

[(١)] المداعة: الأرجيلة. واللي: النربيش.

[(٢)] العمب هو الـ Mango، والحثاء هو الـ Papaya.

ومنه الشوكي العربي، واللاشوكي الهندي.

— وهذه شجرة تعطي قطنًا أفخر من القطن، ودود الحرير نسميها شجرة «القطن الحريري». هي تشابه في طولها ونحولها شجر الحور، وهذا العُشْر الذي يستخرجون منه البارود.

فقال الأمير صالح: وكان عود الكبريت عند الأقدمين.

وهذا الأَسْل صديق الإبل.

قلت: وهو شبيه السلم.

فقال الأمير الشاعر:

أمن تذكر جيران بذي سَلَمٍ   مزجت دمعًا جرى من مقلة بدمِ

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للبشر، إنما هو السلطان أحمد بن فضل. قال لي ذات ليلة طال فيها السمر وما ذوى غصنه: وما التعصب وما المذاهب كلها؟ بلية الأمم — واللهِ — ونكبة الأوطان. لو كان العرب يعقلون لعلموا أن خلاصهم ها هنا لا ها هنا (وأشار إلى رأسه ثم إلى قلبه). نعم، إن العقل — وأنت يا حضرة الأستاذ أدرى بما قاله شاعر العرب الكبير أبو العلاء المعري — إن العقل مصباح الحقيقة، والحقيقة أساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسيًّا كان أم دينيًّا.

أما القلب فغالبًا ضال، هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل؛ لظنه أن النيل يقيه البرد. والظن يصبح بالممارسة عقيدة، والعقيدة يثبتها الوهم، أنا جرَّبت النيل لمَّا كنت شابًّا فلم يدفع عني البرد.

ولو حكَّم كل امرئ عقله في الأمور لبان الضلال في كثير منها مثل النيل، ولما رأيت هؤلاء الجهال المتنيلين عندنا. وستراهم، سترى خيرات (كثيرًا) منهم غدًا عند الزيود. قد قيل لي: إن الزيود ينيلون أجسامهم وثيابهم حدادًا على الحسين. لا يزالون إلى اليوم يحدُّون على الحسين! والأجدر بنا يا أستاذ أن نحدَّ على العقل في بلادنا وعلى العلم.

أما السلطان أحمد وهو الجندي الفيلسوف، حاد المزاج، شديد اللهجة والبأس، فيحدُّ في قلبه لا في ثيابه، كان يزورنا كل يوم وهو يحمل إلينا ضمة من الورد؛ فينعش النفس منا، كما كانت ألوان ملابسه تنعش البصر، وكما كان حديثه ينعش العقل والآمال، وهو لا يتجاوز الأربعين. له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصيَّة من البلاد العربية.

يطالع الجرائد والكتب والمجلات، ويحدثك في سياسة الأمم كما لو كان نزيل القاهرة. وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى، فيُحسِن العزف على كثير من آلات الطرب، ويدير الجوقة العسكرية التي أسمعتنا النشيد الأميركي. ولكن مهمته المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان، فهو مثل أخيه مُزَارع كبير يحب

العمل في الأرض بيده. أما رأيه في المدنية الغربية فهو على شديد نزعته العربية، لا يرى فيها الضرر الذي يتوهَّمه بعض الشرقيين.

— وما ضرنا إذا لبسنا الإفرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة؟ إذا كانت قيمتي في هذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت أنا.

إن السلطان أحمد فضل هو السلك الكهربائي في لحج. وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم. وقد يكون صامتًا لأنه ولي العهد الظاهر المؤيد — وقل المقيد — بالسياستين العدنية واللحجية، الإنكليزية والعبدلية.

قلت: الظاهر لأن سمو السلطان عبد الكريم، فيما يسعى إليه من الإصلاح الذي تقدم ذكره، يأمل أن يكون ولي العهد ابنه الأمير فضل، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم، واللغة الإنكليزية من أساتذة في القصر. اقترحت على السلطان أن يرسل الأمير فضلًا إلى مدرسة في سوريا أو في مصر، فقال: إنه يرغب في ذلك، ولكن الأم لا تصبر على فراق ابنها.

— ولكننا سنحضر إلى لحج — إن شاء الله — أساتذة من مصر وسوريا يعلمون في مدرستنا.

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لأهنئه بعيد الأضحى. وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما ألقوه من القصائد والخطب قديمة الأسلوب، عقيمة المعنى. أما كتب التدريس التي أمر المعلمين بأن يطلعوني عليها، فهي مصرية، ومنها سورية، وكلها حديثة؛ فاستبشرت في ذلك، وقلت في كلمة ألقيتها على التلاميذ: إن لحج زاوية اليمن المباركة، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن. هذا إذا أتم ما يقصده من الاستعانة بالأساتذة والأطباء العرب، يجلبهم من سوريا أو من مصر.

وحبذا الإنكليز عونًا له في هذا السبيل، حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة، ليتهم يهتمون بالتعليم ربع اهتمامهم بالسياسة، وبكل ما يعزز جانبهم فيها؛ فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير، وسهروا على إرضاء سلاطينها بما يظنونه إكرامًا كبيرًا. ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية أنه في ١٩ ك١ ١٨٩٥ قررت الحكومة أن تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة إلى الأحد عشر مدفعًا. وفي سنة ١٩٠٣ منحت سموه لقب ورتبة «فارس في نجم الهند»، وهم في رسائلهم يخاطبونه كما يلي: عمدة الأمراء الكرام، وقدوة النجباء الفخام، سمو السلطان محبنا، وصديقنا السير عبد الكريم فضل بن علي العبدلي، كاي. سي. آي. إي. K.C.I.E[1] وهو يبادلهم هذا الإكرام والتبجيل، فيرده إليهم كلمة كلمة. لو تُرجمت «عمدة الأمراء الكرام، وقدوة النجباء

[1] راجع نفس الفصل، هامش «الثالوث المادي في عدن».

الفخام» إلى الإنكليزية، وهي تتقدم اسم موظف إنكليزي، لكانت تفكه وزارة المستعمرات، ولكنها تظل مخزونة في رءوس الكتاب والمترجمين في دار الاعتماد.

أما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات، وقلما يعرفونها. فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم: السلطان المعان، أو الوالد المالك. وأهالي لحج من عرب اليمن والمولدين، أهم قبائلهم بعد العبادلة العُزيبي، وأهل البان، وأهل سلَّام. وفيهم الحُجور من ناحية في حضرموت تدعى حجْر قرب مكلا، سمرتهم شديدة تضرب إلى السواد، فيظنهم السائح لأول وهلة عبيدًا. هؤلاء الحجور[1] يشتغلون في لحج كل الأشغال الشاقة. في الحقول تجدهم وفي القصور، يحرثون، ويخدمون، ويحسنون العمل.

إن الحجري أكبر جسمًا وأشد ساعدًا من اللحجي، على أن وجه هذا أدق ملامح من ذاك، وفيه من سيماء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط الباسل. أما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة. وقلما تجد لحجيًّا أيًّا كان، ومهما بالغ في اللبس أو العري، لا يحمل خنجرًا من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج. ومنها ما يكون نصابها مزدوجًا بشكل اللامين في «الله»، فتظن صاحبه حاملًا خنجرين. ما رأيت في كل من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية، ويقربون بسمرتهم إلى السواد من هو أشد بأسًا، وأرهب طلعة، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة، ويحمل خنجرًا مزدوج النصاب. إنه مع ذلك لتقي.

كنت وسمو السلطان في أحد بساتينه خارج المدينة، فرأيت الحجري يحرث الأرض، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد. عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء، فآذنت الشمس بالغروب، فترك عمله، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب، إن ذلك لجميل، وإن دينًا يستوقف العامل في عمله ليذكر الله لأجمل.

بيد أن بعد ساعة رأيت الوجه الآخر من ذا الجمال. عند رجوعنا ذاك اليوم إلى القصر تناولت مجلدًا من صحيح البخاري، وفتحته عرضًا فإذا أنا في باب المسواك والأحاديث النبوية في المسواك، والشروح، وشروح الشروح. أطبقت الكتاب وفتحت جزءًا آخر منه، فإذا بعائشة تحدث عن النبي وعما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة؛ فخلتني أقرأ مذكرات إحدى الخواتين الفرنسيات.

ولما جاء السلطان أحمد يزورنا تلك الليلة أشرت إلى ما كان من حظي في البخاري، فقال: لو قرأته كله كما نقرأه نحن في شهر رجب لكان حظك أحسن. ثم قال: البخاري يا حضرة الأستاذ مثل صندوق زجاج يجيئنا من أوروبا. صندوق كبير، كبير جدًّا، فيه ست كئوس أو ستة قناديل ملفوفة، مدفونة، في قنطار من

[1] جمع حجري.

القش. هذا هو البخاري.

لست أذكر الآن إذا كانت الكلمة هذه للسلطان أحمد أو للشيخ علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة اللحجية، كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني. إلا أن علي رضا – مثل السلطان مهدي – سكوت لا يحب الظهور. وقلما يعرض فكره في غير مجلس الألفة والاطمئنان. كان من حظي أن أجالسه غير مرة، وإن له ولابن أخيه عبد الغني الرافعي فضلًا عليَّ ببعض المعلومات عن ماضي لحج.

(٧) النواحي التسع المحمية

بدأ الإنكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهودًا بسيطة تضمن لهم الهدنة في الأقل ريثما تجيئهم النجدات. وتُدعى هذه العهود عهود صداقة وولاء. أول من عاهدهم من العرب عشيرة العُزيبي التي هي اليوم من عشائر لحج. والمعاهدة هي آية في البساطة والإيجاز، فبعد ذكر أسماء الفريقين تقول:

هذه معاهدة بين الإنكليز والعُزيبي. نحن الآن أصدقاء ونتعهد بالسلم والولاء. قلوبنا وبغياتنا واحدة. الأمان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به أمام الله. وإذا أخذ الإنكليز أحدًا من عشائرنا أو أخذنا أحدًا من الإنكليز، فلا يؤذى المأسور أو يهان.

وبعد قليل عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم، ومع الحواشب وغيرهم، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة: الولاء، ثم العطاء، ثم الاستيلاء. فقد تدرَّجوا من المعاهدة ذات البند الواحد إلى المعاهدات الطويلة، وفيها كلها تجد اليوم المواد المهمة التي تقيد الأمير أو السلطان أو الشيخ بالإنكليز دون سواهم من الأمم. إذ لا يحق له أن يفاوض دولة أخرى، أو يعاهدها، أو يقبل مساعدات مالية أو غير مالية منها بدون معرفة بريطانيا وإجازتها. كما لا يحق له أن يبيع، أو يؤجر، أو يهب، أو يرهن شيئًا من أرضه أو ملكه لغير الحكومة البريطانية. وعليه أن يراعي موجبات السياسة البريطانية.

وإذا أخلَّ بإحدى هذه المواد يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذاك الحين يخصون به المتعاهدين. كانت هذه الرواتب تافهة في البذاءة تتراوح بين العشرة ريالات والمائة ريال في السنة إلى كل أمير، ثم أخذت تزداد مع المصلحة حتى أصبحت الآن تتراوح بين الخمسين والأربعمائة روبية كل شهر. أما سلطان لحج، وهو – كما تقدم – أكبر المتعاهدين، فمشاهرته تزيد على ثلاثة آلاف روبية.

هذا دور الولاء والعطاء. ولكن الإنكليز كانوا يتدخلون في بعض الأحايين في شئون أصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلًا بين صديقين متخاصمين من أصدقائهم، فيورثهم التدخل مسئولية توجب عليهم الاستمرار، فيستمرون مصلحين، ويكتسبون ما لا بد منه من عداء أحد المتخاصمين. يقيمون الحدود بين

الفريقين، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة، فيجيء من لا يرضى بتدخلهم ظانًا نفسه مغبونًا فيرفع تلك العمد بل يكسرها، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح، صلح الإنكليز، ويدافع عنها، فيعاديه ثانية ويقاتله، ويستنصر عليه أصدقاءه الإنكليز، فيضطرون أن ينصروه بالسياسة والمال والرجال أيضًا ليعززوا في الأقل كلمتهم، ويثبتوا نفوذهم؛ فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن –كما يقول بعضهم– من مقاصدهم الأولى.

ولكنك تذكر أيها القارئ ما كتبه مجلس إدارة شركة الهند الشرقية إلى المعتمد البريطاني الأول في عدن[١]. هو ذا الجسم السياسي الحي الذي يساعد في نموه الزمان.

انتقلنا من دور الولاء إلى دور الحماية، فأصبح الإنكليز حلفاء صديقهم الأمير العربي، والمسئولين عن استقلاله وسلامة ملكه. قد تطول مدة النشوء كما في تاريخ اليوافع مثلًا الذين عاهدوا الإنكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي أمسوا بموجبها تحت حمايتهم إلا بعد خمس وستين سنة. وكأن النمو السياسي يوجب على الساسة أكثر مما يتعمدونه في البداءة ويرمون إليه، فالإنكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لإصلاح ذات البين بين أمير وآخر. بل تجاوزوه إلى التحزب السياسي الذي أشرت إليه. خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد إلى وزارة المستعمرات:

إن لنا يدًا على فلان في منصبه، فقد نصرناه على من كان من أسرته ينازعه الإمارة.

أما الذين عاهدوهم من العشائر، وساعدوا في تقسيمهم إمارات وسلطنات، وبسطوا الحماية البريطانية عليهم، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية، أي الجنوبية من اليمن الأسفل. وهاك أسماءها، وبعض ما علمته من الثقات عنها.

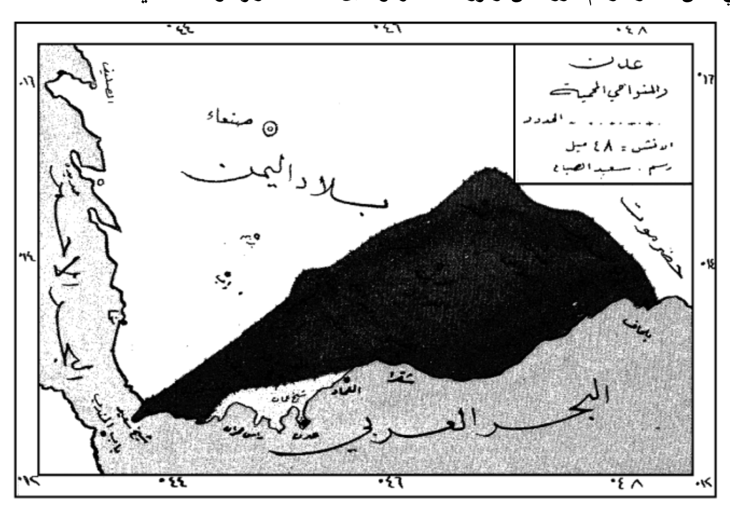
الصبيحة

نحن الآن في عدن. فإذا نظرنا غربًا منها نرى قسمًا من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب. والصبيحة عشائر متعددة، منها: العَطيفي، والبريمي، يحكمها الشيوخ والعقال حكمًا بدويًّا. وهم مشهورون بالغزو والغدر، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين ألفًا. على أن لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم أو بالحري شرهم، وليس لمشايخهم وعقالهم مشاهرات معلومة. لكنهم يجيئون إلى عدن كل ثلاثة أشهر مرة، أو يرسلون أقاربهم ليقبضوا الإكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمائة روبية، وبعضهم يتناولها بوساطة سلطان لحج.

[١] المرجع السابق.

آل فضل أو الفضلي

وإذا اتَّجَهنا من عدن شرقًا، وتمثلنا أمامنا مائة ميل من الأرض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة «لحج» الشرقية عند أم العُمُد إلى حدود العوالق الغربية في المقاطن – والبلدتان على البحر – نحيط بملك آل فضل، الذين هم أقوى العرب وأشدهم حول عدن شرقًا بشمال منها؛ فإن لسلطانهم عبد القادر بن حسين الفضلي عسكرًا من قبيلته الخاصة، وعنده من العشرين إلى الثلاثين ألفًا يحملون السلاح. أما عرب الفضلي فمن البدو، وهم ذوو بأس ومروءة، يسارعون إلى النجدة، ويرغبون دائمًا في القتال.



ويظهر أن السلطان عبد القادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه، فقد طلب من الإنكليز سلاحًا ومدافع فلم يلبوا طلبه، والعلائق بينه وبينهم متوترة في هذه الأيام. بيد أنه لا يزال يقبض المشاهرة، وهي أربعمائة روبية، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن.

العوالق

هي جيران آل فضل على الساحل، وبلادهم أكبر النواحي التسع، مساحتها مائة ميل ونيف شرقًا، ومثلها شمالًا. وهي تقسم إلى قسمين: العوالق العليا، والعوالق السفلى. أما الأولى فيحكم اليوم قسمًا منها السلطان صالح بن عبد الله العَولقي، ومركزه في الأنصاب، ويحكم قسمًا آخر شيخ يعادل بل يفوق السلطان صالحًا قوة ونفوذًا، ومركزه يشْبوم. وهناك بلدة اسمها العِرْقة، وميناء هو الحَوْره يحكمهما شيخان مستقلان الواحد عن الآخر، ومستقلان أيضًا عن شيخ يشبوم، وسلطان الأنصاب.

في العوالق العليا آثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها، وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على

الاستقلال، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم. بيد أن ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولاء عقدت سنة ١٩٠٣.

أما العوالق السفلى فأهلها أصدقاء الإنكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولاء على أن يمنع السلطان دخول الرقيق من أفريقيا إلى بلاده، ولكنهم مع صداقتهم للإنكليز واختلاطهم – وهم على ساحل البحر – بالأجانب، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية. وفيهم قبائل لا يعرفون الإسلام، ولم يسمعوا بالنبي محمد. وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية، وينكحون أخواتهم وزوجات آبائهم، ولا يصومون ولا يصلون، سألت مرة في دار الاعتماد عما إذاكانت السياحة في بلادهم ممكنة فأجابوا: نعم، إذاكانت لا تهمك حياتك.

إن لسلطان العوالق السفلى الحالي أبي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المائة روبية.

أما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين أو أربعين ألفًا. ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة آلاف.

الواحدي

هم جيران العوالق شرقًا بشمال، عاصمة بلادهم حبان، وميناؤها المعروف بَلحاف، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات، وليس له مدافع تكريم وترحيب؛ ذلك لأن عربانه البدو بخلاف عربان العوالق وأمرائهم، ينفرون من الإنكليز، ويحاولون التفلت من ربقة الحماية التي أوثقوا بها منذ سنين.

والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الأسفل أن حُبَان، وهي بلدة قديمة ذات ماض موصوف بالعلم والأدب، ويشبوم، وفيها اليوم عدد من العلماء، لا تبعدان خمسين ميلًا عن العوالق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا يعرفون القرآن والنبي.

أما النواحي الأخرى فللإسلام ولسلالة النبي السادة والأشراف مكانة عالية فيها. ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي، فيأخذ منهم النذور، ويحكم بينهم، ويستغاث به وبكبار أجداده.

العوازل

إذا عدنا من بلاد الواحدي غربًا، فاجتزنا بلاد العوالق عند الخط الرابع عشر شمالًا من خط الاستواء نصل إلى الدُّثَيْنة بلاد العوازل البدو، وهي في ملتقى الأودية الثلاثة: رُفوح، وذُرى، ومروان، تربتها خصبة، ورجالها أشداء. كانت الدثينة في الماضي عاصمة التمرد و«ديرة» العصيان، فقد رفض العوازل الحماية الإنكليزية، وحاربوا الجنود الذين صعدوا من عدن إليهم فهزموهم، وردوهم خاسرين. ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الأجنبي؛ لأن جيرانهم العوالق أصدقاء الإنكليز وأنصارهم. قيل لي: إن يوم

خرجوا على السلطة البريطانية انتقم الإنكليز من المقيمين منهم في عدن فأجلوهم عنها بالسياط.

اليوافع

إذا واصلنا السير غربًا عند الخط الرابع عشر من العرض، وقطعنا وادي الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء، وهي بلاد خصبة فيها بضعة أنهار، وأهلها موالون للإنكليز، ثم ندخل في بلاد اليوافع، وفيها —كما يقال — سبعون ألف مقاتل، وعدة «شيخات»، مشيخات مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى.

أما اليوافع السفلى فأكثر أهلها من البدو، وهم منذ سنة ١٨٣٩ أصدقاء الإنكليز مخلصون لهم، ويظهر أن اليوافع ثابتون في العداء ثباتهم في الولاء. فقدكان بينهم وبين جيرانهم آل فضل عداء منذ ١٨٧٣ استمر أكثر من عشرين سنة، ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥، فأزالت ذلك العداء القديم أو كادت. ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي ناقم على الإنكليز اليوم؛ لأنهم رفضوا ما طلبه من الزيادة في المشاهرة. وهو يبغي فوق ذلك لقبًا يصحبه نيشان ومدافع ترحيب مثل الزملاء والجيران.

أما سلطان اليوافع العليا فضل بن مُحَمَّد ومركزه الحوطة، فلا علاقة له بالإنكليز ولا فضل لهم عليه، ولا هو يبغي منهم غير البعد والهجران. هؤلاء اليوافع مثل العبادلة أكثر عرب النواحي التسع ثروة وتمدنًا، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند وبالجزائر في المحيط الهندي. وبينهم وبين العبادلة نسب وقرابة.

وأهل اليوافع العليا يفاخرون أقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال، فيقولون: لم يدخل ولن يدخل أجنبي إلى بلادنا. أما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي أحد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات.

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم إلى الموالين المحميين، فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية، ولكنهاكانت تدفع المشاهرات إلى شيخهم بوساطة جارهم إلى الغرب سلطان الحواشب. ثم عقدت معهم معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم. أما الحماية أو الولاء أو الصداقة فلا تزال اسمية.

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة،كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي، ويتقاضون القوافل رسومًا، ويقطعون عند الحاجة الطرق، ثم دخلوا في صف المتعاهدين أصحاب المشاهرات، ولكنهم أبوا الحماية، ودار

الاعتماد لا تركن إليهم.

أما شيخهم الحالي الشيخ مُحَمَّد صالح الأخرم، شيخ بلاد القطيب والأجعود، فقد قاوم الزيود عندما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع، يبغون الاستيلاء عليها كلها، ثم صالحهم؛ لأن دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها، وصار من عمال الإمام يحيى فخسره الإنكليز. وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين.

الحواشب

جيران القطيبي ولحج والصبيحة، فهم والعزيبي أول من عقدوا مع الإنكليز معاهدات، ويحاربون مع من «يملأ كفهم قروش»[1]. عندهم من الخمسة إلى العشرين ألف مقاتل كما يقال، وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع، هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا أباه في المسيمير.

العقارب

قبل أن نتقدم شمالًا أعرف القارئ بأقدم السلطنات المستقلة وأصغرها، أي سلطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة، والبلد الواحد. العقارب فخذ من العبادلة أعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر؛ أي حين أعلنت الولايات المتحدة الأميركية استقلالها، وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة، بل هي فريدة في بابها لا زادت عدًّا ولا نقصت، ولا كبرت ولا صغرت، أهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم، يجمعون شتاتهم وكلمتهم في بير أحمد مدينتهم الوحيدة، بل بلادهم جمعاء، فيقيمون فيها مطمئنين. وما أشبههم بين الإنكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لوكسمبورغ بين ألمانيا وفرنسا والبلجيك.

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب إلى الشمال، ومن سياسة الإنكليز إلى سياسة الإمام؛ لأنها تدخل في منطقة اليمن الأعلى، وهي في الطريق إلى صنعاء شمالًا بغرب من بلاد العلوي، وفيها قبائل متعددة. كان يحكمها الأمير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك؛ لأن الزيود كانوا قد احتلوا الضالع، وأخرجوه منها. ولا عجب إذا استعاد الإمام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقًا من ملك أجداده. قد قيل: إن أجداد مشايخ الضالع من المولدين، كان آباؤهم من عبيد أئمة اليمن، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي وأقاموا منهم أميرًا عليهم.

قد احتل الزيود بلاد القطيب والأجعود أيضًا، ووصلوا إلى الجبال البيضاء، فشرعوا ينشرون الدعوة

---

[1] إشارة إلى الكلمة المأثورة في تلك النواحي أوردها بلغتهم: «لأنا قبيلة حد، ولا حد دولتي، سلطاني من ملأ كفي قروش.»

الإمامية، وينصبون حبائل السياسة والاستيلاء شرقًا وجنوبًا حتى بلاد اليوافع، وآل فضل. وقد كان الشيخ محمد الأخرم أول من وقع في حبالهم، أول من اتبع الهدى.

دعاه الزيود إلى الضالع باسم السلم والإمام فلبَّى الدعوة بعد أن خذله الإنكليز كما تقدم. ولما دخل البلد أطلق الزيود من أجله – اقتداءً بحكومة عدن – أربعة مدافع ترحيبًا وإكرامًا، فترنح الشيخ، ورفع الأدعية للحضرة الإمامية بصنعاء، فعينه الإمام أمير الجيش في القطيب والأجعود، واختصه براتب شهري، وبربع العشر من زكاة تلك المقاطعات، وبألف قدح من الذرة، وبأربعمائة جندي من الزيود الأشاوس ليكتسح النواحي العاصية ويُدخلها في طاعة الإمام، ولم يكن الشيخ الأخرم ليقبض من الإنكليز غير مائة روبية كل شهر.

إن حضرة الإمام إذا ثابر على هذه الخطة لمن الفائزين بما يبغيه من الإنكليز؛ فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الأسفل بتلك السياسة التي هي عندهم رأس أسباب السيادة؛ ألا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء، وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والإكرام، فيرفع إلى المناصب العالية المشايخ والعقال، ويدفع لهم المشاهرات، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة. أي دهاة الإنكليز، إن عندنا المدافع أيضًا نطلقها مرحبين بإخواننا المسلمين، أبناء أتباعنا الأقدمين.

(٨) لائحة بالمشاهرات وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري (روبية)	ما يستطيع أن يحشده من الجنود	
٣٢٨٠	٢٠٠٠	السلطان عبد الكريم فضل بن علي سلطان لحج.
٣٦٠	١٠٠٠	السلطان عبد القادر بن حسين الفضلي سلطان شقوه.
٢٥٠	٣٠٠٠	السلطان صالح بن عبد الله العولقي سلطان العوالق العليا.
٣٥٠		الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ العوالق العليا.
١٥٠		الشيخ محسن بن رويس العولقي شيخ العوالق العليا.
١٦٠	١٠٠٠	السلطان أبو بكر بن ناصر سلطان العوالق

الراتب الشهري (روبية)	ما يستطيع أن يحشده من الجنود	
		السفلى.
٢٠٠	٣٠٠٠(بلاد يافع)	السلطان محسن بن علي سلطان بني فاسد.
٨٠		السلطان صالح بن عمر سلطان بني ضبي.
٨٠		الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي.
١٠٠		الشيخ أبو بكر علي شيخ الموسطة.
٥٠		الشيخ مُحَمَّد علي محسن شيخ الموسطة.
٨٠		الشيخ عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي.
٤٠٠	١٠٠٠	السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب.
٣٠٠	١٠٠٠	الأمير نصر بن شايف أمير الضالع.
١	٥٠٠	الشيخ مُحَمَّد صالح الأخرم شيخ قبيلة القطيب.
١٠	٥٠٠	الشيخ عبد النبي العلوي شيخ قبيلة صهيب.
٦٠٤٠	١٣٠٠٠	

ولأصحاب هذه المشاهرات إكراميات أيضًا: يتناولها بعضهم كل ستة أشهر مرة، وبعضهم كل سنة، تتراوح بين الثلاثمائة والألف روبية. وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصهم عدن بمشاهرات وإكراميات صغيرة.

أما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلا في حضرموت فيستطيع أن يحشد ألفي جندي، ولكن مشاهرته اسمية، وهي ستون روبية لا غير؛ لأن آل القُعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند.

الجزء الثاني

السلطان عبد العزيز آل فيصل آل سعود



المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود

(١) سلطنة نجد وملحقاتها [١]

- **حدودها**: شرقًا خليج فارس من الجافورة وقطر إلى رأس المشعاب، ثم منطقة الحياد بنجد والكويت من رأس المشعاب إلى رأس القليَّة.

جنوبًا خط يمتد من أبها في عسير إلى ملتقى الخطين الثامن عشر من العرض الشمالي والسادس والأربعين من الطول الشرقي، ثم يدور شمالًا إلى السليل، ومنها حول الربع الخالي شرقًا إلى الأحقاف فحدود قطر فالجافورة حتى الخليج.

شمالًا منطقة الحياد بين نجد والعراق، وهي في شكل قطعة بقلاوة بين الخطوط ٢٨ و٢٩ و٣٠ من

---

[١] محافظة على التاريخ أبقيت اسم سلطنة نجد وحدودها كما كانت يوم رحلتي سنة ١٩٢٢، أما تطوُّر البلاد النجدية واتساع حدودها ومُبايَعة سلطانها ملكًا بعد ذلك، فقد دوَّنتُ أخبارها في كتابي «تاريخ نجد وملحقاته».

العرض الشمالي، والخطوط ٤٦ و٤٧ و٤٨ من الطول الشرقي، ثم خط يمتد من قرب شعب الأعوج شمالًا إلى بير ليفة، ثم شمالًا بغرب إلى بير مُنيا فجديدة فجبل عنيز الكائن بين الخطين ٣٢ و٣٣ من العرض الشمالي والخطين ٣٩ و٤٠ من الطول الشرقي.

أما غربًا فمن جبل عنيز إلى شرقي الأردن، ومن شرقي الأردن إلى آخر الحجاز الجنوبي الغربي، فلا تزال الحدود مُختلَفًا عليها. إلا أن الجوف وحرَّة خيبر هما اليوم في حوزة سلطان نجد.

- **عدد سكانها**: نحو مليونيْ نفس.
- **مساحتها**: نحو خمسمائة ألف ميل مربع.
- **أهم قبائلها**: مطير، وحرب، وعتيبة، وسبيع، والدواسر، والعجمان، والعوازم، والسهول، وبنو مرة، وقحطان.
- **أهم مدنها**: الرياض، وبريدة، وعنيزة، وحايل، وثرمدة، وشقرا، والمجمعة، وحريملا، والهفوف، والقطيف.
- **مذاهبها**: الوهابية، والشيعة، وبعض السُّنَّة.

(٢) شئنا حرَيملا فشاء الله ضرمى[١]

كنت في لحج يوم كتبت إلى السلطان عبد العزيز أُطلِعه على الغرض من رحلتي في البلاد العربية وأستأذنه بزيارته والسياحة في بلاده. وكان بيني وبينه بحر الهند، ثم النفود، ثم الدهناء، ثم الإنكليز. أما العقبات الثلاث الأولى، فقد كانت — والحق يقال — سهلة بالنظر إلى الأخيرة. كتبت كتابي قبل أن سافرت إلى صنعاء، وأرسلته بوساطة تاجر معروف في عدن؛ ليرسله إلى وكيل ابن سعود في البحرين، وفي الكتاب رجوتُ من عظمة السلطان الإسراع في الجواب عن يد وكيله القصيبي حتى إذا مررت بالبحرين في سفري إلى العراق أتشرَّف بعلم تتوقَّف عليه خطتي في الرحيل. وكان في نيتي إذا جاء الجواب بالإيجاب أن أسوح في نجد قبل أن أزور العراق.

عدت بعد ثلاثة أشهر من صنعاء إلى عدن، وأقمت فيها تحت سرادق القيظ، في فم البركان، بين أشباح الجدري والحمى، ستة أسابيع أنتظر من أصحابي الإنكليز إذنًا بالسفر إلى... إلى نجد؟ كلا، بل إلى العراق. فإن ابن سعود عند هؤلاء الأماجد شخصٌ مقدس لا يدنو منه غير المقرَّبين من قدس الأقداس على شاطئ التيمس. وإنك إذا جهرتَ لأحد الوكلاء أو المندوبين السياسيين في السواحل العربية برغبتك، تجد

---

[١] مثَلٌ من أمثال نجد يُضرب بمعاكسات الزمان، وحريملا وضرمى بلدان في العارض هم يُسكنون فاء الاسم «اضرُمى».

الرجل واحدًا من ثلاثة: فإما أنه يُرجِئ ويسوِّف سياسةً، أو يبتسم هزءًا، أو يرفض بتاتًا. وقد لقيت الثلاثة في أولياء الأمر بعدن. قلت: نجد. فقالوا: العراق. قلت: ابن سعود. فابتسموا ثم رفضوا: لا علاقةَ لنا بالرجل وأموره. ثم جاءني كتاب من الحاكم يقول فيه: قد وصلنا نبأ برقي من المندوب السامي في العراق يأذن لك فيه بالسفر إلى بغداد. ومن كتاب آخَر تلاه علمت أنْ لا بأس بمروري بالبحرين، وإني بعد مقابلة أولياء الأمر في بغداد أسافر إلى نجد إذا كان جواب ابن سعود يأذن بذلك.

كان قد مرَّ أربعة أشهر ونيف على كتابي إلى السلطان عبد العزيز، فسافرتُ من عدن إلى بمباي قاصدًا من هناك البصرة، وفي قلبي تشوُّق إلى الجواب شديد. ولا أكتم القارئ أن رغبتي بزيارةِ رجلِ نجد الكبير كانت تزداد شدةً كلما تعدَّدت وحالت دونها العقبات.

وصلت إلى بمباي فوجدتُ أن أمري موكل برجال الشرطة هناك، ولكنهم أكرموا وفادتي فزرت الدائرة ولم يكلِّفوني زيارة السجن. وقد أظهر المدير رغبتَه في التعرف إلى هذا السائح العربي الأميركي الذي تُفتَح له أبوابٌ قفلت مرارًا دون سواه؛ إذ إن السفر في تلك الأيام حتى إلى العراق كان محظورًا على غير البريطانيين. وقد علمت أن بعض التجار الأميركيين انتظروا شهرَيْن في بمباي ليجيئهم الإذنُ بالسفر إلى العراق، وكانوا بعد ذلك من الخائبين. فلا عجب إذا أكبر أمري. وقد ظهر لي، بعد أن أقمتُ أسبوعًا في بمباي وتحدَّثت وبعض رجالها من تجار وكتاب وسياسيين، أني من المغبوطين في سفري إلى بغداد. ولكن ذلك لم يسرني كثيرًا.

شئنا حريملا فشاء الله ضرمى. قال المدير: أُمِرنا بأن نسهِّلَ طريقك إلى العراق. وأظنهم — أيْ «أولياء الأمر» — فيما كتبوا إلينا يقولون أنْ لم يصلهم الجواب من ابن سعود. سأبحث عن الجواب وأرسل نسخةً إليك إذا شئت. شكرتُ للمدير هذا التلطُّف وعدت إلى الفندق، فإذا بعض التجار والأدباء من المسلمين ينتظرونني هناك. وقد أخبرني أحدهم — وما كان حديثي في تلك الأيام ليخلو من سؤالٍ عن نجد وسلطان نجد — أن عبد الله القصيبي وكيلَ ابن سعود في البحرين وصلَ صباحَ ذاك اليوم إلى بمباي، فبادَرتُ في اليوم التالي إليه يصحبني الحاج علي رضا زَينل؛ أحدُ كبار التجار في الهند وفي الحجاز.

وكان موضوعُ الحديث السلطانَ عبد العزيز وكتابي إليه. قال الوكيل: نعم، وصلنا كتابكم بوقته، وأرسلناه إلى حضرة الإمام، فجاء الجواب مرحِّبًا بكم، وقد أمرنا بإعداد كلِّ ما يلزم من أسباب السفر والراحة عند وصولكم إلى البحرين. ثم قال: ونحن من زمان ننتظركم. أبطأتم في السفر أو إنكم غيَّرتم في الخطة التي كتبتم إلى حضرة الإمام عنها؟ قلت: لا التغيير ولا الإبطاء بيدي. فقال: بل بيد الله. فقلت مستفهمًا: وأصحابنا الإنكليز؟ فضحك الوكيل وسكت، وبعد رجوعي إلى الفندق استلمتُ كتابًا من معاوِن مدير الشرطة ضمنه نسخة الأمر المتعلق بسفري، وهذه ترجمته الحرفية:

الدائرة السياسية مكتب كاتب الأسرار. بمباي في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ من آي. ف. كندرزلي كاتب

أسرار حاكم بمباي في الأمور السياسية إلى مدير الشرطة.

الموضوع سفر المستر أمين الريحاني إلى البحرين ونجد.

سيدي

جوابًا على كتابكم رقم ف—٢٠٧١، المؤرخ ٢١ آب سنة ١٩٢٢، أقول أنْ قد أمَرَني الحاكم أن أخبركم لكي تبلغوا المستر أمين ريحاني أن الإذن بسفره إلى نجد لم يصلنا حتى الآن، ولكنه منتظر في البحرين. أما سفره إلى العراق فلا اعتراضَ عليه. وفي كل حال يجب أن يسافر أولًا إلى بغداد. أتشرف يا سيدي بأن أكون خادمكم المطيع.

عن كاتب الأسرار السياسية

دجاي أراتون

أما التناقض بين كلامِ الوكيل؛ وكيل ابن سعود في البحرين، وأمرِ الحكومة؛ حكومة بريطانيا في الهند، فسوف تنجلي الحقيقة فيه.

(٣) في بغداد

لم يؤذن لي بالسفر إلى البحرين.

شئنا حُريملا فشاء الله ضرمى. وصلت إلى العراق وقلبي يحدِّثني بنجد، وفِكري يُبعِدني عن حُسْن الظن بالإنكليز. وقد وجدتهم في بغداد، كما هم في بمباي؛ السادة المُطاعين برغم النهضات الوطنية والحركات السياسية. ثم بَدَتْ لي حقيقتان جوهريتان استنرت بهما قولًا وعملًا في عاصمة العباسيين.

الحقيقة الأولى هي أن مفتاح نجد للأجانب الذين يبغون الدخول إلى تلك البلاد من الجهة الشرقية، إنما هو بيد المندوب السامي.

أما الثانية فهي أن الباب قَلَّما يُفتَح لغير الإنكليز، بل لأولئك القلائل منهم المنتدَبين لأمور سياسية أو المقرَّبين من النظارة الخارجية. وقد رفض الوكيل السياسي في خليج العجم غيرَ مرةٍ أن يأذن لبعض الأطباء الأميركيين في البحرين بالسفر إلى نجد. هذه هي الحقائق الراهنة التي جُبهت بها في الدوائر السياسية وغير السياسية. بسموا لجسارتي بل لجهالتي في الحديدة، وأحالوني في عدن على المندوب السامي، وسوَّفوني في بمباي. فما عسى أن يكون من أمرهم في بغداد؟

بعد أن زرت جلالةَ الملك فيصل على شاطئ دجلة الشرقي، جئت إلى دار الوكالة في الشاطئ الغربي، لأقابل السيدة جرترود بل كاتبة أسرار المندوب السامي في الأمور الشرقية. والعراقيون يدعونها الخاتون. إلا

أنها في قوامها ونُحولها وتيقُّظها إنكليزيةٌ لا غبارَ عليها. كانت المقابلة الأولى في مكتبها، وكانت، وهي القابضة على زمام الحديث، تدخِّن السيكارة تلو السيكارة، ثم تنهض عن المقعد فتتخطر في القاعة، ثم تجلس وترفع رجلًا على رجل وهي تتكلم، ثم تتكلم بدون انقطاع. فقلت في نفسي: لا تزال الخاتون امرأةً والحمد لله. عرضتْ أمامي عقلَها في الجلسة الأولى فأُعجِبت به، وكشفَتِ الحجابَ عن زاوية من قلبها فدُهِشت، بل كادت ترفع الستار السياسي كله لتريني أنها أخلصت العمل لفيصل وللعراقيين، وأن الإنكليز لا يزالون أصدقاءَ العرب وأقربَ الناس إليهم. ثم قالت: لا شكَّ أنك تيقَّنتَ ذلك في رحلتك يا أمين أفندي.

كنتُ شاكرًا لأنها لم تقف لتسمع جوابي، بل استمرت في الحديث.

وأطلعَتْني على أمور تتعلق برحلتي لم أستغربْ عِلمَها بها؛ لأني أعلم أن وكلاء إنكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادَلون التقاريرَ السرية من حين إلى حين، ومنهم مَن يكتب تقريره كلَّ أسبوع، فيُرسِل نسخًا منه لزملائه في مصر والسودان والعراق والهند.

عادت السيدة جرترود إلى الملك فيصل الذي كان في تلك الأيام غاضبًا على المندوب السامي وعليها، فلا يوقِّع المعاهدةَ المشهورة بين الإنكليز والعراق، فقالت: قد سعيتُ سعيًا متواصلًا من أجل الملك فيصل، فأقنعتُ رؤساءَ العشائر واستملتُهم إليه. كانوا يقولون لي يا أمين أفندي: هذا حجازي أجنبي. وكنت أقول لهم: أنا أكفله، أنا الكفيل. صدِّقني يا أمين أفندي إني أحب العراق أكثرَ من حبي بلادي. أنا عراقية.

تفكَّهتُ في مجلس الخاتون وتفكَّهتْ، على أن إعجابي بها وهي امرأة كان أقل من ارتيابي بشأنها وهي وليةُ الأمر أو وليةُ العشائر في العراق. ولا يظنن القارئ أن كاتبة المندوب السامي باحَتْ بكل أسرارها العربية في الجلسة الأولى. لا، ولا في الجلسات العديدة التالية.

ما جئت على ذكر السيدة جرترود هنا إلا لأنها كانت في عهد السر برسي كوكس تقبض على مفاتيح الأمور السياسية في العراق، وفي البلدان العربية والعجمية على الخليج، يتولى المندوب السامي البتَّ في شئونها. ومفتاح نجد من هاته المفاتيح، فهل تأذن به يا ترى؟

سألتها سؤالًا دون أن أكشف عما جال في صدري من الريب بحُسن نية زملائها، ودونَ أن أشيرَ إلى التناقُض فيما قاله لي وكيل ابن سعود وما كتبه حاكم بمباي، فتغيَّرت عندئذٍ لهجتُها وتغيَّر أسلوبها، فلم تُجِبْني بالصراحة التي عرضتْ أمامي مثالًا منها في حديثها عن العراق؛ ذلك لأنها كانت لا تزال في ريبٍ مما قد يكون من أمري وسلوكي في بغداد. أجئتُ مبشِّرًا بالوَحْدة العربية، أم جئتُ أضرم نارَ الثورة على الإنكليز؟ أجئتُ أنصر الحزب الوطني أو الحزب الحر أو أصحاب الانتداب، أم جئت من أميركا رسولًا سريًّا لشركةٍ من شركات النفط؟

هي بعض الإشاعات التي انتشرت في بغداد وحامت على مكتب الخاتون، ولكنها لم تتنازل أنْ تسألَني

سؤالًا واحدًا صريحًا بخصوصها، بل كانت في حديثها تشير إشارةً إلى ما فيه الحجة الراهنة – بحسب ظنها – على عِلمها الوافر الشامل بكل ما يختصُّ بالسياسة البريطانية في البلاد العربية. أظنها اتخذت سكوتي دليلًا على الاقتناع، أو أنها قرأت فيه شيئًا من الميل إلى التصديق. واللومُ أو بعضُه عليَّ؛ فقد كنت حتى في ابتسامي أول مرة قابلتُ الخاتون غير الرجل الذي أعرفه ويعرفه الناس.

وما ذلك إلا لخوفي أنْ تَحُولَ دون رغبتي، فداريْتُها في دارها. على أني لم أُخاتِل، ولم أداجِ، ولا جمجمت الكلام في كل ما ألقيته من الخطب في بغداد. خرجت من مكتب المس بل ونفسي يتنازَعُها الريب والأمل. هي الحاملة المفتاح، مفتاح نجد، فهل تفتح لي الباب؟

بعد ذلك قابلتُ المندوب السامي السر برسي كوكس، فكان نقيضَ كاتبةِ أسراره الخاتون في أنه أَوْلى جليسه أولًا الحديث.

سألني سؤالاتٍ تتعلَّق برحلتي، فأجبتُه عليها بصراحةٍ زمامها التحفُّظ. ثم ذكر حادثةَ القصر عندما راح يهنّئ الملك بعيدِ جلوسه، فتكلَّم بما يبرئ نفسَه من العسف والاستبداد في نفيه زعماء الحزب الوطني وإقفال جرائده وناديه.

ثم انتقلنا في الحديث، فأخبرني أن في نيته زيارةَ السلطان عبد العزيز قريبًا، علَّه يتوفَّق إلى رتْقِ الأمر بينه وبين العراق، وهناك معاهدة يريد استئنافَ المفاوَضات بخصوصها.

قلت: زيارتكم إذن في سبيل السلم والولاء بين اثنين من ملوك العرب. فقال: بل أكثر من اثنين، وإن أقصى تمنياتي أن أمهِّد سبيل الاتفاق والولاء ما استطعت. فقلت: هو كذلك قصدي وسعيي. خذني معك إلى ابن سعود فأخدمك فيما تأذن به ولا أتقاضاك والحكومة البريطانية أجرة على ذلك. فضحك وفاه بكلمة لم أسمعها؛ لأن الخادم دخل يقول: الغداء حاضر. فاستأذنت وانصرفت.

خرجتُ من مكتب المندوب كما خرجت من مكتب الخاتون متيقنًا أن محجتي لا تزال بعيدة، بل إن العقبة الأخيرة بيني وبين نجد هي كما قلتُ في أول الفصل أشدُّ العقبات كلها. وليس الذنب في ذلك ذنب ابن سعود؛ فقد أجاب على كتابي كما تقدَّم بالإيجاب والترحاب. بيْدَ أن للإنكليزي في سياسته عواملَ يتساهل أحيانًا بالعرضي منها ليتمكَّن من مقاوَمة ما هو جوهري خطير.

جلستُ أسأل نفسي وأناقشها: هل يمنعونك وأنت تحمل الجنسية الأميركية؟ قد منعوا غيرك من هذه التبعة، وهم يكرهونها في العراق. ألا يستطيع قنصل أميركا السعي من أجلك كما فعل زميله في عدن؟ هو لا يعترف بالعجز ولا يتيقن الفوز إذا سعى. ألا يقدِّرون خدماتك في اليمن وعسير فيجازوك عليها ولو بإجازة سفر إلى نجد؟ الإنكليز لا يعترفون رسميًّا بخدمات تُقدَّم لهم مجانًا؛ قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون. وإذا رغب ابن سعود بزيارتك له ورغبوا هم عنها فأية رغبة تُحقَّق يا ترى؟ لا رغبتك ولا رغبة ابن سعود، فسلطان

نجد صديقُ الإنكليز كما أعلم ويرعى العهود.

هذا ما كنت أعتقده بسياسة ابن سعود في تلك الأيام، ولا أزال على شيء من الظن أنها الخطة المثلى – وإن كانت عليَّ فلستُ ألوم – فيما لا يضر بمصلحته ولا يجحف بحقوقه. فهل يُعقل أن يعادي سلطان نجد الإنكليز من أجل الريحاني؟! عييت عن الجواب، ولكني لم أفقد الأمل ولا يئست، بل سررت جدًّا برغم معقولي عندما قال المندوب السامي: سأزور قريبًا ابن سعود. فرأيت نفسي – وما الفائدة من الخيال ومن الأحلام إذا كانت لا تشركك بنعيمها؟ – رأيت نفسي مسافرًا وإياه إلى الحسا. ولم يهمني أني في عملي هذا أثبت التهمة على نفسي. فيقول المخدوعون من الأصدقاء والأعداء: أَلَا ترونه مسافرًا والمندوب السامي؟ فكيف لا يكون في خدمة الإنكليز؟ كنت أعود، ساعةَ يستحوذ عليَّ اليأس، إلى هذه الرؤيا فأُنعِش بها أملًا بزيارة نجد كاد يتلاشى، فينعشني الأمل وأسمع همسَ صوتٍ يقول: ولتغلبن الإنكليز.

أقيمت الحفلات الأدبية في بغداد، الأولى والثانية ... والعاشرة، وكانت الحكومة، حكومة الانتداب، تبعث مَن يسمع فيخبرها أو يخبر بالأحرى المس بل بما أقول. وأظنني هدمت جانبًا من معقل الريب في أول خطبة فهْتُ بها. تباركت في مثل هذه المواقف المرأة، فإنها أسرع إلى التصديق وحسن الظن من الرجل. دعتني المس بل إلى بيتها بعد ذلك مرارًا، وأقامت في مكتبة السلام التي هي رئيستها حفلة دعَتْ إليها كبار العراقيين والبريطانيين، وافتتحتْ هي الحفلة بخطبةٍ ما أثَّر فيَّ ثناء مثل الثناء فيها، ليس لأنه من امرأة عاملة فهيمة؛ بل لأنه من نفسٍ أحسنتْ بعد أن أساءت الظن، وأخلصتْ بعد أن أظهرَتِ الوداد.

ومع ذلك كنت عندما أقول: نجد. تقول هي: العراق. وعندما أقول: ابن سعود. تعللني بالوعود. ولَّى الشهر الأول وتلاه أسبوعان من الشهر الثاني في بغداد، وأنا رهين مكارم الأدباء العراقيين ومعهم –كما أشرت – بعض أفاضل البريطانيين. وقد تسنَّى لي أن أزور أثناء ذلك الأماكنَ التاريخية والآثار القديمة في العراق.

متى اتَّخَمَ السائح من بلادٍ ما، تُقفَل أبواب عقله دون الاستفادة منها مهما كان من أسبابها ومظاهرها، شبعت من العراق، وسَئِمت الإقامةَ خصوصًا في بغداد؛ لأني مرضت فيها ثلاث مرات بالحمى. زِدْ على ذلك أني كنت مشتاقًا إلى بلادي وأهلي، فحدَّثتني نفسي مرارًا بالسفر إلى لبنان. إلا أني كتمت ذلك عن المندوب وعن الخاتون، وما أظهرت غير تلك الرغبة الشديدة في زيارة ابن سعود، بل أشعت في مجالس رسمية أني لن أتحرَّك من بغداد حتى يجيئني الإذن بالسفر إلى نجد. الحرب خدعة، وحرب الإرادات لا تخلو من الخداع. إني على يقين أنْ لو علم المندوب السامي آنئذٍ بما جال في خاطري، لو علم أني سئمت الإقامة في بغداد وكنت على وشك السفر إلى لبنان، لَسوَّفني أسبوعًا آخر، ولأفلحتْ سياسةُ الملاطَفة والتأجيل؛ فأكون قد حُرِمت علم أهم ما في البلاد العربية اليوم.

ولكن المس بل أخذت الأمر بناصيته عندما حان وقت السفر للمندوب السامي، ووالتني معروفًا أسجِّله لها، شاكرًا سعيها وحُسْن ظنها. كلَّمتني يومًا بالهاتف وقالت: ستسافر مع المندوب السامي. بيْدَ أن سقوط وزارة لويد جورج في ذاك الحين اضطر المندوب إلى تأجيل سفره. وبما أني كنت وعدتُ أدباء البصرة بزيارة، سافرت من بغداد قبله، وفي نيتي حسب الاتفاق أن أنتظره هناك، فنترافق إلى البحرين ثم إلى العقير.

أشرت فيما تقدَّم إلى مظهر في سلوكي هو ثمرة الأسفار في البلاد العربية، بل ثمرة الحكمة العملية، فلولا تلك الحكمة كنت فشلت في أولى المراحل وعدت خائب الأمل. أجل، قد داريت في بعض الأمور، وأكثرها سطحية، لأفوز بكل ما أروم من العلوم والأخبار، أو بالأحرى كنت صريحًا على عادتي عندما كانت الصراحة تفيد. وقد كنت أشد تحفظًا واتقاءً في الأسفار حبًّا بالرجوع سالمًا أولًا إلى أهلي، وثانيًا إلى مهنتي؛ إذ ما الفائدة لمثلي من رحلة عربية إذا كنتُ لا أسلم فيها لأخبر عنها ولو في كتاب واحد؟

كانت الحكمة العملية شرعتي إذن ودليلي؛ فهي التي حملتني على السفر وحدي إلى ابن سعود، وأظنها أوحت للسر برسي كوكس كذلك في الموضوع فانتصح مثلي بنصيحتها، فأبرق يخبرني بأنه سيتأخر أسبوعًا ثانيًا، وأنَّ لي أنْ أسافر قبله إذا شئت. حسنًا فعل المندوب السامي، وحسنًا فعلتُ أنا كما سترى في سياق هذا الكتاب.

(٤) في البحرين

وقد حاوَل بعض أصحابي في البصرة أن يحوِّلوني عن عزمي وقصدي. قالوا: إني لا أقوى على مشقَّات الأسفار في البلاد النجدية، في تلك البلاد الغنية بالمفاوز والرمال. جسَّموا في عيني المخاطرَ في ركوب البعير، وفي الدهناء، وفي بلاد البدو والإخوان. كنت ذاتَ ليلةٍ أضيف حضرة الفاضل أحمد الصانع متصرف البصرة، وهو نجدي لا يزال يلبس العباءة والعقال، فقلت خلال الحديث عن اليمن: عندما دخلت إلى صنعاء أحسستُ أني رجعت بغتةً إلى الجيل العاشر. فقال أحمد باشا: وسترجع إلى الجيل الخامس في نجد. ما لك وهذه السياحة وكلها مشقَّات وأخطار! يمكنك أن تزور ابن سعود في الحسا وترجع. هو ذا نجدي يحذِّرني من السياحة في نجد. فهلا انتصحت وارعويت! لا أنكر أنه اعتراني آنئذٍ شيءٌ من الخوف.

على أنه زارني في اليوم التالي أديبٌ من الأدباء، شاءت الأقدار أن يكون بعدئذٍ رفيقي في السفر وعشيري في الرياض. فعرفتُ فيه العربيَّ الحرَّ ابنَ القفار والبحار الذي يسرُّك ويسيء إليك عفوًا دون تكلُّف في أحد الأمرين. وسيجتمع القارئ، من حين إلى حين، بالسيد هاشم بن السيد أحمد الرفاعي من الكويت؛ كان يومئذٍ في خدمة سلطان نجد كاتبًا من كتَّاب ديوانه، قد جاء البصرةَ في مهمة رسمية، فزارني يوم كنت — والحق يقال — في حاجةٍ شديدة إلى زيارةٍ مثله. حدَّثني السيد هاشم، فأزال ما كان يُخامِرني من الخوف في السفر إلى نجد، ومن الريب برغبة ابن سعود الحقيقية في زيارتي، ثم قال: عظمة السلطان يعرفكم مما يُطالِعه

عنكم في الجرائد التي تصل إليه كلَّ أسبوع، وهو متشوِّق إلى مشاهدتكم وينتظركم في الحسا ... نعم، السلطان عبد العزيز يحب الاجتماع بكل أديب عربي مخلص لبلاده. وقعت هذه الكلمات في أذني وقع الأنغام المطربة، ولكنتُ قبّلت السيد هاشم بين عينَيْه لو أن الرسميات التي ألفتُها في البلاد العربية تسمح بذلك، إلا أن القلب رقصَ طربًا دون أن يشينَ أدبي، أو يحطَّ من كرامتي أمام الزائر الكريم. سافرتُ وأنا في هذه الحال إلى البحرين، ومن حسن الاتفاق أن السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة.

البحرين، جزيرة اللؤلؤ، هي بعد الكويت أهم محطة في الجهة الغربية من خليج العجم لبواخر الهند وللتجارة بين الهند ونجد. وهي كذلك درجة أمام الباب – باب نجد الشرقي – لا بدَّ للمسافر أن يقف عندها، فيستبدل فيها بالبخار الشراعَ إذا كانت وجهته العقير أو القطيف. وفي البحرين وكالةٌ لابن سعود يرأسها عبد الله القصيبي أحد أعضاء البيت التجاري المشهور هناك.

نزلنا من الباخرة بعيدين عن الجزيرة، وسرنا في شراع فوق منازل اللؤلؤ الراقد تحت الأمواج، والبحر ساعتئذ رهوٌ، والهواء عليل، وشمس الصباح تتهادى على الاثنين، فبدت المنامة خلالها مشرقة بيضاء كأنها أبراجٌ شيدت من اللؤلؤ، بل هي أميرة اللآلئ وقد صعدت من أماكن الغوص واستوت على عرش الخليج. وكان الشراع يهمس سلامًا كلما مرَّ بشراعٍ آخَر، وكلها مثل أجنحة الحمام تميس وتتهادى على بساطٍ من الزمرد، كأنها تتلو القصائدَ في مديح ربة الدُّر ودُرة البحار.

وما ساءنا أنْ وصلنا إليها؛ لأنها عن كَثَب وعن بُعْد سواء، فمن الرصيف سرنا إلى بيتٍ على البحر جميلٍ أعدَّه القصيبي لضيوفه وضيوف سلطان نجد. وكنت أنا والسيد هاشم في اليوم الأول سيدَيْ تلك الغرف الفسيحة المشرفة كلها على الخليج، وذاك الإيوان الواسع الطويل المحيط بها من الجهات الأربع. ثم انفردت في اليوم الثاني بالسيادة، فأنساني هذا القصر سراديبَ في بغداد كنَّا نأوي إليها في النهار، وسطوحًا نلجأ إليها في الليل. ليست البحرين من بلاد نجد، على أن ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر إليها لترحِّب به، وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب. جاءني القصيبي بكسوةٍ وبخياط يومَ وصلتُ، فأصبحت في اليوم الثاني وأنا عربي نجدي فيما تحت وما فوق الزبون [1]. وزرت في المحرَّق الشيوخ، شيوخ آل خليفة، فعلمتُ آسفًا أني أخطأت فيما سبق من أمري، فلم أنزل ضيفًا عليهم، ولكني قمت ببعض الواجب، وكان عملي على ما أظن مُرْضيًا.

عند دخولي البحرين فقدتُ حريتي فيما يتعلق بالأسفار، أو بالأحرى تنازَلتُ للسيد هاشم عنها. وكان من فضل الرجل أنه وقف نفسه على خدمتي قبل أن ينتدبَه السلطان لذلك؛ فمنذ اليوم الأول في الجزيرة إلى

---

[1] الزبون في العراق وفي نجد هو القباء، أو ما يُسمى في سوريا القنباز.

آخِر يوم في الرياض تواصَلْنا وتآخَيْنا فيما يشمل العقبات وشيئًا من الروحيات. بيْدَ أنه لا بد في مثل هذه الحال من فترات تنقبض فيها النفس فتضيق الطريق، ويُسِيء الرفيق إلى الرفيق.

سافر السيد هاشم وحده إلى الحسا ليجيب عن المهمة التي انتُدِب لها في البصرة، فأرسلت معه كتابًا إلى عظمة السلطان أخبره بوصولي إلى البحرين، وعدت بعد أن خلوت بنفسي إلى النظر فيما اجتمع لديَّ من الآراء المتضاربة بابن سعود. عندما قربت منه سكن الشوق قليلًا، واستيقظ الفكر وما يلازمه من الهواجس والظنون؛ فقد كان شوقي قبل وصولي إلى البحرين كنارِ الغضا تأجُّجًا، فأصبح وقد قربت محجتي، وزالت — وذُلِّلت — العقبات الكبرى، كلهيب العَرْفَج صامتًا هادئًا.

ذكرت ما قيل في الحجاز وفي العراق: ابن سعود بدوي جاهل. ابن سعود جلف، لا قلب ولا دين له. هو من الخوارج، بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين. والإخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله، يسلبون وينهبون، ويكفِّرون مَن لا يقتدي بهم. يشنعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ... إن دعوة ابن سعود مذهبية لذلك لا تنجح خارج نجد. لا أمن في الجزيرة ولا راحة للعرب ومطامع ابن سعود تزداد يومًا فيومًا. هذا ما يسمعه الناس دائمًا في الحجاز وفي العراق، وقد ردَّدت الشام ومصر صدى القُطْرين.

وذكرت ما قيل لي في الحديدة وفي عدن وفي دار الوكالة البريطانية ببغداد: ابن سعود رجل كبير. هو نابغةُ بلاده، هو السياسي المحنَّك، والقائد الباسل، والحاكم العادل. هو أكبر أمراء العرب اليوم وأقواهم ... رجل عظيم رجل نجد. هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين إلى حين كبارُ الرجال، فيظهرون فجأةً ويسودون الناس بالعقل قبل أن يسودوهم بالسيف. هذا ما كان يقوله الإنكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق.

أما الرأي الأول فمصدره مكة والأشراف، بل هو ثمرة ذاك العداء القديم الذي لا يزال مستحكمًا بينهم وبين الوهابيين. ومصدر الرأي الثاني هو المشاهَدة والمنقول عمَّن شاهدوا. وقد يكون مصدره السياسة أو المصلحة السياسية. كنت أعجب عندما أغربل هذه الآراء المتناقضة في سلطان نجد لما تبقى في الغربال فأقول: وشهادة الصديق مثل شهادة العدو، أساسها الميل والغرض؛ فلا تصدِّق الأشراف ولا تصدِّق الإنكليز. الرجل حليف هؤلاء وصديقهم، وهو عدو أولئك الأكبر.

ثم اجتمعت في البحرين برجلٍ يرى غير ما يراه الفريقان، وهو أديب نجدي وهابي مُعجَب بابن سعود، إلا أنه قليل الكلام فيه. سألته رأيه فقال: أنت ذاهب إليه، والراغب مثلك في الحقيقة يصمُّ أذنيه ويفتح عينَيه. ثم قال: أسألك يا حضرة الأستاذ، بل أرجو منك أن تشير على عبد العزيز وتلحَّ عليه أن يفتح المدارس في بلاده. رسخت هذه الكلمة في ذهني؛ لأن قائلها مجرد عن الأهواء السياسية والمذهبية. هي مصباحٌ بيدِ صديقٍ لابن سعود أضاء موطنًا من مواطن الضَّعْف في بلاده، وقد ذكَّرتني بكلمة متصرف

البصرة: ستنتقل وأنت في نجد إلى القرن الخامس.

كان في البحرين يومئذٍ رجلٌ آخَر معجب بابن سعود، راغب في تحسين حال من أحوال نجد، هو الميجر دكسون وكيل المندوب السامي، أو بالأحرى مأمور الارتباط بين المندوب السامي في العراق والسلطان عبد العزيز؛ ذلك لأن السلطان طلب من الإنكليز أن يكون اتصاله بحكومة لندن رأسًا بوساطة مندوبها في بغداد لا بحكومة الهند[1]. والميجر دكسون إنكليزي، وُلد في سوريا وله شغف بالعرب وبلادهم. حدَّثني ذات يوم قال: ابن سعود رجل عظيم، وقد يكون نظري فيه نظر مَن يؤلِّه الأبطال. هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكَّن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم. عنده السيف، وله القلب الكبير، ولكن يلزمه إدارة في ملكه، ويلزمه زيادة في الخراج. إني أودُّ من صميم قلبي أن يكون القطيف ميناءً كبيرًا لنجد ترسو فيه البواخر، فتتحوَّل إليه التجارة من البحرين ومن الكويت، على أن ذلك يستوجب أن يكون في القطيف قنصل بريطاني، والسلطان عبد العزيز لا يقبل قناصل في بلاده. حدِّثْه في الموضوع عندما تقابله.

هاك من إنكليزي مُعجَب بابن سعود نورًا يضيء موطنًا آخَر من مواطن الضَّعْف فيه. ولكن هل هو من مواطن الضَّعْف؟ كأني بأهل نجد يقولون: نحن نخشى الأجانب ولا نريدهم في بلادنا. الرِّجل الأولى تجرُّ وراءها الألوف. إنه لَعذرٌ مقبول، ولكن ما العذر في الجهل؟ أيكره التعليمَ غيرُ البدو؟ أبدوي إذن سلطان نجد؟ وهل للبدوي أخلاقٌ سامية وشعورٌ لطيف، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والاعتدال؟ ها إني قربت من ابن سعود فقربت من الحقيقة فيه، وبتُّ أنتظر جوابَه لأصل إليها وأتيقنها بنفسي. وهاك الجواب الذي جاءني بعد أسبوع من سفر السيد هاشم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، إلى حضرة الوطني الغَيُور والمصلِح الكبير أمين أفندي الريحاني المحترم دامت أفضاله، آمين.

سلامًا وشوقًا وبعدُ، فبأشرف طالع ورَدَني كتابكم الكريم المنبئ بوصولكم إلى البحرين، وإنكم مُزمِعون التوجُّه إلى طرفنا. أهلًا وسهلًا على الرحب والسعة. بالله لقد سررتُ جدًّا بذلك؛ فطالما كنت مشتاقًا للُقْياكم، وقد حقَّقت الأيام شوقي والحمد لله، إلا أنه لا يسعني إلا أن أُظهِرَ شديدَ أسفي لعدم إشعاركم لنا تلغرافيًّا في حين توجُّهكم من البصرة، ذلك الأمر الذي أوجب فتورًا قليلًا في إخبارنا وكيلَنا في البحرين

[1] الفرق بين الاثنين كالفرق بين طريق العربات في الجبال وطريق الرجل؛ أي: المقربة. إن لحكومة الهند – مثلًا – وكيلًا في البحرين، ولها دوائر سياسية ونظارة خاصة في لندن لا يهم ابن سعود شيء منها؛ لأن علاقته هي مع نظارة الخارجية. وما حكومة الهند غير عقبة، بل هي مثل الدهناء بينه وبينها.

لملاقاتكم؛ لأني سألت الخبيرين بمعرفة أوقات وصول المراكب إلى البحرين، وعلمت منهم أن المركب القادم من البصرة ربما يتأخر؛ ولهذا وحده حصل تأخيرٌ منَّا، فأرجوكم المسامَحة. نحن بانتظاركم، وقد أمرنا وكيلنا القصيبي أن يهيئ لكم سفينةً تُقِلُّكم إلى العقير، وبوصولكم إليها تجدون السيد هاشم بانتظاركم. وبالختام تفضَّلوا بقبول الاحترام، ودمتم.

في ٢٧ ربيع أول ١٣٤١

الختم

هذا أول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز، نشرتُه لتظهر حقيقةٌ فيه أثبَتَ الخبرُ خبرها، فيظهر أن الرجل لا يتكلَّف اللطف والتواضع؛ لأنهما من خلاله الفطرية. ولكان اللطف والتواضع أجمل ما في الكتاب لولا درة الإخلاص، ومع ذلك فلا بد من التحليل والتعليل توصُّلًا إلى الحقيقة كلها. قد تقترن عفوًا رقة الشعور بالشدة حتى في البدوي؛ فهو إذ ذاك رجل كبير الخلق، وقد تقترن كرهًا؛ أي صناعة، فهو إذ ذاك سياسي يُحسِن التلبيس والمجامَلة. وقد لا تقترن قطعًا، فهو أَسَواء كان شديد البأس أم دَمِث الأخلاق، رجل عادي له من يومه ما لعامة الناس. فهل الرجل الذي أنا زائره ممَّن طُبِعوا على شيمة اللطف والرقة، وكانت القوة فيهم أو في أعمالهم بنتَ الحوادث والأحوال؟ أم هو سياسي محنَّك يغلب خصومه بالمكارم، ويسود أمته بالدهاء؟ هل ابن سعود من أولئك الأفراد القليل عددهم في البلاد العربية بل في العالم أجمع، أولئك الذين يبقون على شيءٍ من الفطرة مهما عظموا أو تعاظمت شئونهم، أولئك الذين يسيرون إلى محجَّتهم في الصراط المستقيم فيأخذون الحكمة من لوح الوجود لا من الكتب، ينبغون ولا يتفوَّقون، ويكرهون ولا يخاتِلون، ويحبون ولا يملقون، ويسودون ولا يظلمون، ويَعدلون ولا يخافون غير الله؟ إننا في الطريق وستنكشف لنا الحقيقةُ التي تخبِّئها الصحراء دون ذلك الأفق اللازوردي وراء تلك الآكام الذهبية.

(٥) في ظل الشراع

من حسنات الأسفار تنوُّع أسبابها وطرقها، وإن البطءَ في القديم منها أحبُّ إلى السائح من البطءِ في الحديث الذي اختُرِع ليطارد الريح فينهب —كما يُقال— المسافات. ما الفائدة من بخارٍ لا يُحسِن النهب؟ أبحرتُ من عدن ووجهتي ابن سعود، فاجتزت أولًا بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سَيْرها، ثم خليج العجم، فصغرت الباخرة وبخست العدة، وطالت علينا المسافة والأيام، ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج — هو أثرٌ من آثار الحرب — لا شكَّ أن قطار الشحن في أميركا أسرعُ منه، ثم عدت من بغداد في مركبٍ من مراكب دجلة، وقد آليتُ على نفسي ألَّا أكون غير شرقي كسول، فلا أعدُّ الساعات ولا أحاسب البخار والآلات، فكانت السَّفْرة لذلك جميلة، قصرت وإنْ تعدَّدت أيامها. ثم في رجوعي من البصرة إلى جزيرة البحرين خبرت في البواخر أبطأها سيرًا، فقلت: تباركت الأقدار في

الأسفار؛ هي تبدل في الأسباب التي تزداد بطئًا كلما قربنا من محجتنا، فنتمرَّن أثناء ذلك على الصبر وعلى التأمُّل والتفكير، وسنصل إلى تلك المحجة برغم طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية، اللهم إذا ثبتنا في السير والترحال.

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول إليها، وكيف لا وكل خطوة الآن تُدْنيني من البغية القصوى، فقد ذللت من العقبات البحر والإنكليز، ولم يبقَ أمامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار، وأرض لا تلين لغير الإبل. إن الساحل في تلك الزاوية، جنوبًا بغرب من البحرين، على مسافة أربعين ميلًا من المنامة، هو أول ما نشاهده من مُلك ابن السعود. هناك العقير[1] وشاطئ الأحساء الذي يُرى من مكانٍ في آخِر الجزيرة يُدعى رأس البر. أما المسافة بين البلدَيْن فهي رهن الشراع، والشراع رهن الرياح؛ فإذا لانت كان حظُّك من السفر على طريقة الأجداد ستَّ ساعات فقط. وإذا عارضت تفوز بالثلاثين، وقد تتجاوز الثلاثين إذا كنت إلى «نبتون» من المقرَّبين.

أحبني إله البحر فاستبقاني في مجلسي بالجلبوت[2] نهارًا واحدًا وليلتَيْن، بعد إبحارنا من مياه المنامة مساء سكنت الريح، ولم تتحرَّك بما يُرضِي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية. وكنت أثناء ذلك أذكر القصيبي بالخير، وأشكره خصوصًا على كرسي جعلتُه سريري، وعلى طاهٍ أنعشني بشيء من المرق.

وبينما أنا نائم في الليلة الثانية، أو بالأحرى مَرْميٌّ كطرد في القبة وقد برد الدم مني وتعقَّدت الأعصاب، سمعت صوت الناخوذاه يُصدِر الأوامر برفع الشراع، وسمعت الملَّاحين يردِّدون إنشادًا: «شلنا وتوكلنا علاالله. شلنا وتوكلنا علاالله». فتحركت في معقلي الصغير وقد أنعشني الهواء كما أنعش من الجلبوت الشراع، وشكرتُ مُسكِّن الرياح ومُثيرها، فقلت: لا شَيل يقينًا لولاه، ولا توكُّل على سواه، شلنا وتوكلنا على الله.

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من برٍّ ظننته الأحساء فما صدق الظن. وشدَّ ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت أننا لا نزال عند بر الجزيرة. على أن الرياح تجاري إذا شاءت البخار، وتسبق الحديد الدوَّار. ولا أظنك إذا كنتَ ملَّاحًا تماريني في ذلك. أجل، عندما ينتفض فيمتلئ الشراع، فقُلْ للمسافات: الوداع. إنْ هي إلا ساعة حتى اجتزنا رأس البر، وكان الهواء قد أثقل جفني فنمت قليلًا، ثم أيقَظَني صوتُ الملَّاحين يشتغلون في قلب الشراع طوعًا للريح ويردِّدون: صلِّ على النبي (صلِّ عالا النابي!) ما سمعت في

---

[1] القاف في بعض الكلمات تُلفظ جيمًا في نجد، فيقولون: العجير.

[2] الجلبوت مركب شراعي صدره، وهو للبضاعة، مرتفع مستطيل وفي مؤخره قبة أو علية للمسافرين يسمِّيها الملَّاحون عَرشة. وهو إذا كان كبيرًا شبيهٌ بالمهيلة في العراق وبالسنبوك في البحر الأحمر، وإذا كان صغيرًا فلا يكون له عَرشة فيشبه البلم. أما اسمه جلبوت، ولا يسمى كذلك إلا في البحرين، فهو على ما أظن تحريف Jolly boat في الإنكليزية؛ أيْ: مركب للنزهة.

أنغام الليل على المياه أطرب منها، إلا أن يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذِّن الفجر. ليس في صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الوَرَع والخشوع، وقلَّ فيها ما هو أجملُ وقعًا في النفس من صلاة الملَّاح في ظل الشراع.

صلَّى إخواني الفجر عندما دخلنا ميناء العقير، ورفعوا العلم؛ علم ابن سعود، وهو أخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه: لا إله إلا الله.

وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وأمير القصر، فمشينا معهما إلى البيت المُعَد للضيوف، وفيه سرير أبهجني مَرْآه، وأعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في إبطاء السفينة، وقرأ في وجهي قصةَ الليلتين، فتركني والسرير وانصرف.

ذكرت الأمير والقصر؛ فلا يظننَّ القارئ أن القصر قصر وأن الأمير أمير، بل هي أسماء اصطلح أهل نجد عليها؛ فهم لا يرغبون في الألقاب بل يزدرونها، ولا يرون غير المساواة وقد ساوى بينهم دين التوحيد شرعًا وسنة.

أما إذا شاء إمامهم أن يسمِّي عمَّاله أمراء، فهم لا يعترضون، وإذا شاء النجدي أن يسمي خربة له في الصحراء قصرًا، فلا الإمام يعترض ولا الرعية. أما الأمير الحقيقي عندهم فهو مَن يعبد الله وحده، ولا يشرك به أحدًا، ولا يخاف ولا يرتجي سواه. وأما القصر الحقيقي فهو المسجد.

ليست العقير بمدينة أو قرية، ولا هي حتى مضربًا من مضارب البدو، إنما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرتُ، ولجمرك من جمارك نجد في الأحساء على ساحل الخليج. العقير هي أحد موانئ السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجبيل شمالًا منها، ولكنها موانئ قلَّما يُرى فيها غير المراكب الشراعية. ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية إلى نجد.

أما القصر، فهو بناء كبير مستطيل يُقِيم في جناحٍ منه الأميرُ والضيوف، ويُستخدَم الجناح الآخَر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الأنفار. وأمام القصر على الساحل ساحةٌ كبيرة تمرح فيها الإبل وتُنزل إليها البضاعة، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم أحمالها: الخام والأرز والسكر من بمباي، والنفط من عبَّادان (احملها يا بعير إلى ما وراء الدهناء). والتمر من الحسا، والجلود والصوف من سدير، والوشم والسمن من الخرج والأفلاج (خذها يا جلبوت إلى البحرين لتُنقَل من هناك إلى ما وراء الخليج والبحار).

(٦) الملتقى في النفود

يوم سفري من البحرين أخبرني الميجر دكسون بأن المندوب السامي السر برسي كوكس يسافر من بغداد في القريب العاجل، وقد يصل إلى الجزيرة بعد بضعة أيام. وعندما وصلت إلى العقير أخبرني السيد

هاشم بأن عظمة السلطان يخرج قريبًا من «الحسا» ليلاقي المندوب السامي في المكان الذي نحن فيه، فأخرجتُ خارطتي وقستُ المسافة بين الحسا والعقير — ٤٠ ميلًا — وقابلت بين اثنتَيْ عشرة ساعة على الذلول ذهابًا ومثلها إيابًا؛ إذ لا بد من الرجوع مع السلطان، وبين يوم على الشاطئ أستعيد فيه قواي وأستعد، أتمرَّن على ركوب البعير، للسفر في البادية، فكان الحكم والحكمة في جانب الثاني. وكتبتُ إلى السلطان أُطلِعه على حقيقة حالي وأستشيره في الأمر: إذا أمرتم بالقدوم إليكم أو بانتظاركم في العقير، فسمعًا وطاعةً في الحالَيْن.

حمل كتابي نجاب الأمير صباحَ الثلاثاء، وعاد صباح الأربعاء بجواب فيه ما تنامى من لطفِ الأسلوب ورِقَّة الشعور: الأمر راجع لرغبة حضرتكم وتبعًا لراحتكم. وقد أخبرني السلطان أنهم سيخرجون يومَ الخميس من الحسا ويسيرون الهوينا ليصلوا صباح السبت إلى العقير.

كنت قد عزمت على مُلاقاته في منتصف الطريق إذا قويت على ذلك، وعندما علمتُ من السيد هاشم بأن سموَّه قد يرغب في الاجتماع بي قبل أن يجتمع بالمندوب السامي شدَدْتُ حقوي وقلت: إلى البادية.

أُعدَّت لنا الركائب فسرحنا — سافرنا — صباح الخميس أنا ورفيقي الأديب يصحبنا خمسةٌ من الخدم، وكان أول عهدي بالذلول[١] وبالنفود[٢]، فأبهجتني هذه وأزعجني ذاك. بل كنت في كل حركة أحس بشيء تحتي أو حول رجلي وجنبي لا يجوز في نظري أن يكون هناك. والغزالتان[٣] بليتان، تدق الواحدة صدري والأخرى ظهري كلما حدوت إلى الأمام وإلى الوراء. والكور، أكاد أطيح منه؛ هو مائل إلى الأمام، مائل إلى اليمين، مائل إلى اليسار! والشداد — الرحل — إن فيه ما يحتكُّ بالجنب، وما يقرص الرجل، وما يسيء —

---

[١] الذلول الهجين المعد للركوب، من ذُلِّل «للركوب». ولا يكون الذلول غالبًا إلا ناقةً، وما سمعت له جمعًا؛ فهم عندما يريدون الجمع يقولون: الركائب.

[٢] النفود بادية رمل بين ساحل الخليج والأحساء، تمتد من القطيف شمالًا إلى رأس الجافورة جنوبًا، وعرضها من حيث تقطعها إلى الأحساء ٢٥ ميلًا. أما الاسم فقد يكون مشتقًّا من نفد؛ أيْ: نفدت الأرض من الماء والكلاء. والنفود تختلف عن الدهناء في تكوين تلالها الرملية وعُلوِّها، فهي في بعض الأماكن شبيهة بالجبال، وليس فيها مفال؛ أي: مراعٍ. والدهناء في بلاد العرب واحدة، والنفود كثيرة.

[٣] الغزالتان خشبتان مرتفعتان مستقيمتان في الكور، واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الوراء تقيان الراكب من السقوط، وتُستخدمان في التحميل لشد الحبال وتعليق الأحمال. وهما في شكلهما وفي وضعهما أنواع؛ فالغزالتان في نجد مثل الخطَّين المستقيمَين في الهندسة، أو مثل الشمعتين في شمعدان واحد. وفي بعض الأكوار تراهما مائلتين الواحدة نحو الأخرى، وترى الراكب بينهما كأنه فحمة في ملقط. ولكن النجدي على الذلول أقوم من الغزالة وأثبت. أما في الشمال؛ أيْ في بادية الشام، فالغزالة تُوضَع في شكل زاوية منفرجة؛ الواحدة إلى الوراء، والأخرى إلى الأمام، فيصبح مكان الجلوس في الكور منفرجًا، والراكب مهما حدا في مأمن من الدق والاحتكاك. أما أهل عمان فهم يستغنون عن الغزالة، والكور عندهم مثل السرج الإنكليزي.

يسيء الأدب! يا سيد هاشم!... فأجابني بقوله: أبشِرْ أبشِرْ.

بارك الله فيه! ما كان ألطَفه في تلك الأيام وأكرَمه. أَنَخْنا الركائب، وجاء أحد الخدم يقول: سم [١]، فعدل الرحل وأصلحه. ثم ركبنا وتوكلنا على الله، فاجتزنا الأول والثاني من آفاق النفود الذهبية، ووصلنا إلى مكان يُدعى أم الذر [٢]، أَنَخْنا فيه، وكنت أنا أسرع إلى ذلك من سواي؛ لأن «سم» الخادم لم تُصلِح الرحل ولا ألانت قلبَ الغزالة.

عندما أَنَخْنا طفق الربع ينكتون الرمل بأيديهم فيظهر الماء تحت قدمٍ أو قدمين منها. إن أم الذر مورد القوافل الوحيد في هذه الطريق من النفود.

ملأنا القِرَب واستأنفنا السير، وكان معنا حمَّار مجَّان، كثير الأسفار والهذيان، يحمل حماره بعض المواعين والحطب، وهو يعدو وراءه كالسعدان، فيرقص رجلَيْه ويدَيْه، ويُسمِعنا نكات أهل الأمصار – البصرة والبحرين والكويت – ويمثِّل لنا رقص البطن، ويردِّد كلمات ما سمعتها لا في الشرق ولا في الغرب.

حمَّار مجَّان! ما رأيت أصقع منه حينما كان يجثو على ركبَتَيْه كل مرة يظن نفسه أجاد، وما أجاد بغير البذاءة لفظًا وإيماءً. على أنه أنساني بعض ما كنت أقاسي من ركوب الذلول. وكانت ضحكتي تضيع في قهقهة الربع، وكلمتي تتلاشى عند أمواج ثرثرتهم.

– اسمع يا هويدي – تصغير عبد الهادي – جاوِب الأستاذ. هو يسألك أيشو الـ «مَوْتر»؟ [٣]

– الموتر يا أفندي تجري، وتغزل، وتدور. الله، الله! الدمشوقة، الخفيفة، السريعة الحركة هي الموتر.

قال هذا وهو يهز كتفَيْه وعطفَيْه. مهما كان من بذاءة الرجل فقد أحسَنَ إليَّ في يومي الأول في البادية، فخفَّفَ مَشقَّةَ عشرين ميلًا اجتزناها في ذاك اليوم. ثم مرحنا [٤] العصر في مكان يُدعى العلاة [٥]، وعلمنا من بعض الذين كانوا قادمين من الحسا بأن الشيوخ [٦] مارحون في الجشة على مسافة عشرة أميال منا. فأرسل

---

[١] سم: مختصر بسم الله في اصطلاح أهل نجد.

[٢] أم الذر: من شجر حول المكان يُدعى الذر، وهو شبيه بالعشر.

[٣] على ساحل الخليج وفي العراق يسمون السيارة «موتر» من اسمها الإنكليزي Motor، ويطلقون في البصرة اسم الموتر على الراقصة التي تجيد الرقص.

[٤] مرح القوم: أيْ أناخوا للمبيت. وسرحوا: أيْ خرجوا من مراحهم. ويُسمَّى المكان المراح. أمَّا الإناخة فلا تكون إلا للراحة ولشرب القهوة أثناء الرحيل.

[٥] العلاة من علو المكان على ما أظن، وهو لا يعلو أكثر من ثلاثمائة قدم فوق سطح البحر.

[٦] يطلق لفظ «الشيوخ» في الأصل على الإمام وحاشيته من أقاربه وخَدَمه إذا كانوا مجتمعين. ولكن أهل نجد يخرجون عن القاعدة الأصلية فيقولون: الشيوخ وهم يريدون السلطان أو الإمام بعينه.

السيد هاشم رسولًا يُعلِمهم بمكان مراحنا، وأننا سنقف لهم هناك في الطريق صباح الغد، وأظنه، رغبة في راحتي، أباحَ للرسول بما كنت أحاول كتمانه. قل للإمام: ذبح[1] الذلولُ الأستاذَ.

ولكن التعب والألم لا يدومان طويلًا في فسح الرمال وسكينة النفود، فبعد أن نصبنا الخيمة وشببنا النار وتقهَّونا[2] تهافتت حسنات المكان عليَّ، فملكني من السرور ما كان قد هجرني راكبًا، ورحت أتغنَّى بمدح أرض يحلو هواؤها، يحلو شكلها وفسحاتها، ويحلو لونها وسكونها. يحلو وطؤها، تحلو مجسَّتها. وبعد العشاء تبارينا برمي الجريد، وتسابقنا حفاة في العدو، ووقف ماجد على يديه ليبرهن لرجحان أن رجليه أعلى من رأسه (أيْ رأس رجحان)، وأنه مستقيم وإن كان ابدُوي – بدويًّا –كيفما وقف أو مشى، وأنه قوي يغلبه بكل شيء: بالصراع، بالعدو، بالقنص، بالركوب، وبالـ.. أوقفناهما عند هذا الحد في المفاخَرة، فاستعاضوا عنها بالغناء و«اللعب»؛ أي الرقص.

دخلتُ الخيمة والخدم لا يزالون في السمر، فاستلقيت على السرير وأنا في بهجة مَن حقَّقتِ الأيامُ حلمًا من أحلامه. فها هي الصحراء، وهو ذا الهجين، وهؤلاء العبيد عبيدي، وها أنا ذا جار لأمير من أمراء العرب، لسلطان نجد. ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتًا يسأل: من الربع؟ أناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم، رجلان من رجال السلطان، جاءا يُنبِئاننا بأن رسولنا وصل، وأن سموه ... نهض السيد هاشم مدهوشًا وبادر إليَّ يقول: قم يا أستاذ، قم حالًا. السلطان قادم إلينا.

نهضت مسرعًا فارتديت ثيابي. وما أحسن الثياب العربية خصوصًا في مثل هذه الحال! حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم، ثم كوفية وعقال ثم ... حي الله الجاي، مرحبًا بالضيف.

راح الربع يجمعون الحطب للنار، وفرشنا أنا والسيد هاشم البيت! مددنا السجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسندًا على عادة العرب. وهذا كل ما هنالك تأهُّبًا لاستقبال مليكٍ من ملوك العرب.

وكان الليل صافيَ الجبين، رقيقَ الجلباب، شأنه في البادية. تدنو النجوم في سمائه من الأرض بريقًا، وتُسمَع فيه الأصوات، كأنها على طول المسافات، الأبواق في الغابات، لها دوي لطيف ينجد ويغور، وصدى يتموج كالنور، وما أرهب وما أجمل صوتًا سمعناه آنئذٍ وراء الآكام في مروج الليل ينادي: يا سُعَيِّد، يَسْعَايِّد! مبشِّرًا بقدوم السلطان أو بمروره في ذاك المكان.

إن المنادي ليتقدَّم الموكب السلطاني حتى إذا سمعه أحد من البادية أو الحضر يروم من سيد البلاد أمرًا، أو يحمل إليه شكاية، أو يبغي الركوب في موكبه، فهو يقصد مسرعًا إلى مكان الصوت، فيفوز ببغيته. يا

[1] أنهَكَه وأَضْناه في اصطلاحهم.

[2] شربنا القهوة.

سُعَيِّد، يَسْعَايِّدْ![1]

وبعد هنيهة ضجَّ المكان بموكب السلطان، فأناخ عندنا، على أكمتنا، حول شراعنا الصغير، مائتان من الركائب، وهي تزبد وترغي: إخ، إخ. وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل، ثم نُصبت الخيام، وشُبَّت عشرات من النيران، وسُمِعت على الفور المداق في الأجران.

خرجنا نبادِر إلى استقبال الزائر الكبير، فإذا هو قد خفَّ إلينا، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته. قلت الزائر وهو الذي شاء تلطُّفًا وتنازلًا أن يعكس الآية! وكانت المشاهدة الأولى على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المتقدة حولنا، ألفيته رجلًا لا يمتاز ظاهرًا بغير طوله، وكان يلبس ثوبًا أبيض، وعباءة بنية، وعقالًا مقصبًا فوق كوفية من القطن حمراء.

أين أبهة الملك وفخفخة السلطنة؟ إنك لا تجدها في نجد وسلطانها. وإن أول ما يملكك منه ابتسامةٌ هي مغنطيس القلوب. لست أدري كيف حييته وأنا في دهشةٍ وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة، ولكني أذكر أنه حيَّاني باسِمًا بالسلام عليكم، وظلَّ قابضًا على يدي حتى دخلنا الخيمة، فجلس والكور إلى يمينه يستند إليه، والنار قبالته تنير وجهه.

ثم عرَّفني بمَن كان في معيته، وهما الدكتور عبد الله الموصلي[2] وعبد اللطيف باشا المنديل[3]، فجلسنا كلنا في صف أمامه.

وما أضعنا وقتًا في تبادل المألوف من السلام والتحية. اعتذرت عن الإبطاء في الوصول إليه وقلتُ أنْ سأطلعه على حقيقة الأمر فيعلم أن الذنب ليس ذنبي، فقال: علمنا بذلك واستغربناه، أمَّا نحن فما ترددنا ولا أبطأنا في الجواب، وكيف نردُّ مَن يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب؟! قالوا لنا: إنك أميركي وجئتَ تبشِّر بالدين المسيحي في البلاد العربية، وقالوا إنك تمثِّل بعض الشركات وجئتَ تبغي الامتيازات، وقالوا إنك قادم من الحجاز وإنك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف، وقالوا غير ذلك، فقلنا: إذا كان في

---

[1] سُعَيِّد: تصغير التصغير الشائع كثيرًا في نجد. وسُعيد نداء ابن سعود يدل على تواضُع في أمراء هذا البيت جميل؛ كأن الأمير يقول لكل واحد من رعيته: إن السعادة الكبرى من الله، وأما الصغير منها فقد يجيئكم من الأمير. ولأكثر أمراء العرب منادون، وكلمة نداء خاصة بهم يُنادى بها كذلك يومَ يخرج الأمير إلى الحرب أو إلى الغزو. في الحجاز مثلًا كان نداء الملك حسين: يا فرحان. وفي جبل شمر كان نداء ابن الرشيد: يا مرزوق.

[2] الدكتور عبد الله الدملوجي الموصلي هو طبيب السلطان، وكاتب سره في الأمور الخارجية، ورسوله وترجمانه ووكيله فيما يختص بالأجانب؛ سواء أكانوا من رجال الحكومة أم من رجال العلم السائحين، والدكتور عبد الله درس في الآستانة، وخبر الطبابة في الحروب، وخبر الحياةَ في عواصم أوروبا، فطاف وشاف وعاف – عافاه الله! – ثم رسا في نجد.

[3] عبد اللطيف باشا المنديل، صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق، هو نجدي الأصل، عراقي الإقامة، ولا يزال للبداوة أثر في حديثه وفي سلوكه الحر.

الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتَّقِيه، وإذا كان فيه ما ينفع فنعرف أيضًا كيف ننتفع. ونحن أعلم يا حضرة الأستاذ بمهمتك، بارَكَ الله فيك!

فاستأذنت أن أخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي، فقلت: وقد تم الأول بمشاهدتكم، وسيتم الثاني بما سأكتب إن شاء الله فيما شاهدت، أما الثالث فلا يتم إلا بمساعدة ابن سعود. وإني متيقِّن يا مولاي أن الوَحْدة العربية لا تتحقَّق إلا باجتماع أمراء العرب كلهم للتعارف أولًا والتفاهم، فهُم اليومَ في معزل بعضهم عن بعض إذا لم نقل في احتراب دائم، ولا يعرف الواحد منهم الآخَر معرفةً حقيقية.

فأجابني بكلمةٍ صريحة رددتُّها بمثلها دون أن أدرك أنها تلمس فيه وترًا حسَّاسًا؛ فقد تكلَّمتُ في حضرته عن أمراء العرب كما تكلَّمتُ في حضرة سِواه، ولكنه — وهو يعرف أنه كبيرهم ويظن أنهم في غير بلادهم لا يُعتَدُّ كثيرًا بهم — لم يسكت عما قلتُ، فما كدتُ أنتهي من كلمتي أن أمراء العرب في عُزْلةٍ بعضهم عن بعض حتى قال: ومَن هم العرب، حَنَّا [1]العرب. قال ذلك وضرب السجادة بقضيبٍ يحمله من الخيزران.

من غريب الأمور أننا في الجلسة الأولى تناقشنا في الموضوع، وما كان ذلك نقصًا في تأدُّبي، فلم أكن لأُقدِم على مُساجَلته في تلك الساعة لو لم يتقدَّمني بصراحةٍ علمتُ بعدئذٍ أنها من سجاياه الكبيرة، وأنه قَلَّما يقف فيها عند حدٍّ من التحفظ. أجل، قد هدم السلطان بكلمةٍ من كلماته حواجز الرسميات، فجعل نفسه، تنازلًا، في مقام الصنو والرفيق.

— لك الحرية يا حضرة الأستاذ أن تتكلَّم معي بكل حرية، ولا أقبل منك غير ذلك، وأنا أكلِّمك بكل حرية، ولا تتوقَّع مني غير ذلك. أنت تقول: أمراء العرب. اسمع أنا أعلِّمك. أنا أعرفهم، وقد خبرتهم، وعجنت عودهم. العرب يا حضرة الأستاذ لا يعرفون إلا مصلحتهم، وغالبًا لا يعرفونها فنُعلِمهم بها ونُكرِههم عليها، وقد قاسَيْنا كثيرًا في سبيلهم، وكانت الخيانة في أقرب الناس منهم إلينا.

دخل عبد من العبيد يحمل بيده اليسرى إبريقَ القهوة وباليمين الفناجين، فصبَّ للسلطان أولًا، ثم لي، ثم للحضور.

— أتعرف يا أستاذ أننا أول مَن دعا أمراء العرب إلى الاجتماع والائتلاف؟ وسنُطلِعك إن شاء الله على ما يُثبت ذلك، فتتأكَّد أننا أقربهم إلى الألفة والاتحاد. حنَّا أهل نجد لا نبغي المحافَظةَ إلا على أمرَيْن: ديننا وشرفنا ... ثم قال: ولا نُثقِل عليك الليلةَ وفيك تعبٌ يدعو إلى النوم.

قمنا نشيِّع السلطان، وكان قد انتصف الليل فخيَّم على المضارب السكون، ولم يبقَ حولها غير بصيص من النار. وعندما عدت إلى الخيمة التي كانت منذ حينٍ مجلسَ سلطان أقلُّ ما يُقال فيه إنه عربي حُر كريم، لم

---

[1] حَنَّا: أي نحن.

يكن «فيَّ» لا تعَب ولا نوم، فجلست أستعرض أحاديثي معه، ثم أشعلت الشمعة وكتبتُ في مذكراتي بضع صفحات أنقل منها ما يلي:

ها قد قابلتُ أمراء العرب كلهم فما وجدتُ فيهم أكبر من هذا الرجل. لستُ مجازفًا أو مُبالغًا فيما أقول، فهو حقًّا كبير؛ كبير في مصافَحته، وفي ابتسامته، وفي كلامه، وفي نظراته، وفي ضربه الأرض بعصاه. يفصح في أول جلسة عن فكره ولا يخشى أحدًا من الناس، بل يُفشِي سِرَّه، وما أشرف السر! سِرَّ رجل يعرف نفسَه، ويثق بعد الله بنفسه. «حنَّا العرب!» إن الرجل فيه أكبر من السلطان، وقد ساد قومَه ولا شكَّ بالمكارم لا بالألقاب ...! جئت ابن سعود والقلبُ فارغٌ من البُغْض ومن الحب كما قلتُ له؛ فلا رَأْي الإنكليز، ولا رَأْي الحجاز، ولا الثناء ولا المطاعن أثَّرت فيَّ، وها قد ملأ القلب؛ ملأه حبًّا في أول جلسة جلسناها، على أن الحب قد لا يكون مقرونًا دائمًا بالإعجاب. سنرى. قد عاهَدْتُه على أن أكلِّمَه بصراحة وحرية، وسأكون فيما أكتبُ كذلك حرًّا صريحًا ... ولكنني أُحسِن شيئًا من الفَراسة، وصِرتُ أركَنُ إلى ما تشعر به النفس في المقابَلة الأولى، فضلًا عما عندي الآن من أخبار الملوك للمقابَلة والتفضيل ... إني سعيد لأني زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم. هو حقًّا مِسك الختام.

كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل عندما نمتُ، والساعة الرابعة عندما أيقَظَني رفيقي السيد هاشم قائلًا: قام السلطان. وكانت ضجَّة التأهُّب للرحيل. سمعت الإبل ترغو وتعج، وقد بادَر العبيد والخدم إليها بالرحال والأحمال، ورأيت النارَ تشبُّ في كل جانب، وسمعتُ المداق في الأجران تدقُّ البن، ثم صوتًا يؤذِّن الفجر: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم! لا إله إلا الله، لا إله إلا الله! وما هي إلا فترة حتى صلى السلطان ورجاله وشربوا القهوة وارتحلوا. رفع العربُ الخيامَ كما يقول الشاعر، وسرحوا ساكتين.

(٧) في موكب السلطان

من عادات العرب في السَّفر، خصوصًا عرب نجد، أنهم يتنادَون ويسرون باكرًا. والسلطان عبد العزيز أبكرُ المبكرين دائمًا وأعجلهم تأهُّبًا للرحيل، حتى إنه ليصلي الفجر أحيانًا أول وقت الصلاة كي لا يضطر إلى الإناخة بعد ذلك قبل الضحى. هو نظامٌ عسكري يتمشَّى عليه، ولا بدع، فالرجل قويُّ البنية، شديدُ العصب، يَكفِيه من النوم ساعتان، ثم ربع ساعة للرحيل.

وها هنا غُلِبتُ. قد يكفيني ما يكفيه من النوم، ولكني في يومي الثاني في البادية لا أستطيع ما يستطيعه، لا في التأهُّب ولا في الركوب، إلا أن أعجوبة حدثتْ صباحَ ذلك اليوم؛ فكان قد سبقنا الموكبُ الكبير، موكب السلطان، وسرت أنا والسيد هاشم في موكبنا الصغير نحثُّ الركائبَ حتى لحقنا به بعد ساعة. وكان الشفق يتموَّج ورديًّا وعصفريًّا، على الآكام، وعقال سلطان نجد الذهبي باديًا في رأس الموكب فوق كل الرءوس. فاخترقت الصفوفَ أحثُّ ذلولي، وأنا مُعجَب بمهارةٍ في الركوب جاءتني دفعةً واحدة، فجأةً، كما

يجيء الوَحْيُ الشعراء[1]، فاعتزلت ربعي وسرت مستقلًّا أبغي إلى جانب السلطان مكانًا، وفُزت به فقال إذ رآني: ما ظنناك تنهض باكرًا.

صبَّحت ابن سعود أولَ مرة من عُلى السنام في النفود، وسرت وإياه نحدو في وجه الشمس بصفٍّ يتراوح عددُه بين الخمس والخمس عشرة من الركائب يتبعه خمسة صفوف أو خمسة عشر أُخَر دون نظام في مثل هذه الحال. إننا في الطريق لا إلى الغزو أيها القارئ، بل إلى مؤتمر سِلْم يُعقَد في البادية؛ لذلك كنتَ ترى البنادق[2] معلَّقة بالرحال من الوراء، والسيوف في أغمادها، ثم في بيوت من الجلد تتمايل حولها اللفائف الحمر والشراريب الطويلة، وكلٌّ في رحله مُلتفٌّ بعباءة السكينة والاطمئنان. إنه لَموكبٌ بهيج مهيب، وكنت أفضِّل السيرَ في مؤخره لأملأ النظرَ منه لولا رغبةٌ أشد، وواجبٌ أحبُّ إليَّ.

السلطان عبد العزيز فصيحُ اللسان، سريعُ الخاطر، لطيفُ الجواب، وهو مثل أمراء العرب كلهم يقدِّم السياسة في الحديث، وتهمُّه على الخصوص منها سياسةُ أوروبا في الشرق الأدنى. على أنه شاء صباحَ ذاك اليومِ أن يكون الموضوعُ أميركا وسياستها مع الأحلاف.

سألني السبب في سقوط الرئيس ولسون، فأعلمتُه بطُرق الانتخابات هناك، وبما للأحزاب السياسية من السيطرة على الحكومة وعلى البلاد.

— عجيب! أَلَا يَسُوقهم الشقاقُ إلى الحروب!

— يَحلُّون مشاكلَهم السياسية بالاقتراع.

— زين. وكم حزبًا عندهم؟

— الرئيسية اثنان، والثانوية كثيرة.

— زين. وكيف يُرضِي الحزبُ المنتصِر بقيةَ الأحزاب؟

— الأقليةُ تخضع يا مولاي لحُكْم الأكثرية.

— وكيف سقط ولسون إذن وهو الحاكم، والأكثرية مع الحاكم؟

— لم تكن معه في الانتخاب الأخير؛ فقد هجَرَه من أنصارِه كثيرون، انقلبوا واقترعوا عليه.

فهزَّ السلطان عصاه يُرِبِّت بها رقبة الذلول وقال: لا أظنهم أحْسَنوا؛ لأن ولسون رجلٌ عظيم، وله

---

[1] قد يكون الفضل في ذلك للذلول لا لي، وقد علمتُ بعدئذٍ أنها من العمانيات؛ أيْ نجائب الإبل التي تأبى السَّيْر إلا في مقدمة الجيش.

[2] العرب يختصرون لفظةَ بندقية فيقولون: بندق جمعها بنادق.

الفضلُ الأكبر في تنبيه الشعوب الصغيرة المظلومة. استنهَضَهم ولسون إلى الحرية والاستقلال، وهو أيضًا عرَّفنا بأميركا، ما كنَّا نعرفها قبل ولسون، أما اليومَ وقد تكلَّمَ بلسانها، فله فضلٌ عليها كما أن فضلها على العالَم ... أنا أحترم أميركا، يا حضرة الأستاذ، وإنْ كانتْ سياستُها الآن مع الأحلاف غيرَ سياسةِ ولسون ... أميركا أم الشعوب الضعيفة، ونحن العرب منهم، والعاقل يَكفِيه التنبيه والإشارة ... أنا أحسن إليك – ومالَ بوجهه إلى مَن كان في الجانب الآخَر منه – أفتبغي كذلك أنْ أُطعِمَك بيدي، أن أضع اللقمة في فمك؟ يكفي ما عملته أميركا، ما قالته للشعوب الصغيرة المظلومة، ما قاله ولسون عنها، والعاقل مَن سعى وانتفع.

أما أوروبا، فللسطان عبد العزيز رأيٌ فيها أفصَحَ عنه بكلمةٍ بليغةٍ وجيزة؛ إذ قال: أشبه أوروبا اليومَ بباب حديد كبير، ولكن لا شيءَ داخل الباب. وهو لذلك لا يلوم أميركا على اعتزالها الأحلافَ وانسحابها من السياسة الأوروبية. ثم قال مخاطبًا أحد رجاله: إن مشاركة أميركا وأوروبا اليومَ مثل مشاركتي أنا ابن سعود وبادية الشام. ترى الصحيح.

فهزَّ الرجل رأسَه استحسانًا.

صعدنا إلى أكمة فسيحة مستديرة بين العلاة وأم الذر، اختارها السلطان مناخًا، فأَنَخْنا وتفرَّقنا أرهاطًا، كلُّ رهط جلس في حلقةٍ على الرمل. وكان وقت الضحى[1]؛ أيْ ساعة الفطور، فطاف الخدم بجفان مما كان قد طُبِخ الليلةَ البارحة من الأرز واللحم، ثم قدَّموا التمرَ وصبُّوا اللبن من القِرب لمَن أراد، فأكلنا وغسلنا أيدينا، وكان السلطان قد انتهى كذلك من طعامه، فسمعناه ينادي من مكانه: أنجيئكم أو تجيئوننا؟ فبادَرْنا إليه فتصافَحْنا، ثم عرَّفني ببعض حاشيته؛ أذكر منهم أخاه محمدًا وعبد الله بن متعب أمير حايل، وعمَّه فيصل بن الرشيد، فوقفوا صفًّا أمامي بعد المصافَحة والتسليم دون أن يَفُوهَ أحدُهم بكلمة، ثم بإشارةٍ من السلطان انصرفوا، فجلس إذ ذاك سموُّه على الرمل وقال: تفضَّل يا أستاذ، هذه أحسن سجادة عندنا.

يقينًا هي كذلك؛ فأيُّ فرش أنعم من رمل النفود وأنظف؟ وأيةُ سجادة أجملُ لونًا وأعجبُ صنعًا؟ جلسنا متربعين على أفخر الطنافس في مجلس الله، وكان السلطان فينا أجملَنا اتضاعًا وأفصحَنا في لغة الحكمة والورع لسانًا: «حنَّا» أهل نجد نبغي المحافَظة قبل كل شيء على أمرَيْن: ديننا وشرفنا.

استأنفنا السيرَ وأَنَخْنا بعد ساعتَيْن عند أم الذر التي كانت مراحنا ذاك اليوم، فسرحت الإبل، ونُصبت الخيام، فكان فسطاط السلطان على رأس الأكمة والمضارب حوله متفرِّقة متنوعة، منها الخِيَم الأوروبية،

---

[1] قبل الظهر بساعتين. والمكان الذي يُنِيخون فيه للفطور يُسمَّى المضحى.

ومنها بيوتٌ من الشعر كبيرةٌ وصغيرة، ثم حُفِرت الحفر وشبت فيها النار، وأخرجت المعاميل[١]، وبعد قليل شرع السقاة يطوفون بالأباريق والفناجين. جاء عبدٌ يدعوني إلى مجلس السلطان، فشربت القهوة هناك وبقيت وسموُّه ساعةً كان الإنكليزُ فيها موضوعَ الحديث.

عدت إلى خيمتي وبي شيءٌ من التعب والنعاس، فوجدت فيها جيشًا من الذباب استحال عليَّ طرده والتغلب عليه. ما رأيت حياتي أثقل وأقبح من الذباب في البادية، في صحراء الرمل، في تلك الجنَّة التي جرَّدها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب، فجاء الذباب يُفسِدهما عليك، ومن أين يجيء؟ هو يركب الذلول وإياك؛ على ظهرها، وعلى ظهرك، وعلى رأسك، يرافقك مُؤَاخِيًا، فيسبقك إلى الخيمة ويذبح فيك ما تبقَّى من أمل في الحياة.

ثم يُحْيِي الله – سبحانه – الأمل عند الغروب، فيخرج الناس من الخيام مُلَبِّين دعوة المؤذن ويصطفون وراء الإمام، والسلطان وسط الجماعة وأحد الحجَّاب وراءه يحمل السيف ولا يشترك في الصلاة[٢]. وكانت أول مرة سمعت الوهابيين يصلُّون وهم يرنِّمون بعد تلاوة الفاتحة: آمين! فتجيء شبيهةً بصلاة المسيحيين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. إذ ذاك يصعد من الصفوف صوتُ مائتين من المصلين يرنم ترنيمًا: آمين! فيتراجَع الصوت في الفضاء المهيب كصوت الأجراس في الجبال ساعة الغروب. ما أجمل أصوات المصلين في تلك الساعة التي تبشِّر بقدوم الليل وبركاته! أصوات المصلين وهم يذكرون الله رب العالمين. اهدنا الصراط المستقيم! فمَن ذا الذي لا يردِّد هذه الصلاة خصوصًا في البادية! إنها لَطلبة تصحُّ حقيقةً كما صحَّت مجازًا في تلك الفيافي والمفازات. أي بالله! إن كل مَن سار حاديًا في بحر من الرمال، وفي أرض تَهبُّ فوقها الرياحُ فتمحو بنظرةٍ كلَّ أثر من آثار البشر والحيوان ليبغي الصراط المستقيم، وإننا لَنهلك يقينًا إذا ضللناه.

في صباح اليوم التالي جاء نجَّاب من العقير يحمل البريد الذي يتبع السلطان إلى حيث يكون، وفيه خبر من البحرين بسَفر المندوب السامي إليها، فدفع الكتاب إلى أخيه، ثم إلى بعض حاشيته، فتناوَبوا قراءته وكلٌّ يهمس أن الخبر أغضب السلطان.

سار الموكب والسكوت يظلِّله والمهابة تماشيه، فما كنتَ تسمع غيرَ صريرِ الرحال وطق الخيزران على رقاب الركائب، ثم رفع أحدُ الرَّكْب صوتَه يتلو شيئًا من القرآن، وكلنا نحدو في وجه الشمس ساكتين خاشعين، وتحدو تحتنا الإبل على نغم الآيات. وبعد قليل ساد السكوت ثانيةً وقد تجسَّم فيه غضب الشيوخ، ثم تكلم فأعلمنا بما أغضبه صباح ذاك اليوم.

---

[١] المعاميل في اصطلاحهم هي أدوات القهوة؛ أيْ مقلاة التحميص والجرن والأباريق والفناجين.

[٢] قُتِل الإمام تركي بن سعود في وقت الصلاة، فجَرَتِ العادةُ منذ ذاك الحين في استخدامِ حاجبٍ يحرس الأمير ساعةَ يصلي في الجماعة.

إن المندوب السامي على ما يظهر قد اصطحب رجلًا غير مرغوب فيه، رجلًا من العرب الناقم عليهم ابن سعود. وهو فهد الهذال[(١)] شيخ العمارات في الشمال. والعمارات فخذ من عنزى[(٢)]. ولم يكن لفهد دَخْل في المشاكل التي سيُعقَد مؤتمر العقير من أجلها. بيْدَ أن للإنكليز قصدًا باصطحابه كما ظنَّ السلطان، وقد جاءوا يحقِّقون هذا القصد على حساب ابن سعود. وقد يكون لفهد الهذال كذلك قصدٌ جاء يحقِّقه على حساب الإنكليز.

فرفع رجل نجد صوته في تلك الأرجاء الرملية، وهو على ذلوله، والخيزران بيده، يسير في رأس الموكب، بين اثنين من رجاله:

— لا لا، هذا ما يصير. لا نتنازل عن شيء من حقوق أجدادنا. أما إذا قال الإنكليز نبغي هذا منك، وجاءوني بأمر محتوم، فأنا ابن سعود أسلِّم لهم، ولكن في أول فرصة تسنح أسعى لاسترجاع حقوقي المهضومة. ترى الصحيح. وماذا يبغون لابن الهذال؟ وماذا يبغي ابن الهذال منَّا؟ دعهم يغزلون فإننا لا نتحوَّل عن جادة الحق، ولا نعمل عملًا فيه ظلمة أو غموض. ووجه هذا الضحى، لا نعمل عملًا ولا نقول كلمة فيها ظلمة أو غموض، ولا نطلب غير حقوقنا، ولا نخاف غير الله ... ومَن هو ابن الهذال ليجرأ علينا؟ ابن الهذال الغزال، ليغزل وعشائره ما شاءوا، وليغزل ... «الإنكلايز» ... من أجلهم — قال ذلك وهو يرفق الاستعارة بحركةٍ من سبابته لطيفة — أنا ابن السعود لا أعرف غير الجادة القويمة، ولا أقول غير الحق. لست من الغزَّالين. أما «الإنكلايز» فهم أصدقائي وأنا صديقهم؛ إذا قالوا: نبغي هذا منك. قلت: لكم ما تشاءون. ولكن ... ولكن الصبر له حدود. ويظهر أننا قربنا منها ذا الحين. ترى الصحيح.

(٨) السلطان عبد العزيز

السلطان عبد العزيز طويل القامة، مفتول الساعد، شديد العصب، متناسِق الأعضاء، أسمر اللون، أسود الشعر، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية. له من السنين سبعٌ وأربعون، وله في التاريخ — تاريخ نجد الحديث — مجدٌ إذا قيس بالأعوام تجاوَز السبع والأربعين والمائة. يلبس في الصيف أثوابًا من الكتان بيضاء، وفي الشتاء «قنابيز» من الجوخ تحت عباءة بنية. وهو ينتعل، ويتطيب، ويحمل عصًا من الشوحط[(٣)] طويلة يستعين بها على الإفصاح عن آرائه — على تشكيل كلماته، إذا صحت

---

(١) فهد بك الهذال، انتُخِب بعدئذٍ عضوًا في المجلس التأسيسي في العراق. وقد اصطحبه يومئذٍ المندوبُ السامي لأنه — كما قيل — خبير بالحدود بين العراق ونجد. والحقيقة أن السياسة الإنكليزية كانت ترجِّح إعطاءَه بعض الاستقلال في ناحيته، أو تؤسِّس مشيخة مستقلة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن.

(٢) العرب يسكِّنون فاء الاسم، فيقولون: اعْنِزي.

(٣) الشوحط: شجر تُتَّخذ منه القسي، شبيه بالشربان ينبت في نجد الغربية.

الاستعارة، وتمكينها. إن له في الحديث غيرها من الأعوان. له أنامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة، وله عينان عسليتان تُنيران أماكنَ العطف واللطف ساعةَ الرضى، وتضرمان في كلامه ساعةَ الغيظ نارَ الغضا، وله فم هو كورق الورد في الحالة الأولى، وفي الحالة الثانية كالحديد، يتقلَّص فيشتد، فهو إذ ذاك كالنصل حدًّا ومضاءً.

أجل إن ابن سعود ليتغيَّر ساعةَ الغضب كل التغيُّر، فيذهب العطف من ناظريه، ولون الورد من شفتَيْه، ثم في افتراره يستحيل النور نارًا بيضاء فهو إذ ذاك رهيب. سألني لما كان يصب غضبه على الهذال والغزالين: وما رأيك يا أستاذ؟ وكان بيني وبينه بضع مطايا، ولا رأي لي أصيح به في تلك الساعة، فأجبتُه بكلمةٍ مألوفة: إن الله مع الصابرين يا مولاي. فردَّدَ الكلمة، ووكز كتفَ ذلوله برجله، فراح يُدَرهِم وتبعناه كلنا مدرهمين[١].

لا أكتم القارئ أنه اعتراني شيء من الانقباض أولَ مرة شاهدتُ ابن سعود غَضِبًا، وكنتُ عندما يُقاطِعني الحديثَ قائلًا: اسمع أنا أعلِّمْك، أحسُّ أني في مجلسِ رجلٍ غير الرجل الذي زارني في خيمتي بالنفود[٢]. بيدَ أنه سريعُ الغضب سريعُ الرضى؛ فهو إذا ضرب الأرضَ بعصاه مرةً يلمس القلب منك عشر مرات، وقد يتسرَّع في الكلام أحيانًا ثم يَنبَه لذلك فينتزع من خصمه السلاح. أُحضِر أمامه رجلٌ ليجيب عن ذنبٍ اقترفه، فقال بعد أن سمع قِصتَه: الحقُّ عليَّ لأني لم أحذِّرك، فلا أقاصُّك هذه المرة.

إن في الرجل ضميرًا حيًّا كحلمه، وسرعة خاطر تقارن التيقُّظ في ذهنه، يبدِّد بكلمة غيومَ الانقباض في مجلسه، ويجلو أفقًا قد يكون الاضطراب فيه من كلامه. وهو خفيف الروح، حلو النكتة، لطيف التهكُّم. كان يحضر مجلسَه أحدُ الثقلاء المتعجرفين، وهو من بيتٍ معروف في نجد، فقال السلطان يَصِفه يومًا: هو رُبع الدنيا، ثم أردف كلمته بـ «الخالي» — وقد أشار بذلك إلى الربع الخالي في بلاد العرب — الخالي من كل شيء غير الرمال.

عندما نُصِبت الخيام للمؤتمر في العقير، كان نصفها مُعدًّا للمندوب السامي ووفد العراق، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة، وكانت في معزل عن خيامنا، بيننا وبينها قُرب مائة باع، وفيها فسطاط للاستقبال، وآخَر للأكل تناوَلْنا فيه الشاي يومَ وصولنا. فقال سموه: هذا شاي متمدن — وكان قد صُبَّ مع الحليب في فناجين كبيرة بدل أن يكون صرفًا في الأقداح كما هي العادة في نجد والحجاز — شاي متمدن!

وسلطان يتهكَّم ويسر. كان عندما ينتقل من الجهة العربية إلى تلك الجبهة الأوروبية يقول لي: تعالَ يا أستاذ نسافر إلى البلاد المتمدنة، لا تظننا بعيدين كثيرًا عنها، عشر خطوات فقط … وها نحن في المدينة —

[١] الدرهام، درهم يدرهم، نوع من الخبب، واللفظة من اصطلاح عرب نجد والحجاز، وهو ثلاث درجات: درهام خفيف، ودرهام «صقلاوي» نسبةً إلى الخيل الصقلاوية، ودرهام يقرب من الغارة.

[٢] النفود: أي صحراء النفود التي تقع بين ساحل الخليج العربي والأحساء.

مدينة العقير – هاتِ الشاي يا غلام! ثم يجلس على الكرسي قائلًا: لِنتمدَّنْ قليلًا. تفضَّلْ يا أستاذ شارِكْنا في التمدُّن. وهو يشير إلى كرسي آخر.

نُصِبت خيام تلك المدينة وخيامنا على تل مشرف على الخليج وفي معزل عن القصر، وكانت خيمتنا، أنا والسيد هاشم، عند رأس التل قربَ الفسطاط السلطاني الكبير ذي الأبواب الأربعة التي يُفتح ويُقفل بعضُها وفقًا لمهب الريح ولرغبة سموه في الهواء. كان الفسطاط مفروشًا بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجادة فخمة ورَحْلٌ يقسِّمه إلى مجلسين، مجلس السلطان – عَرْشه – ومجلس آخَر لمن يُكرم إكرامًا خاصًّا من الضيوف.

لكل عربي، من هذا القبيل، بيتُه وعرشه؛ أي: المِضرَب، والسجادة، والرَّحْل. والسلطان عبد العزيز مثل كل أعرابي ينام على الفراش والسجادة في الليل، ويضعهما تحتَه على الكور في السفر. وهو لا يحمل شيئًا في جيبه؛ لا ساعة، ولا قَلَمًا ولا ذهبًا، ولا فضة. ربما لا يكون في ثيابه جيوبٌ البتة، إلا أنه يحمل ساعةً في خُرْج عند السفر ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان. يحملها في الصندوق المخملي الذي جاءت فيه من المعمل. ويحمل كذلك ناظورًا كبيرًا لا غنى له عنه؛ فهو دائمًا يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه، حتى إنه لا تمرُّ غيمة في الأفق إلا رفع إليها الناظور متيقنًا متثبِّتًا – أَمْرُنا مُشكِلٍ يا حضرة الأستاذ؛ علينا الكبيرة والصغيرة، فإذا كنا لا نداوِم المراقَبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشئوننا ... العبد والأمير، عيننا على الاثنين حتى نُنصِفَ دائمًا الاثنين ونعدل بينهما.

كان إذ ذاك يراقب قافلةً أناخت عند خيمة المونة تحمل إلينا الخضر والماء من الأحساء، فأمر أن يحضُرَ قَيِّمها، فسأله سؤالًا بخصوص جمل من الجمال، فقال القيِّم: هو حرون يا طويل العمر. فأجابه السلطان: اتركه يرعى مع الجيش[1]،لا تُرجِعه معك.

ثم عاد إلى حيث وقف في الحديث، فاستأنفه قائلًا: العدل عندنا يبدأ بالبل – الإبل – ومَن لا ينصف بعيره يا حضرة الأستاذ لا ينصف الناس.

كثيرًا ما يقف السلطان عبد العزيز في حديثٍ مهم لينظر في أمرٍ ظاهرُه طفيف، ثم يدخل عليه أحد الخدم أو الكتَّاب فيقطع عليه الحديث ثانيةً فينظر في الأمر الآخَر، ثم يعود – وهذا ما كان يدهشني – إلى الكلمة الأخيرة من حديثه الأول دون أن يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند أكثر الناس: ماذا كنت أقول؟ لا. ما سمعته مرة – وكانت أحاديثنا معرَّضة دائمًا للتقطيع – يسأل هذا السؤال؛ فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائمًا، عليه الصغيرة والكبيرة يقينًا، وله اليد الصالحة المُصلِحة في الاثنتين.

---

[1] الجيش تطلق على مجموع الإبل من ركائب ومحملات.

أقمنا في العقير ثلاثةَ أيام قبل وصول المندوب السامي، وكان الخدم في أثنائها – البدو – يشتغلون في تشييد المدنية الجديدة، مدنية العقير! نصبوا الخيام، وفرشوها بالطنافس، والكراسي، والمنضدات، وأواني الشرب، والغسل، ومعدات الكتابة. لم ينقص حتى في فسطاط المائدة شيء من أسباب المدنيَّة ونوافلها؛ فقد جِيء لإخواننا المتمدنين بالماء ليس من وراء الحسا، بل من وراء البحار؛ من أوروبا في القناني المختومة. وما فات الإنكليز شيء مما ألفوه، أما نحن في مضارب البدو فما كان فينا على ما أظن مَن يحسدهم على ذلك.

أعجب لهؤلاء الإنكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من «إنكليزياتهم» حتى في البادية. رأيت أحدَهم في رحلتي يسير وفي قافلته حمار يحمل صندوقَيْن كبيرَيْن من قناني الصودا. وأظن أن الوسكي كانت مخبَّأة في الأحمال الأخرى. ولما دُعِيت إلى تناوُل الطعام على مائدة المندوب السامي كان سعادته وسعادة حاشيته وصاحب الإقبال مندوب العراق في الثياب الرسمية السموكنغ بالعقير! وأنا مع السلطان في الثياب العربية، فسُرَّ سموُّه بذلك، ولكنه لم ينتقد «الإنكليز» حتى ولا مندوب العراق العربي الذي لم يتنازل فيلبس العباءة والعقال.

أكلنا تلك الليلة بالأسباب؛ أي: الشوكة والملعقة والسكين، وشربنا من ماء «بزيير» المبارك، وقدِّم لنا الطعام بانتظام وترتيب، وكانت الحلويات تزيد على ما تعودناه، وفوق ذلك الثمار من موز وتفاح وبرتقال. ولكننا لم نشعر في تلك الليلة بأن سعادتنا قد تمت على الأرض وكللت في زاوية من الجنة تدعى العقير.

خرجنا من فسطاط المائدة إلى فسطاط الاستقبال، فودعنا المتمدنين عند الباب، وسرت والسلطان عبد العزيز، وقد نزعنا نعالنا نتمشى ويدي في يده، حفاة على الرمال – على الرمل البارد المنعش، تحت النجوم القريبة البريق، الدافئة الضياء، فأحسستُ إذ ذاك بأن ما يقرِّبني من هذا الرجل ويقرِّبه مني ليتجاوز القيافة والاشتراك ذوقًا ببعض العادات، هو هو السر الذي يقرِّب منا النجوم ويبرد تحت أرجلنا رمال البادية. إليك أيها القارئ كلمة أخرى من مذكراتي:

مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء؛ رجل كبير القلب والنفس والوجدان، عربي تجسَّمت فيه فضائل العرب إلى حدٍّ يندر في غير الملوك الذين زيَّنت آثارهم شِعرَنا وتاريخنا، وتجسَّمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول أن يخفيه رجلٌ صافي الذهن والوجدان خلو من الادِّعاء والتصلف، خلو من التظاهر الكاذب. قصَّ علينا ليلةَ أمسِ قصةَ حرب من حروبه وبيت الرشيد، وختم قصته العجيبة بهذه الكلمات: لا أخذناهم في تلك الوقعة ولا كسرونا. ترى الصحيح. نحتسي اللي لنا واللي علينا[1]. نفخ بعد ذلك في يده وقد رفعها في شكل بوق إلى فمه كأنه يقول: ننثرها كالهواء لمَن يريدها ولا نخاف غير الله.

---

[1] نحكي الذي لنا والذي علينا. عرب العراق والشام يلفظون الكاف تش، وعرب نجد يخفِّفونها فيلفظونها تس. نحتسي: نحكي.

(٩) بين العراق والحجاز

أول مرة قابلتُ المندوب السامي في بغداد قال لي –كما يذكر القارئ – إن القصد من زيارته لابن سعود هو إبرام المعاهَدة بين نجد والعراق، تلك المعاهدة التي عُقِدت في مؤتمر المحمَّرة، ولم يوقِّعها السلطان عبد العزيز لأن مندوبه تساهَل يومئذٍ في أمر القبيلتين، العمارات والضفير، اللتين يدَّعيهما وتدَّعيهما كذلك حكومة العراق. وقد قال لي الملك فيصل آنئذٍ: إن خير حل لهذه القضية هو أن تُعيَّن لجنة من الخبراء بالعشائر والحدود للنظر فيها، وأن تقبل الحكومتان حكمها. فجاء السر برسي كوكس إلى العقير ليقنع صديقَه ابن سعود في وجوب عَقْد المعاهَدة، وقبول حكم الخبراء في العمارات والضفير.

ولكن السلطان عبد العزيز جاء إلى الحسا، ثم إلى العقير لغير هذه الغاية، ولم يكن يخطر في باله أن المندوب السامي وحكومة العراق يبغيان تجديدَ النظر في معاهَدة المحمرة. فلما علم صباحَ ذاك اليوم بقدوم المندوبين، غضب تلك الغضبة الشديدة وهو راكب في موكبه يجتاز النفود. ومما قاله لي إنه هو الذي طلب الاجتماع بالمندوب السامي، فدعاه إلى الحسا، وجاء من أجل ذلك يُلاقِيه إلى العقير. أما العمارات والضفير فما كان ليكلِّف نفسه الخروج من الرياض من أجلهما، وقد كان أعدَّ لمندوبه في مؤتمر المحمرة دفاعًا عن حقوقه فيهما هذه خلاصته:

- عندما سقطت دولة آل سعود انقسمت إلى قسمين، كان أحدهما بيد الترك، والآخَر بيد ابن الرشيد، ثم ظهر السلطان الحالي، الذي أحيا تلك الدولة واستعاد ملكَ آبائه وأجداده، فاستولى على نجد، وأخذ القصيم من يد ابن الرشيد، وهزم الترك وطردهم من الأحساء والقطيف، وهو لا يزال يُطالِب بما تبقَّى من أملاك أجداده وعشائرهم شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالًا.
- إن عشيرة الضفير التي تقطن اليومَ الشاميةَ «بالعراق» كانت في الماضي من رعايا آل سعود، أما العمارات والرولا فهما فخذان من أفخاذ عنزى، وكانوا يسكنون نجدًا، خصوصًا القصيم، ومشايخهم بنو الهذال وبنو الشعلان هم أبناء عم آل سعود ومن رعاياهم.
- إن الإنكليز عندما احتلوا العراق احترموا فيه حدودَه السابقة التي كانت تحترمُها الحكومةُ العثمانية؛ كالحدود الشرقية بين حكومة إيران والعراق مثلًا، والجنوبية بين العراق والكويت. وقد اعترفوا أيضًا بالأحوال الجارية والقواعد المرعيَّة بين الترك قبلهم وحكَّام العرب المجاورين لهم، وفي مقدمتهم إمارة بيت الرشيد. وبما أن سلطان نجد الحالي استولى على إمارة الرشيد وأدخل في ملكه وحوزته جميعَ ما كان لتلك الإمارة المتفرقة من بادية وحضر، فله الحق بمَن تشرَّد أو تسرَّب منهم – أي: العمارات والضفير – إلى العراق.

كثيرًا ما سمعت السلطان يقول: هم رعايا آبائنا وأجدادنا، بل هم أبناء عمنا. وهذه الكلمة الأخيرة

كانت غالبًا تسبق كل حجة في كلامه عن الخلاف بينه وبين أمراء العشائر؛ هم أبناء عمنا. أضحكتني مرارًا منه هذه الكلمة، بل شغلت بالي؛ فقد تخيَّلت فيما لو وصلتْ دعواه إلى سوريا والسوريين، فماذا كان يحدث يا تُرى؟! إلا أن قوله إن ابن الهذال وابن الشعلان من أبناء عمه مبني على كونهما شيخَي العمارات والرولا، وهاتان القبيلتان فخذان من عنزى، وعنزى –كما هو مدوَّن في كتب الأنساب – أخو وائل من ربيعة، ونسب ابن سعود السلطان عبد العزيز يتصل ببكر بن وائل؛ فقبيلة عنزى إذن هي كلها جمعاء ابنة عمه، وله عليها حق الرعاية. وإذا كان نوري[1] لا يُحسِن سياسة عشائرها، وفهد لا يستطيع أن يؤدِّب بدْوَها، فالشوحط بيد ابن سعود يلبِّي الطلب. وما الشوحط إلا خشبة، إذا كان لا يسارع به إلى الشمال فيحمي ذمار ابنة عمه عنزى المشرَّدة الضاربة في بوادي العراق والشام، شمالي جبل عنيز شرقًا وغربًا، ويعلمها حُسْن السلوك؛ ليطمئن بالك يا فهد، وليطمئن بالك يا نوري، وليطمئن بال صديقَتَيْكما إنكلترا وفرنسا. إن لشوحط ابن سعود ما يشغله عنكم الآن، ولكن مَن يكفل المشاهرات والانتدابات إلى الأبد؟

كان السلطان عبد العزيز هو الذي دعا السر برسي كوكس إليه، وجاء يُلاقِيه في العقير. أما القصد من هذه الدعوة فمزدوج. حدَّثني سموه قال: «يظن الناس أننا نقبض من الإنكليز مبالغَ كبيرة من المال، والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقُّه الأعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها. ونحن لا نختلف معهم قبل أن يخلفوا معنا. بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضرَّرنا في أنفسنا ومصالحنا ... الإنكليز مديونون لنا، ترى الصحيح يا أستاذ، ونحن لا نطالبهم، من العار أن نطالبهم. ولكن ما هي سياستهم الآن؟ نراهم يغزلون ويغزلون، تراهم يدسُّون الدسائسَ عليَّ – عليَّ أنا صديقهم ابن سعود! – أحاطوني بالأعداء؛ أقاموا دويلات حولي، ونصَّبوا من أعدائي ملوكًا، وهم يمدُّونهم دائمًا بالمساعَدات المالية والسياسية. الشريف في الحجاز، وابنه عبد الله في شرق الأردن، وابنه فيصل في العراق ... ما القصد من هذه الأعمال؟ وما الداعي إليها؟ أنا ابن سعود صديق الإنكليز، وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني مُعامَلةَ العدو ... ومَن هو ابن سعود في نظر الشريف وأولاده؟ هو الجلف الكافر الخارجي. ترى الصحيح يا حضرة الأستاذ. قد قالوا ذلك، بل قالوا أكثر من ذلك. وهم مع ذلك يطلبون مني أن أحمل على الفرنسويين في سوريا لأُخرِجهم منها. ترى الصحيح».

ونادى إذ ذاك أحد كتاب ديوانه، فأمره أن يحضر بعضَ أعدادٍ من جريدة القبلة، فأطلَعَني على قصيدةٍ تُثبِت كلامَه الأخير. قصيدة لشاعر حجازي يستنجد سلطان نجد على الفرنسيس في سوريا. وفي عددٍ آخَر مقالات كلها مطاعن في ابن سعود الجلف الخارجي. فقلت: الصحافة يا مولاي واحدة، إن كانت في ظل الحرمين، أو في ظل برج إيفل. والرجل الكبير لا يكترث لأقوالها. فقال السلطان، وكان قد احتدم غيظًا،

[1] نوري الشعلان زعيم الرولا.

فذهب القرمز من شفتيه، ونور العطف من ناظرَيْه: اسمع. أنا أعلِّمك[1]؛ هذا قول الشريف لا قول أحد الكتَّاب المسترزقين، وسأُطلِعك على ضده، بخط يده ... هات آخِرَ كتابٍ جاءنا من مكة.

خرج الكاتب.

«هات اقهُوَه».

من عادات السلطان أنه حين يحتدم غيظًا يطلب القهوة. فنادى العبد في الباب: اقهُوَه. وكُرِّر الصدى خارجًا عند النار.

«لا نسلم بذرَّة من حقوقنا، ولكننا لا نقول في أعدائنا ما يقولون فينا، ولا نطلب غير ما كان لآبائنا وأجدادنا قبلنا؛ ليعلم ذلك أصحابُنا الإنكليز. وضرب بالشوحط السجادةَ عند قدمَيْه».

جاء الخادم بالقهوة فوقف أمامه وقفة جندي ألماني وسلَّم، ثم انتظر إلى أن ينتهي من كلامه.

«وَلْيعلم ذلك الشريف وأولاده». قالها بلهجةٍ أشدَّ من الأولى ومكَّنها بضربة أخرى، ثم مدَّ يده، فصبَّ الخادم القهوة، ثم صبَّ لي ثم للحضور. دخل الكاتب يحمل كتابًا تناوله السلطان، وبعد أن شرب ثلاثًا دفعه إليَّ. قرأته وأنا مدهوش – بعد أن قرأت مقالة القبلة – مما جاء فيه من كلمات التودُّد والإكرام والتبجيل. أسلوب الديوان الهاشمي لا يتغير. ثم دفع إليَّ ملحقًا خطُّه غير خط الكتاب وفيه الخبر اليقين، حاوي خير، فحواه: إن الملك حسينًا يدعو السلطان إلى الصُّلْح وإلى الاتفاق، ويعرض عليه ذلك مقيَّدًا بشروط منها أن تُعاد تربة والخرمة[2] إلى الحجاز، وأن يُعاد إلى ابن الرشيد ملكَه في حائل وسيادته في جبل شمر.

«تسلام (كلام) ولا ندري أنصدِّق الكتاب أم الجريدة».

ثم سألني رأيي وكانت قد تغيرت لهجته وسكنت فيه ثورة الغضب: ما رأيك يا حضرة الأستاذ؟ لا تقل لي أنْ لا دخلَ لك بالسياسة، وإن سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط. «حنَّا» نفهم – ومر يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلَّابة – لا تخدعنا يا أستاذ. لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام. اصدقنا الخبر؛ فقد قابلتَ الشريف وحدَّثته وقابلتَ الإمام يحيى والإدريسي والملك فيصل وحدَّثتهم كلهم، فأعطِني الآن رأيك. أبغي نصيحتك. تكلَّم ويكفي أن تقول: رأيي تسدا (كذا) ولا جزم فنقبله منك. ولكني كلمتك بالحرية وأبغي منك مثلها. المندوب السامي يصل غدًا. «حنَّا» دعوناه للنظر في هذا الأمر، أمر الشريف

---

[1] كانت تغيظني هذه الكلمة «أنا أعلمك»، حتى سمعتها من البدو ومن أحد خدامنا، فقلت لصديقي السيد هاشم وقد طفح الكيل: أيعلِّمني حتى الخدم والبدو في بلادكم وهم لا يتعلَّمون شيئًا منَّا، ولا أحدَ يتنازل أن يخبرنا أو يتلطَّف بإفادتنا؟ فأجابني السيد: إليك ذلك. فابن نجد يعلِّمك وهو لا يريد بذلك غير الخير. أعلِّمك هو اصطلاحهم في أخبرك. أوَمَا سمعتهم يقولون: هات علومك؛ أيْ أخبارك؟ فلا يثقل التعليم على طبعك يا أستاذ.

[2] راجع الفصل الخاص بالملك حسين بن علي.

وأولاده. فما رأيك يا صديقي الأستاذ؟ وماذا ينبغي أن أقول للإنكليز غدًا؟ أراك ساكتًا.

كنت قد أفصحتُ عن رأيي فيما يختص بالموضوع وفروعه في أحاديث سابقة، ولكني وجدتُ أن من المستحيل أن نخطوَ خطوةً واحدة بدون أن نتعثَّر بشيء للإنكليز أو من الإنكليز في كل مكان؛ خصوصًا في الخليج العجمي، وفي سواحل البلاد العربية على الخليج؛ فالإنكليز يحتكرون الخليج وهم يعزِّزون هذا الاحتكار بنشر سيادتهم على ضفتَيْه الشرقية والغربية. إن لهم ها هنا — ولا شك — ما لهم في عدن من مصالح وامتيازات قديمة لا يتنازلون عنها، وهم يأبون أن يكون لسواهم من الأوروبيين أو الأميركيين يد أو رجل أو شراع في تلك البقعة من الأرض. أمَّا في الخليج وفي الجهة العجمية منه فهم آمِنون، على أنهم في السواحل العربية لا يطمئنون كل الاطمئنان رغم ما عقدوه من المعاهَدات مع أمراء العرب، ولولا ابن سعود — وهو أول المتعاهدين وأكبرهم — لما أمنوا التعدِّيات البرية والبحرية. لست مُبالِغًا إذا قلت: قد يكون ابن سعود حامي بريطانيا في الخليج؛ لأنه يستطيع إذا شاء أن يُخرِج وكلاءها من الأساكل، ويقضي على سياستها في السواحل العربية الشرقية فيستولي عليها. ما ضرَّه إذن لو قال لإنكلترا في سبيل مصلحته خصوصًا ومصلحة العرب عمومًا كلمةَ حقٍّ صريحة؟

قلتُ مجيبًا على سؤاله: قل للإنكليز يا مولاي أنْ قد حان الوقت لواحدٍ من أمرَيْن؛ إما أن يساعدوا أمراءَ العرب مساعدةً حقيقية، فيحملوهم على عقْدِ اجتماعٍ عربي عام للنظر في الوَحْدة العربية أو في تأسيس حلف عربي، وإما أن يرفعوا يدهم من التدخُّلات كلها فينهض أمراءُ العرب أنفسُهم لهذا الأمر، ويجتمعون دون وساطة أجنبية.

فأكَّد لي السلطان أن الإنكليز لا يعلمون لا هذا ولا ذاك، ولو سعوا سعيًا أكيدًا ليجمعوا أمراء العرب ويوفِّقوا بين المتعادين منهم لا يفلحون، بل يزيدون الخرق اتساعًا. ثم ضرب مثلًا على ذلك فأطلعني على طريقتهم: لنفرض أن شيخين من مشايخ العرب مختلفان على الحدود بينهما، والخلاف بسيط يمكن حسمه بوساطة شخص ثالث من البلاد، فإن الإنكليز يتدخلون في الأمر فيعقِّده مأمورهم أو وكيلهم السياسي فيصبح السِّلْم بين المتخاصمين مستحيلًا. أما الحق في ذلك فليس على المأمور الإنكليزي وحده. كلا، العرب أنفسهم يشاركون في الذنب؛ كل من الشيخين المتخاصمين يقول في نفسه: لا بد أن يتحزب المأمور الإنكليزي إما لي وإما عليَّ. وهذا أكيد. هي عادة الإنكليز في تدخلاتهم كلها. فيضاعف العربي مَطالبه عشرة أضعاف، ولسان حاله يقول: إذا كان الإنكليز معي فيعطوني حقي وزيادة، وإذا كانوا عليَّ فيعطوني في الأقل بعض ما أطلبه، ولا بد أن يكون فيه شيء من حقي.

ثم قال السلطان: هذه طريقة العرب يا حضرة الأستاذ، وهذه طريقة «الإنكلايز». عسى أن الله يعلِّمنا فنعقل، ويؤَدِّبهم فيعدلوا ... هات القهْوَه.

(١٠) مؤتمر العقير

مللنا الإقامة في العقير ونحن ننتظر المندوب السامي. وما العقير غير حوش من الخليج والنفود، شمسها في شهر كانون محرقة، ورطوبة هوائها تنهك حتى الإبل. ولها مزية أخرى يعدُّها العرب من الآفات، العرب الذين لا يقيمون زمنًا في مكان وهم يستأنسون كثيرًا بالأسفار؛ فقد قالوا: إن العقير هي الغربة بعينها، تُبعِدهم عن الأوطان، عن الأهل والعيال، ساد في المضارب روح السآمة والكآبة، فكان أشد وطأةً من الرطوبة في الهواء.

سمعت حتى العبيد يشكون، وكانت خيمتي، وأنا الوحيدُ بين هؤلاء الناسِ البعيدُ حقًّا عن الأوطان، البعيدُ عن الأهل والخلَّان، وأحقُّ منهم لذلك بالشكوى؛ كانت خيمتي خباء الكآبة والغم، فسألت رفيقي الأديب السيد هاشم عن السبب في بؤس حاله: هل هناك غير الهواء والوحشة والإنكليز؟

— لا شيء من ذلك يا أستاذ.

— وهل هو مما يُستطاع مُقاوَمته؟ هل يمكنني أن أقوم بشيء يخفِّف وطأته عليك؟

— لو كنتَ يا عزيزي الأستاذ مُزيِّنًا، وكان عندك مقص وكنتَ ترغب في خدمتي لَفعلت.

ففتحت حقيبتي وقلت: ها المقص، وها أنا ذا. أتبغي أن أقصَّ شعرك؟

— لا يا أستاذ، بل هذه اللحية التي تطاولت عليَّ، أفسدتْ عيشي، سوَّدتْ أيامي.

ولكننا لم نفُزْ بتبييض شيء منها؛ أيْ من أيامه. فبعد أن شذبتُ لحيته وجعلتُها لحيةً نجدية قصيرة مستديرة، قال السيد الحزين: الله يا أستاذ! ما أضعفَ الإنسان وما أسخفَ آراءه ساعةَ يستولي الحزن عليه! حاولتُ أن أُخفِيَ حزني في لحيتي فما نجحت. أضحكتَني يا مزيّن — زيَّن الله حالك — ولكنك لم تفرِّج غمي. لله در مَن قال: لا تخفِ ما فعلتْ بك الأشواق. وكأنه لمس وترًا فيَّ، شَدَّته إلى حد الأنين يدُ الهجر والنوى، فأنَّ ولسانُ حالي يقول: واشرح هواكَ فكلنا عشَّاق؟!

—كان لي امرأة يا حضرة الأستاذ بارعة جميلة، حَسَنة الخلق، لطيفة الذوق، شديدة الهيام، وكانت وحيدةَ قلبي وبيتي، متَّعني الزمان بها سنتَيْن، ثم جاء القواد الموت اختطَفَها من بين يدي، فهجرتُ الكويت وجئت نجد أبغي علاجًا في البُعد والنسيان، ولكن العقير تعيد إليَّ ألم الذكرى. أدنَتْني العقير من الكويت والأحزان ... لله ما أضعفَ الإنسان! ... يا هويدي[١]، هاتِ القهوة[٢].

---

[١] هويدي تصغير عبد الهادي.

[٢] في نجد يسكنون فاء الاسم ويحرِّكون العين إذا كانت ساكنة، أو بالحري ينقلون حركةَ الفاء إلى العين، فلا يقولون: قهوة أو شجرة أو الدهناء، بل اقهَوَه واشجرَه والدَّهنا.

ولما كنا ذاتَ ليلةٍ في مجلس السلطان، جاء النجاب بالبريد، وفيه كتب لرجال في معيته فوُزِّعت عليهم، ثم شرع عظمته يقرأ كتبَه والكاتب جالس عند قدمَيْه فيطرحها إليه سئمًا، حتى وصل إلى كتاب عرفه قبل أن يفضَّه، فاربدَّ جبينه وهو يُطالِعه، ثم مال وجهه إليَّ وقال: هو من الأهل، وهم يشكون البُعدَ والهجر. منذ أربعة أشهر «حنَّا» في الحسا، وفينا مثلَ ما فيهم من الشوق والحنين ... ما كنا نبطئ بالرجوع لولا المندوب السامي، وهو صديقنا. أنا أحبُّ السر برسي كوكس وأحترمه، ولكنه أبطأ، أبطأ جدًّا، وهذا الهواء الردي، هواء العقير، وهذه الوحشة التي لولا أُنْسك يا أستاذ لَمَا كانت تُطاق. «حنَّا» أهل العارض لا نتحمَّل هواء الساحل، سئمنا الإقامة هنا، مرضنا. وسنرجع إذا كان لا يصل السر برسي كوكس غدًا؛ أي بالله نرجع. ثم كلم الحاجب في الباب: هات اقهُوَه. فردد الحاجب: اقهُوَه. وأجاب راعي المعاميل عند النار: إي والله اقهُوَه.

بينا كنا عائدين تلك الليلة إلى الخباء مررنا بحلقة من حلقات الربع حولَ نار مشبوبة يؤمُّها كلُّ مَن يبغي القهوة من الخدم والسادة، فكانت حافلة عامرة تباري النار تأججًا واللهيب حنينًا، فأفسحوا لنا مكانًا وهم يواصلون قصَّ القصص، ويروون من الأشعار ما يُفصِح عما فيهم من الشوق والحنين، فيردِّد الجلوسُ آخِرَ كلمة من كل بيت، وفيهم طرب يمازجه الغم:

يا ليتـــــــــــــني حرتـــــــــــــه[1] أحمـــــــــل ذهابــــــــه ومـــــــــاه

الجلوس: وماه.

يا ليتـــــــــــــني مهرتـــــــــــــه وزبنـــــــه[2] عـــــــن عـــــــداه

الجلوس: عداه.

يا ليتـــــــــــــني محبسَـــــــــــــه واكـــــــل معـــــــه مـــــــن عشـــــــاه

الجلوس: عشاه.

يا ليتـــــــــــــني نعلتـــــــــــــه واطـــــــا معـــــــه مـــــــا وطـــــــاه

الجلوس: وطاه.

زين بالله زين!

ولكنها أبيات قِيلت في مدح ابن رشيد، فقال راويها: ولكنها لسانُ حالِ صديقٍ لي بالمنفوحة.

يا جـــــالي الحـــــب مـــــا تجـــــلاه تجلـــــي المـــــودة وتفطـــــن لي[3]

الجلوس: تفطن لي.

[1] حرته: أي ناقته الحرة النجيبة.

[2] زبنه في اصطلاحهم: أبعده أو حماه.

[3] يا مبعد الحب والمودة ألَا تفطن لي وتبعدني؛ أيْ: تُدنِيني منهما.

طـــــواني الحـــــــب طـــــوي اللحــــــا[1]   عجــــــــــزتْ عراويـــــــــه تنحلِّـــــــــي

الجلوس: تنحلِّي.

– زين بالله زين!

– صب ياذْحَيم.

فقال دحيم وهو يصب القهوة: حنَّا العرب لا نصبر على البُعد والجفاء. فقال آخَر شارحًا مُفصِحًا: يقول دحيم: إننا لا نصبر على البعد عن الحريم. نبغي النساء أبَدْ، دائمًا. والشيوخ أشدُّنا شوقًا اليوم. الله يغربل الإنكليز![2]

وقد استجاب الله سبحانه طلبة الأعرابي، فغربل فريقًا منهم في اليوم التالي، وقذف ما في الغربال إلى شاطئ العقير. أجل وصل المندوب وحاشيته مساء، فبادَر الخدم إليهم بالخيل، ولاقاهم السلطان على الرصيف عند القصر. ثم عادوا كلهم راكبين، فترجَّلوا عند فسطاط الاستقبال، وكان قد أُنير بنور قنديل «اللوكس»، ويُدعى هناك بالكهرباء.

جلس المندوب السامي إلى شمال السلطان[3] وإلى جانبه كاتب سره والوكيل السياسي في الكويت والميجر دكسون مأمور الارتباط في البحرين، وجلس الشيخ فهد الهذال بيني وبين عظمته إلى اليمين.

اعتذر المندوب السامي لأنه أبطأ، فقبِلَ السلطان العُذْر، وشرع يُفصِح عما كان يتَّقِد في صدره وهو ينظر إليه غير مكترث بسواه، فجاءت الكلمة الأولى قنبلةً زعزعت المكان: أنا لا أخشى إلا الرجل الذي لا شرفَ له ولا دين.

ثم قال: لا ندري يا حضرة المندوب ما خفي من المقاصد، ولكننا نرجو منها الخير، ومما نعلمه علمَ اليقين أن العشائر؛ خصوصًا عشائر العراق، لا ترتاح إلى حكومةٍ قوية شديدة الساعد، بل لا تبغيها؛ لأن الحكومة إذا كانت قوية تضربهم، تؤدِّبهم فيتأدَّبون، أما إذا كانت ضعيفةً فتسترضيهم كما هي الحال اليوم ... العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون إلا بالسيف، وإلا فهُمْ يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد إلى مهاوي الخراب ... أَشهِروا السيفَ يرتدعوا يتأدبوا، اغمدوا السيفَ يقتتلوا وينبهوا، ويتقاضوكم مع ذلك

---

[1] اللحا قشر شجرة الطلح. ولكي يستقيم الوزن والقافية يجب أن تلفظ اللحا على القاعدة النجدية بتسكين اللامين؛ أي: اللحا. وهذه الأبيات من الشعر النبطي الذي يتغنَّى به أهل نجد.

[2] قلما يسبُّون في نجد، ولكن إذا اغتاظوا من أحد، يقولون: الله يغربله! أيْ: يغربل الشرَّ منه. وإذا اشتدَّ غيظهم وسخطهم يقولون: سلط الله عليه!

[3] كان المندوب أولَ مَن دخل إلى الفسطاط، وأظنه اختار المكان تأدبًا، أما الشيخ فهد فلا أظن أن عظمة السلطان أجلَسَه إلى اليمين.

الخوَّة.

فاه عظمتُه بهذه الكلمات موليًا وجهَه المندوب السامي وظهر فهد الهذال. وكان الشوحط الطويل بيده يساعد بالإفصاح والتمكين، فرابني، بل راعني هذا التصريح، فقلت في نفسي: سامح الله عبد العزيز! قد أخطأ في استرساله إلى غضبه، ولكنه وهو السياسي المحنَّك أراد أن يُفهِم ابن النذال بأنه صريح مع الإنكليز كما هو صريح مع العرب، وأنه في الحق لا يَهاب بشرًا. على أن المجلس ادلهمَّ هنيهةً من كلامه، فجاء هو على عادته –كما قلت سابقًا – يجلوه بكلمة لطيفة، فأزال الانقباضَ الذي استولى على النفوس؛ لأنه في غمزة قناة الهذال إهانة حكومة الانتداب التي تدفع له مشاهرة ليحفظ الأمن في البادية بين العراق والشام.

«اغمدوا السيفَ يقتتلوا وينهبوا».

ثم مال بوجهه إلى الشيخ فهد وقال مبتسمًا: أليس كذلك يا فهد؟ «حنَّا» نعرف بعضنا. فضحك كلُّ مَن كان في المجلس سوى شيخ العمارات الذي كان يحدِّق نظره في السجادة، ثم يرفعه خلسةً إلى المندوب السامي كأنه يقول: لا بارَكَ الله بساعة جئتُ فيها معك!

هذه أول جلسة، وإن كانت غير رسمية في مؤتمر العقير، تبعتها جلساتٌ رسمية بين السلطان والمندوب، وجلساتٌ عمومية حضرها رئيس وفد العراق ووكيل بريطانيا السياسي في الكويت والشيخ فهد الهذال. وكان الكتَّاب والمترجمون: الميجر دكسون من الجهة الإنكليزية، والدكتور عبد الله من الجهة العربية. والأخصائيون أيضًا من البدو الخبراء بأرض الشمال وحدودها وأماكن الماء فيها، يؤمون من حين إلى حين خيمتي الصغيرة، فرأيت أن رغبة الفريقَيْن بالسِّلْم رغبةٌ حقيقية، وأن السعي مع ما تخلَّله من وعيدٍ وتهديد ظلَّ متواصلًا حتى النهاية، فكُلِّلتْ في اليوم الخامس أعمالُ المؤتمر بالنجاح[1].

ولم يُحرَم مؤتمر العقير غير ممثلي الصحافة. أمَّا رجال الاقتصاد وطالِبو الامتيازات، الذين يحومون على كل مؤتمرٍ يُعقد في أوروبا في هذه الأيام، فقد شرف بعضهم العقير، وكان البعض، وهم على الشاطئ العجمي من الخليج، يتقرَّبون من ذوي الأمر فيه باسم الصداقة للعرب والبترول. فقد علمت أن السير آرنلد ولسون رئيس شركة الزيت الإنكليزية الفارسية في عبَّادان كتب إلى صديقٍ له في المؤتمر يسأله مفاوَضة السلطان عبد العزيز بخصوص امتياز في الحسا.

ولكن الذي كان قد باشَر المفاوَضة فجاء بنفسه، ونصب خيمته بالقرب من فسطاط السلطان هو الميجر فرانك هومس وكيل النقابة العمومية الشرقية بلندن. كنت قد سمعت بالميجر في عدن وعسير، فما

[1] راجع تفاصيل مؤتمر العقير في تاريخ نجد الحديث.

استغربتُ أمره عندما اجتمعت به على رمل العقير. هو في العقد الخامس من العمر، وفي طور الشباب همةً ونشاطًا؛ فقد ساح في تهامة وفي الأحساء بالرغم عن أنه لا يعرف كلمةً من اللغة العربية، وهو يبحث عن الزيت، وينشد مثل شركة عبَّادان الامتيازات.

على أن الفرق بينه وبين تلك الشركة هو أن حكومة بريطانيا تعضِّدها؛ لأنها تملك سبعين بالمائة من أسهمها، وتقاوِم كلَّ شركة سواها تبغي امتيازًا في الشطر الشرقي من البلاد العربية. قال لي الميجر هومس ذات يوم في العقير: لا خصمَ لنا غير حكومتنا، ولكن لا دخلَ لنا في السياسة، نحن تجَّار ننفع وننتفع.

لذلك منحه السلطان عبد العزيز امتيازَ الحسا، بالرغم عن مقاوَمة الحكومة البريطانية التي كانت تفضِّل أن تمنحه لشركة عبَّادان. ثم شدَّ الميجر أطنابه في الكويت وفي البحرين حتى وفي العراق، فإذا جاء فوزه مقابلًا لجزء من سعيه، وكانت شركته بعيدة دائمًا عن السياسة، قد يصبح أشهرَ من نالوا امتيازاتٍ في البلاد العربية وأحبَّهم إلى العرب.

وقف في صباح اليوم السادس مندوبو المؤتمر للمصوِّرين فينا وقفة الرضى والامتنان، وكان الميجر هومس مع الفريقين؛ مَن تصوروا ومَن صوروا، ثم انتثر العقد ورددتُ كلمات الوداع، فعاد كلٌّ في سبيله يثني على رجل المؤتمر، بل رجل نجد الكبير السلطان عبد العزيز، حتى إن الشيخ فهدًا كان صباح ذاك اليوم من الراضين، المسرورين، المادحين. سأله السلطان عند الوداع: هل من حاجة نقضيها لكم؟ فأجاب: نعم، يلزمنا بعض العمانيات[1]. فقال عظمته: أرسِل أحد رجالك معنا نرسلها إليك من الحسا. ففعل، ثم جاءني يعتذر، والرضى أبو العطف والاتضاع؛ لأنه لم يردَّ زيارتي، فقال: إن أشغال المؤتمر حالت دون ذلك. وأمر كاتب سره أن يدوِّن اسمي في دفتره، دفتر المقرَّبين المغبوطين، ثم دعاني بُورِك فيه إلى ديرته في الشمال قائلًا: سنقوم هناك بواجبكم إن شاء الله.

أما مندوب حكومة العراق فأمره يُحزِن! كان قد مرض في الطريق إلى العقير فوصل إلينا ورديفته الحمى، وكان أثناء المؤتمر يشكو كلَّ شيء: ثقل الهواء، وملوحة الماء، ووحشة البيداء، وظلم السماء، ويقبِّل مع ذلك يد السلطان عبد العزيز. أظنه كان يجهل أن أهل نجد لا يقبِّلون يدَ السلطان، وأن تقبيل الأيدي هو مستنكَر عندهم. سألني عند الوداع قائلًا: أصحيح أنك مسافر مع السلطان إلى نجد؟ فقلت: نعم، تعال معنا. فقال: وإن أعطيتني ثقل رمال البادية ذهبًا لا أخطو خطوةً إليها. ها هنا — وأشار إلى البحر — خلاصي.

البحر يوصلني إلى بغداد. وكان في كلماته وفي تنهُّداته يمثِّل العاشق المشتاق، البعيد عن جزر الواق الواق. مسكينٌ المتمدِّنُ الذي لا يستطيع أن يستغني عن المدنية ولو يومًا واحدًا!

---

[1] النوق العمانيات من عمان، وهي أنجب الإبل وأعزها.

أما الإنكليز في المؤتمر فما سمعتهم مرةً يشكون، شأنهم في كل مكان؛ فهم يتقبَّلون كل حال حسنت أو ساءت، عاملين عملَهم جادِّين، راضِين بقسمتهم الوقتية ساكتين صابرين. ودَّعوني ولسان حال كل منهم يقول: هنيئًا لك، يا ليتني مسافر معك!

ولكن المندوب السامي السر برسي كوكس قال لي ساعة الوداع: وهلا سافرتَ إلى الربع الخالي؟ فقلت ضاحكًا: كأنك تبغي هلاكي! ثم فاه وهو يودِّع السلطان بكلمةٍ أنستني الأولى؛ لأن فيها مُنِحتُ ضمنًا حقَّ الحماية الإنكليزية. قال باللغة العربية مخاطبًا السلطان ومشيرًا إليَّ: هو بذمتك. فأجاب السلطان بكلمةٍ ألطفَ منها وأجمل؛ قال ويده على كتفي: الأستاذ نجديٌّ الآن، هو منَّا.

(١١) العدل أساس الملك

العدل أساس الملك، ومن العدل ما كان يعجب، ومنه ما كان يُرعِب ويخيف. وقد شاهدتُ من مُظهِريه في بلاد نجد ما لم أشاهده في البلاد العربية كلها، بل ما وجدتُ خارجَ نجد بلادًا تتمثَّل فيها هذه الحكمة «العدل أساس الملك» ذاك التمثُّل الصحيح الشامل، ذاك التمثُّل المعجب المخيف معًا. عدل ابن سعود! كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك إلى نجد قبل أن تصل إليها، كلمة يردِّدها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد، من الأحساء إلى تهامة، ومن الربع الخالي إلى الجوف.

وما عدل ابن سعود غير الشرع، غير عدل النبي. أضِفْ إليه قسوةً في بعض الأحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي. فمَن يدخِّن مثلًا يُبسط[1]، وكذلك مَن لا يصلي. أمَّا أحكام الشرع فمعروفة، إلا أنها تُنفَّذ في نجد بلا تردُّد ولا محاباة، ولا مُرافَعات لولبيات طويلات. حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيرًا أو غنيًّا. كل الأعمال الأثيمة عند الحاكم سواء، وكل الرءوس سواء عند السيَّاف. وكَمْ من يمين في أولِ عهدِ هذا السلطان الكبير قُطِعت لسرقةٍ صغيرة. وكم من رءوس طاحتْ إلى الأرض لذنبٍ يخفِّفه في غير ذلك الحال، وذلك المكان عُذر وندامة. إن مثل هذا العدل ليثير خواطرَ المتمدنين، ويُغضِب مَن عاشوا في ظل الأحكام المدنية التي لا تخلو من الرأفة والحنان، وإن كان العدل لا يَسلم دائمًا فيها.

شاهدتُ بَسْطَ رجلٍ في الرياض لاغتصابه فتاةً صغيرة، بَسَطَهُ العبيد على بطنه وأمسَكَ عبدان منهم يدَيه ورجلَيه، وسقط العبدان الآخَران بالعسيب الأخضر على ظهره يعدُّون الضربات، إلى أن عدُّوا الخمسين أو الستين. نفرتْ من هذا المشهد نفسي، وسئمتُ العيش بعد ذلك أيامًا. ولكن مَن يعرف عربَ البادية ويُقِيم بينهم ويخبرهم، يرى وجوبَ مثلِ هذه القسوة في تأديبهم وضبْطِ أمورهم.

أما المظهر الجميل في عدل ابن سعود، فإليك مثلًا صغيرًا منه: كنا في العقير نحتاج إلى الكثير من

[1] البَسْط عندهم هو أن يُطرح الرجل إلى الأرض، ويُضرب بالرطب من عسيب النخل.

الحطب، وكان يجيء البدو بأحمال منه يبيعونها إلى رؤساء الخدم بأسعار غالية لقِلَّة الحطب في ذاك المكان؛ ولعلمهم بحاجة الشيوخ وضيوفه الإنكليز إليه.

وقف يومًا أحد هؤلاء الحطَّابين ومعه أربعة جمال محمَّلة. ساوَمَه قيِّم السلطان عليها، فطلب الجمَّال روبيتَيْن ثمن كل جمل، وسعره الاعتيادي نصف روبية. نزل الجمَّال إلى روبية ونصف. رفض القيِّم شراءَها. ساق الجمَّال جماله. ناداه القيِّم ودفع له روبيةً فأبى. فقال القيِّم، وكان الجمَّال قد ولَّى بأحماله: بدوي قواد. لولا الشيوخ والله لأدَّبتُه.

ولو كنَّا في معسكر تركي أو أوروبي، وكان الجيش بحاجة إلى الحطب فهل تظن أنهم كانوا يُعامِلون هذا الحطَّاب مثل هذه المعامَلة؟ بل كانوا يُكرِهونه على البيع بما يريدون ثم يسخِّرونه. لولا الشيوخ لفعل الخدَّامون بالبدو الحطَّابين مثل هذه الفعلات، ولكن حق البدو يُعطى لهم؛ وحقهم أن يبيعوا ما يملكون بما يشاءون ويستطيعون. أما حقُّ ابن سعود فيُؤخَذ منهم بالعدل، وإن اقتضى الأمرُ بسيف العدل البتَّار.

إذا كان العدل أساسَ الملك، فالأمنُ أول مظهر من مظاهر العدل. وفي نجد اليوم من الأمن ما لا تجده في بلادنا أو في أي بلاد متمدنة. لا يظنني القارئ مبالِغًا بما أقول، ولست على ما أقول مستشهِدًا بنفسي، مع أن رحلتي النجدية استمرت خمسة أشهر، قطعت في أثنائها الدهناء مرتَيْن، جنوبًا في طريقي من الحسا إلى الرياض، وشمالًا في طريقي من القصيم إلى الكويت، وكانت حقائبي وفيها مالي مكسَّرة الأقفال مفتوحة، وهي مع الحَمَلة بعيدةٌ مني النهارَ كله، وكان في خدمتي أناس من البدو، فلم أفقد مع ذلك شيئًا من حوائجي ولا ورقة من أوراقي، إلا أني لا أقدِّم نفسي حجةً لإثبات ما أقول عن الأمن في نجد؛ لأني كنت أسافر بطريقةٍ ممتازة مصحوبًا بعشرة إلى خمسة عشر رجلًا من رجال السلطان.

ولكن الأمن في نجد لا يحتاج إلى رحلتي مثالًا وإثباتًا، إن له أكبر دليل وأقطع حجة في أهل البلاد أنفسهم، المسافرين من قطر إلى قطر، وفي القوافل التي تسير أربعين يومًا في ملك ابن سعود من طرف إلى طرف، من القطيف مثلًا إلى أبها، أو من وادي الدواسر إلى وادي السرحان، دون أن يتعرَّض لها أحد من البدو أو الحضر، دون أن تسأل من أين وإلى أين.

قدَّمتُ مثلًا صغيرًا على العدل، وهاك مثلًا صغيرًا على الأمن في نجد اليوم: كانت الطرق في الأحساء في عهد الأتراك لا تُعبَر إلا بقوة عسكرية، أو بدفع «الخوَّة»، وكانت الطريق بين العقير والحسا، وهي طريق التجارة إلى نجد الأسفل، أكثرها وأشدها أخطارًا؛ فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول إلى الهفوف – مسافة أربعين ميلًا – يضطر أن يدفع «الخوة» كلما اجتاز خمسة أو عشرة أميال من هذه الطريق المخيفة؛ طريق التجار والأموال. جاءها العجمان من الجنوب، وبنو مرَّة من الربع الخالي، والمناصير من قَطَر وما دونها، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت، وجاء من داخل البلاد، من وراء الدهناء،

الدواسر الأشاوس، فحاموا كلهم على هذه الطريق وربطوها، وقطعوها، وتقاسَموا أموال قوافلها.

كان يجيء التاجر من البحرين مثلًا فيدفع قبل أن يطأ برجله العقير «خوة» للعجمان، ومن العقير إلى النخل خمسة أميال وخمسون ريالا «خوة» للمناصير، ومن النخل إلى أم الذر خمسة أميال وخمسون ريالا «خوة» لبني مرَّة، ومن أم الذر إلى العلاة خمسون ريالا «خوة» لبني هاجر، ومن العلاة إلى ... إلخ. وإذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه، فمن المؤكد أن أحماله لا تصل كلها إلى الحسا، وكان إذا خرج عسكر الترك لتأديب أحد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم، ويأخذون خيلَهم وثيابهم، ويُرجِعونهم إلى الحسا حُفاةً عُراةً، ثم يجيء البدوي منهم راكبًا حصانَ الجندي التركي؛ ليُبَيْطِره على مرأًى من السلطة المدنية.

هذه هي حال الأحساء قبل أن سقطت في يد ابن سعود، أمَّا اليوم، فقد مررنا في النفود بجمل بارك، رازح تحت حمله، فسألت عن صاحبه فقيل لي إنه سار في طريقه وسيرجع بعد أن يصل إلى البلد بجمل آخَر يحمل البضاعة. وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرةَ أيام فيعود صاحبه فيجده، وما مسَّته يدٌ بشرية، كما تركه في مكانه. كيف تمكَّنَ ابن سعود من إقامة مثل هذا الأمن وتوطيده في بلاده؟ بأمرَيْن: أولهما الشرع، وثانيهما تنفيذ أحكام الشرع تنفيذًا لا يعرف التردُّد ولا التمييز ولا الرأفة.

ليس السلطان وحده في هذا الأمر الخطير، فإن أمراءَه كلهم يأخذون عنه ويتمثَّلون به. وبين هؤلاء الأمراء رجلٌ مشهور يحكم الحسا، هو أكبرُهم هِمَّة، وأشدُّهم تعصُّبًا للعدل، يجلس في كرسي القضاء وَحْده، فلا تجلس معه الرحمة، ولا تجلس معه المحاباة. عدلُه عدلُ عمر بن الخطاب، وقسوتُه قسوةُ البدو. يأمر بالقطع وبالنطع ولا يبالي. هو عبد الله بن جلوي[1] أمير الحسا وابن عم السلطان عبد العزيز. إن اسم عبد الله لَيُرعِب الناسَ اليومَ ويروع منهم المجرمين، إن له صدًى يقوم مقام الشرع في كل الأحساء، من أطراف القطيف شمالًا إلى وادي جبرين جنوبًا، إنه لَيُخِيفُ أكبرَ البدو، وأكثرَهم استهتارًا، بل هو اسم تخوِّف الأمهاتُ به أطفالها.

إنَّ لعدلِ عبد الله بن جلوي عينًا واحدة لا ترى غير المذنب، ولا ترى في ذنبه غير ما يستوجب التأديب في الحال. وهو أسرعُ في تنفيذ أحكامه وأشدُّ من ابن عمه السلطان عبد العزيز. إن ساحةَ الهفوف لَساحةُ الدم، ساحةُ القطع والنطع. خذوه إلى الساحة! وبعد هنيهة يلمع سيفُ السيَّاف في شمس الضحى، فتقع اليد أو الرِّجْل أو الرأس في حجر القضاء، ويهز العدل رأسَه استحسانًا.

جاء عبدَ الله ذاتَ يومٍ رجلٌ يشكو ولدًا ضربه وشتمه. فسأل عبد الله: مَن الولد؟ فقال الرجل: لا

[1] أصله جلوي من جلا يجلو، ولكنهم في نجد يسكِّنون فاء الاسم، ومن ذلك أيضًا قولهم: ابدُوي؛ أي بدوي.

أعرف اسمه. فقال عبد الله: وهل تعرفه إذا عاينتَه؟ فأجاب الرجل بالإيجاب، فأمر الأمير أن تُجمَع عنده أولادُ ذاك الحي من البلد، فأحضروهم كلهم، وجاء الشاكي فنظر إليهم وأشار إلى غريمه، فهمس أحد الحضور في أُذنه: هو ابن الأمير. فجمجم الرجل بعضَ كلماتٍ أراد بها الاعتذار والعدول، فردَّه الأمير، وسأل الولد فأقرَّ بذنبه، فأمر العبيد أن يبسطوه أمامه، وأن يقدِّموا للشاكي عسيبًا أخضر من النخل، فتردَّد العبيدُ وأحجَمَ الرجل، فأخذ الأمير القضيب بيده، وشرع يضرب ابنه ويقول: إذا كنَّا لا نبدأ بأنفُسِنا، فكيف نعدل في غيرنا.

جاء ذاتَ يومٍ إلى القصر في الرياض بضعةُ رجالٍ من بني مرَّة؛ أشدِّ القبائل في الجنوب توحُّشًا، يطلبون عيشًا وكسوة، فكان لهم من السلطان ما يبغون، ثم ارتحلوا شرقًا إلى الحسا فمرُّوا في طريقهم ببعض الأباعر ترعى فساقوها أمامَهم، فشكاهم أصحابها إلى السلطان في الرياض، فبعث السلطان بنجَّاب يحمل الخبرَ إلى الأمير عبد الله في الحسا. وصل النجَّاب قبل أن يصل عربان بني مرَّة، فتحرَّكت أسبابُ العدل عند الأمير بالسرعة التي اشتهر بها. ركب أربعمائة من رجاله وراحوا منقسمين أربعة أقسام، شمالًا وشرقًا وجنوبًا وغربًا، يفتِّشون عن عربان بني مرَّة اللصوص، وما مرَّ أربع وعشرون ساعة حتى جاءوا بهم وبالبعارين المسروقة إلى الهفوف، فأوقَفُوهم أمام ذاك العربي الروماني؛ العربي شَرَفًا الروماني عَدْلًا، وكان سؤال، وكان جواب، وكانت الكلمة: إلى الساحة!

هناك أمام الأمير والجمع المحتشد يشتغل السيَّاف، ويشتغل مُعاونه، والطريقة في الإعدام بسيطة سريعة مدهشة، فيها دِقَّة نظر وفيها مهارة: إنهم يركعون المذنبَ على ركبَتَيْه، ثم يرقص أمامه المعاوِن ليلهيه عن السيف الآخَر المرفوع فوق رأسه، فيَكِزه أولًا السيَّاف وكزةً شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ، فيتحرَّك الرأس إلى الأمام، فيتقلَّص عصب الرقبة، فيضربها إذ ذاك ضربةً — ضربة واحدة؟ — يطيح منها الرأس إلى الأرض. دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع، فيتحدَّث بها الركبان في نواحي البلاد كلها.

وفي ذاك اليوم الرهيب لمع سيفُ السيَّاف لمعات ثمانيًا في ساحة الهفوف، وفي شمس الضحى، رقصت على الأرض ثمانية رءوس من بني مرَّة ... يا راعي البعارين، ضاع لنا بعيرٌ فهل عايَنْتَه في الطريق ...؟ هو ذا يا خويي البعير، تعالَ خذه ... العدل أساس الملك وسياجه. فإن القلاع التي بناها التركُ في الطريق إلى الحسا هي اليوم مهجورة متهدِّمة، والقوافل تسير ثمانمائة ميل شرقًا وغربًا، وثمانمائة ميل جنوبًا وشمالًا في ملك ابن سعود، وهي تدعو له بطول العمر وتشكر الله.

قلت: إنهم يبسطون مَن يدخِّن في نجد، ويبسطون كذلك مَن لا يصلي. وللكلمتين شرحٌ تُوجِبه الحقيقة والإنصاف؛ لأن الناس فيما يسمعون من عجيب الأمور ومنكرها يُبالِغون، ولا يهمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالَغات.

التدخين ممنوع في نجد، بل في ملك ابن سعود كله، ولا أحد يدخِّن علنًا أو في الأسواق، لا في الحسا ولا في العارض ولا في القصيم.

ولكنهم في الحسا وفي القصيم يدخِّنون في بيوتهم، والمشايخ يتساهلون، وقد رأيت في الرياض مَن يدخِّن سرًّا حتى في حضور أقرب الناس إلى السلطان؛ ذلك لأنهم لا يرون في الدخان ما يراه المتعصِّبون من العلماء. أمَّا السلطان فهو يحب الروائحَ الطيبة ويشمئزُّ من رائحة الدخان، وما كان ليزورني كلَّ ليلة على ما أظن لو كنتُ أدخِّن يومَ كنتُ ضيفَه في القصر بالرياض.

حدَّثنا المستر فلبي في كتابه «قلب البلاد العربية» قال: كنت أنا ورفيقي ندخِّن ذات ليلة (وكانا مِثلي ضيفَيْن في القصر) إذ دخل علينا عبدٌ يُعلِمنا بقدوم الشيوخ. وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرةً على الديوان، فخبَّأناها مُسرِعين، وفتحنا الشبابيكَ كلَّها، إلا أنه عندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال منتشرًا في الغرفة، فجلس متجاهلًا، وكان لطيفًا على عادته، ولكن أحد العبيد جاء توًّا بالمجمرة وفيها الطِّيب فقدَّموها لسموه، ودار علينا بها مرارًا ثم تركها على السجادة وسط القاعة تطهيرًا للهواء.

تجاهل السلطان مع أن دخان الغلايين أكرهُ شيءٍ لديه، وكان لطيفًا على عادته، ولكنها كانت أولَ زيارة منه لضيوفه في منزلهم، وآخِر زيارة. هاك مثلًا آخر من تلطُّفه وتساهُله: في الرياض حي يسكنه العلماء، وللعلماء حاسةُ شمٍّ تخترق الجدرانَ فتعرف ما وراءها من دخان، وتميِّز بين الحلال منه والحرام؛ لذلك لا يجرؤ أحد في ذاك الحي أن يشعل سيكارة، لا سرًّا ولا في غرفةٍ مُظلِمة تحت الأرض. وإذا خاطَرَ بنفسه واستهتر، فاكتُشِف أمره، يُحاكَم أمامَ الشيخ، وعند إثبات الجُرْم، بعد استماع الشهود يُسَط في الحال لا محالة، ف «يطقه» — يجلده — العبيدُ من أربعين إلى ثمانين جلدةً حسب خطورة الذنب فيه. وقد سمعت السلطان عبد العزيز يقول لرجل من أخصائه كان يبحث يومئذٍ عن بيت لينقل إليه: في محلة الشيخ (أيْ في حي العلماء المذكور) بيتٌ كبير، ولكنك تعلم أنهم هناك يُواظِبون على الصلاة، ويشدِّدون في الأحكام فتُضطر إلى أن تصلي في المسجد.

إن في كل مسجد بالرياض كما قِيل لي جريدةً بأسماء الذين يصلون فيه، يقرؤها الشيخ كلَّ يوم صباح مساء، فإذا كان أحدٌ غائبًا يزوره وفدٌ من الإخوان في بيته. قد يكون مريضًا فيَعُودونه ويُؤاسِون، وقد يكون مُستغرِقًا في النوم فينبِّهونه وينصحون، وقد يكون كَسُولًا فيحذِّرون. أما إذا تغيَّب عن الصلاة ثانيةً بلا سببٍ فيَعِظونه ويوبِّخون، وإذا كرَّر فعلته فيَبْسطونه لا محالة، ويعملون في ظهره النخل أو الخيزران.

هي حقيقة الوهابية في العارض، بل في الرياض، بل في حي خاص من أحياء الرياض. وكلما بعدت من ذاك الحي ومن تلك المدينة، وكلما بعدت من العارض شمالًا أو شرقًا، تبعد من الغُلوِّ في الدين — دين التوحيد — ومن التعصُّب في تنفيذ أحكامه الاجتماعية.

(١٢) الإخوان

مَن هم الإخوان؟ مَن هم أولئك الوهابيون الذين يردِّد الناس في كل قُطْر من الأقطار العربية اسمَهم مُستعيذين بالله؟ وقلَّ مَن يعرف حقيقةَ حالهم، ويدرك سرَّ اشتهارهم. أَهُم رُسلُ الهول والموت، أم رُسلُ دينٍ لا يعرف غيرَ الله والكتاب والسُّنة، دين النبي مُحَمَّد والصحابة؟ أقول نعم جوابًا على السؤالين.

الإخوان هم الفئة المحارِبة، الفئة المتعصِّبة، الفئة المدَّينة[١] جديدًا في الوهابية. الإخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرُّحَّل، من البدو الجاهلين، فديَّنوا؛ أيْ دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين. وهم في غُلوِّهم يعتقدون أن مَن كان خارجًا عن مذهبهم ليس بمسلم، فيشيرون إلى ذلك في سلامهم بعضهم على بعض. السلام عليكم يا لاخوان[٢]، حيا الله المسلمين. وإذا سلَّم عليهم سُني أو شِيعي، فلا يردُّون السلام.

من الحقائق الناصعة في الأديان ونشأتها أن كل مَن دان بدين جديد أو كان جديدًا في الدين، يأخذ منه الغلو مأخذًا يلتوي عنده العقل، فيسترسل فيما يظنه فضيلةً ولا يطيب له عيش إلا بالتبشير والجهاد. قد كان كذلك المسيحيون الأوَّلون ثم البروتستانتيون، بل قد كانت شِيَع الإسلام كلها في بداءتها نازعة إلى السيف، معتقدة أن الدين كل الدين في نشره في الناس حربًا أو سلمًا، كَرْهًا أو إقناعًا.

وها إن الإخوان في هذا الزمان يحملون البنادق والبيارق باسم الله، فيحملون أو كانوا يحملون على كل مَن لا يدَّين من العرب، وكأني بهم لا يرون خيرًا في حياةٍ لا إكراهَ فيها على التوحيد، فينادي الأخ منهم ممتشقًا حسامَه أو رافعًا بندقيته: أنا خيَّال التوحيد أخو مَن طاع الله، بين رأسك يا عدو الله! إنهم من هذا القبيل مثل رجال البروتستانت الأوَّلين الذين حارَبوا تشارلس ملك الإنكليز. والسلطانُ عبد العزيز أشبهُ برَجُلِ تلك الثورة الكبيرِ كرمويل.

على أننا لا نحتاج إلى الأمثال والمقارنات من تاريخ الغربيين، وعندنا في تاريخ الإسلام مثل الوهابية الأعلى. أجل إن مثال «خيَّال التوحيد» إنما هو النبي، وإن حروب الوهابية اليومَ شبيهةٌ من وجه خاص بالحروب النبوية. عُودوا إلى الله أيها المشركون، عُودوا إلى النبي والسُّنة، عُودوا إلى دين التوحيد، وإذا كنتم لا تعودون فتكفرون بالطاغوت ولا تشركون أحدًا مع الله، نحن الإخوان عليكم، إن سيفنا بتَّار ويومنا عصيب[٣].

---

[١] ادَّين: أيْ تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح أهل نجد.

[٢] أهل نجد يدخلون في المناداة ال التعريف على الاسم، فلا يقولون: يا إخوان ويا أمير مثلًا، بل يا لاخوان ويا لامير.

[٣] بعد حروب النبي التي كان بعضها دفاعيًّا وبعضها تعزيزًا لدين التوحيد، صار الفاتحون المسلِمون يرضون من الأمم التي يتغلَّبون عليها الخضوعَ لسُلْطتهم دون أن تغيِّر دِينها. وفي القرآن: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ).

قد برهنوا على ذلك في مواقع عديدة، وأثبتوا جوابي على السؤال الأول، فكانوا رُسلَ الهول ورُسلَ الموت في كل مكان سُمِعت فيه «هوستهم» المشهورة: هبَّتْ هبوب الجنة، أين أنتَ يا باغيها؟ فلا الحجاز ينساهم، ولا الكويت يذكرهم بالخير، ولا العراق يُحسِن بهم الظن، ولا الجوف ولا الجبل ولا القصيم يكبر في ساعة الوغى سِواهم؛ ويردِّد خوفًا وإعجابًا غير اسمهم. الإخوان، زرعوا الهولَ في كل مكان. الإخوان يحاربون مستبسِلين مستشهِدين. روى الناس، الموالون منهم والمعادون، أخبارَ الشجاعة والبطولة التي اشتهروا بها. قالوا إنهم شياطين الدين، وقالوا إنهم أبطال المسلمين. وما كانت البطولة بغير الإيمان الحي والثبات في الجهاد. لولا ذلك ما كان الإخوان، وما كان مُلك ابن سعود. هبَّتْ هبوب الجنة، أين أنت يا باغيها؟ وكل يبغيها؛ لذلك يحاربون وقلَّما ينهزمون. الجنةُ أمامَكم والنارُ وراءَكم، فمَن منهم يتقهقر، ومَن منهم يولي مدبرًا؟! هم شوكة ابن سعود أيام الحرب، وهم أيام السِّلْم الشوك في غصن الدين. يحملون سُلَّم التوحيد بالعرض، ويزعجون أحيانًا حتى سلطانهم العزيز. حدَّثتُ كثيرين منهم فما وجدتُ وراء اللسان غيرَ قلبٍ فيه أتون من الإيمان، فلا يهاب صاحبُه الموتَ ولا يخاف غير الله. ولكنك تسألني: أمن روح هناك فيها شيء من الحنان، أم من عقل فيه ذرة من البرهان؟

هو ذا نوَّار أقدِّمه مثلًا قويمًا كريمًا. وما نوَّار غير راعي بعير اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر إلى القصيم. كنَّا يومئذٍ على أُهْبة الرحيل فأراد الشاب أن يواخينا فقبلنا، فخرج راكبًا معنا من الرياض، ونوَّار صاحب الذلول يمشي أمامه أو وراءَه. وكان في بعض الأحايين عندما يتعب، يَثِب إلى الرَّحْل رديفًا، ثم يترجَّل مستعيذًا بالله؛ ذلك لأن الشاب الذي أكراه نوَّار بعيره هو «ازْكرت»[1]، يدخِّن ويغني، والغناء في نجد اليومَ محظور، وفي بعض مدن العارض والقرى الجديدة، الهُجَر، محرَّم مثل الدخان. أما الزكرت فكان يرفع عقيرته كلما خرجنا من قرية وصرنا في الفلاة، فيتلو إذ ذاك نوَّار التعويذَتَيْن. وعندما رآه لأول مرة يُشعِل السبيل كاد يُجَن. كان ذلوله ماشيًا إلى جنب ذلولي، وكان نوَّار وقتئذٍ رديفه فوثب فجأةً إلى الأرض كأنَّ نارًا أُشعِلت تحته وهو يردِّد بصوت عالٍ: أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ... أَجِرْنا اللهم من النار ... أَجِرْنا اللهم من النار. والزكرت أثناء ذلك والربع كلهم يضحكون.

كان الأخ نوَّار مع ذلك لطيفًا وذا مروءة تُشكَر؛ فيُعاوِن الخَدَم، ويرعى الركائب عند المراح، ويجمع الحطَبَ ويشبُّ النار، ولا يأكل إلا قليلًا. رافَقَنا هذا البشر الغريب، آخانا كُرْهًا عشرة أيام، وما من مَرَّة سلَّمَ عليَّ أو كلَّمني أو ردَّ سلامي. مرضت أثناء السفر بالحمى، فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي

[1] ازكرت لفظة فارسية معناها مَن لا أهل له ولا عيال، وتُطلق في نجد على مَن يقضي أيامَه في قصر السلطان أو الأمير، أو خادمًا حول القصر ينتظر قسمةَ ربه. والزكرت كثيرُ الأسفار عادةً وكثيرُ الأخبار، مَرِن العقل والخُلق، يُحسِن الخدمةَ ويُحسِن كذلك التهكُّم على الإخوان.

ونوَّار واقف اتفاقًا في الباب، فقلتُ مازحًا، بل كنت أضايقه عَمْدًا: يا نوَّار أنا «مصخن» (مريض) اليوم. فمالَ بوجهه إليَّ هاتفًا: والحمد لله! كانت عصاي طوع يدي قرب السرير فرميتُه بها لِمَا ظننتُه منه وَقَاحة، بل وَحْشية، فأصابت منه الرأس، ولكنها لم تحرّك اللسان بكلمةٍ واحدة.

نهضت بعد ذلك وخاطَبْتُه وهو واقف عند النار: أنت يا نوَّار رجلٌ تقي وَرِع صِدِّيق، وأنا رفيقك في السفر – مريض – «خوياك مصخن» اليوم، ونبغي الرحيل، ولا رحيل مع مرض، فهلَّا ذكرتني في صلاتك وسألتَ اللهَ لي الشفاء العاجل! فلم يُجِبْني بكلمة. فقلت: أفَلَا تصلي من أجلي يا نوَّار! ظلَّ مُعرِضًا عني ساكتًا. فقلت مُصِرًّا: أنا «خوياك» أبغي منك أن تَذْكرني في صلاتك. هزَّ الرجل رأسه متأفِّفًا وبعد عني، فتبعته وأمسكته بعباءته، وأظنني كنت محمومًا فزادني هذا الصد منه حرارةً وغيظًا، فقلت ولا مزاح: اسمعْ يا نوَّار، أنا أعلِّمك، أنت واحد و«حنَّا» خمسة عشر، وكلنا ندخِّن ونغني، فإذا كنتَ لا تصلِّي من أجلي وتسأل الله لي الشفاء، نذبحك والله مثلما ذبح مسفر هذه الشاة. أظن أن تهديدي راعه فحرَّك شفتَيْه بهذه الكلمات: الله يُجِيرنا وإياك من النار! وهذا منتهى التساهُل منه. لم يطلب لي الشفاء، كلا، بل أشرَكَني من فضله بالاستجارة من النار، نار الجحيم. كلُّ الإخوان المدَّينين جديدًا هذا الرجل، كلهم نوَّار.

على أن هناك فريقًا آخَر منهم، قد مرَّ على تدينهم أو تدين آبائهم حِقَب من الزمان، فلطف فيهم سَورة الإيمان. هؤلاء يسلِّمون على غير الموحِّدين، ومنهم مَن يدخِّن سرًّا ويغني إذ سار في الفلاة[1]، ولا يلوم ابن سعود على تساهُله مع الكفار الإنكليز.

وهناك فريقٌ ثالث أكثرهم من جبل شمر، ديَّنوا بعد سقوط حائل أو قبله إما خوفًا وإما ارتزاقًا، فهم يتساهلون تساهُل السُّني، ولكن الأخ الجديد الأكيد يقول: إنهم مدغلون.

قد كان في رجالي الذين عشت وإياهم شهرين في السفر من العارض إلى القصيم والكويت من الثلاثة الإخوان، الأخ المجنون، والأخ المتعصب تعصُّبًا نسبيًّا معقولًا، والأخ المتساهل. وكان في الصنف الأخير رجلٌ ظريف ذكي الفؤاد يُحسِن النكتةَ والجواب، يدخِّن دائمًا ولا يستأثر بالسبيل، بل كان يقدِّمه عند كل «تعميرة» إلى رفقائه، صارخًا بصوته العريض: دخِّنوا يا إخوان. بارَكَ الله فيهم قد كانوا طيلة الطريق موضوع التهكُّم والضحك. أجل، قد أضحكونا وفكَّهونا في ساعات الضجر الطويلة.

---

[1] لا أظن أحدًا من العرب موحِّدًا كان أو مشركًا يستطيع أن يُقاوِمَ ما تحرِّكه الفلوات في نفسه من حبّ الغناء أو الحداء. كنا ذاتَ ليلةٍ حول النار نبحث في هذا الموضوع، فروى أحد الربع قصةً عن السلطان عبد العزيز، قال: خرجنا يومًا من الحسا مع الشيوخ، وكنا عشرين من خاصة رجاله، فلما وصلنا إلى الدهناء رفع عبد العزيز العقال والغطرة – الكوفية – عن رأسه ووضعهما في الخرج، وقال باسمًا: لا إخوان معنا، مَن كان عنده حِس فَلْيُسمِعنا الآن. فرُحنا نغني والله حتى قطعنا الدهناء وعبد العزيز مسرورٌ طَرُوب.

ويقسم الإخوان أيضًا إلى ثلاثة أقسام: المطاوعة[1]، والعلماء، والمتعلمين المبتدئين. أما المطاوعة، فهم في كل نجد يُعرفون من قيافتهم النسكية، بل من خلق أطمارهم. أما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة فإنْ هي إلا نصف ذراع من الخام يلفُّه المطوَّع فوق الغطرة على رأسه ويشكر الله، ثم يحمل عصا من الشوحط إذا كان كبيرًا، وإلا فقضيبًا من الخيزران، ويَجُوب البلادَ في سبيل التوحيد. المطاوعة يعلِّمون الناس الدين، والعلماء يعلِّمون المطاوعة، وكلهم يومَ الجهاد «خيَّال التوحيد أخو مَن طاع الله»، وكلهم في أيام السِّلْم فلاسفة في التقشُّف والقناعة، في الشدة والصبر، في التفقر والتقوى؛ ترى الأخ في الطريق حافيًا لا يحمل غير عصاه، ينفخ الهواءُ في أطماره فيكشف عراه، وقد يكون مشى يومين أو ثلاثة دون أن يذوق الخبز والتمر، فتسأله بعد السلام: «وتسايف أنت؟» (كيف أنت؟) فيُجِيبك بصوت عريض، وقلب وطيد كأنه يمثِّل دورًا في رواية: بخيرٍ ونعمةٍ والحمد لله! إنما هذه فضيلةُ الإخوان بل فضيلةُ النجديين الكبرى؛ فهم على فقرهم وسوء حالهم في الدنيا قانِعون راضون، وقلَّما تسمع كلمةً منهم فيها شيء من اليأس أو الشكوى.

والسلطان عبد العزيز إمامُهم في كل شيء، فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون، ويُحسِن سياسةَ الجميع، فيستخدمهم في سبيل الله وملك ابن سعود. أجل إن عنده لكلٍّ من الإخوان وظيفةً ومقامًا: المعتدِل للخدمة، والمتساهِل للتجارة والسياسة، والمجنون للقتال. أمَّا أمر الصنف الأخير، إخوان نوَّار، فقد يستفحل عليه في بعض الأحايين، وقد يعجز عن ضبطهم دائمًا؛ لأن المسافات في نجد بعيدة والمواصلات كلها أولية. الإخوان قوة هائلة ينقصها نظام وإدارة، وإلا فتتفلَّت من يد سيدها، وتكون عليه وعلى سِواه وخيمةَ العاقبة. مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق يوم هجم الدويش بأهل الأرطاوية على ابن سعدون وعشائر العراق، فهزموهم شرَّ هزمة وأذاقوهم من هَوْل الإخوان ما لا ينسونه حياتَهم.

ولنا فيما حدث في الجوف السنةَ الماضية مثالٌ آخر، غير أن عُذر إخوان الجوف كان واهيًا فلم يقبله السلطان عبد العزيز، بل أمر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة، وبإحضارهم مُقيَّدين إلى الرياض حيث سُجِنوا ثلاثة أشهر.

كنت في عاصمة نجد يومَ أُطلِق سراحهم فأُحضِروا أمام السلطان، فخاطَبَهم قائلًا: لا تظنوا يا إخوان أنَّ لكم قيمةً كبيرة عندنا، لا تظنوا أنكم ساعدتمونا وأننا نحتاج إليكم، قيمتكم يا إخوان في طاعة الله، ثم طاعتنا، فإذا تجاوَزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم. إي بالله، ولا تنسوا أن ما من رجل منكم إلا وذبحنا أباه أو أخاه أو ابن عمه. وما ملكناكم إلا بالسيف. ترى الصحيح. والسيف لا يزال بيدنا إذا كنتم يا إخوان لا ترعون حقوقَ الناس. لا والله، لا قيمةَ لكم عندنا في تجاوُزكم، أنتم عندنا مثل التراب … أمَّا إذا عدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هذا الخشم — وضرب بالسبابة أنفَه — وحقي آخُذُه منكم دائمًا بإذن

[1] جمع مطوَّع: أي المطوع في خدمة الله. وأصله متطوع فأُدغِم.

الله ... أنتم ما دخلتم في طاعتنا رغبةً بل قهرًا، وإني والله أُعمِل بكم السيفَ إذا تجاوَزتم حدودَ الله.

(١٣) في القصر بالرياض

لا يزال للشِّعر مقام في نجد وإنْ رثَّت حواشيه وتفاقَم اللحن فيه، فكثيرًا ما تجد على حيطان القصور أثرًا من حكمة القدماء ونفائس الشعراء يُنبئك بما يتمثَّل به الأمراء والعربان، أو بما كان من حادِثات الزمان. وفي القصر بالرياض فوق الأبواب في رواق المجلس العام، كُتِبت على الحائط بالحبر الأسود بخطٍّ رديء أبياتٌ من الشعر منها:

إذا خانَــك الأدنى الــذي أنــتَ حِزْبُــه فــوا عجبًــا إنْ ســالَمَتْك الأباعِــد

إن اللبيب العالم بتاريخ نجد الحديث ليقرأ في هذا البيت الوحيد فصلًا في الخيانات والدسائس التي كان السلطان عبد العزيز هدفًا لها وسيفًا لامعًا عليها. الخيانات في أقرب الناس إليه، وفي البدو أيضًا والإخوان. أمَّا الأباعِد الذين سالَموه، بل والَوْه، وكانوا له عونًا على أعدائه أثناء الحرب العظمى، فهم حقًّا من الأباعِد، الأباعِد قومًا، الأباعد دِينًا، الأباعِد مَزارًا. وما كان ليربط آل سعود بهم غير السياسة والمصلحة. ليس قصدي أن أفيضَ الآن في الكلام عن تلك الرابطة وأسبابها ونتائجها، وإنما القصد أن أشيرَ إلى ما في حياة ابن سعود من شِدة قاساها، وغَمٍّ يكنُّه، فيبدو في بعض الأحايين يابسًا كالجرح القديم في وجه الجندي.

إن السلطان عبد العزيز، وإن كان قد ذلَّل العقبات، وفلَّ حدَّ النكبات، وأصبح، إذا صح الحُكْم على الرجل من حديثه ومحضره، آمِنًا مطمئنًّا؛ إنه لَيُفصِح في هذا البيت من الشعر عن حقيقةٍ لا يزال يؤلمه ذِكْرها، وقد يكون أمر بكتابته فوق باب مجلسه؛ ليذكر أيضًا به أولئك الذين كانوا بالأمس حربًا عليه وأصبحوا اليومَ من خاصة رجاله. أمَّا وَلاء الأباعِد فالعجب فيه يتجاوَز ظاهرَ أمره. العجب كل العجب من مصالح تنتصر حتى في نجد، حتى في الحجاز، على رابطتَي القومية والدِّين. فعبثًا يكبر الناس الواحدة ويقدِّسون الأخرى. إنَّ عُرَى الاثنتَيْن لَتنحلُّ وتتقطع، كأنها حبال شمس الضحى، عندما يَمْسسنا منها الضرُّ أو يستحثنا عليها غرضٌ مادي أو معنوي.

وهناك أبيات أخرى من الشِّعر تُفصِح عن خلة حميدة مجيدة، ليس في السلطان وَحْده أو في آل سعود أو في الإخوان، بل في أهل نجد كافة. ولكنتُ أقول إنها تعبِّر عما في قلب كل عربي من الإباء والنخوة والشجاعة، لولا أني رأيت من العرب في غير نجد مَن لا أثرَ في أنفُسِهم لتلك السجايا الشريفة. أمَّا في نجد، في البادية والحضر، فلا غرو إذا تمثَّلَ الناس بقول الشاعر الذي رفعه السلطان عبد العزيز إلى أرفع مقام عنده، فأمر بكتابة كلماته فوق بابه:

فإمَّــا حيــاةٌ لا تُــذم حميــدة يحــدِّث عنهــا مَــن أغــار وأنجــدا

هم يجيئون من كل حدب وصوب في أيام الغزو أو الحرب وهذا لسان حالهم. أجل إن أمرًا يصدر من الرياض فيحمله النجَّابون إلى أقاصي البلاد؛ ليُجمِع على إحدى الآبار أو في أحد الشعاب في اليوم المضروب ألوفًا من أهل نجد، بادية وحضر، وقد جاء كلٌّ على ذلوله مسلَّحًا ببندقيته، وممنطقًا بذخيرته، وحاملًا بعض التمر والماء. إن أمرًا كهذا مُطاع ولا مَردَّ له؛ فهم أثناء الغزو أو الحرب لا يبغون من سلطانهم شيئًا. هم يعطوننا – الكلام للسلطان عبد العزيز – ولا يأخذون منا، ونحن في أيام السِّلْم نعطيهم ولا نأخذ منهم.

لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض، بل كنت أشاهده كلَّ يوم مدة إقامتي هناك، وأعجب جدًّا لا لكرم هذا الرجل بل لإيمانه وثقته بالله، مصدر الخير غير المتناهي وولي النعم التي لا تزول. وإلا فكيف يؤمل بدوام حال تمكِّنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة؟ هنالك حكومة فردية أوتوقراطية وديمقراطية معًا تبرأ من قواعد الإدارة والنظام كلها، وبلاد ثلاثة أرباع أرضها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الأنعام، ورعية ثلثاها من البدو وأكثرهم حتى اليوم لا يُحسِنون صناعةً ما، وإقليم قَيْظه يُحرِق ويبيد، وشتاؤه لا يصدق ولا يُحسِن الوفاء، فتجيء السنون المجدبة فتعقم المفالي ويعم البلاء.

ومع ذلك ترى نجد اليومَ عزيزةً بعبد العزيز، تستمتع بأمنٍ منقطعِ النظير في كل البلاد العربية، وبعدلٍ كبير شامل يحمل السيف والقسطاس، وبخيرٍ فوق ذلك لا تنفد موارده.

«هذه يا طويل العمر جريدة بمَن نوَّخوا اليوم».

يقدِّمها إبراهيم[١] رئيس التشريفات فيقرؤها السلطان، ويكتب إلى جانب كل اسم ما يجب أن يُعطى صاحبه يومَ ارتحاله. استأذنتُ عظمته بإحدى تلك الجرائد وفيها أكثر من مائة اسم، ونقلت من رأسها ووسطها وآخِرها ثلاثة أسماء لإطلاع القارئ على أحوال ابن سعود كلها.

---

[١] إبراهيم بن جميعة من حايل، كان من أعداء ابن سعود في احترابه وابن الرشيد، وهو اليومَ من أقدر رجال السلطان وأكثرهم إخلاصًا له، قد رافَقَ المستر فلبي – كان أمير حملته – إلى وادي الدواسر، فسألت إبراهيم أن يقصَّ عليَّ قصةَ أهل الوادي و«النصراني الكافر» التي رواها فلبي في كتابه، فقصَّها عليَّ وكان صادقًا ولا شك؛ إذا ما وجدتُ فَرْقًا بين الروايتين. ولكن الفَرْق كل الفَرْق إنما هو بين الإنكليزي العالِم والعربي الذي يكاد يكون أُمِّيًّا. الفَرْق بين اختلاف الاثنين يستحقُّ هذه الحاشية. يظهر أن المستر فلبي، وهو صعب المراس، اختلف مرارًا وأمير حملته، فلم يدرك مقامه في القصر على ما أظن، وفاتَه أن عظمة السلطان أكرَمَه إكرامًا ممتازًا حين وكلَ أمرَ رحلته إلى رئيس التشريفات. اختلف الاثنان في الطريق وتنافرا، فقصَّ المستر فلبي القصةَ في كتابه وحمل على ابن جميعة بلغةٍ لا يفهمها – طعنه في ظهره. ولعمري إن ما قاله لا يليق بشَهْم إنكليزي، ولا يجوز أن يُنشَر في كتاب علمي نفيس. أما ابن جميعة فماذا قال في المستر فلبي؟ سألته مرارًا أنْ يقصَّ عليَّ القصةَ كلها فأبى وتردَّد، وكلُّ ما قاله مما يشتمُّ منه النفور: فلبي غضوب، طبعه ما هو زين، ولكنه كريم، أعطى كل واحد من الربع من الأربع إلى العشر ليرات. حبذا أخلاق العربي وحبذا معها العلم والتمدُّن.

- **بخط رئيس التشريفات**: حمود بن صوَيْط معه فرسان وذلول (بعض الزائرين يجيئون بالهدايا من خيل وإبل).
- **بخط السلطان**: ألفا روبية وبشت وبر معلَّم (أيْ: عباءة مقصبة) وزبون (قنباز) جوخ وسيف مذهب.
- **بخط رئيس التشريفات**: سليمان بن علي من أهل حايل.
- **بخط السلطان**: أربعمائة روبية وبشت وزبون.
- **بخط رئيس التشريفات**: هذاع بن سلطان بن زايد راعي (حاكم) عمار معه عشر ركائب (نوق) عمانيات (هدية).
- **بخط السلطان**: ثمانية آلاف روبية وسبعون ليرة وعشرون بندقية وفرَسان.

ثم إلى رجاله الخمسة والعشرين كل واحد كسوة وكيس فيه من المائة إلى الخمسمائة روبية حسب مقامه.

هؤلاء ثلاثة من المئات الذين ينحرون[١] الرياض مستعطين ولي النعم فيها، ومنهم مَن يعود إلى أهله ومعه فوق الكسوة والمال حمل أو حملان من التمر والسمن والتُّمن (الأرز) والسكر والبن.

إن في الجريدة أسماء أناس من غير رعايا ابن سعود، جاءوا زائرين مسلمين؛ منهم ابن صويط من مشايخ الضفير في العراق، وابن مجلاد من مشايخ عنزى في الشمال، وابن نايف من بني علي في المدينة المنورة، وابن سلطان بن زايد من عمان، وابن الدخيل من قِبَل نوري الشعلان؛ كلهم يؤمون الرياض لعلمهم أن فيها رجلًا من كبار رجال العرب اليوم بل أكبرهم، يؤمونها إما حبًّا وإجلالًا، وإما خوفًا واستعطافًا، وإمَّا ابتغاءَ مساعدة مادية أو سياسية، وقلَّما يعود أحدهم من عاصمة نجد خائب الأمل.

والرجل في حلمه مثله في كرمه. جاءَه ذاتَ يومٍ شيخُ قبيلة حاربته بضع سنين ثم دانت له، فأقام الشيخ أيامًا في الرياض وقال للسلطان عند الوداع: قالوا لي إنك سحار يا عبد العزيز. صدقوا والله؛ فقد سحرتني! إن أخبار حِلمه لَأَدْعى إلى الدهشة والإعجاب من أخبار كرمه.

ليس مَن ينيخون في باب السلطان كلَّ يومٍ الشاهدَ الوحيد على جوده، وليس من يجيئون ممن كانوا بالأمس أعداء الشاهدَ الفرد على حِلمه واقتداره. فإن في الخرج والأفلاج[٢] وفي القصيم، وفي ظلال أجا

---

[١] نحر البلد أو الديرة: أيْ قصدها سِلمًا أو غزوًا.

[٢] الخرج والأفلاج من مقاطعات نجد الجنوبية، وهي جنوبي العارض.

وسلمى[١] مئات ممَّن يحمدون الله ثم ابن سعود على حياتهم وعلى ما هم فيه من خير ونعمة. وفي الرياض جيش من السباهلة والفقراء، يتراوح عددهم بين الألف والألفَين يأكلون في القصر مرتَين كل يوم الظهرَ والمساء. وفيها أيضًا مائة أسرة أو ما يزيد؛ منها أسر بيت الرشيد، لا يكلِّفهم الله على ما يظهر أقل سعي في سبيل رزقهم؛ فالبيوت والخيل والإبل والثياب والمئونة والجواري والعبيد، كلها من الشيوخ، من السلطان.

«ادفع يا شلهوب. وزع يا شلهوب»[٢].

رأيت العربان والإخوان ينتظرون في الرواق وشلهوب جالس وراء منضدته يعدُّ الروبيات، وأعوانه في المخازن حوله يوزِّعون الثياب، وكنت أرى كلَّ يوم عند غروب الشمس صفًّا طويلًا من العبيد، ساسة الخيل، كلٌّ يحمل وعاءَه وينتظر عند باب من أبواب شلهوب ليملأه شعيرًا. إن لشلهوب منازلَ كثيرة ومهمات متعددة، هو مثل يوسف في مصر الفراعنة. وملَّكناه ... وجعلناه على خزائن الأرض. وهو مع ذلك القيِّم الأول في المطبخ السلطاني والمطبخ العام اللذين لا يختلفان في غير التمن؛ أي: الأرز. فالصنف الذي يُطبخ للسلطان ورجاله أحسن من ذاك الذي يُطبخ للعربان والإخوان.

يوم وصلت إلى الرياض هالني عندما أَنَخْنا أَمْرُ أولئك العربان من بدوٍ وحضر وإخوان؛ رأيتهم جالسين خارج القصر وداخل القصر في الأروقة على مجالس من الطين، رجال وصِبْية، وبأيديهم العصي ينكتون بها الأرض، أو يرفعون رءوسها إلى شفاههم يُداعِبونها مثل أماجد الإنكليز. وكل واحد منهم رب أمره ملتف برداء العظمة والسكينة، كأنه أمير خطير لا ينظر إلى جاره ولا يكترث به. مئات من «الأمراء» جالسون صامتون، يتفرجون! سألت رفيقي: هل جاءوا يتفرجون علينا؟ فقال: لا، إنما الآن وقت الغداء، وهم ينتظرون الأمرَ بالدخول، الأمر من وليِّه شلهوب. ولكنهم في دعائهم لعبد العزيز بطول العمر لا يذكرون شلهوبًا بغير الذم. ولماذا؟ التمن ما هو زين. الله يغربلك يا شلهوب!

وكنت أرى كل يوم قبل غروب الشمس ليس في ساحة القصر، بل وراءَه عند باب المطبخ جمعًا آخَر

---

[١] أجا وسلمى من جبال بني طي قديمًا، وجبال شمر اليوم، وفيها حايل.

[٢] هو مُحَّد بن صالح الشلهوب وزير المالية ووزير التموين عند السلطان عبد العزيز. وما الوزارة هناك غير صدى الإرادة السلطانية وآلة من آلات أحكامها، إلا أن الشلهوب هو صليب الشيوخ، فيه عذاب وفيه خلاص، وفيه إخلاص لا ريب فيه. مهماته متعددة تشمل الكبيرة والصغيرة؛ من المدفع إلى عود الكبريت، فهو يتولى أمر التوزيع العام الشامل: يوزِّع الحطب، ويوزِّع السمن، ويوزِّع السلاح، ويوزِّع المال. طريقته في الإدارة أولية بدوية، وحساباته قروية. قال لا فضَّ فوه: الذي يجيء نقيِّده، والذي يروح نقيِّده، والنتيجة لا شيء. وليس في طريقته محاباة وتفضيل. طوَّف بي ذات يومٍ مخازنه فدُهِشت لما في ذمته من الأموال، وفي ذاكرته من الأشياء. هذا مخزن السلاح والذخيرة، وهذا بيت التموين، وهذه الخوابي صنع الهند للسمن، وهذا التمن مئات من الأكياس مرصوصة بعضها فوق بعض. ثم أدخَلَني غرفةً ذكَّرتني بمخازن الرهون بلندن وبنيويورك، كل ما فيها مهمل مجهول ومكدَّس بعضه فوق بعض. سألت الشلهوب عنها فقال: غنمناها في إحدى المواقع ولا أدري ما فيها.

محتشدًا هناك، جمعًا كبيرًا من فقراء البدو المخيمين خارج المدينة، نساء يحملن أطفالهن، وصبيانًا عُراة، وبعض الرجال في أطمار ممزَّقة بالية. جمعًا تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة، وكلهم جاءوا في هذه الساعة وبأيديهم أوانٍ من الخشب أو النحاس أو الفخَّار ينتظرون شيئًا من الطبخ، ينتظرون فضلات المائدة العامة.

ما رأيت في الفقر مشهدًا أشد وبالًا وأبلغ فصاحة فيما يثير التسخُّط والأحزان مثل هذا المشهد الهائل. إنه لَفقرٌ وجُوع في قذارة، وقذارةٌ في ذل، وذلٌّ في قناعة!

لو كان مثل هذا الفقر في مدن نجد كلها لَكان يُخشى منه على ملك ابن سعود، ولكن العاصمة تمتاز عن سائر المدن بمَن يحوم على موارد الرزق والخير التي لسيد البلاد، ومع ذلك فإن مثل هذا البؤس في قلب نجد لَيحط في عين الأجانب وفي عين الحضر من العرب أيضًا من كرامة ولي الأمر والنِّعَم. فحبذا العمل باقتراح اقترحتُه على عظمة السلطان، وهو أن يشغل السباهلة المعطَّلين بدلًا من أن يتصدَّق عليهم؛ ليشغلهم في الأشغال العامة أيام السِّلم، كإصلاح آبار المياه في البلاد، وأكثرها في حاجة إلى إصلاح وترميم، وتعبيد الطرق للسيارات التي بدأت اليومَ «تطوي البيد طي»، فيأكلون إذ ذاك خبزَهم بعَرَق جبينهم، وينفعون وينتفعون.

(١٤) ونفعل فوق ما فعلوا

نقلت في الفصل السابق شيئًا من الشِّعر المكتوب على الحائط في رواق المجلس العام، وفيه تصويرٌ لأخلاق النجديين وقواعد في الحياة يتمشون عليها، بل فيه ينعكس بعضُ ما يخالج السلطان عبد العزيز من أليم الذكرى ومن شريف المقاصد والآمال. وهناك بيتان آخَران فيهما مزيج من الحكمة ومن الخطل الذي أَلِفه الشرقيون. عفوًا أيها القارئ! إننا نجني على الشرقيين في التعميم؛ لأن اليابان والهند حتى الصين نبذت ذاك المزيج، أو قامت تُصلِح ما أفسَدَه الزمان في التقاليد والأحكام. يجب أن أقول إذن: ذاك المزيج من الحكمة والخطل الذي أَلِفه المسلمون، فخدَّر منهم العقل والروح والقلب كذلك. خدَّر العقل فقلَّما ينشط إلى فكر جديد يُنعِشه ويُحيِيه، وخدَّر الروحَ فلا تكترث بما فيه صحتها، وخدَّر القلب فلا يحس بالبلية المشتركة إحساسًا مدنيًّا قوميًّا يحمله على نبْذِ ما أَلِفه من قديم العادات، وما يقيِّده من ذميم التقاليد والخزعبلات. قرأت مرةً في حضور السلطان ما كُتِب فوق بابه:

لسنا وإنْ كَرُمتْ أوائلُنا ... يومًا على الأنسابِ نتَّكِل

جاء مغلوطًا مبنًى[١] لا معنى، فقلت، والمعنى ما يهم: ليس أشرف منه مبدأ يا مولاي، ولا أجمل منها حكمة! وإني أجلُّكم وأحترمُ أهلَ نجد؛ لأنهم يعملون بها، ولأن السيادة والمجد في بيت آل سعود نشآ عنها. أنتم عصاميون ديمقراطيون، ونحن في زمنٍ يُرفَع العصامي الديمقراطي فيه إلى أعلى المقامات. ولكن البيت الثاني يا مولاي:

نَبـــــني كمــــــا كانــــــتْ أوائِلُنــــــا   تَبــــــني ونفعــــــل مثلمــــــا فَعلُـــــوا

ها هنا الخطل، ها هنا المستنقع الذي تنتشر منه جراثيم أمراضنا الاجتماعية والسياسية والدينية، وإنَّا إذا تساهَلْنا في تحليل البيت وتفسيره نسلم بنصفه الذي لا شكَّ ينفع الشرقيين العملُ به؛ إذ لا أظن أننا نستطيع نبْذَ الماضي كله بحذافيره، فلا بأس أن نبني كما كانت تبني أوائلنا، أن تكون حكومتنا ملكية مثلًا … فقاطعني عظمته قائلًا: نحن نبني يا حضرة الأستاذ كما كانت تبني أوائلنا، ولكننا نفعل فوق ما فعلوا. فقلت: أحسنتَ يا طويل العمر، أحسنت. أصلِحوا البيتَ إذن حتى إذا قرأ كلُّ مَن تشرَّفَ المثول لديكم:

نَبــــــني كمــــــا كانــــــت أوائِلُنــــــا   تَبــــــني ونفعــــــل «فــــوق» مــــا فَعلُــــوا

تحتدم فيه شعلة الحياة الجديدة، فيسعى وهو يحترم الأجداد فيما يؤهله لاحترامهم، كذلك علينا أن نسعى لنفوق ما قاموا به من خطير الأعمال ومجيدها في زمانٍ حُرِم من أسباب الرُّقِي والعمران التي يمتاز بها زماننا. والحق يقال: إن السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الأول، دور الفتوحات، ملكَ أجداده، وعزَّز هذا الملك بالعدل والأمن، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين، فلا يخطئ أو يموه إذا قال: نبني كما كانت تبني أوائلنا. ولكنه في تحضيره البدو، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدَّعِي الهُجَر[٢]، وفي استخدامه مَن يحسن الخدمة مهما كان مذهبه، وفي إعطاء امتياز الحسا لشركة أجنبية، وفي إرساله فتيانًا من نجد إلى مصر ليتلقَّنوا فيها العلوم الحديثة، وفي استحضاره إلى الرياض السيارات وبعض الأطباء والمهندسين، في كل هذا ما يثبت قولَه إنه يفعل فوق ما فعل أجداده.

ولا يبالي إذا كان المشايخ والعلماء لا يرضون دائمًا عن هذه الخطة العمرانية؛ إذ ليس لهم أن يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمسُّ الدين. وهو، وإن قيل إنه شديد التعصُّب لمذهبه، يُحسِن المُداراة، فيتجاهل فيما لا يضر، ويتساهَل فيما هو مفيد لبلاده. قد يَفُوه أحدُ العلماء أحيانًا بكلمةٍ فيها بعض ما يكنُّه من الوَجْد والأسى، فيقول مثلًا: في أيام أجدادكم يا طويل العمر كانت الدنيا مستريحة من

---

[١] هو للمتوكل الليثي وصحته:

لســــــنا وإنْ أحْسَــــــابُنا كَرُمــــــت   يومًـــــا علــــــى الأحســــــاب نتَّكِــــــل

[٢] الهجر: جمع هجرة. وكل مدينة أو قرية جديدة في نجد بناها البدو الذين ديَّنوا وتحضَّروا فهجروا إليها من الجهالة إلى الدين، ومن البداوة إلى الحضر هي هجرة.

هذه المشاكل الجديدة كلها. فيسمع عبد العزيز ويبتسم، ثم يسير في سبيله ليتمّم مقاصده.

وقلّما يكترث مما يشيعه عنه الأعداء وفيهم من الأدباء مَن يجهلون نجد الحديث؛ لذلك تضاربَتِ الآراء في كثير من الشئون التي تتعلّق به وببلاده؛ خصوصًا في موقفه الحقيقي تجاه الوهابية وأنصارها الأولين المتعصبين؛ العلماء والإخوان. فقد بددتُ بعض الظلمات – على ما أظن – في تصويري الرجلَ للقارئ تصويرًا صادقًا حقيقيًّا، وجئت الآن أشعل مصباحًا في زوايا السياسة المذهبية التي كان يخامرني منها بعض الريب.

سألت ذات يوم أحد رجال السلطان الأذكياء أن يصدقني الخبر أو يجهر لي برأيه الخاص، فقلت: لا أنكر ولا ينكر أحد صدق عقيدة الشيوخ الدينية، فهو إمام الموحدين، ولكني حائر يا صديقي في أمره والإخوان، فهل تظنه يعتقد أن على الإمام أن يحارب المشركين في كل مكان، أن يجاهدهم حتى يدينوا؟ في نيتي أن أسأل عظمته هذا السؤال. فقال صديقي: لا تفعل، والذي أراه أن السلطان يعتقد ذلك من الواجب. لم يرضني جواب الرجل، فتطرقت ذات ليلة إلى الموضوع، ومما قلت للسلطان على ما أذكر إني في حيرة لا يزيلها سواه، وإذا سافرت من الرياض أحملها ساكتًا لا أكون راضيًا عن نفسي، وقد أسيءُ إليه فيما أكتب. فقال عظمته: اسألني كل ما تبغي وأنا أجيبك عليه، ولا أسامحك إذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة نقضيها أو مسألة نجلي غامضها. فقلت: هل ترون أن من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد؟

فأجاب على الفور: لا، لا. وضرب الأرض ضربتين بعصاه، ثم قال: هذا الحسا، عندنا هناك أكثر من ثلاثين ألفًا من أهل الشيعة، وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم أحد، إلا أنَّا نسألهم ألا يكثروا من المظاهرات في احتفالاتهم ... كن مطمئن البال يا أستاذ، لسنا كما يرانا بعض الناس. فقلت: اسمحوا لي بسؤال آخر، وكان يجب أن يكون سؤالي الأول: هل ترون من الواجب الديني ... وهل ترون من الواجب السياسي أن تحاربوا المشركين حتى يدينوا؟ فأجابني قائلًا: السياسة غير الدين، ولكننا أهل نجد لا نبغي شيئًا لا يحلله الدين، فإذا حلل الدين ما نبغيه فالسياسة التي نتخذها لتحقيقه محللة، وإذا عجزت السياسة فالحرب، وكل شيء في الحرب يجوز.

في الستة أسابيع التي أقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة، فنتباحث في مواضيع شتى؛ نجدية وعربية وعامة، وهو دائمًا في حديثه فصيح صريح. ليت شعري أية صراحة أبهر مما تقدَّم ومما سأذكر؟ إن السلطان عبد العزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى أن يقال فيه: إن عمله اليوم يناقض عمله بالأمس. وإنه في السياسة غيره في الدين؛ فهو في حكمه البلدان التي امتلكها والعشائر التي تغلَّب عليها يراعي شئون أهلها الخاصة من مذهبية ومحلية، ويندر أن يؤمر فيها من هو من غير أهلها.

قبل أن أختم هذا الفصل أطلع القارئ على رأي السلطان في الموضوع الذي يشغل أفكار ملوك العرب اليوم وقلوبهم، في الموضوع الذي شغل الصحافة العربية في كل مكان، فكانت أخبارها وآراؤها فيه مزيجًا من الحقيقة الناقصة والغرض الأعمى، في الموضوع الذي شغل كذلك ساسة الإنكليز وصحافتهم، فساروا فيه على عادتهم سير صاحب المصلحة الذي يعد كل يوم أصحابه وأعداءه، ويغير كل يوم من آرائه ما توحيه الأحوال.

كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة، ولكن السلطان، عندما دنا يوم الرحيل، أفاض في الموضوع، فدونت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية، فقرأها وأصلح خطئي فيها. وهاكها في الحالين:

(١٥) رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية

من حديث له ليلة ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ في منزلي بالقصر:

— هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى بإخلاص في تحقيقها، فيحضر اجتماعًا يعقد لهذه الغاية، ويقبل الزعامة والبيعة ملكًا على البلاد العربية كلها لاعتقاده أنه أهل لها ويستطيع تعزيزها.

— وإذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع.

— وإذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف أو حلف عربي بين أمراء العرب لتعزيز شئونهم معنويًّا وسياسيًّا، ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم إليه.

— وإذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها.

— في كل حال هو رجل في سلم بلاده، لا يبغي الاعتداء على أحد، ولكنه يأبى أن يعتدي أحد عليه.

كتبتُ خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو أعلاه، وأطلعت السلطان عليها لأتحقق صحة الرواية. فقرأ ما كُتب فقرة فقرة، ثم أخذ القلم وضرب على الفقرة الثانية قائلًا: أسأت فهمنا فيها. نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الأستاذ الريحاني ولا نثبت عليها، ولكن هذا لا يكون. أشار وهو يتكلم إلى الفقرة الثانية، ثم قال: نحن نعرف أنفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا.

أيذكر القارئ ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع؟ — أنا لا أبغيها — أي: الزعامة — وأساعد في تحقيقها — أي: الوحدة — تابعًا كنت أو متبوعًا. أوَلا يذكر كذلك أنه رفض أن يوقع المعاهدتين مع الإمام يحيى والإدريسي؛ لأنهما لم يعترفا له بالزعامة العامة، لم يلقباه بملك العرب.

فإذا قابل القارئ بين القولين؛ قول الملك وقول السلطان، ليعجب، وإن كان شريفيًّا، بصراحة ابن سعود.

(١٦) الوشم

قد غشيني الرعب ثلاث مرات في رحلتي العربية، قد خفت كما يخاف الناس ثلاث مرات، ولا تفلسف ولا اعتذار.

قبض الخوف على قلبي وحملق بي هنيهة وهنيهتين، ويومًا ويومين، فزعزع مني الإرادة والإيمان، فعرفت يومئذ عدو الإنسان الأكبر، وعرفت معنى السلامة والاطمئنان.

أول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنا عساكر الحواشب، وأطلقوا النار ليوقفونا من أجل الفطور. وخفت ثانية على حريتي في الأقل، خفت أن أعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماوية: أحسني أنت أم حسيني؟ وثالث مرة يئست فيها من رحمة الله عندما دهمتني الحمى في القصر بالرياض، فكنت أسيرها أيامًا ودرجة الحرارة تهمس في أذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء.

نعم خفت مرة في الرياض وأحسست لأول مرة في رحلتي أني في الغربة، بعيد عن بلادي وأهلي، بعيد عن أسباب الصحة والشفاء، وعن الأطباء. بيد أني في تلك المحنة كنت أتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الأكبر سيد البلاد والمكارم، فكان يعودني كل يوم ويجيء كل مرة بشيء يخفف سَورة الحمى — هل أكلت الكنكينا يا صديقي الأستاذ؟ هذا شراب يبرد الدم. خذ منه الآن. ولكني في العقاقير كلها والمرطبات ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته.

قد كنت مع ذلك مكتئبًا وخائفًا على حياتي. أقول: يا حضرة النجيب، خائفًا على حياتي. وما هي — وحياتك — بشيء ثمين لولا ما سُخر له صاحبها كما يقول الأولياء: خفت الموت لا لأن الموت يخيفني — أقول ذلك اتضاعًا لا فخرًا — بل لأنه يزعجني، يقطع عليَّ عملي وأنا في مبهجة منه، يوقفني في نصف رحلتي. وكنت أسمع صوتًا فيه ارتعاش إذ كانت درجة الحرارة على حدود الأربع بعد المائة، وهي درجة يغتفر عندها الهذيان، كنت أسمع صوتًا يقول ويردد: الوشم، وادي السر، عنيزة، بريدة، الكويت ... إلى الكويت. هات الخريطة يا دحيم.

وكان دحيم (مختصر عبد الرحمن) وهو السلحفاة في سيره وعمله، يروح ويجيء في قميصه البيضاء القذرة كأنه طيف الموت بعينه — أبشر يا أستاذ أبشر. ولكنني، قبل أن يجيء بالخارطة، أكون قد سافرت على ظهر الحمى إلى الكويت عشر مرات. وكان لدي خرائط كبيرة وجدتها في القصر جسَّمت في نظري المسافات وضاعفت المشقات. أما رفيقي السيد هاشم فكان قد تصلب من طول الصحبة، أو عاد إلى

صلابته، فصار لا يرثي لحالي. لا أنساه حياتي وهو واقف عند النافذة والمرآة بيده يحكم وضع عقاله، ويصف لي مشقات الطريق إلى الكويت. وكان كل مرة يرى الخارطة بيدي يتناول تلك المرآة ليزين روحه، فيزينها وهو يقول: لا ماء إلا في الحفر، فيريني الحياة كلها مفازات، ويسمعني فوق ذلك: كلها مفازات. ألا فاسقني غمًّا وقل لي هو الغم.

إلى الكويت! ليس في العبارة، إذا كنت في غير قلب البلاد العربية، ما يدعو إلى الخوف والاضطراب. هب أنك في بمباي ومحجتك الكويت، فالسلامة ترافقك في مركب بخاري تعددت فيه أسباب الراحة والاطمئنان. ولو كنت في العراق وقلت: الكويت، للبَّاك كذلك البخار، فيحملك على العجلات من بغداد إلى البصرة، ويكلك هناك إلى باخرة تُريكَ، وهي تجري في شط العرب، شيئًا من الجنة على ضفتيه، وتنزلك من جون من الخليج حفرته يد الزمان، فاطمأن إليه البحر والإنسان.

ولكن تلك العبارة: إلى الكويت، وأنت في الرياض، ووراءك الدهناء وأمامك الدهناء والنفود، ولست يا رجل من الدواسر أو من بني مرة، وليس لديك من السيارات والطائرات غير «البل» – الإبل – إنما هي المحنة التي تفاخرك بأخويها الشقاء والموت. ومع ذلك فالسيد هاشم كان يحبب إليَّ الأخت والأسرة جمعاء إكرامًا للشيخ أحمد آل صباح والكويت. ولعله أكثر من عشرتي وفلسفتي فاستحجر قلبه.

– الشيخ أحمد رجل زين، يا أستاذ، متعلم متأدب، سافر إلى أوروبا، وهو يتأنق بملابسه ومآكله. والكويت مدينة تنسيك الرياض. هي باريس البلاد العربية. فيها دخان، وفيها وسكي، وفيها المباح من النساء، وفيها طبيب ومستشفى. نعم فيها طبيب ومستشفى ... ثم يبادر إلى المرآة فيحكم وضع عقاله ويقول: لا ماء إلا في الحفر.

– وقد أموت يا سيد هاشم قبل أن أصل إلى الكويت.

– حياة الفلاسفة طويلة يا أستاذ. وهب أنك مت، فقد شاهدت الرياض والإخوان، فيؤذن لك بالدخول إلى الجنة.

– الجنة لكم لا لي ... هات الخارطة يا دحيم ... وأعطني الماء. سأشرب ما يكفيني إلى الكويت.

السيد هاشم بعد أن عدل عقاله ووضع المرآة تحت السند:

– ألا تعتقد بالجنة يا أستاذ؟

– لا أعتقد بها ولا بك.

– ولكن الجنة كائنة بشهادة الكتاب الكريم والنبي!

– جنة البله كما قال الغزالي. هي لك بخشيش مني.

– أنت تمزح.

— أنا أجد.

— أتهبني حصتك فيها؟

— وهبتكها كلها.

— أوَتكتب لي حجة بذلك؟

— يا دحيم هات الورق والحبر.

فبادر إليَّ بهما السيد هاشم فكتبت ما يلي: على فرض أن الجنة موجودة فإني أهب السيد هاشم بن السيد أحمد الكويتي السني الشافعي الرفاعي حصتي فيها. ووقعت الصك ودفعته إليه، فأعاده قائلًا: بالله يا أستاذ امضه بالإنكليزية أيضًا. فقلت، وقد دونت اسمي باللغتين: أتظن أن لرضوان مستشارًا إنكليزيًّا، أو أن الإنكليز أصحاب الانتداب في الجنة؟ فقال: الله أعلم، وعاد إلى المرآة يعدل عقاله. كنت قد أدركت ما للمرآة من الأهمية في حياة صديقي، فقلت والموت يداعبني: وقد جعلتك وارث مرآتي أيضًا. فسُرَّ بالهبتين ونادى:

يا دحيم هات اقْهُوَه.

يا دحيم هات الخارطة. هذه هي الرياض، وهذا الوشم، مائة ميل، وهاك وادي السر فشقرا فعنيزة فبريدة، مائة وخمسون ميلًا، ومن بريدة إلى الحفر مائة وخمسون ميلًا.

السيد هاشم: لا ماء إلا في الحفر.

— توكلنا على الله. ومن الحفر إلى الكويت مثلها. الجملة خمسمائة وخمسون ميلًا، مسيرة عشرين ساعة في السيارة وخمس ساعات في الطائرة طير «الهوَن»[1]. ولكننا في بلاد لا نريد أن نطير فيها ولا فوقها. فقد طابت لنا حتى في مفازاتها، وأحببنا أهلها، وأحببنا بعارينهم، فوددنا السير فيها على طريقة دحيم كالسلحفاة؛ لنزداد بهم وبها علمًا ونزداد حبًّا.

قال لي أحد الموظفين الإنكليز عندما كنا في العقير: أحسنت في سفرك من هنا، فستتعود تدريجًا على ركوب الذلول، فتصل إلى القصيم وقد تصلبت فتقوى إذ ذاك على السفر من القصيم إلى الكويت.

إنها — والحق يقال — أوعر الطرق في نجدن ومهما صحبني من مكارم عظمة السلطان عبد العزيز من أسباب الراحة والأمن وخفض العيش، فقد كانت هذه الرحلة عليَّ أشد الرحلات مشقة وتعبًا وهمًّا. خرجنا من الرياض اثني عشر راكبًا، وفينا الرفيق والحارس والخادم والطاهي والقهوجي وراعي البعارين، وهو يسوق قطيعًا من الغنم للذبح، ومعنا في الحملة الخيام، وفي مواعين المئونة حتى العسل من عسير والبسكوت من

[1] يقول أهل نجد في السير البطيء: «سير الهون».

لندن.

على أنه كان معنا ضيف ثقيل خبيث، ما رآه أحد من الربع ولا علم به أمير الحملة هذلول – هذلول الذي كان يرى ما وراءه كأنه أمامه، فلا يخفى عليه شيء يختص بالحملة أو بمن جهزت من أجله – لم يرَ ذاك الضيف الثقيل ولا علم به. فقد رافقنا من الرياض رديفًا، رديفي أنا بل رفيقي الأول، شبح الحمى! وكان يشهر حربًا عليَّ من حين إلى حين ليثبت وجوده وينفي وجودي، فيحمل عليَّ بالنار فأحمل عليه بالكينا. دامت الحرب شهرًا ويزيد، أثناء الرحلة كلها، دون أن يفوز أحد منا، فكان يتبع كل وقعة هدنة وكل هدنة وقعة، ولم يكتب لنا النصر المبين إلا بعد وصولي إلى الفريكة واستنجادي بهواء لبنان.

أين نحن الآن من لبنان؟ إننا لا نزال أيها القارئ العزيز تحت سماء العارض، وفي ظلال بساتين الرياض التي تمتد جنوبًا إلى المنفوحة بلد الأعشى أحد رجال المعلقات. صعدنا قليلًا في جبل طويق، وعاصمة نجد التي هي عند سفح الجبل وراءنا والمنفوحة تحتها. ثم أطللنا، بعد سير ثلاث ساعات شمالًا، على برج مهدوم أشار إليه هذلول قائلًا: هناك نصب إبراهيم المصري مدافعه وأطلقها على الدرعية.

وبينما كان يقص علينا قصة تلك الحرب بدت بعد نصف ساعة الأطلال تحتها، وقبالتها شرقًا بشمال بساتين من النخيل والأثل اختبأت فيها القرية التي هي اليوم الدرعية الجديدة. نزلنا في شعب من وادي حنيفة الذي يفضي إلى اليمامة، وسرنا بين الدرعتين قليلًا، ثم أنخنا في عقيق السيل بين ظلَّي الأطلال والنخيل. وبعد أن أمر هذلول بنصب الخيام وإعداد العشاء أرسل إلى أمير البلدة رسولًا يطلب الحطب للنار والعلف للركائب، ثم مشى يرافقني إلى عاصمة الوهابية التي دمرتها مدافع المصريين منذ مائة سنة ونيف.

صعدنا إلى الجانب الغربي من السيل القائمة على حاشيته بقايا قصور آل سعود، فإذا نحن في أسواق مدينة كبيرة كانت تشرف شمالًا على جبل طويق، وجنوبًا على اليمامة التي هي اليوم بقعة صغيرة في مقاطعة الخرج، فمشينا بين جدران تداعت، وفي ساحات لم يبقَ من عمرانها غير الرسوم العافية، ووقفنا على جسور متهدمة بين القصور، ونزلنا في درجات مبرية إلى آبار ردمها الزمان.

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ... للجن بالليل في حاناتها زجل

كانت الدرعية منذ مائة سنة أكبر مدينة في الجزيرة. سرنا في اليوم الثاني ساعة في وادي حنيفة ونحن لا نزال في ظلال طلولها الدوارس، فلا عجب إذا كانت في أيام مجدها، في عهد عبد العزيز الأول وسعود الأكبر، قطب البلاد العربية بعد الحرمين، يؤمها العرب من كل قطر قصي للاستنجاد بأمرائها وللاتجار. من عمان ومسقط وحضرموت كانوا يجيئون إلى الدرعية، ومن العراق والكويت والبحرين، ومن اليمن وعسير والحجاز.

هذه هي عاصمة نجد في وادي حنيفة وقد دمرها العدو الأجنبي، وهذه هي جُبَيْلة قريبة منها وقد

جعلها آل سعود في حروبهم الأهلية مثل الدرعية. وها نحن في «بلد الشيخ» على مسيرة نصف ساعة من جبيلة. هي «بلد الشيخ» مسقط رأس مُحَمَّد بن عبد الوهاب، العُيينة المشهورة، وقد أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد. كانت طريقنا بين خرائبها ورسومها فسرنا ساعة فيها، فأدهشنا عدد القلبان[1] التي كنا نراها إلى اليمين وإلى اليسار، وهي عميقة ومحكمة البناء، وكلها، يا من أخنى على لبد، جافة مردومة.

كانت العيينة قائمة وسط سهل فسيح، سطحه يابس جاف، غير أن تحته – ولا شك – مجاري من المياه كثيرة. فما معنى القلبان المتعددة لولا ذلك؟

أما اليوم فلا ماء في العُيينة، لا في عيونها ولا في قلبها. هجرتها السواقي الخفية، فهجرها الأنس، فنبت البَهَق[2] في دورها، والحرمل[3] في حماها، دُك تحتها ضلع من الأرض، فتحولت المياه عن مجاريها، فنضبت القلبان، ودكت فوقها المنازل والقصور. ولو أن في جوارها اليوم بعض الماء لقامت عندها عيينة جديدة مثل الدرعية الجديدة. قد شاهدت في نجد غيرها من البلدان التي هجرت أو نقلت لتحول مجاري المياه تحتها.

كانت العيينة من مدن نجد العامرة يوم فر هاربًا منها مُحَمَّد بن عبد الوهاب، ولجأ إلى الأمير سعود بن مقرن في الدرعية. بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامرًا في أيام الصحابة بالبلدان والقرى التي كان يتصل بعضها ببعض من الدرعية إلى العيينة. أما اليوم فقبور الصحابة فيه و«ديرة» مسيلمة، مسقط رأس الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب هي كلها مثل القلبان تحت الأرض واحدة في الخراب والهجران. بل قد هجر وادي حنيفة حتى الأطيار والأزهار، ولم يبقَ من الشجر غير الشوكي كالطلح والسلم، كأنها مخالب الزمان في كبد العمران أو أكاليل من الشوك للطلول الدوارس.

ومثل الطلح والسلم في الأخربة هؤلاء الإخوان في الدين. هناك ثلاثة ذاهبون إلى الرياض «ليقروا» – ليتعلموا القرآن والحديث. سلموا علينا فرددنا السلام. وراح هذلول يحدثهم ليستطلع «علومهم» (أخبارهم)، ثم سمعنا واحدًا منهم يقول: ردوا لنا سلامنا. وسمعنا هذلولًا وقد أدبر بذلوله يصيح: سلامكم رد لكم. ثم أشعل السبيل فسألته الخبر فقال وهو يضحك ويدخن: بدو جهال، سلموا علينا ثم ندموا على السلام. سألوني عنك فقلت: سوري جاء يتاجر بالبُل، فما صدقوا، وقال أحدهم: هو إنكليزي كافر. ردوا لنا سلامنا. فرددتهم وسلامهم إلى الجحيم.

فضحك العجماني بدَّاح ضحكته العريضة الفضفاضة، وراح يدرهم ويغني:

---

[1] قلبان: جمع قليب (تلفظ في نجد جليب)؛ أي بئر ماء وساقية.

[2] بهق الحجر: نبات يعلو الصخور شبيه بالطحلب.

[3] الحرمل: نبات مثل الطيون لا تأكله المواشي. قيل إن حبه يُخرِج البلغم والسودا إسهالًا ويصفي الدم.

يا راتسب اللي هجيجا زين (يا راكب الناقة التي عدوها حسن)

ما ضيَّجت صدر راعيها (ما ضيقت صدر صاحبها)،

أسرع من رماشتك بالعين (رمش العين)

ورماشة العين تلهيها (أي: الغمز بالعين)،

ممشى العشر تأخذه بيومين

تجيك ما مل راعيها.

وكأنه كان يتغنى بمديح كل ذلول من ركائبنا إلا ناقة سوداء شعراء حرون، سميتها الحيزبون، كانت تأبى السير إلا غارة، فتضطر راعيها سالم القهوجي أن يتخلف عن الربع من حين إلى حين، ثم يطلق لها العنان فتجيء كأنها «جلمود صخر حطه السيل من علٍ»، وهي تهدر كالرعد والبحر الهائج معًا، والمعاميل – مواعين القهوة – المعلقة بالرحل تصفق لها استحسانًا. ولم تكد تلحق بنا حتى تسري منها إلى ركائبنا الكهرباء، فينزق كل ذلول لمباراتها، فيبادر الركب إلى الأرسنة وقد كانت على الغوارب ملقاة، وإلى الخيزران يهولون بها فوق الرقاب، وينادي هذلول بدَّاحًا، وبداح يحمِّس هذلولًا، حي هلا، حي هلا! جاب الحيزبون، شنها سالم المجنون.

أسرع من رماشتك بالعين، ورماشة العين تلهيها.

كنت في بداءة أمري بالغارات أحس أن شيئًا في صدري يذوب، فيحدث فراغًا يصعب عنده التنفس. وكنت أتصور الرحل يعلو ويهبط كأنه موجة تحتي مائجة، بيد أني بالممارسة ملكت النفس والعنان، وصرت أهوِّل بالخيزران كأني من الدواسر أو العجمان، حتى إذا ما دنت مني الحيزبون كنت أسرع الربع إلى النخوة والاعتزاز – خيَّال التوحيد أخو من طاع الله! وقرينهم في الغارات.

إن في ركوب الهجين خير الرياضات الجسدية، وهو يلذ ولا يتعب إذا بدل الراكب السير هونًا بالدرهام، والدرهام بالغارة من حين إلى حين؛ أي إذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلًا، ثم مثلها درهامًا، ثم بضع دقائق غارة، وكذلك في المسير كله، فلا هو يتعب ولا تتعب الذلول، بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معًا. ولم يكن هذلول ليسمح بأكثر من ساعة من السير البطيء، فيقول إذ ذاك: هو والركائب، فننشأ ندرهم جميعًا.

قد يخفى على القارئ المتمدن من لا يعرف من أخبار البل – الإبل – غير «سائق الأظعان يطوي البيد طي» وغيرها في الدواوين ما في الكلمة «هووا الركائب» من الحقيقة، وما في العمل بها من الرحمة بالحيوان؛ ليعلم إذن أن سنام البعير هو من أعضائه الطرية الحساسة وإن قل عددها، وأن الكور في شكله يحوق بالسنام ولا يضغط عليه فيبدو السنام معه للهواء كأنه قبة من الشحم في إطار من خشب، فيستأنس

البعير بذلك. وليعلم القارئ كذلك أن الجمل المحمل مهما ثقل حمله هو أوفر حظًّا من الذلول؛ لأن الحمل يضغط على جنبيه وظهره أكثر من ضغطه على السنام. أما الذلول فحملها الأول الكور. ثم الفرش — وسادة وسجادة وخرج وجلد غنم — فوق السنام يمنع عنه الهواء، ثم الراكب وهو على السنام يضغط عليه فيزيد بكربة صاحبته، ولا سيما إذا سار الهون فلا يتحرك إلا ترجحًا؛ أي حركة أفقية، فتزداد بالفرك الحرارة، ويمسي السنام كقطعة لحم مشوية، أما إذا درهم فتتغير الحركة، تصير عمودية، فيدخل، وأنت تنتفض في الرحل، شيء من الهواء إلى السنام فتنتعش الذلول المسكينة.

وحبذا اعتناء أهل نجد بالأشجار اعتناءهم بالإبل. مررنا في وادي حنيفة ببقعة تدعى الحيسية، فيها غاب من الطلح والسَّلم هو أول ما شاهدت في نجد، ولكن الأشجار متفرقة متكسرة، قليلة الإخضرار، ضئيلة الظل، تسطو على أصولها وجديدها الأنعام، ويفتك بفروعها فأس الحطاب. في الحيسية تحتطب الرياض، ولكن أهل العاصمة في غفلة عما يحدثه جهل الرعاة وجهل الحطابين؛ فهؤلاء يقتلون الشجرة وأولئك يجهزون عليها، ولا أحد يشكو ويلوم. ما رأيت ولا سمعت أن أحدًا اهتم لغرس الجديد من الطلح والسلم. فلا يمر والحال هذه عقدان من الزمن حتى يضطر أهل الرياض أن ينشدوا الحطب كما ينشد الرعاة في سنة الجدب الحيا (المرعى) في الأراضي القصية وقد لا يجدونه.

بعد خروجنا من الحيسية نطل على أول بلد في الوشم، ذاك القاع الكائن بين وادي حنيفة ووادي السر، الذي يمتد غربًا من سفح جبل طويق. إن الوشم مشهور بقصوره ومزارعه وتاريخه وتقاليده. هذه البَرَّة كأنها في قصرها ونخيلها واقفة عند الباب وبيدها المفتاح إلى وادي حنيفة في تلك الناحية. هي قرية لا يتجاوز عدد سكانها الخمسمائة نفس أكثرهم من عرب مطير، وفيهم مائتان من الإخوان المجاهدين.

أما ثرمدا بعدها، ثرمدا الكثيرة القلبان، فإن الماء المالح والماء القراح يجريان فيها جنبًا إلى جنب تحت النخيل. سكانها من بني تميم وأميرها العنقري الذي أضافنا وحدثنا عن العصامي والعظامي من الرجال هو من بني سعد، وهم أطيب جذوع تميم في الزمان الأول. قال لي هذا العنقري التميمي العصامي وأكد قوله: إن عندهم في ثرمدا ثلاثمائة قليب وثلاثة آلاف مجاهد. ولكن أمير شقرا الذي قرأ بعدئذ العددين في مذكراتي أسقط صفرًا واحدًا من كليهما.

— هذا الصحيح. ثلاثون جليبًا وثلاثمائة مجاهد. أولم يعلِّمك بطباع نساء ثرمدا؟ هن يكرهن الإقامة فيها. رجال ثرمدا لا يعدلون في النساء ... لا يستطيعون؛ لذلك ترى نساءهم، والحبل على الغارب، في كل مكان.

لم أتمكن من الرجوع إلى ثرمدا لأسمع ما يقولون هناك عن نساء شقرا، ولكن الأمير القحطاني أكد لي أن نساء بلدهم مقصورات الطرف لا يبغين خارج السور بديلًا. ثم قال: إذا ديَّنت يا أمين نعرسك ببنت من

بناتنا فتقيم عندنا وتتحقق قولنا. ونعطيك مع البنية بيتًا وذلولًا، ونعلمك الغزو وضرب السيف.

إن شقرا لأجمل بلدان الوشم وأكبرها، نخيلها مثل نسائها، داخل السور يزين البيوت ويحجبها بعضها عن بعض. عدد سكانها خمسة آلاف؛ فيهم قليل من تميم، أما الأغلبية فهي لبني زيد، وهم –كما يدعون – من قحطان، وبنو خالد من عنزى فعدنان. على أن الجميع في شقرا متآلفون متحابون، ومع أن الناس في نجد يسخرون بالقحطاني ويتهكمون عليه، فيرمونه بالبخل، فقد وجدته في شقرا مثله في اليمن عربيًّا كريمًا. لست أنسى الأمير ووكيل المال والشاعر فيها، ولا أنسى ضيافة حالت دونها ودوني الحمى. وهم على كرمهم ودماثة أخلاقهم متضعون؛ ينحرون لك، ويمدون سماطًا ملكيًّا، ثم يقولون: ما عندنا في نجد غير فاكهتين: الماء البارد في القيظ، والنار في الشتاء.

إن شقراء مشهورة كذلك بمائها، ذاك الماء الذي أدهش البدوي عندما شرب منه لأول مرة، فصاح قائلًا: اقمح يا مطر. وعندهم داخل السور ثمانون قليبًا وألف من الإخوان المجاهدين يحرثون في أيام السلم الأرض ويتعاطون التجارة. أما عمال ابن سعود فليس فيهم من لم يخرج ولو يومًا واحدًا إلى الجهاد، فأدَّى شهادة التوحيد وحمل على المشركين. وإنه ليدهشك ما يقوم به العامل الواحد من الأعمال؛ فلا دوائر هناك ولا كتاب، ولا كراسي تجلس فيها الألقاب، وتأخذ من مال الأمة بلا حساب.

كنا في شقرا ضيوف وكيل المال عبد الرحمن السبيعي، وهو رجل صغير نحيل عليل، يحمل في جيبه مفتاحًا من الخشب يفتح عشرين بابًا في داره، ويتولى الجباية في الوشم كله، إن بيت السبيعي مفتوح، وإن ناره مشبوبة على الدوام. السبيعي لحية غانمة كما يقولون هناك؛ أي إنه ذو يسر وفضل وحمية. ومع ذلك فهو لا يوكل أحدًا بعمل يستطيع أن يعمله بنفسه – نباشر أمرنا بيدنا؛ الكاتب متيسر، ولكن ما كل واحد نأمنه على الأسرار، فنصبر على المشقة ولا نشكو غير ضعف في البدن. لو كان لنا ما للبدو من الصحة والعافية. ثم طفق يشكو البدو – هم على صحتهم كسالى، خاملون، ويجب علينا مع ذلك أن نلاطفهم عندما ينيخون علينا. ونجاملهم «ونحبهم» (نقبِّلهم) بين عيونهم ونحمل لهم الأكل بيدنا، وإلا راحوا يسبوننا ويقولون: إننا كفار... البدوي إذا شاف الخير تدلى، وإذا شاف الشر تعلَّى. ثم أنشد يقول:

مـــــن لا يجينـــــا والـــــديار مخيفــــة   لا مرحبًـــــا بــــــه والـــــبلاد عــــــوافي

شكرت الحمى بعدئذٍ، وأشكرها الآن على يومين في بيت عبد الرحمن السبيعي تداويت فيهما بطيبتين: لبَنِه وحديثه.

ذكرت ما في ثرمدا وشقرا من تعدد القلبان مما يدل على غزارة الماء في الوشم، فإن مياه جبل طويق تصب غربًا بجنوب تحت هذا القاع، فتصل إلى الخرج والأفلاج، فتتكون هناك بحيرات شتى، كما تصب شرقًا بجنوب تحت الدهناء والصمان فتظهر في الأحساء. والشاهد على غزارة الماء في الوشم تعدد القلبان في

القرى وخارجها في القصور. قد أشرت فيما سبق إلى القصور في نجد فأزيد القارئ علمًا بها، أو بالحري بتلك التي في البر مثل قصور الوشم. فالقصر هناك سور مربع في كل زاوية منه مفتول أو برج، وداخله بيوت للسكن وللأنعام، وقليب ومقهاية ومسجد. هو إذن جامع بين المزرعة والقلعة، فيستخدم في أيام الحرب للدفاع. وهذه القصور بعيدة بعضها عن بعض، حول كل قصر منطقة خضراء مزروعة، وبين كل منطقة وأختها قفر قاحل كالصمان.

فلو عاد تميم ووائل وقحطان اليوم إلى تاريخ أجدادهم في الأندلس – مثلًا – لعلموا بما كان لهم على الأرض من الأيادي البيض، لعلموا بما كان أولئك الأجداد يبنون من السدود والقني للري، فيساوون بين كل بقعة صالحة للزرع ويستثمرونها كلها. إني على يقين من أن الآبار الارتوازية في الوشم، وبناء السدود والقني، واستخدام الآلات البخارية للرفع والدفع تمكن أهله من زرع كل باعٍ فيه، فتزداد غلاله عشرة أضعاف. وما يصح في الوشم يصح في القصيم.

دع عنك الزراعة الآن، فها نحن في الطريق التي أكلت قديمًا نعال الشعراء، في «الديرة» التي زانها يومًا من قال: قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل. لست أدري إذا كان سقط اللوى ها هنا أو في ذا الجوار، وإذا كانت حوْمَل والدخول بين ثرمدا والنفود. ولكن هذلولًا وهو شاعر يقول: إن إلى يسارنا على مسيرة نصف ساعة بلدة تدعى أثيثية هي مسقط رأس الشاعر جرير، وأن بين ثرمدا وأثيثية مراه بلد امرئ القيس.

فتوضح فالمقرأة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم أصيب بأدبه كما أصيب بأرضه. فيا له من مجد عفت رسومه، ومن بلد عفنت علومه، فصار حتى الدوسري يزدري ابن الوشم، والسديري يسخر بقراريشه؛ أي: حمَّاريه.

لا تحسبني من قراريش الوشوم   من ثرمدا والمشيقر والأمَرَّات

إن أقدم بلدان الوشم هذين البلدين؛ ثرمدا والمشيقر، وإن أكبرها شقرا الكائنة في الطرف الشمالي، وليس بينها وبين الطرف الجنوبي من القصيم غير وادي السر. على أن هناك بين الوشم والوادي النفود[1] التي قطعناها بثماني ساعات. وبكلمة أصح: إن هناك نفدين اثنين، الصغير الذي يدعى البترة، وهو مسير ساعتين، والكبير الذي يدعى أعزم، وهو مسير ست ساعات. وإن بين النفدين حاجزًا من الأرض الحصوية المجدبة التي تستغرب في شكلها ومكانها، هي دائرة بيضاء بين تلك الكثب الذهبية، وفي أحد أطراف الدائرة حجارة بركانية سوداء؛ منها متبعثرة، ومنها مرصوفة بعضها فوق بعض. أعجب بها من أرض يبهجك تكوينها الرملي، ويدهشك ظاهرها البركاني! بعد أن نصعد خمسمائة قدم في النفد الكبير،

[1] النفود: جمع نفد، وهي مشتقة من نفد نفادًا؛ أي ذهب وفني وهلك.

وننزل مثلها، نشرف على وادي السر، فنجوز العيون هناك، ونسير في الوادي إلى المذنب أول بلدان القصيم.

(١٧) القصيم

القصيم يعلو زهاء ألف قدم عن العارض، ويبعد مائتي ميل عن الغلو في الدين، فيتغير الهواء والنبات، وتتغير كذلك أخلاق الناس. سرنا في وادي السر إلى جانب النفود، وهي إلى يميننا قافلة من الكثب تدنو وتبعد منا، فيتقلص ظلها ويمتد، ثم يختفي معها فلا نرى منها غير الأسنمة والرءوس الذهبية. وبعد مسير عشر ساعات في وادٍ يكثر طلحه وشنانه أشرفنا على العوسجية، وعلى ما يشبه النهر شرقًا منها. فسألت هذلولا: أسراب هذا؟ فقال هذلول: هذا القاع. وسألت سالمًا فأجاب: القاع. وسألت بداحًا فقال: هو القاع بعينه.

وما هو القاع؟ في اليمن يطلقون الاسم على السهل فيقولون: قاع يريم مثلًا وقاع الحقل، فيكون القاع إما أخضر وإما أسود أو أحمر إذا لم يكن مزروعًا. بيد أن هذا القاع أبيض كالثلج ولم يتغير في قربنا منه، ولا بدا على وجهه تموج يدل على الماء. فعندما وصلنا إلى العوسجية بعد الظهر تركنا الخدم ينصبون الخيام ويعدون الطعام، وسددنا خطواتنا أنا ورفاقي إلى القاع شرقًا من القرية، فاجتزنا بستانًا من النخيل، وغيضة من الطرفاء، وأدغالًا من نبات طويل لزج يدعى الهَرْطَميل، فإذا نحن بعد ذلك في أرض سبخة موحلة، وإذا بالنهر أو القاع قيد أبواع منا. أنهر في نجد؟ أي نعم، نهر من الملح المتجمد، من فصفات السودا، عرضه نصف ميل، وطوله من الخمسة إلى السبعة أميال.

خضنا الأرض الموحلة إلى الصفحة البيضاء، فألفيناها جامدة مصقولة كالجليد، صلبة كالجلمود، ناشفة كالرمل، ولا باردة هي ولا حارة. جلست هناك وتربعت وشكرت الله على ذا المظهر الغريب العجيب في الكائنات. هو ذا نهر ماؤه جامد جاف، وهي ذي بحيرة حار جليدها. سألت رفاقي أن يجلسوا فترددوا خائفين؛ هي أول مرة جاءوا إلى القاع وخبروا حقيقته. دقوا ما تحت أرجلهم بخشب البنادق ليتحققوا صلابته، وجلسوا وهم يضحكون، ثم قال بدَّاح: والله يا هذلول، بلاد نجد عجيبة! فأجابه هذلول: وأعجب منها يا بداح نحن الذين لا نعرف ما فيها!

قطعنا صفيحة من هذا الملح، فإذا سمكها أربع أصابع ويتخلله شيء من التراب والقش. أما إذا دنوت من وسط القاع فيزداد السمك ويصفو الملح فيقل فيه التراب. على أننا لم نرَ في أسواق عنيزة وبريدة ملحًا نظيفًا. فهم يجلبونه من هذا المكان، ويبيعونه صفائح كبيرة وصغيرة كما يقطعونها.

العَوْسَجية قرية صغيرة حقيرة فقيرة؛ لأن تربتها بسبب هذا القاع جلها سبخة لا يصلح زرع أو غرس

فيها، ولكن أهلها ملح الأرض. جاءنا وجيههم يدعونا للقهوة – تفضلوا نقهويكم – فقبلنا شاكرين، وكانت أول ضيافة من مثلها في القصيم. جلسنا حول الموقد على الوسائد ورب البيت يحدثنا بينا هو يعمل القهوة، ثم أشعل السبيل ودخن وقدمه لهذلول فأداره على الربع، ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطًا يعملونه من التمر والسمن، استلذذته واستعدته، فضحك العوسجي الكريم وأثنى على حريتي قائلًا: كأنكم من القصيم. جاء هذا العربي الفاضل في المساء يرد الزيارة ويشرب القهوة، فازددت إعجابًا به وبكرم أخلاقه؛ إذ قدم للربع شيئًا من التبغ واعتذر قائلًا: لولا قلَّته – والله – زودناكم منه.

وكانت ضيافة العوسجي فاتحة الضيافات في الأيام التالية بعنيزة مليكة القصيم، عنيزة حصن الحرية ومحط رحال أبناء الأمصار، عنيزة قطب الذوق والأدب، باريس نجد، وهي أجمل من باريس إذا أشرفت عليها من الصفرا[1]؛ لأن ليس في باريس نخيل، وليس لباريس منطقة من ذهب النفود، بل هي أجمل من باريس حين إشرافك عليها؛ لأنها صغيرة وديعة خلابة بألوانها، كأنها صورة صورها مانه[2] لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد. بل قل إنها السَّكينة مجسدة وقد بنت لها معبدًا بين النخيل، زانته بإفريز من ذهب الرمال، وكللته بإكليل من الأثل؛ فهي في مجوف من الأرض يحيط بها غاب من هذه الأشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث، من الشمال والغرب والجنوب. قلت مرة لأهلها: أنتم والنفود قوم[3]. فأعجبوا بالكلمة وتناقلوها. إنها الحقيقة ولا مبالغة؛ فالنفود تحاربهم بالرمال تدفعها الرياح من كل جانب فتسفِّيها على المدينة، وهم يحاربونها بالأثل يزرعونه غياضًا فوق الكُثُب خارج السور.

قد تصغر عنيزة دون أهلها، وهم زهاء ثلاثين ألفًا؛ لأن النفود تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد؛ فهي لذلك مزدحمة بالسكان، وأكثر أسواقها كالسراديب؛ لأنهم يبنون فوقها الجسور، وفوق الجسور البيوت، ولكن هناك سوقًا للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الأشكال والألوان، فتذكرك بأميركا وبلاد الإنكليز، وتنقلك إلى الهند واليابان، وتسمعك اللغات الإنكليزية والفرنسية والهندوستانية، ولهجات من العربية متعددة.

وفي عنيزة أسر قديمة عريقة بالنسب والفضل[4]، وقد ساح آباؤها في البلدان القصية والأمصار شرقًا وغربًا، فزادتهم السياحة لطفًا واتضاعًا، فرفعوا الضيافة إلى مقام تنفتح عنده أبواب البيوت والقلوب معًا.

---

[1] الصفرا مثل الصمان، أرض حصوية مجدبة شرقي عنيزة وتعلوها مائتي قدم.

[2] كلود مانه Claude Manet المصور الفرنسي.

[3] قوم: أي أعداء في إصلاح العرب.

[4] مثل آل سليم، وآل بسام، وآل ذكير، وآل غماص، وآل قاضي.

أجل، إن الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريبًا، فسواء أكان مسلمًا أم كافرًا، موحدًا أم مشركًا، فهو يشعر ها هنا أنه بين أناس ألفوا مثله، وألفوا فوق ذلك إكرام الضيف أيًّا كان، فيستأنس أيما استئناس، ويلبي دعواتهم مسرورًا شاكرًا.

«تفضل نقهويك». هي دعوة شبيهة بدعوة الإنكليز للشاي. وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل، فيهما ميل إلى الحديث والتعارف، ورغبة في الألفة والوداد. على أن ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الإنكليزي في أن رب البيت يخدمك بنفسه من حين الاستقبال إلى حين الوداع. وما أجمل ذاك الكرم وتلك الوداعة! ولا سيما أن الفضيلتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج إلى الأبهة لتؤيدها.

إن قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة، وهي عادة طويلة فسيحة عالٍ سقفها، وقد سقِّف بخشب الأثل، قائم على أعمدة من الحجر مطلية بالجص، لها نوافذ مزدوجة، النافذة فوق الأخرى، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق أرضية من الطين، فتبدو في لونيها الأبيض والحنطي كأنها خرج فرنسي على قميص عربية. وفي الصدر مجوف مستطيل لا يزيد إذا كبر على الثلاثة الأذرع، هو الموقد يجلس عنده رب البيت، ويجلس إلى جنبه ابنه أو أخوه أو أحد من أهله، فينشئ الواحد يعمل القهوة، والآخر يدق البن في جرن حجر كبير شبيه بجرن الكبة في لبنان، إلا أن قطر ثقبه لا يزيد كثيرًا عن قطر الهاون. وعند رأس الموقد خزانتان؛ واحدة للحطب والأخرى للمواعين، هما قيد يد الجالس هناك، فلا يضطر أن يقف ليتناول شيئًا منهما. وأهم من كل ما ذكر الأباريق، وهي محور الدعوة وركن الضيافة المادي، أباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق، وقد صفت أمام المضيف صفًّا متناسقًا من الأول الصغير الذي يكفي ضيفين إلى العاشر الذي يسقي مائة ضيف ويزيد. هذه هي القهوة عندهم، وهي في شكلها ورسومها ولون جدرانها، وسقفها العالي، ونورها اللطيف الذي قلما يمازجه نور الشمس، تعيد إلى ذهنك صورة معبد من معابد الأقدمين، فتحدثك بجلال العتق والقدم.

قال هنري دَوْطي في كلامه عند عبد الله البسام: «وكان لجرنه صوت شجي كأنه جرس الضيافة يدعو الناس للقهوة». إلا أنهم لا يقفون في الضيافة عندها، فهم يقدمون بعدها، في كئوس من الزجاج، شيئًا من الشاي، جزآه الأكبران الحليب والسكر. في بعض الأقطار العربية يسمى هذا الشاي: القهوة الحلوة، ويقدم للضيف دائمًا بعد القهوة المرة. وهم في الضيافة لا يسرعون ولا يلحون، اللهم إذا كانت الدعوة للقهوة فقط، أما إذا دعيت للغداء أو العشاء فبعد الأكل الآية: فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا. ولا استثناء؛ لذلك كنت أفضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث، وما أكثر الفوائد والدهشات فيه.

هذا سيدي عبد العزيز بن عبد الله آل سليم، وقد أضافنا مرات بين الصلاتين وبعدها أصيلًا ومساءً، لا ليسمعنا حديثه، وما أحلاه، بل ليسمع حديثنا. وكنت من باب حب الذات والاستفادة أباريه في

السؤالات، فننتقل من الجغرافية إلى الزراعة، ومن «أُمريكة» –كما كان يلفظها – إلى بلاد طي، ومن الأطباء إلى الشعراء. كان يكثر – عافاه الله! – من ذكر الأطباء؛ خصوصًا «طبيب السنون»، ويشكو خلو عنيزة منهم – قيل لنا يا أفندي: إن أمهر أطباء الأسنان هم في أمريكة. أصحيح هذا؟ قد نسافر إلى أُمريكة فنشاهد بناياتها العالية ونصلح أسناننا.

وهذا عبد الله بن خالد آل سليم أمير عنيزة وقد أنزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثًا لعظمة السلطان عبد العزيز، ومد لنا في بيته سماطًا ازدحمت فيه الألوان، وأنارته من شيم الأماجد البشاشة والوقار. ثم أدهشنا صباح يوم السفر بأكلة جمعت بين الخبيص[1] والعبيط، جيء بها في جفنة كبيرة على كانون من النار لتؤكل حامية. هي الحَنَيْنَة بنت الخبيص والعبيط، وقد عملت قرصًا كقرص العيد وغمست بالسمن والسكر.

والأمير عبد الله مثل عمه عبد العزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه، غير أنه مثل كل عربي لا يزال، على شغفه بالزراعة، أسير تقاليدها القديمة. سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري، ثم قال: سمعنا أن السلطان عبد العزيز يبغي استخدامها في الحسا، فمتى فعل نتبعه إن شاء الله. الناس على دين ملوكهم، وعلى طريقتهم في الزراعة أيضًا.

وهذا عبد الله بن مُحَمَّد آل بسام يثبت ما أقول؛ فهو على علمه وأدبه وروحه العصرية في كثير من أمور الحياة، لا يتقدم طويل العمر في الرياض. لعبد الله أرض خارج المدينة حفر فيها قليبًا عمقه ثمانون قدمًا، وعرضه خمسة وعشرون بعشرين، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء، كلَّفه أربعمائة ليرة إنكليزية، ويكلِّفه رفع المياه يوميًّا ليرة واحدة في الأقل. أما ثمن الآلة البخارية فلا يزيد على نصف كلف القليب، وثمن البترول أقل من أجرة الجمال. وعبد الله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك ما في الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل، ولكنه عربي، والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم وأجدادهم.

أما في التساهل الديني، فبين أهل عنيزة اليوم وأجدادهم بون شاسع: ليس في عنيزة اليوم من يضرب بالعصا من لا يصلي، فيسوق إلى المسجد كالأنعام من لا يلبون دعوة المؤذن. وليس في القصيم كله من أولئك الوهابيين، أمثال الإخوان اليوم، الذين اضطهدوا «النصراني الكافر» هنري دَوْطي وطردوه من البلدة.

---

[1] الخبيص في نجد هو غير العبيط، الخبيص يعمل من الطحين والماء والسكر. ضع الطحين في القدر وحرِّكه فوق النار حتى تفوح رائحته، ثم ضع الماء والسمن والسكر فوقه وحرِّكه حتى تفوح رائحته ثانية، فصب عليه السمن وحرِّكه حتى تفوح الرائحة الثالثة. فارفعه إذ ذاك عن النار ودعه يبرد ويشتد، ثم مد يدك باسم الله إلى القدر ولا تكن جشعًا. أما العبيط فهو من التمر والسمن كما تقدم.

لم يجد الرحالة الإنكليزي يومئذ غير بضعة رجال والوه، وأضافوه، وساعدوه في محنته؛ أهمهم ثلاثة، هم: أمير عنيزة يومئذ، وعبد الله القنيني، وعبد الله البسام. وقد ذكرهم دَوْطي في كتابه بالخير؛ نعتهم بالفلاسفة وأثنى عليهم ثناءً طيبًا.

حدثني صديقه عبد الله قال: كنت شابًّا يوم جاء «خليل» إلى عنيزة، وكان القنيني أكبر أصدقائه ومساعديه، فأغضب سكان المدينة فسبوه وتجنبوه. قالوا: إنه كافر مثل الإنكليزي. وها قد مر خمس وأربعون سنة وأنا أشاهد التطور عندنا. نعم الفرق كبير؛ ثلاثة يومئذ والوا الغريب علنًا وأكرموه، ثلاثة فقط، أما اليوم فلو عاد «خليل» إلينا لما وجد ثلاثة يسيئون إليه فعلًا أو قولًا. أهل عنيزة اليوم يغضبون لأقل إساءة تلحق بالغريب في بلدهم.

بين عنيزة وبريدة الوادي، وادي الرُّمة، والنفود، ولكن بين سكان المدينتين فرقًا يكاد يكون أبعد من الفرق بين البدو والحضر. إنما بريدة مدينة تجارية وليس لأهلها وقت لغير الاتجار والصلاة، هي محط رحال البدو من مطير وهتيم وعتيبة وحرب وغيرهم، يجيئونها للبيع والشراء، هي بدوية مادية لا تهتم للأدب ولا تسرف في تليد العقل والفؤاد، فلا تكرم الغريب ولا تسيء إليه. على أنه قلما يُسمع فيها تلك الكلمة الطيبة، تفضل نقهويك، التي هي صلة التعارف والولاء؛ لذلك تسمى عنيزة باريس، مع أن بريدة أوفر حظًّا منها في النزول على النفود. إن الرمال تفسح لها ولا تناوئها. فلو كانت المدن في انبساطها وانقباضها تؤثر في الأخلاق لكانت بريدة في الضيافة، في بسط يدها وقلبها إلى الغريب، المدينة الأولى في القصيم.

وهي لا تبعد عن عنيزة أكثر من عشرين ميلًا. مسير النفود بينهما ساعتين، فنشرف ونحن في آخر ضعسٍ منها على الخبوب التي تطوق بريدة كالقلادة — قلادة من الزمرد في خيط من الذهب لبدوية القصيم. إن الأرض لتتضع أمامها فتخضع لها، وتقف بعيدة عنها مبسوطة اليدين. لا كثب حول بريدة قريبة، ولا واحات عاليات الجبين — حولها الخبوب. والخب منخفض من الأرض فيه ماء وأثل ونخيل ومضارب وأكواخ. الخبوب خنادق احتلتها قوى السلام؛ أي المياه والأيدي الزارعة.

أقمنا في بريدة أسبوعًا نجدد ما وهن من القوى وما نفد من الزاد، فقد اجتزنا في رحلتنا قسمًا من بلاد نجد تعددت فيه القرى والمدن وطابت المياه، وبقي أمامنا القسم الأكبر والأوعر ثلاثمائة ميل بين بريدة والكويت، لا مدن فيها ولا قرى، ولا ماء إلا في نصف الطريق. وهناك النفود الكبرى، والدهناء، ووادي الرمة، والدبدبة، كلها أقفار يضيع فيها حتى أبناء القفار.

نزلنا في القصر الذي أسسه ابن مهنًّا وبنى جناحًا منه ابن الرشيد وآخر ابن سعود. هو قصر كبير ذو أبراج متعددة، وأفنية رحبة، وقلاع للدفاع الواحدة دون الأخرى. وفيه بيوت للضيافة وماء ومسجد، وليس فيه في هذه الأيام، في عهد السلطان عبد العزيز العادل، غير حامية صغيرة لا يتجاوز عددها المائة جندي.

كان سُوَيْلم بن سوَيْلم رئيس القصر وحاكم البلدة في غياب الأمير ابن مساعد جلوي[1]. وسويلم من الرياض، ولكنه ليس من «محلة الشيخ» فيها، فلا أثر للتعصب الديني؛ لا في أقواله ولا في أعماله. قد انتدبه عظمة السلطان مراراً لمهمات خارج نجد، فسافر إلى سوريا ومصر والآستانة، وكان في أسفاره من الكاسبين. على أن الأمطار لا تنفع غير الأرض الطيبة. ما اجتمعتُ بعامل من عمال السلطان أنعم صوتًا، وألطف حديثًا، وأجمل صبرًا من ابن سويلم، كنت أحضر مجلسه ساعة يقضي في الناس فيجيئه البدو، وأصواتهم كالأجراس، غاضبين شاكين، فيسمع ابن سويلم شكواهم هادئًا صابرًا، ويحكم فيهم ذاك الحكم العادل الشديد الذي امتاز به أكثر عمال ابن سعود. على أني لم أسمعه مرة ينتهر البدو أو يغلظ لهم الكلام، ولا سمعته مرة رفع صوته في الحديث أو في التوبيخ. كأنه صيني لا عربي.

— سرق البعير يا لامير. ابْدوي لص! والله عاينته بعيني. ابْدوي قواد!

فيسكت الأمير قائلًا: اقصر، الله يعافيك! فإن لم يسكت يعيد الكلمة ولا يغير صوته أو لهجته، بل يضرب الأرض بعصاه مثل السلطان عبد العزيز ويقول: اقصر الله يعافيك! ما أجملها كلمة تسكت بها الصيَّاح الشتَّام! ولكنها قلما تفيد إذا لم يكن عند صاحبها شيء من تلك القوة المعنوية الروحية التي تجعل كلماته الناعمة أشد وقعًا على البدو من السيف.

(١٨) الدهناء

ما احتجنا إلى دليل في الطريق من الرياض إلى بريدة مع أننا عبرنا ثلاثة أبحر من النفود، ولكنها بحيرات رمل إذا قسمناها بالعروض التي لا يجتازها حتى العرب بدون دليل خبير. وإذا كان هذا الدليل زكرتًا، فله بعد أمير الحملة المقام الأول، ولا يمشي إلا ومعه أركان حربه. نفعنا الله بهم وبه، فقد أصحبنا سويلم بن سويلم برجل من مطير ساح في الأمصار، ورافق الكبار والصغار، وحارب مع الترك في الحرب العظمى، ثم مع الشريف، ثم مع ابن سعود. رجل وهيب له صوت يرجف حتى البدو، وخطوة كانت تذكرني ببيت المتنبي:

يطأ الثرى مترفقًا في تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا

أما أركان حربه جُعَيش[2] ومبارك وإبراهيم فمن العربان الشجعان أبناء الفرِّ والطعان. على أني خشيت المنافسة بين الدليل والأمير، ولولا حكمة هذلول واتضاعه، ورغبته في راحتي قبل كل شيء، لما استقام الأمر

---

[1] هو عبد العزيز بن مساعد آل جلوي، عينه السلطان بعدئذ أميرًا في حايل، وجعل المنطقة الشمالية كلها بما فيها القصيم والجوف وخيبر تحت إمرته.

[2] جُعَيش: تصغير جعش، وجعش في محيط المحيط أصول الصليان.

والصليان بقلة واحدتها صليانة، ولكن جعيشنا يخطِّئ القاموس. فقد أخبرنا أن أمه ولدته عند جذع أثلة، وأن جذع الأثل يدعى جعش، وهو قوي سوي، فسمي تيمنًا به جُعيش.

يومًا واحدًا.

كان يضحكني المطيري، وشر البلية ما يضحك، عندما ننيخ للمراح، فيقف إذ ذاك جانبًا وقد التف بعباءته، وطرح أحد طرفيها على كتفه، كأنه يمثل على المسرح دور أمير خطير، ثم يصدر أوامره:

— يا مبارك ساعد مسفر في الذبيحة. يا جعيثن هات الأوتاد. رح يا جمود ارعى الركايب. وأنت يا حمد ساعد في نصب الخيمة. القرب يا بداح. الحطب يا إبراهيم ...

وكنت أرى هذلولًا — بارك الله فيه — يشتغل وسالم في رفع الشراع، ويساعد الجميع دون أن يصدر أمرًا واحدًا. بذا يمتاز الرجال بعضهم عن بعض، وبذا يفلح العاملون، ويفشل، بالرغم عن الخبر والاقتدار، أولو العجب والادعاء.

كانت طريقنا من العارض إلى القصيم شمالًا بغرب، فاستقبلنا الشمس في بريدة وسرنا منها مشرقين إلى الكويت. ولا ماء إلا في الحفر. ما أدركت خطر الطريق ووعورة المسلك إلا بعد التأهب في بريدة؛ إذ خرجت القافلة منها وقد ازدادت رجالًا وركائب. فضلًا عن اهتمام ابن السويلم، وقد رافقنا إلى خارج السور فأوصى الدليل وألحَّ على الأمير بإرسال كلمة اطمئنان بعد أن نجتاز الدهناء.

ملأنا القرب وبعض الأروية[١] من ماء عين ثميد خارج المدينة، ثم ملأناها ثانية كلها في اليوم الثالث من عين فهَيْد في الأسياح، وأطللنا من الأسياح على العروض؛ أي النفود الكبرى بين القصيم والكويت، ووراءها الدهناء، ودون الدهناء المفازات. وكلها على اتساعها أجف من الإسفنج في دكان العطار؛ لا ماء إلا في الحفر! حجب الله عليك يا سيد هاشم! كم ذكرناك في العروض وغبطناك وأنت في العارض! لا ماء إلا في الحفر. ودوننا ودون الحفر جبال وبحار من الرمال، بيد دونها بيد، وسبعة أيام من السير، والحمى تعود يومًا بعد يوم!

إن العروض؛ أي النفود الكبرى بين الأسياح وقباء[٢] هي عدة جبال من الرمل تمتد طولًا من الشمال إلى الجنوب، وعرضًا من الغرب إلى الشرق، وهي تدعى دعوصًا، علو الدعص بين الخمسمائة والسبعمائة قدم، وبين كل دعص وآخر نحو أربعة أميال نزولًا وصعودًا. أحد عشر دعصًا هي، بل إحدى عشرة كربة،

---

[١] القربة: وَطب من الجذع؛ أي جلد البهائم الصغيرة سنًّا يحملها الراكب معلقة بالرحل. ولكل راكب قربة. والأروية: جمع روي. في القاموس: الشرب التام. والرواء: الماء الكثير المروي. أما في نجد، فالروي هو الوَطب الكبير من جلد الإبل أو البقر يسع مقدار خمس قرب من الماء. وهم يحملون في الأروية غالبًا ماء الطبخ والغسيل، وكل رويتين حمل جمل.

[٢] قباء: القاف تلفظ جيمًا، وفاء الاسم تسكن في نجد فيقولون: اجْباء. فيسمعها الرحالة الأوروبي فيكتبها كما يسمعها، فينقلها الكاتب العربي عن الكاتب الأوروبي فتجيء مكتوبة جبه أو جابه أو جيبه. ومثلها الدهناء؛ تلفظ ادْهَنا فكُتبت في الخرائط الأوروبية دهانا Dahana، وغيرها من الأغلاط في كتابة الأسماء باللغات الأجنبية، ثم في نقلها عنهم إلى اللغة العربية.

كل واحدة أشد من الأخرى. هاك أفقًا أمامنا يعلوه أفقان أو رأسا دعصين بعيدين. وفي كل أفق رسول من الذهب الوهاج يدعونا لنعيم الخيال، بل لخيال النعيم.

ما أجمل ذهب النفود في الشروق وفي الغروب! بل ما أجمل أرجوانه إذا مال الظل وتعرَّج في الأصيل! وما أبهج ليل النفود وقد افترشت رملًا ناعمًا كالحرير! وآخيت نجمًا دانيًا في نوره منك، كأنه يهمس في أذنك كلمات السكينة والحب والسلام. وما أروع أشكال الرمال وقد كونت أهرامًا وقبابًا، وفيها أمثلة الصراط وقد شحذتها الرياح فأمست كحد السيف!

ما أجمل ...! ولكن ... كانت ذلولي من العارض إلى القصيم سهلة المراس، لطيفة المزاج، قصيرة الخطى، خفيفة الترجح، فيرتاح فوق سنامها من لم يألف ركوب الجمال. ولكنها انقلبت عليَّ قبل أن تصل إلى بريدة، فشرس خلقها، وثقلت خطواتها، أو أنها كانت خبيرة بطريق الكويت ففضلت الرجوع إلى الرياض.

أما الذلول التي ابتاعها ابن السويلم في سوق الإبل ببريدة، وهي أكبر سوق لبيع البعارين بالمزاد في البلاد العربية، ووسمها بالنار على رقبتها بوسم ابن سعود ○○○ وقدمها لي قائلًا: أحسن ما في السوق. فقد كانت حادة المزاج، صعبة المراس، طويلة الخطى، سريعة السير، فيضطر الراكب أن يعالجها دائمًا بالرسن والخيزران، فلا يذهل هنيهة عنها حتى في منتصف النهار، في تلك الساعة، ساعة الهاجرة، حين يتسلل النعاس إلى الجفون فتلقى الأرسان على الغوارب، ويستسلم الركب إلى النوم. أما هذه العمانية فلا تؤمن إذا قيل لها: حبلك على غاربك. لم يكن ذلك ليروعني وقد تمرنت وتصلبت لولا أمران. فما همني طول خطواتها في الأرض المنبسطة اليابسة، وما همني مزاجها في الأيام التي انفردتْ فيها بالرحل فكنت راكبًا وحدي.

ولكن الحمى والنفود ... لا أظن أن الاثنين يجتمعان لكثير من الناس حتى في الجزيرة العربية. ومتى جاءت الحمى في الدرجة الرابعة من الخطر، وكانت النفودُ العروضَ، وكانت الذلول عمانية جموحًا، فماذا ينفع الرسن باليد أو على الغارب، وماذا ينفع الخيزران. إن أصعب السير على الركب والركائب هو السير في العروض، ولا أثر البتة لطريق فيها، ولا مهرب من أمواج رمالها. تصعد الذلول في الدعص إلى رأسه وهي تربخ فتغوص حتى الرسغ، فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات، فتئن حتى الرحال من شدة الحال. أما في النزول، فتنتقم من الدعص الذلول فتروع هاوية غاوية، وهي تغوص في الرمل حتى الركاب، فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات، وفي كل منها للراكب خمس نكبات. زد على ذلك أن الدليل المطيري كان يعبر المنحدر في خط مستقيم دائمًا، فلا يهمه الرفيق المحموم، فتتبعه الركائب غائرة متدهورة إذا لم يكبح جماحها. وكيف يقوى على كبح جماح ذلوله من كبحت جماحه الحمى؟

لم تنفعني قوة الإرادة في تلك الأيام، ولا ما كنت أتدرع به من الكينا صباح مساء، فقد رميت بنفسي

على الرمل مرتين في العروض وأنا أنتفض من البرد، فأنتظر مجيء الحمى، التي كانت تتبع البرد، لنستأنف السير. نعم، لنستأنف السير. فهل نقف لنجامل الحمى ورفيقنا الأكبر شبح الموت؟

ليس فيما أكتب الآن شيء من تأثير تلك الأيام، إنما الحقيقة كل الحقيقة فيما أقول، الماء معنا لا يكفي إلا أيامًا معدودة، فإذا أنخنا كل مرة شرفتنا الحمى لنجاملها حتى تزول، ينفد ماؤنا قبل أن نجتاز نصف الطريق. ولا ماء إلا في الحفر! اركب يا رجل وتوكل على الله. لا أظنني توكلت في تلك المحنة الفريدة على غير الله، بل كنت أحس – أستغفرك ربي! – أنك، وإن كانت الحمى رديفي، راكب أمامي قابض على زمام الذلول وزمامي.

يا ذلـــولي حجَيْلـــة ذلـــول ابـــن عيـــد قـــربتي قطَّـــرت والمعشـــى[1] بعيـــد

وما كان أبعده في أيام النفود، في ذاك البحر الرملي الذي تعالت أمواجه جبالًا وهبطت جباله أمواجًا، فضاق في اجتيازه حتى صدر الدليل المطيري. ما كنت أظن ونحن نخوض عبابه أن له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب. ولكن الدليل عندما أطللنا على الأفق الأعلى، فاه بكلمة كانت منه الكلمة الوحيدة التي أبهجتني: هناك ظهر العروض ومنه نعاين الدهناء.

ظهر العروض، آخر ضلع من ضلوع الأسياح، آخر دعص من النفود، آخر درجة من سلم التعذيب ... شكرنا الله ثم شكرنا الله. وعندما أطللنا على الدهناء تنفس الربع كلهم الصعداء، وأمر هذلول بالتكبير: كبر يا بدَّاح. فراح بداح يدرهم ويصيح: الله أكبر! الله أكبر! وكانت ساعة الغروب فأنخنا فوق السهل الذي يمتد بين العروض والدهناء. وكنا قد عثرنا في ذاك النهار على أثر من طريق قديمة هي سكة زبيدة؛ أي الطريق التي أمرت بفتحها وتعبيدها للحجاج زبيدة امرأة هارون الرشيد، فتيمنًا بها وكانت فاتحة الخير إلى يومين.

أكرم الله مثواك يا ستي زبيدة وجعلك من المقربين – إذا كان لم يفعل حتى الآن. ويا ليت في المسلمين اليوم أختًا لك صغيرة تجدد في الأقل الطريق التي شرفتْ باسمك. فالبرك العديدة التي بنيت في الصحراء في سبيل البر والتقوى؛ لتروي الإنسان والحيوان أن يرجع إليك فضل بنائها.

لم أفهم من مبارك قوله هذه البريْكَة[2] حتى وصلنا إليها، فألفيتها بركة لماء المطر، بل صهريجًا متهدمًا مردومًا. وإذا صح فيه التصغير اليوم فلا يصح ذلك فيما نبت هنالك من الأعشاب، ومن شجر الطلح والسلم.

إن أبهج ما يشاهد الإنسان في الصحراء بقعة أرض خضراء، ولكن الحيوان، ذا السنام كان أو ذا

---

[1] المعشى: مكان المراح للعشي.

[2] تصغير بركة، والكاف تلفظ تس.

القرون، يشارك الإنسان في ذا الابتهاج. وقد تبارينا كلنا حول البريتسة التي يدوم اخضرارها طيلة السنة. إن إحسانك يا ستي زبيدة خالد البركات ولو في زاوية من القفر، خالد هو ما دامت الأرض خالدة. أنخنا الركائب لترعى في ظلال إحسانك، وكنت أنا الحيوان الناطق المفكر أول من فاه باسمك شكرًا وإعجابًا، فلقد لقيتُ في ذلك المرعى كما لقيتْ ذلولي ما ألفته العين والمعدة.

جاءني مبارك، وهو نباتي الحملة، ببضع وريقات خضر يقول: هذا الحنبصيص. هي عشبة صغيرة فيها حموضة يأكلها أهل نجد ويجعلونها في الأقط. وكنت قد سئمت اللحم؛ لأنه في الثلاثة الأشهر التي مضت كان يصبحني ويمسيني كل يوم دون سواه، فجعلني أحن إلى ورقة خضراء حنين البعير إلى العرفج والأرطى. ثم جاءني مبارك – بارك الله فيه! – بعشبة أخرى سال لمرآها اللعاب، وهاج في القلب ذكر الوطن والأحباب. فيا ما أحيلاها نبتة تزرع في لبنان حول البيوت، وتسيج من غزوات الدجاج بالشوك! الرشاد! جاءني مبارك بالرشاد. وهو في بادية نجد نفسه في لبنان، لا يتغير اسمًا ولا طعمًا.

تبعتُ مبارك إلى مواطن المرعى الطيبة، ورحت أرعى فيها كالبعير، بل رحت أدبُّ على الأربع مثل نبوكد نصر، آكل الحشيش، وأشكر الله ثم الست زبيدة، فانتعشتْ وابتهجت حواسي كلها، فصرت أظن أن الرشاد والحنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت دونه الكينا. على أنني، في رجوعي إلى الأصل ولو ساعة، أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الاثنتين.

وهاكم الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء وترحب بنا، فينبغي للقارئ أن يعرف بعض الشيء عنها قبل أن نصل إليها. تختلف الدهناء عن النفود بأشياء: بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي، فتنساب كالحية أو تتعرج كالنهر شرقًا بجنوب حتى تصل إلى الربع الخالي؛ بلون رمالها وهو أبيض إلا في أطرافها؛ بقلة كثبها وتجوفاتها فلا يتجاوز أعلى كثيب فيها المائة قدمًا؛ بتنوع أعشابها وغزارة المرعى فيها. زد على ذلك أنها قليلة العرض جدًّا بالنسبة إلى طولها، والعرب لا يقطعونها إلا في الأماكن التي هي أقل عرضًا من سواها؛ لذلك هي أسهل سيرًا وأينس مشهدًا من النفود.

يمـــــرون بالـــــدهناء خفافًـــــا عيـــــابهم ... ويخـــــرجن مــــن داريـــــن بجـــــر الحقائــــب

مررنا بها خفاف القلوب في الأقل، فقطعناها من الغرب شرقًا إلى الكويت، بعد أن قطعنا من الشرق غربًا إلى الرياض. وكان يومئذٍ بدَّاح رفيقنا ودليلنا، فصاح ثانية يمثل البدو عندما يصلون إليها طالبين الحيا[1]. وأبيك حنا برأس الدهنا! وأطلق مبارك صوته ببيته المحبوب:

يا مـــــوفقين الخــــير يا أهـــــل الأشـــــدَّهْ ... معكـــم وزيــــن (عـــديل) الـــروح الله يـــردَّهْ

[1] الحيا أي: المرعى. وفي القاموس الخصب والمطر. والعرب تسمي النبات حيًّا؛ لأنه يتسبب عن المطر.

سرنا في سكة زبيدة سير الهون إكرامًا للركائب. وكيف لا نكرمها والأرطى في هذا المكان من الدهناء أخضر جديد. اشرأبت إليه الأعناق، ووقفت عند كل شجرة منه تتفكَّه به بعد أن كادت تتخم من العرفج والعُلقة والشمَّام[1]. ثلاث ساعات كل ساعة منها عيد لذوي الأربع وذوي الاثنتين معًا. أنخنا فصلى الربع المغرب ومدوا السماط للعشاء، ثم جلسنا في حلقة حول النار، وطالبنا مسفرًا بما وعدنا به مرارًا.

ومن هو مسفر، وما هو وعده؟ هاك الخبر، ولا أظنك تأبى التعرف إلى الرجل وقد تشاركني في حبه. مسفر هو مدير الحملة[2]، ورئيس الخدم، والعين الكالئة للزاد، واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء. مسفر هو النفاخ الطباخ، راعي الفأس والفراخ، حامل الخناجر والسياخ. وهو في شكله نكتة مضحكة قد لا تليق في مجالس المتمدنين، وفي وجهه أقرب إلى الرباح منه إلى يوسف الحسن. وجه مسفر هو ما يصفون في نجد بالعَفِن، وهو يظل عفنًا حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء. فهل يصلح الماء والكيمياء أنفًا تسطح على خديه، وفمًا تطاول إلى أذنيه، وجبينًا داس بشعره حاجبيه، وعينًا جاءت من القرد إليه؟

أما في لبسه فهو آية في البلاغة والإبداع، لا يعرف أنجدي هو أم حجازي، أيماني أم عراقي. بل لم يكن عربيًا في غير الغطرة والعقال. أضف إلى ذلك حذاء مرقعًا تخض رجله فيه، وسروالًا كان أبيض، لا نظنه غُسل في عهده أو في عهد أبيه، فوقه معطف كذلك من الخام، مفصل مثل الفراك التركي، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والسياخ، إلا أنه عندما يركب على بعيره الأسود، فوق أحماله، يبدو ككيس من الأكياس.

هاك الرجل في ظاهره، أما في باطنه فسبحان رب الكائنات، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته. إن في ذاك الوجه العفن مبسمًا ولا مبسم الحسان في جاذبه، مبسمًا يوقفك ويغريك، ويضحكك ويلهيك، مبسمًا ينسيك الفم منه والأنف والجبين، بل ينسيك الرباح، وضلوع الأسياخ.

أي بالله! ما كان في رجالنا، وقلما تجد في الرجال، من هو أخف روحًا، وأدمث خلقًا وألطف ذوقًا، وأرق شعورًا، وأسرع إلى الخدمة يدًا من هذا الدميم الكريم. فقل: تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم، فهو إذا

---

[1] الأرطى: شجر ثمره كالعناب، ويسمى أيضًا في نجد عَبْلا؛ لأن ورقه كورق الصنوبر مفتول غير منبسط. وهم يستخرجون منه ومن قشره صباغًا أصفر. العلقة: شجرة غصنها أبيض وورقها دقيق، تبقى في الشتاء، فيعلف بها الإبل حتى تدرك الربيع. الشمام: نبت ضعيف ورقه شبيه بورق النخل. ومن نبات الدهناء العرفج، وهو للإبل كالباقية للخيل، وقيل هو القتاد لشوك فيه.

[2] تقسم القافلة إلى قسمين: الحملة، وهي الجمال التي تحمل الحقائب والزاد، والركائب التي تحمل المسافرين، وغالبًا تسير الحملة قدام الركائب فتسبقها بساعة أو أكثر؛ لأنه لا يؤذن لأصحابها بالدرهام خوف التكسير فيما يحملون، فنلحق بها ونجتمع كلنا في المضحى وفي المراح.

مسخ الإنسان قردًا يهبه من الجمال الروحي والخلقي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين.

إن للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوبًا هي دكان بما حوت. أتبغي خيطًا وإبرة وزرًا؟ أتبغي ملحًا أو بهارًا أو شيئًا من مسحوق الليمون الحامض؟ أتبغي رقعة تمسح بها فنجانًا أو تضمد بها جرحًا؟ أتبغي قلمًا وورقًا للكتابة؟ أتبغي مسواكًا من الأراك أو شيئًا من الكحل؟ سمعًا وطاعة.

لم يدهشني عندما رأيته أول مرة يكتحل؛ لأن أكثر رجال العرب يكتحلون وقاية للعيون. ولكنه أدهشني ذات يوم إذ كنا حول النار نشرب القهوة، فتناول مسفر حجرًا وضع عليه بضع جمرات، ثم مد يده إلى كيس في «دكانه» فأخرج علبة صغيرة، ففتحها وأخذ منها بأطراف أنامله، ورشه على النار. البخور، عود الند، الطيب؟ هو وحده كان يحمل هذه النفيسة من نفائس الحياة ونوافلها، فيطيبنا دائمًا بعد الطعام.

على أني دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك أن ضحكت عندما أشار بالسبابة إلى رأسه كأنه يقول: مسفر لا ينسى شيئًا. ثم أخرج من عبه مرآة صغيرة قدمها لي لأرى وجهي وأزين – احكم وضع – عقالي قبل الرحيل. هو ذا حقًّا أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفسًا وذوقًا. ولا أظن أنه كان يحرص على شيء في كل ما يحمله حرصه على المرآة، فكان يتسلى بها وهو راكب فيتأمل طويلًا ذاك الوجه الذي وصفت.

ما السر في ذلك؟ هل يرى في وجهه ما يراه الناس أم ما يراه الله وقد تساوت في نظره المخلوقات جمعاء؟ أو هل الرباح، ذاك المخلوق الأولي فيه، وقد أعجب بهذا الشيء الذي يعكس وجهه فكان مسحورًا! ما قول سادتنا العلماء، علماء الجسد والروح؟ أفلا يأخذهم العجب من الرجل الدميم، الدميم إلى حد يضحك ويبكي معًا، الذي يحمل السكاكين والخناجر ولا يضع واحدة منها في قلبه عندما يرى وجهه في المرآة؟ ولكنه على ما أظن حب الذات يقينا ويقيه شر النفس إذا ما رأت العين منكرات التكوين الظاهرة.

أجل، لولا حب الذات، ذاك الغرس المبارك الذي غرسه الله في كل حيوان صامت وناطق، لكان الانتحار بسبب التشويه الخلقي وحده أكثر شيوعًا من لعب القمار.

أستغفرك أيها القارئ، فقد أسهبت، ولكن غيري ألَّفوا روايات أبطالها أشخاص مثل مسفر اختلقوها، ولا أظن أن «كاليبان» و«غونيبلاين» يتسابقان إلى الصدر إذا جمعتْهما ومسفرًا المجالسُ. بيد أن «كاليبان» وأخاه خيالان من خيالات شكسبير وهوغو، أما مسفر فحقيقة هو من حقائق هذه الرحلة، كان يطبخ لنا دجاجة كل يوم، ويطيبنا بعود الند بعد الطعام، ويحدثنا عن امرأته وعياله في سدوس[1]. هاك الرجل، وهاكه مبرًأ بوعده. وما الوعد؟

عندما كنا في شقرا رحنا ذات ليلة نتفقد مسفرًا و«خوياه» في منزلهم، فسمعنا ونحن داخلون إلى البيت

[1] سدوس قرية قديمة من قرى العارض بنجد. سميت سدوس نسبة إلى قبيلة من بني حنيفة كان يقال لهم: بني سدوس.

صوتًا شجيًّا ينشد نشيد الإخوان، فأطللنا من الشباك، فإذا مسفر داخل والسيف بيده يصحب «الهوسة» برقصة رائعة. سألناه بعدئذ مرارًا أن يرقص ويغني فأبى واعتذر. وعندما خرجنا من بريدة كنا نعيد سؤالنا كل يوم فيتذرع بالشغل أو بالتقاليد التي تحرِّم الغناء في نجد، على أنه وعدنا برقصة الإخوان عندما نصل إلى الدهناء ... وها قد اجتزنا الدهناء والحمد لله، وكان الحبور رفيقنا طيلة النهار. فهلا استهويته يا مسفر بصوتك وسيفك، فيظل معنا ليحل محل القمر في ذا السمر؟

كنا حلقة حول النار أمام الشراع، وكانت الركائب باركة في حلقة أخرى حولنا تجتر قانعة مطمئنة، وكانت السماء سافرة صافية الجبين فتلألأت كواكبها سرورًا لتغيّب سيدها القمر، فزاد الكلام كذلك في نور نارنا — الحطب يا إبراهيم. وكان إبراهيم معاون مسفر الأول في النفخ والطبخ جالسًا عند ركمة من حطب العرفج والأرطى، فيمد يده وراءه ثم يبسطها فوق النار، فتقهقه طربًا وتزداد تأججًا.

وكان حمد العبد وهو يقلب في حضنه مقلاة البن، وهذلول الذي اتخذ صحنًا من النحاس دفًّا، وبداح وقد صفق كفًّا على كف، ينادون مسفرًا ويحرضونه — قم يا مسفر. أسفر يا مسَيفر. وكان كوكب السمر قد دخل الخيمة فخرج منها والسيف يلمع بيمينه والخنجر بيسراه. فوثب وثبة ثم أخرى إلى وسط الحلقة، وطفق ينشد نشيد أهل العوجا؛ أي أهل الرياض، وهو ينتقل نقلة خفيفة بطيئة، ويتلوى من وسطه إلى اليمين وإلى اليسار كالثعبان:

تَارَا تَتَآتَـــــــــــــــــــه تَـــــــــــــــــتمُ تُم	تَارَا تَتَآتـــــــــــــــــــــه تَـــــــــــــــــتمُ تُم
حنـــــا أهــــل العوجـــا مرويـــة الســـنين	«نـــــــــروي ســــــــنان الـــــــــرمح»
عاداتنـــــا ســــــهُج العـــــدو بنحــــورنا	«أن نحجـــــم علــــى العــــدو لـــــيلًا»

كان يقف عند كل بيت، بينا حمد وهذلول يردان عليه بالنحاس، وهو يهز السيف والخنجر هزة بطيئة خفيفة، فيها ربض الهول كأنه يتأهب للوثوب. ثم عند البيت الأخير يثب فوق النار وهو يصيح: لي لي لي لي لي لي لي! فيجيب الربع: حي على! حي على! وحمد وهذلول يدقان على النحاس:

تارا تتآتـــــــــــــــه تـــــــــــــــتم تم	تارا تتآتـــــــــــــــه تـــــــــــــــتم تم

وما هذا كله إلا التمهيد لهوسة الإخوان: هبت هبوب الجنة أين أنت يا باغيها. غيَّر مسفر نقلة رجله زنة وسرعة، ورمى السيف والخنجر في الهواء، فتناول الأول باليسرى والثاني باليمين — حطب يا إبراهيم. كف يا إخوان.

هبـــــــــت هبـــــــوب الجنـــــــــة	تارا تاتـــــــــــــــــــــــــــــــه تاتم تم
أيـــــــــن أنـــــــــت يا باغيهـــــــــا	تارا تاتـــــــــــــــــــــــــــــــه تاتم تم

لعب الهوس بالرجال، ووثب الهول من النصال – هبت هبوب الجنة! فتغير الوزن من السريع الخفيف إلى الأخف والأسرع حتى أمسى كرقص الدراويش. فأغمد مسفر إذ ذاك الخنجر ونزع الغطرة والعقال عن رأسه، فرمى بهما في النار، فصاح الجميع: أين أنت يا باغيها!

ثم اعتنزوا مرددين: أهل التوحيد، أهل التوحيد! حتى خمدت النار، وقد ذهل إبراهيم في هوسه عن وظيفته، فكان الختام الدخان والظلام.

حطب يا إبراهيم. وكان الفصل الثاني فصل حكايات، فقص هذلول خبر وقعة كانت له مع الجن في وادي الدواسر، فقتل منهم اثنين وجرح كثيرين. وقص مداح قصة غرام هو بطلها، وهو الفاسق الأكبر بشهادة نفسه، فأخبرنا كيف أخبأته الحبيبة في الصندوق عندما عاد زوجها إلى البيت وكان قد خامره منها الريب فسبها، فسبته، فطلقها، فشكرت الله ونادت الخادم حالًا ليحمل صندوقها، وهي تبغي العزوبة – «فحمله وأنا فيه، والله بالله، وهي وراءنا تضحك». – وبعد ذلك يا بداح؟ – لا تسل يا هذلول.

وحدثنا حمود قال: كنت حاملًا كتابًا من الشيوخ إلى أمير عنيزة فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتعشى. كنت وحدي وكانت الليلة مظلمة. عقلت الذلول، وجمعت الحطب، وشببت النار، فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح: احجب علينا حجب الله عليك! فتلفت فعاينت تحت الشجرة وجهًا كالشمس، وحياة الله، وشعرها طويل وأسود كالليل. ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى، فعدت إلى النار أشبها، فعادت تصيح: لا تشب النار، الله يجيرك من النار! احجب علينا، استرنا. هي عروس الجن، وقد كانت لطيفة كريمة، فدنت من حمود وقبّلته وهي ترجوه أن يسير في سبيله ويتركها وشأنها في ظلمات الليل. فاستجاب حمود طلبتها وأسرى تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه – والله بالله يا أستاذ حبتني (قبلتني) هنا، وكان فمها كالجمرة. وحياة الله أقول الصدق.

ثم حدثنا مسفر فقص خبر غزوة من الغزوات التي كان فيها وختمها قائلًا: والله ذبحت أربعة عشر منهم ابن طوالة حي موجود. فضحك الربع، وكانت ضحكة بداح طويلة مستنكرة وقرت في نفس مسفر، فصاح وقد استل سكينًا من سكاكينه: اسكت أو أذبحك بالله. فقال بداح وهو لا يزال يضحك: مثلما ذبحت ابن طوالة. فوثب مسفر فوق النار يبغي دم العجماني، فصده هذلول وسكن روعه، ثم أمر بداحًا أن يقدم له بيده فنجان القهوة.

جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم، سالم الرزين السكوت، وليد حايل وربيب الأمصار، سالم الطواف الذي طاف في الحرب العظمى البلاد العربية كلها من أقصى الأقطار إلى أقصاها، من اليمن إلى شرق الأردن ومن البصرة إلى الشام.

– هات حكايتك يا سالم.

– والله يا أستاذ ما عندي حكايات. عندي كمبيالة على الملك حسين بمائة وخمسين ليرة إنكليزية أبيعك إياها بعشر روبيات.

– وكيف تقول ما عندك حكايات؟ هات حكاية الكمبيالة. فأخبرنا سالم أنه كان جمالًا في جيش الأمير عبد الله يحمل الماء عندما زحف بعد الهدنة من المدينة على تربة. وعندما وصلوا إليها ودخلها الأمير صباح ذاك اليوم منتصرًا، سأل سالم سموه أن يأمر بالإجازة والحساب؛ لأنه يبغي الرجوع إلى بيته وعياله، فأعطاه الأمير حوالة على جلالة الملك أبيه بحسابه؛ أي بمائة وخمسين ليرة، فأخذ الحوالة سالم وراح ينحر الطائف ليزور صاحبًا له فيها، فاعترضه بداح يصلح الكلمة فأنثها: هي صويحبة يا أستاذ. أنا أعرفها. لم يأبه له سالم فاستمر في قصته. أقام بضعة أيام في الطائف ثم نزل إلى مكة، وكان أن الإخوان انتصروا على الأمير ليلة يوم النصر، وأفنوا جيشه كما هو معلوم، وحمل النجاب خبر النكبة إلى جلالة الملك. فلما وصل سالم يحمل الحوالة قال له صاحب الجلالة: الله يعوض عليك وعلينا يا ابني، خسرنا كل شيء!

انتصف الليل ونحن لا نزال في فصل الحكايات، والإبل حولنا لا تزال تجتر قانعة مطمئنة، وسالم يعمل القهوة ثم الشاي، الإبريق تلو الإبريق، فأرقنا وما مللنا، ولا كنا من القانتين. ثم نهضنا باكرًا قبل الفجر الكاذب، وكنت أول من سمع هذلولًا ينادي على عادته. قوموا ... قوموا صلوا. بداح، سالم، حمود، مبارك، جعيش، قوموا، قوموا صلوا ... أذِّن يا مسفر.

– الله أكبر. الله أكبر ... حيوا على الصلاة ... الصلاة خير من النوم.

ثم تقهونا وسرنا في سحر برده شديد يخرق العظم، فأنخنا بعد ساعة لنشب النار وندفئ أرجلنا، وكنت أنا في جزمتي أسرع منهم، وهم في النعال شبه حفاة إلى ذلك. لا أظن في البلاد العربية من قوم أصبر على الشدة وأثبت في المشقات من أهل نجد.

استأنفنا السير وهذلول أميرنا وإمامنا يعلمنا دين التوحيد – يجب على كل مسلم أن يكون عالمًا بثلاثة أصول:

- **أولًا**: أن الله خلقنا ورزقنا وهدانا برسول أرسله إلينا، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار. واستدل على ذلك بقوله تعالى – وذكر الآية.
- **ثانيًا**: أن الله لا يرضى أن نشرك معه في عبادته أحدًا؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. والدليل قوله تعالى – ذكر الآية.
- **ثالثًا**: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله. وذكر الآية دليلًا على ذلك.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة؟ فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمدًا ﷺ. وإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين، وهو معبودي ليس لي معبود سواه. وإذا قيل لك: بمَ عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته. ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر. ثم سأل بداحًا: ما هي أركان الإسلام؟ فأجاب بداح البجاح: إني أعرفها يا هذلول، اذكرها أنت فأرددها. فقال هذلول الطيب القلب الورع التقي: أركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فنشأ بداح بعد فقال: واحد. وإقامة الصلاة – اثنين. وإيفاء الزكاة – ثلاثة. وصوم رمضان – أربعة. وحج بيت الله الحرام – تمام، تعرفها والله.

ثم قال بداح: وأنا أسألك أتعرف آية العيون؟ فأجابه الأمير: وما هي؟ فنطق بداح بالآية التي كنتُ قد سمعتها مرارًا من فيه ولا أظنه يعرف سواها –كل عين باكية يوم الحشر إلا ثلاثًا: عينًا صدت عن محارم الله، وعينًا دمعت من خشية الله، وعينًا باتت تحرس في سبيل الله.

– علمتني يا عجماني. جزاك الله خيرًا. وما هي شروط الصلاة؟

– أعرفها. أولها الإسلام.

– الإسلام. وثانيها؟

–كملها يا لإمام. فأجاب هذلول: الإسلام والعقل والتمييز – وكان بداح يرددها وراءه – ورفع الحدث، وإزالة النجاسة، وستر العورة، ودخول الوقت، واستقبال القبلة، والنية. فشكره بداح ثم قال: وما هي شروط الوضوء؟

– غسل الوجه، ومنه المضمضة والاستنشاق، وغسل اليدين إلى المرفقين، وغسل الرجلين إلى الكعبين ... إلخ. ثم قال: وما هي نواقض الوضوء؟ فأجاب العجماني: أنا أعرفها. علمها للربع يا لإمام. فنشأ هذلول يعددها. هي ثمانية: الخارج من السبيلين، والخارج الفاحش النجس من الجسد، وزوال العقل، ومس المرأة بشهوة، ومس الفرج باليد، وأكل لحم الجزور، وتغسيل الميت، والردة عن الإسلام، أعاذنا الله منها! – والله يا هذلول الشرط الرابع ينقض وضوئي دائمًا. قل لنا ما هي أركان الإيمان؟

– أركان الإيمان يا بداح ستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. والإيمان يا بداح هو بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان.

– هذه الشعبة من الإيمان لا يعرفها بداح. الحياء عدو له.

الصوت الذي نطق بهذه الكلمة صوت مسفر.

فقال بداح: صدقت يا مسيفر السدوسي. ولكن عندي أول الإيمان وآخره، أعلاه وأدناه. ولولا حرمة الأستاذ لبرهنت لك أني مؤمن فأزيلك، يا شر الأذى، عن الطريق.

— بررر والله بالله! واستل مسفر خنجره وساق بعيره على بداح. فوكز هذلول ذلوله وكر فاستوى بين الاثنين.

— وهل هذا من الإيمان؟ الله يغربلك يا مسفر! سلط الله عليك يا بداح!

— ومتى كان ابن العجمان يشتم ابن الدواسر؟

— أنا أؤدب العجماني. دونك والحملة، امشِ. فراح مسفر يبربر ويسب العجمان. فخاطبني بداح قائلًا: مسفر لا يحب النكتة، وحنًا نحب نغيظه لنسليك.

(١٩) الحفر

بعد أن خرجنا من الدهناء دخلنا في الباطن، وهو القسم الشرقي الشمالي من وادي الرمة، وفيه —كما يقول أهل نجد— ديرة بني هلال. ها هنا كانت قديمًا منازلهم، وها هنا أماكن حروبهم، ولكنه لم يبقَ من المنازل حتى ما شبَّهه الشاعر بباقي الوشم في ظاهر اليد. لم يبقَ ظل من الديرة فوق الأرض، أما تحتها فالآبار العميقة، المطوية بالحجارة، والمحفورة في الصخور، تدل على همة في أولئك الأقوام عالية. ولا يزال في هذه القلبان ما لم يقوَ عليه من الأقدار غير غضب الأمطار. فقد تحولت من الوادي المياه، وجفت منذ قرون قلبان بني هلال، فكانت الطبيعة عونًا لهم إذا أجهزت على من تبقى منهم وهم يتفانون في الحروب. حتى النبات هجر المكان، فقلما تجد في الأرض التي رويت بدمائهم غير تلك الدالية التي تدب وتنساب كالحية، وتثمر ثمرًا شبيهًا بالليمون، هو الحنظل بمثل مر القضاء في «ديرة» الفناء.

في الباطن بعض الرمث أيضًا، وهو — في القاموس — مرعى للإبل من الحمض. غير أن الإبل لا تدنو منه إلا إذا كانت في أرض فيها ماء؛ لأنه يولد الظمأ، وهي لا ترعاه إلا قليلًا. قال بداح: الرمث للبُل مثل السكر للإنسان — يطلب الماء ولكنه للنار زين. ومع ذلك فإن ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه:

تركــتْ دخــان الرمــث في أوطانهــا ‏ ‏ ‏ ‏ طلبًــا لقــوم يوقــدون العنــبرا

ترى الباطن يضيق في أماكن فلا يتجاوز خمسة عشر ذراعًا، وإلى جانبيه جدار عالٍ من الطبقتين الرملية والكلسية. هو ذا عقيق للنهر الذي كان يجري في وادي الرمة. وقيل: إنه لا يزال يجري ويفيض مرة واحدة كل أربعين أو خمسين سنة.

عندما نصل إلى مكان يدعى أم الهشيم يأخذ الوادي بالاتساع فتنزول تدريجًا جوانبه، فلا يبقى حولنا

وأمامنا غير رحب القفر وما في فراغه وامتداده من دواعي الغم، بل من الهول. إن النفس لتنقبض من عقمه العميم، فتنقلب العين عنه خاسئة. هو القفر السبسب بالذات، لا حد له ولا ظل فيه. وليس في هذه الكلمات ظل من المبالغة.

إن فيه مع ذلك النعيم المنتظر، هو القفر المختبئ في تضاعيفه، وراء آفاقه، الحفر ... الحفر، الماء، النعيم! وكنا نعِد أنفسنا بواحة مع الماء ورياحين، بنخيل وظلال طيبة. فوا أسفاه! إن الحفر حفرة دفنت فيها كل آمالنا وأحلامنا! هو القفر السبسب يقينًا، تربة رملية ولكنها سوداء، لا ظل فيها ولا ورقة عشب خضراء أو يابسة. وإنه ليحزن الفلاح خصوصًا إذا علم بأن هذه الأرض حول الآبار على مسير ساعة في الجهات الأربع هي سوداء من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها.

الماء والسماد والتربة الطيبة، ولا وريقة خضراء فيها. لمَ ذلك؟ إن الحفر أيها القارئ العزيز ميدان اقتتلت وتفانت فيه القبائل، فكان يومًا في يد الضفير، ويومًا في يد شمر، وتارة في حوزة ابن الصباح، وطورًا تحت إمرة ابن الرشيد.

كم وقعة ها هنا، حول هذا الماء، روت التربة الطيبة بدم ربيعة ومضر، روتها بدم أبنائك يا عدنان، فلا تنبت اليوم حتى الحنظل، ولا تظلل حتى الجندب.

في الحفر ثماني آبار كلها متهدمة الجوانب، ولا عدة لرفع الماء إلا فوق اثنتين منها، فمن يرد الماء وليس معه حبل ولا إناء يعود منه ظمآن، إلا إذا وجد هناك من يعيره حبلًا وقربة. قد تكون الحروب في الماضي أوجبت هذا الإهمال، بل هذا الظلم. الماء لي اليوم وقد يكون غدًا لعدوي، فلا أصلحه وأجهزه بما قد يكون فيه هلاكي وهلاك عشيرتي، إنما هي عاطفة البدو وقاعدتهم في الحياة، وهم لا يدركون من سر التعاون والتضامن غير الغزو ثم الغنائم.

أما اليوم وسيادة سلطان نجد تمتد إلى الحفر وما دونه شرقًا وشمالًا، والأمن والسلام سائدان في بلاده كلها، والبدو بعنايته الأبوية آخذون بالتحضر، والأرطاوية أكبر الهُجَر وأهمها، هي على يومين جنوبًا من هذا المكان، ومَطير فيها تستطيع حماية الماء والمحافظة عليها، فمن العار إذن أن يبقى الحفر كما كان أيام الضفير وشمر، في حروب القبائل والأمراء.

قال بداح: المستر فلبي[(١)] عندما وصلنا إلى الحفر راح يرقص من شدة الفرح.

ولا عجب إذا كان كل من سافر في هذه الطريق من القصيم إلى الكويت، فقطع النفود والدهناء، يبتهج ويرقص عندما يصل إلى هذا الماء. لا عجب إذا كان الرحالة على الخصوص أجنبيًّا لا ناقة له في

---

(١) هو جان فلبي مؤلف كتاب «قلب البلاد العربية»، ومستشار حكومة شرقي الأردن سابقًا.

البلاد ولا جمل. ومع أني أحق من المستر فلبي بالرقص، إذ قد نجوت من خطرين؛ خطر الطريق وخطر الحمى في الطريق، فقد كاد قلبي يتفطر من شدة الحزن عندما أنخنا في الحفر.

احتللناه يومًا واحدًا فشاركتنا في الاحتلال الرياح الأربع. وقد قيل لي إن اثنتين منها في الأقل، وكلها غالبًا تحتل هذا المكان على الدوام؛ ذلك لأن آفاقه مكشوفة مبسوطة كآفاق البحر، فتجيئه الشمال مدرهمة، والجنوب غائرة، والشرقية صافرة، والغربية مصفقة مولولة، فتلتقي كلها وتحترب في ذا المكان. دخلت خيمتي، وأقفلت الباب وجلست أستمع دوي المعركة، فأحسست غير مرة أن بيت يومي واقع لا محالة على رأسي.

جاءني مسفر بعد الظهر يسألني إذا كنت أبغي أن أسبح، فظننته يمزح وقلت ضاحكًا: نعم. ثم انتبهت إلى الجد في أمره؛ لأنهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة. فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماءً حارًا، فقلت: بارك الله فيك يا مسفر! سنسبح في القدر. فقال مستدركًا وهو جاد في كل أمره: قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار.

ثم بعد نصف ساعة عاد يحمل في صحن من النحاس الجمر وعود الند وهو يقول: تطيب. ثم مد يده إلى عبه وأخرج كنزه الأكبر؛ المرآة. وساعدني في لبس الجزمة وإحكام العقال، وخرج من الخيمة يقول للربع: باركوا للأستاذ بالسباحة، فقال هذلول فرُددت كلماته: نعيم دائم إن شاء الله. وقالت الرياح: ستأكل عشاك مطبوخًا بالتراب.

صدقت الرياح! فكيف يستطيع مسفر أو غيره من الطهاة العظام أن يرد عن القدر التراب ما دامت الأربعة الأهوية تثيره وتغريه على الدوام؟ وكيف يستطيع بداح ومبارك وجعيثن أو غيرهم من العربان الأقوياء الأخفاء أن يرفعوا الماء ليملئوا القرب والأروية دون أن تعترضهم الرياح فتبعدهم مرارًا عن القليب وتخلط حتى بمائنا التراب؟ ولكن ماء الحفر، وإن كان ذا لون، فلا رائحة ولا طعم له. حمدنا الله على ذلك وسرحنا باكرًا، كما مرحنا تحت قسطل من العجاج وبين أمواج من دوي الأهوية تصم. إني أذكر الآن أننا كنا وقتئذ في آخر شهر شباط، فيما يسمى بلبنان المستقرضات.

قلت سرحنا، ولو كان في الإمكان لرحنا غارة من ذاك المكان نبغي السكينة والاطمئنان في الشعبان، ولكن الركائب نفسها كانت تمشي كأنها مصعدة في النفود، فتلوي الرقاب وتصك الركاب، من شدة صدمات العدو المحيق بنا. وعندما أنخنا للمضحى كانت لا تزال سرياته تعج حولنا وتثج، فأخذ كل منا شيئًا من الخبز والطعام بيده، وجلس على الرمل فرفع العباءة على رأسه كالخيمة وشد أطرافها تحت رجليه.

كذلك جلست. وكان الرمل مع ذلك يسبق اللقمة إلى فمي، وجاءت الحمى في ذلك اليوم العصيب تجهز عليَّ لولا رحمة الله. على أن الرياح هدأت في اليوم التالي وكنا قد بعدنا عن الحفر. عن القفر اليباب

والموت، فلاحَ في الأرض حولنا شيء من الحياة. هي ذي الرَّوْثة، روثة العام الماضي، وهي شبيهة بالرمث إلا أن الحموضة قليلة فيها فتقبل عليها الإبل. وهو ذا نبت أخضر، من طلائع الحيا في هذا العام، ولكنه ليس من الحيا بشيء؛ لأن الأنعام لا تدنو منه. أما مرآه فقرت به العين وانتعش منه الفؤاد. قيل لي إنه يدعى بُعيثران وهو شبيه بالشمر، زهره أصفر، ورائحته قارصة.

وهاك في الجو جناحًا صغيرًا يسف فيؤنس، ويزلج أمام الهواء كأنه ورقة خضراء سوداء، جناحًا أسود فيه اخضرار يرفرف حولنا فيبشرنا بالحياة، ثم ينسل في وهج من خيوط الشمس. هو الخطاف الذي يسميه أهل نجد الرقَّيْعي. وجاءت معه الورقاء – أم سالم – تتيِّم زهر البعيثران وتجر تيهًا ذيلها، ذنبها الطويل على الرمل. قال الأعرابي وقد عرَّفه رفيقه إلى أم سالم: أي بالله! وأين هو أبو سالم؟ فأشار الرفيق إلى الخطاف فقال: وأبيك، حتى في الطيور تهوى البيض العبيد. وإيش قولك يَسالم؟ أولاد العبيد مناكيد.

وكان الخد –كما يقال في نجد؛ أي: وجه الأرض – يتغير كلما بعدنا عن الحفر، فتكثر المفالي[1] ويكثر البدو، وقد خرجوا بمواشيهم ينتجعون فيلاقوننا ليستطلعوا أخبارنا ويسألوا عن المرعى في الأرض التي مررنا بها. كان الأعرابي يرانا، وهو على مسير نصف ساعة منا فيركض حتى يلحق بنا، وإذا تعب يومئ بردنه أو بطرف قميصه أن قفوا، فنقف امتثالًا لأمر هذلول.

– السلام عليكم يا لإخون ... حي الله المسلمين ... وتسايف أنت؟ وتسايف حالك؟ الله يزين حالك ... وأبو تركي[2] تسايف حاله؟ ... وإيش علومكم (أخباركم)؟ وإيش لون خد الشعيب (أي ما هو لون المرعى في الشعب الذي مررتم به)؟

في اليوم الثاني بعد سفرنا من الحفر خرجنا من الباطن؛ أي وادي الرمة، عند مكان يدعى الرقعي، وسرنا جنوبًا بشرق نازلين إلى الدِّبْدِبَة، فوصلنا إليها بعد أن اجتزنا بضعة تلال أو شعبان ضل فيها الدليل المطيري. وقد كان في ضلاله مشكورًا؛ لأنه أقصر بدل أن يطيل الطريق.

الدبدبة سهل فسيح لا يقل عن العشرين ألف ميل مربع، يمتد شرقًا بجنوب وشمال من وادي الرمة، فيحده غربًا الحفر، وشرقًا الشق، وتشطره الدرجة الثانية والعشرون من العرض الشمالي. قد كانت الدبدبة – ولا تزال – تابعة لمن يملك الحفر إلا أن قسمًا صغيرًا منها دخل اليوم في حدود العراق.

والدبدبة كثيرة المفالي، مخضرة الجوانب، رقيقة الأديم، منبسطة الأرجاء. تمحي غالبًا أثر الطريق فيها

[1] الأرض التي فيها مرعى. ومن كلمات البدو إذا نزل المطر: اللهم اجعلها في مفالي ارتسابنا ولا تبل ثيابنا؛ أي اجعل المطر في الأماكن التي هي مرعى لركائبنا ولا تجعله علينا فتبل ثيابنا. والبدو مثل السياسيين يبغون النعمة دائمًا صافية ومقيدة بشروط.
[2] تركي بِكر السلطان عبد العزيز. وقد توفي في الوافدة الإسبنيولية بعيد الحرب.

فيسير من كان ناحرًا الكويت وظله أمامه أو وراءه، وإذا أسرى فبرج الجدي الدليل الذي لا يضل. وفي الدبدبة من القنص الحبارى والقطا والأرانب والغزلان. على أن الماء قليل، وهو غير موجود في الطرفين من الحفر إلى الكويت؛ أي الطريق الشرقية في خط مستقيم إلى خبرة الدويش، وطولها مائة ميل، والطريق التي اتخذناها إلى الجهرة شمالًا، وهي مائة وأربعون ميلًا.

ومع ذلك فقد ظفرنا في الدبدبة بأربعة أيام طيبة سرنا فيها سير الهون إكرامًا للركائب ولأنفسنا، وقد كان لنا ما كان لها من الخير واللذة في تغيير الهواء والمناظر والمرعى! فالإبل تستلذ العرفج والأرطى الخضراء، وكانت في الدبدبة وافرة من نعمة الله. ونحن نستلذ الحبارى والكمأ، وكان مبارك وجعيثن يقنصان بينما إبراهيم ومسفر وحمود يبحثون في الأرض، فيجيئوننا كلهم في المساء بخضار تندر حتى في باريس ولندن، إلا إذا بذل في سبيلها كثير من المال. لا أظن أن في الشمال كمأة تفوق خصبًا ولذة كمأة الدبدبة. أربعة أيام طيبة، ثم الحمى!

لله ما أبلدك وما أحمقك، أيتها العجوز البصرية، إذا كنت تظنين أنك تجيئين في اليوم الخامس لتفسدي علينا هذه الأربعة المباركة، فتنسينا حسنات الدبدبة كلها! جئتِ لا أكرم الله مسواك! ونزلت ضيفًا علينا، فأكلت ما تبقى عندي من الكينا وملح الأثمار، وعدت بخفي حنين. العفو يا حنين! هي أول مرة في حياتي ألجأ إلى خفيك لأطرد بهما عجوزًا شمطاء. ولو لم تكن عربية الأصل ومن البصرة، هذه الحمى، ولو لم أكن الآن في البلاد العربية، لما أزعجتك يا حنين، ولما اتخذت لغرضي نعلك القديم الجليل.

راحت المسكينة تعرج، ونهضنا في اليوم السادس بعد نصف الليل منشطين، فأسرينا في ضوء القمر لنصل إلى الجهرة صباحًا. وما أبهجها ساعة أطللنا فيها على البحر! البحر بعد أربعة أشهر في قلب البلاد العربية، ما أجمله وجهًا! وما أكرمه يدًا! وما أبلغه رمزًا! القفار أبعدتني عن العالم والبحر يعيدني إليه، القفار قرَّبتني من الله، والبحر يقربني من الأهل والخلان. وإنه ليلذ لي، وأنا من الناس، ما يلذ لعامة الناس. فلا أكتم القارئ أن العشرة الإلهية الدائمة تضايق من لم ينتصر ولا حاول مرة أن ينتصر على الجسد. إنني أعجب بالقديسَيْن أنطونيوس الكبير وسمعان العمودي، ولكني بعد أشهر أقمتها في ظله تعالى، وأحسست مرة أن الظل تجسَّم قدامي على ظهر الذلول ليساعدني على الحمى، بعد هذه الأشهر المباركة أبغي الرجوع إلى ما فيه شيء من الحب البسيط الفاني، أبغي الرجوع إلى توافه المدنية ومبتذلات الحياة البشرية.

الجهرة بلدة عند جبل الزور، على ساعد من الخليج يمتد غربًا من الجون وراء مدينة الكويت، والمسافة بينهما وبين العاصمة لا تتجاوز خمسة عشر ميلًا. وهي مشهورة بكثرة آبارها، وبقصرٍ فيها لشيخ الكويت، وبتلك الوقعة بين أهلها والإخوان التي سيجيء ذكرها.

أنخنا خارج السور على كثيب من الرمل، وأرسلنا بداحًا بكتاب إلى سمو الشيخ أحمد الجابر آل الصباح

نعلمه بوصولنا ونستأذنه بالدخول إلى المدينة. كنت قد كتبت إليه من الرياض وجاءني منه الجواب مرحبًا بي، ولكن هذلولًا، وهو ولي الأمر، حريص على الرسميات، فلا يدخل مدينة قبل أن يسبق منه علم بذلك إلى أميرها.

ما كدنا ننصب الخيام حتى جاء بعض أفاضل الجهرة، وفي مقدمتهم أمير القصر، يزوروننا ويدعوننا للقهوة في بيوتهم، فذكرونا بأهل القصيم في ترحيبهم بالغريب. قضينا بضع ساعات من ذلك اليوم نشرب القهوة والشاي ونسمع ما يتسرب من العاصمة إلى هذه القرية من أخبار العالم. على أن أهلها يهتمون لما في البادية – على ما ظهر لي – ولأخبار نجد والإخوان أكثر من سواها. أخبروني أن الجهرة مجلبة للرياح مثل الحفر، وأن الهبوب التي مهبها الشمال مسلطة عليها. على أنهم لا يخافونها بقدر ما يخافون «هبوب الجنة» التي مهبها الجنوب.

وأنا أكره الهبوب سواء أكانت جنوبية أم شمالية، فشكرت الله أن مسرحها في الهجرة يوم نزلنا فيها كان خاليًا هادئًا. شكرت الله، وبينا كنت عائدًا من البلدة رددت آية الحمد فسمعني هذلول فقال: الحمد لله في كل حال، ولكن هذا المهب[1] لم أرَ له أثرًا حيث كنا، غير أنه كان يجمع جيوشه فوق جبل الزور ودونه في الأفق الغربي، وكانت طلائعه كالغيوم السود الماطرة وحركتها ظاهرًا بطيئة.

أسرعنا إلى المناخ فألفينا الربع حول نار سالم يشربون القهوة، ويتحادثون وهم لاهون عما هو حادث هناك، فصاح بهم هذلول وأمرهم بأن يرفعوا الشراع ويطووه ويوطدوا أوتاد الخيمة؛ خيمتي. فما كادوا يتممون العمل حتى وصلت إلينا سريات هبوب الشمال.

أمر الأمير الخدم بأن يرزموا العفش ويتأهبوا للرحيل، ولكن سريات من الغرب والجنوب أحاطت بهم فأوقفتهم، وشتتتهم، وكادت تذهب بقمصانهم. لجئوا إلى الجهة الشرقية من الخيمة فهوت وكادت تقع عليهم.

– اقضبوا[2] الحبال! حمود وحمد وجعثن اقضبوا الحبال ولا تبرحوا الخيمة. مكانكم.

فتمسك الثلاثة بحبالها والرياح من النواحي الثلاث تذري الرمال عليها وعليهم.

وكانت ساعة المغرب والعشاء والصلاة. الصلاة أولًا. وكيف يصلون وهم إذا استقبلوا القبلة يستقبلون الهبوب ... هبوبًا ولا «هبوب الجنة»؟

دعوتهم إلى الخيمة فدخلوا كلهم إلا الثلاثة القابضين على الأطناب، فأذَّن مسفر ثم صلوا، وصليت

---

[1] هم يعبرون عن الهبوب أو الريح المثيرة للغبار بالمهب.

[2] قضب: لغة نجد في قبض.

معهم وأنا جالس على السرير. أوَلا يخلق بي، وهي أخر ليلة مع «خوياي» أن أشاركهم في الصلاة وفي العشاء!

جاء مسفر وإبراهيم يحملان المرجل الكبير إلى الخيمة، فرفعا الغطاء فإذا على وجهه قطيفة من الرمل، فكشطها مسفر بالمغرفة وصب ما فيه من الأرز واللحم. نحرنا الزاد ونحن جالسون القرفصاء. ولكن الرياح وهي تصفر وتنفخ من خلال فرج الخيمة ومن تحتها كانت تسابقنا إليه، فيجيء الرمل في كل سفة من الأرز كالبذر في الصبير. وما كنت تسمع مقطعًا أو حرفًا واحدًا من الشكوى إلا إذا كانت باطنًا مني، بيد أني كظمت وتجلدت خجلًا من أبطال نجد، وشكرت الله معهم على عشاء من الأرز والرمل.

بتناكلنا في الخيمة نقص القصص، والرجال يتناوبون حراستها، والرياح تولول حولها وتحاول عبثًا اقتلاعها. كنت قد سألت هذلولًا غير مرة أن يملي عليَّ شيئًا من شعره فأبى اتضاعًا، فألححت عليه – هي آخر ليالينا يا هذلول – فأكرَمَني.

وكان قد انتصف الليل فطلع القمر وسكنت الرياح، فقمنا نتأهب للرحيل. أسرينا من الجهرة مكرهين، وبعد ساعتين أنخنا ليتم الربع عملًا لا بد منه: يجب أن يغيروا ثياب السفر قبل أن يدخلوا الكويت.

شببنا النار وفرشنا بعض الفرش، فحاولت أن أنام ساعة بينا «خوياي» يلبسون أثوابهم الرسمية ويزينون أنفسهم، ولكني وجدت شرب القهوة ورعي النجوم أسهل من النوم.

لبس كل من الربع الكسوة الجديدة التي أنعم بها السلطان عبد العزيز قبل السفر من الرياض، ولبس هذلول ورجاله النجاد بالجلد فوقها، وتمنطقوا بمناطق الفشق، وأخرجوا البنادق من بيوتها، والغطرات الجديدة من الأخراج. وكانت مرآة مسفر الصغيرة تقوم بفضل القمر بواجبها، فتداولتها الأيدي وبسمت لها الوجوه.

وكنت أنا – ويا للعجب من أمري! – أسيرَ اكتئابٍ حاولت أن أظهر عليه أو أخفيه. قد أدركت وتيقنت أننا في المرحلة الأخيرة بل في الساعة الأخيرة من رحلتنا. وكم مرة وددت النهاية وتقت وحننت إليها، على أنه في تلك الساعة، وأنا مدرك أن القمر لا يطلع مرة أخرى علينا؛ عليَّ وعلى هؤلاء الإخوان الحقيقيين المحبين المخلصين، في تلك الساعة، ساعة الفراق، اعتراني الغم ووددت من الزمان يومًا آخر نسير فيه إلى واحة من الواحات، وليلة أخرى نسمر فيها حول نار سالم، فيرقص مسفر رقصة الإخوان، ويطعم إبراهيم النار إلى أن يتخلل دخانها خيوط الشمس الذهبية.

«حنَّا أهل العوجا – مروية السنين».

ولكن شِعر هذلول النبطي الذي أملاه عليَّ منذ ساعة – وستظل بالرغم من الأيام والليالي منذ ساعة – لا يزال يرن في الأذن والفؤاد. وما أحسن اختيارك أيها الدوسري الكريم! وما أجمل العاطفة في تلك

الأبيات التي بعثت بها إلى أحد خلانك! فهي تنطق بلسان حالي إذا ما ذكرتك وذكرت «خويانا» كلهم أجمعين.

يا علي يوم السبت ونيت ونَّة (إن وحن)

يوم ارتحلتوا فوق عوص النجايب (الهجن الحرة)،

يا ليتني معكم على كوارهنَّ (أكوارهن)

مع ربعي اللي هرجهم لي عجايب (حديثهم)،

بالله يا خلاق نارٍ وجنة،

نسألك يا منشئ صفوف السحايب (الغيوم التي تجود بالأمطار)،

تسيِّر يمام الدين لديارهن

حتى نشوف صويحبي والحبايب،

صويحبي اللي مني وأنا كنت منه،

منساه (لا أنساه) لو رزَّت علي النصايب (حجارة القبر).

أدلجنا من ذاك المكان، وما هي إلا ساعة حتى انبلج الفجر، وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت.

أحمد الجابر آل الصباح



سمو الشيخ أحمد الجابر آل الصباح

(١) الكويت

- **حـدودها**: شرقًا خليج العجم، شمالًا وغربًا وجنوبًا خط يبتدئ عند ملتقى الخطين؛ الثلاثين من العرض الشمالي، والثامن والأربعين من الطول الشرقي، فيمتد في شكل نصف دائرة، ويمر بالشق غربًا والشُّقيق جنوبًا، وبين جبلي برقان والقرين إلى رأس القليَّة على الخليج. أما منطقة الحياد بين الكويت ونجد فهي من رأس القليَّة إلى خبرة الدويش، ومنها في خط يمتد جنوبًا بشرق إلى قرب الخط الثامن والأربعين من الطول الشرقي، ومن هذه النقطة إلى عين العبد فرأس المشعاب على الخليج.
- **مساحتها**: أربعة آلاف ميل مربع.
- **عدد سكانها**: نحو مائة وعشرين ألف نفس؛ منهم ثمانون ألفًا في مدينة الكويت والباقي من العشائر

خارجها.

- **أهم مدنها**: الجهرة، وجزيرة فيلكة، والدمنة، والفنطاس، وأبو حليفة، والشعَيبة. وفي برها أماكن بأسماء معروفة كالوَبرة عند الحدود الشمالية، والصبَيْحيَّة في الجنوب، وخبرة وأم الرءوس وغيرها. وهذه كلها أماكن مياه يرتادها عرب العشائر.
- **مذاهبها**: أهمُّها السُّنة، ثم الشِّيعة، وقليل من الفُرس والمسيحيين واليهود.

(٢) في الكويت

كنت قد عاهدت «خوياي» أن أدخل وإياهم إلى الكويت راكبًا الذلول، ولكننا قبل أن نصل إلى المدينة رأينا سيارةً قادمة منها فوقفتْ إذ دنتْ منَّا، فقال هذلول يخاطبني: من الشيخ أحمد. نوخ، نوخ.

أَنَخْتُ آسِفًا لأني أدركت في الحال أنْ لا بد من ركوب السيارة فأخلف بوعدي، وأُحرَم لذَّةً كنت أعلِّل النفسَ بها. ليست القافلة في البادية غير قافلة مهما كان عددها، وليس الراكب فيها أيًّا كان غيرَ واحدٍ من المسافرين. لا أهميةَ للإنسان والحيوان في القفار، أو أن الاثنين واحد في فسيح مهالكها.

ولكن القافلة ساعةَ تدنو من العمران، من الحضارة، تتغيَّر في نفسيتها فيعظم شأنها، فتدخل بوابة السور وقد اختلط في قلبها الكِبْر والسرور، وتسير في أسواق المدينة كأنها موكب من مواكب النصر والفَخَار، وكأن كل واحد من الرَّكْب أميرٌ على عرشه العالي، أو قائدٌ عائد من ساحة الوغى. هو وَهْم في عجب ولا مراء، ولكنه وَهْم جميل كان يستوقف العقل مني كل مرة نصل إلى مدينة كما تستوقف العينَ صورةٌ جميلة، بل كان يلذُّ لي ولا غَرْو أكثر من سواي؛ لأني حديثُ العهد به.

لذلك أسِفْتُ عندما أَنَخْتُ ذلولي خارج الكويت، ولكني دُهِشت وسررت، فنسيت ما كنت أعلِّل به النفس؛ إذ رأيت صديقي القديم يوسف السالم جلبي آل بدر ومعه الشيخ عبد الله خليفة آل الصباح، وقد جاءا من قِبَل سمو الشيخ أحمد يحملان إليَّ كتابَ السلام والترحيب.

كان آخِر عهدي بيوسف جلبي في البصرة عند صديقنا الأديب الفاضل الشيخ محمد أمين عالي باش أعيان العباسي، يوم أدب لنا مأدبة فاخرة في بيته «الصالحية» على نهر الصالحية هناك، فقلت متصرِّفًا بالبيت المأثور:

والصالحية جنَّة   والصالحون إليها أمُّوا[١]

كنا يومئذٍ عشرين ونيفًا من الصالحين — الصالحين للنزال والطعان — وكان يوسف قد شحذ سلاحه

---

[١] أستغفرك يا سيدي الأستاذ، إني أعلم أنَّ «أمَّ» تتعدَّى بذاتها، ولكن النكتة الشعرية تعتذر «إليها».

جالسًا إلى جنبي يسفُّ الأرز سفًّا عجيبًا. وأنا الطالب في هذه الطريقة أعجبُ به وأتمنى أن يكون لي جزءٌ مما له من المهارة والاقتدار. سألته عما إذا كنتُ أستحقُّ الشهادة في السف البسيط، وهو أن تأخذ شيئًا من الأرز فتعجنه بين أصابعك وتدفعه بالإبهام إلى فمك. فاستعرض سفِّي ثم قال: لا يزال ينقصك شيء من العلم والإتقان. عينك. قال هذا ومد يده إلى الأرز فأدارها فيه، كأنه يحدِّد دائرةً هي ملكه، وقبض على كتلة منه كبيرة قد ملكها، ثم رفعها وجعلها، وهو يعصر منها السمن، أكرة متماسكة شديدة، فقذف بها إذ ذاك إلى فمه دون أن يسقط منها أو يتبقى بين أنامله حَبَّة واحدة، فقلت: سبحان الله الذي جعل الكمالَ غايةَ الحياة القصوى! فلا شيءَ أجمل في الحياة من كمال في صناعة أو في فن.

قلت ليوسف جلبي، بعد أن شاهدتُ منه هذه البراعة: إني مسافر إلى نجد فأتمَرَّن هناك، وسأعود إن شاء الله إليه ليعطيني الشهادة. وما كان في الحسبان أن ستجمعنا التقاديرُ ثانيةً، فتصير النكتةُ بعد أربعة أشهر حقيقةً مضحكة. قال يوسف ونحن سائرون في السيارة نعيد تلك الذكرى: سنفحصك اليومَ في القصر ونعطيك الشهادةَ بإذن الله.

أول ما يسترعي النظر في الكويت، إذ يصل المسافر من البر إليها، ذلك السور الكبير الذي بناه أهلها بعد وقعة الجهرة ليصدُّوا هجمات الإخوان. وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها، طوله خمسة أميال، وعلوه نحو أربعة أمتار، وسُمْكه في بعض الأماكن متر ويزيد، فيه المعاقل والكوى للرَّمْي والدفاع، وله بواباتٌ ثلاثٌ يقيم الحرس عندها، وتُقفَل في الليل. لم تنفق الحكومةُ روبيةً واحدة على بناء هذا السور، فقد تبرَّع أهل الكويت، كلٌّ بما يستطيع من عمل أو مال وأتمُّوا البناء في مدة شهرين. إنه لمن الأعمال المدنية العامة الرائعة؛ خصوصًا في البلاد العربية.

دخلنا المدينة في الساعة الأولى من ذاك النهار، فوقفَتِ السيارةُ في الساحة الكبرى، فترجَّلْنا ومشينا تجاه صف من الناس جالسين في الفلاة على مجالس من الحجارة والطين إلى حائطِ بيتٍ صغير، فوقف إذ وصلنا مَن كان جالسًا في الوسط، ووقف على إثره الجميع. هو سمو الشيخ أحمد الجابر آل صباح حاكم الكويت. خرج من قصره بحاشيته وبعض أسرته يستقبلنا في المكان الذي يجلس فيه الناس. ليس أحب إلى السائح، وليس أقرب إلى الديمقراطية الحقَّة والمساواة من هذه المقابَلات الملكية في الفلاة.

الشيخ أحمد في العَقْد الرابع من العمر، ربع القامة، دقيق الملامح، حَسَن الخلق والبزة، لطيف الإشارة والحديث، وهو أقرب في هيئته إلى الشكل الآري منه إلى السامي، فلو كان في غير النعل والثياب العربية لَظننتُه هنديًّا من البنجاب، أو أوروبيًّا من بلاد الإسبان.

هنَّأني بوصولي، وأعرب عن دهشته لسفري في البلاد العربية هذه السفرة الطويلة. ثم قال: العرب أنفسهم يكبرون هذه الطريق ويخافونها، ومنهم مَن لا يقوى على تحمُّل مشقاتها. وكيف تحمَّلتم ركوب الذلول

كـل هـذه الأيام؟ نهَنِّئكم يا أستاذ ونرحِّب بكـم. ولم يشـأ أن يُطِيـل الجلسـة الأولى رغبـةً في راحـتي، فبعـد أن تناولنا القهوة أمر مَن لاقوني أن يرافقوني إلى القصر.

وكانت هناك الفتنة الكبرى. لا أريد الفتنة ما فيه نسوة أو دين أو سياسة، وقد كنت بعيدًا عنها كلها، ولكـني فُتِنت. أجـل، فُتِنت بمفاجآت الـتَّرَف والرفاهيـة، أنا الـذي أقمتُ عشـرين سـنة في نيويـورك، في تلـك المدينـة الـتي تـزدحم وتتبـذَّل في نُزُلها نوافـل العيش ونفـائس الصـناعة والفنـون، تلـك الـتي كانـت تنحصـر في الماضي؛ خصوصًا بأوروبا، في قصور الأشراف والأعيان، وقد أصبحت اليومَ في نيويورك في متناول كل مَن يستطيع أن يبذل بعض المال.

تالله مـا تفعـل البيـداء وخشـونة العيش! دخلـت القصـر في الكويـت كـأني بـدوي لم يـرَ في حياتـه قصـرًا جميلًا، تزيّنـه الأعمـدة والقنـاطر، ولم يجلس مرةً في قاعـة مفروشـة بالفـاخر مـن الـرياش. وعنـدما جـاء الخـدم الواحـد بعـد الآخَـر يحملون الأطباق، فوضعوها على السجادة وجلست أنا ورفيقي إليها، فُتِنت بما أحـاط صفحة الأرز من الألوان المطبوخة بالبقولات.

البقولات! بعـد الأرز والرمـل واللحـم والـتراب، الـتي كـان يطبخهـا لنـا مسـفر ومعاوناتـه الريـاح، إنهـا مـن النِّعَم التي يغتفر فيها الابتهاج والإسراف. نحرت الألوان نحر العاشق المشتاق، وخصصت بالإسراف بندورة الكويت التي يشحنون منها إلى البصرة، وهي صغيرة مدملكة، يطبخونها بقشرها دون أن تمسَّها السكين. ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية، ولكنه أرق وأدسم. ثم أصناف الحلوى، وما أشـد حلوها وأكثر سمنها وأسرارها! وعندما نهضنا نغسل أيدينا وقف أمامي يوسف السالم آل بدر، وهو —كمـا أشـرت — مـن رجـال السـماط المشـهورين في البصـرة والكويـت، فصـافحني وقـال: أهنئـك بمـا أحـرزت، فقـد صرتَ منا، ليس في سف الأرز فقط، بل في سف السماط.

وبعد أن ودَّعني في تلك الليلة خرجتُ إلى الإيوان ذي العمد، المشرف على الخليج، فأخذت بمشهد البحر والسفن المسربلة بضوء القمر، وظللت حتى منتصف الليل جالسًا في كرسي هندي[1]، وأنا في ثوب النوم، جلسة أميركية — وما أخلق ذاك الكرسي بها! — رافعًا للقمر رجلي، مطلقًا العنان لِلَذيذ الأحلام. فمـا أحسستُ بهواء البحر البارد الرطب إلا بعد ساعة، فدخلتُ وأنا أرتعش إلى غرفة النوم.

نمتُ قليلًا واستفقتُ أَئِنُّ من شدة الألم. عاد السماط في بطني نارًا، واستحال النعيم جحيمًا. فكنتُ منذ تلك الساعة حتى الفجر أحسُّ بشيء يتعقَّد فيَّ ثم ينحل، ثم يتقطَّع، ثم يذوب، فأذوب معه وأكاد من

---

[1] إذا كنت تبغي كرسيًّا تستريح فيه، وتنام فيه، وتسيء الأدب فيه، فليس أصلح من ذاك الكرسي الهندي وقد جُعِل لظهره درجات فتبسطه قدر ما تشاء، ولجانبيه عضاضتان ترفع عليهما ساقَيْك، فتنسى أنك إنسانًا وتكفر بالله.

شـدة الوجـع أمـوت. بـل عايَنـتُ المـوت في تلـك الهيضـة الـتي تنـدر في غـير الـوباء. الله! يا رب المسـرفين والمقترين، يا أرحم الراحمين، أفي الهواء الأصفر نهايةُ هذه الرحلة ونهايتي، أو أنها بندورة الكويت تفعل ما لا تفعله الأدوية والأملاح؟!

جاءني في الصباح يوسف السالم جلبي فحزن لحالي وبادَر إلى الطبيب. وجاء بعد ساعةٍ الطبيبُ فأثبت الجرم على البنـدورة وقـال: إن لها شريكة هي الحمى، وللاثنتَيْن عـدوةٌ هاكها. غير أن الطبيب نفسه نفعني أكثر من عقاقيره؛ فقد استأنست به أيما استئناس؛ لأنه من لبنان واسمه شبيه باسمي، هو الدكتور ريحان من دير القمر. وما الذي قذف به إلى الكويت؟ أخبرني أنه في معية السردار أقدس الشيخ خزعل خان الذي جاء يقضي بعض الشتاء في قصره خارج المدينة. فكان الخبر هذا كالوردة الحمراء في ضمة من الريحان؛ لأني كنتُ عازمًا على زيارة الشيخ خزعل في المحمرة، فسررت جدًّا بقربه مني، وعادت في ذاك النهار العافيةُ مثلما ولَّت، وهي تحمل بإحدى يديها أدوات العمل، وبالأخرى مصباح الأمل.

(٣) آل الصباح[١]

تُقسم العرب كلها إلى قسمَين، قحطان: وهم العرب العرباء، وعدنان: وهم العرب المتعربة، وتُقسم عدنان إلى فرعَين: مضر وربيعة. أمَّا مضر فسكنت الحجاز وكانت لها الرئاسة في مكة، وأما ربيعة فكانت منازلها في نجد؛ أيْ بين اليمامة والبحرين والعراق.

وهي – أيْ ربيعة – تُقسم إلى عمارتَين، بني كلب وبني أسد، ويتفرَّع بنو أسد إلى بطنَيْن هما جديلة وعنزى. وعنزى أخو وائل الذي تنتسب إليه البيوت الثلاثة الحاكمة اليومَ في نجد والبحرين والكويت؛ أيْ آل سعود، وآل خليفة، وآل الصباح.

كانت عنزى تقطن أولًا عين التمر في بر العراق على مسيرة ثلاثة أيام من الأنبار، ثم انتقلت إلى نواحي خيبر، فأقامت هناك ومعها أحياء من طي، فصارت تنتجع وتشتي معهم في نجد. إنها من أكبر قبائل العرب، وهي تُقسم إلى أفخاذ؛ منها جميلة، وتُقسم جميلة إلى فروع منها الشِّمْلان، وتُقسم الشملان إلى عشائر أكبرها وأشهرها آل الصباح.

أمَّا الكويت، فتاريخها القديم غامض مجهول، وقد لا يكون لها ما يهم منه قبل أن هجر إليها آل الصباح قادمين من خيبر منذ نحو مائتين وأربعين سنة. والكويت تصغير كوت، والكوت في اصطلاح أهل تلك النواحي هو بيت محاط ببيوت صغيرة. كانت هذه الناحية يومئذٍ لبني خالد يجمعون فيها زادهم إذا ربعوا في

[١] للشيخ يوسف آل عيسى وللسيد عبد الرحمن النقيب من الكويت الفضلُ عليَّ ببعض المعلومات في هذا الفصل والفصل الذي يليه.

الحُجرة، فجاء آل الصباح وسكنوها بإذنٍ منهم.

ثم انتُخِب الصباح حاكمًا على العشائر فيها، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة؛ لأن المرجَّح هو أنه تُوفِّي سنة ١١٩٠، فخلفه ابنه عبد الله الذي تُوفِّي سنة ١٢٢٩هـ.

كان الشيخ عبد الله الصباح أولَ مَن حكم الكويت من هذا البيت، حكمها نحو أربعين سنة، فاتسعت في عهده وشاع ذِكْرها في الخليج، ثم خلفه ابنه جابر عام ١٢٢٩هـ، وخلف جابرًا ابنه الصباح عام ١٢٧٦هـ.

أمَّا نوع الحكم فقد كان قبل الصباح الثاني بن جابر شوريًّا، يشترك فيه رؤساء العشائر، فلا يُقدِم الحاكم على أمرٍ مهم قبل أن يستشيرهم وهم يستشيرون الجماعات. ولكن هذه الشورى بدأت تضعف في عهد الصباح الثاني حتى تقلَّص ظلُّها تمامًا في أيام ابنه مبارك الذي حكم بأمره؛ وخصوصًا في العقد الثاني من حكمه.

من أولاد الصباح الثاني ثلاثة تولَّوا الحكم بعده؛ الأول عبد الله الثاني الذي حكم ستًّا وعشرين سنة، ثم محمد الذي حكم أربع سنوات، ثم مبارك الذي استمرَّ حكمه إحدى وعشرين سنة. ولكن مباركًا، وهو على عسفه وشذوذه حاكم الكويت الأكبر، حاز قبل أن تولى الحكم شهرةً في القيادة تقدَّمت شهرته السياسية.

ففي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م حدث شقاق بين ابنَيْ فيصل آل سعود عمَّي السلطان عبد العزيز، ففاوَضَ أحدهما الدولةَ العثمانية بوساطة واليها في بغداد يومئذٍ مدحت باشا، فاغتنم مدحت الفرصة وأرسل جيشًا إلى القطيف ففتحها، ثم إلى الأحساء فحاصَرَها واستولى بعدئذٍ عليها.

وقد كان لمشايخ الكويت الفضْلُ الأكبر في فتح الأحساء، فقاد الشيخ مبارك، الذي كان يومئذٍ في ريعان الشباب، جيشًا كبيرًا من العشائر في طريق البر، مرافقًا للقائد العثماني بحرًا. وفي ذاك الحين إلى حين الفاجعة التي أولت مباركًا الحكم، كانت العلائق بين حكام الكويت والدولة العثمانية شبيهةً بغيرها مع العشائر الموالية لها، فقبلت بأن يكون لها سيادة اسمية في الكويت، وأن يعترف آل الصباح بهذه السيادة.

بعد وفاة الشيخ عبد الله تولَّى الحكمَ أخوه محمد، وكان مبارك وأخوه جراح طامعَيْن به. على أن جراحًا والى محمدًا، وكان فعلًا لا اسمًا شريكه في الحكم، فاشتدت المنافسة بين مبارك وأخوَيْه، وكان لها من غير السياسة أسباب أخرى. أمَّا مبارك فقد كان — ولا شك — أبعدَ الأخوَيْن طموحًا، وأشدهما عزمًا، وأحدَّهما طبعًا، وأمضاهما بأسًا، بيْدَ أنه كان متهوسًا متسرعًا في أعماله. وكان جراح صاحب النفوذ الأكبر في الحكم يحب المال بقدر ما يحب مبارك المجدَ والشُّهرة، بل كان الأول بخيلًا والثاني مبذرًا. إلا أن النفوذ الأكبر في العشائر كان لمبارك، فنزع إلى الغزوات، فغدا في حاجةٍ إلى المال دائمة. وكان أخواه محمد وجراح ينعيان عليه دائمًا آراءَه وأعماله، ويُسِيئان معاملتَه، وأحيانًا يُمسِكان عنه ما تقتضيه نفقاته الخصوصية، فصبر مبارك بضعَ

سنين على هذه المعامَلة وأبى أن يصبر على الدوام، وكان يرى فوق ذلك أن أخوَيْه هما عثرةٌ في سبيل المجد الذي يبغيه لآل الصباح وللكويت. فعندما فرغت كأس الصبر، وامتلأت كأس التغيُّظ والنقمة، عزم على أن يريح نفسه وآل الصباح والكويت من ذَيْنك الأخوَيْن، فنهض ذات ليلة للأمر ونهض معه ابنه، وكلٌّ منهما يحمل بندقيته، فقتل مبارك أخاه محمدًا وقتل ابن مبارك عمَّه جراحًا، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣١٣هـ.

ضجَّت الكويت لهذه الفاجعة، ثم أذعنت للشيخ مبارك صاحب الحكم فيها. أذعنت الكويت إلا أبناء القتيلَيْن وأشياعهم ورجلًا آخَر سيجيء ذِكره. فرَّ أبناء جراح ومحمد هاربَيْن إلى البصرة، فشكَوَا أمرهما إلى واليها الفريق حمدي باشا، وكان يومئذٍ رجب باشا والي بغداد، فسبق مبارك أبناء أخوَيْه إلى ذاك المقام الأعلى، فتمكَّن بوساطة بعض رجاله من استمالته إليه، فكتب رجب إلى الآستانة يقول: إن الحادث هو من الحوادث العادية المألوفة بين البدو، وخير للدولة ألَّا تتدخَّل في الأمر؛ لأن ذلك يؤدي إلى تدخُّل الإنكليز.

ولكن الإنكليز لم ينتظروا أحدًا ليتقدَّمهم في عملٍ هم دائمًا متأهِّبون له، فكان أن أبناء جراح ومحمد قد لجئوا أيضًا إلى قنصل بريطانيا في البصرة، فنصرهم على مبارك، وسعى في سبيلهم وسبيل السياسة الإنكليزية في الخليج سعيًا ملحاحًا أثمر ذاك الأمرَ النهائي الذي أصدرته الدولة العلية، فخُيِّر ابن صباح الكبير بواحدٍ من ثلاثة أمور: إمَّا أن يحضر إلى الآستانة فيُعيِّنه المابين عضوًا في مجلس شورى الدولة، وإمَّا أن يسافر إلى البلد الذي يريده فتخصُّه الحكومة بمعاش دائم، وإمَّا القوة فتستخدمها عليه إذا رفض أن يعمل بأحدِ الأمرَيْن. مما لا ريب فيه أن الدولة العلية أصدرتْ هذا الحكم إرضاءً لبريطانيا، ومما هو في دائرة اليقين أيضًا أن الشيخ مبارك كان قد بدأ يُفاوِض رئيس الخليج الوكيل السياسي لبريطانيا في بوشهر، فسمع هذا قصته وشكواه متجاهلًا ما كان من زميله في البصرة.

إنها لرواية مُحزِنة مُضحِكة معًا. لجأ أولاد القتيلَيْن أولًا إلى حمدي باشا والي البصرة، فلجأ القاتل إلى رجب باشا والي بغداد، ثم لجأ طالِبو الثأر إلى قنصل بريطانيا في البصرة، فلجأ مبارك إلى وكيلها السياسي على شاطئ العجم، وكانت بريطانيا تمثِّل بوساطة ممثِّليها دورَيْن معًا، دور المدَّعي العمومي ودور محامي الدفاع.

ضغطت الدولة العثمانية على مبارك فطلب الحماية البريطانية دفاعًا عن نفسه، فلبَّتْ بريطانيا طلبه حبًّا وكرامة. لا تدع يُسراك تعلم بما تفعله يُمناك. عندما وصل المركب الحربي العثماني إلى الكويت يقلُّ نقيب البصرة وبعض موظفي الدولة وهم يحملون إلى الشيخ مبارك أمرَها العالي ويبغون تنفيذه، جاء مركب حربي آخَر ينقذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثماني من مياه الكويت.

أقف عند هذا الحد في المأساة لأعود إلى أولها. قلت: إن رجلًا آخر غير أبناء القتيلَيْن خرج على

الشيخ مبارك وقام ينصر أولادهما، هذا الرجل هو الشيخ يوسف آل إبراهيم من كبار تجار الكويت. قد كان يوسف بنفسه ثورةً، ودولةً، وحربًا على مبارك، استمرت عشر سنين، فوقف ثروتَه، ووقتَه، وحياتَه للأخذ بالثأر. أجل، قد كان هو الباذل للمال، وهو القائد للرجال، وهو رسولُ قضيته إلى الدولة العلية وإلى أمراء العرب.

أول ما باشَرَه حربًا هو أنه جهَّز أسطولًا من السفن المشحونة بالرجال المسلَّحين، وتولى قيادته في الهجوم بغتةً على الكويت، ولكن ليلة دنا من الأسكلة رآه أحد النوتيين، فحمل الخبر إلى الشيخ مبارك، فاستعدَّ لملاقاته وكانت المدينة معه، فلما علم يوسف بأن المدينة مستعِدَّة كذلك لمحارَبته قفل راجعًا، ولجأ بعد ذلك إلى الخدعة.

جاء ببعض قاطِعِي الطرق وأوعز إليهم أن يأخذوا سفينةً من أسطوله ويدخلوا بها الكويت، فيظنُّهم الشيخ مبارك من أعداء يوسف آل إبراهيم، فيقرِّبهم منه فيقتلوه. تمت المؤامرة على هذا الوجه، ودخل المتآمِرون الكويت بسفينة من سفن يوسف آل إبراهيم يدَّعون أنهم غنموها بالمحارَبة، فانطلَتِ الحيلةُ على الشيخ مبارك، فقرَّب الرجال منه وجعلهم من حرَسِه الخاص، لكن واحدًا منهم تاب إلى ربه وراح يُطلِع الشيخ مبارك على الدسيسة، فأمر الشيخ بالقبض على هؤلاء الرجال وبنفيهم من البلاد.

لجأ بعد ذلك يوسف آل إبراهيم إلى الدولة العلية، فسافر إلى الحجاز يستعين بشريف مكة، وكان في مَساعيه السياسية عونًا لسياسة إنكلترا في المسألة، أو بالأحرى كانت سياسة إنكلترا عونًا له. فصدر ذاك الأمر الذي حمل الشيخ مبارك على أن يطلب الحمايةَ البريطانية، فأُسقِط في يدِ ابنِ آلِ إبراهيم للمرة الثالثة.

ولكن الفشل وإنْ تعدَّد لم يكن ليثنيه عن قصده ومَرامه؛ فقد سعى لدى أمير الجبل الأمير عبد العزيز بن الرشيد فأغراه بعدوه في الكويت، فشنَّ ابن الرشيد الغارة على عشائرها، فبادَرَ الشيخ مبارك إلى الدفاع بما عنده من قوة. وكانت هذه فاتحة الخير لآل سعود الذين كانوا مُقِيمين يومئذٍ في الكويت، فتطوَّعوا في حرب أعدائهم بيت الرشيد. جهَّزَ الشيخ مبارك جيشًا أولًا لعبد العزيز سلطان نجد الحالي، ثم جيشًا آخَر بقيادة أخيه حمود بن الصباح، ثم خرج مبارك بنفسه يقود الجيش الثالث ومعه الإمام عبد الرحمن آل فيصل والد السلطان عبد العزيز، فالتقى الفريقان واحتربا احترابًا شديدًا في آخر ذي القعدة سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م في مكانٍ يُسمى الصريف، فقُتِل خلقٌ كثير من الفريقَيْن، وكان النصر لابن الرشيد.

بعد وقعة الصريف خرج ابن سعود عبد العزيز في نفر قليل من الرجال يبغي استرجاع الرياض عاصمةَ أجداده، التي كانت يومئذٍ في حوزة ابن الرشيد، فذبح عامِلَه فيها واستولى عليها. وكانت هذه الغزوة فاتحةَ غزواتٍ وحروب أدهشت العرب في شبه الجزيرة وخارجِها، فأُعجِب العدو والصديق بنبوغ ابن سعود، بشجاعته وإقدامه، وبحكمته وحِلمه.

وعندما بُشِّر مبارك بفتح الرياض خاف أن يعيد ابن الرشيد الكرَّة عليه، فبعث بنجدة إلى عبد العزيز الذي كان قد فاز أيضًا بنصرة أهل الرياض، فخرج منها بجيش كبير، وشرع يحارب ليسترجع مُلك أجداده، فقُتِل الأمير عبد العزيز الرشيد في وقعة «روضة مهنا» في سنة ١٣٢٤هـ[1]. وكان قد تُوفِّي في السنة السابقة؛ أيْ سنة ١٣٢٣هـ، الشيخ يوسف آل إبراهيم، فاستراح مبارك من عدويه، وأخذ نفوذُه يمتدُّ بعد ذلك إلى البادية ونجد.

كان الشيخ مبارك في سياسته مثله في حروبه مُوفَّقًا منتصرًا، فامتدَّ نفوذه إلى البصرة والمحمرة، وكانت كلمته مسموعةً في أبي شهر، على أنه مع تلك السياسة وذاك النفوذ لم يكن في أعماله شيءٌ يُذكر من النفع العام؛ فقد بنى مسجدًا واحدًا وقصورًا عديدة، ولكنه لم يهتم بالتعليم ولا ساعَدَ في بناء مدرسة. أضِفْ إلى ذلك أنه كان يُرهِق بالضرائب الرعيةَ والتجَّار.

أمَّا اتفاقه مع بريطانيا فخلاصتُه أن الشيخ مبارك تعهَّد بألَّا يكون للكويت علائقُ مع حكومةٍ أجنبية غيرها أية كانت، وهي تعهَّدت أن تحمي الكويت من كل اعتداءٍ خارجي من البحر وليس من البر، فلا تتدخَّل في شئون العشائر ورؤسائها.

وقد تبع هذا الاتفاق في آب ١٩١٣م اتفاقٌ بين الدولتَيْن البريطانية والعثمانية بخصوص الكويت وقَطَر والبحرين ومسقط وعمان، فتنازَلتِ الدولة العثمانية عن حقوقها في هذه الأساكل كلها، وأخذت الدولة البريطانية على عاتقها إنارة الخليج وخفارته. أمَّا الكويت فظلَّت علائقها مع إنكلترا على حالها حتى سنة ١٩٢٥، عندما تقرَّر أن يُحاكَم الأجانبُ فيها في دار الوكالة البريطانية.

تُوفِّي الشيخ مبارك في محرم سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م، فخلفه ابنه جابر الذي لم يحكم غير سنة وشهرين، وكان جابر كريم السجايا يحبُّه الناس؛ فقد ألغى من ضرائب أبيه المتعددة، التي يُستغرب مثلها حتى في أيام الحرب في تركيا، ما يتعلَّق منها بالأملاك؛ إذ إن مباركًا كان قد فرض ضريبتَين باهظتَين: الواحدة عن كل عقار يُباع وهو ثلث الثمن، والثانية عن كل عقار يُؤجَّر وهي ثُلث الأجرة. وكانت تُكرَّر الضريبتان على العقار كلَّ مرة يكون الإيجار أو البيع.

أما سالم الذي تولَّى الحكمَ بعد وفاة أخيه سنة ١٣٣٥هـ، وحكم مدة الحرب العظمى كلها، فقد اشتهرتْ ولايته بأمرَين؛ هما اتساع تجارة الكويت ونَكبة الجهرة. فجاء في الأول البرهان على مقدرته التجارية، وجاء في الثاني الدليل على ضَعْفه في السياسة.

أمَّا التجارة، فقد كان الشيخ سالم رغم الاتفاق بين إنكلترا والكويت، يسمح بدخول البضائع التي

---

[1] راجع تفاصيل هذه الوقعات في تاريخ نجد الحديث.

كانت تُصدَّر من بلاده إلى الأتراك في العراق وفي سوريا، فاتَّسعت لذلك التجارة برغم إرادة مأمور الحصار الذي عيَّنَتْه الحكومة البريطانية للمراقبة في الكويت، وبرغم المال الذي كانت تدفعه لرؤساء العشائر؛ مثل ضاري بن طواله وغيره، ليُصادِروا القوافلَ في البادية.

كان الشيخ سالم خشن البادرة، صعب المراس، متصلِّب الرأي، فلا ينتصح ولا يعتدل، وكان فوق ذلك سديدَ النزعة في الدين؛ أيْ إنه كان يكره الوهابيين والإخوان ولا يتَّقي. فأدَّت هذه الخصال فيه إلى خلافٍ بينه وبين سلطان نجد أدى إلى النكبة التي أشرتُ إليها. ذلك أن بضعة آلاف من الإخوان هجموا على الجهرة، فذبحوا مئات من أهلها وقُتِل منهم مئات، وحاصروا الشيخ سالمًا في قصره هناك، فلم يَنْجُ إلا بحيلة احتال عليهم بها.

تدخَّل الإنكليز فردُّوا الإخوان عن الكويت، ثم تدخَّل الشيخ خزعل فأرسَلَ أحد أنجاله مع الشيخ أحمد الجابر الذي انتُدِب ليُفاوِض السلطانَ عبد العزيز بالصُّلْح، فساعَدتْهم بالمفاوَضات الأقدار؛ إذ بينما كانوا في الرياض في شتاء ١٣٣٩هـ/١٩٢١م تُوفِّي الشيخ سالم، وانتُخِب الشيخ أحمد الجابر خلفًا له.

إن الوراثة أو الانتخاب في آل الصباح يكون غالبًا باتفاق بين الأسرة والحكومة البريطانية، على أن مباركًا رشَّحَ ابنه جابرًا لولاية العهد دون أن يستشيرَ الإنكليز. ثم تولَّى سالم الحكم؛ لأنه يلي جابرًا في السن، ولم يخلُ انتخابه من تدخُّل الوكيل السياسي ولو في سبيل التحقيق، فقد سأل أعضاء الأسرة والمتوجهين من الأهالي إذا كانوا راضين بالشيخ سالم فأجابوا بالإيجاب.

أما إذا كان تدخُّل الوكيل السياسي في الكويت لا يتجاوز المراقَبة والاستشارة، فهو في غيره من الأقطار العربية، كما سترى أيها القارئ في البحرين، يتجاوَزها، إذا اقتضت المصلحة، إلى ما فيه الأمر والإرهاب.

(٤) أمراء الكويت من آل الصباح

(١) الصباح الأول: حكم في القرن الثاني عشر للهجرة، والمرجَّح أنه تُوفِّي سنة ١١٩٠.

(٢) عبد الله الأول: تُوفِّي سنة ١٢٢٩هـ.

(٣) جابر بن عبد الله (جابر الأول): تولى الحكم سنة ١٢٢٩هـ.

(٤) الصباح بن جابر (الصباح الثاني): تولى الحكم سنة ١٢٧٦هـ.

(٥) عبد الله بن الصباح (عبد الله الثاني): تولى الحكم سنة ١٢٨٣هـ.

(٦) محمد بن الصباح: تولى الحكم سنة ١٣٠٩هـ.

(٧) مبارك بن الصباح: تولى الحكم سنة ١٣١٣هـ.

(٨) جابر بن مبارك (جابر الثاني): تولى الحكم سنة ١٣٣٤هـ.

(٩) سالم بن مبارك: تولى الحكم سنة ١٣٣٥هـ.

(١٠) أحمد بن جابر الحاكم الحالي: تولى الحكم سنة ١٣٣٩هـ[١].

(٥) مشكل الكويت

من رواق القصر نشرف من مشهد على مشاهد العمل في الكويت، فإن في ساحته الفسيحة المرتكز بها العَلَم الأحمر وقد كُتِب عليه «الكويت»، تجد دائمًا عددًا من الناس جالسين على الأرض حول شراع مبسوط، وغالبًا تجد ثلاثة أو أربعة أشرعة كبيرة وإلى كل منها عشرة ونيف من النوتيين يشتغلون فيها، يخيطون جديدًا أو يُصلِحون قديمًا منها. هو ذا معمل الشراع الذي يعيش في ظله أكثر أبناء الكويت.

ووراء الساحة إذا ما سرحنا النظر في السييف أمامنا نرى السفن والأدقال وقد اكتظَّ واشتبك بعضها ببعض، وفيها العمال يُصلِحون قويمًا أو يدقُّون[٢] سفينة جديدة. هناك مصنع السفن التي تبحر في الخليج وتوصل حبل التجارة بين الهند والعراق، وبين الأساكل العربية والفارسية، فترسو حيث لا تستطيع المراكب البخارية، وتحمل الصادرات والواردات من شاطئٍ إلى آخَر بأجور لا يستطيع البخار أن يجاري الشراعَ بها.

إن سفن الكويت مشهورة بحُسْن شكلها وجودة صُنْعها، وهي على أنواع؛ منها للعبور والتنزه، ومنها للحمولة، ومنها للغوص. الكبيرة مثل البوم والجلبوت تُصنع بالخشب المَقَلْفط[٣] المطلي بالقار، ثم تغشى بألواح من الساج، وتنقش عرشتها من الخارج نقشًا أنيقًا لطيفًا.

أما البوم، التي تُدعى أيضًا البغلة، فهي أكبر السفن وأجملها وأبعدها إبحارًا، فلا يقلُّ طولها عن الثلاثين ذراعًا، وعرضها الأعلى يتراوح بين الثمانية والعشرة الأذرع، ومحمولها مائتا طن، وهي تصل في أسفارها حتى إلى جزائر مدغسكر وزنجبار.

بيْدَ أن أكثر السفن والمراكب التي نراها في الكويت تُستخدَم لاستخراج اللؤلؤ في موسم الغوص، وللتجارة بين الهند والعراق، فتخرج من الكويت غالبًا فارغةً وتعود مَلْأى إليها؛ ذلك لأن الكويت مدينة من مدن اللؤلؤ على الخليج، وقلَّما يُقرَن اللؤلؤ بمصدرٍ آخَر من مصادر الثروة. هذا مالها تشتري به ما يلزمها من ضرورات المعيشة ونوافلها. ليس في بر الكويت غير المفالي، وليس فيها أو في جوارها شيءٌ يُذكَر من النخيل، فهي تضطر أن تجلب حتى التمر من البصرة ومن القطيف.

---

[١] أيْ ١٩٢١م.

[٢] دَقَّ السفينة: بناها في اصطلاحهم، أو استأجر مَن يبنيها.

[٣] قلفط السفينة أو جلفطها: هو أن يُدخِل بين مسامير الألواح وخروزها مشاقة الكتان، وقد غُمست بالزيت والقار.

ولكن عندها –كما قلت – اللؤلؤ الذي تَزِيد قيمته على قيمة ما تحتاج إليه من مأكول وملبوس، فتشتري بالزيادة للاتِّجار، وعندها السفن تحمل إلى تجَّارها ما يشاءون من البنادر القصِيَّة، فضلًا عن البواخر التي تجيئهم بالأحمال الكبيرة من الهند.

الكويت إذن مدينة تجارية، بل هي مثل جيزان أو ميدي على البحر الأحمر، وإن كانت تزيد عليها في عدد السكان عشرة أضعاف؛ إذ لا تقوم تجارتها أو تنمو بمَن فيها فقط، فلو اتَّكلت الكويت على سكانها وعلى العشائر في باديتها لَمَا كانت تجارتها ربع ما هي، أو بالحري ربع ما كانت. أمَّا السبب في سوء حالها في السنتَين الأخيرتَين[1] فإذا سألتَ عنه التجَّار هناك يجيبونك بكلمة واحدة: المُسابَلة.

وما هي المُسابَلة؟ سأكفيك مئونة التفتيش في القاموس فقد لا تجدها فيه. المسابلة هي أن يجيء العرب إلى المدينة فيسابلون تجارها؛ أيْ يشترون منهم نسيئة ما يحتاجون إليه من ملبوس ومأكول، وغالبًا يجيئون في الصيف فيشترون ما يلزمهم في فصل الشتاء كله، ويدفعون ثمنه بعد أن «يصلحوا» مواشيهم؛ أيْ يربعوها، ويستثمروها في أواخر الربيع.

أكثر مَن يجيئون الكويت للمُسابَلة هم من نجد من رعايا ابن سعود، يجيئونها ويفضِّلونها على البصرة والزبير لأسباب؛ أولًا: لأنها أقرب، ثانيًا: لأنهم يجدون في أسواقها دائمًا ما يحتاجون إليه، ثالثًا: لأن تجَّارها يتساهلون معهم فلا يتقاضونهم دفْعَ ما عليهم، ولو مرَّ على الدَّيْن سنتان وثلاث. وهم مع ذلك قلَّما يخسرون.

وأية ضمانة يقدِّمها البدوي للتاجر؟ قَسَمه بالله. فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت، وليس معه غير جمله، يجيء به إلى التاجر قائلًا: هذا حلالك. وإذا مات الأعرابي قبل أن يَفِي ما عليه، وكان قد نما ماله؛ أيْ مواشيه، يجيء أحد أبنائه أو أنسبائه بما يكفي منها لتسديد الدَّين أو بعضه، فيقدِّمه للتاجر قائلًا: هذا حلالك من فلان. ترحَّم عليه. هي ذِمَّة الأعرابي!

إن رغبةَ تجار الكويت في المُسابَلة إذن لمثل رغبة أهل نجد، وهم يستطيعون أن يتساهلوا بدفع المال أكثر من سِواهم؛ لأن رأسمالهم أكبر بسبب مدخول الكويت الآخَر من تجارة اللؤلؤ.

هذه هي إحدى وجهات المسابَلة، وهناك أخرى هي وجهة السلطان عبد العزيز. إن لسلطنة نجد جمارك ثلاثة في العقير والقطيف والجبيل؛ فهو لذلك يفضِّل أن يجلب أهلُ نجد بضائعَهم من إحدى هذه الأساكل النجدية في الأحساء، أو أن يسابلوا فيها؛ خصوصًا في القطيف. على أنه ليس في القطيف تجَّار

---

[1] كانت الواردات والصادرات في السنين الماضية تتراوح بين الخمسمائة والستمائة ألف روبية كل سنة، أمَّا في السنتَين الأخيرتَين فهي تُقدَّر بثلاثمائة ألف روبية سنويًّا.

ذوو يسار فيستطيعون أن يعاملوا النجدي كما يعامله تاجر الكويت، والسلطان عبد العزيز يدرك ذلك.

ومع ذلك فقد نهى رعاياه منذ سنتين عن المسابَلة في الكويت فانتهوا، فتأثَّر التجَّار من ذلك، وشرع الشيخ أحمد يُفاوِض في القضية الرياض. أمَّا موقف عظمة السلطان فهو أن رعاياه يشترون من الكويت ويعودون بما يشترون إلى نجد دون أن يدفعوا عليه رسمًا، فكأنهم بهذه الطريقة يهرِّبون البضائع ليتخلَّصوا من دفع الرسوم الجمركية، وبما أنه لا يستطيع أن يؤسِّس الجمارك في البادية على حدودِ نجد والكويت المترامية الأطراف، وبما أن لسلطنة نجد موانئ فيها جمارك، فقد أصدَرَ أمرَه أن تكون المسابلة في إحداها.

ولكن هناك وجهة أخرى لهذه القضية، وهي وجهة أهل نجد، وخصوصًا البدو الذين لا يستطيعون أن يدفعوا نقدًا ثمنَ ما يشترون، هي الحال غالبًا إذا جاءوا القطيف للمسابلة؛ فهم مثل التجار متأثِّرون، وبما أن السلطان عبد العزيز يهتم بشئون البدو اهتمامًا خاصًّا ويكره الجورَ والإرهاق، فقد اقترح إكرامًا للفريقَيْن المسابلَيْن؛ النجديِّين والكويتيِّين، أن يُعيِّن في الكويت وكلاءَ له يجمعون رسمًا على كل ما يشتريه أهل نجد، فيدفعوه قبل أن يُخرِجوا البضائعَ من المدينة، وطلب أن يكون هذا الرسْمُ سبعةً بالمائة، فرفض الشيخ أحمد الطلبَ محتجًّا بحق السيادة لقطر الكويت المستقل، فمثل هذا العمل مجحف بها، ولا يكون إلا إذا أُكرِهت الكويت عليه، فيُعَد إذ ذاك ضَرْبًا من الاحتلال. هو مُصِيب في احتجاجه، ولحُسْن الحظ أن السلطان عبد العزيز والشيخ أحمد متحابَّان، فلا يتخذ الواحد منهما خطةً تؤدي إلى تراخي العلائق الودية وانقطاعها.

لذلك بعث السلطان إلى الشيخ يقول: نحن لا نقيم أحدًا من قِبَلنا عندكم، ولكنَّا نُوكِلكم في الأمر، فتُعيِّنون من قِبَلكم مَن يجمع الرَّسْم المطلوب من أهل نجد المسابلين، فترسلونه إلينا كلَّ ثلاثة أشهر، أو كلَّ ستة أشهر، أو كلَّ سنة كما تشاءون. ولكن الأكثرية في آل صباح لا يقبلون حتى بمثل هذه التسوية؛ لأنهم كما قال أحدهم ليسوا جُباةَ خَراجٍ لسلطان نجد.

كانت المفاوَضات قد وصلت إلى هذا الحد عندما وصلتُ إلى الكويت، وكان الشيخ أحمد على شيءٍ من القلق لتعقُّد القضية ثانيةً بينا هو يُعالِجها بالتؤدة والحكمة. فخطر لي بعد أن مررتُ بِقسمٍ من الأرض في تلك النواحي، وعرفت الحقيقةَ الأولى التي تتعلَّق بالأسفار هناك، وبعد أن درستُ المسألةَ ورأيت أن ما يطلبه السلطان عبد العزيز من حكومة الكويت هو في الحقيقة مُجحِف باستقلالها؛ أن أكتبَ إليه كتابًا أقترح فيه حلًّا للمشكل قد يُرضِي الطرفَيْن.

أما الحقيقة التي تتعلَّق بالأسفار، والتي لا يُنكِرها العارفون بتلك البلاد، فهي أن القوافل الخارجة من الكويت لا تسير إلا في طريقٍ معلومة، غربًا كانت أم جنوبًا، فتمر بماء معلوم لتستقيَ قبل أن تدخل المفازات، فإما أن تسير عن طريق الجهرة — مثلًا — إذا كانت مسافرة إلى القصيم، وإما عن طريق الصبيحية إذا كانت وجهتُها الحسا. وهناك طريقٌ أخرى تمرُّ بخبرةِ الدويش. إن حدود الكويت ونجد تنتهي إلى هذه

الأماكن الثلاثة أو في جوارها.

فكتبتُ إلى السلطان أُفصِحُ عن رأيي في المسألة، واقترحت عليه، حبًّا بحفظ الصداقة بينه وبين آل الصباح، أن يُقِيم ثلاثَ نقطٍ جمركية في الأماكن المذكورة أعلاه، فيتمكّن من تحصيل الرسوم على البضاعة التي تدخل من الكويت إلى سلطنة نجد. إن هذا العمل لا يكلِّف غيرَ الخِيامِ ورواتبِ ستة موظَّفين وبعض النجابة.

ويظهر أن المسألة دخلتْ بعدئذٍ في طور جديد؛ لأن الشيخ أحمد، باتفاقٍ مع الأهالي، بعث ابنَ عمه الشيخ عبد الله السالم إلى السلطان عبد العزيز يحمل منه كتابًا يُفصِح عن خالص الولاء والإكرام، ومعه هدايا كبيرة من الأرز والسكر والبن، فخرج السلطان بحاشيته لاستقبال الشيخ عبد الله خارج الرياض، وأركَبَه معه في السيارة وأنزلَه في القصر ضيفًا كريمًا مُبجَّلًا، فأقام هناك بضعة أيام وعاد إلى الكويت مسرورًا جدًّا، يحمل الهدايا الثمينة وشيئًا مما اشتهر به عظمة السلطان من تلك الصراحة المقرونة باللطف والإكرام.

وقد جاءني من عظمته كتابٌ يقول فيه جوابًا على اقتراحي: أمَّا مسألتُنا مع الكويت فهذه تُحلُّ قريبًا حسب رغائب الجميع، وعلى أحسنِ ما يكون إن شاء الله.

(٦) الشيخ أحمد الجابر آل الصباح

الشيخ أحمد رجل مُسالِمٌ ليِّنُ الجانب، دَمِث الخُلق، ولكنه في لِينه، بل في المعروف والحسنى، يصل إلى حدٍّ يُساء في الحاكم فَهْمُه؛ فهو إذا مال إلى السِّلم والولاء، أو إلى المهاوَدة والوفاق، لا يشفع ميله بتلك الكلمة التي فيها العزم الرابض أو القوة المدَّخرة. وقد يألف العزْمُ الربوضَ فيتعثَّر إنهاضه، وقد تَهِنُ القوةُ من الادِّخار الدائم. الحكيم مَن مرَّن قُواه كلها حتى الحيوانية المحضة، واستخدمها من حين إلى حين.

الشيخ أحمد مثل الشيخ خزعل ومثل الملك فيصل، مُعجَب بالمدنيَّة الغربية وبرجالها، وهو من أمراء العرب الذين لبُّوا دعوةَ الملك جورج الخامس بعد الحرب العظمى ليزوروا إنكلترا، فنزل ضيفًا على الحكومة، وساح في تلك البلاد، وشاهَد من مظاهر الرقي والعمران المادية والمعنوية، من مناجم الفحم إلى المتحف البريطاني، ما لا يزال يلهج بذِكْره ويود لو كان للعرب جزءٌ يسير منه. ولو لم يكن حاكم الكويت، وكانت تلك الرحلة دليله الوحيد إلى المدنيَّة الغربية؛ لَأخَذ منه الإعجابُ كلَّ مَأْخذ فتَغِيب عنه الحقيقة كلها أو القسم الأهم فيها.

ولكنه، وهو حاكم عربي، يشاهد أحيانًا في رجال تلك المدنية؛ خصوصًا رجال الحكومة منهم، ما لا تجيزه أحكامها ولا تبرِّره دائمًا مبادئها، فالوكيل السياسي البريطاني مثلًا صاحبُ مصلحة مثل غيره من الناس، شرقيين كانوا أو غربيين، هو لا يختلف عنهم بغير الواسطة، والأسلوب، والعدة العقلية أو المادية،

ومتى كان قريبًا من أمير عربي، وله بالدنو منه ومن شئونه بعضُ الحق، يود الأمير أحيانًا لو لم يكن الرجل متمدنًا، أو من أمة متمدنة فيعامله إذ ذاك كما يعامل البدو؛ بالحسنى أولًا وإلا فالصميل.

الشيخ أحمد الجابر آل الصباح يداري الإنكليز ولا يملِّكهم منه، يَلِين لوكيل بريطانيا في الكويت ولا ينكسر، قد يستشيره ويقبل رأيَه فيما يراه نافعًا لبلاده أو معزِّزًا لسياسته، ولكنه لا يأتمر بأمره. مثال ذلك أن حكومة بريطانيا رغبت إلى الشيخ أحمد أن يمنحَ شركةَ الزيت في عبَّادان امتيازًا في الكويت فأبى ذلك؛ لأنه يفضِّل أن يمنحَ الامتيازَ شركةً أخرى بريطانية مستقلة عن الحكومة ولا دخْلَ لها بالسياسة، وشروطُها أحسنُ من شروط شركة عبَّادان.

وهو في سلوكه مع رعاياه وأسرته مثله في سلوكه مع الإنكليز، يستشيرهم ويتفاوض معهم، ولا يتبع دائمًا الرأي العام. ولكنه لا يزيف ما لا يريد ولا ينعي على الناس آراءهم. لكلِّ كلامٍ مَقام؛ أيْ إن حكمة كل يوم هي حكمته، وكثيرًا ما يكون الرجل العادي في كرسي الحكم أنفعَ لأمته وبلاده من الرجل الشاذ الشديد المراس.

لا يُنتظر من الشيخ أحمد، وخصوصًا في هذه الأيام، أن يخرج بعشائره فيحارب مثل جده مبارك أمراء العرب، ويدخل البلدان فاتحًا منصورًا، وإليك الأسباب؛ أولًا: لأن الشيخ أحمد وإن كان يحمل السيف، هو أميلُ إلى اليَرَاع، وأحب شيء إليه السلم والآداب. ثانيًا: لأن عشائره وهي قليلة لا تمكِّنه لو قال السيف من أن يقول كذلك النصر. قد تلبِّيه فتُغلَب فتنقلب عليه. ثالثًا: لأن الأحوال اليومَ هي غيرها منذ خمس عشرة سنة؛ فالكويت التي لعبت بولاة لدولة في الشمال، وحارَبت أمراء العرب ومشايخ القبائل في القصيم والأحساء، أصبحت اليومَ بين أمتَيْن متَّحدتَيْن، وقوتَيْن قاهرتَيْن، وحكومتَيْن طامعتَيْن بالاستيلاء. إن الكويت بين نجد والعراق لمثل فتاةٍ بين عاشِقَين، وكلاهما يبغيها.

حدَّثني أحد رجال الحكومة في بغداد قال: الكويت جزء من العراق، وأهلها يفضِّلون الانضمامَ إلينا. أراد بذلك أن الكويت تفضِّل العراق على نجد إذا كان من ضمٍّ وانضمام. وإن لم يكن الشيخ أحمد كما وصفت، لكان ظفر أصحاب الدسائس بما يبغون؛ لأن الذين يغرون العشائرَ خارج هذا القُطْر فيهجمون عليه أو على عشائره، لا يَرُومون من ذلك غير ذاك الحادث الذي قد يكون فيه خاتمة استقلال الكويت الإداري.

والشيخ أحمد مُدرِكٌ ذلك، فلا يذهب مع التيار ولا يستسلم إلى الهياج العام، فهو إذا هجمتْ عربان نجد أو العراق على عشيرة من عشائر الكويت أو على المدينة، وقام الأهالي يستنفرون بعضهم بعضًا، تسلَّح بالحكمة والعزم في وجههم فيصدُّهم ويسكِّن روعَهم؛ مثال ذلك هجوم ابن حَثلين شيخ مشايخ العجمان في هذه السنة، فبادَرَ أهل الكويت إلى السلاح، فصدَّهم الشيخُ أحمد وردعهم قائلًا: لنفاوض أولًا ابن سعود،

صديقنا، والذي أظنُّه أنه غير راضٍ عن هذا الاعتداء. فأذعن الناس له وفاوَضَ السلطان عبد العزيز، فجاء منه الجواب يقول: إنه متأسف جدًّا لما حدث، وأنه مستعِدٌّ أن يعوِّضَ على الكويت كل ضرر.

قد يختلف الناس في هذه الخطة السياسية؛ خطة اللِّين والمسالمة، وفي الكويت مَن لا يستحسنها، بيْدَ أنهم يتيقنون إذا ما أدركوا سياسةَ سلفِ الشيخ أحمد ونكبة الجهرة، أن في دار الحكم اليومَ رجلًا أقلُّ ما يقال فيه إنه محافظ على سلامة الكويت واستقلالها.

ومهما كان من أمر الكويت ومشاكلها التجارية والسياسية، فإن فيها غير التجارة ثروة، وغير اللؤلؤ كنزًا؛ فيها ذكاءٌ وجرأة وأدب شاهدتُ منه نماذجَ جميلة في الحفلات التي أُقِيمت هناك وفي المجالس.

ومهما كان من منزلة الشيخ أحمد في السياسة، فإنه في المساعي الثقافية مذكور وإن لم يكن من الجميع مشكورًا، وسيُعرَف عهده بعهد النهضة الثقافية التي تشرف العاملين في سبيلها. أجل، إن في الكويت نهضةً لها ركنان؛ المكتبة الأهلية هناك، والمدارس النهارية والليلية، وهي تتغذَّى فوق ذلك بما تُثمِر العلوم والآداب العصرية في سوريا ومصر، ثم تبثُّ روحها في الربوع التي لا تصل إليها الجريدة والمجلة، ولا ينفع فيها الكتاب؛ لأن ليس فيها اليومَ مدارس.

أجل، كما أن سفن الكويت الشراعية تصل إلى الأساكل التي لا تدنو منها البواخر الكبيرة، فكذلك أدباء الكويت في اختلاطهم مع البدو وأسفارهم في داخل البلاد العربية، يستطيعون أن ينشروا روحَ العلم والتهذيب، وروحَ القومية السليمة، في العشائر والبوادي، وفي المدن الكبيرة وراء الدهناء والنفود.

الشيخ خزعل خان



سمو السردار الشيخ خزعل خان

(١) عربستان (مقاطَعة في إيران)

- **حـدودها**: غربًا المملكة العراقية وشط العرب، شمالًا مقاطَعة بوروجيرد وغولبكيان، شرقًا الحدود الأصفهانية، وجنوبًا الخليج العربي.
- **عدد سكانها**: نحو من نصف مليون نفس، نصفهم عرب والنصف الآخَر فارسي.
- **أهم قبائلها**: الحاسبي الكعبي المحيسني والعامري – والعوامر يدَّعون أنهم من نجد.
- **أهم بلدانها**: عبَّدان والمحمَّرة.
- **مذاهبها**: الشيعة.

(٢) الشيخ خزعل

هو سمو السردار أقدس، معز السلطنة، الشيخ خزعل خان بن نصرت الملك الحاج جابر خان الحاسبي المحيسني الكعبي العامري، أمير نويان وسردار عربستان، ومؤلِّف كتاب الرياض الخزعلية في السياسة الإنسانية. قلَّ مَن لا يعرفه من قرَّاء الصحف العربية باسمه ولقبه الأوَّلين في الأقل، فهو من أمراء العرب وإن كانت إمارته داخلةً في سيادة الدولة الإيرانية، بل هو أكبرهم بعد الملك حسين سنًّا، وأسبقهم إلى الشهرة، ومن أعظمهم في الكرم. هذا ما يعرفه أكثر العارفين بالبلاد العربية.

أما ما يجهله أكثر الناس خارج الكويت والبصرة، فهو أن هذا الأمير العربي من طراز أمراء عهد العباسيين؛ أعني بذلك أنه غني حكيم كريم معًا، فهو برمكي في كرمه، وفي ذوقه، وفي أدبه، يحبُّ اللهوَ والغناء حبَّه الأدب والشعراء، بل يميل إلى كل ما فيه شيء من أسباب السرور كلها؛ العقلية والاجتماعية والجسدية. وإن كلمةً قالها معاوية: الدنيا بحذافيرها، الخفض والدعة. لَتَصحُّ أن تكون من كلماته.

أجل، إن للشيخ خزعل ذوقًا إنسانيًّا شاملًا، فلا ينفر من غير القبيح والذميم في الحياة، ولا يعرف في مكارمه التفضيل والتمييز. تجيء المغنية من حلب أو من دمشق إلى المحمَّرة وهي لا تملك غير خلخالها، فتُقيم عدة أشهر في القصر وتعود غنيةً مُثقَلةً بالحلي؛ ويجيء الشعراء وفي جيوبهم قصائدُ المديح، فيعودون من المحمَّرة وفي جيوبهم أكياس من المال؛ ويجيء حَبْر من أحبار المسيحيين فينزل على سمو السردار ضيفًا كريمًا محترمًا، ويعود مصحوبًا بالهدايا الثمينة؛ ثم يجيء المبشِّر بالماسونية فيحلُّ محلَّ الأسقف في القصر الخزعلي، ويعود بعد إقامةٍ سعيدة كما عاد المحترَم قبله.

إن من أجمل أزاهر الكرم في هذا العربي تساهُله وهو شيعي المذهب، فهو يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان، ويساعد في تأسيس محفل للماسون، ويفتح خزانته لراقصة أو مغنية كما يفتحها لأُولي البر والإحسان من الطوائف كلها جمعاء. وهو على مقامه، بل بالرغم من مقامه، يميل دائمًا إلى ما فيه لهو أو تسلية أو فكاهة، فإذا ما انتابه الضجر في القصر، وكان قصر الضيافة فارغًا، ولم يكن ليرغب في زيارة البصرة ليشرف طاولة «البوكر» فيها، ينادي أولاده قائلًا: يا ولد الخير، تعالَوا، أَلَا تلعبون؟ فيجيء السردار أرفع، أو السردار أجل، أو السردار جاسم، أو نصرت الملك، أو كلهم أجمعون، فيجلسون مع عظمة الوالد إلى تلك الطاولة الخضراء العزيزة الشأن حتى في المحمرة والبصرة.

والشيخ خزعل من أمراء العرب المحافظين على تقاليد الأجداد في التعريس، ولا سيما أن شريعة المتعة عند الشيعة تساعده في ذلك؛ فقد قيل لي إن له أكثر من ستين امرأة، وإنه قلَّما يعرف أولادَهن. كثيرًا ما يجيئه أحد أولئك الصغار فيسأله قائلًا: ومَن هي أمُّك يا وليد؟ ثم إذا ناوَأه أحد مشايخ القبائل وهمَّ بالخروج عليه، وكانت له بنتٌ صالحة للنكاح، يزوره السردار أقدس ويشرفه بالمصاهَرة، فتخمد فيه في الحال جذوة

التمرُّد والعصيان. سألت عن سمو الشيخ وأنا في البصرة فقيل لي هو متغيّب اليوم. فقلت: وأين هو؟ فقال محدثي: راح يتزوَّج! وهو لا يزال على سنه التي تتجاوز الستين أهلًا لمثل هذه المهمات.

جاء في الكامل للمبرد أنَّ أنعم الناس عيشًا مَن عاش غيره في عيشه، ولا أظن الشيخ خزعل يحتاج إلى شهادة المبرد وشهادتي في أنه يعتقد هذه الحكمة ويعمل بها؛ فهو إذا لبس ثوبه الرسمي يحمل على صدره شهادات من ملوك الأرض، وفيها وسام القديس غريغوريوس من البابا بناديكتوس الخامس عشر، وبين تلك الأوسمة والنياشين كلها وسامان لا يراهما كل الناس، بل لا يراهما غير مَن نظر إلى هذا الرجل بعين الشعر والفلسفة؛ فهو في صفته الإنسانية يحمل وسامًا من الفيلسوف الإغريقي أبيقور، وآخَر من الحكيم الإلهي الصوفي محيي الدين بن العربي.

أَدِيــنُ بــدِين الحـبِّ كيـف توجَّهـتْ رَكائِبُـه فالحـبُّ دِيـني وإيمـاني[1]

هو ذا الأمير العربي الذي كنت متردّدًا في زيارته بالمحمرة. وقد تردَّدت لسببين؛ أولهما: لأن المتأدبين يؤمُّون تلك السدة الشريفة، وفي جيوبهم قصائد المديح الطنَّانة، ولست لسوء الحظ ممَّن يُحسِنون النَّظْم ولا المديح الرسمي. وثانيهما: أنه حاكم بلادٍ أطلق عليها العرب في الماضي اسم الأهواز، وهي اليوم عربستان من أعمال فارس. على أن رغبتي في الاجتماع بأميرٍ عرفت من أخباره أنه فيلسوف الأمراء، بل فيلسوف الحياة العملية، كادت تتغلَّب على أسباب التردُّد كلها، فوطَّنتُ النفس على أن أعرج على المحمرة في عودتي إلى البصرة، ولكن تقادير الخير أمرَضَتْني فجمعتني بالدكتور ريحان الذي بشَّرني بوجود سمو الشيخ في الكويت[2].

بادَرتُ إلى القلم والورق أكتب إليه كلمةً أستأذنه بالزيارة، فوقف القلم في رأس الصفحة البيضاء جامحًا. كيف أحيي هذا الأمير وهو كثير الألقاب والرُّتَب والأوسمة؟ بل كيف أحيي مَن يتحدَّث الناس من عرب وعجم وإفرنج عن مكارم أخلاقه وغرر أياديه؟ هل أحذو حذو الأدباء فأنظم الأسجاع، فيمَن كَرَمُه

---

[1] جاء خطأً في الطبعة الأولى أن هذا البيت للشريف الرضي، وكنت قد نقلت في الجزء الأول بيتًا مغلوطًا فيه، فصحَّح العالِم النجفي البيتَيْن باللهجة التي صحَّح بها ما كتبتُه عن صاحب الزمان (راجع الجزء الأول [حكم الإمام]). قال– نفعنا بعلمه وتسخطه: «لعل السائح العربي لما أحسَّ بجنايته على الشريف الرضي ما رضي إلا أن يتداركها، فنسب إليه في مقام آخَر شعرًا ليس هو من شعره، فصارت الجناية باثنتَين والسيئة سيئة بسيئتَين.» فهل تظن أن الشريف الرضي يرضى، من الوجهة البيانية، بأن تجيء السيئة بعد الجناية؟ وهلا تظنه يعفو، من الوجهة الأخلاقية، عن الجاني عليه إذا كان ذلك في سبيل الحب؟ وإني في هذا السبيل كذلك أشكر للعالم النجفي اهتمامه بكتاب «الملوك» وبصاحبه.

[2] كان الشيخ مبارك آل الصباح والشيخ خزعل صديقَين حميمَين يتزاوران دائمًا فتوفَّقَا إلى فكرةٍ جميلة يخلِّدان بها تلك الصداقة الجميلة، فبنى الشيخ خزعل للشيخ مبارك قصرًا في المحمرة، وبنى الشيخ مبارك للشيخ خزعل قصرًا في الكويت، ولكنه كان إلى جانب قصره في المدينة، فبنى بعدئذٍ الشيخ خزعل قصرًا خارج السور يقيم فيه بعض أَشهُر الشتاء. وهنالك اليوم قصر الشيخ أحمد آل الصباح مجهَّز بالكهرباء والتلفون، ومفروش بالفاخر من الرياش.

كالمِسْك ضواع، ومتفق عليه بالإجماع؟ قد يظنها قصيدة مدح مني فيعامِلني بما يوجبه شرع المحمرة؛ لذلك طرحت الرسميات جانبًا وكتبتُ إلى مولاي الشيخ خزعل كلمةَ سلامٍ مقرون بالإجلال والإكرام، فجاءني منه الجواب الآتي:

أسعد الله أوقاتك.

أيها الفيلسوف المكرم، حيَّاك الله وأبقاك، وحفظك ونجَّاك، وإني مشتاق إلى لُقْياك. فيجب أن أزورك قبل أن تزورني؛ لأن لكل قادمٍ حقَّ الزيارة، وقد سبقتني بالجميل في كتابك الكريم، فأشكر ذاك الذوق السليم، وإني صباحًا إن شاء الله أزورك في محل الجميع وأحظى بنور تلك الطلعة. وأختم كتابي بالدعاء لكم بالتوفيق. والسلام عليكم.

المحب لكم

خزعل

وكان اجتماعنا الأول في «محل الجميع»؛ أيْ عند سمو الشيخ أحمد في الجناح الجنوبي من القصر في القاعة المفروشة بالفرش الأوروبي.

الشيخ خزعل في العقد السادس من العمر، وهو بالرغم عن الطبيبين في معيته، على جانبٍ متين من الصحة والعافية، إلا أنه كان يشكو يومئذٍ من أسنانه ومن الطبيبين معًا.

— سمعت الناس يشكرون أطباء الأسنان في أميركا، وقد قال لنا أحد أفاضل الأميركيين إن أطباء الأسنان هناك وباعة الخيل وسماسرة البورص من طبقة واحدة. فلم نفهم كلامَه فهل لك أن تشرحه لنا؟

فقلت: أما باعة الخيل، فالمشهور من أمرهم هو أنهم مثل مَن يبيعون المعاليق في حماة فينفخونها قبل أن يَزِنوها.

أمَّا سماسرة البورص فلهم في أميركا اسمٌ آخَر أظنُّ فيه الشرح الذي تبغيه؛ فهم كما يَدعونهم هناك أصحاب الدلو الفارغ؛ أيْ إنهم يتاجرون بلا شيء، بالهواء، فيبيعون زبائنهم ما لا يملكون من الأسهم، وكذلك الزبائن يبيعون ويشترون. هو ضرب من لعب القمار، يكثر فيه ما هو محض سرٍّ من الأسرار.

— وأين وجه الشبه بينهم وبين طبيب الأسنان؟

— وجه الشبه في المبدأ يا مولاي؛ المبدأ واحد هو الوَهْم، والاحتراف به هو الهواء في المعاليق، وهو الدلو الفارغ أو الهواء في الدلو. فإذا رحت إلى طبيب أسنان تشكو من وجع في ضرس واحد، يقول لك بعد الفحص إنك جبَّار لأنك لا تشكو إلا من ضرس واحد، وإن بقية أضراسك في حالةٍ مُفجِعة، فيُقنِعك بما أُوتِي من علمٍ أن معالجتها كلها لازمة ولو اقتضى ذلك شهرًا من العمل، وإلا فتُمسِي بعد أشهر وليس في

فمك سِن واحدة.

فقال الشيخ خزعل: قد أخطأ الأميركيون إذن! فلو كان هذا الرجل عندنا لَعددناه من النشَّالين! فضحك الشيخ أحمد وقال: ينشل ما في الفم وما في الكيس. فقال الشيخ خزعل: والحمد لله أن أطباءَنا سوريون.

قد كان في مَعِية سمو الشيخ طبيبٌ آخَر سوري هو الدكتور رامي، ولكنَّ الطبيبَيْن على ما علمتُ قلَّما يَصِفان من العقاقير غير المنادمة. وهما الصيدليان كذلك، فيَمزجونها لسيدهم في السمر وحول الغطاء الأخضر المشهور.

جاء الخادم بالقهوة؛ فعلمت أن مجلس حاكم الكويت الرسمي يختلف عن مجلسه العام بأمرَيْن؛ الأول: أن المجلس الرسمي المفروش بالرياش الفاخر لا يحضره غير أفراد من حاشيته وأسرته. والمجلس العام المفروش بالوسائد والمساند يحضره مَن يشاء من الناس، فيجلس في المكان الذي يليق به ولا يتعدَّاه.

أمَّا الفرق الآخَر فهو في تقديم القهوة؛ في المجلس الرسمي لا يصيح الخدم ويردِّد بعضهم صدى بعض، وفي المجلس العام، بل في مجالس آل الصباح إجمالًا، إذا ما أمر الشيخ بالقهوة يصيح الخادم في الباب: اقهُوة. فيهتف الخادم الواقف في الفناء: إي والله اقهوة! فيسمعه الخادم الجالس عند باب المطبخ فيصيح كذلك: اقهوة! فيؤمن راعي المعاميل على الصيَّاحين أجمعين مردِّدًا كلمة السر: إي والله اقهوة. فتجيء القهوة في الحال، وإن كان المطبخ على نصف ساعة من المجلس.

انتقلنا في الحديث من الأسنان إلى الإخوان، فقال الشيخ أحمد: التعصُّب بلية العرب.

وقال الشيخ خزعل: بل بلية العالم. ولو كان لي أن أرجع بعد الموت إلى هذه الأرض لما أحببتُ أن يكون ذلك إلا عندما تصبح ولا أثرَ فيها للتعصُّب الديني. الإنسان أخو الإنسان أحبَّ أم كَرِه[1].

---

[1] أسلفتُ القول إن المحمرة وما يليها – أيْ عربستان – هي من أعمال فارس. كان الشيخ خزعل يحكمها حكمًا مستقلًّا وقلَّما كان يؤدي إلى الحكومة الإيرانية المركزية حسابًا. أما بعد الانقلاب، أو بالحري عندما كان رضا خان مسيطرًا على الجيش وقبل أن توِّج شاهًا، تصدَّت الحكومة الجديدة للشيخ خزعل فقوَّضت استقلالَ هذه الإمارة العربية، وساقت الشيخ خزعل إلى طهران حيث ما لبث أنْ مات حزينًا مقهورًا.

آل خليفة



سمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وابنه

(١) البحرين

- **حدودها**: البحرين جزر في خليج العرب؛ أهمها جزيرة مستطيلة، وبضع جزر صغيرة منها واحدة إلى الشرق هي المحرق وأخرى إلى الغرب هي البِدَيّع. وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقي، ويشطرها الخط السادس والعشرون من الطول الشمالي.
- **مساحتها**: أربعمائة وخمسون ميلًا مربعًا.
- **عدد سكانها**: مائتا ألف نفس.
- **أهم مدنها**: المنامة والمحرَّق والرفاع والحد والبِديّع.

- **مذاهبها**: السنة من المذاهب الأربعة، والشيعة من الجعفريين والإسماعيليين، ثم الوهابية، وفيها عدد كبير من الهندوس والفرس وبعض النصارى واليهود.

(٢) سلسة من المدهشات

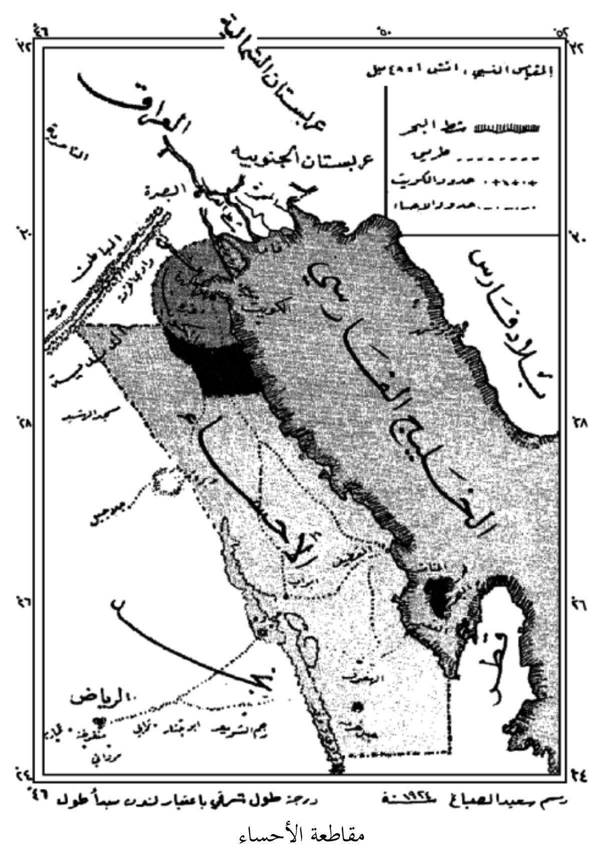
ما أخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطئي بالبحرين، وما دهشت في قطر من الأقطار التي زرتها دهشتي أول يوم في هذه الجزيرة، ولا غرو فالجهل يجسم الدهشات. قال أحد الأصدقاء في الحجاز، وهو يصف لي الطريق إلى نجد: ستسافر من بمباي إلى البحرين، ومنها في مركب شراعي إلى العقير. فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي إليها الصيادون، وظننت شيوخها من البدو الذين يسكنون الخيام، بل كنت عند وصولي أظنها معبرًا إلى الأحساء. وماذا ينفع التظاهر بالعلم إذا فضحتك أول كلمة منك بعد السلام؟ أما وإني أمقت الادعاء فلا أحاول إخفاء جهلي، وهو جهل عام يكاد يشمل كل أدباء العرب. إني أعترف عني وعنهم.

أول ما يستلفت نظر الغريب عند وصوله إلى البحرين؛ خصوصًا إذا كان قادمًا من البحر الأحمر، عمران مدينة المنامة وقصورها المشرفة على البحر ثم المراكب الشراعية «الجلابيت» التي تشق من مياه الخليج ازرقاق لا صفاء بعد صفائه، ولا حفيف ألطف من حفيف هواء الخليج وهو يداعب الشراع ويهمس في أذن الصباح كلمات الأمان والترحيب. إنه لينطبع في تلك الآونة من اللونين؛ لون الشراع ولون الماء، صورة في الذهن هي كلوحة السينما في تغيرها المستمر وحركتها الدائمة؛ ذلك لأن مياه البحرين قلما تخلو من «الجلابيت» السارحة المارحة فيها على الدوام. أما البواخر فهي ترسو على أربعة أو خمسة أميال من البر.

وإذا ما السائح وطئ أرض الجزيرة وجال في أسواقها يستلفت نظره كذلك حركة تجارية لا ينبئ حتى ظاهرها بكل ما هناك، فهو يشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب ومن أسباب الزينة والترف ما يندر إلا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة، أما إذا دخل أحد بيوتات التجارة فيستوقف نظره لأول وهلة الدفاتر الضخمة والكتاب. ها هنا إدارة ونظام، ودواوين يجلس عليها الزائرون لا الزبائن، فيشربون القهوة ويدخنون. هو الشرق في مظهريه القديم والحديث. وفي هذه البيوتات التجارية صناديق من حديد، وأكياس من النقود، ذهبًا وفضة، وبريد تراعي أوقات سفره وقدومه، وحسابات ومراسلات، وليس فيها شيء من البضاعة، وقلما يشاهد فيها غير حركة الكتاب وحركة الزائرين. أما السبب في ذلك فهو بعد أن تعلمه بسيط.

إن البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق والشطر الشرقي من شبه الجزيرة، ويصح أن يقال فيها من هذا القبيل إنها سوق من أسواق نجد؛ لأن قسمًا كبيرًا مما يدخل إليها من الهند وإيران والعراق ومن

أوروبا وأميركا عن طريق الهند يباع في نجد. وإنك لترى منه أيضًا في أسواق بريدة وعنيزة وحايل، بل يصل منه حتى إلى اليمن وعسير والحجاز؛ لأن القوافل من تلك الأقطار العربية تجيء عن طرق نجران وقلعة بيشه والخرمة إلى الرياض والأحساء. تجيء بين اليمن وحبوبة وتعود حاملة من البضائع ما يدخل إلى نجد عن طريق البحرين والكويت.



مقاطعة الأحساء

ولا نزال في سلسلة المدهشات؛ فإن في البحرين إذاكنت ممن يهمهم الأدب والشعر، نهضة أدبية اجتماعية مباركة. أجل، إن في هذه الجزيرة من الأدباء والشعراء عددًا ليس بقليل، وذكاءً ليس بضئيل، إن فيها نهضة تقارن أخواتها في الكويت وفي العراق، وتقارن روحًا وطموحًا على الأقل أخواتها في سوريا ومصر؛ فهذا ناديها الأدبي وفيه المجلات العربية أكثرها وأحسنها، وهذه غرف القراءة، وفيها من الكتب الحديثة والقديمة أنفسها، وهذه المدرسة الابتدائية وفيها يُعلم بعض العلوم التي لا تزال تُعد في اليمن مثلًا من بواعث الكفر والضلال، وفيها من المعلمين المصري والعراقي والنجدي. إن البحرين ليست سوى معبر إلى نجد!

حبذا المعبر وما فيه من مدهشات الثقافة والعمران.

وإليك بمزيد منها. لست كما قد يعلم القارئ ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالأديان، ولكن في البحرين معهدًا أميركيًّا ديني الأصل طبي وتهذيبي العمل[1]، وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس، ومدرسة كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة، ومستشفى وصيدلية يديرهما طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويبثثن عملًا لا قولًا روح التهذيب والارتقاء في زيارتهن أسيرات الحجاب والحريم.

ولكن هذه الرسالة الأميركية المؤسسة في البحرين والكويت والبصرة تستطيع أن تضاعف خيرها وتعممه لو أقلعت عن التبشير وحصرت ما لديها من أسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية؛ ذلك لأن المسلمين؛ وخصوصًا العرب منهم، راضون رضى عجيبًا بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلًا، وأكثرهم لذلك يبتعدون عن المدارس التي يديرها المرسلون، فلو فرضنا أن في مدرسة الكويت أو البحرين، وهي تجعل من دروسها الكتاب المقدس، عشرين تلميذًا فإن هذا العدد يزداد أضعافًا إذا ألغي التعليم الديني أو قرئ الكتاب المقدس في المدرسة كما يقرأ التاريخ. إن المرسلين أنفسهم ليعلمون ذلك، وهم في مدة خمسين سنة لم يتمكنوا من هداية خمسة من المسلمين، فما الفائدة من التبشير إذن؟ حبذا مدارس أميركية لا مفزعات دينية فيها تهرب المسلمين.

ومما أدهشني في اليوم الأول من إقامتي في البحرين – وليس فيما أقول غير الجد والإعجاب – تلك الأتن البيض التي تفوق حسنًا ونشاطًا حمير الحساء. ومعلوم – أن حمير الحسا ملوك الحمير، وأتن البحرين أميرات الأتن. أما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها، وفي نشاطها المقرون بالحكمة، فهو أن أهل البحرين يطعمونها السمك ثم يفكِّهونها بالتمر. وهو ذا مخزن السمك. لا تبادر إلى التصليح، أيها الأستاذ، فالساحة لا تفيد المعنى، إنما المخزن بعينه أريد وكأنه مخزن قمح أو شعير، ترى فيه السمك الذي يصنعون منه السردين في أوروبا مركومًا كركام الرمل، فهم يجففونه ويبيعونه مثل القمح أو الشعير بالأكياس.

أما «دبابة» المستر فورد الأميركاني التي تزعج السياح حتى في البادية وفي أقصى زوايا الأرض الموحشة، فهي اليوم من الكمالات في البحرين، ولكنها غدًا تصبح من المبتذلات المجلجلات شأنها في كل مكان، فيلحق شرها بتلك الأتن الطاهرة الجميلة. إلا أن في البحرين صعوبات في السفر لا يصلح لها آلة أو إنسان. جاءني ذات يوم بعض الأدباء يدعونني لزيارة الشيوخ في المحرق[2]، وكانت ساعة الجزر فلم نستطع الوصول إلى الجلبوت الذي كان في البحر إلا إذا اخترقنا السبخة حفاة وخضنا المياه حتى الركاب، فركبنا الأتن إلى

---

[1] هو الرسالة العربية The Arabian Mission التابعة للكنيسة البروتستانية الهولندية في أميركا.

[2] في البحرين والكويت كما في نجد يطلقون اللفظة بالجمع على الحاكم.

الجلبوت، وشكرنا الله أن في هذا المضمار لا تباري «الدبابة» الحمار.

ليس كل من يبحرون من المنامة والمحرق أو إليهما يركبون الأتن ساعة الزجر، بل إن أكثرهم رجالًا ونساء، وقد شمروا عن السيقان وعما فوقها في بعض الأحيان، يخوضون المياه بين الشاطئ والجلابيت وهم يمزحون ويضحكون كأنهم يسبحون ويلعبون. لا أظن أن مشهدًا من مشاهد الرقص في باريس أو من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد ورفع ستاره للشمس والسماء. بيد أن مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة، فلا سبيل للهمس، ولا باب لما ساء من الفكر والإيماء. وأغرب ما فيه أن النساء المحجبات يشمرن كالرجال. لم أتمالك مرة أن ظهرت دهشتي، وبيدي آلة التصوير، إذ رأيت إحدى النسوة تنزل من الجلبوت إلى المياه وقد شمرت بكرم فضاح، فقال رفيقي: شيء مألوف. خذ صورتها ولا بأس، فصورت آية النشور، أما الوجه فمحذور.

نزلنا في المحرق وسرنا إلى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، فإذا في الزقاق إلى أصل الحائط بعض الأعراب عاقدون الحبوة، وإذا في الفناء الكبير جمهور آخر لا يقل عن المائة جالسون في مجالس من اللبن والحجر كلٌّ يحمل سيفه أو عصاه، وقد خيم عليهم السكوت كأنهم الأصنام.

مشيت في الفناء لا أدري أفي مجلس الحاكم أنا أم في معبر آخر إليه. ولما وصلت إلى وسط تلك الساحة الرهيبة وقف أحد الجالسين في الصدر، وهو شيخ صغير القامة، قصير اللحية، طاعن في السن، فتقدمت إليه وسلمت عليه، فأجلسني في مجلس من الحجر إلى يمينه. هو الشيخ عيسى بعينه. رحب بي ولامني؛ لأني نزلت في المنامة ولم أنزل في المحرق ضيفًا عليه.

ثم أمر بالقهوة في إبريق من النحاس كبير جميل، يحمله رجل أسود عمليق لابس معطفًا أحمر مزركشًا بالقصب، يتبعه ولد في ثوب رسمي كذلك يحمل الفناجين. وقف الاثنان أمام سمو الشيخ وقوف الجندي أمام القائد العام فسلما واليد على الرأس، ثم أخذ صاحب الإبريق فنجانًا من الولد فصب فيه وقدمه لمولاه، ثم صب ثانية وقدم الفنجان للضيف فتناولته باليد اليسرى دون أن أدرك وقتئذ خطئي.

لست أدري ما حل بي تلك الساعة فكنت في حديثي كما كنت في عملي متعثرًا، قل هي سلسلة من المدهشات، وقد كنت هذه المرة مصدرها لا موضوع تأثيرها.

دُهِشَ الشيخ عيسى ولا ريب من فعلتي الأولى، وعندما شرعت أحدثه أمام ذاك الجمع الصامت الساكن في موضوع رحلتي نظر إليَّ وفيه شيء أشد من الدهش. وما كدت أذكر أمراء العرب وحاجتهم إلى التعارف والتفاهم حتى وثب من المجلس، فوقف الحضور كلهم مثله بغتة، وتقدم مني يشير أن أتبعه.

مشيت وراءه يصحبنا بعض حاشيته وأنا بينهم مثل مذنب يساق إلى السجن. على أن سمو الشيخ، عندما صرنا في الشارع، التفت إليَّ، وقال: «هؤلاء العربان لا يفهمون، ونحن لا نتكلم في السياسة أمامهم.

نمشي إلى البيت فنتحدث هناك».

مشينا إلى بيته الخاص فصعدنا إلى غرفة فيه على السطح لا يدنو منها «العربان»، ولا يصل إليها من الرقباء أذن أو عين. وكان معنا حفيده الشيخ مُحَمَّد بن عبد الله وآخران من الأسرة الشريفة.

جلسنا وأنا لا أزال ألوم نفسي على ما بدا مني، فقال سموه دون أن يُقصر اللطف في لهجته: تكلم الآن. فجمعت شتات الفكر وأفضت في الموضوع وهو منصت يهز برأسه. ثم قال: العرب لا يتحدون. فقلت: وهل تلبون دعوة الملك حسين إلى اجتماع يعقد في مكة من أجل البحث في شئون العرب والإسلام؟ فأجاب قائلًا: إذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها.

وقفنا عند هذا الحد في السياسة ورحنا بعد أن ودعنا سموه نزور ابن عمه الشيخ إبراهيم بن مُحَمَّد المشهور الذي حكم الجزيرة عدة سنين، وكان له والإنكليز مواقع سياسية انتهت بنفيه وبوفاته في المنفى.

أما ابنه الشيخ إبراهيم فهو أشد ميلًا إلى الأدب والشعر منه إلى السياسة، بل هو شيخ الأدباء والشعراء في البحرين، ومن خيرة رجالها. تلقى العلم في الحجاز من كبار العلماء وله إلمام بجل الفنون. هو رجل عصري في آرائه وأحكامه، يطالع المجلات العربية، ويتبع الحركة الفكرية والثقافية في العالم، ويسعى، وهو الرئيس الثاني لمجلس المدارس، في تمهيد السبيل في البحرين إلى بعض خيرها.

حدثنا الشيخ إبراهيم في مجلسه عن جمال الدين الأفغاني الذي عرج مرة على البحرين قال: لم يكن في تلك الأيام من يعرف لجمال الدين مقامًا ولا من يكترث به، حتى إنه لم يجد في هذا البلد من يضيفه. هذا منذ ثلاثين سنة، أما اليوم فترانا نرحب بالعلم ورجاله. وإن أدباء البحرين يفتخرون بزيارة الأديب اللبناني الذي قال فيه سركيس ...

ثم انتقل محدثي من مجلة سركيس إلى مجلتي المقتطف والهلال، فسرني ثناؤه على أصدقائي البعيدين كما سرني ما خصني به؛ لأنه خلو من المبالغة والمجاملة.

وما كدت أقول لنفسي: ما أحلاه! حتى جاءت القهوة وجاءت معها كلمة استفهام طيها التأنيب. قال الشيخ إبراهيم وأنا أمد يدي إلى الساقي: وما السبب في تناولك فنجان القهوة في مجلس الشيوخ باليد اليسرى؟ قد انتقدوا عليك ذلك.

فقلت وأنا صادق في عذري: إن في اليمنى وجعًا عصبيًّا يضطرني في بعض الأحيان إلى استعمال اليسرى.

فقال فضيلة الشيخ: عذر مقبول وسننشره في البلد دفاعًا عنك. فقلت: وعسى أن يعلن العذر بسرعة إعلان الذنب. فضحك فضيلته ومن في المجلس.

قد يستغرب القارئ اهتمام عالم لمثل هذه الأمور التافهة، ولكنها ليست بتافهة عند العرب، فإنهم على اختلاف طبقاتهم يواظبون على آداب الجلوس في المجالس، وعلى المائدة أو إلى السماط، مواظبة الطبقة العالية من الأوروبيين؛ فترى البدوي في مضربه مثل الأمير في قصره، يحافظ على المقامات ويرعى حقوقها، وعلى العادات والتقاليد ويحسن التمييز في أدق خصائصها.

أما امتناع الشيخ إبراهيم عن مشاركة أدباء البحرين في الحفلة التي أقاموها للأديب اللبناني، فلا أظنه من هذا الباب، فلو كان المقام السبب في الإحجام لما ترأس الحفلة الشيخ مُحَمَّد حفيد الشيخ عيسى، ولما حضرها غيره من الأسرة الشريفة، إنما الحقيقة هي أن الشبان الذين أقاموا الحفلة أرادوا أن تنحصر بهم فلم يدعوا لها الشيخ.

وكنا قد اجتمعنا حلقة حول السماط في دار الشيخ إبراهيم العامرة، كان هو فكرها اللامع، فحدثنا في أحوال البحرين وتاريخها حديثًا فيه لذة وفائدة، ثم شرفني بكلمة تفصح عن وطنية، جلبابها الحكمة وتاجها العلم، أنقلها إلى القارئ مثالًا من نثره وفضله:

حضرة الأستاذ الكريم

دعاني لكتابة هذه السطور، والدواعي جمة، ما يدعو المشتاق لبث أشواق، والرفيق للتحدث مع رفاق. ومجال القول في الشئون الإنسانية واسع، كلٌ يأخذ فيه بحسب أمياله ومقتضى حاله، وأهم ما يتحدث به الإخوان وإن تناءت بينهم الأوطان، وهو ما يتواصون به من رفع شأن أمتهم بين الأمم وتنبيه أذهان خاصتهم إلى مطالب عصرهم.

وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك أننا نظرنا إليه بعين الوجوب من وجه خاص على من رزق من الاقتدار على الكتابة حظًّا وافرًا، وتفرغ لها بعد أن خاض البحار والقفار، وفاز بصحبته الكبار والصغار، وحاز مزية الاختيار، وقدر له قبل ذلك أن يعيش في العالمين القديم والحديث، ويرى مظاهر الحياة من الفريقين، فلا ريب أن يكون لكلامه التأثير التام في بني أمته، فعسى ألَّا يحرم أبناء الأمة العربية من أخيهم الأمين ما يقوي نهضتهم من اختباراته الثمينة ونصائحه المفيدة، فالرائد لا يكذب أهله، والفاضل لا يمنع فضله.

من المخلص

إبراهيم بن مُحَمَّد آل خليفة

الرائد لا يكذب أهله. ما أجملها كلمة من شيخ أدباء البحرين! وقد ردد صداها الشبان نثرًا ونظمًا وأضافوا إليها كلمات فيها من الحماسة والصراحة ما يجدر بالشباب. إني لا أزال أذكر من كلام الشيخ مُحَمَّد رئيس النادي الأدبي قوله: احمل سلامنا إلى جميع إخواننا الناطقين بالضاد، وبلغهم أننا قد أخذنا على عاتقنا

السعي في تحقيق أمنيتنا وهو رفع شأن أمتنا عن طريق العلم ... وإننا مستعدون لمصافحة كل من يمد يده إلينا للتعارف والتواد والتعاون والتعاضد.

والشيخ مُحَمَّد هو ابن الشيخ عبد الله كبير أنجال أمير البحرين، كبيرهم عقلًا ووطنية وعزمًا، فلا يخلو كلامه من إشارة سياسية.

إن بين أدباء تلك الجزيرة العربية الجميلة شابًّا ورد أدبه بوساطة المجلات العربية في الغرب والشرق فاستقى من الموردين، فصفت روحه واشتدت لهجته، هو عبد الله بن علي آل زايد، سلك الكهرباء بين الأدباء، وكأني به يكمل كلام الرئيس في خطبته تلك الليلة إذ قال: قل للغربيين إنك زرت مصر والحجاز واليمن والعراق ونجد والبحرين، فرأيت في هاته الأمصار شعوبًا نفضت عنها غبار الكسل واستعدَّت للعمل، شعوبًا تتوق إلى مصافحتكم وأنتم الأصدقاء وإلى مصادقتكم وأنتم الزملاء، ولكنها لا ترضى بحال من الأحوال أن تكونوا لها بمثابة السادة ... قل لهم: إن الشعب العربي هو أستاذكم الأول، ومعلمكم القديم، فلا تقابلوا الإحسان بالإساءة وتجعلوا ثواب إرشاده إطالة استعباده ... قوموا لهم بمقام الناصح المحرر، لا الجبار المسيطر. دعوا الزمان الذي كَيَّفكم يكيِّفهم والعوامل التي أعدتكم تعدهم.

هذا من عبد الله بن علي نثر فيه صراحة، فيه حقيقة، وقد عم ذلك كله بقصيدة جاء فيها، وهو يصف أهل المشرق:

غنـــــــيهم بخيـــــــــل والمــــــــداوي عليـــــــــل والأجانـــــــب أوليـــــــاء

نعم، غنيهم بخيل في المشاريع العامة الثقافية والصحية، والمداوي عليل بما في خرجه من عقاقير الخزعبلات والتقاليد السقيمة، فإذا ما أصبح الغني فيما ذكرت كريمًا، والمداوي سليمًا من سموم الخرافات، فتيقن يا أخي عبد الله بن علي بأن الأجانب يصبحون أصدقاء وزملاء.

في البحرين –كما رأيت – نهضة سياسية هي قرينة النهضة الأدبية. أجل، إن في البحرين من ينشدون الوحدة العربية، وفي نادي البحرين من يرفعون النهضتين إلى مستوى الفلسفة العالي، ومستوى الإنسانية الأعلى. فقد سمعت أيضًا تلك الليلة أديبًا من أدباء الفرس، والفرس مهد الفلسفة والحرية الروحية، يذكر الشاعرين الصنوين عمر الخيام وأبي العلاء المعري.

قال مُحَمَّد صالح الخانجي: إني أحب المعري والخيام، وإني شغف بأشعارهما، وقد سرني بنوعٍ خاص ما بلغني من ميلك إليهما وغرامك بأفكارهما ... إن البشر لم يزالوا كما كانوا ما سلف من الزمان وكما وصفهم المعري والخيام ... إن الأديان الحنيفة روحها واحد، وإنما تختلف الشرائع التي تتضمن أحكام المرافعات وفصل الخصومات ... فالأديان بروحها ومغزاها تدعو للاجتماع والاتحاد ... الشرقيون كلهم عائلة واحدة ... خلاصهم وسعادتهم في أن يسود النظام بينهم والوفاق والتضامن.

مرحى، مرحى.

ها قد أطلعت القارئ بالقرائن والأمثال على بعض ما سمعت في البحرين – ولهذه أسباب تاريخية وطبيعية سيجيء ذكرها – وسأعرض كذلك لأسباب الشكوى والأنين في أصوات الأدب والشعر.

(٣) مهد الحضارة والشراع

قال بعض المؤرخين: إن خليج العجم هو مهد الحضارة، بل مهد الجنس البشري، وأن سكانه الأقدمين؛ أي سكان الجزر فيه، هم أول من رفعوا شراعًا في البحار، واقتحموا أخطار الأسفار، فمارسوا الملاحة وأتقنوا علمها، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب.

وقال آخر من أن الفينيقيين هم من هذه الديار العربية؛ فقد جاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البُنْط **Pount** وهم اسم الفينيقيين قبل أن يحتلوا بلاد الشام. «والظاهر أنهم من أصل عربي؛ فقد نقلت التقاليد القديمة أنهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس إلى سواحل البحر المتوسط»[١].

وجاء في التاريخ القديم تأليف رولنسون الإنكليزي الذي يسند كلامه إلى أصح الثقات مثل هيرودوط واسترابون: إن أقدم الدول الآسيوية تأسست عند فم الخليج[٢]، فضلًا عن الأثريين الذين يقولون: إن القرنة؛ أي البلدة الكائنة عند ملتقى دجلة والفرات اليوم، هي المكان السعيد العالي الذي سقط منه الأبوان الكريمان – هي جنة عدن، أو كانت. ولا تزال شجرة الخير والشر قائمة فيها – ومثمرة – حتى اليوم.

إن علماء التاريخ وعلماء الآثار إذن متفقون مع الأنبياء، على أنه مهما كان أمر الأساطير ومداها من الحقائق الطبيعية والتاريخية، فمن المعقول أن الفينيقيين، وهم من الشعوب الشرقية السامية ومن رجال البحار الأولين، نشئوا في جوار الخليج أو فيه، وكانت أسفارهم في البداءة بين الهند والشام ومصر، ثم ظعنوا إلى سواحل سوريا وخاضوا البحر المتوسط، فوصلوا إلى قادش وبلاد الغال، وأصبحوا في تلك الأيام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الأقصى.

ومما قاله رولنسون أنهم كانوا يسافرون من أرواد ببلوس برًّا إلى الخليج العجمي فيبحرون منه إلى الهند وسيلان، ثم يعودون وهم يحملون الذهب من أوفير[٣]، كأنهم بعد ظعنهم غربًا إلى سوريا كانوا يعودون إلى بلاد هي بلادهم، وقد توارثوا علومها مع علم الملاحة بعضهم عن بعض. ولا عجب إذا كان الخليج وجواره

---

[١] لغة العرب الجزء الثاني.

[٢] موجز التاريخ القديم، تأليف جورج رولنسون Ancient History by George Rawlinson.

[٣] أوفير هي البلاد الشرقية التي اشتهرت قديمًا بكثرة نضارها. وقد اختلف المؤرخون في موقعها؛ فمنهم من قال إنها كانت على الشاطئ الهندي قبال عمان، ومنهم من قال إنها في أفريقية الشرقية.

منشأ الفينيقيين ومطلع أنوار المدنية الأولى، فإن أبناء هذه الربوع هم الذين مصروا أرض الكلدانيين وشيدوا قصور بابل وآشور.

من المؤرخين من يقول إن الصينيين كذلك نشئوا في جوار الخليج وظعنوا شرقًا إلى البلاد التي هي اليوم بلادهم، ولكننا وإن عدنا مع علماء التاريخ خمسة آلاف سنة فلا يلزم، وموضوعنا البحرين، أن نعود إلى الأساطير قبل ذاك العهد أو بعده. إن في جزيرة البحرين نفسها ما يثبت رأي رولنسون، وهرودوط واسترابون، في أصل الفينيقيين. إن في الجزيرة أثرًا تاريخيًّا لم يكشف بعد كل سره.

ركبنا ذات يوم السيارة وسرنا من المنامة جنوبًا، فمررنا بأرض ظلُّ نخيلها ظليل ومياهها الجارية في القني غزيرة، ثم بخرائب قديمة عربية، ثم بغابات وآكام أفضت بنا إلى أرض تقفر تارة وطورًا تزدهي اخضرارًا، حتى إذا اجتزنا بضعة أميال وصلنا إلى قرية علي، فانكشف أمامنا مشهد غريب؛ خصوصًا وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين، تلال أو أطلال تظنها لأول وهلة آثار مدينة قديمة، ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة في سهل فسيح، بل في قفر سبسب بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب.

هي مدافن البحرين وقد نبت فيها العوسج والقيصوم، هي مدينة الأموات في كف الزمان، وفيها أحياء كالمدينة متفرقة متعددة، وفي كل حي مئات من القبور. مدينة دارسة لا يعرف لها تاريخ، كأن سكانها خلقوا وماتوا قبل أن يستكشف الإنسان للقراءة سلمًا وللكتابة مسمارًا.

صعدنا إلى رأس أكمة علوها زهاء خمسين قدمًا، ثم نزلنا إلى جهة منها فيها أثر البناء – باب كبير وعضادة ونصف عضادة وعتبة أمست أسكفة تحت الأقدام. دخلنا فإذا نحن في بيت فيه غرفتان بنيتا بالحجارة الضخمة الواحدة فوق الأخرى، ويظهر أن الأموات كانوا يدفنون في هذه الغرف واقفين أو جالسين، أو أن هذه القبور العالية كانت لأمراء الجزيرة وأعيانها. هي تختلف علوًّا، ولكنها لا تنقص عن الثلاثين قدمًا، ولا تزيد على الخمسين. ولكن شكل الغرف والمعابر فيها واحد لا يتغير، وكلها في جوار قرية علي. أما المقبرة الفسيحة الأرجاء، المقبرة العامة على ما أظن، فهي تمتد بعيدًا في جهتي الشرق والجنوب، وفيها ما يزيد على الستة آلاف قبر، يراوح علوها بين الخمس الأقدام والعشر. هي من أكبر مدافن الشرق، ولا يبعد أن تكون أقدمها عهدًا.

ومع ذلك لم يهتم بها علماء الآثار والتاريخ اهتمامهم بغيرها، وقد يكون السبب في ذلك خمول ذكر الجزيرة عند عامة الناس وبعدها عن جادات السياح المألوفة، بيد أن رجلًا إنكليزيًّا اسمه دوران[١] جاء إلى البحرين سنة ١٨٧٩م، وكان أول من فتح مدفنًا من تلك المدافن على ما أعلم وباشر الحفر والتنقيب،

[١] Capt. Durand.

فوجد هناك مع عظام الإنسان قطعًا من عظام الخيل، وشقفًا من الفخار، وآنية من العاج، وسجفًا وستائر بالية، وأخشابًا ناخرة من السوس والديدان. إلا أنه لم يذكر أنه عثر على كتابة أو صورة محفورة في تلك القبور.

ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح إنكليزي آخر هو تيودور بنت[١] وأمعن في التحري والتنقيب، فعثر على آثار صناعية بعث بشيء منها إلى المتحف البريطاني، فدرستها لجنة المتحف وقالت إنها فينيقية الأصل، فأثبتت في ذلك رأي المؤرخ رولنسون الذي مر ذكره، وأثبتت ضمنًا أن هذه القبور قديمة جدًّا؛ لأن هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة إلى البحر المتوسط هو منذ خمسة آلاف سنة، كما يرتئي المؤرخ رولنسون أن هناك دليلًا آخر على قدم عهد هذه المدافن، وهو أن لا أثر فيها، على أهميتها، للكتابة أو للتصوير الرمزي.

إن في التاريخ القديم إشارة أخرى إلى فينيقية البحرين؛ فقد كتب أحد القواد المقدونيين، عندما جاء إلى خليج العجم من قبل الإسكندر مستقصيًا طريق الهند، أنه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج، ثم جزيرة تدعى نيرين، وهي على ما يظهر دارين العرب، ولا تزال قربها اليوم إسكلة بحرية تدعى الجبيل. فضلًا عن ذلك أن على شاطئ عمان الشرقي بلدة كبيرة اسمها صور، سكانها عشرة آلاف وأكثرهم نوتيون، لديهم مائة سفينة كبيرة وألفان من السفن الصغيرة تسافر إلى الهند والبصرة وبورت سعيد. وصور هذه من المدن القديمة، وقد كانت في الماضي، مثل صور الشهيرة على البحر المتوسط، محطة تجارية بين الهند وبلاد بابل.

هاك أدلة التاريخ والآثار والديار التي لا تزال عامرة على أن الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم، بل من بلاد العرب الشرقية إلى البحر المتوسط. وإذا كان يريب القارئ شيء من ذلك فلا مجال على ما أظن للريب في أحد أمرين: إما أن الفينيقيين من أصل عربي، وهم مثل العرب ساميون، وإما أن العرب من أصل فينيقي. فإذا صحت رواية رولنسون رجحت القضية الأولى، وإذا صحت رواية قائد الإسكندر رجحت الثانية، أما إذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعاهدهم كلاهما في هذه الجزر، وهذا الساحل العربي من الخليج.

ولا فرق عندي في كل حال إذا كان العرب الأصل أو الفرع، فإذا كانوا الأصل فمرحبًا بالفينيقيين أبنائهم، وإذا كانوا الفرع فمرحبًا بالمتحدرين من الفينيقيين. لست من الذين يتلذذون بتعليل النور، وتحليل روائح البخور، وإن ما أتيقنه هو أن بين الشعبين العربي والفينيقي صلة جوهرية قد لا ترى ولكنها لا تنكر، بل هي تُرى في سنة الوراثة وأدلة الحياة في الحال. إليها إذن أعود بالقارئ.

[١] Theodore Bent.

إن أهل البحرين مثل أهل الكويت، بل مثل كل العرب الساكنين على سواحل الخليج لا يزالون من عشاق اليم وسادة الشراع، بل هم اليوم الملاحون السائدون في الخليج وفي البحر الأحمر، هذا إذا استثنينا السفن البخارية. أجل، إن العرب اليوم مثل الفينيقيين قديمًا قابضون أعلى زمام الملاحة، رافعون فوق ساري الجد علم الشجاعة والإقدام. لا أنهم اكتشفوا من مصادر الرزق والثروة غير نقل البضائع والمتاجرة في الأمصار البعيدة، فقد اعتاضوا عن التنك والزجاج بالخفيف النفيس، بأثمن ما يستخرج من أعماق البحار.

لا أعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية، أما اكتشافه وأول من تاجر به من الرجال، وأول من خدع به امرأة، وأول من تحلى به من النساء، فتلك أمور أجهلها. وقد يكون فاتني ما قاله الأثريون والمؤرخون والروائيون في أول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها، وأول من صاغها واستغوى الغواني بها. قد جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب أوفير ولم يذكر – على حد علمي – لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع، ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال.

إن اللؤلؤ مصدر الثروة في البحرين وأشهر ما اشتهرت به الجزيرة، فقد قدر ما يخرج منها سنويًّا بثلاثين مليون روبية؛ أي مليوني ليرة إنكليزية[١]. وقد أجمع الأخصائيون أن مغاص البحرين هو أكبر مغاص في العالم، مثلما أجمع الصاغة أن لؤلؤ البحرين يفوق صفاءً وحسنًا سائر اللآلئ. ولا بأس، ونحن في الموضوع، من الإلمام بسيرة هذه المخلوقة العزيزة الغالية، وأن ما أورده الآن هو من كتب العلم والخبراء لا من دواوين الشعر والشعراء.

اللؤلؤة بنت المحار، بيتها الصدفة، وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الإنسان. أما المحار فعرب البحر الأحمر يقسمونه إلى قسمين: الصدف وهو الكبير الذي يندر اللؤلؤ فيه، والبلبيل؛ أي صغير الصدف منبت اللآلئ. فإذا ما استخرجوا الدرة من البلبيل يرمون بصدفتها ولكنهم يحتفظون بالصدف الكبير فيتجرون به. وقد قيل لي: إن قيمة ما يصدر من الصدف واللؤلؤ من البحر الأحمر لا يتجاوز المليون روبية؛ لأن مغاص اللؤلؤ فيه قليلة صغيرة.

أما قصة الصدفة فهاكها بالإيجاز: هي في يوم الولادة تلقي بيضها الأصفر على وجه الأرض في قعر البحر، وهو مثل حب الخشخاش يتجمع حفنًا فيتلون منه القعر، ثم تنشأ البيضة فتعدو كحبة العدس، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة إلى الازرقاق، تنمو حتى تصير كالأنامل طولًا، وهي دقيقة كالشعر،

---

[١] وقدَّر ما يخرج من الكويت بقيمة ثمانية ملايين روبية، ومن القطيف بأربعة ملايين، ومن الجبيل بستمائة ألف روبية، ومن عمان بخمسة عشر مليونًا، ومن جزيرتي لنجه وقيس، وهما قرب الساحل العجمي، بمليون ونصف. قد يكون في هذه الأرقام بعض المبالغة، ولكنها لا تقل عن ثلاثة أرباع القيمة المذكورة. وقد أخبرني العارفون بأن مغاص اللؤلؤ يمتد من دبي في عمان إلى رأس المشعاب جنوبي الكويت، وكله في الجانب الغربي – أي العربي – من الخليج.

شديدة كحبل من مسد وترسب عروق الصدفة فتثبت في مكان صلب من القعر، ومنها ما يطفو فيتحرك بحركة البحر ويتفرق بعضها عن بعض، بل يظل يتدحرج حتى يلقى صخرة أو شجرة أو مكانًا صلبًا من القعر تدق أوتادها فيه، تمكن عروقها منه، وهي لا تأخذ بالنمو إلا بعد أن تنتهي من الدوران، وتثبت في المكان، فتفتح إذ ذاك فمها؛ أي صدفتها، للغذاء، وجله من الطين.

كأني بالقارئ يقول: وعدتنا بترجمة اللؤلؤة فجئتنا بقصة المحار. على أني قلت: إن اللؤلؤة بنت المحار، وفي القول من الشعر أكثر ما فيه من العلم، أما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي أن اللؤلؤة بنت مرض يصيب المحار، أو بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الإفراز فيه، والذي يظنه علماء الحيوان هو أن حبة رمل أو بيضة أو حشرة تدخل مع الغذاء، فتتهيج منها أغشية المحارة فينتج عن ذلك إفراز غير طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة[١]. فإذا جاءت الكتلة هذه متوسطة في اللحم كانت نفيسة، وإذا لامست أو قاربت الصدف كانت رديئة.

وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبأرواحهم، فأكثرهم يرعفون حينما يرفعون إلى وجه البحر، ومنهم من يصابون بداء الرئة؛ ذلك لأن الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل، والنفس إذا طال تعبت الرئتان، وإذا طال تحت الماء جاء فوق الإمساك ضغط تنفجر منه في بعض الناس الشرايين.

أما موسم الغوص فهو «من أول برج الثور إلى أوائل برج الميزان»[٢] كما يقول الشيخ النبهاني[٣] الذي يعود إلى الأفلاك مثل كل أعرابي ليحدد الأزمنة. وقد أخبرنا في كتابه أنه «أورد صفة الغوص»، وإن كانت معلومة؛ لأنه اطلع على رحلة ابن بطوطة فرآه يصف مغاص الجواهر بخلاف ما يشاهد في هذا الزمان.

السفن التي تستخدم اليوم للغوص هي على نوعين: السنبوك والجلبوت، أما في الماضي فقد كانت على شتى منها البغلة والبقَّارة وكلها شراعية. وأهل الغوص يعبرون عن مجموع السفن بالخشب، ويسمون ابتداء الموسم الركبة، وانتهاءه القُفَّال، وهم يدعون اللؤلؤ قماشًا والجواهر دانات.

---

[١] أما رأي علماء العرب، فقد قال القزويني في الجزء الأول من كتابه عجائب المخلوقات: إن الرياح وقت الربيع تحمل إلى بحر فارس رشاشات من بحر أوقاس، وفيه ماء شبيه بالزئبق مثل الغراء، فيتولد منه الدر بأن تقع تلك الرشاشات في محل الصدف فيلقمه الصدف كما يلقم الرحم المني. فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد درًّا كبيرًا، وربما تقع رشاشات فتنعقد منها أجزاء صغار كما ترى في أكثر الأصداف. هذا رأي القزويني وليس فيه شيء من العلم.

[٢] برج الثور وبرج الميزان يشتملان في دورتيهما على الأشهر التي تعرف عندنا بأشهر الربيع والصيف؛ أي من الشهر الخامس حتى التاسع – من آيار إلى أيلول.

[٣] قد قرأت في وصف الغوص ما كتبه الشيخ خليفة بن مُحَمَّد النبهان، وهو ينطبق على ما سمعته من الثقات فلخصت بعضه.

في البحرين يباشر صغار الغاصة العمل قبل ابتداء الموسم، فيجيئون في فصل الشتاء إلى ساحل البحر، ويغوصون في عمق ذراع أو يزيد يلتقطون ما يجدونه من الصدف. وهؤلاء يُسمون «المَجنَّى»، فإذا أبحروا وغابوا يومين أو ثلاثة يسمون «العزاب» لعزوبهم؛ أي بعدهم عن المدينة. وهناك صنف آخر هم «الخانجية»؛ أي الذين يتجهزون لغيبة أسبوعين في الغوص أو ثلاثة أسابيع. ثم يتأهب أهل البحرين للغوص العام إذا مضى النصف الأول من برج الثور، ويقفلون راجعين إذا دخل برج الميزان، فيبيعون ما يغنمون من البحر ويتقاسمون.

لكل من يشتغل في الغوص اسم يعرف به، فيدعى كبير السفينة «ناخوذاه»، والذي يغوص «الغَيص»، والذي يجر حبال الغيص «السَيْب»، والمساعد لهم «الرظيف»، ثم الخادم التلميذ هو «التبَّاب». هؤلاء والبحرية يخرجون في جلبوت مزود بالزاد والماء إلى مكان من أمكنة الغوص المعروفة التي يبعد أبعدها ثلاثين ميلًا عن البر، ويتراوح العمق الذي يغوصون فيه بين ثلاثة أبواع وأربعة عشر باعًا. يسيرون إلى موارد الخطر والثروة وهم يغنون أو يرددون بعض الآيات أنغامًا ساحرة، يسيرون في ظل الشراع مطمئنين، وإذا اشتدت الريح فيجاهدونها في سبيل الدر والحياة – توكلنا على الله ... صلِّ على النبي ...

ها هم في مكان الغوص، وقد طوي الشراع ورسا الجلبوت. هات الحبال يا سيب. هات الحديد[١] يا رظيف. هات الديين[٢] يا تياب. وهو ذا الغيص وقد وضع الفطام[٣] في أنفه، والحديد في رجله، والديين في عنقه، ثم يمسك نفسه وقد حجب وجهه بكفيه ويطيح. توكلنا على الله! صوت موجة تتقلقل فتتكون حلقات، فتكبر، فتتفكك، فتتلاشى. راح تحتها الغيص يبغي الجواهر في المحار.

وهو حالما يصل إلى القعر يفتح عينيه وينزع من رجله الحديد أو الحجر فيرفعه السيب بالزَّيْبل[٤] إلى السفينة. ومنهم من يلبس قفازًا من جلد ثم يشرع يمشي على يديه، ورجلاه مرفوعتان والجدا[٥] بين إبهامهما، وهو يلتقط الصدف ويضعها في الزنبيل، فإذا ضاق ذرعه أو امتلأ زنبيله جذب الجدا؛ أي حبل الزنبيل، فيصيح السيب: نَبَر![٦] بينا هو يسحب الحبل والغيص متمسك به، فإذا صار على وجه الماء نزع

---

[١]وقد يكون حجرًا أو رصاصًا يتراوح وزنه بين الاثني عشر والخمسة عشر رطلًا، يجعله الغيص في إحدى رجليه ليسرع به إلى قعر البحر.

[٢]الديين: زنبيل من حبال الليف مشبكًا مثل الغربال إلا أنه واسع الخروق.

[٣]الفطام مثل الملقط مصنوع من قرن الوعل أو من عظم السلحفاة يجعله الغيص في أنفه ليمنع النفس.

[٤]الزيبل: حبل مربوط به الحجر ومتصل بالسفينة.

[٥]الجدا: حبل آخر مربوط به الزنبيل. والاثنان يتولاهما السيب.

[٦]«نَبَر»: كلمة يرددونها عندما يجذب الغيص الحبل برجله طالبًا من رفاقه بهذه الإشارة أن يرجعوه إلى وجه الماء.

الفطام من أنفه وتنفس، ويأخذ السيب الزنبيل فيفرغه في وسط السفينة ويدفعه إليه فيعود إلى الغوص. وهكذا إلى أن ينتهي النهار. وهم يسمون المرة الواحدة من النزول والصعود «تبَّة»، وهي لا تقل عن الدقيقة ولا تزيد على الثلاث الدقائق؛ أي مقدار ما يستطيع أن يستمر الغيص تحت المياه. بعد انتهاء الغوص كل يوم عند الغروب أو قبله يفلقون الصدف ويخرجون ما يجدونه من اللؤلؤ فيها. أما إذا فرغ زادهم أو ماؤهم فيأتون إلى البر ليتزودوا ويعودون إلى العمل حتى انتهاء فصل الصيف.

الناخوذاه هو مدير العمل، فيجمع اللؤلؤ كله ويتولى بيعه، فيأخذ من مجموع قيمته الخمس ويقسم الباقي بين رجاله بعد أن يحسم من قسمة كل واحد قيمة زاده، فيعطي الغيص نصف قيمة الأربعة الأخماس، والرظيف ثلثي الباقي، والسيب الثلث الآخر. أما التباب فليس له غير أكله وفائدة التمرين على الغوص. هؤلاء هم الغاصة؛ أي الذين يستخرجون اللؤلؤ بأنفسهم وعلى حسابهم.

أما الذين يغوصون لحساب غيرهم فهم يستأجرون السفن، ومنهم من يستدين المال. والذي يكري السفن ويقرض المال يأخذ خمسي قيمة اللؤلؤ الذي يجمعونه. وهم؛ أي الغاصة، يتقاسمون الثلاثة أخماس الباقية بحسب القاعدة التي مر ذكرها، أما أولئك الذين يكترون السفن فقط فلا يدفعون غير نصف خمس اللؤلؤ أجرة السفينة، إلا أن الغالب في الطريقتين الأولى؛ أي التي ينال بها صاحب السفن والمال خمسي قيمة اللؤلؤ المجموع.

وهناك تجار اللؤلؤ في البحرين؛ فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة إلى تجار أوروبيين وإلى البنيان الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية. أو إنهم يسافرون به إلى بمباي فيبيعونه هناك. ومن هؤلاء التجار من يسمون «بالطواويش»، وهم الذين يخرجون إلى محل الغوص ويشترون من النواخذة بعض الجواهر، فيدفعون ثمنها إما نقدًا، وإما تمرًا وزادًا. والنواخذة يفضلون الزاد في بعض الأحايين؛ لأنه يكفيهم مئونة الرجوع إلى البر للتموين.

قلت إن من الغواصين من يصابون بداء الرئتين، وأكثرهم حينما يخرجون من الغوص يرعفون، وقلما يهمهم ذلك، فهم لا يخافون إلا من الدَّوْل عدوهم الأكبر. وما هو الدَّوْل؟ عدت إلى الدميري والقزويني فلم أعثر في بحر علومهما على الدول، ولا جاء ذكره عرضًا حتى في الكلام على أعجب المخلوقات. في كل حال إني، وإن ذكرت ما قاله القزويني في الصدف وتكوين الدر، أميل إلى سواه من الثقات؛ وخصوصًا إذا كانوا من هذا الزمان؛ لذلك أفسح للشيخ خليفة بن مُحَمَّد النبهاني الذي خبر الغوص بنفسه ورأى بأم عينه الدَّوْل، قال — وقاه الله شره:

الدَّوْل حيوان هلامي لا يهتدي في سيره لجهة، وإنما تقذفه الأمواج على وجه البحر. هو بقدر الكف فأصغر، مدور له خيوط طوال نحو ذراع فأطول، كأنه حرير مشتبك. فإذا لامس هذا الحيوان جسم ابن آدم أحرقه حرقًا مبرحًا، وربما أعاب الموضع الذي لامسه، ولو رُفع هذا الحيوان من الماء وأصابته حرارة الشمس

مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماءً ولم يبقَ له أثر...

أهل الغوص يلبسون ثيابًا ضيقة ملامسة للجسم اتقاء شره، ويوجد كذلك نوع آخر يسمى اللوَيْتي، وهو مثل الدول هلامي، ولكنه أحمر اللون، وضرره أخف من ذاك، فإذا لامس الجسم أحرقه بدون تبريح فيرم اللحم فيبقى أثره وألمه نحو ساعتين، أما إذا سخن الجسم الملذوع على النار فالألم يزول منه[1].

بقي أن أذكر السبب في تفوق لؤلؤ البحرين وهو من عجائب الطبيعة في هذه الجزيرة. قد أجمع العارفون بأن الماء العذب يحسن اللؤلؤ، فاستُنتج من ذلك أن المطر هو سبب ذاك الحسن، وأن الصدف يصعد إلى وجه البحر ليشرب من ماء السماء. غير أن الحقيقة العلمية في التصاق المحار بالصخور قبل نموه تفسد هذا القول، ولو صح أن المطر هو سبب الحسن لكان لؤلؤ جزيرة سيلان، لكثرة الأمطار فيها، أحسن ما في العالم. وقد فاتت هذه الحقيقة القزويني الذي نقل عن البحرانيين كلمة نصفها صحيح ونصفها خطأ. قال: إن صدف الدر لا يوجد إلا في بحر تصب فيه الأنهار العذبة. والحقيقة هي خلاف ذلك؛ فلو قال: إن أحسن صدف الدر ... إلخ، لجاء بالصواب.

الماء العذب يحسن الدر، ولكنه إذا صب في البحر فقد صفاته، أما الأنهار فليس منها في البحرين، وإنما هناك ينابيع من المياه العذبة هي من عجائب الطبيعة: ينابيع وسط البحر تحت المياه المالحة، ومنها ما هو قريب من السواحل.

في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعًا مشهورًا يبعد بعضها عشرين ميلًا عن البر، ويعلوها البحر من الثلاثة إلى السبعة أبواع. مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الأرض على الدوام. وتلك التي تقرب من الساحل تظهر ساعة الزجر للعيان فيستقي أهل المحلة منها. على أن البحارنة يغوصون للبعيدة العميقة كأنها اللؤلؤ فيملئون منها القرب بأن يجعلوا القربة أو الإناء فوق الفوارة إلى أن يمتلئ. ومن هذه الينابيع التي يشرب منها أكثر أهل البحرين القريبين من السواحل تشرب كذلك المحار، فتتحسن فيه تلك الكتلة الكلسية البراقة. هي السبب ولا مراء في جمال لؤلؤ الجزيرة ذاك الجمال الممتاز.

وأغرب من كل ذلك أن تلك المياه العذبة تصل إلى سواحل القطيف والأحساء وتجيء البحرين من مرتفعات نجد، من وراء الدهناء، فقد تتبع علماء الجغرافية الذين ساحوا في البلاد مجاري مياهها ومصب أنهرها الغائرة. من المعلوم – مثلًا – أن الرياض تعلو عن البحر ألفًا وثمانمائة قدم، وأن جبال العارض هي فوق الرياض، وهي كلسية تمتص جل ما يتبخر من المياه فيجري تحت الأرض ويصب في وادي حنيفة، بل إن مياه العارض ووادي حنيفة تجتاز الدهناء والنفود فتصل إلى الخليج.

[1] تاريخ البحرين.

قال المستر هوغارس[١]: لا شك أن قسمًا من هذه المياه (أي مياه العارض واليمامة) عملًا بتحدر الأرض ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال، فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسقي واحات الأحساء والقطيف، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين.

(٤) البحرين

إن البلاد الواقعة على الساحل العربي الشرقي كله، من البصرة إلى عمان، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين، وقد أطلق العرب الاسم عليها لأنها – على ما أظن – على شاطئ البحرين، بحر عمان وبحر فارس، وجعلوا عاصمتها هجر، ثم خص هذا الاسم بقسم منها بين القطر والقطيف وهو الأحساء؛ لأن الطامعين بالسيادة من أمراء العرب تنازعوها فتقاسموها، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلا مسمى. ولكن الذين نزحوا إلى أقرب الجزر الكبيرة من الساحل الشرقي، أو بالحري هربوا من الجور طالبين الاستقلال والاطمئنان احتفظوا بالاسم فأطلقوه عليها.

كانت قبلئذ تدعى أوال، ذكرها ياقوت في معجم البلدان قال: إنها جزيرة يحيط بها البحر في ناحية البحرين. وأوال صنم لبكر بن وائل وأخيه تغلب، فسميت الجزيرة باسمه؛ لأن بني وائل مع عبد قيس كانوا يسكنونها في ذلك الزمان.

وموضوعي الآن الجزيرة نفسها الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها مائة ضعف. هي جزيرة صغيرة ومع ذلك كبيرة. صغيرة في مساحتها التي لا تتجاوز الأربعمائة والخمسين ميلًا مربعًا، كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي. وهي على صغرها عامرة بمائتي ألف من العرب والأعاجم من الشرق والغرب. بيد أنها لا تزال عربية الأصل والحكم، عربية اللغة والروح؛ لأن أكثر سكانها من العرب الأصليين، عرب نجد، وفيهم من المذاهب الإسلامية المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي والجعفري. أما الجعفريون فهم مثل الهنود يعدون من الأجانب؛ لأنهم إيرانيون أو إيرانيو التبعة.

ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة، وليس أصلح منه للتجارة أو للحرب، فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه، كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف، أو كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة، بل كأنها، وهي عند مهد اللؤلؤ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج، فلا عجب إذا تسابق إليها الفاتحون في قديم الزمان، وتنازعها من الأمم ذوات الصولة والعرفان. وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس، ومحط رحال الطامعين بالسيادة على خليج العجم.

---

[١] في كتابه «التوغل في البلاد العربية» D. G. Hogarth, Penetration of Arabia.

إن البحرين لمثل مدينة كبيرة في ازدحام سكانها، ولولا موارد الثروة من اللؤلؤ فيها، ولو لم يكن مجال التجارة فيها متسعًا، لانتزح عنها نصف سكانها؛ إذ قلما تجد في العالم خارج المدن بقعة من الأرض معدل سكانها أربعمائة وخمسون نفسًا في كل ميل مربع. قابل بين البحرين ونجد – مثلًا – فيظهر لك فارق بعيد بين الاثنين. في مملكة ابن سعود اليوم مليونان ونصف مليون من العرب على الأكثر يعيشون في أرض مساحتها أربعمائة ألف ميل مربع في الأقل، فيكون معدل سكان الميل الواحد المربع ستة أنفس لا غير، ولكن نصف هؤلاء من البدو؛ أي الرعاة وأصحاب المواشي، ونصف أرضهم من الرمال والمفاوز التي لا ماء فيها ولا كلأ. فالميل المربع قليل على أعرابي واحد مع عياله وأنعامه، كما أن الميل المربع في البحرين، على كثرة مياهها وخصب تربتها، قليل جدًّا على أربعمائة وخمسين من عباد الله لولا اللؤلؤ –كما قلت – ولولا أسواق نجد والحسا.

جاء في التاريخ أن هذه الجزيرة كانت عامرة بالسكان في قديم الزمان؛ فقد كان فيها ثلاثون مدينة ومعها ثلاثمائة من القرى، ولكنها، وهي دائمًا مطمح الفاتحين والمستعمرين، ابتليت بما يتقدمهم ويرافقهم ويتبعهم من الفتن والحروب، فتداعى قسم من عمرانها واضمحل، ولم يبقَ فيها اليوم سوى ثماني مدن وبعض القرى التابعة لها، أما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار، فهم يزرعون الأرض، والذين لا يزرعون يتاجرون.

أكبر مدن البحرين المنامة[1] وهي على الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة الكبيرة، عدد سكانها أربعون ألفًا من العرب والإيرانيين والهنود والأوروبيين، وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي والفارسي والهندوسي، هي الميناء العام للبحرين ومركز أحد قسمي حكومتها المزدوجة، القسم البريطاني؛ ومحور التجارة، فيها بيت البريد والبرق والمحجر الصحي، ومرفأ ومخازن كبيرة للجمرك أمر ببنائها الشيخ عيسى آل خليفة. وفيها أيضًا «قلعة الديوان» التي بناها أحد ملوك فارس، وكثير من البيوت الفخمة الهندسة والبناء، إلا أن أرضها سبخة يفسد منها الهواء فتكثر فيها الحميات. وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غربًا بجنوب أثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس؛ لأن هناك تقام كل أسبوع سوق للبيع والشراء. ذاك الأثر التاريخي هو من عهد عمر بن عبد العزيز الأموي، وهو بقية مسجد قديم ومنارتين متقابلتين طول الواحدة نحو خمسين ذراعًا. وهناك بالقرب منه عين تسمى أبا زيدان وفي جوارها ما هو أهم من الآثار القديمة؛ أي أثر ينابيع من البترول.

إذا سرنا شرقًا بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب، حيث مدافن البحرين القديمة التي مر ذكرها، نصل بعد ساعة إلى الرفاع، مدينة الأمراء السابقين من آل خليفة، وفيها بقية قلعة قديمة تبدو في أساس

[1] كانت تسمى المنعة فحرفها الأعاجم الذين استولوا عليها. ومن قائل: إنه كان فيها قصر لمنام أحد ملوكها السابقين فسميت به.

القلعة الجديدة التي شيدها الشيخ سليمان بن أحمد. وحول الرفاع رياض مشهورة؛ أهمها الصُّخير تكثر فيها العيون والآبار والنخيل، وتقع على ربوة إلى جانب الرفاع الغربي أسسها الشيخ حمد الحاكم الحالي، وهي لطيفة الهواء، عذبة الماء، فسيحة الفناء. الصُّخير هي حمى الشيخ حمد، وحمى الصحة والسكينة.

من الصخير نشرف على جبل الدخان، ولا دخان فيه اليوم، لا لبركان ولا لإنسان. هو جبل مستطيل: فيه غار كبير، داخله بيت بقبقاب منحوتة كأنه من بناء الإنسان، وفي رأس الجبل برج قديم متهدم. وإذا استمر السائح شرقًا من الرفاع يصل إلى سترة، أو كما يقول البحارنة: «حالة سترة». هم يسمون «حالة» كل قرية يحيط بها الماء فيجعلها شبه جزيرة، وهي مقيظ الشيخ خالد أخي الشيخ حمد بن عيسى، وفيها وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين.

هذه من المدن والقرى في الجهة الشرقية. أما في الغربية فالبديع قبالة الرفاع وعلى ساعتين من المنامة هي مسكن الدواسر وغيرهم من العرب الأشاوس، ومن قراها قرية جَوْ، نزلها في قديم الزمان أحد مشايخ العرب المشهورين بالهمة والإقدام يدعى الشيخ أحمد رزق، فعمرها وبنى فيها المساجد والبرك الكبيرة لحفظ المياه، فقال أحد المؤرخين فيه: سكن الشيخ رزق بلدة الجو، وبنى قصورًا شامخة إلى الجو. ثم ظعن ونزل الزُّبارة في رأس بر قطر. وكان في نيته أن يفصل هذه البلدة عن قطر بخليج يحفره بينها وبين البر طوله ثلاثون ميلًا، ولكن قومه، وهم من أهل البادية، لم يرضوا بذلك لاحتياجهم إلى المفالي في بر قطر يجعلونها مرعى لأنعامهم.

أما عاصمة البحرين الرسمية العربية؛ أي المدينة التي يسكنها الشيوخ، فهي المحرق الكائنة في جزيرة صغيرة شرقي المنامة على مسافة نصف ساعة منها في الجلبوت. وهي تفضل المنامة بطيب هوائها لبعدها – كما يزعم العرب هناك – عن النخيل، فهم يظنون أن الأوبئة تكمن في ظلاله، والأصح أنها تكمن في المستنقعات التي يسببها نقص أو إهمال في ري النخيل. المحرق مركز النهضة الثقافية اليوم، وفيها المدارس والنادي الأدبي والشبان الغواة بالأدب والعلم. وفي جزيرة المحرق مدينة أخرى اسمها الحد، يسكنها السادة العلويون وبعض آل ابن علي المشهورين في تاريخ البحرين. ويتبع كل من هاتين المدينتين خمس قرى يشرب أهلها من ينابيع البحر العذبة.

إن الماء القراح غزير في البحرين لو أنهم يحفرون له الآبار والقني فيجمعونه في عيون يستقي منها الجميع. أما اليوم فالينابيع كلها هي قرب البحر؛ لذلك يقصدها سكان المدن في الصيف فيقيمون حولها بيوتًا من جريد النخل موقتة يتفننون في بنائها لتقيهم حر الشمس ولا تمنع عنهم الهواء. وقد قيل: إن مياه هذه الجزيرة مهما ردم من آبارها تزيد على ما يلزم أرضها ويحتاج إليه سكانها.

نعم، قد ردم في الماضي كثير من آبارها. والقصة –كما يرويها العارفون من أهل البحرين وبعض

المؤرخين – هي أن عبد الملك بن مروان الأموي لما رأى من أهل الجزيرة بطرًا في غناهم وتمردًا على خلفاء بني أمية، أمر بردم العيون ليقل زرعهم وأموالهم فيفتقروا ويخضعوا للأمراء. هو مثال مما دونه التاريخ من أساليب الحماقة في الحكم. وإن من يقارن بينه وبين سياسة الأمويين في الأندلس، وما أوجدوه من أسباب الزراعة هناك، يستغرب جدًّا هذا الأمر ويكاد ينكره. على أني شاهدت في رحلتي ما يثبت أن العرب في أحقادهم وثاراتهم وحروبهم ينكلون مثل هذا التنكيل بأعدائهم وبأنفسهم. قد رأيت عيونًا في نجد كانت سبب الشقاق بين القبائل، فلما استولت عليها قبيلة دمرتها وردمتها لكيلا يشرب منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزتها. عليَّ وعليهم يا رب!

ومع ذلك فالجزيرة لا تزال غزيرة المياه كثيرة النخيل والبساتين، فيها من أنواع التمر مائة نوع ويزيد. وقد شاهدت في الجزيرة عددًا من دواليب الهواء مجلوبة من الولايات المتحدة، فتضاعفت مياه البساتين التي يكثر فيها أنواع الثمار؛ كالليمون والموز والخوخ والكمثرى والعنب والرمان.

كأني بأهل البحرين، وقد أدركوا الضرر الذي سيلحق بتجارة اللؤلؤ من الاختراع الياباني؛ أي توليد اللؤلؤ بالطريقة الصناعية، بادروا إلى أميركا يستنجدونها بما عندها من أسباب الزراعة والري الحديثة. فإذا كانت اليابان تباري المحارة فتحط من قدرها، فالبحارنة يشمرون عن ساعد الجد ليضاعفوا في الجزيرة مواردها الزراعية.

(٥) البحرين في التاريخ الإسلامي[١]

كانت البحرين؛ أي البلاد التي على الساحل من البصرة إلى عمان، مستعمرة فارسية قبل الإسلام وفي السنين الأولى من البعثة النبوية، ولكن عمالها كانوا غالبًا من أمراء العرب، وكان سكانها من المجوس واليهود والنصارى ومن عرب نجد، وأكثر هؤلاء من عبد قيس ووائل وتميم.

وفي السنة الثامنة للهجرة أرسل النبي أحد الصحابة العلاء الحضرمي؛ ليدعو أهل هذه البلاد للإسلام أو للجزية. كان المنذر بن ساوي التميمي يحكمها يومئذ من قبل ملك الفرس، فلم يتردد في الاختيار بين دين التوحيد والوثنية، بل بين حكم قريش وحكم الأعاجم.

جاء العلاء الحضرمي، وقد كان من رجال الصحابة وصاحب كرامات، يدعو المنذر وأهل البحرين للإسلام، ولكنه لم يتمكن من هدايتهم كلهم. قبل المنذر وعربانه الدعوة حبًّا بالجنة ورجاء التخلص من ملوك الفرس، ورفضها الآخرون، فتركهم العلاء في ضلالهم يعمهون بشرط أن يقاسموه غلاتهم من الحب والتمر،

[١] قد اعتمدت في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين، تأليف الشيخ خليفة بن محمد النبهان المطبوع في مطبعة الآداب بغداد سنة ١٣٣٢هـ.

فقبلوا بذلك، وعاد الصحابي الحضرمي إلى مكة يحمل إلى النبي بشرى النصر المبين وكثيرًا من الغنائم والأموال.

بيد أن أهل البحرين بعد موت النبي ارتدوا قائلين: لو كان نبيًّا لما مات. فجاءهم العلاء ثانية ومعه جيش من المسلمين، فأدب أهل الردة وقتل كثيرين منهم، ولكنه لم ينتصر كل النصر، فكتب إلى أبي بكر يستمده، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد، وهو يومئذ في اليمامة؛ ليتوجه إلى البحرين ينجد فيها العلاء. جاء خالد فزعًا –كما يقول العرب حتى اليوم – وكان قد فر كثيرون من أهل الردة إلى الجزيرة، وتحصنوا فيها فأمر العلاء رجاله بالزحف عليها.

كان هذا الصحابي –كما قلت – صاحب كرامات مجاب الدعوة، وهاك منها اثنتين: بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها خلَّصهم من الموت عطشًا بأن صلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا.

فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وأمطرت حتى ملئوا الآنية وسقوا الركائب. ثم جاءوا السواحل فوصلوا إلى الخليج فلم يجدوا سفنًا فيه، وكان المرتدون قد أحرقوها، فصلى العلاء ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجزنا. وأخذ بعنان فرسه وهو يقول: جوزوا باسم الله فمشى ومشى وراءه جيش عدده أربعة آلاف، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر[1].

بعد أن أدَّب العلاء أهل البحرين وردهم إلى الصراط المستقيم حمل على الزبارة في قطر وقتل فيها المكعبر عامل كسرى، ثم عاد إلى البحرين فأمِّر عليها، إجابة لطلب أهلها. ثم خاض عباب الخليج فوصل إلى الشاطئ العجمي ودخل بلاد فارس فاتحًا.

وبعد ذلك ولاه الخليفة عمر على البصرة بدلًا من عتبة بن غزوان، وولى على البحرين عثمان بن أبي العاص ثم الربيع بن زياد الحارثي. سافر العلاء صاحب الكرامات والفتوحات إلى البصرة، ولكن الله لم يشأ أن يصل إليها، فاستدعاه إليه في الطريق وهو قريب منها، فلبى العلاء الدعوة، ولا يزال قبره معروفًا هناك.

دالت البحرين للخلفاء الراشدين ثم لبني أمية إلى زمان عبد الملك بن مروان، ذاك الذي أمر بردم عيون الجزيرة ليفقر أهلها فيلينوا للأمراء، ولكن عبد الملك لم يكن من المفلحين: فقد سبقه إلى استثمار الفقر رجل يدعى أبا فديك الخارجي، فاستولى على الجزيرة سنة كاملة، وكانت جنود ابن مروان قادمة إليها فدخلتها منتصرة وقتلت أبا فديك وستة آلاف من رجاله الخوارج، فعادت إذ ذاك السيادة إلى بني أمية في

---

[1] في رواية أخرى أنهم اجتازوا إلى دارين لا إلى أوال، وكانت يومئذ دارين جزيرة عامرة يؤمها عرب نجد للمسابلة. ودارين لا تبعد كثيرًا عن بر القطيف حتى إنه يستطيع الناس ساعة الجزر أن يمشوا من البر إليها. فالرواية الصحيحة إذن – وإن كانت تنفي كرامة العلاء الحضرمي – هي أنهم اجتازوا إلى دارين لا إلى أوال.

الشاطئين العربي والعجمي من الخليج.

ولكنها لم تخلص من الاغتصابات، ففي سنة ١٠٥هـ خرج على العامل الأموي في البحرين مسعود بن أبي زبيبة العبدي، فتغلب عليه ونصب الأشعث بن عبد الله الجارودي مكانه، فحكم الجارودي الجزيرة تسع عشرة سنة، ثم عاد الأمويون الكرة عليها، فتم لهم الاستيلاء الذي لم يدم بعد ذلك طويلًا؛ لأن دولتهم كانت قد بدأت تتقلص وتضمحل، فصار العباسيون يحلون محلهم في البلدان والأمصار، فاحتل عقبة بن سليم البحرين من قبل أبي جعفر المنصور، وظل عمال الخلفاء ببغداد يحكمون في الجزيرة والأحساء حتى سنة ٣٤٩هـ عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج[١] أحد الأنبياء الكاذبين.

كان صاحب الزنج شويعرًا في بغداد يحوم مستجديًا على مجلس المنتصر بن المتوكل وحول حاشيته، ثم جاء البحرين وهو يدعي أنه من السادة العلويين، فدعا القوم لطاعته فتبعه أناس وخالفه آخرون، فأدى الخلاف إلى التحزب فالقتال، وكان أصحاب البحرين أول من آمنوا به، فرفعوه إلى مقام النبوءة، وجمعوا له الخراج، وقاتلوا من أجله الأعداء، وقد قضى صاحب الزنج فترة في البادية اقتداءً بالأنبياء يستنزل على نفسه الوحي، فأوتي في تلك الأيام – وهو الشاهد على ذلك – آيات من النبوءة ظاهرة، فطفق يسب الخلفاء الراشدين ومعهم عائشة والزبير. كأن النبوءة تبدأ بالمسبات!

قال ابن الأثير وابن خلدون: إن صاحب الزنج كان يرى رأي الخوارج، وقد دعي بهذا الاسم لأنه في بادئ أمره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصرة فيعدهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الآخرة، بل كان يستغويهم بشيء من الجنة سلفًا. قيل إنه كان يأمر بالقبض على النساء من ولد الحسن والحسين والعباس ويبيعهن في عسكره بيع الإماء والأمتعة بدرهمين وثلاثة، فيشتري الزنجي عددًا من الشريفات ببضعة دراهم.

لا عجب إذن في تلبيتهم دعوته للجهاد، فطفق يشن الغارات الواحدة تلو الأخرى، وله في أكثرها الغلبة والغنائم. وفي سنة ٢٥٥هـ ادعى صاحب الزنج النبوءة وكتب على رايته الآية: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، وراح وزنوجه يسلبون وينهبون باسم الله. إن الغريب في حكم أولئك العباسيين أن مثل هذا الطاغية يثبت أربع عشرة سنة في طغيانه، فحكم في هجر اليوم وفي البصرة غدًا وتارة في الأحساء وطورًا في البحرين: فارًّا، كارًّا، صائلًا، طائلًا، قبل أن يتمكنوا منه فيقتلوه.

قال أحد المؤرخين، وهم يبالغون في الكلام على حروب صاحب الزنج: إنه قَتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمائة شخص! ولم يقتل في أكبر مواقع الحرب العظمى هذا العدد أو نصفه من الناس.

---

[١]هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس.

كأنه كتب لأهل البحرين مثلما كتب للعباسيين أن لا يدوم السلم والأمن طويلًا في ملكهم السعيد. قُتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠هـ فتنفست بغداد الصعداء، ثم ظهر في سنة ٢٧٨هـ أبو سعيد القرمطي. ويا لهول القرامطة!

جاء أبو سعيد حمدان من خوزستان إلى العراق، فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميتة لحمرة في عينه (اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين)، فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل، فخفف الاسم بعدئذ فقيل: قرمطة. وكان أبو سعيد قرمطة من الزاهدين المتقشفين ومن تلامذة عبد الله القداح الأهوازي والإسماعيلي الذي أسس في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بين العرب والعجم والتأليف بين الأديان كلها، أما مقاصدها السرية، السياسية والدينية، فقد ظهرت على يد القرامطة بأفظع مظاهرها.

دعا أبو سعيد وهو في العراق إلى إمام من أهل البيت، قيل إنه مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقيل إنه مُحَمَّد بن الحنفية. كان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطورًا لذاك، وفي كلتا الدعوتين فتنة على العباسيين. بل إن حركة القرامطة، أصلًا وفعلًا، هي حركة إيرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب، وإن ما ارتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الضعف والفساد؛ خصوصًا عهد المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر – ألقاب مملكة! –كان ينفِّر منهم الناس ويساعد كل من قام عليهم من الأعداء.

لذلك اجتمع على أبي سعيد خلق كثير، وجلهم من البادية؛ لأنه خفف عنهم أثقال العبادة، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحًا ومساء، وأعفاهم من صوم رمضان، فأحب البدو أبا سعيد وأكبروه وعظموه، وقالوا إنه الإمام المنتظر بعينه. فنشأ مذهبه ينتشر انتشارًا عجيبًا، فأشفقت دار السلام على أربابها منه، فجندت عليه الجنود، فصدها بعربانه وحاربها في أماكن عديدة وهزمها، ثم راح السيف ينشر في البلدان الدنية والقصية ما تأصل في قلوب القرامطة من عقيدة فيها نفي العقائد كلها، فاشتدت حروبهم على الخلفاء، وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين، أما شمالًا فإن جيوشهم اجتازت البادية والحماد فوصلت إلى بعلبك، ومنهم من غزا الحجاز واليمن.

وقد نظم الشاعر ابن مقرب العيوني تاريخهم، فأشار في قصيدته إلى ما كان من أمرهم أولًا ودمارهم آخرًا على يد جدوده. قال:

سل القرامط من شظَّى جماجمهم ... فلقًا وغادرهم بعد العلى خدما

من بعد أن جل بالبحرين شأنهم ... وأرجفوا الشام بالغارات والحرما

ولم تـــزل خـــيلهم تغشـــى ســـنابكها	أرض العـــراق وتغشـــى تارة أومـــا [1]
وحرقـــوا عبـــد قـــيس في منـــازلهم	وصـــيروا الغـــرَّ مـــن ســـاداتها حممـــا
وأبطلـــوا الصـــلوات الخمـــس وانتهكـــوا	شـــهر الصـــيام ونصـــوا[2] مـــنهم صـــنما
ومـــا بنـــوا مســـجدًا لله نعرفـــه	بـــل كلمـــا أدركـــوه قائمًـــا هـــدما

وقال المؤرخ الإنكليزي غُبن: إن القرامطة هم من أهم العوامل في سقوط الدولة العباسية. قد استمرت فتنتهم ستين سنة وتزيد، وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء أشده في السنوات الوسطى منها؛ أي مُنذ سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م إلى أن دخلوا مكة بقيادة زعيمهم أبي طاهر سنة ٣١٧هـ/ ٩٣٠م، فكان في ذلك الفتح ختمة المجد وختمة الفظائع والهول.

دخل أبو طاهر سليمان بن حسن القرمطي إلى مكة بجيوشه راكبين خيلهم، وأعملوا السيف بالحجاج، فقتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألف رجل وألوفًا من النساء، ووقف أبو طاهر عند الكعبة وسيفه بيده وصفَّر لفرسه فبالت هناك، ثم صعد على باب الكعبة وشرع يقول، بينما كان رجاله يرمون رءوس الشهداء في بئر زمزم:

أنا لله وبالله أنـــــــــــــــــــــــــــــا	يخلـــــــق الخلـــــــق وأفنـــــــيهم أنا

بعد ذلك أمر بقلع الحجر الأسود من محله فحمله القرامطة إلى الحساء، ولكنهم بعد اثنتين وعشرين سنة أعادوه إلى مكة. أما أن الحجر الذي أعادوه هو ذاك الحجر بعينه فالله أعلم.

دخلَتِ البحرين في حوزة القرامطة عهد المكتفي بن المعتضد، وظلت في حوزتهم إلى أن ضعف أمرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى. فقام لقتالهم عندئذ ثلاثة من العرب هم الأمير عبد الله بن علي العيوني في الأحساء، ويحيى بن العياش في القطيف، وأبو البهلول مُحَمَّد الزجَّاج في البحرين. ثم اقتتل هؤلاء على ما غنموا. وقد كان أبو البهلول ضامنًا لخراج الجزيرة فعصى فيها فجهز عليه القرامطة جيشًا من عرب عبد قيس، فبرز لهم بجيش من البحارنة فكسرهم في أول وقعة وطرد عمالهم من الجزيرة، ثم خطب له فيها بالإمارة فاستقام أمره بضع سنين، ثم ظهر عليه زكريا بن العياش الذي استولى أبوه يحيى على القطيف.

وما عتم أن استولى زكريا على البحرين بعد أن كسر البهلول في وقعة شديدة، فطمع بضم الأحساء أيضًا إلى ملكه، فخرج إليها من القطيف فلاقاه في الطريق أميرها عبد الله بن علي آل إبراهيم العيوني بجيش جرار فكسره في الوقعة الأولى وقتله في الثانية، ثم استولى على القطيف والبحرين؛ وفي ذلك قال شاعرهم ابن مقرب:

---

[1] اسم بلدة من بلدان عمان.

[2] أي نصبوا صنمًا.

وصــار ملــك ابــن عيــاش وملــك أبي الــ ــبهلول مــع ملكنــا عقــدًا لنــا نظمــا

ثم النصر للأمير عبد الله فأسس الإمارة العيونية التي استمر حكمها في البحرين نحو مائتين وخمسين سنة، ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب، وذلك أن أحد ملوك فارس الزنجيين[1] الذين استولوا على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقية، وهو أبو بكر بن سعد الزنجي، حمل على العرب في جزيرة قيس فهزمهم واحتلها، ثم اجتاز بجنوده البحر إلى جزيرة البحرين، فأخذها، واستولى بعدها على الأحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج. واستمر حكم الزنجيين حتى بعد أن ظهر جنكيزخان فشابه القرامطة بمدة دولته – ستين سنة – وبأهوالها.

وبعد مائة سنة من عهد المغول الأول جادت الليالي، ليالي الدمار والبلاء، بابنها الثاني تيمورلنك، فكمل أعمال جده جنكيزخان الفظيعة، واستولى على البحرين فيما استولى عليه من البلدان قبل دخوله بغداد. ثم خرجت الجزيرة بعد موته من حكم المغول ودخلت في حوزة شعب جاء من الغرب هذه المرة لا من الشرق، شعب ينشد ولا شك التجارة، ولكنه يسعى في طلبها سعي المعمر لا المدمر.

فبينا كان المغول في الشرق حاملين على كل مظهر من مظاهر الحضارة والعمران، يفتحون البلدان ويدمرونها، ويذبحون العباد، ويزرعون الويل والأحزان في كل مكان، بينا كانت هذه الغيمة السوداء الكثيفة مخيمة على الشرق الأدنى، تحجب عنه النور، وتفسد كل ما في الحياة من عوامل النشوء والبر، كان قد راش الفكر البشري في أوروبا فشرع يجول في سماء العلم والبحث والاكتشاف، وكانت الملاحة التي هي يد التجارة اليمنى أول ما انتفع بثمار الفكر والعلم، فراحت ترفع علم الجد والإقدام وراء الأوقيانوس في البلدان القصية.

جاء زمن أبطال البحار، ومن أولئك الكشافين الربان البرتغالي فسكو دي غاما[2] الذي أبحر حول «رأس الرجاء الصالح» ومخر عباب الأوقيانوس الهندي، فوصل إلى سواحل تلك البلاد العجيبة الهند، ضالة الأمم الغربية، وكان أول من أسس لدولته مُلكًا في الشرق وجاء بعده زميله ألفونسو دالبوكركِه[3] فرفع علم دولته في مسقط ودخل المضيق، مضيق هرموز، فاستولى عليه وحصَّنه تحصينًا، وتقدم في الخليج متفقدًا الجزر والأساكل فيه وهو يبغي الوصول إلى البصرة؛ ليفتح طريقًا لمستعمرة بلاده في الهند، وقد حاول سنة ١٥١٣ أن يحتل عدن فلم ينجح، لكنه تقدم في أسطوله في البحر الأحمر واحتل جزيرة كمران قرب الحديدة، ثم استولى البرتقاليون على جزيرة البحرين وعلى القطيف فحصنوهما كما حصنوا هرموز ومسقط، إلا أنهم لم

---

(١) لا علاقة لهؤلاء بصاحب الزنج.

(٢) فسكو دي غاما Vasco de Gama ولد سنة ١٤٥٠ وتوفي سنة ١٥٢٤.

(٣) ألفونسو دالبوكركه Alfonso d'Albuquerque ولد سنة ١٤٥٣ وتوفي سنة ١٥١٥.

يستولوا على الأحساء؛ لأن العثمانيين كانوا قد سبقوهم إليها، وبسطوا سيادتهم عليها، فعدوها يومئذ جزءًا من اليمن الذي كانوا قد احتلوا بعض نواحيه.

كان خليج العجم في قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب، ولا تطمئن دولة غربية في الهند ولا يستقر أمرها إذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح. أما إن الخليج أسهل وأصلح الطرق لتجارة الهند فغني عن البيان؛ هو أقل أخطارًا من البحر الهندي، وأقرب خطًّا وأسهل؛ لأنه في مأمن من العواصف والرياح، هو حصن إذا شئت وبابه مضيق هرموز حيث تكاد بلاد إيران تتصل ببلاد العرب. فضلًا عما في هذه الطريق من البلدان العامرة، فمن سواحل الهند إلى جزائر الخليج إلى البصرة، فبغداد فسوريا فمصر فأوروبا – هي طريق الكنوز.

أدرك ذلك أهل البرتقال قبل أن يدركه الإنكليز، ولكن أبناء الجزر وإن كانوا قد جاءوا إلى الهند بعد مائة سنة من مجيء فسكو دي غاما، فقد تغلبوا على البرتقاليين بعد جهاد طويل مستمر، تخلله الجم من الحيف والتعسف، فأخرجوهم كما أخرجوا الفرنسيس بعدهم من تلك البلاد.

أما حكم البرتقاليين في البحرين فلم يدم أكثر من أربعين سنة، يستدل على ذلك من كتابة على صخر في جزيرة صغيرة غربي المنامة تدعى جَدا[1] أخذ البحارنة حجارة منها لتجديد قلعة عجاج التي كان قد شيدها البرتقاليون، وهذه القلعة جددت بعد أن جلا البرتقاليون عن البحرين.

قال المؤرخ: شكا حاكم دلهي، وهي عاصمة الهند، إلى العثمانيين ظلم البرتقال للمسلمين، وطلب منهم المساعدة، فجهز لهم السلطان سليمان القانوني أسطولًا جاء به إلى الهند، فتحاربوا مع البرتقال حتى أخرجوهم منها ... ثم جاء الأسطول العثماني إلى مسقط والبحرين، وأخرج من كان فيهما من البرتقال كذلك[2].

وقد كانت للإنكليز في إخراجهم نهائيًّا من الهند يد قوية عاملة، عاملة في سبيل شركة الهند الشرقية لا في سبيل العثمانيين.

أما جلاء البرتقاليين عن البحرين فالمؤلف يزيدنا علمًا بذلك. قال: حصل اختلاف شديد بين أمراء

---

[1] هذه صورة الكتابة التي على حجارة جبل جدا: نقل من هذه الجزيرة مائة ألف حجر لتجديد قلعة البحرين على يد العبد فيروز في زمن وزارة جلال الدين شاه في شعبان سنة ٩٦٩هـ و١٨٦٨م — تاريخ البحرين للشيخ خليفة بن النبهان.

[2] بعد أن تغلب السلطان سليم على المماليك سنة ١٥١٧م فكر في احتلال عدن؛ ليجعلها مركزًا لحملة على البرتقاليين في الهند، فجاء ابنه سليمان في سنة ١٥٣٨ بأسطول كبير يحقق رغبة أبيه، فاحتل عدن وأقام حامية فيها، ولكن العرب قاموا بعدئذ على الترك فذبحوا حاميتها وسلموا البلد إلى البرتقاليين، فجاء الأسطول العثماني ثانية إلى عدن فأخرج البرتقاليين منها وأعاد الحكم العثماني فيها، ثم استأنف السير إلى الهند ليتم حملته على أهل البرتقال هناك.

جزيرة البحرين وكان أكثرهم من الشيعة، فرفعوا شكواهم إلى الشاه عباس الأول الصفوي وطلبوا منه الحماية لقربه منهم موضعًا ومذهبًا.

فأجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة الغربية، ولكنه بسط عليهم حمايته الشاهانية، فعادت البحرين إلى حوزة من حكموها مرارًا في سالف الزمان والأوان، عادت مستعمرة فارسية كما كانت يوم جاءها الصحابي العلاء الحضرمي يدعو أهلها للإسلام.

ولكن الحكم الفارسي في البحرين، وقد تسرب إليه ما كان قد اعترى الملك في بلاد فارس من الخلل والفساد، تخلله فترات من حكم العرب، حتى إن آخر عامل عربي من عمالهم، وهو الشيخ نصر آل مذكور، استنجد حكومة إيران في حملته على آل خليفة في الزبارة فلم تنجده، وكانت الوقعة بينه وبينهم (سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٢م) السبب في فراره إلى بوشهر وفي دخولهم إلى البحرين منتصرين.

(٦) آل خليفة

كانت الزبارة[١] في الماضي من البلدان العربية العامرة، تجارتها الكبرى اللؤلؤ، وسكانها من آل ابن علي والجلاهمة، وهم من عرب العتوب؛ أي بني عتبة، وهؤلاء فصيلة من جمّيلة، وجميلة فخذ من عنزى. وكان آل خليفة، وهم من أكبر عشائر بني عتبة، يسكنون بأرض الهدَّار من بلدان الأفلاج بنجد، فنزح الشيخ خليفة وأهله إلى الكويت في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة. وبعد وفاته هجر ابنه الشيخ محمد الكويت وجاء بأهله إلى الزبارة، فنزلوا على أبناء عمهم الجلاهمة وآل ابن علي.

كان الشيخ محمد بن خليفة ورعًا تقيًّا، حصيفًا حكيمًا، جاء من الكويت مغلوبًا على أمره وظاهر قصده شراء اللؤلؤ، جاء يبغي التجارة لا السيادة، فكان حظه من الاثنين وافرًا. أحبه أهل الزبارة لورعه وكرمه وأصالة رأيه، فرغبوا إليه وإلى قومه أن يقيموا بينهم ثم أمَّروه عليهم.

وعندما توفي الشيخ محمد تاجر اللؤلؤ السياسي خلفه ابنه الشيخ خليفة الذي لم يرث من أبيه غير شيء من التقوى مزجه بشيء من الشعر، وقد حج سنة ١١٩٧هـ. وتوفي في مكة، فخلفه في الحكم أخوه الشيخ أحمد، وهو يدعى الفاتح – أحمد الفاتح الذي احترب وآخر عامل من عمال الفرس في البحرين؛ أي الشيخ نصر آل مذكور، فغلبه واستولى على الجزيرة.

لما استقر حكم آل خليفة في الزبارة، عاد أهلها إلى الاتجار، فكانوا يقصدون إلى البحرين لشراء اللؤلؤ الذي كانوا يبيعونه في الهند، وكان البحارنة من أهل الشيعة، وهم يومئذ يكرهون أهل السنة ويضمرون لهم العداء. فحدث ذات يوم خلاف بين الفريقين أفضى إلى قتال قتل فيه أحد خدم آل خليفة، فثأر له أهل

---

[١] بلدة على شاطئ قطر قبالة جزيرة البحرين.

الزبارة، وحملوا على البحارنة، فاستغاث هؤلاء بحاكمهم الشيخ نصر، فأعد لهم أسطولًا من السفن مجهزة بالجنود وتولى بنفسه القيادة، ولما دنوا من الزبارة خرج عليهم أهلها بالسفن فحاربوهم وكسروهم شر كسرة، فأقلعوا هاربين إلى بوشهر. أما البحرين، فكانت قد خلت من الحامية، فسار إليها الشيخ أحمد بقومه، واستولى عليها سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٢م، وهي السنة التي توفي فيها أخوه الشاعر الورع في مكة. كانت تجارة اللؤلؤ من عوامل الفتح الأحمدي كما كانت سابقًا من دواعي الفلاح في إمارة أبيه الشيخ مُحَمّد علي الزبارة.

أقام الشيخ أحمد عاملًا من قبله على البحرين، وعاد إلى عاصمته في قطر، على أنه لم يستمتع وقومه بثمار النصر غير بضع سنين؛ لأن ابنه الشيخ سلمان الذي خلفه كان خوارًا ضعيف الرأي والإرادة، وكان قد نبغ في تلك الأيام رجل في نجد فراح يكتسح البلدان والأمصار ويستولي على القبال الدانية والقاصية؛ هذا الرجل هو الأمير عبد العزيز آل سعود إمام الوهابية الذي كان قد وصل بجيوشه إلى الأحساء، فخاف عرب الزبارة أن يستولي عليهم، فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان إلى البحرين.

هربوا من الوهابية القاهرة، من خطر البر، فوقعوا في خطر أدهى وأشد جاءهم من البحر يقوده ويدفعه السيد سلطان حاكم مسقط، وكأن السيد سلطان أدرك اعوجاجًا في حكم البحرين الجديد فجاء يقوِّمه بأسطوله وسيفه، فبادر إليه الشيخ سلمان مواليًا لا معاديًا؛ لأنه لم يرغب بإكراه البحارنة على القتال، وكان قد اطلع –كما يقول المؤرخ– على بعض مكاتباتهم إلى حاكم مسقط يرغبونه في الاستيلاء على بلادهم. هذا من الشيخ سلمان إنصاف في الحكم وعدل في الرعية. الإرادة للشعب! ولكن الصلح الذي عقده والسيد سلطان، والذي بموجبه قدم أحد إخوانه رهينة إلى حاكم مسقط الظافر، لا يعد في عين عنزى وربيعة من شيم الرجال. ولَّى السيد سلطان ابنه السيد سعيدًا على البحرين وعاد بالرهينة والغنائم إلى مسقط.

أما العتوب فعادوا إلى الزبارة بذلهم وهم لا يزالون موكِّلين أمرهم إلى الشيخ سلمان. ولكنهم نهضوا لاسترجاع البحرين بعد أن توفي أخوه الرهينة في مسقط، وشرعوا يفاوضون أمير نجد بذلك؛ طلبوا منه المساعدة فأجاب طلبهم حبًّا وكرامة، ولم يدركوا ما كان قد ظهر وشاع من مقاصد الرجال القومية والدينية، مع أنه كان قد استولى يومئذ على الحرمين.

أبشروا يا عتوب! هذا إبراهيم بن عفَيْصان أحد قواد ابن سعود الأباسل، جاء بجيوشه يسترجع ملككم – يسترجعه يا بني عتبة ليضمه إلى ملك أهل التوحيد وابن سعود، وكذلك كان. دخلت قوات الزبارة ونجد إلى البحرين فضربوا السيد سعيدًا فهزموه وأخرجوه من الجزيرة.

وكان الكلام لابن عفيصان: البحارنة مشركون ولا يصلح المشركين إلا أهل التوحيد، أما آل خليفة فأعفاهم القائد النجدي من الإصلاح؛ فاعلًا أو مفعولًا، وأذن لهم بالرجوع إلى الزبارة، فعادوا ثانية مدحورين مغبونين، وشرعوا يفكرون برفع أمرهم إلى حضرة الإمام في الدرعية علَّه يرسل من قبله من يؤدب ابن

عفيصان، أو علَّه في الأقل يأذن لهم بالرجوع إلى البحرين. وبينا هم يفكرون والشيخ سلمان صدرهم يفكر أكثر من الجميع، إذ أقبلت عليهم سرية من سريات الفاتح الكبير فاستولت على الزبارة وأمرت آل خليفة بالسفر إلى نجد، وكان الأمير سعود قد خلف وقتئذ أباه عبد العزيز.

سافر في سنة ١٢٢٤هـ ثلاثة من آل خليفة ليقابلوا إمام الوهابية في الدرعية. فلما وصلوا إليها أكرم الأمير سعود وفادتهم ولم يأذن لغير أعيان الزبارة بالرجوع، أما آل خليفة فأنزلهم في القصر ضيوفًا عليه، وأسراء بين يديه.

فلا يستغرب رجوعهم إلى السيد سعيد بن سلطان الرجل الذي أخرجوه من البحرين، يستنجدونه هذه المرة ليخرجوا ابن عفيصان منها، وكان الشيخ عبد الرحمن بن راشد آل فضل رسول أخواله آل خليفة إلى حاكم مسقط، ولكنه، على عزمه ودهائه، لم يظفر من السيد سعيد بغير المال عونًا.

أخذ الشيخ عبد الرحمن المال وسافر إلى بلاد فارس، أو بالحري إلى فَرْس المقاطعة الجنوبية، وفيها مستعمرة عربية من عرب النصور، فألف منهم جيشًا – بالمال تقوم الحروب – وأرسل إلى أخواله يخبرهم بذلك ويطلب منهم أن يتأهبوا للهجوم، فجاء آل خليفة برجالهم من الزبارة واتحدوا مع ابن أختهم عبد الرحمن وجنوده فتواقعوا مع جيش ابن عفيصان وكسروه وأخرجوه من الجزيرة. أقلع النجدي هاربًا إلى قطر ونزل هناك على رجل يدعى ارْحَمَة بن جابر الجلاهمة.

بعد أن استولى عبد الرحمن آل فضل على البحرين ونقل آل خليفة إليها، تبعهم قوم من العرب كثيرون، ولما علم الإمام سعود بخروج ابن عفيصان مهزومًا حاول استرجاع الجزيرة من الشيخ عبد الرحمن بوساطة أحد أخواله الأسراء في الدرعية، فأرسل الشيخ عبد الله بن أحمد منهم يصحبه بعض رجاله ليستطلعوا خبر عبد الرحمن ويروا ما إذا كان استولى على البحرين لنفسه أو ليعيد إليها سيادة آل خليفة. هي السذاجة في النوابغ وفيمَن لا يزالون على الفطرة الأولى.

لا نعلم ما أوصى به الإمام سعود رجاله، ولكن المؤرخ يقول: إنهم جاءوا إلى الشيخ عبد الرحمن بالخشن من الكلام –كيف يجرؤ العيال أن يستولوا على البحرين وآباؤهم في قبضة الإمام؟ فقال الشيخ عبد الرحمن: دونكم العيال، فإنهم حاضرون.

فتقدم إذ ذاك الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان وقال: نحن أخذنا البحرين لأنفسنا ولا حاجة لنا بآبائنا، وقد يئسنا منهم وسمينا بأسمائهم[١].

كفَّر الولد الشجاع عن ضعف أبيه فأغضب رجال نجد، فقالوا يهددون الشيخ عبد الرحمن: لو كان

---

[١] يقول العرب عندما يفقدون أحدًا من أهلهم: سمينا باسمه.

يمكن للخف والحافر أن يطأ البحرين لنثرناها حصاة حصاة. فأجابهم قائلًا: لو كان يمكن لقُبَّيت الجابري[1] أن يطل على الدرعية لجعلنا عاليها أسفلها.

ولكن الأقدار بعثت على الدرعية بغير «قبيت الجابري» ليهدمها؛ ففي تلك السنة أو بعدها بقليل جاء إبراهيم باشا المصري يحارب أهل نجد، فشغل الإمام ابن سعود عن الأجزاء الصغيرة، مثل قطر والبحرين في ملكه المترامي الأطراف، فأطلق سراح بني خليفة وتركهم وشأنهم، فعادوا إلى الجزيرة يتولون فيها زمام الأحكام.

لم يصفُ لهم الجو مع ذلك؛ لأن قطر قريبة من البحرين، وفي قطر أرحمة، وعنده ابن عفيصان. وكان أرحمة بن جابر الجلاهمة عزيزًا في قومه جبارًا عنيدًا، فلم يدن لآل خليفة، بل كان يباريهم في السيادة ويسعى في انتزاع الإمارة من أيديهم، ثم جاء ابن عفيصان يزيده غلًّا ونفورًا، فوُحدت النزعتان والثأران، وكان يُنتظر من رجلَي قطر مباشرة القتال، ولكن آل خليفة عندما استقر أمرهم في البحرين، جهزوا أسطولًا من السفن الشراعية وأبحروا إلى قطر. توكلنا على الله! نحرقها إن شاء الله! وكان أرحمة وابن عفيصان قد علما بذلك فتأهبا للحرب. توكلنا على الله! هي لنا إن شاء الله!

خيم الليل فأوقف الخليفيون سفنهم أمام المكان المقيم فيه أرحمة وابن عفيصان وهو يدعى الخوَير. وكان أرحمة ملاحًا ماهرًا وقائدًا خبيرًا فلم تسره مناورة أسطول العدو إذ رأى أنواره – تعبئة هذه السفن يا إبراهيم تنبئ بوجود الشيخ عبد الله بن أحمد فيها. فقال إبراهيم متهكمًا: والشيخ عبد الله من المحبوسين في الدرعية. هات الدليل على نبوءتك يا أرحمة.

– تعبئتها تعبة قائد خبير، ولا يمكن أن يكون غير الشيخ عبد الله. ثم استدعى زورقًا وأشعل فيه سراجًا، وأمر أحد رجاله أن يقف به وراء السفن، فلما رأى قائد الأسطول ذلك خشي أن يكون النور نور سفن أرحمة، فأمر سفنه أن تقف وراءه دفعًا لهجوم يجعله محصورًا بين العدو والبلد، فلما رأى أرحمة ذلك تيقن أن الشيخ عبد الله قائد الأسطول، وأعجب بدهائه وبمقدرته الحربية.

– لا تسرني هذه الحركة يا إبراهيم. هيا بنا إلى البحر.

خرجوا بالسفن إلى البحر، وعند انبلاج الفجر تقابل الفريقان فأدرك أرحمة أن من الحزم ألا يقاتل القوم؛ لأن قوته لم تكن كافية، فاغتاظ ابن عفيصان عندما قال له ذلك وظنها جبانة منه، فأوعز إلى أحد رجاله أن «يحورب»[2]:

---

[1] القبيت: أنف السفينة. والجابري: اسم سفينة عبد الرحمن.

[2] حورب: أي هزج، وهي من اصطلاح اللبنانيين وعرب نجد.

لا خـــير في رجـــل يجـــر جريرتـــه وإذا تضـــايق دربـــه خلاهـــا[1]

فغضب أرحمة واعتزى قائلًا: لا بالله ما نخليها. ثم أمر بنشر الشراع وبرز للقتال.

اشتبكت السفن بعضها ببعض، فتلاطمت الأشرعة، وأنَّت الأخشاب من الصدمات، ولصقت سفينة أرحمة بسفينة راشد بن عبد الله، فجاء أبوه يدعمه بسفينة من الجنب الآخر كيما يمنعه ساعة الخطر الأشد من الفرار، وكأني بأرحمة وقد عاين الشيخ عبد الله يقول لابن عفيصان: أتبغي الدليل على نبوءتي؟ خذه يا إبراهيم.

حمي الوطيس بين الجمعين، فدوَّت البنادق بالرصاص، وأبرقت خلال الدخان السيوف، وسالت الدماء من المراكب فخضَّبت الأمواج، واشتعلت النيران في الخشب والأشرعة، فتطايرت منها الشهب وتساقطت الشظايا الملتهبة – تبغي الدليل على نبوءتي؟ خذه يا ابن عفيصان. راحت القتلى تسابق الرصاص إلى قعر البحر، وفيهم راشد بن الشيخ عبد الله، ثم حجبت النيران والدخان سفينة أرحمة، وقهقهت فوق عرشتها زبد الموج المخضب بدم الأبطال، فنجا سيد الجلاهمة وحليفه ابن عفيصان على لوحة من خشب – هل رأيت حرب العتوب يا إبراهيم؟ ولكن الهول أصمَّ ابراهيم وعقل منه اللسان.

أما أرحمة فلم يكن ممن تسكتهم الهزيمة وتصمتهم الأهوال، لم يوفق في شركته وابن عفيصان إلى مراده، فسافر بعد تلك الوقعة إلى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان.

– آل خليفة أعداؤك يا سعيد وأعدائي، كسروك مرة وكسروني، ولست يا سعيد ممن ينامون على الضيم. لا بالله!

وحلف أرحمة بعز العتوب، وحلف سعيد برأس أبيه.

ثم ناصب صاحبُ مسقط الخليفيين العداء؛ وذلك أنه قبض ذات يوم على تجار من البحارنة كانوا يقصدون الهند، وفيهم الشيخ عبد الرحمن آل فضل عدوه الأكبر، فعرجوا على مسقط فاعتقلهم في برج القلعة، وكتب إلى أهل البحرين يطلب منهم الطاعة والخراج، فأجابه الحاكم الشيخ سلمان، وكانت منه حيلة من حيل السياسة والحرب: إننا بغنى عن هؤلاء، وقد نسيناهم وسمينا بأسمائهم.

أما السيد سعيد فكان قد تأهب للحرب، فجاء بأسطوله إلى البحرين بصحبة أرحمة الجلاهمة، فنزلوا في سترة على شاطئ الجزيرة، وأقاموا هناك ثلاثة أيام فلم تظهر طلائع البحارنة. فتهكم سعيد قائلًا: عتوبك غابوا؛ أي ماتوا! فغضب أرحمة؛ لأنه عتوبي، وعندما ظهرت أعلامهم خلال النخيل في صباح اليوم التالي صاح قائلًا: هم عتوبي ظهروا يا سعيد. توكل على الله.

[1] هذا من الشعر الذي يدعى في نجد بالنبطي؛ أي العامي.

ولم تكن ساعة بعد التحام الجيشين حتى أسفرت الوقعة عن هزيمة أهل مسقط وفرارهم إلى البحر، فلما رجع السيد سعيد إلى بلاده همَّ بقتل تجار البحرين المعتقلين عنده، ولكن أخته موزة نهته عن ذلك وأنَّبته قائلة: هم في جوارنا وأسرى بيدك؛ فأي فخر في قتلهم. دوِّل على البحرين وخذ بثأر أخيك؛ أي جهز عليها مرة ثانية. وأخوه كان قد قتل في وقعة سِترة.

أثرت في سعيد شهامة أخته موزة ثانية تأثيرًا حسنًا، فعاد إلى البحرين، ولكنه سالم أهلها هذه المرة فعقد معاهدة مع أميرهم الشيخ سلمان الذي سلَّم الجزيرة سابقًا إلى أبي سعيد دون قتال، ومن شروطها أن يدفع أهل البحرين قسمًا من الخراج إلى حاكم مسقط، فيطلق سراح المعتقلين عنده.

وبعد وفاة الشيخ سلمان الرجل المسالم تولى الحكم أخوه الشيخ عبد الله، وهو الحاكم الثالث من آل خليفة في البحرين. وكان أرحمة لا يزال حيًّا يرزق وخصمًا لا يموت إلا قتالًا، لكن الزمان والكروب أوهت منه العظم وذهبت بالبصر. أما القلب الذي تعشق الأخطار في سبيل المجد فلم يعترِه وهيٌ أو نصب، ولم يخمد فيه ذاك النور الذي لا يرى شرفًا في غير الشجاعة والثبات. قام أرحمة ومعه بعض قومه يعيد الكرة على البحرين، أرحمة وحده هذه المرة لا حليف ولا شريك له، فدخل القطيف راكبًا سفينته المشهورة «غطروشة» فجرَّد عليه الشيخ عبد الله السفن، وقد شحنها بالرجال وخرج يقودها بنفسه.

أحاطوا بأرحمة البطل الضرير في ميناء القطيف، فأمر بنشر الشراع وطلب ميدانًا متسعًا للقتال، فأجيب إلى طلبه. أفسحوا لغطروشة فخرجت إلى عرض البحر، ثم انقضوا عليها من كل جانب. وكان أرحمة وهو جالس عند خزانة السفينة ومعه ابن له صغير إلى جنبه وعبده طرَّار واقف فوق رأسه يسأل عن السفن الهاجمة عليه، وعن قوادها فيخبرونه فيقول: هذا لا يجرؤ على مقابلتنا ... هذه لا تلحقنا. ثم يصدر الأوامر للنوتية بينما رجاله يبادلون العدو إطلاق الرصاص. وعندما دنت سفينة الشيخ أحمد بن سلمان من «غطروشة» أخبروه بها فقال: هذا يطابقنا لا محالة؛ لأن جنبه لا يلامس ناعمات الأبدان؛ أي إنه لم يتزوج.

بعد قتال بالرصاص شديد تلاصقت السفينتان، فتجالد الفريقان، واشتد الضرب بينهما والطعان، بينما أرحمة الضرير يحارب بلسانه وجنانه، فيحرض رجاله، ويصدر أوامره، ويسأل تارة ابنه، وطورًا يستخبر عبده طرارًا.

— أين صاروا يا ولَيْد؟

— عند الدقل. [1]

— جنِّبوا. جنِّبوا ... والآن أين صاروا؟

---

[1] الدقل: الصاري.

– صعدوا النَّيْم[1].

سكت أرحمة سكوته الأبدي، إذ قرن كلمته الأخيرة بالعمل، فأخذ ابنه ووضعه في حجره، وعمد إلى نار فألقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته؛ «بيدي لا بيد عمرو»، فدوى دوي غرقت فيه أصوات البنادق كلها، وضحك الزبد المخضب بالدماء فوق عرشة الغطروشة.

تسمى هذه الوقعة في تاريخ البحرين: «ذبحة أرحمة الجلاهمة». قل: هي مجده وتخليده. رحم الله كل من مات بطلًا في ساحة الوغى.

كان لأرحمة ابن آخر اسمه بشر، حاول الأخذ بثأر أبيه فراح إلى صاحب مسقط السيد سعيد يستنجده على آل خليفة. وبما أنهم كانوا قد امتنعوا عن دفع الخراج جاء سعيد، إكرامًا لبشر بن أرحمة، يعلمهم حفظ العهود، فخرج له الشيخ عبد الله بجيشه وكسره في أول وقعة وقتل من رجاله ثلاثة آلاف.

عجايب يا بني عتبة عجايب ثلاثة آلاف ما فيهم شايب

وقد حارب في هذه الوقعة مع آل خليفة مزيد بن هذال وبعض قومه العمارات[2].

أخذت نشوة النصر مأخذًا من الشيخ عبد الله فحببت إليه الفتح والاستعمار، وكان قد تجدد بينه وبين أمير نجد الخلاف فجهز جيشًا بحريًّا وسار به إلى دارين ففتحها، ثم إلى تاروت فاستولى عليها، ثم إلى سيهات في القطيف فحاصرها، فجاءت جيوش نجد توقفه في فتوحاته، وقامت تساعدهم الفتنة في بيته، بل أفقدته تلك الفتنة ما كان قد استولى عليه في القطيف.

إن السبب في مثل هذه الفتن المألوفة في بيوت أمراء العرب هو غالبًا تعدد الزوجات الذي ينشأ عنه ضغائن بين الأشقاء، ومنافسات بين الأمهات؛ خصوصًا إذا كن من قبائل مختلفة.

كان للشيخ عبد الله عشرة أولاد؛ منهم ثلاثة أمهم من آل بني علي – العشيرة التي مر ذكرها في الكلام على أهل الزبارة – فخرجوا على أبيهم يطالبون بالإمارة وقصدوا إلى الحوَيلة[3] يستنجدون أخوالهم فيها، فأرسل الأب عليهم جيشًا بقيادة حفيد أخيه الشيخ مُحَمَّد بن خليفة بن سلمان، فهاجمهم في الحويلة وهزمهم في الوقعة الأولى، فتابوا وقالوا لأبيهم: إننا من الطائعين، فعفا عنهم وأذن لهم بالرجوع إلى البحرين.

ولكن روح الفتنة التي خرجت منهم حلت بالرجل الذي حمل عليهم باسم أبيهم، وظهرت قرونها بعد

---

[1] النَّيْم: سطح مؤخر السفينة.

[2] لا يزال بنو هذال وشيخهم اليوم فهدبك مؤمرين على هذا الفخذ من عنزى الذي يسمى العمارات. وهم من عشائر الشمال يقيمون في أرض عند وادي حوران بين سوريا والعراق.

[3] الحويلة قرية في الطرف الشمالي من قطر.

ثماني سنوات من وقعة الحوَيلة؛ ذلك أن الشيخ مُحَمَّد، حفيد الرجل المسالم الشيخ سلمان، قام على الشيخ عبد الله كأن يتقاضاه أجرة تأديب أولاده، فحاصره في المحرق. وكان ابنا أخيه سلمان، الساكنان يومئذ في الرفاع، يميلان إلى عمهما وهو يثق بهما، فاستنصرهما على ابن أخيهما الثائر عليه، وجهز لكل منهما جيشًا كبيرًا، فاحتربوا في وقعتين فاندحر في الثانية الشيخ مُحَمَّد بن خليفة، وبعد أن وكل أخاه الشيخ عليًّا بأن يرعى الفتنة سرًّا راح يستنجد الأعداء على الأقرباء.

سافر أولًا إلى نجد فصده أميرها، فعاد إلى قطر وأرسل إلى آل إبراهيم الذين كانوا يومئذ في جزيرة قيس من أعمال فارس يدعوهم لقتال أعدائهم السابقين حكام البحرين، فلبوا الدعوة مسرعين ومعهم الجلاهمة يرأسهم بشر بن أرحمة، وكان الشيخ مُحَمَّد في قطر والشيخ علي في البحرين يتعاونان في إضرام نار الفتنة وتجهيز الجيوش لها.

أزف يوم القتال، فخرج الشيخ علي بجيش على الشيخ عبد الله فكسره وتقدم إلى الرفاع فاستولى عليها، ثم جاء الشيخ مُحَمَّد بجيشه فزحف على المنامة ودخلها منتصرًا. وكان الشيخ عبد الله في المحرق فعبر إليها ووقع بينه وبين الثائرين قتال كان عليه وبالًا، فلجأ وبعض رجاله إلى القلعة فتحصنوا فيها، وما كان الحصن حصينًا. فرَّ الشيخ عبد الله من القلعة هاربًا إلى بلاد فارس، ومنها جاء إلى الكويت يستنجد حاكمها فلم ينجده، فسار منها إلى نجد، وكان نصيبه هناك الفشل أيضًا، فسافر بعدئذ إلى مسقط فمرض فيها، ومات بعد أيام حزينًا طريدًا.

حكم الشيخ عبد الله بن أحمد بن مُحَمَّد بن خليفة في البحرين اثنتين وعشرين سنة، قضى جلَّها في قمع الفتن، وفيما عقم من الحروب، وخلفه مُحَمَّد الثائر، الشيخ مُحَمَّد بن خليفة بن سلمان، الذي كان السبب في انقسام آل خليفة إلى حزبين: حزب آل عبد الله، وحزب آل سلمان. وهذا الشقاق بما نشأ عنه من الفتن والحروب أدى إلى تدخل الإنكليز، فتح الثلمة التي يتعشقها «سفين» السياسة. سأقص قصة الإنكليز في حينها ومكانها.

أما الآن فالحلقة التي نحن فيها من هذا التاريخ تتعلق بالشيخ مُحَمَّد بن خليفة آل سلمان. وقد علم القارئ مما تقدم من سيرته أنه كان شجاعًا عزومًا مقدامًا، ولكنه لم يعلم بأنه كان ذا بداهة عجيبة تدنو من الرؤيا فتمكنه من تفسير الأحلام، والتنبؤ بما تخبئه الأيام. أما في السياسة فقد كانت الحرباء مثاله الأعلى، ولا غرو، فالدولة العثمانية كانت قد بدأت ترمق الكويت والأحساء والبحرين بنظر الأم الرءوم، وكانت الدولة الإيرانية لا تزال تحلم برجوع ابنتها الضالة فترأم حبل سيادتها في الخليج، وكان الإنكليز — بعد أن ثبتت قدمهم في بوشهر — يسيرون في المضيق بين الدولتين إلى مقاصدهم الكريمة. فهل يلام الشيخ مُحَمَّد إذا قام بينهم كالبهلول يدهشهم تارة، وطورًا يضحكهم، ولا يرضي باطنًا أحدًا منهم؟ قيل: إنه كان ينشر في القلعة

علمين؛ علمًا عثمانيًّا فوق البرج الغربي منها وعلمًا إيرانيًّا فوق البرج الشرقي، حتى إذا حاولت إحدى الدولتين التحكم بأموره ادعى النسبة إلى الأخرى. ولكن الإنكليز أدركوا سر هذه السياسة، وعلموا أن في العرب أنفسهم من لا يسره نجاحها.

تولى الشيخ محمد الحكم سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه أثناءها أحد من أعدائه، لكن يظهر أن أبناء سلفه الشيخ عبد الله الذين هربوا بعد سقوط أبيهم إلى الدمام في القطيف كانوا يتأهبون لذلك؛ فقد كان في القطيف يومئذ آل ابن علي وزعيمهم عيسى بن طريف الطامع بملك البحرين، فاتحد وآل عبد الله وجاءوا إلى قطر يشهرون الحرب على الشيخ محمد، فبعث أخاه عليًّا على رأس جيش كبير نازلهم في أم سوية فقُتل في الوقعة عيسى بن طريف، وقفل الشيخ مبارك بن عبد الله وإخوانه هاربين إلى الدمَّام ... «يلزمنا يا أولاد بوبي حليف آخر ... دونك يا مبارك وابن سعود».

وكان أمير نجد يومئذ فيصل بن تركي الذي نهض للحرب يسترجع ملك أجداده، فأجاب طلبتهم بأن بعث يمدهم بجيش في البحر وسار يقود بنفسه جيشًا بريًّا، وعندما أبحر آل عبد الله وأنصارهم إلى البحرين كان الشيخ محمد قد حشد الجيوش برًّا وبحرًا لمقاومتهم، فغلبهم ثانية في وقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك وابن عدو آل خليفة الألد بشر بن أرحمة، ثم حاول آل عبد الله ثالثة أن يأخذوا بثأر أبيهم فلم يفلحوا، فبعد أن حاصرهم الشيخ علي أخو الشيخ محمد في الدمام أحد عشر شهرًا وأضعف شوكتهم، لجأ إلى ابن سعود ليكون هذه المرة وساطة الصلح بينهم وبين ابن عمهم، فقام الأمير فيصل بهذه المهمة المبرورة، وكان من المفلحين، فعاد آل عبد الله إلى البحرين فعفا الشيخ محمد عنهم وأكرمهم غاية الإكرام.

ومع ذلك لم يصف الجو للشيخ محمد؛ فلم يكد يخمد نار الفتنة في القطيف حتى اشتعلت في قطر التي كانت يومئذ تابعة للبحرين، فقام أهلها وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن ثاني يخلعون نير الطاعة ويهددون آل خليفة بابن سعود.

فأرسل الشيخ محمد أخاه عليًّا ليؤدب العصاة، فوصل الشيخ علي بجيشه إلى الدوحة عاصمة قطر، ودخلها بغتة، فأعمل في أهلها السيف ثم دمرها تدميرًا. جاء بعد ذلك الشيخ قاسم إلى البحرين يلتمس العفو فألقاه الشيخ محمد في السجن، فهاجت لذلك قبائل قطر بأسرها، وفي مقدمتهم عرب النعيم، وجاءوا بأسطول من السفن يهاجمون البحرين، فلما وصلوا إليها وجدوا جيشًا في البحر مستعدًّا للقتال، فحدث في مكان اسمه دامسة معركة شديدة، تلاصقت فيها السفن فشبكت بكلاليب الحديد، وتجالد الفريقان فاحمر وجه الماء من دم القتلى، وكان الفوز للبحارنة.

وكانت وقعة دامسة هذه (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) السبب في تدخل الإنكليز بشئون البحرين.

لست ممن يشكُّون في أن الإنكليز يبغون السلم ويسعون في توطيد الأمن في الخليج العجمي، بل هم

يبغون السلم ويسعون في توطيده في كل مكان يتخذونه طريقًا لتجارتهم وسبيلًا لتأييد سياستهم في الهند. وقد بان للقارئ فيما سردته من تاريخ البحرين أن الخليج – وهو أهم هذه الطرق –كان دائمًا مسرحًا للفتن والحروب التي يسببها حب السيادة والاستعمار. جاء الإنكليز بعد أهل البرتقال وقصدهم الاستيلاء عليه، والمحافظة فيه على الأمن والسلامة، فبسطوا شيئًا من سيادتهم ونفوذهم على بعض الجزر والأساكل على الساحل العجمي؛ منها بوشهر التي هي اليوم[١] مركز الحاكم العام.

وراحوا ينشدون الأمن والسلام – والسيادة طبعًا – في الجهة العربية منه. نريد الخليج طريقًا آمنة للتجارة أيام السلم، ونريده أيام الحرب وهو مفتاح الهند بيدنا وحدنا. إنما هذه هي غاية الإنكليز الأولى والأخيرة، ولا ريب بذلك. أما الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية، والسياسة التي انتهجوها لتعزيز سيادتهم في الخليج، فتلك قصة أخرى لا أحرم القارئ طرفًا منها.

قلت إن الشيخ مُحَّد بن خليفة كان شاذًّا في بداهته إلى درجة تصبح البداهة فيها ضربًا من الرؤيا، ولكنه لم يرَ شيئًا – وا أسفاه – مما كنَّته الأقدار في تقرب الإنكليز منه، جاءه الوكيل السياسي من بوشهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا[٢]، فمن يرفض هاتين النعمتين؟ وكان الشيخ مُحَّد كما أوضحت محاطًا دائمًا بالأعداء من القبائل ومن آل بيته، تزعزع حكمه الفتن والحروب، فرأى الحكمة والمصلحة في عقد المعاهدة، وإن كان من شروطها أن يتنازل حاكم البحرين عن حقوقه في تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية، فقد تعهدت بريطانيا في مقابلة ذلك أن ترد عن البحرين كل غارة بحرية. هذه خلاصة المعاهدة أو الاتفاق.

فلما ثار أهل قطر على حكومة البحرين وجاءوا يهجمون على الجزيرة، خشي الشيخ مُحَّد من استيلائهم عليها بينا هو يفاوض الوكيل السياسي في بوشهر[٣] وينتظر النجدة منه، فكانت وقعة دامسة وكانت فاتحة المحنة.

ركب الوكيل السياسي مركبًا حربيًّا وجاء يحتج على الشيخ مُحَّد بأنه خرق المعاهدة بينه وبين بريطانيا،

---

[١]سنة ١٩٢٢.

[٢]حدثني أحد أفاضل البحرين قال: كان للبحرين أسطول شراعي كبير مسلح بالمدافع والذخيرة استفحل أمره، فاستولى حكام الجزيرة على قطر والقطيف، فخشي الإنكليز عاقبة ذلك؛ لأن مصلحتهم تقضي بأن تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة لكل منها أمير مستقل، فأخطروا أمراء البحرين بأن القتال في البحر ممنوع، وأن لبريطانيا حقًّا بمنعه تعترف لها به الدول الكبرى، فلا يجوز أن يخرج أسطولكم إلى عرض البحر، وإذا خرج فالأسطول الإنكليزي يقوم بواجبه. فاحتج الشيوخ الأمراء أن بلادهم جزر مفتوحة ثغورها لا حصن لها إلا الأسطول، فإن لم ندفع به الأعداء ملكوا بلادنا ورقابنا، وإذا لم نهاجم هوجمنا. فأجاب الإنكليز: إذا كان الأمر كذلك فإن حكومة بريطانيا، إذا امتنعتم عن الهجوم البحري، تتعهد برد الأعداء عن بلادكم.

[٣]بوشهر: هي على الشاطئ الفارسي، وتبعد نحو مائة وخمسين ميلًا عن البحرين شرقًا بشمال.

ولكن الشيخ محمدًا وكل أخاه عليًا بالأمر وسافر إلى قطر قبل أن يصل الوكيل إلى البحرين، فعدَّ الوكيل ذلك اعترافًا منه بنكث العهد وفرارًا من التبعة والجزاء، فأمر بإطلاق مدافع البارجة على القلعة التي كانت تزدهي بعلمي تركيا وإيران، ثم طلب من الشيخ علي أن يتولى الحكم بدل أخيه الذي سقطت إمارته بخرقه المعاهدة. قبل الشيخ علي، وكان من قبوله الشقاق بينه وبين أخيه. فقد أشار إلى ذلك ابن أخيه شاعر البحرين الشيخ إبراهيم في القصيدة التي يرثي بها والده، حيث قال:

فنازعـــك الشـــقيق وكـــان قـــدمًا حســـامك والأمـــور لهـــا انتـــزاع
وأغـــرى الـــدهر بينكمـــا وهاجـــت علـــى الإفســـاد بينكمـــا الرعـــاع

كان الشقيقان متحابين يخلص أحدهما للآخر، ولم يبدُ في خلال ثلاثين سنة التي فيها حاربا وأدارا الشئون معًا أقل ميل في علي إلى منازعة مُحَمَّد الحكم والسيادة. كانا – والحق يقال – مثال الوداد والوفاء حتى مجيء الوكيل السياسي من بوشهر، فكان الأخلق به أن يكتفي بما فرضه على البحرين من المال؛ أي مائة ألف روبية تعويضًا وتأديبًا، ولا يزرع في سياسة البلاد الداخلية تلك البذرة التي تأصلت في البيت المالك ولا تزال تنتج الفتنة والشقاق.

بعد أن تولى الشيخ علي الحكم سافر أخوه الشيخ مُحَمَّد إلى الكويت فتدخل آل الصباح يصلحون بين الشقيقين، فكتب الحاكم يومئذ الشيخ عبد الله إلى الشيخ علي يسأله أن يرجع الأمر إلى ما كان عليه، فقبل الشيخ علي بذلك.

فجاء الشيخ مُحَمَّد يصحبه حاكم الكويت وأخوه إلى البحرين، ولكنهم علموا قبل أن ينزلوا إلى الجزيرة بأن الشيخ عليًا عدل عن رأيه وأصر على أمره. ولا شك أن اليد التي كانت تؤيده هي اليد التي أقامته حاكمًا.

لا يحكـــــم الصـــــياد أشـــــباكه إلا إذا عكـــــر بطـــــن الغـــــدير

عاد الشيخ مُحَمَّد، الذي لم يُقهر مرة في حياته، إلى ما فيه من قوة ودهاء، فنزل في دارين وشرع يتأهب هناك للقتال، فحشد جيشًا من بني هاجر وأعلن الحرب على أخيه، فخرج له الشيخ علي بجيشه فاقتتلوا قتالًا شديدًا ذُبح فيه الشيخ علي وتفرق جيشه، فعاد الشيخ مُحَمَّد إلى الحكم الذي ما زالت الفتنة تشتد فيه والمحن تزداد يومًا فيومًا.

كان أبناء الشيخ عبد الله من الذين نصروا الشيخ مُحَمَّد على أخيه، وهم مسرورون بما حدث بين الأخوين المغتصبين الحكم من أبيهم، ثم بادروا إلى الانتفاع بما أسلفوه من مساعدة فادعوا أنهم كانوا السبب في انتصار الشيخ مُحَمَّد وقاموا يناهضونه، ثم قبضوا عليه فسجنوه في القلعة التي كان يرفع فوقها العلمين التركي والإيراني. وقد قال لهم الشيخ مُحَمَّد عندما اعتقلوه، وكان في نبوءته صادقًا: لن يطول حكمكم أكثر

من ثلاثة أشهر.

وكان الأمر كذلك، إذ قبل أن يتم الشهر الثالث جاء الوكيل السياسي من بوشهر في مركبه الحربي وتولى أمور البحرين المضطربة، «فاستشار» الأهالي، بعد أن أطلق بضعة مدافع على سراي المنامة، فيمَن يختارون حاكمًا عليهم، فأجمع رأيهم على الشيخ عيسى بن الشيخ علي الذي قتل في الحرب الأخيرة، ثم طَرد من البحرين بني هاجر، وهم أتباع آل عبد الله، وأخرج الشيخ مُحَمَّد بن خليفة من القلعة فاصطحبه ومحمدًا بن عبد الله في البارجة، فأنزلا في جزيرة ثم نقل مُحَمَّد بن خليفة من تلك الجزيرة إلى بمباي، ثم إلى عدن، فأقام فيها عدة سنين أسيرًا.

بعد ذلك شفع فيه السلطان عبد الحميد إلى الحكومة البريطانية، فأذنت له بالسفر إلى مكة، ولكنه لم ينعم فيها، فقد مات هناك سنة ١٣٠٧هـ، كما مات الشيخ عبد الله في مسقط حزينًا طريدًا.

(٧) الشيخ عيسى والإنكليز

عندما قُتل الشيخ علي آل سلمان آل خليفة –كما ذكر في الفصل السابق – سافر ابنه الشاب الشيخ عيسى مع إخوته وبني عمه إلى قطر، فنزلوا على قبيلة النعيم فيها، وعندما استفتى الوكيل السياسي البريطاني أهل البحرين بعدئذ في حاكمها أجمع رأيهم على الشيخ عيسى[١]، فكتب إليه الوكيل يخبره بذلك ويسأله أن يعود، فعاد بمن كان معه من عشيرته وقبيلة النعيم ونزلوا في المحرق، ثم نصِّب حاكمًا على البحرين في آخر شعبان سنة ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م، وهو في الواحد والعشرين من سنه[٢]. فعاد الحكم إلى آل سلمان، وكانت فيه خاتمة الفتن والحروب الأهلية.

قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ما قد يكون الطريقة المثلى في التاريخ، فغربلت الحوادث، واخترت منها الأعم الأهم، وعلقت عليها في بعض المواضع بالإيجاز الذي يوجبه المقام، وأفضت ببعض المواقع تتميمًا للصورة الذهنية، صورة الزمان والمكان والأحوال، واجتنبت أولًا وآخرًا الإطراء والإطناب، فوصفت الرجال بما تمليه أعمالهم على المؤرخ.

ولو أني تمشيت على أسلوب التاريخ الذي بين يدي لكان ينبغي لي في الكلام على الشيخ عيسى بن علي أن أقول: إنه «استلم زمام الملك بيد الحزم والتدابير، فدانت له القبائل والعربان، ونشر رايات العدل

---

[١] هو عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد الفاتح بن مُحَمَّد، تاجر اللؤلؤ، ابن خليفة الذي نزح من الأفلاج بنجد ونزل في الكويت. وآل خليفة من بني عتبة وهي فصيلة من جميلة، وجميلة فخذ من عنزى تمت إلى بني أسد فربيعة فعدنان.

[٢] ولد الشيخ عيسى في محرم سنة ١٢٦٥هـ، وأمه ابنة عيسى بن طريف آل ابن علي الذي خرج على الشيخ مُحَمَّد عم الشيخ عيسى لما كان حاكمًا.

والأمان، وقمع بسيفه البغاة والعدوان، وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين، وأظل بأغصان فضله الأرامل والمساكين، فألقى السعد عصا تسياره بقصره، وخصه بين الأنام بنصره ... إلخ».

ولكن التاريخ هو غير السجع، يجب أن يكون للتاريخ عينان وعقل ووجدان، ولا بأس إذا كان له شيء من البداهة والتصور. أما القلب فلا حاجة له فيه، ولا يجوز. إن التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له، وهو الآن يشهد ويقول: إن للبارجة البريطانية التي كانت في ثغر البحرين يوم استفتي البحارنة، يدًا قوية في ذلك السعد الذي «ألقى عصا تسياره» في قصر الشيخ عيسى.

ويقول أيضًا: إن ملكه الذي استمر خمسًا وخمسين سنة كان أكثر عدلًا وسلمًا وإصلاحًا من ملك من تقدمه من أجداده؛ ولذلك أسباب منها ما يتعلق بشخصه الكريم، ومنها ما يتعلق بالإنكليز، ومنها ما هو ناشئ عن روح الزمان في المدنية والعمران.

كان الشيخ عيسى كريمًا جوادًا، فقد أنعم على القبائل التي كانت معه في قطر بمبالغ جسيمة من الأموال يوم تقلَّد الإمارة، وأعطى في جلسة واحدة أربعين رأسًا من الخيل الأصائل، ووصل بني عمه بالطرف النفيسة والجواهر والبساتين.

هي السجية الأولى التي كان يسترسل إليها ويعتمد على ما فيها من قوة البرهان والإقناع، حتى إنه لم يكن ليرى غير الكرم في بعض الأحايين سبيلًا إلى توطيد الحكم وتعزيزه، وقلَّما استبقى من واردات البلاد شيئًا لنفسه، بل كان ينفقها كلها، منذ كانت تعد بالألوف إلى أن صارت تعد بالملايين، على وفود العرب، وأفراد عشيرته، ثم في الإصلاحات العامة.

اعتمد الشيخ عيسى على الكرم، وقلما اعتمد على غيره من مزايا النفس، أريد بذلك أنه لم يكن ليثق كثيرًا بنفسه أو يعتمد عليها، بل كان في جل أموره وكلًا؛ فإذا جرب إنسانًا، ولو تجربة طفيفة، اعتمد عليه ووثق به على الدوام، فيصم أذنه عن كل ما فيه ذكر مساوئه أو الإشارة إليها، وقد نشأ من هذا الضعف خلل في الأحكام وفي جباية الخراج.

أما العدل فقد كان غالبًا معززًا في عهده. والحق يقال: إن الشيخ عيسى نفسه لم يظلم إنسانًا، عرضًا أو عمدًا، في مدة حكم زاد عن نصف قرن؛ فقد كان دائمًا يتحرى العدل والإنصاف، ولكن ذلك لا ينفي ما كان يحدث من المظالم في دوائر أحكام البحرين، وإن سدل عليها أستار من التمويه؛ لأن الرجل —كما قلت —كان وكلًا فلا ينتبه إلا بعد حين إلى أعمال معتمديه.

ولم يكن الشيخ عيسى يميل إلى الجديد والتجدد، بل كان منذ حداثته محافظًا كل المحافظة على القديم، فلا يغير شيئًا مما درج عليه، ولا يرغب بشيء فيه بعض الخروج عن المألوف، وظل كذلك حتى أصابه في آخر أيامه سهم من روح الزمان، وحاقت به سنن الرقي والعمران، فقام يساعد في إنشاء المدارس ويأمر ببناء

المحاجر والمرافق العامة في بلاده.

وقد وضع أول حجر في أول مدرسة بيده، وخصها براتب شهري بعد أن افتتح جريدة الاكتتاب بمبلغ وافر من المال.

ومن سجاياه الممتازة، فضلًا عن الكرم وحب العدل، أنه كان صادقًا في ولائه وفيًّا؛ فقد أحسن الظن بالسياسة البريطانية؛ لاعتقاده أن بريطانيا لا تريد إلا نشر تجارتها وتعزيزها، ولكنه جهل –كما يجهل الكثيرون حتى من البريطانيين أنفسهم – ما كان منطويًا من مقاصد تلك السياسة[1]، فأمن مناوأتها.

أجل، إن إخلاص الشيخ عيسى للإنكليز خمسًا وخمسين سنة، للإنكليز الذين ساعدوا في إقامته حاكمًا، ثم أذلوه وامتهنوا حرمة ملكه مرارًا، ثم أسقطوه عن العرش الذي رفعوه إليه. إن إخلاصه لهم، وحسن ظنه بهم، لمن الفضائل التي قلما نجدها في غير العرب من الشعوب الشرقية؛ وما كان ذلك إلا لأنهم ساعدوه في بداءة أمره، ولأنه عاهدهم على أشياء منها الاعتراف بالاتفاق السابق بينهم وبين عمه الشيخ محمد، ذلك الاتفاق الذي قضى على أسطول البحرين وجعل البلاد متكلة على بريطانيا في الدفاع عن نفسها.

ومع ذلك لم يحنث الشيخ عيسى بعهده، ولا عقد اتفاقًا سريًّا مع دولة أخرى من الدول. كتب إليه مدحت باشا عندما كان والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة بعد اتفاق ودي بينه وبينها، فدفع الكتاب إلى أصدقائه البريطانيين وكتب إلى مدحت يقول: حسبي بريطانيا صديقة وحليفة. وقد فاوضته كذلك الحكومة الألمانية بوساطة معتمدها التجاري في البحرين، فكان جوابه: لا أقدم على بريطانيا أحدًا، ولا أعاون عليها عدوًّا. كثيرًا ما اعترض رجاله على هذه الثقة المطلقة، وفيها التغاضي عن المساوئ، فكان الشيخ يقول: إن بريطانيا أثبت الأمم الأوروبية في المعاهدات، فقد اعترفت باستقلال بلادي وحرية حكومتي ولا أريد أكثر من ذلك.

فهل قام الإنكليز بما توجبه عليهم الصداقة، بل العهود بينهم وبين شيوخ البحرين؟ قد اعترفت إنكلترا باستقلالهم، فهل احترمت هذا الاستقلال؟ سأتخذ من تاريخ البحرين عهد الشيخ عيسى بن علي ثلاث حوادث فيها الجواب على هذا السؤال، وسأرويها بما يجيزه التدقيق من الإيجاز.

أما أول هذه الحوادث فهو ضرب الزبارة سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م التي كانت أول ما حكم آل خليفة في قطر عندما جاءوها من الكويت، وبعد أن نُقلوا منها إلى البحرين غدت عشًّا للفتن والثورات؛ ذلك لأن

---

[1] حدثني موظف سابق في الوكالة السياسية البريطانية بالبحرين قال: كان يجيئنا ويخرج من عندنا كثير من الرسائل والبلاغات السرية. إن في دار الوكالة منها ما يملأ بضعة صناديق، ويدهش فحواها كثيرين حتى من رجال الحكومة بلندن.

فيها الجلاهمة وآل ابن علي وبني هاجر النازعين دائمًا إلى الفتن طمعًا بالسيادة والحكم.

فقاموا سنة ١٣١١هـ ينفخون في نار الفتنة فأضرمت في الزبارة ونواحيها، وتأهب الثائرون للهجوم على الخليفيين في البحرين، فرأت الحكومة وجوب إخماد الفتنة، ولم ترَ إلى ذلك وسيلة غير الأسطول الذي كان لا يزال عندها قسم منه، فتشاور الشيوخ وأقروا بذلك، ثم بعثوا يعرضون الأمر على الوكيل السياسي لبريطانيا في بوشهر ويستأذنونه، فحذرهم الوكيل من نقض الاتفاق، فطلبوا منه الدفاع عن البلاد، ذلك الدفاع الذي يوجبه الاتفاق، فتعلل الوكيل أولًا، ثم اشترط في مقابلة الدفاع شروطًا جديدة؛ منها أن يكون لبريطانيا وكالة في البحرين، ويكون للوكالة الحق بالمشارفة على قضايا الرعايا البريطانيين، فماذا يفعل شيوخ آل خليفة في مثل هذا الموقف الحرج؟ ويلهم من الثائرين الزاحفين على بلادهم! وويلهم من البوارج البريطانية الراسية في الخليج إذا هم دافعوا عن البلاد! قبلوا بالشروط الجديدة، فأبحرت إذ ذاك البوارج إلى الزبارة وفرَّقت بقنابلها الثائرين.

والحادثة الثانية حدثت بعد عشر سنين (سنة ١٩٠٣) وهي بنفسها طفيفة، ولكنها خطيرة في نتائجها: خادم ألماني أهان ابن أخي الشيخ عيسى فضربه، فشكاه الخادم إلى رئيسه، فرفع الرئيس الدعوى إلى الوكيل السياسي البريطاني[١] وإلى حكومة ألمانيا.

وبعد أيام اتفقت الحكومة المحلية والرئيس الألماني فاعتذرت عما فرط من ابن أخي الحاكم، ودفعت إلى الخادم ثلاثة آلاف روبية. على أن هذه التسوية لم ترضِ – على ما يظهر – الوكيل السياسي في بوشهر، وكان يومئذ السر برسي كوكس، فجاء بمراكبه الحربية فرست في مياه البحرين وأنزلت بعض جنودها إلى البر، ثم عرض الوكيل لائحة بما تطلبه الحكومة البريطانية جزاء ضرب الألماني، فنفذت مادة مادة. حُرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية، وحكم على ابن أخي الشيخ عيسى بالنفي خمس سنين قضاها في الهند، وأحيل إلى الوكالة البريطانية بالبحرين النظر في دعاوي الأجانب كلها.

أما الحادث الثالث في سياسة الاستيلاء التدريجي فقد حدث في شهر أيار من سنة ١٩٢٣. ولا بد قبل أن أرويه من تمهيد: في البحرين من التجار والعمال النجدي والإيراني، وقد علم القارئ أن الاثنين بموجب الاتفاق الأخير بين حكومة البحرين وحكومة بريطانيا به يعدان من الأجانب، فيجب أن تسمع

---

[١] ليس لبريطانيا قناصل في الخليج العجمي؛ لأن وظيفة القنصل تجارية، ومصالحها في الخليج تقتضي أن يكون لها هناك ممثلون سياسيون، وهؤلاء في المنصب اثنان: الموظف السياسي Political Offiicer والوكيل السياسي Political Agent، وفي الخليج وكيل سياسي أول مركزه في بوشهر يرجع إليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين ولنجه وغيرها في الأساكل والجزر. أما مرجع الوكيل السياسي في بوشهر فهو حكومة الهند. وبما أن في البحرين كثيرين من الهنود فقد أطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقبًا هنديًّا؛ فهو يدعى هناك بَليوس.

دعاويهما في دار البليوس؛ أي الوكيل السياسي البريطاني بالمنامة.

وهذا البليوس – ابتغاء حزب له من الإيرانيين – سعى في عزل رئيس بلدية المنامة ونصب مكانه أحد تجارهم مُحَمَّد شريف خان بَهدور الذي اشتهر بكرهه للعرب، وقد كان لهذا الرئيس صنيعة البليوس نفوذ في الأحكام يدنو من نفوذ الحكومة الوطنية ويتجاوزه في بعض الأحايين. هذا هو التمهيد.

أما الحادث فهو أنه في أوائل أيار من تلك السنة سُرقت ساعة من بيت تاجر نجدي، فاتُّهم بالسرقة رجل فارسي، فقام بعض أهل بلاده يدافعون عنه، فأدى ذلك إلى اختلاف بينهم وبين النجديين، فتحزب الفريقان واشتعلت في القلوب الأحقاد الكامنة، فأفضى النزاع إلى القتال. وكان مُحَمَّد شريف رئيس البلدية يغري العجم في هذه الفتنة بقتل العرب.

ولما كان المتقاتلون كلهم من الأجانب فقد اكتفت الحكومة بحفظ الأمن ما استطاعت. ولا أظن مما شاهدته في البحرين يوم كنت هناك أنها كانت تستطيع كثيرًا.

أبرق البليوس خبر الفتنة إلى الوكيل السياسي في بوشهر، فجاء مسرعًا تصحبه بارجتان، وكان أول ما طلبه من الحكومة أن يعتزل الشيخ عيسى الحكم، فأبى الشيخ، فأصر الوكيل، وجمع فريقًا من الناس فأعلن فيهم عزل الشيخ عيسى وتولية ابنه الشيخ حمد مكانه. وهذه البوارج في الثغر نلفت إليها نظر الوطنيين المشاغبين.

ثم تبع العزل والنصب سلسلة من الإجراءات السياسية؛ فقد ألغيت المحاكم الوطنية، وعينت من واردات الجمارك وغيرها، التي تحولت إلى بنك بريطاني في المنامة، رواتب شهرية للشيخ حمد ومن دونه من أفراد الأسرة الحاكمة. وقد تأسس ديوان يدعى مركز الحكومة ليقوم مقام المحاكم الوطنية يحضره الشيخ حمد والبليوس، فينظران معًا في شئون البلاد الداخلية.

هذه هي قصة البحرين والإنكليز عهد الشيخ عيسى بن علي؛ من حكومة مستقلة ذات أسطول حربي، إلى حكومة ولا أسطول، إلى حكومة يراقبها وكيل سياسي بريطاني، إلى حكومة تشارك في إدارة شئونها الداخلية والأجنبية حكومة بريطانيا بوساطة بليوسها ووكيلها في الخليج، إلى ... والليالي بالحادثات حبالى!

(٨) النهضة الوطنية

لم يكن للوكيل السياسي في البحرين قبل انقلاب أيار سنة **١٩٢٣** غير حق النظر في قضايا الأجانب، ولكنه كان يتدخل بشئون البلاد على قدر ما تسمح به الأحوال وتمكنه منه السياسة التي تستمد قوتها من مصالح التبعات الأجنبية ومشاكلها، ومن البوارج الراسية في الخليج. وكان هذا التدخل ينعم ويخشن ملمسًا بالنسبة إلى البليوس؛ أي الوكيل، وصفاته الشخصية؛ إذ ليس بين بريطانيا وحكومة البحرين معاهدة

مسجلة، بل هناك اتفاقات كما أسلفت، تضمن للإنكليز ما حازوه تدريجًا من نفوذ في البلاد، وتضمن للبلاد حريتها واستقلالها.

سألت عن شكل الحكومة عندما كنت هناك فعلمت أنها ثلاثة أشكال: وطنية وأجنبية ومختلطة. وكان سمو الشيخ عيسى يومئذ يدير الأولى، والبليوس يدير الثانية، ورئيس البلدية العجمي صاحب الكلمة النافذة في الثالثة. وقد أنشأت هذه الحكومة المثلثة الزوايا أربعة أنواع من المحاكم: الأهلية؛ أي الشرعية، وهي التي تنظر وحدها في دعاوي الوطنين. والأجنبية؛ أي دار الوكالة البريطانية، وهي تنظر وحدها في دعاوي الأجانب كلهم. والمختلطة؛ أي التي كان رئيس البلدية يومئذ عضوًا من أعضائها للنظر في الدعاوي بين الوطنيين والأجانب. ثم محكمة الغوص، ولها قانون خاص يتساوى به الأجانب والوطنيون.

ولكن انقلاب أيار ذهب بالشكل والشعار، فعزل الشيخ عيسى –كما قلت – وألغيت المحاكم الوطنية، ثم عزل مُحَمَّد شريف رئيس البلدية إجابة لطلب ابن سعود. إذ عندما وصلت أخبار الفتنة إلى القصر بالرياض، وعلم السلطان عبد العزيز بما كان لهذا الرجل في إثارتها وإغراء قومه بعرب نجد، طلب من البريطانيين عزله، فعزلوه حالًا. ثم أدغمت المحاكم على أنواعها بالمجلس الذي يشترك في رئاسته الشيخ حمد بن عيسى والبليوس، فأمست الحكومة المثلثة حكومة مزدوجة، وأمسى الحاكم الوطني شريكًا للحاكم البريطاني.

ها قد وصلتُ إلى معظم أو كل الأسباب فيما سمعته من الشكوى والأنين هناك، وأشرت إليه في مطلع هذا القسم. قلت إن في البحرين نهضة وطنية، ولكنها سياسيًّا مقيدة. كانت قبل أيار قانطة فأمست بعده منكوبة، وكان السبب في القنوط السبب نفسه في النكبة، لا يختلف إلا في درجتي الشدة والمدى. ومن المسئول؟ إذا سألت البحارنة يجيبون: الإنكليز. وإذا سألت الإنكليز يجيبون: البحارنة.

هناك حقيقتان في تاريخ البحرين وسياستها الخارجية لا أظن أحدًا من الفريقين ينكرهما؛ الحقيقة الأولى التي ألفت إليها نظر البحارنة هي أن البحرين، عندما كان لها أسطول حربي قبل عهد الشيخ عيسى بن علي، كانت وجيرانها في احتراب دائم. وقد علمتُ مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها أن بلية العرب الأولى –كانت ولا تزال – هي النزوع في كل قبيلة، بل في كل عشيرة، إلى الاعتزال والاستقلال. لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توجبه القبيلة، أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني. لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهًا، ثم ينزعون إلى السيادة المستقلة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا. الجهل هو عدو التضامن، والجهل المسلح هو عدو الرقي والعمران؛ فالسلاح بيد العرب اليوم – اللهم إذا كانوا لا يخرجون على روح البداوة فيهم أولًا فيجمعون شملهم تحت علم واحد – هو مضر بهم، مضر جدًّا. لا يزال أكثر الأمراء جاهلين، أو أنهم من المحافظين على القديم البالي، المقاومين لمبدأ الرقي والتجدد. فما الفائدة من القوة

بأيديهم؟ ما الفائدة من أسطول يمكننا من الاستيلاء على قطر والقطيف والأحساء إذا كنا لا نوسع في الملك غير القوة الغاشمة، الجاهلة ما في روح الزمان من أسباب الرقي والعمران؟ يلزم البلاد العربية في هذا الزمان عشرون سنة في الأقل من السلم الدائم المستمر، فتؤسس المدارس أثناءها ... تفتح على الدوام، وتنفتح لأبنائها الأذكياء أبواب العمل في الصناعة والزراعة، وفي علوم الاقتصاد والإدارة. هذي هي الحقيقة الأولى التي لا يجهلها أدباء وعقلاء البحرين.

أما الحقيقة الثانية التي ألفت إليها نظر الإنكليز، فهي أن السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم، لا لهم ولا للعرب.

هي تضر بمصالح بريطانيا ليس في البلاد العربية فقط، بل في الشرق أجمع، وتضر بالاسم البريطاني وكل ما يرمز إليه من علم وكرم أخلاق وثقافة. السياسة الإنكليزية في البلاد العربية تخبطت في مضيق جانب منه مظلم، وجانب براق فيه وشل من الماء خدع المحبين، يخفيه سراب خدع الأعداء. مثَل ذلك في البحرين ووعدُها الشيوخ بالدفاع عن البلاد إذا هم دمروا أسطولهم الحربي. على أن كل دفعة من ذاك الدفاع أفقد البحرين –كما بينت – شيئًا من حريتها واستقلالها؛ فقد كان الدفاع درجات إلى الاستيلاء، فمن يثق بعد ذلك بوعود الإنكليز وعهودهم؟ أما إذا كانوا يبغون رفع العلم البريطاني فوق دار الحكم في الجزيرة فليس أسهل من ذلك. إن دولة من الدول الصغيرة التي لا تبلغ قوة أسطولها جزءًا صغيرًا من قوة الأسطول البريطاني لتستطيع ذلك في يوم واحد. ولعمري، إن مثل هذا الاحتلال خير من تلك السياسة التي هي كالبركان أو الزلزال، لا يظهر شيء من قصدها الحقيقي إلا مرة كل خمس أو عشر سنوات.

حدثني أحد أدباء البحرين قال: إذا كان هناك فرق بين الاستعمار الإنكليزي واستعمار الدول الأخرى، فهو أن هذا كالجزار الذي يقتل شاته دفعة واحدة، وذاك من يعذب الشاة وخزًا بالإبر حتى الموت.

ولو لم أكن شاهدت وسمعت ثم تحققت ما شاهدت وسمعت، لكنت أقول إن محدثي يبالغ فيما يتكلم، ولكنها – ويا للأسف – الحقيقة بعينها لا مبالغة فيها.

أما أن سياسة بريطانيا في البحرين هي غير سياستها في الأقطار العربية الأخرى، فمما لا شك فيه. وقد أوضحت مبدأها المرن في معالجة شئونها الخارجية بحسب اختلاف المكان والزمان، وشرحت ذاك المبدأ في سياستها العربية في كلامي على لحج والنواحي المحمية. وبما أن بريطانيا تدير هذه السياسة بوساطة وزارة الهند بلندن، ثم بوساطة حكومة الهند في دلهي، فلا أظن أنها عالمة كل العلم بما يحدثه من المشاكل وكلاؤها السياسيون في البلاد العربية؛ ولا سيما في خليج فارس. فضلًا عن أن الوكيل يموه في بعض الأحايين دفاعًا عن عمله وحفظًا لمركزه. قد توخيت الصراحة التامة فيما أكتبه بهذا الشأن غيرة على الاسم البريطاني وحبًّا بتحسين وتعزيز العلائق الودية بين بريطانيا والبلاد العربية. ومما ينبغي أن أذكره أن كثيرًا ما يسوِّد صحيفتها

أحد أبنائها المقربين الذين لا يكونون في الشرق مؤمرين لولا نفوذ بعض أصدقائهم وأقاربهم في الحكومة بلندن.

حدثني أحد الموظفين البريطانيين في حكومة العراق عن ثورة ١٩٢٠، وعندما علم أني مسافر إلى البحرين قال: ستجتمع هناك بواحدٍ ممن وصفت. وكان قد أفاض بالحديث في طبقة من الموظفين البريطانيين الذين يتخذون السر آرنلد ولسون مثالًا في الحكم، فيحذون حذوه في سياسته، وليس لهم شيء من حسناته، هم من الضباط الذين لا يصلحون لغير الخدمة العسكرية، فلا يفهمون العرب، ولا يحبونهم، ولا يعطفون أقل العطف على قضيتهم.

جئت البحرين وما تمكنت من الاجتماع بالوكيل البريطاني فيها، ولكني مما سمعته – وقد حدثني به الكبير والصغير والوطني والأجنبي – تحققت ما قاله زميله في حكومة العراق؛ فقد كان يقاوم كل فكرة إصلاح في الجزيرة غير التي يكون له فيها الكلمة الأولى والأخيرة، ولا يرى حقًّا في غير القوة، ولا عدلًا في غير العسف والاستبداد. فهل يا ترى سياسة دَونِن ستريت بلندن أو سياسة بوشهر؟ وما هي سيئات الوكيل وسيئات الأصيل؟

إن البليوس موظف له رئيس في بوشهر، وللوكيل في بوشهر رئيس في دلهي، ولولي الأمر في دلهي رئيس في وزارة الهند بلندن، ولرئيس تلك الدائرة مستشاران أو وزيران في الوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات، ولهاتين الوزارتين سياسة ثابتة قديمة التقليد غامضة المقاصد في الشرق وفي البلاد العربية، تتمشى دائمًا عليها. أضف إلى ذلك أن كثيرًا ما تصدر الأوامر من إحداهما مبنية على هذه الخطة لا على الجديد المهم من الأحوال في البلاد التي تختص بها، فتجيء الأوامر وما فيها غير اليسير من الحكمة والعدل، بل ما فيها أحيانًا شيء من الحكمة والعدل، فتصل إلى رجل متصلف متعسف، قصير النظر والأناة، فينفذها بالحرف ويثير على أمته غضب الأهالي وكوامن بغضائهم.

فلو كان الوكيل حصيفًا حكيمًا، مدركًا عوامل التقدم في البلاد التي هو فيها، عطوفًا ولو بعض العطف على مساعي الوطنيين في سبيلها، لكان يطلع حكومته على حقيقة الحال ويسألها التبصر بها والاسترشاد بشيء من حقائقها في تكييف الخطة السياسية وتلطيفها، ولو كان الوكيل رجلًا كبيرًا، مثله الأعلى العدل في كل الأحوال، أو لو كان في الأقل دمث الخلق، لين الجانب، محبًّا للعرب، لكان يتمكن من خدمة بلاده بما فيه كذلك مصالح البلاد التي وكل بها. ليس هذا بالأمر المستحيل، وليس مثله بالرجل النادر في الحكومة أو في الأمة البريطانية.

أعود إلى الحادث الذي أوجب هذا البيان. طلب أهالي البحرين في السنين الأخيرة ثلاثة مطالب من الحكومة، كلها ولا شك عادلة، فوقفت السياسة البريطانية تصدهم وتقاوم مسعاهم. طلبوا تشكيل جمعية

تشريعية، فأجاب الشيخ عيسى بالإيجاب وأبى البليوس؛ طلبوا تنظيم بوليس وطني، فرضي الشيخ عيسى ورفض البليوس؛ قدموا لائحة إصلاح استحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها، فقامت عليه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل وبذل ما لديه من قوة لإحباطها.

سمعت شكاوى الوطنيين في البحرين، وسمعتها فيما اتصل بي من أخبارها بعدئذ في الفريكة، فأفسحت لها مجالًا في هذا الكتاب تستحقه، وكتبت إلى أحد الأفاضل هناك كتابًا أقتطف منه ما يلي:

إن في الأمر ما يضعف الأمل بالإنكليز، ولكن التاريخ لا ينبئنا بحادث من الحوادث كانت فيه إحدى الأمم القوية الاستعمارية متغلبة وحدها على أمة أخرى صغيرة، بل نرى غالبًا أن المغلوب يساعد على نفسه الغالب المنتصر. ماذا يحمله على ذلك؟ الجهل والضعف والجبن والمصلحة الخاصة والطاعة العمياء ... أما الطاعة العمياء فقد تفيد في سبيل وطنية عامة كبيرة كما لو كان العرب كلهم اليوم يطيعون ابن سعود مثلًا أو الملك حسينًا أو الإمام يحيى بن حميد الدين ويمتثلون لأوامره. عندئذ يعز العرب، وعندئذ يصلح الأوروبيون سياستهم في الشرق، وعندئذ، إذا طغى في البحرين أو في قطر آخر طاغٍ أجنبي أو وطني، تذكرونه بكلمة ذاك العربي إلى الخليفة الثاني وتقوِّمون أمره بحد السيف.

أما الآن فعليكم أن تقتبسوا العلوم وتصبروا، وإني أعتقد أن العلم بالاقتداء هو أسرع فعلًا وأثبت؛ لذلك أستحسن وجود الشركات الأجنبية المجردة من كل صبغة سياسية في البلاد؛ فإنها تعلمنا الاقتصاد والنظام والإدارة من حيث لا ندري أو نشاء، والعرب في حاجة شديدة إليها كلها...

ما جنى على العرب يا صديقي غير أنفسهم. كنا وكنا وكنا ... حديث مبتذل. يوم أقفلت المدارس في البلاد فعمَّ الجهل وتوارثه الأبناء كنا الجانين على أنفسنا، المقيِّدين بالجهل أرواحنا، وبالخرافات عقولنا. واليوم نرى العلم والمال بيد الأوروبيين. ويوم كان الاثنان بيد العرب أخذهما الأوروبيون عنهم. فهلا اقتدينا بهم في الماضي فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ونربي في الوقت نفسه روح القومية الشاملة فينا؟! لو كنت في سوريا وعرفت سبب بليتها لقلت: أما نحن فعرب من صميم العرب وديننا الإسلام، فلا سبيل إلى التفرقة قوميةً ومذهبًا، ولو كان لكم عشر سنوات من التعليم المدني العام لفقتم غيركم في الربوع الساحلية. وهذا ما أبغيه لكم: التعليم في المدارس، التعليم بالاقتداء، إلا أن العربي الكسلان إذا رأى ما هو مدفون في أرضه من الخيرات تتغير نفسيته وعقليته وكذلك أعصابه! فلا تيأس يا صديقي، ولا تظن أن الله يخص جيلًا واحدًا من خلقه بالكمالات كلها.

وإذا شئت أن أحدثك كطبيعي لا كإلهي أقول: إن الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالَمي الحيوان والنبات يعمل كذلك في الإنسان وفي الاجتماع البشري، ومن النادر أن يرى الإنسان نشوءًا تامًّا، بداءة ونهاية، في نوع واحد من النبات أو جيل واحد من الناس. أما نحن الذين نقاسي ما نقاسيه في هذا الزمان

فقسمتنا قسمة مَن يجيء في آخر دور النشوء أو في أهم أطواره، فنرى بعين البصيرة نتيجة ما مضى وما هو كائن، فنتألم لأنها دنية منا وقصية؛ دنية لأننا نراها، وقصية لأن اليد لا تصل إليها. لنحمد الله أننا نراها في الأقل فنقبل قسمتنا قانعين وعاملين في الوقت نفسه في السبيل الذي هو روح الناموس والتطور.

تلذ لي محادثتك وأنت من المفكرين؛ فكل مفكر يتألم، ولكن ليس كل من يتألمون واحدًا: منهم من يقتلهم الأمل، ومنهم من يزيدهم قوة على العمل. الأمة المتألمة اليائسة تموت... تساعد المتغلب عليها. والأمة المتألمة الطويلة الأمل الناهضة الثابتة في نهوضها، إنها لتحيا، وإنها لتساعد أبناءها على المتغلبين.

الملك فيصل بن الحسين



جلالة الملك فيصل بن الحسين بن علي

(١) العراق

- **حـدوده**: شمالًا: جبال أرمينية والأناضول. شرقًا: بلاد إيران. جنوبًا: خليج فارس. جنوبًا بغرب: البادية وحدود نجد. غربًا: البادية وحدود الشام.
- **ألويته**: الموصل، السليمانية، كركوك، شبه لواء إربل، ديالى، بغداد، الكوت، الدليم، الحلة، كربلاء، العمارة، المنتفق، البصرة.
- **عدد سكانه**: نحو مليونَيْن وتسعمائة ألف[١] نفس، منهم مليون ونصف مليون من الشيعة، ومليون ومائة وخمسون ألفًا من السُنة، وثمانية وثمانون ألفًا من اليهود، وثمانون ألفًا من النصارى، واثنان وأربعون ألفًا من الأديان الأخرى.
- **مساحته**: نحو مائتيَ ألف ميل مربع.
- **شعوبه**: العرب، والفرس، والأكراد، والآشوريون، والأتراك، والأرمن.

---

[١] في سنة ١٩٢٢.

- **أهم قبائله**: المنتفق، وبنو لام، والبو محمَّد، وربيعة، وتميم، والدليم، وعنزى، وشمَّر، والأقرع، وعفك، وما يتفرَّع عنها كلها من الأفخاذ والبطون العديدة.

- **مذاهبه**: الشيعة: جعفريون، وبعض الزيديين، والإسماعيليين.

السُّنة: حنفيون، وشوافع، وحنابلة.

المسيحية: يعاقبة، ونساطرة، وكلدان، وسريان كاثوليك، وروم أرثوذكس، وبروتستانيون. ثم اليهود، والصابئة، واليزيدية، والبارسيون، والهندوس، والبهائيون.

(٢) من العروبة إلى التغرُّب

أبحرتُ من عدن أقصد إلى العراق، فلما وصلت إلى بمباي، التي لا بد من التعرج عليها إذا كان السفر في إحدى بواخر الهند، لقيت في قنصلية أميركا كتابًا من الديوان الملكي في بغداد كُتِب على الآلة الكاتبة العربية هذا نصه:

حضرة الفاضل أمين أفندي ريحاني المحترم

أما بعد التحية والإكرام، فقد تناول صاحب الجلالة الملك فيصل كتابكم الصادر من لحج في ٧ شعبان، وأمرني بالكتابة إليكم مُعربًا عن سروره بقدومكم العراق، ومتمنيًا لكم سلامة الحل والترحال في طريقكم إليه وتوفيقكم فيما نزعتم بهذه الرحلة لأجله.

وقد أرسلت الكلمة إلى بمباي لأجل تصديق جواز سفركم إلى العراق. وأمَّا توجُّهكم إلى الرياض، فقد أرسل السؤال به إلى عظمة السلطان عبد العزيز، ومتى جاء جوابه بعثنا إليكم به والسلام.

بغداد، ١٩٢٢/٦/١٠

رستم حيدر

هو ذا غير ما ألفته في اليمن والحجاز؛ كتاب غربي الأسلوب حتى في تاريخه، خلو من الديباجة والتنميق، وفيه الدليل على النفرة من تلك الطريقة القديمة التي تبدأ غالبًا بالبسملة وتنتهي بـ «إن شاء الله»، ويخبأ الغرض من الكتابة فيها بين مدبجات التبجيل والتمجيد، أو يضمن قصاصة عنوانها «حاوي خير»، فتكون هي الكتاب يقينًا، ويكون الكتاب الرسمي ترهة من الترهات.

قد أحسن الديوان الملكي لدولة العراق المتغربة، ولكن الإحسان في الاقتباس درجات تتجاوز الخروج من المألوف العربي إلى المألوف الغربي. على أني وإنْ كنت أفضِّل الخط على هذه الأحرف العربية السَّمِجة، وأرى في الكلمة المخطوطة حسًّا لا تظهره بل تقتله أحرف الآلة الكاتبة، فقد استبشرت بهذا الكتاب لما

يرمز إليه، وإن كان في أول سطر منه ما هو في نظري من قبيح المقتبسات؛ فإن الاستعاضة عن أسماء الأشهر بالأرقام في التاريخ لمن المبالَغات الحديثة بالاقتصاد عند الغربيين. وما كل مظاهر الاقتصاد آية في الحكمة والجمال. أما إذا قيل إن المسألة ذوقية، فجوابي هو أن ذوق الشرقيين فيها أرفع من ذوق الغربيين. وفي كل حال إن الألفاظ أجمل من الأرقام نظرًا وسمعًا ومعنى؛ إذا كُتبت زانها الخط، وإذا لُفِظت زانها النطق.

قد استبشرتُ مع ذلك بكتاب الديوان الملكي لما قرأت خلال سطوره من المقاصد الحميدة في دولة العراق الجديدة. ورأس هذه المقاصد إنما هو فك قيود التقاليد القديمة العقيمة وإن كان في تاريخ الرسائل وإنشائها. بيْدَ أنه يتبادر إلى الذهن فِكرٌ في سؤال: هل يُعَد مجرد التقليد الخارجي من مظاهر الارتقاء؟

سافرت من بمباي إلى البصرة في باخرة بريطانية من بواخر الخليج، وكان حظي فيها أني شاهدتُ مثالًا آخَر من الرُّقي العراقي قبل أن أصل إلى العراق. أجاب أحد المسافرين سؤالي دون أن يدرك ذلك، ودون أن يحدِّثني. هو رجل أبيض الأديم، أشقر الشعر، أزرق العينين، دخل ورفيق له يتقدَّمان نفرًا من الخدم يحملون أمتعتهما، وكأن أحد أولئك الخدامين أخطأ فيما فعل فانهال عليه المسافر الأشقر بالشتائم والمسبات بلغة إنكليزية فيها لكنة قبيحة. اللهجة من البصرة، والشتائم من حانات لندن.

عرفت بعدئذٍ أن رفيق المسافر أرمني، وهو يعرف الإنكليزية أيضًا ولا يحدِّث رفيقه بسواها. وما شككتُ بأنهما عرفا أني عربي؛ لأني كنت مُعلِنًا ذلك على رأسي بالكوفية والعقال. مرَّ اليوم الأول والثاني والثالث فاتفق أن التقينا على ظهر الباخرة صباحًا، فسلَّمت باللغة العربية فردَّ سلامي باللغة الإنكليزية، ثم عرفت أنه ورفيقه من تجار التمر في البصرة، فلم يتنازلا لمحادَثة غير بعض الإنكليز في الباخرة، إلا أنه سألني ذات يوم عن الشهر الإسلامي الذي كنا يومئذٍ فيه، فأجبتُه بكلمةٍ فشكرني بأخرى كانت الخاتمة.

بعد ثلاثة أَشهُر كنت وبعض الأصحاب نشاهد سباقَ الخيل خارج البصرة، فرأيت هناك رفيق السفر الأشقر الأمجد وهو يحمل ناظوره كالإنكليز مطلقًا في عنقه، فبسم لي ابتسامَ التزلف، ثم دنا من أحد رفاقي وسلَّم عليه باللغة العربية — التي لا لكنة فيها — فاستطلعت بعدئذٍ خبرَه اليقين، فقال صديقي: هو من البصرة، من مسيحيي البصرة، سمسار تمر. فقلت: يظهر أن عندكم في العراق طبقةً من الناس شبيهةً بطبقة المتفرنجين في سوريا، المتحذلقين المتفوقين بين قومهم، المتسكسكين أمام الأجانب.

فقال: نعم، وهم يتشبَّهون بالإنكليز كما ترى بحمل الناظور ولبس القفازات في الصيف.

أعود إلى سؤالي: هل يُعَد مجرد التقليد الخارجي مظهرًا من مظاهر الارتقاء؟ إن في رفيق السفر هذا جوابًا واحدًا لا أظن القارئ يرتابُ بصحته، ولكنَّ هناك رفيقَ سفرٍ آخَر وجوابًا ثانيًا؛ هناك طبيب إنكليزي كان على عادة قومه الأماجد في السفر يعتزل الناس، فيجلس في الزاوية أو في كرسيه على ظهر الباخرة يدخِّن الغليون ويُطالِع كتابًا، وهو قلَّما يكترث بلبسه. بيْدَ أنه وإن كان «بنطلونه» غير مكوي و«ساكوه»

أشبه بالكيس منه بثوب مخيط، فإذا وقف ومشى مشت المهابة في ظله، وأفصحت عن كريم مَحْتِده. دنا هذا الرجل يومًا مني فاعتذر وسلَّم وجلس إلى جنبي قائلًا: أنت عربي؟ فقلت: نعم. فقال: وعلى ما أظن من العلماء. فقلت: سائح طالب علم. فقال: هذا تواضُع منك، قد سمعت مَن حدَّث عنك في بمباي. ثم قدَّم بطاقته فبادَلْتُه الإكرام.

– إني مما أعرفه عن العرب، وهو قليل، أحترم الأمةَ العربيةكل الاحترام. أقمتُ زمنًا في الهند، في خدمة الهنود – وليس في الطب سياسةٌكما تعلم – فما لقيت جزءًا مما لقيته في بضعة أَشهُر في بلاد العرب على هذه السواحل: كرم الأخلاق، الإخلاص، الضيافة. إنك لا تجدها في الهنود؛ أما الشجاعة والرجولة فهما في المسلمين منهم فقط. لا أظننا نقاسي في الهند ما نقاسيه لو كان في الهنود شيءٌ من وفاء العربي وإخلاصه إذا آخاك. قد تكون طالَعتَ تاريخَ الإنكليز في تلك البلاد فتعرفكم من مرة طعَنَنا الهنودُ في الظهر – خانونا وغدروا بنا – بعد أن عاهَدونا على الولاء.

قال هذا ودعا الخادم، فطلبكأسًا من الوسكي والسودا، وسألني متردِّدًا عما إذاكنتُ أشاركه. فأجبت بالإيجاب، فقال: أعرف من المسلمين مَن يشرب الخمر. فقلت: إني مسيحي، وإني آسِف من المسلمين العصريين مَن يظنون التشبُّه بالإنكليز منحصرًا بشرب الوسكي. حبذا المسلم المواظِب من هذا القبيل على دينه.

فقال الطبيب: صدقتَ. نحن الإنكليز نبالغ في الشرب، نشربكثيرًا. خذني مثلًا، إني أشرب الوسكي قبل الأكل، وأثناء الأكل، وبعد الأكل، وأشرب بين الوجبات –كما ترى – وبودي لو اقتدى الإنكليز بالمسلمين. فقلت مميزًا: المسلمين الذين لا يقتدون بكم في شرب الوسكي. وكانت الضحكة مِسْكَ الختام.

عندما وصلنا إلى البصرة صعد إلى الباخرة موظَّفو الجمرك والصحة والشرطة، وأكثرهم من الهنود. وكنت قد أرسلتُ برقيةً من بمباي إلى صديق لي في الديوان الملكي ببغداد علَّه يأمر في البصرة مَن يلاقيني ليَهْديني في الأقل إلى محطة سكة الحديد، فوجدتُ نفسي، ولا أحد يسأل عني، أغربَ في هذا البلد العربي القديم مني في «كراتشي» الهندية[1]، وأنا العربي الذي قضى الأيام والليالي يُطالِع الحريري والجاحظ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه – ولا أقول الرحَّالة الشهير القادم من اليمن – أراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهمُ لغتَهم؛ فيكلِّمني الحوذي بعربيةٍ يضطر أن يترجمها إلى شيءٍ من الإنكليزية يُفهَم. هو أيضًا هندي، ساق جواده الأعرج يجر عربةً مكسرة وفيها بقيةُ آمالٍ مبعثرة تُدعى الريحاني.

رحنا في قفر سبسب خارج البصرة، فاجتزنا معسكرًا مهجورًا، ثم آخَر فيه بعض الجنود الهنود، ووصلنا

[1] كراتشي أصبحت عاصمة الباكستان.

بعد ساعة إلى محطة السكة، بل إلى بقعةٍ يبدأ عندها الخط. ولا محطة غير كوخ لبيع التذاكر وجدناه مقفلًا، ووجدنا خارج الكون ولدًا عربيًّا، والحمد لله، تلطَّفَ فراح مُلبِّيًا طلبنا يبحث عن الموظف، فعاد بعد ساعة يتبعه رجلٌ – هندي – هو مدير السكة، ولكنه يُحسِن الإنكليزية، فسألته سؤالًا تعمَّدت فيه التعريف علَّه يُكرِمني في الأقل بأن يخصَّني بشقةٍ في العربة وحدي. وكان الرجل فهيمًا كريمًا، فكان لي ما شئتُ. أعطاني تذكرةً وأحلَّني في القطار محلًّا فسيحًا فيه ماء وحمام. وكنتُ قد كتبتُ برقيةً إلى الصديق أمين الكسباني في الديوان الملكي بالعاصمة، وهممتُ بالرجوع إلى بيت البرق لأُرسِلَها فأخَذَها مني قائلًا: سأُرسِلها من هنا رأسًا. ثم أمر بمَن يعتني بأمتعتي وودَّعني قائلًا: اذكرني لدى نوري باشا. الوداع صاحب.

الوداع صاحب. أنت وإن كنتَ كريمًا لمن أغلاط الإنكليز في العراق. والمسيحي المتفرنج وإن كان عالمًا لمن أغلاط التاريخ في العراق. والمتغرب اليوم في القشور فقط، مسيحيًّا كان أم مسلمًا أم إسرائيليًّا، لمن أغلاط الاجتماع في العراق، بل في الشرق كله. حبذا مدنية جديدة تمتِّع الشعوب على السواء بثمارها اليانعة. والحق يقال: إن ما ترمي إليه المدنية الحقة، غربيةً كانت أم شرقية، هو تعميمُ وتعزيزُ قياسٍ واحد في آداب المعامَلة وآداب السياسة بين الأمم، فلا يستشرق الغربي ولا تستشرق الصناعة الغربية إذا ما لفحتها شمس الشرق، ولا يتغرب الشرقي في سطحيات الحياة إذا ما بسم له خادم السيد الأوروبي.

صفرت القاطرة وجرت، فجرَّت وراءها قطارًا مستشرقًا جيء به وبعماله من الهند؛ قطارًا عسكريًّا من بقايا الحرب. لا أظنُّ أمةً من الأمم الأوروبية أو الأميركية تستخدمه لغير الشحن، فتُصلِحه مع ذلك وتجدِّده. والقاطرات في أشد حاجة إلى التصليح من العربات، بل قد تكون اجتازت زمن الخدمة فأمستْ لا تصلح للعمل ولا يصلح فيها للبيع غيرُ الحديد.

خرجنا من ضواحي البصرة مساءً في قطار البريد «السريع» الذي يصل إلى بغداد ساعة الغروب من اليوم التالي، اللهم إذا سلمَتِ القاطرةُ من عاديات الطريق. قد سلمت – والحمد لله – ليلًا، فنهضنا صباحًا، فإذا نحن في أور الكلدانيين في الوقت المعين بلائحة السفر، وهذا خادم عربة الأكل جاءنا بكوب من الشاي قدَّمه من النافذة؛ إذ لا مماشي في هذه العربات تصل الواحدة بالأخرى.

سرنا من أور إلى الدراجة فوقفنا فيها وقفةً نفذت بالعظم صَدْمتُها. وقفنا فجأةً وثبتنا تجاه العاديات ثبات الأبطال. نظرت إلى لائحة السفر فإذا فيها: الفطور في سمارة، ولكن خادم المائدة جاء بعد ساعة يدعونا للأكل، فخرجنا من منازلنا وسرنا نلبِّي دعوته ونستطلع خبر القاطرة، فعلمنا أنها – حرسك الله! – كسرتْ رجلها، وأنهم أرسلوا إلى أور يستحضرون قاطرةً أخرى.

ولَّت ساعات الصباح واشتد الهجير، فصعد الزئبق في ميزان فارنهايت إلى المائة والست درجات، فعدنا إلى المراوح في العربات فإذا هي مثل كل شيء في ذاك القفر نائمة ولا حياة فيها، ثم جاء الخادم يدعونا ثانيةً

للأكل؛ الغداء، فوددنا لو أن ساعات الانتظار كلها ساعات أكل وشرب وحديث، فتنسينا مصيبة القاطرة ومصيبتنا في فيافي العراق وقيظه.

جاء ونحن في الدراجة أعرابيٌّ يركب حمارًا يتبعه حريمه وعياله ماشين، جاءوا يبغون السفر إلى بغداد في قطار البريد السريع، وكان وصولهم إلى المحطة بعد الميعاد بخمس ساعات فقط، فقال الأعرابي يخاطب الحرمة أم عياله: ما قلت لك يا سعيدي أن القطار ينتظرنا. وقد انتظر غيره من البدو هذا القطار المستشرق اللطيف. ثم جاءت القاطرة الصالحة من أور بعد الظهر فخرجت بنا من الدراجة وراحت تشيل بذنبها — بارك الله فيها — فأوصلتنا إلى السمارة ساعة الشاي، ثم إلى الديوانية التي كان قد أُعد لنا الغداء فيها فقُدم عشاءً باردًا.

جلست إلى المائدة واثنان من الإنكليز أحدهما ضابط علمت من الشرائط الصفر والحمر والخضر التي على صدره أنه من أبطال الحرب، وعلم — والله أعلم ممَّن علم! — أني قادم من أميركا، فسدَّد توًّا إلى الرئيس ولسون أسهُمَ غضبه.

— قد نزع من يدنا السلاح الذي لا يصلح لضبط أمور العراق سواه؛ سلاح القوة، العزم، الشدة.

فقال رفيقه: لولا تدخُّل أميركا لكنَّا اليومَ نحكم العراق كما يجب. فكمل الضابط قائلًا: ولخير العراق ... وما الانتداب؟ وما تقرير مصير الشعوب؟ ألفاظ هي ليس إلا. قد حكم القويُّ الضعيفَ مئاتٍ من السنين قبل أن اخترع لنا رئيسكم ولسن هذه الكلمة: الانتداب، وحكمه حينًا بالعدل وحينًا بالعسف والشدة، بما تسمونه ظلمًا، وكان الظلم أحيانًا أنفعَ له من العدل. وهل تظن أن هذه الكلمات الجديدة: «الانتداب، تقرير مصير الشعوب»، تصلح الشئون وتحرِّر الأمم؟ ترانا مقيَّدين في هذه البلاد بإرادةِ عصبةٍ لا سيادةَ لها. نعم، عصبة الأمم، وبآراء رجل نظري يحلم الأحلام هو رئيسكم المستر ولسون، فلا نستطيع عملًا مفيدًا لا لأنفسنا ولا لأهل البلاد.

أعجبني من الرجل يقينه وصراحته، فالجرأةُ المعنوية مستحبَّة دائمًا. وما هو بعسكري فقط بل من غُواة الأدب أيضًا، رأى معي كتابًا لـ «هـ. ج. ولس» فاستعاره ولم يُعِده إليَّ. لعل التبعة في ذلك على القطار؛ لأننا بعد أن دخلنا كلٌّ إلى منزله لم يرَ بعضنا بعضًا، وعندما وصلنا إلى بغداد الساعةَ الثانية بعد منتصف الليل — أيْ بعد الميعاد بثماني ساعات —كان هو ممَّن خرجوا من القطار وأنا ممَّن ناموا فيه. والسبب في ذلك أن ذاك الضابط، وإن كان غريبًا، كان له في المدينة بيتٌ يأوي إليه أية ساعة كانت، أمَّا أنا فلم أنتظر أحدًا من أصدقائي أن يوافيني إلى المحطة بعد منتصف الليل، ولم أُجِزْ لنفسي طَرْقَ أبوابهم أو أبواب الفنادق في تلك الساعة، فنمت، فلم يشأ — على ما أظن — أن يزعجني، فغنم بلُطْفه الكتاب.

نمت ساعةً فأيقظني صوت ينادي بالهندية: بابو، بابو! فتحت النافذة فإذا بأحد الحمالين يبغي خدمتي،

فطردته وعدت إلى النوم، ثم بعد دقائق سمعت طارقًا يطرق زجاج النافذة، فنهضت فإذا بجمال آخر ينادي: بابو، بابو! فعمدت إلى العصا وكلَّمته بها. أتتبعني لغات الهند إلى العاصمة؛ عاصمة العباسيين وقطب دائرة الشعراء المحدثين! رُحْ يا ملعون الوالدين! وبعد هذا السب والتهديد بالعصا نمتُ ثالثةً ونهضتُ باكرًا، فنظرت من النافذة يمينًا، ثم من النافذة يسارًا، فلم أجد لبغداد أثرًا من الآثار، ولا رأيت على الرصيف أحدًا من الناس، فساوَرَني شيءٌ من الغم،كثيرٌ من الغم، فقلت في نفسي: الماءُ البارد للغم خيرُ دواء، وعندك الماء يا رجل. فاستحممتُ ولبست ثيابي هادئَ البال متشبثًا بالآمال، علَّ وجهًا من وجوه الأحباب يُشرِق على المحطة مع شروق الشمس.

جاءت الشمس وحْدَها، ولم أجد عند المحطة حتى مَن ينقل أمتعتي إلى المدينة، فبعثت الولد الذي هدَّدته بالعصا يستحضر عربةً وبتُّ أنتظر واقفًا وحدي في ذاك القفر المُفجِع، أفتِّش في الآفاق الأربعة عن بغداد. وبعد نصف ساعة ظهر في جهة النخيل عربة لماعة، يقودها جوادان مُطهَّمان، يزيِّن رأسَيْهما الريشُ الأسود الكبير. فذكَّرني الريش بخيل عربات الأموات في جنازات النصارى، فقلت في نفسي: وأنت في جنازة – جنازة آمالك وغرورك – في جنازة ما كنتَ تتمثله وتتصوَّره ببغداد.

ركبتُ في جنازتي، فساق الحوذي خيلَه شرقًا إلى النخيل، فبدا لنا عندما دخلنا على جانبَيْه شيءٌ من حركة المقاهي في ظلال تخلَّلتها أشعة الشمس، ثم سمعت صوتًا يذبح، وفرقعة ترجرجت الأرض منها. هي عربات النقل – سيارات الجيش الهائلة – يَسُوقها جنود الإنكليز. والغريب أن غبارها وروائحها نفعتني تلك الساعة فأخرجَتْني من الجنازة. هي طلائع الحياة في بغداد اليوم، أمَّا بغداد الأمس ففي كتاب ألف ليلة وليلة تجدها.

وصلنا إلى الجسر، جسر «مود»[١]، وهو مثل الأرجوحة معلَّق بشاطِئَيْ دجلة، بيْدَ أنها أرجوحةٌ من المراكب تنحني تحت أرجل المارين، وتئِنُّ تحت دواليب العربات، وتصفِّق تحت سنابك الخيل، وتصرخ صرخاتٍ مُزعِجة تحت أثقال سيارات الجنود. وكان النهر في صباح يوم من أيلول صغير الموجة لطيفها، يسير سيرًا بطيئًا هادئًا، ومجذاف البلام[٢] يحرِّك اللجين فيه فيستحيل ذهبًا في أشعة الشمس. وهناك في الجهة الشرقية تبدو بغداد بقبابها الزرق ومآذنها البيض، وقصورها على الشاطئ تعيد إلى مَن كان شغفًا بمجدِ الزمان الغابر شيئًا من البهجة والانشراح، بيْدَ أن تلك البهجةَ قصيرةُ الأجل، فهي لا ترافقه إلا في النهر أو الشط بلغة أهل العراق.

---

[١] Gen C. F. Maude هو الجنرال ث. ف. مود قائد الجيوش البريطانية الذي فتح بغداد (في ٢٤ جمادى الأولى عام ١٣٣٥هـ/٩ آذار سنة ١٩١٧م) فسُمِّي الجسر باسمه.

[٢] النوتي صاحب البلَم. والبلَم — اللفظة هندية — زورقٌ للعبور والنزهة.

عبرتُ الجسر فإذا أنا في شارع مهشَّم حزين، كأنه بحاناته ومقاهيه قد خاض عبابَ الحرب العظمى، ووصلتُ إلى نُزُل «مود» فوجدتُ العمَّالَ يشتغلون في الترميم، فقصدت إلى نُزُل آخَر، فإذا الخدم يغسلون صحن الدار، وكان صاحب النُّزُل لا يزال نائمًا، فخاطَبَني الخادم يقول: ولا غرفة واحدة فارغة ولا سرير. ثم دلَّني على فندقٍ في الجوار المبارك فبادرتُ إليه، فإذا هو كالأمل الضائع في صدر الجائع، فأنزلتُ مع ذلك أمتعتي ودفعتُ إلى الحوذي ما تبقَّى من ثروتي، ودخلتُ الغرفَ واحدةً بعد الأخرى أبغي أحسنها، فإذا هي مثالُ المساواة الأعلى: كلها صغيرة مُظلِمة باردة عَفِنة. فقلت: لا حول ولا ...!

فطرتُ ثم سألت الخادم عن الهاتف فقال إنه لا يزال نائمًا. فقلت: التلفون أريد. فقال: تجده في «المدجستيك». فسددتُ خطوات اليأس إلى النُّزُل ذي الاسم الجليل، فلقيتُ صاحبه في الباب يستنشق هواء الصباح، فقلت: عندكم تلفون؟ فقال: نعم.

– وهل تظن أن أحدًا في قصر الملك يحاوِبني الآن إذا تكلَّمتُ؟

– ومع مَن تريد أن تتكلَّم؟ مع أمين الكسباني؟

أمين الكسباني عندي كان الجواب. بُهتُ حقًّا ثم قلت: أساحِرٌ أنت؟ فقال: أنا من تل كيف[1]. ثم نادى الخادم وأمَرَه أن يدلَّني على غرفته.

كان الباب مفتوحًا؛ إذ لا نوافذ للغرفة غير واحدة تفتح مثل الباب على الرواق، وكان الأمين في ثوب النوم واقفًا أمام المرآة يزيِّن روحه، وكانت ذقنه قد ابيضَّتْ بالصابون، فلما رآني ابيضَّ منه الوجه كذلك، ووقعت الموسى من يده، ثم رشَقَني بالشتائم السود.

– متى وصلتَ؟ وكيف تصل قبل الوقت المعيَّن؟ هذه قباحةٌ منك. تشغل أصحابك بك فيستعِدُّون للقائك ثم تُباغِتُهم هذه المباغَتة وأنت الأديب المشهور بالذوق والكياسة؟

– أَلَا تسمح بكلمة؟

– سامَحَك الله! ماذا أقول لمن ناموا باكرًا البارح لينهضوا باكرًا اليومَ لملاقاتك؟ القطار وصل قبل الوقت المضروب؟ يقولون لي: ولماذا لم ينتظرنا في المحطة؟ وإذا قلت: إنه رجل مثل القطار شاذ الطبع والسلوك، فهم لا يفهمون ولا يعذرون!

– ألا تسمح بكلمة؟

– سامَحَك الله! قد خاب ظني بذوقك وأدبك.

[1] تل كيف: قضاء في لواء الموصل، وأهله موصوفون بالحذق والنشاط.

فقلت وأنا لا أزال واقفًا في الباب صابرًا على ذي السباب: وأنت الذي قضيتَ حياتك في إنكلترا، وكنتَ على العمل في الليل أدأبَ منك في النهار، أيزعجك الرواح إلى المحطة منتصفَ الليل أو بعده؟ وهَبْ أنك علمتَ أن القطار لا يصل قبل الصبح فما كان عليك أن تحيي الليل إكرامًا لصاحبك على الأقل، لاعبًا بـ «البريدج» ثم تخرج ساعة الفجر إلى المحطة تستنشق الهواء؟ الحق يقال يا أمين إن سنة في بغداد أورثتك الكسل والخمول.

بعد هذه المشاتمة تصافَحْنا وسلَّمْنا سلامَ الأحباب، وجلست أطالع آخِر أعداد جريدة الـ «تيمس» الإنكليزية التي كانت على الأرض.

— نحن علمنا أن القطار تأخر، ولكنه من عادته أن يتأخَّرَ اثنتَيْ عشرةَ ساعة.

— ما لنا والقطار! عسى أن يكون حالك أحسن من حاله. يظهر أنك ألفتَ الظلمةَ في إنكلترا فأحببتَ الإقامة في مثل هذه الغرفة.

— هذه بغداد، فنادقُها شبيهةٌ بعضها ببعض، ولا فرْقَ بينها في غير الأسماء والأجور.

— أحقًّا ما تقول؟ أَلَا يوجد في هذا النُّزُل غرفةٌ ترمقها الشمسُ ولو بلحظة؟

أجاب الأمين متبرمًا: هذا أحسنُ نُزُلٍ في بغداد، وقد نجد لك غرفة فيه.

فقلت مصرًّا على المشاكَسة: ومثل هذه الغرفة؟

— أفَلَا تتنازل إلى مساواتنا؟

— أذكر أن للمساواة أقنومَيْن آخَرين؛ هما الحرية والإخاء، وبما أني قد آخيت النجوم واقترنت ثانيةً بالحرية في بلاد العرب، فسأتنازل عن المساواة وأنام على السطح.

فسبَّني بالإنكليزية ثم العربية ثم قال: جرحت ذقني … أَلَا تخشى البرد؟

— أخشى العفونة أكثر من البرد. أين قصر الملك؟

— لا قصرَ لجلالته.

— وأين هو نازل؟

— خارج السور؛ خارج المدينة.

— أَوَلَا يُؤذن لي أن أنصبَ خيمتي خارج المدينة؟ صدِّقني يا أخي إني أمرض في مثل هذه الظلمات. قد صرت بدويًّا فلا يطيب لي غيرُ الفلاة. أليس عندكم بدو خارج المدينة أنزل — عليهم — معهم؟

فقال الأمين متهكمًا: ولكنك تتنازل فتزور جلالة الملك أولًا، أليس كذلك؟

— طبعًا، طبعًا، لا تؤاخذني.

فضحك وفرح بغلبتي، فأخبرته إذ ذاك بما جرى لي منذ وصولي إلى البصرة حتى وصولي إلى محطة بغداد، فرثى لحالي وغفر لي نزقًا أنساني الواجب. وكنت قد علمتُ وأنا في بمباي بالجراحة التي أُجرِيت لجلالة الملك، وأُخبِرت في الطريق إلى العاصمة أنها نجحت، وأن جلالته قد تماثَلَ إلى الشفاء.

— أَفَلا ينبغي أن أكتب إلى جلالته كتابًا أهنئه بصحته وأُعلِمه بوصولي؟

سنكفيك مئونة الكتابة.

وكان قد أتم صديقي تزيينَ روحه، ولمَّ شعث طبعه، فعادت إليه السكينة، وتجلَّى فيه الحِلْم والوقار، فصار أسلسَ من الماء —كما يقال — وألينَ من أعطاف النسيم. أمَّ الهاتف في النُّزُل وعاد يقول: ستقابل جلالته اليوم. فسُرِرت بذلك.

وبعد ساعة ركبنا سيارة أميركية سارت بنا هائجة تثير النقع في شارع بغداد الجديد، الطويل المستقيم، الوحيد، الذي يمتد من أول المدينة جنوبًا إلى آخِرها شمالًا، وخرجنا من البوابة عند نظارة الدفاع، فمررنا بثكنة إلى اليمين وواصَلنا السير في طريق الأعظمية حتى وصلنا إلى بستان على إحدى حواشيه بيتٌ صغير أنبأت المواعين في فنائه بأنه بيت فلاح يكثر عنده الحليب واللبن، بل هو بيت مدير الزراعة الخاص لجلالة الملك. ثم نزلنا عند بيت آخر صغير داخل البستان، شبيه ببيوت الـ «اسبستوس» التي كانت تُبنى أيام الحرب بساعة، وتُنقل من مكان إلى مكان، فإذا هو مفروش بالفرش الأوروبي ببساطة أفصحت عن ذوق لطيف، وفيه خزانة كتب معلق فوقها صورة الملك فيصل مع الكاتب الإفرنسي أناطول فرانس، ومنضدتان وراء أحدهما شاب عصري، وضَّاح المُحَيَّا، عالي الجبين، حَسَن البزَّة، بادَرَ إلى استقبالنا، وكان في ترحيبه مثله في لبسه أنيقًا دقيقًا رسميًّا، هو رستم حيدر السكرتير الأول لجلالة الملك، وصاحب الرسالة التي صدَّرتُ بها هذا الفصل.

شربت القهوة في ديوانه، وتلمَّست في محدِّثي بالرغم عن حجاب الرسميات نفسًا هادئة كيِّسة، وعقلية راقية، وتمتعت بعدئذٍ أثناء إقامتي في بغداد بشيء منها وراء الحجاب، سأشاركك أيها القارئ به. أمَّا الآن فهو الذي عجل، شكرًا له بتحقيق ما جئت من أجله. عمد إلى الهاتف على منضدته ثم قال: سيدنا يقابلكم الآن.

سرنا في ظلال النخيل إلى بيت لا يُعَد في القاهرة أو في بيروت فخمًا ممتازًا، ولكنه مبني على شاطئ دجلة في بستان من النخيل، في جوار الإمام الأعظم، وقبالة المكان الذي ازدهرتْ يومًا فيه المدينة المدوَّرة، مدينة المنصور. دَعْ عنك ذِكْر المنصور والإمام العظيم. البيت قصر حتى ولو كان مجردًا عن المحاسن الطبيعية والتاريخية والدينية كلها، هو قصر لأن ملك العراق الأول مُقِيم فيه.

حيَّانا جنديان في الباب، ثم استقبَلَنا أحدُ الضباط فدعانا لغرفةٍ فيها طاولة عليها سجل الزائرين، ثم جاء أحد الأمناء يدعونا إلى الطابق الأعلى، فدخلنا وراءَه رَدْهةً للجلوس، وبعد هنيهة فُتِح باب أفضى بي إلى غرفة النوم. وكان الأسبوع الثالث من الجراحة، وكنت أول مَن حازَ شرفَ الاستقبال بعدها.

الأمير فيصل بن الحسين بن علي بن نُمي، ابن بنت الرسول، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى، ممثِّل العرب في مؤتمر فرساي، حامل لواء الوَحْدة العربية في أوروبا، حاكم الشام، ملك سوريا، ملك العراق! قد تتبعتُ وأنا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ، تاريخه القصير المجيد، وأنا معجب به كل الإعجاب، مكبر منه الأعمال والأقوال والمقاصد العالية، متأسف أني لم أجتمع به في باريس أو في لندن أو في الشام، محتفظ بكل شاردة من شوارد الشوق والأمل. ثم وفَّقَ الله فارتحلت شرقًا إلى البلاد العربية فكانت عاصمة العباسيين؛ خصوصًا لأن فيها بطل أحلامي، نورًا من الأنوار المقصودة، ومحجة من المحجات المنشودة.

لم أشعر وأنا داخل إلى غرفة النوم، على ما تقدمها من الرسميات الملكية الغربية، بأني داخل على مَلِك من ملوك العرب، هو من أكبرهم شأنًا وأصغرهم سنًّا؛ ذلك لأن الخيال مني رافَق فيصلًا في الخمس السنوات الأخيرة، فأدناني منه فأحسست تلك الساعة أن وراء الستار صديقًا لي وأخًا في الجهاد الوطني؛ وما كان الحس خئونًا.

دخلت فإذا بجلالة الملك جالس على الديوان مكشوف الرأس ملتفًّا بعباءته، فوقف وتقدم يلاقيني، وسلَّمَ عليَّ سلامَ الإخوان، وكان وجهه الذي شبهه أحد كتاب الإفرنج بوجه المسيح أشبه به يومئذٍ على ما أظن منه في الماضي؛ لأن المرض أكسبه لونًا تخفُّ فيه حِدة الحياة وتكاد تضمحل، فيمتزج امتزاجًا لطيفًا بالنور الناعم الجالس هادئًا في عينيه، ثم جوَّفه قليلًا تحت العظم الأعلى فصار يظهر ما فوقه؛ أي الجبين، أكثر اتساعًا ورفعة، وما دونه مستطيلًا مسنمًا. أما في صوته وابتسامه وإشاراته فقد كان أشبه بجلالة الملك أبيه.

شكرته على جميلِ تعطُّفِه في استقبالي يوم وصولي وهو لا يزال في حال النقه، فقال إنه يشاركني في الشوق إلى المشاهدة، ثم هنَّأته بصحته وبعيد جلوسه — العيد الأول لملك العراق الأول — فابتسم ابتسامةً فيها بعض الغم وانتقل بالحديث إلى رحلتي.

«إنها رحلة عجيبة يا أمين، وسيكون فيها — ولا شك — فوائدُ كثيرةٌ للعرب. كنَّا مُرافِقين لك مُعجَبين بكل ما وصَلَنا من أخبارك وبما طالَعناه في الجرائد عنك».

ثم سألني بعض سؤالات عن البلدان التي زرتها وعن أمرائها وحكَّامها، وكان لا يزال الضَّعْف يمنعه عن الإفاضة بالحديث.

«أحبُّ أن تخبرني كل شيء وسنجتمع فيما بعدُ اجتماعاتٍ عديدة».

فاستأذنت بالانصراف، فوقف وهو يقول: سنجتمع فيما بعد. ثم اعتذر، وكان ذلك من جميل التواضُع فيه، عما أسماه تقصيرًا في القيام بواجب الإكرام والضيافة.

ولكنه بعد أن خرجتُ دعا الكسباني فحدَّثه بكلمة، فعاد الصديق إليَّ يقول: امشِ إلى النُّزُل بأمر جلالته. وقد أمر أيضًا بسيارةٍ أثناء إقامتك في بغداد.

(٣) لا حكومة ولا انتداب

يومَ وصلتُ إلى العراق كان بركان السياسة قد انفجر من كل جانب، فترامت من النجف الحمم، واستعرت في بغداد النيران، وتصاعد بين الرافدين اللهيب والدخان. في ذاك الحين قام الزعماء يطلبون رفض الانتداب، وانتخاب المجلس النيابي، وإعلان الاستقلال التام، وتأييد العرش، وسُمع بين الأصوات الشاعر الحكيم يقول:

أنا شـــاعر يبغـــي الوفـــاق موحـــد	بـــين الشـــعوب ســـبيله الإرشـــاد
مـــا الفـــرس والأعـــراب إلا كتفـــا	عـــدل ومـــا الأتـــراك والأكـــراد
لم تكفنـــا هـــذي المطـــامع فرقـــة	حـــتى تفـــرق بيننـــا الأحقـــاد

وكانت الحركة قد اشتدت قبل عيد الجلوس بأيام، فأثَّرت بصحة الملك وزادت بآلامه التي كانت الزائدة المعوية سببها، فأشار الأطباء بجراحة فأجَّلها جلالته إلى ما بعد العيد. أما الوطنيون، المتطرِّفون منهم والمعتدلون، فلم يؤجِّلوا مما سعوا إليه شيئًا. ويظهر أن صوت الشاعر أثَّر فيهم يومئذٍ تأثيرًا حسنًا، فحملهم على توحيد المطالب والآمال.

وقد كان لحملاتهم ثلاثة أهداف؛ أي الوزارة، والحكومة، والملك نفسه، فاستخدموا لها ثلاثة أنواع من السلاح: سلاح الكلام؛ صوَّبوا مدفعيتهم على الوزارة التي كان يرأسها السيد عبد الرحمن النقيب فاستقالت، وطاروا بطياراتهم الخطابية فوق دار الانتداب فأزعجت المندوب السامي فبات حائرًا لا يدري ما يفعل؛ ولا سيما أن الجيوش يومئذ لم تكن تكفي لإخماد فتنة صغيرة.

أما جلالة الملك فجاءته الوفود يوم العيد، أول عيد لتاج العراق، عيد الجلوس — غير المأنوس — يهنئونه ويطالبونه والحكومة المشارفة بالوعود التي مر العام الأول عليها دون أن يُنجَز شيء منها. وكان في البلاد حزبان سياسيان: الحزب الوطني العراقي، وحزب النهضة العراقية، فاتحدا بعد أن تشاقَّا واجتمعا اجتماعًا خصوصيًّا في اليوم السابق لعيد الجلوس قرَّرا فيه بالاتفاق رفع احتجاج إلى «أعتاب صاحب الجلالة المعظم»، ونقطة الدائرة فيه أن الأمة كانت تنتظر بعد التتويج حكومةً دستورية نيابية، فمرت السنة الأولى،

والحكومة لا تعرف أدستورية هي أم نيابية أم ملكية مطلقة. إن الأمة يا صاحب الجلالة تكابِد أنواعَ الأضرار الناتجة عن سوء الإدارة «المتغلب عليها نفوذ البريطانيين المنافي لروح الاستقلال؛ لأنهم اتخذوا سياسةَ التفريق وغيرها من الأعمال غير المشروعة رائدًا لهم». وهذه الوزارة، وزارتهم، أسقطناها لأنها كانت العاملَ الأعظم في مُناهَضة آمال الأمة.

وبما أن المجلس النيابي لم يتألف حتى الآن، وبما أن خطر الانتداب يهدِّد استقلال البلاد وحرية العراقيين، فقد اجتمعت هيئتا المركز العام للحزب الوطني العراقي ولحزب النهضة العراقية، وقرَّرتا عرض الحالة على جلالتكم مسترحمين صدور الإرادة الملكية فيما يلي:

- **أولًا**: الكف عن الأعمال المار ذِكرها؛ ولا سيما التدخل البريطاني في الأمور الإدارية.
- **ثانيًا**: تأليف وزارة من ذوي الجدارة المخلِصين لكي تطمئنَّ الأمة بإصلاح الحال.
- **ثالثًا**: ألَّا تُعقد أية معاهدة ولا تجري أية مفاوَضة بشأنها قبل تأليف المجلس النيابي.

ولم يكتفِ المركز العام لحزب النهضة العراقية بهذا الاحتجاج وهذه المطالب، فأصدر مذكرةً خصوصية من قلب البركان، فيها لفتات إلى الماضي وأنَّات. شكا الحزب سياسةَ الحكومة التي لم يرَ الشعب في خلال سَنةٍ منها فَرْقًا بينها وبين سياسة الحكومة الاحتلالية، ورفع احتجاجَه إلى العالم المتمدن، وإلى كلِّ مَن يؤلمه صوتُ شعبٍ مهضوم الحقوق، منبعث من طيَّات أفئدة مليئة بالآلام والأماني — إننا نحتج على ساسة حكومة بريطانيا الاستعماريين، وعلى الانتداب وأنصاره الممقوتين في البلاد، في هذه البلاد العراقية التي كانت تستعيد في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذِكرى المنصور والرشيد والمأمون، «مؤملة أن يكون بلسمًا للجروح البليغة التي أحدَثَها الاستعبادُ السنةَ الماضية في جسمها النحيف»[1].

وهذه الأمة ذات الجسم النحيف والقلب المفعم بالآلام والآمال تعيد عيدَها السعيد بتتويج جلالة مليكها وارتقائه عرش العراق الذي «شُيد فوق جماجم الشهداء»، وتبعث الوفود ليرفعوا إلى جلالته أصدقَ عبارات التبريك، والخطباء ليُسمِعوه أنينها وشكواها.

جاء صباحَ اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفْدُ الحزبين المذكورين، ومعهم جمهور من الأنصار احتشدوا في فناء القصر، فطلب الزعماء من الملك أن يأمر بمَن يمثِّل جلالته لسماع الخطب هناك، فأمر جلالته رئيس الأمناء لينوب عنه، فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير، فهيَّج في رئيس الأمناء الشجونَ فانتصب خطيبًا، وحقَّ له الكلام؛ إذ كان الملك أنابه عنه،

[1] والغريب العجيب أن أمةً استُعبِدت ألفَ سنة ظلت حيةً سليمةَ الحواس تشكو استعبادَ سنةٍ واحدة في هذا الزمان، ولم يُسمَع لها في الألف سنة مضت صوتٌ ولا صدى.

وحقَّ له أيضًا أن يبرهن على حماسة – وقيل حماقة – فيه أَنْسَتْه أنه موظف في البلاط، وأن المندوب السامي لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنئ جلالة الملك بعيد الجلوس، وأن عليه هو واجب الاستقبال والترحيب. وقد اتفق أنه بينا كان حضرة الأستاذ رئيس الأمناء يخطب ضد الانتداب أقبل المندوب السامي السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لأداء التبريك، فاستقبلهم الجمع صارخًا: ليسقط الانتداب! ليسقط الإنكليز!

وكان قد وصل لسعادة المندوب في اليوم السابق برقيةٌ من زعماء النجف، يؤكِّدون له فيها أنهم لا يُنكِرون «صداقة حكومة بريطانيا العظمى، صداقة خالية من المحاباة»، ويُعلِمونه برغائب الأمة العراقية «التي لا يمكنها التنازل عنها مهما كلَّفها الأمر»، وهي المواد الآتية:

- **أولًا**: رفض الانتداب بتاتًّا، وإعلان حكومة بريطانيا العظمى بإلغائه رسميًّا.
- **ثانيًا**: مراجَعة حكومة جلالة ملك العراق لوزارة الخارجية لا لوزير المستعمرات.
- **ثالثًا**: رفع تدخُّل ممثِّلي أية سلطة أجنبية؛ لأن في الأمة نفسها الجدارة لإدارة شئونها.

هذا من علماء الشيعة وجلالة الملك يومئذٍ معهم، إلا أن بعض العشائر لبَّوا الدعوةَ التي قيل إن دار الانتداب مصدرها، فاجتمعوا يحتجُّون على العلماء ويُعلِنون ولاءَهم للإنكليز، ثم قدَّموا عريضةً بذلك إلى المندوب السامي، فكانت بيده حجة على جلالة الملك. وقد أشار فخامته بأن سيُعلِن العريضة إذا كان الملك يرفض المعاهدة، فلم يكن لينتظر والحال هذه مثل تلك المفاجأة القبيحة في القصر. أما إذا قيل إن من حقوق الشعب – واليوم يومه – أن يفاجئ السياسيين في أي وقت وأي مكان كان، فيجب أن يكونوا متأهبين له دائمًا، فمن النادر أن يحدث في بلاط ملكي – في غير وقت الحرب أو الثورة – مثلُ هذا التظاهُر الرسمي – رسمي هو بوجود مندوب الملك واشتراكه به – ضدَّ دولة من الدول العظمى، بل هي إهانة اقتبلها السر برسي كوكس هادئَ البادرة ساكنًا، وأظنُّه سُر بها؛ فقد كان مترددًا، كما قلت، في اتخاذ خطة الشدة لقمع ما كان يُنذِر بثورةٍ أخرى في العراق مثل ثورة سنة ١٩٢٠، فأزالت حادثةُ البلاط التردُّد، وشحذت فيه عزمًا كان موضوع ريب الناس.

ولكنه إنكليزي، وأكثر الإنكليز في مثل هذا الموقف واحد، فلم يدع السر برسي الحادث المؤلم يَحُول دون واجبه تلك الساعة، بل دخل على الملك وهنَّأه بعيده الأول، ثم اجتمع بعدئذٍ به فدار بينهما حديث كانت له نتيجتان: الأولى في البلاط الملكي، وهي عَزْل رئيس الأمناء؛ والثانية في دار الاعتماد، وهي الخطة التي أخمدت النيران التي كانت تتصاعد من بركان السياسة المتفجر.

لا ريب أن الأقدار ساعدت السر برسي كوكس في عملٍ لم يكن من طبعه ومبادئه؛ لأنه رأيًا وخُلقًا وسياسةً نقيض سلفه السر آرنلد ولسون الذي سبَّب أو عجَّل ثورة ١٩٢٠؛ فالسر آرنلد حاد المزاج،

سريع الغضب، شديد البأس، عالي الهمة، قصير النظر، يضرب ولا يحسب للعواقب حسابًا.

والسر برسي ليّن العريكة، هادئ البادرة، طويل الأناة، يعالج الأمورَ بالحنكة التي قلَّما تلجأ إلى القوة. على أنه أدرك ما في الحادث من الخطر على منصبه إذا كان لا يقف موقفَ كل إنكليزي، بل كل إنسان أُهِين رسميًّا وأُهِينت حكومته وأمته.

قد يُقال إن الملك في عَزْله رئيس الأمناء اعتذر ضمنًا وصراحةً عما بدا، ولكن ذلك لا يكفي، بل قد يزيد الوطنيين شغبًا وهياجًا. فأَقْدَمَ على العمل الذي اقتبله العراق ساكنًا ساكتًا.

قلت إن الأقدار ساعَدته في سياسة الشدة؛ لأن جلالة الملك بعد عيد الجلوس سلَّمَ نفسَه إلى الأطباء، وكانت الوزارة قد استقالت فأصبحت الحكومةُ كلها بيده – خَلَا له الجو – فأصدر أمْرَه بإقفال الحزبين؛ الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية، وبتوقيف جرائدهما، ثم نفى إلى هنجام[1] الزعماء، وفيهم الحاج جعفر أبو الثمن وحمدي أفندي الباججي والشيخ مهدي البصير، وأخطَرَ مجتهِدِي الكاظمين السيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي بتسفير نجلَيْهما، وهما من زعماء النهضة، إلى إيران، ففعلا دون تردد أو احتجاج.

وكان جلالة الملك رهينَ الأطباء وموضوع الإشاعات المتعددة، منها إشاعة موته التي ضجَّت لها العاصمة واتخذها أنصار المنفيين ومَن تبقى من الأحزاب الوطنية حجةً على سكوتهم وإخلادهم إلى السكينة، غير أنه يُستغرَب سكوتُ ثلاث من «حجج الإسلام» المجتهدين؛ وهم: السيد أبو الحسن الأصفهاني، والسيد حسن الصدر، والشيخ مهدي الخالصي، وقد كانوا كلهم زعماءَ النهضة وأعلامها.

على أن بعض العشائر المُوالِين للعلماء، مَن لم يعلموا بسكوتهم، ظلوا يُطالِبون بسقوط الانتداب، فسوَّدت الحكومة الإنكليزية صحيفتَها في إرسالها الطيارات ترمي أكواخهم بالقذائف النارية، وقد كانت في غنًى عن ذلك؛ لأن مَن ينادون مع المجتهدين يسكتون إذا هم سكتوا.

أما إذا نظرنا في الأمر نظرةً إجمالية فقد أفلح المندوب السامي، وإنْ كان قد أخمد في عمله – ولو إلى حين – نارَ الوطنية التي رأى نفسَه بعدئذٍ في حاجة إليها ليقاوم بها الأتراك ودسائسهم في الموصل وفي بلاد الأكراد، ولكنه في ذاك الحين لم يكن ليبغي غير أمرَيْن: عَقْد المعاهدة الإنكليزية العراقية، وتأسيس مجلس نيابي يُجِيزها. وكان متيقنًا أن الأمر الأول لا يتم إلا في ثبات الولاء والمؤازَرة بين دار الانتداب وبيت النقيب، فسعى أولًا في تأسيس حزب سياسي معتدل دُعِي بالحزب العراقي الحر، يرأسه السيد محمود بن السيد عبد الرحمن النقيب؛ ليكون عونًا للحكومة في انتخاب المجلس. ثم سعى في إعادة الوزارة المستعفية لإنجاز

[1] جزيرة في الخليج الفارسي تجاه بندر عباس.

المعاهَدة. وكان جلالة الملك يُؤثِر غيرَ النقيب رئيسًا، والمندوب السامي للأسباب التي بسطتُها لا يبغي سواه. وسترى بعدئذٍ كيف أن خُذِل صديق الإنكليز الأكبر في العراق بعد توقيعه المعاهَدة المشهورة.

على أن هناك فترة مشئومة مظلمة، قبل التوقيع وبعد رجوعه إلى الرئاسة، كانت السيادة الإنكليزية فيها مشلولةً حقيقةً ومعنى، فلم يكن في البلاد لا حكومة وطنية تُذكر ولا انتداب؛ ذلك لأن الملك فيصلًا عمد بعد شفائه إلى سياسةٍ أزعجتْ دار الانتداب، فقبل مُحَوْقِلًا برئاسة النقيب، وظل متمسكًا بأهدابِ أحزابٍ تلاشت، ووطنية لجأت إلى التقية واستشعرت السكون.

(٤) مآدب الغم

سمعت الإنكليز في العراق يقولون: هذا فيصل الذي أقمناه ملكًا ينقلب علينا في السنة الأولى. ولكن للمسألة وجهة أخرى، ولجلالته قصة غير قصة الإنكليز قصَّها عليَّ في المقابلة الثانية.

كان لابسًا صباحَ ذاك اليوم ثوبًا مدنيًّا وسدارة من لونه، وكان لا يزال في وجهه أثرٌ من العياء والضَّعف، بيْدَ أنه في حديثه كان شديدَ اللهجة صريحها؛ صوت ناعم فيه قوة اليقين، وعين شهلاء يضطرم أحيانًا نورها الهادئ ولا يروع.

«يطلبون مني عقد المعاهدة وفيها نصٌّ صريح على الانتداب، وفي بعض موادها غموض، فتحتمل التفاسير العديدة، فيفسِّرها القوي في المستقبل لتُوافِق مصلحتَه وسياسته. وهذا لا يجوز. هذا غير ما عاهَدوني عليه في لندن. قد صارَحتهم هناك كما أصارِحُك الآن. قلت للمستر تشرشل إني لا أقبل أن أكون مَلِكًا على العراق إلا بشرطَيْن أوليين، وهما استقلال البلاد، وإلغاء الانتداب. فقبل المستر تشرشل بذلك، ووعدني وعدًا أيَّده بكلمة الشرف، وهو أن الحكومة الإنكليزية تعترف باستقلال العراق وتساعد العراقيين بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب. كل ذلك في مقابل معاهَدة نعقدها والحكومة البريطانية تضمن لها الحقَّ أن يكون المستشارون والأخصائيون في حكومة العراق من الإنكليز فقط، وتضمن لها أيضًا بعض الحقوق في اقتصاديات البلاد ... وهم اليوم يقولون إني انقلبت عليهم، وليس فيما أقول وأفعل غيرُ الثبات على العهد والولاء. هذا وعد المستر تشرشل، كلمة شرف بإلغاء الانتداب. والآن يا أخي أمين تجيئني حكومته بمعاهَدةٍ تبتدئ بذِكر الانتداب وعصبة الأمم ثم تكرِّر هذه الألفاظ في أكثر موادِّها. لا والله. لا أوقِّعها ولا آذَنُ بتوقيعها. ولا تتألَّف وزارة جديدة[1] قبل أن يجيئوني بخطة صريحة وكلمة صريحة بأنهم سيبرُّون بالوعد».

هبْ أن هناك سوء تفاهم، أو أن المستر تشرشل وعد وعدًا حالتْ بعد ذلك السياسة الإنكليزية دون

---

[1] كانت حكومة الانتداب تحاوِل يومئذٍ إعادةَ تأليفِ وزارة النقيب.

تنفيذه، فموقف الملك فيصل مع ذلك لا يُقدَح به، وأكثر العراقيين يرفضون الانتداب ويمقتونه. فهل يُلام يا ترى إذا فضَّل أن يكون ملكَ العراق على أن يكون فعلًا مأمورَ الانتداب وفوق يدِه يدُ المندوب السامي؟ ولكن هناك أمرًا آخَر لا يتغاضى عنه مَن أحب العدل والإنصاف؛ أن فضل الحكومة الإنكليزية في تتويج الملك فيصل يوازي في الأقل فضل العراقيين الذين بايعوه؛ فقد كان في البلاد يومَ وصوله إلى العراق وقبلَه عددٌ من طلاب المُلك، منهم الشيخ خزعل خان حاكم عربستان، فانسحب بإيعاز من الإنكليز؛ ومنهم ذاك الداهية العراقي السيد طالب النقيب الذي كان يطوف البلادَ يومئذٍ بصفته وزير الداخلية ساعيًا في سبيل المجد الوهَّاج، طالبًا العرش والتاج، فتعقبه الإنكليز وألقَوا القبض عليه بحيلة لا تليق بهم وأَجْلَوْه عن البلاد. وكان نقيب بغداد السيد عبد الرحمن عونهم الأكبر على ابن نقيب الموصل السيد طالب؛ لذلك قيل إن النقيب كان النصير الأعظم لفيصل، وهناك الأمير عبد الله الذي كان يُؤثِره العراقيون على أخيه. أمَّا طريقة الانتخاب فيكفي أن أقول إن الموظفين السياسيين في الألوية كانوا يديرونها.

ليس الملك فيصل ممَّن ينكرون الجميل، ولكنه بين جميلَيْن، هما أحرق من نارين؛ جميل مَن سعى في سبيله، وجميل مَن بايعه، وفي الاثنين مبدآن لا يخطئ مَن يروم الحقيقةَ الوطنية في تفضيل مبدأ مَن بايع منهما على مبدأ مَن سعى. على أنه من الخطل أن يعادي الملك الإنكليز أو أن تعادي الأمة العراقية الحكومة البريطانية. قال جلالته بصراحةٍ لا صراحةَ بعدها: تراني اليوم مُحاطًا بالأعداء ولا صديقَ لي غير الإنكليز، فمن أين لي بحليفٍ لو شئتُ المخالَفة؟ في الغرب، في سوريا الإفرنسيون وهم أعدائي، وفي الشمال الأتراك وهم يكرهونني، وفي الشرق الأكراد وقد تفلَّتوا من يدي، والعجم وهم يدسُّون الدسائسَ بواسطة الشيعة على حكومتي، وفي الجنوب ابن سعود وهو دائمًا يهدِّدنا بالإخوان. مَن لي إذن غير الإنكليز؟ وهل يعقل أني أنقلب عليهم؟ بل هم المنقلبون يا أخي أمين، هم يَعِدُون الوعودَ ولا يرُّون بها.

عاد جلالته إلى وعد المستر تشرشل فذكَّرني بجلالة أبيه يوم كان الملك يضرب لي الأمثال، ويرمز بالرموز ليبرهن على أنه من النادر أن يجد المرء مَن يفوق الإنكليز في المراوَغة والتلوُّن ونقض العهود: «يطلبون مني التصديق على معاهدةٍ لا تمكِّنني من تأسيس حكومة ثابتة قوية ... والحقيقة أنه لو عقدنا هذه المعاهدة يستحيل علينا القيام بها ... ترانا الآن نعجز عن تأسيسِ جيشٍ وطني لأن العراقيين لا يُلبُّون النداء؛ لا لأن الوطنية فيهم ضعيفة. لا، لا، ولكنهم يقولون: إذا كان الإنكليز ينوون احتلالَ البلاد تحت طيِّ الانتداب فَلْيُدافِعوا هم عنها. أَوَلَا ترى الحقَّ يا أخي في هذا القول؟».

كان يتكلم جلالته بصوت هادئ، وكان النور في عينَيْه ساكنًا، مع ذلك كنت أرى في أنامله دليلَ الاضطراب؛ إذ كان يُخرِج الخاتمَ من بنصره فيلعب به كأنه سُبحة ثم يُعِيده إليه. وعندما كان يتكلَّم عمَّن يحيط به من الأعداء رفع السدارة عن رأسه ووضعها على الديوان، فأنار جبينه العالي وجهَه فتراءى فيه شيء

من الحُسْن جليل، ولا سيما أن لونه الحنطي كان لا يزال مائلًا إلى الاصفرار. إن في الملك فيصل حُسْنًا جذَّابًا، وإن في حديثه لهجةً بليغة مُقنِعة، ولكنَّ الغمَّ الذي يكمن في قلبه يظهر مرارًا في طرفَيْ فمه وفي ابتسامه.

إني أعتقد أن في الملك فيصل مَزِيَّةً روحية تحبِّب إليه المثل الأعلى في الحياة، على أنه — وإن كان ملكًا — يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل مَن تعشَّق الكمالات، وسعى إليها جادًّا، فرآها كقوس قزح بعيدة دائمًا عنه. وهذا في نظري أحد أسباب الغم، رفيق جلالته الدائم، وإنْ توارى أحيانًا عن الأبصار. هو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب وخطورتها فيكون في الملوك، وإنْ ندر، أشد منه في غير الناس.

قد تشرَّفت بمقابلة الملك فيصل ومجالَسته ومحادَثته في أحوال شتى، رسميًّا وغير رسمي، في البلاط وخارج البلاط، على المائدة الملكية وإلى السماط البيتي، فلم أَرَه مرةً ناعمَ البال مطمئنًّا، بل كان الغم مثل الظل في أذار يظهر في مجلسه ويختفي إذا تكلَّم وإذا سكت.

دُعيت إلى مأدبة أعدَّها في القصر كان جالسًا إليها في صفَّين متقابِلَين عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء، وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم. وكان جلالته جالسًا في الوسط وإلى يمينه قرينة المندوب السامي اللادي كوكس، وإلى شماله القائد العام للجيش الإنكليزي في العراق، وكان قبالة الملك أخوه الأمير زايد، وإلى يمين الأمير المندوب السامي، وإلى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته الخاتون جرترود بِل. وكان بيني وبين المندوب السامي سيدة إنكليزية، وقبالتي سيدة أخرى، فعلمت من الواحدة أنها حزينة جدًّا؛ لأنها تحب الموسيقى ولا تستطيع أن تقتني «بيانو» في بغداد، وأخبرتني الأخرى بأن زوجها، وهو أحد المستشارين، لا تهمُّه الأزياء ولا قراءة الروايات، وكان القائد العام يحدِّث جارته بما صدر حديثًا من الروايات في لندن. ثم سمعت السر برسي كوكس، وهو من غواة الصيد وله إلمام بعلم الحيوان، يسأل ما اسم الـ **Badger** في اللغة العربية، فساح السؤال حول المائدة شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالًا، وعاد إلى فخامة المندوب خائب الأمل.

أمَّا جلالة الملك فكان أثناء المأدبة، منذ قدِمَ الحساء إلى أن جاء الخَدَم بالقهوة، صورة من صور اليأس المحزنة، وقد أحاط نفسَه بسيدةٍ لا تُحسِن العربية، وبقائدٍ قاتم الجبين لا يُحسِن كذلك العربية ولا الإفرنسية.

قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس، وقلَّما هم ذلك الإنكليز، فلا أظنهم — ما عدا المس بِل — أحسُّوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهم في الأقل آداب المائدة، فلا يتحدثون بأمور خصوصية لا تهم جلالة الملك ولا تهم المدعوين من الوطنيين. فقد رأيت حتى جعفر باشا، وهو يُحسِن الإنكليزية، يجتهد في محادَثة جارته التي أبَتْ أن تخرج من موضوع الرواية الإنكليزية الأخيرة، وما يهم العراقيين، بل الشرقيين، يا تُرى من رواية إنكليزية تبحث في أحوال اجتماعية محلية وقتية

في قرية من قرى إنكلترا؟

أمَّا جاري الآخر مجيد بك الشاوي، وهو أحد الأربعة الذين يكفِّرونهم في العراق[١]، والرجل الوحيد الذي تجاسَرَ أن يلبِّيَ الدعوة الملكية في ثوب عادي، فلم يكن ليهتمَّ بحديث الخواتين والمستشارين، بل كان يحسو الشمبانيا الكأسَ تلو الكأس، ويضحك لنكات جاره سكرتير مجلس النظَّار السيد حسين أفنان.

وقد كان لمجيد بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة؛ لأنه في سلوكه فتح بابًا للمُجون. كان واقفًا عند الوداع إلى جنبي فقال له الملك وهو يشير إلى شربه الخمر: شفتك والله شفتك. فأجاب الشاوي وهو يشير إليَّ — لم أدرك وجه الشبه في ذاك الحين: هذا صديقي؛ لأنه صديق المعري. ونحن يا مولانا لا نعرف غير المعري والخيَّام. فضحك الملك فيصل، وكانت ضحكته الأولى في تلك الليلة الحافلة بكبار العراقيين والإنكليز، المشعشعة بنياشين الوزراء وحلي الخواتين.

إني أذكر مأدبةً أخرى خارج القصر وخارج المدينة، مأدبة ويومًا في البساتين وفي معزل عن الرسميات الغربية، هناك في شرقي بغداد على نهر ديالي ناحيةَ بعقوبة، وهي جنة العراق الشمالي، وبالقرب من بعقوبة بلدةٌ على شاطئ النهر تُدعى الهوَيْدِر، فيها ملاك كريم هو فخري بك آل جميل، دعا جلالة الملك وحاشيته لقضاء يوم في ضيافته، ودعا أيضًا بعض الإنكليز، منهم المس بِل والمستر كورنواليس مستشار الداخلية، وصديقهم السيد محمود بن النقيب.

نُصِب السرادق بين أشجار الليمون والرمال، وفُرِش الطريق إليه بالسجاد، ومُدت المائدة تحت النخيل المزيَّن بالذهب والياقوت من التمر، وكان الهواء مفعمًا بطيب الرياحين والأزهار، والطيور تغرِّد على الأفنان وفي مخبآت الأدغال، والكروم مثقلة بأفخر العنب المتعدد الأنواع والألوان، والمس بِل تروح وتجيء حاملةً غصنًا من الرمان أو عنقودًا كبيرًا من العنب فتقدِّمه جاثيةً لجلالة الملك.

وجلالة الملك ... لله من غم يأبى الحصر في القصور، فيرافق صاحبَه إلى البساتين في أجمل بقعة من أرض الله! لله من غم يجلس فوق العرش ويلصق بصاحب العرش حيثما حلَّ وجال! لله من غم لا يحترم حتى الإنكليز، وقد يكون له في الإنكليز ما يرويه ويغذِّيه! أظن أن المس بِل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من فصاحة ولطافة أن تخفِّف وطأته، وتبدِّد في الأقل ظلاله من بساتين آل جميل في ذاك اليوم الجميل، ولكنها — وا أسفاه — لم تفلح، وقد تكون فيما أسرفتْ زادَتِ الظلال قتامًا.

جلس الملك في الخيمة بعد أن جال في البستان يلعب بسبحته، ويدخن السيكارة تلو السيكارة، وكان التعب باديًا في وجهه، والحديث لا يجيء إلا تكلفًا واجتهادًا. هي السياسة وهموم العرش، أضِفْ إليها همًّا

[١] الثلاثة الآخرون هم: جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي، وكاظم الدجيلي. وسيجيء الكلام عليهم ولهم.

جديدًا جاء من الشمال؛ فقد كان لانتصار مصطفى كمال وقعٌ في العراق لم يسر الملك ولا الحكومة، وكان بعض الموظفين في الموصل يُفاوِضون بطل الترك في الأناضول.

وهؤلاء الإنكليز لا يدعون جلالته ساعةً واحدة، يلزمونه كالظل في كل مكان. حبذا الحكمة في سلوكهم وفي سلوك الوطنيين الذين يظنون أن المآدب لا تتم دون أن يُدعى إليها أحد من دار الانتداب.

إن الملك فيصلًا لَأقربُ ملوكِ العالم اليومَ إلى الديمقراطية، الأمر الذي لا يروق – على ما أظن – الإنكليز الشغفين بأبّهة الملك، وقد يضر بجلالته سلوكٌ لم يتعوَّده الموظف الإنكليزي فيسيء فَهْمه أو يعتمد الإساءة. لا أحد ينكر أن يومًا في البساتين لجدير بأن يكون عدو الرسميات، فلا بأس إذا جلس جلالة الملك على الديوان، وهو في ثوب قائد الجيش العراقي، ورفع خوذته، ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قبالته على كرسي ويمد رجليه، كما لو كان في بيته، ولا ينزع قبعته عن رأسه، يسيء الأدب ويمتهن حرمة التاج.

لا أظن أن موظفًا إنكليزيًّا مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة جلالة ملك بريطانيا العظمى، والملك فيصل دقيق الشعور شديد الحس، لا يستطيع أن يقول الكلمة التي تؤلم أو تسيء، ولا يتبسط في الحديث، ويجيد إذا كان في حضرته مَن لا يرتاح إليه؛ خصوصًا إذا كانت مجالسه كلها التي حضرت خالية من الذكاء الحر أو من الحرية المتشردة البدوية.

إن الملك فيصلًا لَفي حاجةٍ في بلاطه وفي مجالسه غير الرسمية إلى مَن يُحسِن النكتة، إلى ظريفٍ خفيفِ الروح، إلى نديمٍ رسمي. قد عرفت أكثرَ مَن في القصر وما عرفت فيهم مَن يستطيع أن يقوم بهذه الوظيفة المهمة.

كنا ذات ليلة جالسين إلى مائدته الخصوصية، ولم يكن غيري وناجي بك السويدي وحسين أفنان من خارج البلاط، فسألني جلالته سؤالًا أدهشني لأول وهلة، ولكني علمت أنه كثيرًا ما يتباحث وكاتبا سره الفيلسوفان بمثل هذه المواضيع. قال جلالته: ما رأيك يا أمين في التطور وفي الثورة؟ أتعتقد أن عوامل العمران والتمدن الحقيقية هي أصح في التطور أو في الانقلاب؟ فقلت: إني ممَّن يعتقدون بالنشوء والارتقاء في الطبيعة وفي الاجتماع، وأن التطورَ معراجُ الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت، وأن الطفرة محال، وأن للثورات دائمًا ردُّ فعلٍ يعود بالناس إلى ما كانوا فيه، وغيرها في هذا الباب.

فعارَضَني كاتب سر جلالته رستم حيدر، وهو شيعي سوري من بعلبك، فشرع يتكلَّم بالثورات والانقلابات في السياسة وفي الدين كأنه دنتون أو كأنه لوتيروس. النشوء بطيء. التطور ضرب من البلادة. والأمة التي تنتظر وتتوكَّل عليه تفقد مثل الأمة الإنكليزية كثيرًا من مزايا النفس الجميلة التي تظهر في الفنون والاجتماعات.

حانـت مـني إذ ذاك التفاتـة إلى الفيلسـوف الآخـر في الـديوان الملكـي، إلى ذاك الإنكليـزي في خُلقـه وعقلـه، العربي في قلبه وشعوره، إلى أمين الكسباني، فرأيته يرفع بحاجبَيْه ويهز برأسه، ثم سمعته يقول مخاطبًا الملك: رستم يا سيدنا بلشيفي في آرائه.

فقـال حسـين أفنـان: والحمـد لله أنـه كـذلك في آرائـه فقـط. فضـحك جلالتـه ضـحكة كانـت الأولى والأخيرة تلك الليلة. ثم سألني سؤالًا آخر ظننته مضحكًا ولكنه لم يُضحِك أحدًا.

– ما رأيك يا أمين في العمامة والبرنيطة؟ وأي شكل تظنه يصلح لنا في العراق؟

فقلت: إن العرب في تهامة وفي اليمن يلبسون الشبقة؛ أي البرنيطة، وهي صنع أيديهم ليقوا رءوسَهم حر الشـمس. وهـم عرب مسلمون. فما ضر العرب في الأقطار العربية الأخرى؛ وخصوصًا في التي يشتد فيها الحر مثل العراق لو اقتدوا بهم؟

وكان ما قلت بخصوص الشبقة في اليمن جديدًا عند كل الحضور ما عدا جلالته؛ لأنه قاد مرةً حملة على الإدريسي في تهامة، وعلم بتلك الشبقات الكبيرة المصنوعة من القش، فدار الحديث على الخوذة وقبعة البلاط: السدارة، والطربوش، ولم يجِئ أحدٌ بكلمة تُضحِك أثناء البحث، على أننا عندما صعدنا من غرفة المائدة إلى رَدْهة الاستقبال وجلس الملك ورستم والسويدي والكسباني إلى طاولة صغيرة يلعبون الـ «بريدج»، خرجتُ والباقون إلى الرواق، فأسمعنا هناك أفنان نكاتٍ وددتُ من أجل جلالته لو أنه أسمعنا بعضَها على المائدة.

لا أظنُّ أنَّ ما يسود الملك فيصـلًا من الغم ناتجٌ عن همومه الحاضرة فقط. لا أظن أن تاج العراق وَحْده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة، وذاك السكوت الذي يسبق الكلام إلى القلوب. إن فيصلًا، فيما لمع من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الأخيرة، لَمِن الأمراء القليل عددهم في العالم اليوم؛ فقد دانت له ساعة قصيرة من الزمان، فظلَمَتْه الحوادث في تسابُقها حوله وعليه، فلم يتمكَّن لسرعتها وتعدُّدها من الانتفاع بها.

هو ذا أمير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة، حولها دائرةٌ حمراء من السياسة الوطنية، يُمازِجها اصفرارٌ من دسائس السياسة الدولية. وهذه – لعمري – حقيقة مآدب الغم؛ مأدبة الشهرة التي يتلوها وجع الرأس، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل السياسة، ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية.

أما وقد أشرتُ إلى أسباب الغم في جلالة الملك، فينبغي لي، وأنا من المعجَبين بالبيت الهاشمي الذي نصر الأحلاف وجنَّد ألوفًا من العرب على الأتراك والألمان في الحرب العظمى؛ ومن المحزونين لأنه لم يَفُزْ بكل ما كان يبغيه ويحارب من أجله، ومن الطالبين الحقيقةَ قبل كل شيء؛ ينبغي لي أن أعيد النظر في تلك

الحوادث التي كان الأمير فيصل قطبَ دائرتها. هي جزء من سيرة حياته التي أصبحت جزءًا من التاريخ العام.

(٥) الثورة في العراق

إن الشهر الذي استقرت فيه السيادة الإفرنسية في سوريا لَشهرُ شؤمٍ على السيادة البريطانية في العراق؛ فقد اختار الإفرنسيس تموز، شهر الحرية؛ ليُقاوِموا شعبًا مجاهدًا في طلب حريته ففازوا، وقد حاوَل العراقيون في هذا الشهر أن يُخرِجوا البريطانيين من العراق فلم يُفلِحوا. وكانت الثورة قد اشتعلت وتأجَّجت في أنحاء العراق كلها، من النجف إلى بعقوبة، ومن المنتفق إلى الموصل وبلاد الأكراد.

جاءت الكلمة من العلماء، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف، فقامت العشائر تردِّدها وتعمل بها، فأرسلت روح التمرد في البلاد سمومَها، فالْتَهمَتِ الأخضر واليابس في المضارب وفي المدن، وعمد الوكلاء السياسيون لبريطانيا إلى البرق والتلفون يطلبون النجدات من البصرة ومن العاصمة. إنه لَأعجبُ ما حدث في العراق بعد الاحتلال البريطاني! هو ذا بلدٌ لا صحافةَ فيه تُذكَر، ولا طرقَ مواصلات حديثة صالحة، ولا قيادة، تعمه الثورة فترتبط أطرافه بعضها ببعض، ثم تستمر أشهرًا وهي تزداد قوةً وهولًا، حتى إن العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين.

قد أنفقت الحكومة البريطانية ملايين من الليرات، وفادت بألوف من الجنود لإخمادها، وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة. هي ثورة شبيهة بزلزال هائل لا بحادث اجتماعي يُدِيره مع ذلك العقل والحكمة، فلم يكن فيها شيء من الخير لأهل العراق ولا للحكومة المحتلة.

بيْدَ أنها نبَّهت البريطانيين إلى حال في البلاد العربية، بل في الشرق، جديدة، وذكَّرتهم بحال في أوروبا هي بنت الحرب العظمى وأم الانحطاط المعنوي، تلك الحال العامة وقد كادوا ينسونها. إن لكل عملٍ رجلًا، ولكل رجل يومًا، ولكل يومٍ سياسة. قد كان البريطانيون السببَ الأول في ثورة العراق في صيف ١٩٢٠؛ لأنهم نقلوا إلى البلاد حكومةً هندية قديمة عقيمة، هندية في طريقتها، هندية في سياستها، هندية في رجالها. والهنود بجملتهم لا يفهمون العربَ ولا يحترمونهم، وقد كان رئيس الحكومة البريطانية في هذه الفترة رجلًا من الطراز الأول من أبناء بريطانيا الأشداء الذين شادوا في الماضي معالم مجدها، غير أنه وُجِد في زمان غير زمان أجداده، وبين شعب غيَّرت نفسيته وعقليته حوادثُ الأيام.

السر آرنلد ولسون[1] الحاكم بالوكالة يومئذٍ في العراق، هو كَهْل في العَقد الرابع من العمر، ومن الإنكليز الذين كانوا يحملون السوط في القرن الماضي، ويحكمون بموجب ضميرهم لخير إنكلترا أولًا ثم لخير

[1] Sir Arnold Wilson.

الناس. وكانوا في تفوُّقهم مُحسِنين، وفي ظلمهم عادِلِين، قُوَّتهم في يقينهم، ويقينهم في أخلاقهم، وأخلاقهم متأصِّلة في فضائل شعب مجيدة، أظهرها الشرف والعدل والصدق والثبات. بيْدَ أن هذه الفضائل أمست اليوم من التقاليد المحترمة، وقد يعيد الزمان إلى التقاليد الحياة والعمل.

قام السر آرنلد ولسون يمثل في العراق أمةً أفقَدَتْها الحرب، كما أفقدت أمم أوروبا جمعاء كثيرًا من قُواها المعنوية الروحية، فصارت تفادي بعدلها في سبيل شرفها، أو تتنزل عن شرفها لتحفظ مقامها، أو تتساهل بالصدق لتظل ثابتةَ القدم مسموعةَ الكلمة، أو تتغلَّب وتتلوَّن دفاعًا عن نفسها وكيانها. رجل من حديد يمثِّل أمة من فولاذ اعتراه الصدأ، قام في العراق يحكم باسم الله وبريطانيا العظمى، فوجد شعبًا ظنه كشعوب الهند في القرن الماضي يقبل بالتأديب ويشكر دائمًا المؤدِّب.

قلت إن الحرب أفقدت الأمم الأوروبية كثيرًا من قواها المعنوية، الأدبية والروحية، ولم تُكسب الشعوب العربية، بل الشرقية، غير حب الحرية والاستقلال ونزعة في سبيلهما لا تماثلها شدة حتى النزعات الدينية. ولكن الحروب والثورات، إذا كسرت قيودَ الظلم، لا تعلِّم المظلومين النزاهة والحكمة والعدل، ثم العمل المدني الذي فيه هذه الفضائل الثلاث؛ فَقَدَ الإنكليزي من قواه المعنوية ما كانت تُقدَّر في الأحكام بنصف نفوذه، ولم يَبْقَ في العربي، بل الشرقي، من الخوف والاحترام ما كان يقوم مقامَ النصف الآخَر. كانت بريطانيا العظمى تحكم ثلاثمائة مليون من الناس بثلاثين ألفًا من الجنود. هي حال ولَّت أيامها، فقد أرسلت سبعين ألفًا من جنودها إلى العراق، وسكانه لا يتجاوزون الثلاثة ملايين، ولم تستطع أن تخمد الثورة في أقل من سبعة أشهر.

السبب بسيط؛ إن كلمة الحاكم العادل المستبد تستوجب في تنفيذها – إذا كان لا يحترمها الناس – قوة الشرطة أو قوة الجيش، فكيف بها إذا كان الناس ينفرون منها ويقاومونها؟! زرع السر آرنلد ولسون، أثناء قيامه مقام المندوب السامي، بذور الفتنة، وهو متيقِّن أنها بذور الحكمة والخير، وشاركه في الزرع وفي الحصاد رجلٌ آخر من رجال الحكم الإنكليزي هو السر آلمير هالداين[١] انجليزي قائد الجيوش البريطانية يومئذ في العراق. ويظهر أن السر آلمير كان أحرص على صحته وراحته من السر آرنلد؛ فقد اعتاد في الهند أن يتنقَّل مع الحكومة في كل فصل من فصول البرد والحر، فجاء العراق في آخر الشتاء، وما كاد يدخل الربيع الذي هو النصف الأول من صيف هذا القُطر حتى أحسَّ بحرٍّ حمله على التجوال في جبال العجم، ثم نقل مركز القيادة العامة إلى تلك الجبال، بينا البلاد كانت تتمخض بالثورة. أضف إلى ذلك ما كان يحدث بينه وبين وكيله المندوب السامي والوكلاء السياسيين من الخلاف الذي زاد في خلل الإدارة، وفي امتداد الفتنة، حتى إن السر آرنلد بعث ذات يوم يشكوه إلى الحكومة بلندن، فجاءت برقية من الوزارة الحربية

([1])Lieutenant Gen. Sir Aylmer Haldane.

تسأل القائد العام: ماذا يعمل في جبال العجم؟ ماذا يعمل في الجبال ونيران الفتنة تشتعل في السهول؟

أمَّا الغاية من هذه الثورة فقد انحصرت كما يظهر بأمرَين، إخراج الإنكليز وإعلان الاستقلال، على أن نهضة يديرها أو يوعز بها، أو يدعو لها المجتهدون لا تخلو من نزعة دينية تتخلل دعوتها السياسية؛ فقد كان المجتهدون في النجف وبعض الزعماء؛ مثل يوسف السويدي وجعفر أبي التمن، يعملون سرًّا في إثارة الفتنة. أما العشائر فقد كانوا مستعدين، وهم دائمًا يستعدون لتلبية أي دعوة تخلِّصهم من دفع الضرائب الباهظة، التي تفرضها الحكومة عليهم وتحاول تحصيلها بالطرق الفعَّالة، القانونية وغير القانونية. فما همهم شيء ولا عرفوا بشيء من مقاصد الزعماء المحتجبين الخفية.

وقد كانت للعشائر قوة في الدفاع والقتال عجزت دونها الجنود البريطانية. أرض العراق –كما هو معلوم– مسطحة بسيطة لا يكاد يكون فيها ملجأ يلجأ إليه المقاتلون في الغارات أو مكمن يكمنون فيه، فبنى العشائر لهذه الغاية المفاتيل. والمفتول هو برج صغير مستدير، علوه من خمسين إلى سبعين قدمًا، فيه دَرَج غالبًا لولبي يتصل بغرفة في رأسه فيها كوى كبيرة من الداخل صغيرة من الخارج يُرصَد منها العدو ويُطلَق منها النار، وهي تختلف حجمًا، فيمكن أن يحاصر فيها من الخمسة إلى العشرين رجلًا عدة أيام. قد رأيت منها في اليمن وفي نجد، ولكنها قليلة هناك.

أما العراق فقد كان فيه ألوف من المفاتيل عند دخول الإنكليز، بل كان في بعض الجهات لكل بيت، أو في الأقل لكل حي مفتول. المفاتيل! إنما هي الويل الأكبر على الجنود الإنكليزية، وهم في الفلوات معرَّضون دائمًا لنارها ولا كنف يحميهم منها، فلا عجب إذا عدَّت حصنَ العراق المنيع، والسلاح الوحيد الذي يخشاه العدو. ولا عجب إذا كان العدو في الزحف والهجوم يسعى أولًا في هدمها، ثم يبني في السهول ما يقوم مقامها لجنوده، وهو المعقل، أو ما يسمونه بالإنكليزية **Block House** وليس هناك ما يَحُول دون ذلك؛ فالمعقل مربع بسيط له أربع نوافذ عالية وليس له باب، وفي الداخل مواقف للجنود تمكِّنهم من الرصد وإطلاق النار. قد بنى الإنكليز ألوفًا من هذه المعاقل، وفي الطريق من البصرة إلى بغداد كثير منها، وليس بين الواحد والآخر أكثر من مسافة ميل واحد.

أما هدم المفاتيل فيستلزم قوةً وشجاعة واستبسال، وقد بذل الإنكليز فوق ذلك كثيرًا من المال، فكانوا يتقدمون إلى شيخ القرية أو شيخ القبيلة بشرك أو بمعروف أو برش من الرصاص أو المال، فيضغطون عليه أو يستغوونه أو يرشونه أو يغدرون به، والحرب خدعة. قد بذل الإنكليز كثيرًا من المال ومن الرجال في هدم المفاتيل، ولم تكن الطائرات التي حملوا بها على العشائر لتساعد كثيرًا، إلا إذا كانت المفاتيل داخل القرية التي يضربونها، فيهدمون ويحرقون فيها ليهدموا تلك الحصون الصغيرة المخفية، أو ليروِّعوا أهلها المتمردين. لا أظن أن في مظالم الحكم مظلمة تورث العراقيين بغض الإنكليز وتثير عليهم ثائرة الأحقاد مثل الطائرات، ذاك

السلاح الطائش الأعمى الذي يقتل النساء والأطفال والأبرياء مع المذنبين.

وعلى الرغم من الطائرات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين، وهم في مراكزهم يدافعون عنها إلى أن تجيئهم النجدة أو يُقتلوا. وقد كان أكثر الموظفين من الجندية فلم يُحسِنوا الإدارة؛ خصوصًا في بلاد أجنبية، ولم يكن بينهم وبين أهلها شيء من العطف، فضلًا عن الخلل في الإدارة العسكرية التي كانت قيادتها العامة معتصمةً في جبال العجم. فلا عجبَ إذا استمرت الثورة سبعة أشهر والعرب فيها فائزون بالرغم من المعاقل المشيدة والمفاتيل المهدومة.

وعلى ذكر المفاتيل، أذكر سوريًّا سعى في هدم مئات منها وكان من المفلِحين، فقد كان في خدمة الإنكليز الإدارية بعض السوريين من المقتدرين المخلِصين، كما جاء في تقرير المندوب السامي إلى دائرة المستعمرات: «وقد كان أحد سوريينا المقتدرين المخلصين عونًا كبيرًا لنا في هذا الموقف الحَرِج». ولكن كاتب التقرير لم يذكر اسم ذاك السوري. هو الجندي المجهول. فها إني عملًا بالواجب الإنساني لا الوطني أذكر اسم مَن يستحق ضِعفَيْ هذا الثناء. هو سوري من يافا، كان نائب متصرف البصرة يوم كنت هناك، فخدم الحكومة العراقية الإنكليزية في أيامها الأولى العصيبة خدماتٍ جليلةً في وظائف شتى، وحاز جزاء خدماته في النجف خصوصًا وسام الدولة الهندية.

كان جاد غاوي معاون الوكيل السياسي في الشامية[1]، وكانت المفاتيل في تلك الأيام –كما قلت– أشدَّ أعداءِ الجيوش البريطانية، وأمضى سلاحٍ بيد العراقيين، فتمكَّن جاد غاوي في الشامية من حمل العرب على هدم مفاتيلهم، ولم يبذل من أسباب النجاح غير اللطف والمعروف وقوة الإقناع. داراهم وهو في دارهم، فاكتسب ثقتَهم وحبَّ مشايخهم، فهدموا من حصونهم ما يتجاوز الألفَيْن منها، وكانوا بعد ذلك من أصدقاء الحكومة والإنكليز. قد لا يُذكَر اسم جاد غاوي في التقارير الرسمية، ولكنني سمعته حيثما سرت في العراق، وما سمعته مقرونًا بغير كلمات الحب والتكريم.

أما السر آرنلد ولسون، فلا يزال في العراق من الإنكليز لا من العرب مَن يُعجَب به بالرغم من هذه الثورة، ويستحسن خطته السياسية، ولا غرو، فهو على نزقه وتسرُّعه وعنفوانه حُرُّ الطبع، صريحُ الكلمة، طَلْق المُحَيَّا. وهو حنطي اللون، أسود الشعر والعين، كأنه إيطالي أو إسباني. وله شيء مما كان لروزفلت من المغناطيس في المصافَحة والحديث. قد كان الرئيس الأميركي الشهير يضرب بيده على كتفِ مَن يُحيِّيه عند المصافَحة، فأصبحتْ من عاداته المحبوبة. أمَّا السر آرنلد فلا يضرب بيده، بل بلسانه أو بإشارة من إشارات النفس التي تظهر في اللحظ أو الابتسام أو في نبرات الكلام. قد اجتمعتُ به في البصرة بعد أن رجع من

[1] هو قضاء الشامية من متصرفية الحلة، وعدد سكانه سنة ١٩٢٢ نحو خمسة وستين ألف نفس كلهم شيعيون ومن العشائر.

إنكلترا ليرأس شركة النفط الإنكليزية الفارسية في عبَّادان، فسلَّم كأنه من المعارف، وعندما تبادَلْنا السلام تبادَلْنا كلمةً بخصوص السر برسي كوكس، وكان قد علم السر آرنلد بأني أنتظره لأرافقه في السفر إلى العُقير، فقال على الفور: ستنتظر طويلًا. فقلت: إذا كان لا يصل في هذا الأسبوع أسافر وحدي. فقال: حسنًا تفعل. هي الطريقة الوحيدة في النجاح، فخطر في بالي إذ ذاك ما قاله الشاعر العربي، فترجمته له:

وإنمـــــا رجـــــالُ الـــــدنيا وواحِـــــدُها   مَـــن لا يعـــولُ في الـــدنيا علـــى رَجُـــل

فقال السر آرنلد على الفور: عند العرب الشِّعر ولا ريب، وليس عندهم العمل.

هو ذا الرجل الذي كانت سياسته في العراق من العوامل الأولى في ثورة سنة ١٩٢٠، ولا أظنه إذا ذُكِرت مرةً يحس بشيء من الندم؛ لأنه كان ولا يزال يعتقد أن القوة في الحكم بالرغم عن التعنيف خير من اللين والفوضى. أمَّا الرجل الذي جاء في تشرين الأول من هذه السنة ليُطفِئ ما تبقَّى تحت الرماد من جمرات الثورة، ويؤسِّس حكومة وطنية لأهل العراق «وفقًا لرغائب جلالة الملك»، فهو نقيض السر آرنلد على خط مستقيم.

السر برسي كوكس[1] رجل طويل القامة، نحيل الجسم، بيضاوي شكل الوجه، دقيق الأنف والشفة، أبيض الأديم، أزرق العين. هو إنكليزي لا غشَّ فيه. ظاهره، وهو في سكون، يُنبِئ عن نفس رائقة ولكنها ليست بشفافة. وإذا كان من اضطرابٍ هناك فقلَّما يبدو للنظر. في لطفه ما يدفئ ولا يشع، وفي صراحته شيء يشير غالبًا إلى التعمُّد. هو من السياسيين الذين يحتفظون بسِرهم، وإن كان لا يهم، كأنه رأس مالهم في الحياة، وإذا كشف عن زاوية منه فبعد أن تكون الحوادث قد كشفت عنه الستار كله.

إن سكوت السر برسي هو غالبًا أفصح من نطقه، وإن عمله السياسي، وإن وقف فيه أحيانًا عند حد الغموض أو العجز، لا يخلو من الإخلاص للعراقيين وللعرب. فإذا حصرت النظر في سياسته العربية أرى أن أكبر فضله وأظهر حسناته هو هذا الإخلاص، ولو ظهر في بعض الأحايين في مظهرٍ مائع أو في مظهرٍ مؤلم، فقد قضى مدةً من حياته قريبًا من العرب ولا يزال يحبهم ويُعجَب بمواهبهم الراقدة، ويود أن تكون المنافع في العلائق الإنكليزية العربية مشتركًا فيها على السواء بين الأُمَّتَين.

كنت أتحدَّث وأحد رجال السياسة المعتدلين، غير العرب، وكان السر برسي ونفط العراق موضوعنا،

---

[1] دخل السر برسي كوكس في سلك الحكومة الهندية سنة ١٨٩٠، وعُيِّن بعد ثلاث سنين نائب قنصل زيلا في بلاد الصومال، وانتقل في السنة التالية إلى بربرة، ثم عين سنة ١٨٩٩ قنصلًا في مسقط، ثم قنصلًا عامًّا في أبي شهر. وفي سنة ١٩٠٩ أُسنِد إليه منصب المندوب السامي في خليج العجم. وعندما شبَّتْ نار الحرب العظمى انتُدِب لأن يكون رئيسَ الحكَّام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق. ثم ذهب بعد الحرب إلى بلاد إيران بصفة وكيل للوزير البريطاني في طهران، وعاد منها مندوبًا ساميًا لحكومة بريطانيا في العراق.

فقال جليسي: إن في سياسته كثيرًا من الزيت. هي استعارة غربية علمية، وفيها — خلا الإشارة إلى زيت العراق — مغزى لطيف؛ فالآلة الميكانيكية إذا كثُرَ زيتُها يخفُّ صوتها وتنعم في احتكاك أجزائها، ولكنها تقف أحيانًا من الاحتقان في مفاصلها فيعتريها الخلل. وكثيرًا ما وقفت الآلة السياسية في دار الانتداب، وكان رئيس المهندسين، بل رئيستهم المس بِل، تَذكر في البلاغات بعضَ أسباب الخلل، ولا تشير مرةً إلى كثرة الزيت والاحتقان.

مهما قيل في السر برسي فإن وجوده في العراق، فيما يُعَد من أهم أزمنة العراق السياسية بعد الحرب، كان خير ضمين لكرامة إنكلترا ومصلحتها، وخير صلة بينها وبين هذا القُطْر الناهض من الأقطار العربية؛ فقد حدث في عهده من الحوادث ما ستكون بهمة العراقيين أول صفحة مجيدة في تاريخ العراق الجديد.

عند وصول السر برسي في تشرين الأول سنة ١٩٢٠ انتهى الحكم العسكري رسميًّا، ولكن شراذم من الثورة كانت لا تزال خارجةً في أماكن مختلفة، فصوَّبَ المندوب السامي باكورة أعماله إليها، فسلَّمت كربلاء، وهي قُطْب الفتنة، في ١٣ تشرين الأول، ثم أنجدت الحامية في الكوفة، فسلَّمت على إثر ذلك النجف، وأذعنت عشائر الشامية والديوانية لأوامر الحكومة، فكان عددُ ما جُمِع من السلاح في هذه النواحي خمسةً وستين ألف بندقية.

أما في لواء ديالي، حيث كانت الثورة في أشد حالها، فقد استمر الاضطراب وما تخلله من الحوادث المؤلمة إلى أواخر سنة ١٩٢١ عندما عُقِدت المعاهدة بين الحكومة ورؤساء العشائر هناك، وظلَّ في الشمال في نواحي الموصل نفوذ الأتراك ينخر كالسوس في عظم السيادة العربية الإنكليزية.

عندما باشَرَ المندوب السامي أعمالَه السِّلْمية أصدَرَ بلاغًا إلى العشائر خصوصًا، وإلى أهل العراق عمومًا، يُعلِمهم فيه بأنه انتُدِب ليساعد في تحقيق أماني الأمة بواسطة زعمائها؛ وليؤسِّس بمُؤازَرَتهم حكومة وطنية. على أن ذلك يستحيل قبل أن يستتبَّ في البلاد الأمن والنظام. ولما توفَّقت حكومة الانتداب إلى إيجادِ شيءٍ من ذلك، أصدر بلاغًا آخَر يُعلِم الأُمَّة بتأسيسِ حكومةٍ مؤقتة إلى أن يجتمع المجلس النيابي العام في ١٧ حزيران من سنة ١٩٢١، وأن هذه الحكومة المؤقتة تتألف من مجلس وطني يحكم تحت مشارفة المندوب السامي في كل الأمور ما عدا الخارجية والعسكرية.

إن إصدار مثل هذا البلاغ لَمِن أبسطِ الأمور وأسهلها، ولكن تأسيس حكومة مؤقتة، تحوز ثقةَ البلاد وتكون مَرِنة بيدِ المندوب السامي، هو من الأمور التي يكثر فيها العقد ولا تخلو من النفاثات.

لا ريْبَ أن بيت النقيب، وعلى رأسه الشيخ الجليل السيد عبد الرحمن الجيلاني، هو مسموع الكلمة، محترم الجانب في بغداد، بل في العراق، ولكنه في السياسة، كما هو في الدين، يُؤثِر التقاليدَ على البدع، ولا يرفع على الاعتدال حسنةً من حسنات الوطنية. وقد تتغلَّب في اعتداله المحافَظةُ التي يعقد عندها الرأي

وتتقلَّص عواملُ التجدد، إلا أن ذلك لا يهم النفاثات في العُقَد اللواتي تمثِّلهن المس بِل.

«إن فضيلة النقيب صديقنا، صديق إنكلترا، وهو ثابت في صداقته، وإن له نفوذًا سياسيًّا مقرونًا بنفوذ ديني لا يضاهيه نفوذٌ في البلاد. إذن هو صديق الأمة وصديق الإنكليز؛ هو الزعيم». سأعود إلى فضيلة النقيب ومجلسه وسياسته في فصل آخر.

قَبِل مترددًا رئاسةَ المجلس الوطني الذي كان من أعضائه الأخصائي المالي الشهير في العراق ساسون أفندي حزقيل، والسياسي الداهية السيد طالب النقيب، نقيب البصرة، والعالم الفقيه مصطفى أفندي الألوسي، والوجيه الفاضل عبد اللطيف باشا المنديل. كلهم من أصحاب التجلة والكرامة، وليس فيهم ممَّن حارَب في الحرب العظمى، وكان من الشبيبة الوطنية التي تنعكس في آمالها وأقوالها، وفي بعض أعمالها، جمالُ النهضة العربية، وحقيقتُها العالية، إلا جعفر باشا العسكري.

اجتمع المجلس لأول مرة في ١٠ تشرين الثاني، واستمرَّ في الحكم إلى يوم تتويج الأمير فيصل مِلكًا على العراق. وقد كان من أعماله العفو عن بعض المنفيين ممن اشتركوا في الثورة، ومساعدة الضباط العرب الذين خدموا في الحكومة السورية الفيصلية ليرجعوا إلى العراق، وتنظيم حكومة مدنية يُدِيرها موظَّفون وطنيون تحلُّ محلَّ الحكومةِ العسكرية التي كان يُدِيرها الوكلاء السياسيون الإنكليز. ثم باشَرَ المجلس درْسَ إنشاءِ جيش عراقي ودرْسَ قانون الانتخابات التركي، وتصحيحه ليطابق أحوال البلاد الجديدة.

وكان قد تولَّى هذا الأمرَ ناظرُ الداخلية طالب باشا النقيب، غير أن الانتخابات والمطامع الملكية قلَّما تلتئم؛ خصوصًا إذا كان أمر الاثنين منوطًا برجل واحد. بدأت الأمة تطالب بتنفيذ قرار ١٧ حزيران الذي أصدرته الحكومة العسكرية وأجازته الحكومة الوطنية المؤقتة. بدأت تطالب بانتخاب المجلس النيابي العام.

وكان الأمير فيصل قد سافر إلى أوروبا ووصل إلى إنكلترا، وكانت الحكومة الإنكليزية تفكِّر في ملكية العراق وفي نكبة الأمير. أما في العراق، فكان قد ولى بعض الناس وجوهَهم شَطْرَ الكعبة يستمدون من ظلها المبارك الوحي في تشييد ملكهم الجديد، فشاع في البلاد أمرُ الملك حسين وأولاده، وبعث بعض أولئك العراقيين يرغِّبون إليه بأن ينفذ أحدهم ليتبوَّأ العرش الجديد.

أزعج الخبرُ وزيرَ الداخلية الذي فكَّر مليًّا في الأمر فرآه متشعبًا كثير الأخطار. إن للشريف أربعةَ أنجال، وفي كل واحد منهم الخير والبركة، ولكن الأمة العراقية تأبى التفضيل، وقد تسيء الاختيار، فتنقسم على نفسها فيتزاحم ويتهالك الأنجال الأشراف في سبيل مصالحها ... وليس في مثل هذه الحال خيرٌ للعراق.

لذلك شرع السيد طالب يطوف في البلاد ليتم إصلاحًا خاصًّا في قانون الانتخابات. كانت المادة الأولى فيه تلك التي تولى بنفسه نشْرَها وتعميمها: ألَّا تنتخبوا شريفًا أجنبيًّا ملكًا عليكم. وَيْحكم! هو ذا

السيد طالب، وهو مثل أنجال الشريف من الأشراف، فهو يتكفَّل لكم بمَن يملأ كرسي العرش ولا يكون التاج على رأسه كبيرًا أو صغيرًا. بيد أن المستر تشرشل، وزير المستعمرات الإنكليزية، وهو يومئذ «طنب سارح» مثل السيد طالب، كان يسعى في غير هذا السبيل.

(٦) عاش الملك

ثلاثة في هذه الحوادث التاريخية عظمتُ همومهم فبلغت الحدَّ الفاصل بين النكبة والنعمة. ثلاثة يُمالِئون الشعب الذي أصبح وبيده التاج والصولجان يهبهما مَن يشاء، ويحطمهما إذا شاء ... ثلاثة يهتمون والتاج واحد. أما المستر تشرشل فقد كان همه الأول أن يخفِّف الضرائب عن الشعب البريطاني ليحفظ السيادةَ له ولحزبه في الحكومة، فيضمن لمليكه سلامةَ التاج. وثاني الثلاثة الأمير فيصل الذي فقَدَ تاجَه في سوريا، وراح يُطالِب الحكومةَ التي اعتادت — وفي كل عادةٍ شيءٌ من اللذة — أن تضارِبَ خارجَ بلادها بالتيجان. والثالث سيد من سادات البصرة، فيه شيء من الأسد وشيء من الثعلب، رأى الأمة وبيدها تاج تبغي صاحبه فجاء يخبرها بأن صاحبه النقيب سيد البلاد الأوحد. أما إذا أحببتم أن ينوب عنه السيد طالب، وهو نقيب ابن نقيب مثله، فلا بأس. وراح يطوف البلاد —كما جاء في الفصل السابق — ليتحقَّق رغبة الأمة.

وجاء المستر تشرشل إلى فلسطين، ثم أمَّ القاهرة ليدرس الحالة السياسية في الشرق الأدنى فيدعم بشيءٍ من الإصلاحِ سياسةَ الأحرار في الحكومة. هذا ظاهر الغرض من تلك السياحة، ومن المؤتمر الذي عُقِد في القاهرة. دعا المستر تشرشل رءوسَ الحكومات الإنكليزية في بعض الأقطار العربية للمفاوَضة، فجاء من العراق المندوب السامي يصحبه بعض المستشارين والمس بِل ووزير المالية ساسون أفندي وجعفر باشا وزير الدفاع.

وجاء إلى القاهرة في ذاك الشهر أيضًا؛ أي الشهر الثاني من سنة ١٩٢١، الأميرُ فيصل وحاشيته متنزِّهين، فصفا الجو في العراق للسيد طالب ثم اكفهر، كما سيجيء الكلام. والسبب في ذلك، مهما قيل في التقارير الرسمية، إنما هو مؤتمر القاهرة. «قد اجتمعنا أيها السادة لننظر في طريقةٍ صالحة تُمكِّننا من تخفيض القوات الإنكليزية المسلَّحة في الشرق الأدنى دون أن يلحقَ شيءٌ من الضرر بالسيادة الإنكليزية، ثم للنظر في تأسيسِ دائرةٍ خصوصية للشرق الأدنى في وزارة المستعمرات لتوحيد السياسة والعمل. وبكلمةٍ أخرى، بكلمةٍ وجيزة صريحة، يجب أن نخفض نفقات حكومات الانتداب لنرفع عن مناكب الشعب البريطاني أثقال الضرائب. وإننا نرى أن تنظِّموا في العراق جيشًا من الوطنيين فنتمكَّن من سحب جنودنا من تلك البلاد ... قد اجتمعنا أيها السادة ... ملك العراق؟ نعم. نعم ...» وكان الأمير فيصل وحاشيته قد أمُّوا القاهرة —كما قلت — ترويحًا للنفس.

عاد وفد العراق إلى بغداد فأصدر المندوب السامي بلاغًا في ١٢ نيسان قال فيه: إن ما قرَّره مؤتمر

القاهرة يجب أن يُعرض على الحكومة بلندن قبل أن يُعلن. وكان السيد طالب قد أمعن في التطواف والخطابة، وتوسَّع في سياسة الانتخابات والتاج، فأزعج فريقًا من الأمة وخصوصًا فضيلة النقيب الذي كان يدرك من غوامض الأمور، وهو الصوفي الكامل، ما تعجز دونه روحية طالب باشا وعقلية أمثاله. أغمض النقيب الأكبر عينَيْه ونظر إلى ما وراء حجاب الغيب، فرأى هناك وزيرًا من كبار الوزراء، وخاتونًا من كبيرات الخواتين، دَعِ النفَّاثات في العُقَد، فسمع الأول يقول والثانية تترجم: لا ترغب حكومتي لعرش العراق بغير واحد من بيت الحسين بن علي.

ولكن السيد طالب لا يسمع ولا يرعوي؛ ففي مأدبةٍ أدَّبها لبعض الصحافيين الإنكليز، وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين ورؤساء العشائر، وقف بعد أن دارت الكئوس خطيبًا، وكان في جهره عجيبًا: إن في دار الانتداب مَن لا نحبهم؛ لأنهم يتدخَّلون في شئون الأمة التي لها الحق، ولها وحدها، أن تؤمر أن تملك عليها مَن تشاء، وقد صرحت حكومة الانتداب بأنها ستحترم إرادةَ الشعب العراقي ونحن نحترمها إذا فعلت، أمَّا إذا أخلفتْ فها هنا عليها — ونظر إذ ذاك إلى رؤساء العشائر — عشرون ألف بندقية.

كلمة شديدة صريحة ساقت إلى جو السياسة الغيوم والضباب، فقامت الخواتين تبدِّدها. دعت اللادي كوكس السيد طالبًا للشاي، وكانت المس بِل هناك تمثِّل على الدوام النفَّاثات في العُقَد، فسُحِر النقيب ابن النقيب، وخرج من القصر مسحورًا، فاستقبله عند الباب بعض الجنود، فدفعوه إلى سيارة كانت طيارة، حملوه على بساط الريح دون أن يدري بذلك أحد من الإنس، ولم يقفوا به حتى أمسوا خارج العراق، ثم صدر منشور المندوب وفيه الأسباب التي حملته على نفي صاحب المعالي السيد طالب باشا النقيب.

وظل الأمير فيصل سائحًا في جوٍّ صفا أديمه وتلألأت من ورائه طلائعُ الغيب، فوصل إلى الحجاز في أوائل حزيران، يوم ألقى المستر تشرشل خطابًا في مجلس النواب يختصُّ بالعراق، وركب الهجين من جدة إلى مكة ليقوم هناك بالواجب النبوي. تباركَتِ الأقدار التي تديرها سياسةُ بريطانيا العظمى؛ فقد أَنْسَت الابن غضبَ أبيه، ثم استيقظت في صدر صاحب الجلالة الرحمة والرضوان، فجاءت منه برقية تقول إن ابنه فيصلًا قد سافر إلى العراق.

وبعد عشرة أيام أشرقَتْ شمسُ الأمير في خليج فارس، فجاءت النقيبَ برقيةٌ ثانية تقول إنه سيصل إلى البصرة في ٢٤ حزيران. وما ضلَّ البخار ولا غوى. وصلت الباخرة في الوقت المضروب فاستُقبل مَن تقلُّ استقبالًا رسميًّا جميلًا في البصرة بالرغم عما كان فيها من عوامل الريب والتردُّد بشأن مَن جاء يجلس على عرش العراق. بيْدَ أن الأمير في محضره وحديثه وخطبه هو أكبر حجة لنفسه على المترددين من الناس. وقبل

أن أمَّ بغداد زار المشهد[1] والحضرة[2]، فاستمال إليه القلب الجعفري الخفي، ثم في ١١ تموز اجتمع مجلس الوزراء برئاسة النقيب وقرَّر أن يكون الأمير فيصل ملكَ العراق بشرطِ أن تكون الحكومة دستوريةً ديمقراطية نيابية. فأضاف المندوب السامي أنه بموجب تصريحات حكومة جلالة الملك بأن يكون للأمة العراقية حقُّ انتخابِ مَن تشاء مَلِكًا عليها، فلا يعمل بهذا القرار قبل أن يثبته الشعب العراقي. وشرعت الحكومة في الاستفتاء أو الانتخاب أو المبايَعة، فكانت النتيجة واحدة. إن انتخابات هذا الزمان الديمقراطية، خصوصًا في الشرق، لأضحوكةٌ من أضاحيك السياسة. على أنه بالرغم من مساعي الضباط الإنكليز السياسيين الذين تولَّوا أمر الانتخاب قد اشترط كثيرون من المنتخبين بأن تكون حكومة الملك حكومة مستقلة عن أية سيادة أجنبية كانت؛ أيْ إنهم رفضوا الانتداب.

وكانت حفلة التتويج في ٢٣ آب سنة ١٩٢١، فوقف السر برسي كوكس يعلن أمام الجماهير المحتشدة أن الأمة العراقية أجمعتْ بستة وتسعين من أصواتها على مُبايَعة الأمير فيصل، وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تعترف به ملكًا على العراق. فألقى جلالة الملك خطابًا جاء فيه: إن أول عمل أقوم به مُباشَرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي.

وبعد انتهاء الحفلة قدَّم المندوب السامي للملك برقيةً من الملك جورج الخامس فيها الكلام المألوف في التهنئة ثم ما يلي: «وإن المعاهدة التي ستُعقد قريبًا بيننا فتثبت التحالُف الذي تحالفناه في أيام الحرب المظلمة، ستمكنني — ولا ريب — من القيام بواجباتي المقدسة لإدخال العراق في عهدٍ جديدٍ من السِّلم والنجاح». فأجابه الملك فيصل بعد كلام الشكر المألوف بما يلي: «لا أشك بأن المعاهَدة التي ستُعقد قريبًا بيننا ستمكِّن عُرى التحالف الذي قدَّسه في ساحة الحرب العظمى دم الإنكليز والعرب، وأنها ستقام على أساس متين».

أما الشعب والزعماء والصحافيون فلم يدركوا وهُمْ في نوبةٍ من الحماسة والابتهاج شديدة، خطورةَ هاتين البرقيتين، لم يدركوا أن الملكين عقدا يومئذٍ عقدةً استحال في السنة التالية حلُّها، فكانت السبب فيما شوَّه الأحكامَ الاسمية الانتدابية من الخلل والاضطراب. غمس الصحافيون يومئذٍ أقلامَ الفصاحة في محابر البيان، واستعاروا من البلاغة أجنحةً طاروا بها في سماء الأماني الوطنية والأحلام.

وفي هذا اليوم شخصت أنظار الأمة إلى مليكها تستعيد ذِكْر المنصور والرشيد والمأمون. وفي هذا اليوم تستمد الأمة من ماضي مجد العباسيين نورًا تسير فيه إلى أعالي مجدها الجديد. وفي هذا اليوم تُؤسَّس حكومة عربية حرة دستورية نيابية ديمقراطية مستقلة كل الاستقلال. وفي هذا اليوم سقط منذ سنة ملك سوريا؛ ليعيشَ اليومَ ملك العراق.

---

[1] قبر الإمام علي في النجف.

[2] قبر الحسين في كربلاء.

بعد سنة أخرى، في عيد الجلوس الأول، ردَّدتِ الصحافةُ آياتِ البلاغة الذهبية، وحلَّقت في سماء الآمال العسجدية، فبرهنتْ على ضَعْف في ذاكرتها أو في سمعها. في مثل هذا اليوم منذ سنة وقف المندوب السامي يُعلِن للشعب باسم جلالة الملك استقلالَ العراق وانتخاب الأمير فيصل ملكًا على العراق. وفي مثل هذا اليوم أبرق الملك جورج الخامس إلى الملك فيصل يهنِّئه والشعب العراقي ويذكره بالمعاهدة. فلم يكن لا في كلام المندوب ولا في برقية الملك كلمة عن الاستقلال التام.

أمرٌ تساهَلتْ به الحكومة قبل التتويج، وأمرٌ تساهَلتْ به الأمة يومَ التتويج وبعده، ها هنا رأس الخطل والخلل؛ فقد اشترط المُبايِعون في بيعتهم رفْضَ الانتداب فلم يأبه لذلك دار الانتداب. هم المشترطون ونحن الحاكمون. وقد تعاهَدَ المليكان على عقد معاهدة في القريب العاجل فلم تدرك ذلك الأمة، أو أنها أدركتْ ولم تكترث. دَعِ الملوك يتعاهدون، أمَّا الحكمُ اليومَ فللشعوب. هو ذا الأساس الواهي في الملك الجديد، هو ذا رأس الخطل والخلل.

(٧) المعاهدة

باشرت الحكومة الجديدة أعمالها بما أشرت إليه من العجز المعنوي. هو عجز لأن التصريح التام في مثل تلك الأحوال، بل التحديد الأكيد الذي اقتضته تلك الحوادث الخطيرة، كان مفقودًا؛ فلا الملك العربي قيَّد وعده للملك الإنكليزي بالشرط اللازم، ولا الأمة التي بايعت الملك أصرت على الحكومة في البداءة بقبول شرط الـ «لا انتداب»، ولا حكومة الانتداب صرَّحت برفضها شرط الأمة في المبايعة. هذا هو العجز المعنوي الذي قلَّ من سلم من نتائجه الخبيثة.

وقد كان في ميزانية الحكومة عجز مالي لا يقل عن المليون ليرة إنكليزية فسدد بقرار من مؤتمر القاهرة — أدخل في ميزانية حكومة إنكلترا — تمهيدًا للعهد العراقي الجديد. بيد أن ذلك القرار أوجب على الحكومة العراقية أن تخصص في ميزانيتها الجديدة ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة للجيش العراقي. فكان ذلك عجزًا آخر؛ لأنه تعسر جمع الضرائب من أمة كانت ثائرة وظلت ناقمة معاندة. هما عجزان كانت الثورة السبب المباشر فيهما، تلك الثورة التي أتلفت في الزرع والضرع ما أثَّر في الضرائب تأثيرًا شديدًا، وفكت من عرى الأمن والنظام ما أضعف الحكومة إلى حد لم يكن لها فيها سيادة تحترم. على أن الأمة في حبوط الثورة فقدت الثقة بنفسها وصارت في جرأتها، في جسارتها، أقرب إلى التهويل منها إلى العمل. وما يصح فيها من هذا القبيل يصح في حكومة الانتداب وفي الموظفين الإنكليز عامة، إلا أن طريقة هؤلاء، وهم يظهرون من الضعف قوة، كانت أضمن للستر والكرامة. قد يكون الفرق بين الاثنين فرقًا طبيعيًّا لا خلقيًّا، وقد يكون غير ذلك. أمرهما أمر اثنين تصارعا وتغالبا وكانا في النهاية مغلوبين على السواء فيما أصابهما من ألم ونهك وقنوط. بيد أن آلام الواحد كانت ظاهرة، وآلام الآخر خفية.

ومع ذلك فقط أبت على الكاظم الخفاء. ما كلمت إنكليزيًّا في تلك الأيام، أيام العجز الأدبي والمالي، إلا وكان، بالرغم عن التجلد والشدة والثبات المشهور هذا الشعب بها، متألمًا من الحالة حتى اليأس – «عندنا من الموظفين من يظنون أنفسهم أكبر من كراسيهم فلا يحسنون الجلوس فيها. وعندنا آخرون هم كالأوتاد المستديرة في الأثقاب المربعة متزعزعون متقلقلون». وقال آخر: «عساكر وضباط في وظائف إدارية ومركزهم الطبيعي إنما هو في الجيش». وآخر – بارك الله بمن عرف خطأة واعترف به: «حكومة لندن تربط أيدينا وحكومة العراق تزدرينا ... النية حسنة وإن كانت الأغلاط كثيرة ... نحن في حاجة إلى العراق، والعراق في حاجة إلينا، ولا خير لنا وللعراقيين بغير المصلحة المشتركة والإكرام المتبادل».

على أنهم وهم ينطقون بالحق ويعترفون بأغلاطهم، يرتكبون الخطأ الفادح في معاهدة تكفل الاستقلال للعراق وتنقضه في بعض موادها، وقد يكون الحق في جانبهم فيما ينقض، من الوجهة المالية في الأقل لا فيما يثبت الاستقلال، ولكنهم لم يصرحوا بذلك. نعطيكم كذا وكذا، فتعطونا كذا وكذا، والاستقلال الحقيقي إنما هو القيام بالعهود. لم يكن في العراق لا من المعتدلين ولا من المتطرفين من يقول هذا القول. طلبوا الاستقلال مجانًا. وهذا لا يكون. ولكن الإنكليز سكتوا فظُنَّ في سكوتهم القبول، ثم جاءوا بالمعاهدة تتقاضاهم ثمن الاستقلال فرفض العراقيون الدفع وجاءوا بالمعاهدة قبل أن يجتمع المجلس التأسيسي الموعود به في قرارات سابقة أثبتت رسميًّا في حفلة التتويج.

إن المرء ليعجب من حكومة عاقلة راقية مثل حكومة إنكلترا، إذ تقدم على عمل في غير بلادها لا حكمة ولا سياسة ولا عدل إلا في عكسه. وهم يطلبون المعاهدة أولًا، ثم يشترطون في القانون الأساسي ألَّا يكون مخالفًا لموادها، ثم يأذنون بانتخاب مجلس نيابي ليجيزها. والمثل الذي يعيب هذا المسلك مثل إنكليزي. على أن العربة جرت الحصان في العراق! فهل تستطيع أن تجره إلى حيث تنتهي وظيفته المضحكة؟

ثبت الإنكليز في غلطهم وفازوا، فهل يثبت الفوز المبني على الغلط؟[١]

أعود حيث انعطفت بالقارئ لأطلعه على القسم السوري من تاريخ جلالة الملك، فأقف به ثانية عند حادثة القصر في تاريخ الحكومة العراقية الجديدة، أعود به إلى تلك الأيام التي لم يكن في العراق لا حكومة تذكر ولا انتداب؛ لأكمل قصة المعاهدة المشهورة. مر العام الأول بعد التتويج وما رأى الناس فرقًا كبيرًا بين سياسة الحكومة الحاضرة وسياسة الحكومة الاحتلالية الغابرة؛ فلم تضع الأمة ثقتها التامة بوزارة النقيب الثانية ولا وضعت الأحزاب المقاوِمة، وعلى رأسها الشيعة، ثقتها التامة بجلالة الملك.

[١] وها قد مرت خمس سنوات على تلك المعاهدة، ولا تزال الحكومتان البريطانية والعراقية تتفاوضان في أمرها. لا يزال فيها ما يجب إصلاحه أو تعديله أو إلغاؤه. معاهدة ولدت قبل المجلس النيابي والدستور الأساسي أبويها ... ولدت بأعجوبة فهل تحيا بأعجوبة يا ترى؟

وكانت دار الانتداب بين فريق يعرج ووجهته النقيب، وفريق آخر مثله ووجهته القصر، يحاول الانتفاع بالحالتين ليصل إلى الغاية المنشودة؛ والغاية عقد المعاهدة، إلا أن هذا التمهيد في المعاهدة يا فخامة المندوب، وفيه نص صريح على الانتداب، لا تقبل به الأمة ولا يمكننا من العمل وإياكم بما فيه خير البلدين. أجل، قد كان حتى النقيب من المحتجين.

استمرت المفاوضات بين بغداد ولندن بخصوص ذاك التمهيد وبعض بنود في المعاهدة هي من بابه، وقد كانت دار الانتداب شديدة اللهجة على الوزارة الخارجية – قد خفَّضنا كثيرًا نفقات الحكومة يا مستر تشرشل، أسقطنا أكثر من ثلثيها، فأصبحنا ولا قوة لدينا تنفذ أوامر الحكومة وتجمع الضرائب، وكل تخفيض في النفقات في بلدان الشرق، كما لا يخفى على فخامتكم، يلازمه أو يتبعه ضعف في الحكومة، ومع ذلك مشينا وإياكم بما تأمرون ... والحرب سهلة في الخريطة يا مستر تشرشل. أنتم تبغون عقد المعاهدة ولا تراعون واقعة الحال. أليس من الممكن أن تتنازلوا عن الانتداب ... أو عن النص عليه في الأقل؟

سمع المستر تشرشل شكوى دار الانتداب ببغداد، فنُقِّحت المعاهدة، وألغي ذلك التمهيد المشئوم، وأضيف إلى المادة الأولى مادة احتياطية بخصوص السيادة الوطنية، وأبدل في المادة الثالثة الشرط الإيجابي بشرط سلبي، ثم في المادة الحادية عشرة أضيفت جملة احتياطية طويلة لا إكرامًا للعراقيين ولا للإنكليز، بل إرضاءً لحكومة ولايات أميركا المتحدة[(١)].

أما المعاهدة نفسها فيمكن تلخيصها بعشرين كلمة؛ وهي أن حكومة إنكلترا تمد الحكومة العراقية بالمال والسلاح وبالمساعدات الإدارية والتقنية بشرط أن تقبل نصائحها وأوامرها في كل ما يتعلق بذلك. في هذا شيء من الاستقلال، فيه يستقل العراق عن دول الأرض كلها سوى دولة بريطانيا العظمى؛ ولكي يدرك القارئ ما هو اعتمادها على هذه الدولة أتوسع بما تقدم من خلاصة المعاهدة فأستعرض ما يلي من

[(١)] المادة ١١ في النص الثاني النهائي: يجب ألَّا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين أو لغيرهم من رعايا الدول الأجنبية الأخرى على رعاية أية دولة هي عضو في جمعية الأمم، أو رعاية أية دولة مما قد وافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة على أن يضمن لها الحقوق نفسها التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن أعضاء جمعية الأمم في الأمور المتعلقة بالضرائب والتجارة ... إلخ.

ولهذه الجملة الاحتياطية التي أضيفت أيضًا إلى المادة ١٤ التي تختص بالآثار القديمة قصة لا تخلو من متعة: من المعلوم أن أميركا لم تدخل في جمعية الأمم. ومن المعلوم كذلك أنها كانت قد اتفقت مع إنكلترا وفرنسا على استثمار زيت العراق، على أن هناك ما لا يعلمه غير بعض الأخصائيين والسياسيين، وهو أن شركة أميركية أرسلت مهندسين من قبلها في شتاء ١٩٢٢ إلى العراق ليتحروا الحقائق العلمية والاقتصادية بخصوص الزيت، فلم يمكنهم المندوب السامي من ذلك، وكانت المعاهدة يومئذ همه الأكبر، فاتصل الخبر بحكومة وشنطن التي احتجت على عمل المندوب السامي، وبعد المفاوضات بينها وبين حكومة لندن أدخلت الجملة الاحتياطية على البندين الحادي عشر والرابع عشر من المعاهدة. فيظهر أن أميركا لا يهمها من العراق إلا ما كان مدفونًا في أراضيه من الآثار، ومن منابع الدولار.

أهم بنودها.

إن جلالة ملك بريطانيا العظمى يتعهد بأن يقدم ما يقتضي من المشورة والمساعدة إلى دولة العراق (المادة الأولى)، وأن يقدم من الإمداد والمساعدات إلى قوات العراق المسلحة ما يتفق عليه من وقت إلى آخر (المادة السابعة)، وأن يسعى بإدخال العراق في عضوية جمعية الأمم بأقرب ما يمكن (المادة السادسة).

ويتعهد جلالة ملك العراق في مقابلة ذلك بألّا يعين في الحكومة العراقية من الموظفين الأجانب غير الإنكليز (المادة الثانية)، وأن يقبل المشورة التي يقدمها ملك بريطانيا بواسطة المندوب السامي في جميع الشئون المهمة؛ وخصوصًا الشئون المالية (المادة الرابعة) وكذلك الخطة التي يشير بها في الأمور العدلية لتأمين مصالح الأجانب (المادة التاسعة)، وأن ينظم قانونًا أساسيًّا لا يخالف في مواده هذه المعاهدة ليعرض على المجلس التأسيسي للتصديق.

وقد اتفق المتعاهدان بأن تضمن المساواة بين رعايا بريطانيا العظمى ورعايا الدول الداخلة في جمعية الأمم في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة، أو ممارسة الصنائع والمهن... إلخ (المادة الحادية عشرة)، وأن تكون مدة المعاهدة عشرين سنة.

في اليوم العاشر من تشرين الأول سنة ١٩٢٢م/١٩ صفر ١٣٤١هـ اجتمع في باب السيد عبد الرحمن النقيب أشراف بغداد ورئيس الوزارة في الحكومة العراقية جمهور من الناس صاخبين مشاغبين، وهم يبغون مخاطبة الوزير، فحمل أحد الحجَّاب خبرهم إلى سيده فأذن لهم بالدخول. كان قد وقَّع المعاهدة صباح ذاك اليوم فدخلوا يحتجون عليها وعليه، فسألهم قائلًا: باسم من تحتجون؟ فأجابوا باسم البلاد؟ فاحتدم فضيلته غيظًا وانتهرهم قائلًا: ومن أنتم لتحتجوا باسم البلاد؟ عودوا إلى بيوتكم وأشغالكم. أنا صاحب البلاد! فخرجوا احترامًا ساكتين، وما كانوا مقتنعين ولا راضين.

ثم نشرت الجرائد صورة المعاهدة مصدرة ببلاغ من صاحب الجلالة إلى الشعب العراقي يقول فيه أن قد اعترض سير المفاوضات مصاعب جمة «ولكننا تمكنًّا من التغلب عليها، والوصول إلى هذا الحل المرضي ... وهي خطوة واسعة في سبيل تحقيق أمانينا الوطنية ... فقد اعترفت بريطانيا العظمى باستقلالنا السياسي واحترام سيادتنا القومية». ثم يدعو الناس لمؤازرته ولاتخاذ الخطوة الثانية وهي مباشرة انتخاب المجلس التأسيسي، ووضع القانون الأساسي للأمة. فقرأ الناس البلاغ الملكي والمعاهدة وما كانوا مقتنعين ولا راضين، وقرأها أشياع الحكومة ساكتين احترامًا وآسفين.

بعد شهر من يوم التوقيع سقطت وزارة النقيب. كنت يومئذ في العقير، وكان عبد اللطيف باشا

المنديل[١] عندي في الخيمة عندما استلم برقية من عبد المحسن بك السعدون في بغداد يخبره فيها بأن جلالة الملك قد عهد إليه بتأليف وزارة جديدة، ويسأله أن يكون وزير الأوقاف فيها. وفي ذلك اليوم نفسه علمتُ من السر برسي كوكس السبب في سقوط الوزارة فحزنت لما علمت. اجتمعت الصداقة بالسياسة مرة في قديم الزمان فقالت الواحدة للأخرى: وكان سلامه عليَّ وداعًا.

وبعد سنة وثلاثة أشهر من يوم التوقيع اجتمع المجلس التأسيسي في بغداد، وكانت الأمة لا تزال مقاومة لتلك المعاهدة، مناوئة لأنصارها القليلين، فرفض المجلس إنفاذها، ثم انتقلت الوزارة الإنكليزية إلى حزب العمال ولم تتغير في سياستها الخارجية، فأصدر المستر مكدونلد بلاغًا رسميًّا أعلن عزمه على إحالة المعاهدة إلى عصبة الأمم إذا لم تُقبل بحذافيرها في ١١ حزيران. وكانت معضلة الموصل يومئذ قيد البحث بين مندوبي إنكلترا وتركيا في الآستانة، فاتخذتها الحكومة الإنكليزية سلاحًا آخر تروع به الأمة العراقية. أتبغي الزيادة من هذه القصة المحزنة؟

دُعي المجلس التأسيسي لعقد جلسة فوق العادة بعد أن ارفضَّ في ١١ حزيران دون أن يبرم المعاهدة، فلم يحضر الجلسة غير تسعة وستين عضوًا من مائة وعشرة أعضاء، فاقترعوا على المعاهدة فكان معها ستة وثلاثون وضدها أربعة وعشرون، أما التسعة الباقون فرفضوا الاشتراك في الاقتراع.

هذه هي نتيجة ذاك المسلك السياسي الذي رأينا العربة فيه تجر الحصان، بل هذي هي النتيجة لتلك الخطة السياسية التي يبدأ صاحبها بالسقف قبل أن يهتم بأساس البيت. فقد قبلت دولة بريطانيا العظمى معاهدة أبرمتها أقلية صغيرة في المجلس التأسيسي العراقي، ولا شرف في قبولها؛ لأنه يخالف تلك القاعدة الأساسية للحكم الدستوري المحترم في بلادها.

(٨) أصحاب المعالي

قد كان من حظي في بغداد أني لم أضطر أن أقيم دائمًا في فندق من فنادقها الفخمة، فأروض الجسم في إحدى غرفها منذ اليوم للقبر، وآكل تحت الأرض في السراديب من المآكل التي لا يعرف لها تاريخ ولا

---

[١] عبد اللطيف بن إبراهيم المنديل: هو من عشيرة الدواسر، ويمت بنسبه إلى عمر بن الخطاب. ظعن أحد أجداده إلى جلاجل في نجد، ومنها منذ تسعين سنة جاء والد عبد اللطيف باشا العراق، فأسس محلًّا تجاريًّا في البصرة وآخر بعدئذ في بمباي، وآخر في بغداد. وقد سلك عبد اللطيف باشا مسلك والده في التجارة والزراعة فزاد ثروته وأملاكه. وهو حر الكلمة سديد الرأي، يخلص الود لآل سعود؛ وخصوصًا للسلطان عبد العزيز، ويخلص العمل لوطنه الثاني العراق. فقد انتُخب في زمن الحرب عضوًا في مجلس الأشراف في البصرة، ثم أسندت إليه وزارة التجارة في الحكومة العراقية المؤقتة، وبعد التتويج تشكَّلت الوزارة برئاسة النقيب أيضًا، وأسندت إليه وزارة التجارة مرة ثانية، ثم جاء إلى الحسا يزور السلطان عبد العزيز الذي شاء أن يفاوضه في بعض الشئون. وعندما كنا في العقير جاءه من عبد المحسن بك السعدون برقية يسأله فيها أن يرأس وزارة الأوقاف، فقبل عبد اللطيف باشا واستمر في هذا المنصب سنة، ثم انتُخب في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٤ عضوًا عن البصرة للمجلس التأسيسي.

قومية. والفضل في خلاصي لشاب أديب كريم، له جذور وفروع في تاريخ الدين والدنيا تحير علماء الأنساب والآثار، ولا تقيه مع ذلك من النار؛ فهو فارسي الأصل، إنكليزي التربية، شيعي المذهب، دارويني العقيدة، نبوي السليلة قديمًا وحديثًا. أقول قديمًا وحديثًا، وإليك البيان: هو في الأول سيد من السادة الذين يتصل نسبهم عن طريق الحسين بفاطمة الزهراء، وهو في الآخر غصن صغير يابس من شجرة النبوءة الحديثة التي زرعها «الباب» في بلاد العجم في القرن الماضي، ثم نقلها «البهاء» إلى حيفا، فاستثمرها «عبد البهاء» خال صديقي ونقل من ثمارها إلى أوروبا وأميركا. وهو مع ذلك وفوق ذلك أستاذ في علم الاقتصاد.

عرفته يوم وصولي إلى العاصمة. جاء به الكسباني أمين يقول: هذا الحسين بن الحسين، وعنده من كل فن خبر. كان من الواجب أن يسموه فنونًا ولكنهم أساءوا اختيار الجمع فسموه أفنان — حسين أفنان، سكرتير مجلس الوزراء والصلة المرنة المفيدة بين الوزارة والعرش ودار الانتداب. فقلت: سبحان الله الذي جمع مساوئ الثلاثة في شخص واحد. فقال الكسباني: وقد أضاف إليها مساوئ أخرى. فضحك أفنان فأنارت الضحكة وجهه القمري — المستدير كالقمر — وعندما سمعني أشكو من الفندق فخامةً فيه، وفي مآكله وأغانيه، قال: غدًا — إن شاء الله — نريحك منها. وكان قد استأجر بيتًا له والكسباني فأعد لي فيه غرفة لا تهجرها الشمس في النهار، ولا الهواء ولا الغبار. هي بغداد، وما فيها غير فصلين في السنة: فصل الغبار وفصل الوحل. وصلت إليها في الفصل الأول، ثم سافرت إلى نجد وعدت إليها في الفصل الثاني كي لا يفوتني شيء من محاسنها ...

رفيقي خليلي، ولا أخاطبكما شعرًا. قد تحسنان وقد تسيئان في وظيفتيكما، قد تكونان في ما تكتبان وتترجمان، وتسعيان وتجربزان، خيرًا للانتداب يومًا وشرًّا على الأمة، أو خيرًا صافيًا للاثنين في بعض الأحايين. أما في صفتكما البرمكية في محلة الأشراف، في ذاك البيت الذي كان مفتوحًا دائمًا، ليس لي فقط بل للشمس والغبار والضوضاء، فكنا نعتصم من الحر بسردابه في النهار، كما تذكران، وبسطحه في الليل، فلم يكن فيكما وأنتما الرفيقان المضيفان غير الخير الصافي على الدوام.

(٩) عبد الرحمن النقيب[١]

قال الحسين يوم اجتماعي به في الفندق: قد قابلت صاحب الجلالة سيد الكسباني، فيجب أن تقابل صاحب الفضيلة والمعالي سيدي. فقلت: إني في الحالين طائع. وسرت وإياه إلى بيت جميل على شاطئ دجلة كان في تلك الأيام قطب السياسة والسياسيين، كما هو قطب الأتقياء والمتعبدين ... والمزارعين. فإن سيدي النقيب يهتم بالأرض اهتمامه بالسماء.

[١] توفي شتاء عام ١٩٢٧.

وكان أول اجتماعي به في القاعة التي تجتمع فيها الوزارة، والتي وقعت فيها بعدئذ المعاهدة. هو ذا شيخ في العقد الثامن من العمر، يحمل في قلبه أفراح الثمانين وأتراحها، هادئ البال، ويحمل في رأسه فلسفة روحية سياسية زراعية خالية من غش الأوهام والخيال، ويحمل في مفاصله داء أقعده فألجأه إلى العصا يتوكأ عليها من عقر داره إلى بهو الاستقبال. وكان يومئذ يحمل فوق ذلك كله الحمل الأثقل والأخشن، حمل المعاهدة البريطانية العراقية وسياستي العرش ودار الانتداب.

رجل عدل القامة، وافر موضع النطاق، براق العين، ناصع الجبين، قصير اللحية، بسام المحيا، يلبس الأنابيز البيضاء وهي دائمًا كالثلج، ويجلس على الديوان، وإلى يمينه عصاه وبالقرب منه على قيد ذراعين الزائر الجديد، وقبالته على ديوان آخر شيوخ مثله أجلاء، ولكنهم دونه سنًّا. هم أولاده. وكان قد أخبرني صديقي بأن فضيلة النقيب، على علمه وحصافته وروحانيته، يتقزز من لمس أيدي الناس، فلما دخلت وقفت أمامه محني الرأس مسلمًا وكان قد وقف لاستقبالي ومد يده مصافحًا، فدهش الحضور كما علمت بعدئذ، ولكني زرته وأنا في بغداد مرارًا، وشرَّفني مرارًا بأن دعاني لمائدته، فآكلني وصافحني دون أن يغسل بعد ذلك يديه، كأني به وهو أكبر المقربين من سدة مولانا عبد القادر العلوية، وحامل مفتاح حجرته القدسية، نظر بعين الغيب إلى ما وراء الحجب، فرأى في هذا الرحالة رغبة في التصوف لا تزال طفلًا، فأحب أن يغذيه بتعطفه وبقربه وبشيء من الكرامة في يده.

وكان أول ما حدثني به من مدهشات مجلسه أنه قص عليَّ في بضع دقائق قصة العالَم منذ سقوط أمنا حواء إلى سقوط الأتراك في بغداد، ثم قال: وتاريخ الإنسان يا أفندي مثل تاريخ الأمم... مقدمات لنتيجة واحدة هي السقوط. ونحن العرب؛ خصوصًا العراقيين، أوفر الأمم حظًّا من هذا القبيل. العراقيون يا أفندي أنت تذكر ما قاله الحجاج بن يوسف. فقلت: ولكننا في زمان غير زمان الحجاج. فقال على الفور: أما أهل العراق فلا يتغيرون؛ خلصناهم من الأتراك، ومن العجم، ومن الاحتلال العسكري، ونحن نسعى الآن في خلاصهم من الفوضى وهم لا يريدون، ولا يرضون، ودائمًا ناقمون ... هل رأيت في كل سياحتك يا أفندي شعبًا يحسن صنع الحبال والمشانق، ولا يجد من يجربها فيه غير نفسه؟ وهل يستخدمون المشنقة في إعدام المجرمين في أميركا؟

قلت: عندهم الكرسي الكهربائي. فسألني أن أصفه ثم قال: خوش طريقة. يلزمنا عدد من تلك الكراسي في العراق. فقلت: العفو إذا خالفت سيدي النقيب؛ فإن أمة توكل أمرها إلى مثله لتجد في أساليب السياسة وطرق الحكمة حلًّا مرضيًا لمشاكلها كلها.

فقال وهو يمكِّن النفي بيديه: لا، لا، لسنا بسياسيين. ما عندنا من علم السياسة إلا اليسير، وهذا اليسير التقطناه في اختلاطنا برجال السياسة الحقيقيين. مثلنا مثل اللص والفيلسوف؛ جاء اللص في ليلة

مقمرة إلى بيت الفيلسوف يبغي السرقة، فدخله من النافذة وكان الفيلسوف جالسًا في الزاوية يشكر الله الذي أنار بيته بنور القمر، فجال اللص في البيت وهمَّ بالخروج وهو خائب الأمل، فخاطبه الفيلسوف قائلًا: إذا كنتُ أنا صاحب البيت لا أجد فيه شيئًا في ضوء الشمس، فهل تؤمِّل أنت الغريب أن تجد في ضوء القمر شيئًا فيه؟

فقلت: ولكني لم أدخل البيت من النافذة يا مولاي. فضحك حتى استلقى وهو ينظر إلى أنجاله تارة وطورًا إليَّ وإلى أفنان ويقول: غلبني. غلبني.

ثم أخبرني قصة تفصح عما فيه من حب النكتة، ومن البراعة في التهكم قال: زارنا الأسبوع الماضي رجل أميركي مندوب أحد الجرائد هناك، وجلس هناك – أشار إلى الديوان قبالته – وأخذ يتكلم – خوش كلام – وهو يسألنا سؤالات في السياسة، وفي الامتيازات، وفي النفط، ويجيب عليها بنفسه، ونحن مثل الفيلسوف الذي قصصت عليك قصته جالسون في زاوية السكوت نشكر الله الذي أنار بيتنا السياسي بنور القمر، ولكننا استأنسنا بهذا الأميركي ... جاء مثلكم في النهار ولم يدخل من النافذة. ولكن لسانه مثل سيف ذي الفقار – خوش لسان – هل كل الأميركيين مثله حذقًا وعلمًا؟ عندما قام يودع شكرناه على زيارته وعلى ما استفدنا من حديثه، وخطر لنا يومئذ أن نسأله عن أغراس النخل التي أخذت من هذه البلاد إلى أميركا، وزرعت هناك، ولكنه لم يفسح للسؤال مجالًا، فهل لك علم يا أفندي بتلك الأغراس؟ هل نجحتْ في أميركا؟

فأجبته قائلًا: إذا أذنتم باستعارة استعارتكم أقول: إن بيتي الزراعي مثل بيت الفيلسوف الذي وصفتم.

فضحك وقال: وأنا مثلكم دخلت من الباب لا من النافذة. ثم نظر إلى أنجاله وهم جالسون أمامه متكتفين يتبسمون ولا يضحكون، فقال: أراني مع الأفندي مغلوبًا ... مغلوبًا اليوم. يجب أن يزورنا مرة أخرى. فقلت: هو أحب ما أحب في هذا البلد، ثم كملت جملتي السابقة: أما البيت فلكم كل ما فيه. أذكر أني قرأت مرة أن وزارة الزراعة في وشنطن استجلبت من البصرة أغراسًا من النخل وغرستها في الولايات الجنوبية.

– إذن علمك وعلمنا واحد.

– في هذه المسألة فقط.

– بيتنا بيت الفيلسوف، أنتم تسوحون طالبين العلم، ونحن نأخذ علومنا من الكتب وممن نجتمع به مثل فضلكم.

فاعتذرت وشكرت، وكنت قد نظرت إلى أفنان فأعطاني الإشارة، فقمت أودع، فنهض فضيلته ومد

يده ثانية يصافحني.

إن للسيد عبد الرحمن النقيب الكيلاني، سليل مولانا عبد القادر – قدس الله سره – طائفة من السالكين المتعبدين منتشرة في أقطار الشرق كله، وله في بيته جيلان من الأنجال؛ الجيل الأول كان جالسًا معنا، وهم ثلاثة تتراوح سنهم بين الخمسة والخمسين والستين، يحضرون مجلس والدهم فلا يتكلمون إذا كان عنده زائر، إلا إذا سئلوا، ولا يضحكون مهما كانت النكتة ظريفة، ضحكة عالية. أما الجيل الثاني وعدده ستة أو سبعة صبيان، فمن هذا الزمان حقيقة ومجازًا؛ لأن بينه وبين الأول فترة مقدارها نحو أربعين سنة. والسبب في ذلك سر احترمناه.

زارني ذات يوم كبيرهم، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة، فلم يكن مثل الصحفي الأميركي الذي زار فضيلة أبيه. سألني أن أقول له ما الفرق بين الانتداب والاحتلال، فأجبته، فقال: ولكن البريطانيين يعترفون باستقلال العراق ولا يخرجون منه. وجاءني ثانية ومعه بضعة فتيان من أقاربه ورفاقه في المدرسة يبغون السلام والتعرف ثم الاحتجاج على الإنكليز، فاتخذت في مقابلتهم الخطة التي اتخذها النقيب في زيارتي له؛ أي إني سبقتهم إلى السؤالات فكانوا في أجوبتهم مدهشين.

– وإذا كانت اللغة الإنكليزية لغة الحكومة المحتلة أفلا تتعلمونها؟ فأجاب أحدهم: إذا كانوا ينوون الإقامة في بلادنا يجب أن يتعلموا لغتنا. وقال آخر: نتعلم لغتهم ويتعلمون لغتنا فيفهم إذ ذاك بعضنا بعضًا. وقال الثالث، وهو صغيرهم: إذا كان لا خير في الأجانب فلا خير في لغتهم. فأجابه النقيب قائلًا: اللغة شيء والسياسة شيء آخر؛ فإذا تعلمنا لغتهم نتعلم طرقهم السياسية ونحاربهم بها. فرد عليه الصغير وهو يضرب الأرض برجله: أنا لا أستعير يد رفيقي لأضرب بها. أنا أقاتلك بيدي.

– ولكن السياسيين لا يضربون بأيديهم.

– يضربون بأرجلهم إذن؟ لنا أرجل مثلهم. ألا لا يجهلن أحد علينا، فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

صفق له رفاقه ثم عادوا، وقد وبخهم الأكبر، إلى التأدب. وكنت أخشى أن ينتقل هذا الوفد العراقي الوطني العجيب من الكلام إلى الأيدي فنهضت أكشف الساعة، فكان الصغير أول من فهم الإشارة، فنهضوا وسلموا مودعين.

كنت أقيم ببغداد بين وليين كريمين، عرفت الواحد منهما لأول مرة في عدن، وهو هناك ولي البلد له مقام بقبة، وعشيرة وأحبة، وصندوق إحسان يملؤه كل شهر الأتقياء، فيوزع المال على الفقراء. هو عَيْدروس المدفون –كما قيل – في عدن، وله في بغداد مقام وعباد. أما الولي الآخر الذي كان قربي، بل كنت أنا السعيد بقربه، فهو أشهر من عيدروس وأعظم، إذا لم يكن كرامة وقداسة، فسيادة ونفوذًا. كيف لا ومن شاطئ دجلة تشع شمسه شرقًا وغربًا فتنير ضفتي الكنج والنيل. كيف لا وهو مولانا عبد القادر الكيلاني

المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازوردية في جامع يعد من أفخر وأجمل ما في بغداد. هناك شرقًا من سريري على السطح مطلع الأنوار، فكنت كل يوم عندما أنهض صباحًا أمتع نظري وروحي بمشهد الشروق على مسرح القداسة، فأرى الشمس تكوّن من الغيوم البيضاء المتقطعة، فوق قباب عبد القادر المتعددة، ما يشبه قطعان الغنم وهي تسرح في مروج من النرجس الذهبي العين، والعصفر الذهبي الجبين، كأنها الزوار جاءت من العجم والهند لتستقي من الموارد القدسية، وتحيا في المروج القادرية ... عبد القادر الكيلاني، من إحسانك لا تنساني!

وما كان –كرَّم الله وجهه – لينساني وأنا في بغداد، فكان يوحي إلى فرع دوحته الأكبر السيد عبد الرحمن حبًّا موضوعه هذا الغريب في جوار الحبيب، وكنت أنا المجذوب إلى تلك الشخصية الفسيفسائية، كأنها كُوِّنت من ألوان تلك المروج وتلك القباب فوق ضريح عبد القادر؛ ليتأكد القارئ أني مجد فيما أقول، قد لا أستحسن سياسة النقيب، وقد لا تهمني إلا في سبيل الأدب مصادر القداسة حوله وفيه، ولكنني ممن يعجبون بمظاهر الحياة الفريدة، أينما كانت، وبشواردها المجيدة، كيفما باتت، ولا سيما إذا تمثَّلت في مثل هذا البشر السوي والشيخ الكريم.

ما رددت مرة دعوة للسيد لمجلس أو لمائدة، وكنت كلما دنوت من صميم ذاتيته ازداد إعجابًا بها، وأن بين النقيب ومائدته وجه شبه لطيف، في الاثنين غذاء كثير، وفاكهة وأباذير. في الاثنين فيض برمكي أصمعي، فترتاح إلى الأول العين والمعدة كما يلتذ بالثاني السمع والفؤاد.

وما عرفت أشجع منه، على سنِّه ودائه، إذا مدت الأيدي إلى الزاد، على أنه لا يشبه الأكول في أنه يهمل من يؤاكله. كنت أسمعه يتكلم، وأراه يتصرف بالألوان الواحد تلو الآخر، وعينه على ضيوفه، يشجعهم ويحرضهم على الهجوم.

– خوش حباري يا أفندي أمين. من صيد اليوم. لا تزهد بها ... إذا كنت لا تتكلم يا حضرة الكسباني أفلا تأكل؟ ... أفنان لا يحتاج إلى من يغريه بشيء.

وكان الكسباني أمين على علمه وأدبه وسياحاته في الأرض – وسنه – يخجل كبنت السادسة عشرة إذا وجه إليه الكلام في مائدة النقيب، أو مائدة الملك. فيغص باللقمة ويزداد ارتباكًا. قليل الكلام، قليل الأكل ... في المواقف الرسمية. ولكني – والحق يقال – رأيته سكوتًا خجولًا حتى في حضرة السيدات.

بيد أنه تغلب مرة على حيائه ونحن إلى مائدة النقيب، فأكثر من أكل الزيتون – أكل على ما أذكر ثلاث حبات – وهو يحن إلى صحراء الشويفات. فجاءنا من مولانا في اليوم التالي جرة من الزيتون وأخرى من الزيت. أتبغي أوضح من ذلك دليلًا على عجيب مواهب النقيب وتعددها؟ إن القابلية للطعام كمثل غيرها من المحاسن البشرية، بل هي، مثل الكرم والذكاء والتيقظ وحسن الحديث، واحدة من المواهب التي

يغدقها الله على من يشاء من عباده. وقد خص هذا الرجل الكبير بكثير منها كلها. إني لا أنساه حياتي وهو يأكل كالشاب، ويحدث كالشيخ، ويراقب من طرف خفي كالمرأة، فلا يفوته شيء مما له ومما عليه.

وما كنا في الحديث لندنو من السياسة إلا نادرًا. أذكر أنه مر بالموضوع مرة فقال إنه شديد الرغبة في العزلة، ولولا إلحاح المندوب السامي وزملائه في بداءة الأمر، قبل التتويج وبعده، لما كان يقبل أن يدير سياسة البلاد، ولكنه بعد أن وقَّع المعاهدة وأحس أن الفكرة في القصر تزداد صلابةً وظهورًا عليه، وأن دار الانتداب تميل تسللًا إليها، ورأى فوق ذلك أن مقاومة المتطرفين تزداد شدةً وعنادًا، نزع بحكم رد الفعل إلى التسلط والاحتفاظ بمنصبه، ولما صدر أمر الحكومة بمباشرة الانتخابات للمجلس التأسيسي، وأصدر على أثره أحد المجتهدين في النجف فتوى بأن الانتخاب مخالف لقواعد الإسلام، رأيت فضيلة النقيب مضطربًا وسمعته غضوبًا:

— في البلاد وطنيون كثيرون وكلهم رجال سياسة، ولكن ليس في رءوسهم عيون تريهم ما هم فيه. أين هم من البلاد، وأين البلاد منهم؟ كانوا أمس تحت أقدام الترك، واليوم يبيعون البلاد إلى الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم أعداءهم.

نحن أخذنا الأمر على عاتقنا، ولا نسأل التوفيق من غير الله، ولا نتوكل إلا عليه سبحانه وتعالى ... أما اجتمعت بالوطنيين يا أفندي وسمعتهم يتبجحون؟ غدًا تجتمع بكبارهم في كربلاء والنجف ... نصف هذا الاجتهاد جهل، ونصفه عناد.

ذكرني كلامه وتغيُّظه بالكلمة الإنكليزية المأثورة التي قالها الفيلسوف جونسون فترجمتها لفضيلته: إن حب الوطن ملجأ المنافقين الأخير[1] فسرَّ بها جدًّا.

— خوش كلام. خوش حكمة. الإنكليز يا أفندي أمين أحكم الناس بالرغم من سيئاتهم كلها. هم ينافقون ولا شك، ولكنهم لا يسمون نفاقهم اجتهادًا ولا يخلطون الدين بالسياسة. هم يحبون أنفسهم ولا شك، ولكن حب الذات يختلف عندهم عما هو عند سواهم. عند الألمان مثلًا حب الذات نيئ بارد لا تقبله الناس، أما عند الإنكليز فهو ناضج وفيه شيء من الأبازير هي لبعض الناس مثل السم. عند الإنكليز العلم، وعندهم المال، وعندهم الحكمة، أما الوطنيون في البلاد فأي شيء عندهم؟ هل هم يحبون البلاد أكثر منا وهي بلادنا قبل أن تكون بلادهم؟ وأكثرهم لا يزالون من الأجانب ... أعد المثل الإنكليزي: حب الوطن آخر ملجأ للمنافقين — خوش كلام، خوش حكمة.

ولكنه بعدئذ، ولعله كان عالمًا متجاهلًا بأن السياسة، بريطانية كانت أو عراقية، لا تعرف الثبات

---

(1) patriotism is the last refuge of the scoundrel—Samuel johnson.

والوفاء، فقد استنصره واستخدمه الإنكليز إلى أن تمت مقاصدهم فيه، إلى أن تم توقيع المعاهدة، وبعد ذلك هجروه. وقبل الهجر، عندما أراد السيادة والتغلب، خذلوه.

(١٠) عبد المحسن السعدون

في النادي العراقي روح اجتماعية وطنية صحيحة؛ لأنها مبنية على المساواة والإخاء؛ ولأنها فوق ذلك مختلطة؛ أي إنها عراقية بريطانية. ما رأيت الإنكليز قبل اليوم ولا سمعت بهم يخالطون اجتماعيًّا من يحكمونهم أو يساعدون في حكمهم من الشعوب. أما في العراق فالروح الجديدة يستبشر بها. قد تعرف في لعب الورق شيئًا من أسلوب خصمك في السياسة. والذي أدهشني من الموظفين والمستشارين البريطانيين في العراق أن أكثرهم يحسنون التكلم بالعربية. كنت أجتمع بهم في النادي وأرى بعضهم جالسين إلى تلك الطاولة الخضراء، يحاولون كسب روبية من زملائهم العرب.

أجل إن في النادي طاولة خضراء يجتمع إليها الوزراء بعد الظهر، ساعة الشاي؛ ليحافظوا على الموازنة النفسية بينها وبين تلك الطاولة الأخرى في السراي. فقد كُتب لي أن أرى الوزراء يلعبون ساعة بالورق ليبددوا هموم الأوراق الرسمية والمعاهدات. وليس في ذلك ما يؤاخذون عليه، بل فيه برهان على أن للفلسفة العملية مقامًا عندهم محترمًا.

إن الطاولة الخضراء في النادي العراقي مثل الحكومة العراقية قليلة الموارد محدودة الخراج، ولها أن تفاخر غيرها بالكيفية لا بالكمية. هي برجالها تفتخر لا بألعابها وأموالها. هاك على رأسها الأخصائي المالي ساسون أفندي، مَن وكلت الأمة إليه أمر ماليتها، يجيء كل يوم، وهو أثبت في ذلك من قِيّم النادي؛ ليفادي بشيء من ماليته. ولكني لم أسمع أنه خرج مرة خاسرًا، أو أن أرباحه كانت تتجاوز الخمس روبيات. وكلهم في لعب الـ «بريدج» أخصائيون، إلا أن الكسباني أمين كان يسدد حسابه في الفندق من حسابه في النادي؛ لأنه في الـ «بريدج» مثله في التحفظ السياسي سيد الأخصائيين.

قد ذكرت النادي لأني اجتمعت فيه لأول مرة بزملاء سيدي النقيب، بساسون وصبيح ونوري وياسين، وبالسعدون عبد المحسن موضوع حديثي الآن، وأظنني فضحت نفسي فيما كنت أجهل من أمر آل السعدون وما لهم من السيادة والنفوذ في العراق، على أن من يقابل وزيرًا لأول مرة في تلك الحال لا يلام إذا نسي التاريخ أو تناساه. ظننتها جلسة «بوكر»، وظننت الأعضاء مثل غيرهم في أندية القمار فسلمنا وما تحدثنا، بل نسيت الرجل فخجلت بعدئذ مما كان. ضاع وجه السعدون بين الوجوه العديدة التي كانت تمر صورها أمامي في تلك الأيام فلا ينطبع في الذهن منها إلا القليل، ثم اجتمعت به مرة ثانية في نادي الحرب العراقي الحر الذي خطبت فيه، وكان هو جالسًا إلى جنبي، فسلم عليَّ فسلمت وأنا أذكر صورة وجهه ولا أذكر أين بدت لي سابقًا، فسألته، فأضحكني بلطفه وابتسامه.

اجتمعنا بعد ذلك مرارًا، وكنت كل مرة أدنو منه أراه بعين التصور قبل أن أراه بعين الجسم، فيتمثل أمامي لابسًا العباءة والعقال، راكبًا الهجين، قائدًا إلى الغزو العربان. أجل، إن صاحب المعالي عبد المحسن السعدون هو الوزير الأول في وزارته الذي تبدو فيه العروبة الحقة، والثاني هو عبد اللطيف باشا المنديل. أما الآخرون ففي ظاهرهم مستعجمون؛ ناجي السويدي أشبه برجل من شمال أوروبا؛ صبيح بك نشأت هو في تركيته أظهر منه في عروبته؛ جعفر ونوري من الأكراد، وساسون أفندي حزقيل من العالم ... من الإسرائيليين في العالم. أما السعدون فمن العراق، من صميم العرب، ووجهه أصدق أخباره الصادقة.

هو رجل في العقد الرابع من العمر[1] ربع القامة، أسمر اللون، حسن البزة، أوروبي حتى رأسه – حتى الاستثنائية أريد – فالرأس أسود الشعر قصيره ومثل كلة المدفع مستدير، والعين فيه كالمشعل بين الليل والغسق، والفم عدل إلا أنه قاسٍ قلَّما يبسم وقلَّما يتكلم، ولكنه عندما يتحرك يؤنس، إذ تسارع إليه نفس جذابة فتمتزج بكلماته القليلة، وفيها مضاء وليس فيها جفاء. رجل سكوت، وكل سكوت لغز لمن لا يعرف شيئًا من سابق حاله. على أني أَلِفتُ السكوت فيمَن سافرت معهم من العرب، فكنا نسير ساعات في النهار جنبًا إلى جنب دون أن نفوه بكلمة واحدة، وكنت غالبًا أعجب بما يخبئه السكوت فيهم من شمم وكرم وذكاء.

وهو ذا السعدون عبد المحسن العربي السكوت، ويحق لي أن أقول الآن: السكوت العزوم؛ فقد برهن في وزارته التي استمرت سنة[2] على أنه فعال لا قوال، وعليم فيما يفعل حكيم. كانت نفسية البلاد من حيث المعاهدة، التي رُفعت منها لفظة الانتداب ولم تمس قيوده، كما وصفت فيما سبق، عندما استلم زمام السياسة العراقية، فأقدم السعدون على عمل يعد من أهم أعمال وزارته ولسان حاله يقول: لا نضحك من الأمة فنصور لها الانتداب خيالًا زائلًا، ولكننا نخفف عليها ثقل القيود. فتم عقد الملحق بين حكومة العراق

---

[1] ولد سنة ١٨٧٩م في الناصرية مركز لواء المنتفق، وكان يومئذ والده فهد باشا حاكمًا في اللواء وأميرًا على جميع عشائره ومقربًا من المآبين، فطلب منه السلطان عبد الحميد أن يرسل أبناءه إلى الآستانة ليتعلموا في المدرسة التي كان قد أنشأها خاصة لأبناء رؤساء العشائر، فأرسل فهد باشا ابنيه عبد المحسن وعبد الكريم، وكان عبد المحسن يوم سافر إلى الآستانة في الثالثة عشرة من سنه، فتخرَّج من المدرسة المذكورة، ثم دخل وأخوه المدرسة الحربية العالية فتخرجا منها ضابطين في الجيش العثماني، فاختارهما السلطان عبد الحميد مرافقين له في المابين، وبقيا في تلك الوظيفة إلى إعلان الدستور، وترقيا أثناء ذلك في الجندية إلى رتبة بكباشي، على أنهما استقالا من الجندية بعد سقوط عبد الحميد، فرجع عبد الكريم إلى وطنه ليهتم بأملاكه التي في البصرة وفي المنتفق، وبقي عبد المحسن مقيمًا في الآستانة، ثم انتُخب نائبًا في مجلس النواب العثماني عن المنتفق، وظل كذلك إلى بداءة الحرب العظمى، فرجع إذ ذاك إلى وطنه العراق وتقلَّد بعد وصوله منصب وزارة العدلية في الوزارة النقيبية الأولى، ثم وزارة الداخلية في الوزارة الثانية التي استقالت في شهر آب سنة ١٩٢٢. وألَّف الوزارة في كانون الأول من العام المذكور واستقال في تشرين الثاني ١٩٢٣. وأنهى حياته منتحرًا وهو على رأس الحكم ثانية وذلك سنة ١٩٢٩.

[2] تألفت في كانون الأول سنة ١٩٢٢ واستقالت في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣.

وبريطانيا الذي بموجبه أنزلت مدة المعاهدة من عشرين سنة إلى أربع سنوات[١].

ولتلك المعاهدة ملحقات أخرى تتعلق بالجندية والمالية والقضاء، وبشروط استخدام الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية. فتوفقت وزارة السعدون إلى عقد الملحق الذي يتعلق بالقضاء، ودرست الملحق الذي يختص بالموظفين البريطانيين، فقدمت به لائحة فلم تقبلها حكومة الانتداب، وسعت في تحسين الصلات بين العراقيين والبريطانيين، فكان سعيها مبرورًا وإن لم يكن مثمرًا، وجاهدت في سبيل الميزانية فأفلحت، إذ أعادت إليها التوازن بالرغم عن التخفيض الذي أجازته في رسوم الأراضي الأميرية ورسوم المواشي والنخيل، ولكن هناك صخرة اصطدمت بها فحملها ذلك على الاستقالة.

يذكر القارئ أن في المعاهدة بندًا يوجب على الملك ووزارته وضع دستور للبلاد ثم انتخاب المجلس التأسيسي للنظر فيه وتنفيذه، فقد وضعت وزارة سعدون الدستور وأصدرت قرارًا يوجب مباشرة الانتخاب، فاعترضها في ذا السبيل ما اعترض الوزارة السابقة من مقاومة علماء الجعفرية (الشيعة)، ولكنها تغلَّبت عليهم بعض التغلب؛ إذ قد تم في عهدها انتخاب المنتخبين الثانويين ولم يبقَ سوى انتخاب الأعضاء.

هي ذي العقبة الكئود. قد سمعت ما قاله النقيب عند تغيظه في هؤلاء الأقوام، وأكثرهم من الأعجام. إن بسياستهم الوطنية أصولًا ونزعات كلها أو جلها – ولا شك – مذهبية إيرانية، وإن لعلمائهم في العراق نفوذًا يفوق نفوذ أعلى المقامات الرسمية، وفيهم المجتهدون الذين «يجتهدون» دائمًا أن يعرقلوا مساعي الحكومة. أزعجوا السعدون كما أزعجوا سلفه النقيب. فأصدروا الفتاوى الدينية ضد الانتخاب والانتداب.

هاك ما حمل السعدون، السكوت العزوم، بالرغم من تردد الملك والمندوب السامي، على العمل الذي يعد من أكبر أعماله، إذا اعتبر فيه العزم والشجاعة فنفى إلى الحجاز آية الله الشيخ مهدي الخالصي أكبر مجتهدي الكاظمية[٢] والعراق؛ فأحدث ضجة في البلاد ظن أنها ستفضي إلى ثورة ثانية، على أنه لم يكن من نتائجها غير احتجاج نفر من العلماء فساروا إلى إيران مغضبين.

أما جلالة الملك فقد كان يؤيد في البدء قولًا وفعلًا سياسة وزارته بالرغم عن احتجاج الشيعة في العراق وإيران، وبما أن أكثر أهل الشيعة في العراق من التبعة الإيرانية، وهم ثابتون فيها، فقد أصدر منشورًا طلب

[١] هذا نص البروتوكول؛ أي الملحق بالمعاهدة:

قد تم التفاهم بين الفريقين الساميين المتعاقدين، على أنه مع وجود نصوص المادة ١٨ يجب أن تنتهي المعاهدة الحالية عند دخول العراق عضوًا في جمعية الأمم، وعلى كل حال يجب ألَّا يتأخر انتهاؤها عن أربع سنوات من تاريخ عقد الصلح مع تركيا. وليس في هذا الاتفاق ما يمنع عقد اتفاق آخر لتنظيم ما يكون بعد ذلك من العلاقات بين الفريقين الساميين المتعاقدين. ويجب الدخول في المفاوضات بينهما؛ لأجل ذلك الغرض قبل انتهاء المدة المذكورة أعلاه.

[٢] زميله هو السيد صدر الدين.

منهم فيه أن يتجنسوا بجنسية البلاد؛ ليحق لهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العراقيون، فزادهم المنشور سخطًا وتمردًا، وقام أولئك الذين ظعنوا إلى إيران يتقدمون الشعب الإيراني في التظاهرات على الملك فيصل، وعلى المندوب السامي البريطاني، ثم أعلنوا مقاطعة البضاعة البريطانية.

قد احتجت كذلك حكومة طهران إلى حكومة العراق، فأحس بعض الخاصة في الدواوين بسلك كهربائي إنكليزي في ذاك الاحتجاج، هزَّ دار الانتداب في بغداد فتأثر القصر والمجلس، فقال جلالة الملك بعد المذكرات ما قاله فخامة المندوب. ولكن العلماء استمروا مكابرين معاندين فقالوا: إنهم لا يرجعون إلى بلادهم إلا إذا نفذت أربعة شروط، وهي: إخلاء الإنكليز للقطر العراقي — استقالة الوزارة الحاضرة — تحديد زمن الانتخاب — إدخال عدد من الشيعة في المجلس النيابي، قال المندوب السامي ... فقال الملك فيصل ... فقالت الوزارة: الوداع.

وما أجمل التغيظ في الرجل الجريء العادل. قد جاءني من معالي الوزير كلمة بعد استقالته يقول فيها: «أحببت أن أسعى لرفع الغشاوة الفكرية عن إخواننا الشيعة وإنارة بصائرهم بالحقائق، فبينت لهم أن الموكل موهوم والموكل غشوم. لقد قمت بهذا الأمر في هذا المحيط وهذا الزمان، وتحملت من الأعباء ما تحملت لأفتح طريقًا لأخي الوزير الشيعي فيتمم ما بدأت به، وحينئذ يبدأ بتغيير عام لطرد جيوش الرياء والأوهام، وينفخ في صور الإخاء والمساواة وتتم نبوءة أشعيا الفيلسوف حيث السباع والغنم يرتعون سوية، ويسود سلام في العالم وسلامة الضمير في بني الإنسان».

هو ذا عربي يحلم مثل النبي أشعيا الأحلام، وينشد المثل الأعلى في العالم، وهو في موقف العمل —كما تبين — يفقه حقائق الحياة الوضيعة وما بينها كلها من صلة العقل والخيال، وإن السعدون صريح إذا قال، مخلص إذا مال. سألته عن رأيه في السياسة العراقية الوطنية وما هي عقيدته تجاه الإنكليز، فأجاب بما لا يقبل التفسير والتأويل: «إني أعتقد أن منفعة الوطن تقضي علينا في الوقت الحاضر بأن نكون في سياستنا تجاه الإنكليز مصادقين لهم؛ لأننا محتاجون اليوم أشد الاحتياج في نهضتنا السياسية الحاضرة إلى يد مساعدة ودماغ راقٍ نسترشد به، ولا نجد في هذا الباب خيرًا من الإنكليز، ولكن على شرط ألَّا يجحف ذلك باستقلال البلاد أو بمنافعها».

(١١) جعفر العسكري[١]

[١] هو مثل سلفه السعدون في العقد الرابع من العمر، وقد تلقى العلوم مثله في المدرسة الحربية في الآستانة، فخرج منها ضابطًا ثم سافر إلى ألمانيا ليتمم دروسه الفنية، وقد بدا من نبوغه لأنور باشا في الحرب العظمى ما حمله على ترقيته إلى رتبة باشا، وإرساله على غواصة إلى بنغازي لقيادة متطوعي العرب الذين كانوا يقصدون الزحف على البلاد الداخلة في المنطقة الإيطالية، فقادهم جعفر وحدث على الحدود المصرية قتال بينهم

زرته لأول مرة في وزارة الدفاع التي كان يومئذ وزيرها، وكان الحر شديدًا، فدخل والعرق يتصبب من جبينه يجر ما فرضه الله عليه من وزر السمن، كأنه مدفع يتحرك بنفسه، أو كأنه في ساحة القتال حيث لا ترسم ولا تجمل. جعفر باشا لا يكذب اسمه، فهو أولًا وآخرًا عسكري، يسرع ولا يتكلف فيما يقول ويفعل. سلم سلام الأحباب ونزع «ساكوه» وجلس في الكرسي وراء منضدته وهو يروح بمروحة من القش ويتكلم. فتمثل أمامي رجلًا أميركيًّا، رجل عمل وأهلية، من أولئك الذين يديرون إدارات كبيرة بالضغط على زر كهربائي، أما وزير الدفاع في الحكومة العراقية فكان يصفق كفًّا على كف ليعطي أوامره، وهذا لا يهم عند روح العمل الجديدة التي تتمثل في جعفر وزملائه ... روح العمل العصرية المجردة من خزعبلات الأبهة الشرقية وسخافات اللياقة كلها.

— والله يا أستاذ عندنا رجال وعندنا وطنية، ولكن الإدارة مفقودة والمال، أين المال؟ مثلنا، أو بالحري مثل الحكومة التي تولت في البدء أمرنا، مثل شاب ورث ثروة من أبيه فخسرها في القمار. بذل البريطانيون في سنة واحدة من المال في البلاد ما يكفي جيشًا وطنيًّا كبيرًا خمس سنين، ولا أثر ولا نتيجة لما بذلوه. والآن نحن في أشد حاجة إلى المال، هم ينفضون أيديهم ويرونا كيسًا فارغًا. مبدئي الوطني وأملي وعملي تتوقف كلها على تنظيم الجيش العراقي. يقول لنا الإنكليز: ساعدوا أنفسكم نساعدكم. وهذا صواب، ولكنهم أفسدوا علينا وهم لا يدرون موارد المساعدة. عندما تكون البلاد في هياج سياسي يصعب على الحكومة فيها أية كانت أن تجبي أموال الخراج.

— وما هو عدد الجيش العراقي الذي باشرتم تنظيمه؟ وما هي حالته؟

— عدده خمسة آلاف، وحالته المعنوية غير ما تروم. لا تظن أن السبب في ذلك نقص في الوطنية. لا والله! إنما هو دليل من أحد الوجوه على الوطنية، وهذه هي الورطة التي نحن فيها الآن؛ ندعو شبان البلاد إلى التجند فلا يلبون، وإذا لبوا فيجيئون يعرجون ولسان حالهم يقول: إذا كان الإنكليز يبغون الإقامة في البلاد فليدافعوا هم عنها.

وبين الجيش البريطاني فجرح في المعركة، فاعتنى به رجال الصليب الأحمر، ونقل بعد ذلك إلى القلعة في القاهرة، فحاول التفلت من الأسر فوقع فانكسرت رجله، فلزم الفراش ستة أشهر.

وكانت الثورة العربية في بداءتها والضباط العرب ينضمون إليها، فكتب لجعفر أن يكون منهم، فجاء سنة ١٩١٧ إلى مكة، ثم أُلحق بالجيش العربي الذي كان مرابطًا حول المدينة، ثم أرسل إلى العقبة فعين قائدًا من قادة جيش الشمال. وبعد فتح الشام تعين مفتشًا عامًّا للجيش العربي في سوريا، ثم حاكمًا عسكريًّا لولاية حلب، ثم رئيسًا لحجَّاب جلالة الملك، وبعد واقعة ميسلون عاد إلى بغداد ليساعد في تأسيس حكومة وطنية، فتعين وزيرًا للحربية في الحكومة المؤقتة؛ أي قبل التتويج، ثم في وزارتي النقيب الأولى والثانية. ولما دعا المستر تشرشل رؤساء مندوبي بريطانيا في الشرق الأدنى لمؤتمر القاهرة كان جعفر باشا ممن رافقوا مندوب العراق السامي، وشاركوا في البحث في أمور العراق المالية والعسكرية، وفي شتاء ١٩٢٢–١٩٢٣ كان مندوبًا للحكومة العراقية في لندن.

ومن وظيفتي أنا أن أقنعهم بأن الإنكليز، وهم في البلاد، غير مقيمين فيها، وأنهم وهم الأغنياء بالمال والرجال، لا يستطيعون الدفاع عنها مع رغبتهم فيها. هل تعرف وزيرًا في حكومات العالم اليوم هذا موقفه في السياسة والمنطق؟

جعفر باشا حر الكلمة صريح الإشارة والعبارة. سألته رأيه في أحد رجال السياسة العراقيين الذي كان يومئذ من المرشحين لرئاسة الوزارة، فقال: أي رجل آخر أحسن منه. درهم من الأهلية يا أستاذ خير من قنطار مقامات. البلية الكبرى في هذه المقامات التي ليس فيها غير الادعاء والسخافة.

وهو إن رفعته الجدارة إلى أعلى المقامات لا يكتفي بما عنده من خبرة وحكمة، بل يسعى دائمًا فيما فيه زيادة وتحسين. قد أخبرت القارئ في مطلع هذا الفصل بأن حسين أفنان سكرتير مجلس الوزراء هو أستاذ في علم الاقتصاد، ولا فرق في مصادر علمه أصلية كانت أو منتحلة، فكنت أرى الحسين مكبًّا على ترجمة آدم سميث[١] وغيره من أساتذة هذا العلم وأعجب بإخلاصه، وبقوله: خير لي أن أترجم عن الثقات من أن أجيئهم بما يجلب اللعنات. إنك لترى الفقيه والأديب والوزير في مَن يَحضُر تلك الدروس الاقتصادية، ولست مبالغًا فيما أقول.

دهشت يوم أخبرني جعفر باشا بأنه يحضر دروس السيد أفنان وازددت إعجابًا بمعاليه. اطلب العلم من المهد إلى اللحد. ليس أشرف من الحديث النبوي المأثور غير الحديث النبوي المتجسد في وزير من وزراء العرب، وهو تلميذ من تلاميذ كاتب سره. جاء جعفر باشا يزورني يومئذ في البيت ويدعوني للعشاء في بيته.

— لا نظنك تؤاخذنا ونحن لا نزال فيما هو أشبه بالكوخ، ولكنه خارج البلد فتمر في طريقك ببساتين يروقك منظرها.

ثم تطرق في حديثه إلى الإنكليز، وهو معجب بهم متخوف منهم، الإنكليز وجعفر مثل الحية والعصفور، ولكن الوزير العراقي وإن وقف أمام الحية مسحورًا، فلا يمكِّنها منه. اسمع ما يقول:

— يجب أن نتفاهم وإياهم ونتفق، وخير البر عاجله. الإنكليز يختلفون عن بقية الناس. هم وحدهم يا أخي ... ممتازون! نزلوا من السماء في قفة. أفلا ترى كيف يسلكون في نهارهم وفي ليلهم؟ يلبس الجندي منهم البنطلون القصير فيكشف ساقه حتى الركبة – ابن عم البرابرة – ولكنه في المساء، إذا دعي للعشاء، تراه في ثوبه الرسمي وفي سلوكه كأنه من الأعيان. فلو كانت هذه الحرية لنا لكنا برابرة في النهار وفي الليل ... يجب أن ندرس هؤلاء الإنكليز ونفهمهم، ونتفاهم وإياهم. هم لازمون لنا في الوقت الحاضر.

وقد حاول في السنة التي تولى فيها رئاسة الوزارة أن يفهمهم ويتفاهم وإياهم، فدرست وزارته ملاحق

(1)the wealth of nations, by adam smith.

المعاهدة الثلاثية الباقية؛ أي تلك التي تتعلق بالجندية والمالية والموظفين الإنكليز، ولكن المجلس التأسيسي، أو بالحري اللجنة التي عينها المجلس لدرس تلك الملاحق والاتفاقيات، رأت أن الشروط فيها فادحة فتفاقمت على الوزارة الاحتجاجات، فاستقالت.

(١٢) ياسين الهاشمي

كان ياسين باشا[١] من المغضوب عليهم في دار الانتداب يوم كنت في بغداد، وكانت المس بل مع ذلك تعجب به وتحترم آراءه. وقد يصح فيها وفيه ما قلته في جعفر باشا والإنكليز؛ هما مثل العصفور والحية، على أن الآية تعكس ها هنا، فلا تنحصر الحكمة والجاذب في المرأة.

كنت أجتمع بياسين باشا في النادي فأسمعه يجهر برأيه ضد الإنكليز، أو بالحري ضد حكومة الانتداب، وكانت المس بل تدعوه لمائدتها فيجيء في ثوبه اليومي وبآرائه التي هي مثل ثوبه طليقة، لا تقيد فيها ولا ادعاء.

وكان على الدوام كئيبًا، وكانت الكآبة بليغة مستحبة، تنظر من عينه السوداء كأنها تقول: إن هدوء نفسه، وحسن وجهه، وشجا صوته، إنها كلها مني. ظننت تلك الكآبة من خلقه، ولكني علمت بعدئذ أن ابنه الصغير الوحيد كان مريضًا ولا يرجى شفاؤه فأُغلقت في وجهه أبواب الطب كلها، وانصرف عنها وعن الأشغال يسعى بما عسى أن يصل إلى عرش الرحمة الأعلى، فيأذن الله بشفاء صغيره العزيز.

لم يستجب الله طلبة عبده. وعندما رحت أعزي ياسين باشا الذي كان يومئذ وزير الأشغال في وزارة السعدون، استقبلني هاشًّا ولم يأذن بتلك الكلمة المألوفة التي لا تغني فتيلًا. ما شاء الله كان. هو مثل داود النبي: تقي في المصيبة، فيلسوف في الأحزان.

ولكنه في السياسة لا يستسلم دائمًا إلى الأقدار، أمَا وفي ذلك الوقت كان رئيس الوزارة التي خلفت الوزارة الجعفرية، وكان رئيس اللجنة، لجنة تدقيق المعاهدة، التي عينها المجلس التأسيسي، فماذا عسى أن

---

[١] ولد ياسين باشا الهاشمي في بغداد سنة ١٣٠٣. تخرج في المعاهد التركية فيها، ودخل بعدئذ في المدرسة الحربية بالآستانة، وخرج منها في سنة ١٣٢٠ برتبة ملازم ثانٍ، وبعد أن درس سنتين في مدرسة ضباط أركان الحرب تقلد عدة وظائف في الجيش التركي إلى أن أعلنت الحرب العامة وهو وقتئذ رئيس أركان حرب. وقد اشترك في مواقع غاليسيا وغيرها، وكان في رأس الفيلق الثامن لما انهزم الترك في سوريا، فانخرط في الجيش العربي وعين رئيس أركان حرب حاكم سوريا العسكري، ورُفع إلى رتبة أمير لواء، وعين رئيسًا لديوان الشورى. وقد خطفه الإنكليز ونفوه، وبعد رجوعه من المنفى احتل الفرنسيون سوريا فعاد إلى مسقط رأسه بغداد سنة ١٣٤٠ فعين متصرفًا للمنتفق. وبعد أن تولاها مدة شهرين عين وزيرًا للأشغال والمواصلات في وزارة عبد المحسن السعدون، ثم انتُخب نائبًا عن لواء بغداد في المجلس التأسيسي، وكان رئيسًا للجنة تدقيق المعاهدة العراقية البريطانية، ولجنة قانون الانتخاب، ولما أتم هذا المجلس أعماله واعتزلت وزارة جعفر العسكري انتُدب لتأليف الوزارة في ٢ آب سنة ١٩٢٤.

يكون موقفه في سياسة أصبح لا يملك غير طرف واحد منها؟

جاء في تقرير اللجنة أن في بنود المعاهدة والملحقات ما يثقل كاهل العراق، فلا يمكنه القيام بتعهداته، ثم تطلب اللجنة التعديلات الآتية:

- التصريح باستقلال الدولة العراقية.
- التصريح بإلغاء الامتيازات الأجنبية قضائية كانت أم اقتصادية.
- الحكومة العراقية حرة في تنظيم ميزانيتها السنوية.
- التصريح بأن الحكومة العراقية ستصبح حرة مستقلة ذات سيادة تامة عند دخولها في عصبة الأمم، أو عند انتهاء الأربع سنوات.

وهناك تعديلات فرعية تتعلق بالاتفاقيات المالية والعسكرية.

فمهما قيل في وجوب هذه التعديلات كلها لا أظن معالي الوزير الجديد يسعى في نقض قاعدة مالية أجمعت الأمم على صحتها. يقول العراق لبريطانيا: يجب أن تسحبي قواتك من العراق ويجب أن تقرضيني مالًا لأنشئ جندًا وطنيًّا يقوم مقامها. فتقول بريطانيا للعراق: يجب أن تعطيني ضمانة على المال وستبقى بعض قواتي في البلاد إلى أن تسدد الدين.

هو ذا المشكل الذي يُرجى حله في عهد الوزارة الهاشمية خصوصًا؛ لأن فيها أخصائيًّا في التجنيد هو رئيسها، وأخصائيًّا ماليًّا هو ساسون أفندي[1].

(١٣) جرترود بل

النادي العراقي مختص بالرجال دون النساء، ولكني سمعت يومًا صوت امرأة في غرفة القراءة، فدخلتها فإذا هناك المس بل وأحد الوزراء يتجاذبان أطراف الحديث كما يقال. وكنا يومًا مدعوين أنا والسيد أفنان لمأدبة فمررنا بأحد المستشارين ظنًّا منا بأنه وزوجته من المدعوين، فقال المستشار: أنا أرافقكم أما الست فلا. يظهر أن الليلة مختصة بالرجال. فقلت: وقد سمعت أن المس بل ستكون هناك. فقالت السيدة زوجة المستشار: ولكن المس بل ... وسكتت.

---

[1] كان الوزير الثابت في الوزارات العراقية؛ لأن ليس في العراق من يضاهيه في علم الاقتصاد والتضلع من إدارة الشئون المالية. ولد ساسون حزقيل في بغداد في ١٧ آذار سنة ١٨٦٠، وتلقى علومه في بغداد ولندن، وتخرج في الحقوق بفينا عاصمة النمسا. وقد شغل عدة مناصب إدارية في الحكومة العثمانية إلى أن انتُخب نائبًا عن بغداد في مجلس النواب العثماني من سنة ١٩٠٨ إلى ١٩١٨، وكان رئيسًا للجنة المالية في ذاك المجلس سنين عديدة، وعين مستشارًا لوزارة التجارة والزراعة في الآستانة. ولما تألفت الحكومة المؤقتة في العراق في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عين وزيرًا للمالية، وبقي في الوزارة المذكورة ثلاث سنوات؛ أي إلى أن استقالت وزارة السعدون. ولما تألفت الهاشمية في شهر آب سنة ١٩٢٤ أسند إليه المنصب نفسه.

نعم، إن المس بل في صفتها الرسمية لمن الرجال، فهي لا تقيد نفسها بما يقيد بنات جنسها. وهي تغضبهن؛ لأن الحرية التي ألفتها لا تأبه للاصطلاحات العقيمة. على أن الوظيفة تضطرها أحيانًا إلى ما يظنه الناس تعمدًا في الخروج عن المألوف. وهي في صفتها الرسمية تعمل عمل الرجال، بل هي شبه وزير دار الانتداب، وعليه سأفسح لها في هذا الفصل مجالًا. ولا أظن أصحاب المعالي الوزراء يستنكرون أو يعترضون.

إن السيدة جرترود بل كاتبة أسرار المندوب السامي في الأمور الشرقية، أو رئيسة القلم الشرقي في دار الانتداب[1] لمن أولئك الإنكليزيات القليل عددهن اللواتي يستشرقن أو يتعربن لدافع فيهن نفسي بل روحي، يصعب تعليله على ما أظن بغير ناموس التناسخ أو الوراثة البعيد الأسرار والأسباب. إن امرأة عاملة، نشيطة، حصيفة، ذات عزم ومضاء مثلها، لتجد في بلادها من دواعي العمل والشهرة والفخار ما يرغبها عن البلدان الأجنبية، ولكن نزعة فيها إلى الشرق، إلى العرب، تغلبت على كل آمالها ومطامعها، فجاءت الشرق الأدنى سائحة، طالبة علم، وجالت في البلاد العربية، فقطعت الصحراء إلى جبال شمر وحائل، وآخت العربان، ووضعت كتبًا عن العرب والبلاد العربية والسورية فيها العلم مقرون بالعطف والإخلاص، ثم جاءت أيام الحرب إلى بغداد فكانت للقيادة العامة والوكلاء السياسيين عونًا كبيرًا في إدارة شئون البلاد.

إن المس بل لتعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرافه وتجَّاره والسياسيين فيه ما يندر أن يعلمه سواها، وهي تتكلم العربية بلسان تخف اللكنة فيه، وتجالس العرب فتستأنس بهم، ولا تكلف ولا عناء، كأنها تجالس من تحب من أبناء جنسها، بل كأنها عربية بنت عربي.

امرأة طويلة نحيلة جليلة، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار، هادئة الإشارة واللهجة، هادئة البادرة، يتغلب في حديثها العقل، وتتغلب في عقلها السياسة. وهناك شيء من القلب، بل أشياء ناضجة مستوية، تزاحم العقل والسياسة أحيانًا فتجيء تارة عفوًا وطورًا تنم عن اجتهاد وعناء.

حدثني أحد المستشارين قال: طريقة المس بل السياسية قديمة، وهي مع ذلك لا تركن في الأمور لعقلها دائمًا ولا لقلبها. وقال آخر: الناس يأبون التأديب أسواء كانوا عراقيين أم إنكليز.

ولكن المس بل لا تجبه العراقيين بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة، بل تجيئهم مرارًا وهي تحمل هدية بدل القضيب. هو ذا قلبها عربون إخلاصها أيها الزعيم الوطني. هي أم المؤمنين يقينًا. وإذا رفضت الهدية والمشورة، إذا أبيت النصح والامتثال، فهو ذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت إلى يوم وقفت مستعطفًا أو محتجًّا في دار الانتداب.

لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد، ولكنهم يحترمونها، ويعجبون بها، ويودون لها ما يوده المرء

---

[1] oriental secretary to the high commissioner.

لعمته أو الفتاة لخالتها. لا تحبينا كثيرًا – عافاك الله – ولا تتدخلي كثيرًا في أمورنا[1].

(١٤) أصحاب القوافي

لولا الشعراء في العراق لسئمتُ السياسيين، ولولا السياسيون لفررت هاربًا من الشعراء. وبكلمة أوضح: لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين. بيد أني مشيت مثل البهلوان على حبل الاحتفالات والتكريم، أحمل بيدي خيزرانة التوازن وفي أحد طرفيها أكرة السياسة وفي الآخر قيثارة الشعر. تباركت الأمة التي يتوازن فيها الشعر والسياسة.

ليس في أمم الأرض على ما أظن من يهتم بالسياسة اهتمام الأمة العربية، وليس في الأقطار العربية كلها من يشغفون بالسياسة شغف العراقيين. في مدينة بغداد – مثلًا – ثلاثمائة مقهاة، وفي كل مقهاة عشرون سياسيًّا في الأقل يدخنون الأرجيلة ليل نهار، ويديرون شئون العرش والانتداب، ولكل سياسي رأي في السياسة الدولية وسياسة العراق غير رأي زميله وجاره. إلا أنهم لحسن الحظ يدخنون وينسون. إن في الأرجيلة لتعتصم الأمة!

معروف الرصافي

ولكن في هذه الأمة أناسًا ممتازين يدخنون ويكتبون، فيجمع اليراع أحلامًا يولدها التنباك ويبددها، ويحفظ القرطاس من النغمات والنقمات ما لا تعددها. هم الشعراء. وأكثرهم، بل كلهم في العراق اليوم، سياسيون ينظمون، أو نظَّامون يعالجون السياسة كرمًا منهم، وفي مقدمتهم شاعر تجاوزت شهرته حدود بلده، فرحبت بها سوريا ومصر والآستانة، وأجلستها على ديوان الفخر والإعجاب.

وقد وصلت هذه الشهرة إلى الفريكة في شخص صاحبها المحبوب معروف الرصافي يوم كان عربيًّا – بدويًّا – في قلبه ولهجته، وفي نظمه وقيافته. نام معروف الرصافي يومئذ في خيمة الناسك المشرفة على الوادي، وأكل من جفنته، وشرب من إبريقه، ثم سافر إلى الآستانة أولًا وثانيًا، وكان فيها من المرشدين الواعظين، وعاد منها يلبس الطربوش والثياب الإفرنجية، فأفصح ذا التطور الظاهر عما خفي منه فيه. أجل، قد أفسد الأتراك، أو بالحري مدنية الآستانة – وهي في هذا الباب أشد وأسرع فعلًا من مدنية باريس – قد أفسدت شيئًا من السذاجة الجميلة في شاعر عربي مجيد. احترقت حواشي تلك السذاجة فتغير لونها وطعمها، وصار الشاعر سياسيًّا، وصار العربي مسلمًا، أو بالحري صار الشاعر في سياسته وفي إسلامه تركيًّا من أتراك الزمان.

على أن الرصافي وهو ممن خصهم الله بشعلة النبوغ – والنبوغ طموح، والطموح جهاد مستمر – لم

[1] وافتها منيتها في بغداد سنة ١٩٢٦.

يقف في التطور عند حد يريب ويعيب، بل ظل يشتغل في الأدب والشعر حتى أمست السياسة التركية الإسلامية بعيدة عنه، تكاد لبعدها لا ترى، وحلت محلها سياسة عربية قومية، مجردة من كل نزعة دينية، وكل صبغة مذهبية، وكأني بمعروف قد عاد إلى تلك الخيمة، خيمة الناسك، فذكر فيها الجفنة والإبريق، وعقيدة الأخ الصديق، الذي كان مثله هدفًا لعوامل التطور الشديدة. فقد صار ناسك الفريكة رحالة، فراح يجول في الأرض غربًا وشرقًا، حتى اجتمع بعد سنين بصديقه الشاعر في بغداد، وهو يشغل وظيفة صغيرة في وزارة المعارف.

وكان معروف أول المرحبين، وأول من قال شعرًا فيه زمجرة وفيه أنين. شكا إلى صديقه القديم حالًا وهو فيها فقال:

أقمت ببلدة ملئت حقودًا ... علي فكل ما فيها مريب
أمرُّ فتنظر الأبصار شزرًا ... إليَّ كأنما قد مرَّ ذيب
وكم من أوجه تبدي ابتسامًا ... وفي طي ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كأني ... أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه ... لأني اليوم في وطني غريب
وما هذا وإن آذى بدائي ... ولا هو أمره أمر عجيب
ولكني أرى أبناء قومي ... يدبر أمرهم من لا يصيب

وحمل على السياسيين في العراق، الوطنيين منهم والإنكليز، وحمل كذلك على الأغنياء والأعيان، وشكا الدهر والزمان، كان صديقه الرحالة يحمل في حقيبته دواء لكل أدواء الإنسانية، وترياقًا لسموم الحكومات الانتدابية والاستعمارية:

أأمين لا تغضب عليَّ فإنني ... لا أدعي شيئًا بغير دليله
من أين يرجى للعراق تقدُّم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف ... عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم ... عند غريبه والحكم عند دخيله

ما كنت لأغضب على صديقي الشاعر لو لم أكن جئت العراق من قطر عربي ليس فيه جزء صغير مما في العراق من دلائل الرقي وطلائع الأدب والعمران، إلا أن غضبي عتاب إخوان، ولعب صبيان، إذا قوبل بغضب أصحاب المناصب العالية، والسيادات الدينية البالية، وليس غضب هؤلاء وهم رجال بشيء إذا قيس بغضب سيدة سائدة، لها الأمر وهي أجنبية، ولها نفوذ يمتد حتى إلى إدارات الجرائد

العراقية.

قد أغضب الرصافي المس بل فحالت دون نشر قصائده في الجرائد. وهذا قليل من كثير جاءه منها بالأساليب الدقيقة الخفية؛ لأنها وهي امرأة راقية، وهي فوق ذلك سياسية، لم تناصبه العداء بالطرق الاعتيادية، ولا أخطأت كما أخطأ سابقًا دار الانتداب في نفيه الوطنيين الأحرار، كأنها قالت في نفسها: هو شاعر، والشعراء يلتذون بالسجن ويفتخرون بالمنفى، وفي الاثنين ما يكفيهم مئونة العمل، فيضمن لهم خبز يومهم والعزلة للنظم والتأليف. دعت المس بل معروفًا وشأنه، ولم تلجأ في تونيبه إلى غير الدقيق الخفي من أساليب النقمة عندها. وكان معروف يومئذ ناقمًا على العراق كله كما تقدم وعلى كل من فيه:

سأنصب للهواجس حر وجه	يعود إلى الشروق به الغروب
وأضرب في البلاد بغير مكث	أجوب من المهامه ما أجوب
إلى أن أستظل بظل قوم	حياة الحر عندهم تطيب

وكان أمله أن المس بل، وهي ولية الأمر، تسمع في الأقل هذه الشكوى منه، فأرسل إليها كتابًا يقول فيه: إنه يحترمها؛ لأنها عالمة، ولكنها في الأمور الوطنية ليست أعلم منه، وأنها إذا أحسنت العمل يخلد ذكرها في التاريخ، وإلا فلا رادع لشعره عنها، «وإني أرجو أيتها السيدة أن يكون لغضبك نتيجة ظاهرة».

سكنت الخان في بلدي كأني	أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه	لأني اليوم في وطني غريب

أفلا ترثي المس بل لحاله، وقد سئم الإقامة في بلاد لا خير ولا ما يشبه الخير فيها، فتسعى بإبعاده أو بسجنه أو بنفيه؟ إنما الرصافي لم يفقه عقلية المرأة المهذبة ولا أدرك السر الأول من أسرار قلبها، فهو يطلب منها ما يبغي حقيقة ولا يخفي عرضه أو يموه به، فلو قال لها: إني أفضل زاوية مظلمة في سرداب من سراديب بغداد على قصر في الآستانة لكانت سعت ولا ريب بإبعاده عاجلًا عن العراق، بل بتسفيره إلى الآستانة.

أما العلماء الناقمون على الرصافي، أو بالحري الناقم هو عليهم، فإنهم يجدون قصتهم في بيتين من شعره:

لقد مزقوا أحكام كل ديانة	وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الأديان إلا ذريعة	إلى كل شغب بينهم وعداء

ولا همهم أأبعد الرصافي عن العراق أم لم يبعد، فهم يعلمون أن الشاعر المجيد الحر الذي تتناسخ وتتناقل أشعاره الناس قبل أن تطبع يستطيع أن يضربهم أينما كان. وقد تجيء الضربة شديدة بالنسبة إلى بُعد مرماها؛

لذلك اقتصروا على تكفيره في بلده وشرعوا يشنعون به لدى العامة، حتى صار يُنظر إليه إذا ما مر «كأنما قد مر ذيب»، وهو — والحق يقال — ذئب الحرية في العراق؛ يثب على كل من يحاول قتلها أو تقييدها.

لمعروف الرصافي عقيدة في الدين والآخرة تكاد تكون مادية، ولكنه وهو الحكيم المدرك حدود علمه، قلما يفصح عنها تأكيدًا وتفصيلًا فيما يكتب وينظم. وعندي أنها في هاته الحال السديمية أشد تأثيرًا فيما يقصد بها من إصلاح العقائد والتقاليد. قال لي مرة: لا تصطلح البلاد العربية وترتقي إلا بالفكر. وأنا أفهم وهو يفهم ما يريد بما قال، فلو نطق كعالم بموجب قياس العلم والمنطق لما كان يؤثر في الناس كفره المزعوم.

ولرب قائل يقول: ما لك وأنت تكتب عن شاعر تقدم في شعره السياسة والدين؟ الجواب: أن الباحث اليوم في أحوال الشرق عمومًا والعرب خصوصًا يرى أن للسياسة والدين الشأن الأول في أمورهم كلها. أجل، إن في مصبغتَي السياسة والدين تصطبغ الأقوال والأعمال والآمال، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي فيما ينظمون ويكتبون، وعندما أجد في ثمرات العقول الكبيرة الحرة ما يعارض النعرات المبتذلة الذميمة بنزعات جديدة في الفكر والاعتقاد أقدِّمها عملًا بأهميتها على غيرها. كذلك سلكت في تشريح جزء من شخصية الرصافي الممتازة.

أما الشاعر فيه المجرد من نعرات الناس، ومن النزعات السياسية كلها — الشاعر الذي لا يعرف في الحياة غير الشعر والجمال والحقيقة العلوية فيهما — فهو دائمًا فوق الجماعات والأحزاب، لا يعتبر في الأنساب غير النسب الذي بينه وبين البلابل، والعواصف، والكواكب، والأزهار، ولا وطن له غير وطن الفكر والعلم والحرية؛ فهو إذا سألته: ما الشعر؟ يجيبك قائلًا:

وما الشعر إلا كل ما رنَّح الفتى	كما رنَّحت أعطاف شاربها الخمرُ
وحرَّك فيه ساكن الوجد فاغتدى	مهيجًا كما يستنُّ في المسرح المهر
فمن نفثات الشعر سجع حمامة	على أيكة يُشجي الحزين لها هدر
ومن شذرات الشعر حوم فراشة	على الزهر في روض به ابتسم الزهر
ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق	بها قد شكا للحب ما فعل الهجر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل	مفجعة أودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيح مطرب	تعاود مجرى صوته الخفض والنبر
وإن من الشعر ائتلاف كواكب	بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر
وإن ابتسام الغيد عن كل أشنب	ليطرب نفسي فوق ما أطرب الشعر

هو ذا الشاعر الحقيقي، هو ذا الرصافي ينطق بلغة زملائه وأقاربه في البساتين وفي السماء.

وللرصافي زميل ونسيب من الناس يشاركه الإقامة في العراق، كان ينبغي لي، لو اعتبر السن والعلم في الشعر، أن أقدمه عليه، ولكن الشاعر هو شاب أبدًا، والعلم في الشعر يكسبه حكمة ولا يزيده جمالًا. على أن لجميل صدقي الزهاوي منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه أحد بها، فهو في علمه، وفي شعره أقرب نوابغ العرب إلى المعري أبي العلاء. وإذا صح مبدأ التناسخ والحلول يكون «رهن المحبسين» قد عاد إلى هذه الدنيا بعد ألف سنة، فاتخذت روحه الزهاوي محبسًا جديدًا، ومعقلًا من الفكر مجيدًا. أوَليس شبيهًا بصوت صاحب اللزوميات صوتُ من قال:

نم بعيـــــدًا في خلـــــوة الأجـــــــداث	مـــــن رغـــــاء الخطـــــوب والأحـــــداث
إنمـــــا المـــــوت خـــــير مـــــا خلفتـــــه	لبنيهـــــــا الآباء مـــــــن مـــــــيراث

وما كان المعري في هذا التجسد الجديد موفقًا في الصحة والعافية؛ لأن شللًا في رجل من حل فيه يمنعه عن المشي. جاء في اللامية الزهاوية:

وقـــــد أحـــــاول أن أســـــعى فتمنعـــــني	رجـــــل رمتهـــــا يـــــد الأيام بالشـــــلل

فاضطرته إذا خرج من البيت إلى الركوب، وكان اختياره في المركوب اختيار الشاعر الفيلسوف. هو ذا الزهاوي راكبًا أتانه البيضاء كأنه من مدينة المنصور المدورة لا من بغداد الجديدة. ولكنه يلبس الطربوش لا العمامة فيبدو شعره من تحته خُصلًا منثورة شاردة، لكل منها يد من الهواء تداعبها فتبعدها عن أختها، وقد يتصل بعضها بشعر لحيته الشمطاء «البلشفية» التي لا تخضع حتى لمقرض أو لمشط. وهي تظهر في أشد المظاهر الفوضوية في الشوارب منها الثائرة على كل نظام. وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذاك الفم البليغ الذي هو ختم الغم إذا سكت، وباب الصواعق والأضاحيك إذا تكلم. أما الأنف فمنبسط الأطناب مستريح تحت عين دامعة تشكر النظارات على ما تجسمه وتوحده لها من ألوان الحياة. ويشرف على هذه الآيات في التكوين المنثور جبين رفيع نصيع منيع.

أما ثيابه فإفرنجية، ولكنها كذلك حرة أبية، لا يهمها الشكل والزي، وقلما تلفت الأناقة فيها النظر. بنطلونه كالكيس حول الساق، قميصه مفكوكة الزر عند العنق، ومستقلة في بياضها – غير الناصع – فلا يحتل قسمًا منه شيء مما تدعوه ربطة رقبة. شيخ زاهد بكل شيء إلا بالعلم والحرية، وليلى الأخيلية. أجل، إن للزهاوي ليلاه، تطرد من نفسه الظلمات، ومن قلبه الشبهات، ومن بيته الطالبات، هي عروس شعره، عروس حياته، عروس أفكاره وأحلامه، وهي كذلك رمز سياسته:

كـــــان يهـــــوى ليلـــــى ابـــــن عـــــم لليلـــــى	فابتغاهـــــا مـــــن أهلهـــــا كخطيـــــب

ولقـــد أخـــبروه مـــن بعـــد حـــين   أن ليلـــى قـــد زوِّجـــت بغريـــب

وإن هذا الشاعر ليشرك في بعض الأحايين بحب ليلى كل عاشق حزين. هي ليلى الإباحية التي يخاطبها فيقول:

ليلـــى أطلـــي علـــى العـــا   شـــقين ليلـــى أطلـــي

تـــري أعـــزة قـــوم   مطـــأطئين بـــذل

تـــري صـــدورًا مـــن الشـــو   ق والصـــبابة تغلـــي

عـــدي وان كـــان وعـــد الـــ   ـــحبيب رهنًـــا بمطـــل

ثم يتفلت الشاعر من يدي الوطني والفيلسوف، ويركب وعروسه الأتان البيضاء، إلى الصحراء، أو يختلي بطيفها في داره، فيسمعه من الشعر الرقيق المنسجم ما يقارن أجمل نفثات «المجنون»:

أبيـــت في الـــدار وحـــدي   معاتبًـــا لخيالـــك

قـــد غـــرني أنـــه كـــا   ن باسمًـــا كمثالـــك

لا تســـأليني عمـــا   أصـــابني بعـــد ذلـــك

مـــا زلـــت أضـــمر حبًّـــا   مناســـبًا لجمالـــك

أبيـــع كـــل حيـــاتي   بســـاعة مـــن وصـــالك

إني بحبـــك يا ليـــ   ـــلى لا محالـــة هالـــك

فهـــل ســـأخطر يومًـــا   إذا هلكـــت ببالـــك؟

جاءني الشاعر الفيلسوف ذات يوم يحمل إليَّ شكاية هي ظاهرًا عن ليلى وعشاقها: «ما هم والله أهلًا لها، ينظمون الشعر للأخيلية ويقدمون الهدايا للأجنبية. والملك فيصل لا يكترث، وإذا اكترث فلا ينصف، أوَلم أقل له في قصيدتي:

لا يـــرأس النـــاس في عصـــر نعـــيش بـــه   إلا الـــذي لقلـــوب النـــاس يمتلـــك

والشاعر يا أستاذ من الناس، وله فوق ذلك حق على الناس، فيمَن يملكون أو يأمرون. ترانا نحمل النار بأيدينا إلى أمة تكاد من الدنق تموت، فيوقفنا في الباب أناس لا يساوون قلامة ظفر؟»

هي الحقيقة في كل قطر من الأقطار العربية، ولكنها في العراق مجسمة في كبار شعرائه. أعجب بشعراء غاضبين شاكين، وقد تنازلوا عن مكافحة الزمان إلى مكافحة الإنسان، إلا أنهم يختارون — ولا شك — الأقران، أو من يدنو من الأقران. حمل الرصافي على سيدة أجنبية من أجل ليلى وعشاقها، وجاء الزهاوي يشكو مَن مدَحه بالأمس وكانت لا تزال قوافيه ترن في البلاد.

— سألوني يا أستاذ أن أكون شاعر الملك وعينوا لي راتبًا شهريًّا، فقلت: لا أمدح بالأجرة. وإني أقبل

الوظيفة بشرطين: ألّا أقول إلا عندما أرى المدح واجبًا، وأن يكون الراتب لوظيفة غير المدح.

فعضب جلالته، وكان لي على بعض الأصحاب السائدين حق المساعدة، فاغتنموا فرصة غضب الملك وانقلبوا علي. والله يا أستاذ ما قبلت أن أكون شاعر الملك الرسمي إلا بالشروط التي ذكرت ... معاذ الله أن أصير في آخر هذا الزمان مداحًا بالأجرة!

هذا نصف القصة، سمعته غير مرة في بغداد كما رواه الزهاوي، وسمعت كذلك النصف الآخر. أما جلالة الملك فيصل فقد كان بين النصفين، تتجاذبه أكثر من إرادتين. وإني أروي القصة كلها لما فيها من نور يضيء بعض زوايا الملك الجديد. إننا نرى في البداءة جلالة الملك بين شاعرين هما صنوان؛ هما شاعرا العراق الأولان. وللشاعرَين أصحاب من ذوي السيادة والنفوذ في المدينة وفي البلاط. وبين الشاعرَين، بل بين الشعراء على الإطلاق، منافسة دائمة تكاد تكون طبيعية. قد فات ذلك جلالة الملك فأغضب في إنعامه الشاعرين معًا.

ولو كان ممن مارسوا الشعر وخبروا طبائع الشعراء لاختار لهذه الوظيفة أحد أبناء الطبقة الثالثة أو الرابعة؛ لأنهم يحسنون المديح أكثر من سواهم، ولكان كفى نفسه عداء شاعرَي العراق الكبيرين، بل كان في استطاعة جلالته أن يعمل أحسن من ذلك، فيقول لمن حببوا إليه «الشاعر الرسمي»: إننا في بداءة أمرنا، ولا حاجة لنا بمدَّاح مأجور. أو أنه يقول: شاعر البلاط من كمالات الملك ونحن اليوم أحوج إلى الضروريات. أفلا تظنه مفلحًا لو اتخذ هذا المسلك ورفض أن يعين شاعرًا رسميًّا، فيصير شعراء العراق كلهم شعراء البلاط ... وبدون أجرة؟

ظُلمتُ والله يا أستاذ. أنا لا أبغي أجرة على المديح إذا مدحت، وإني لا أمدح دون فكر أو نصح. ألم أقل لفيصل:

تلقي اعتمادك لاستتمام نهضتهم	على الذين بنهج الحق قد سلكوا
على أناس لصدق القول قد لزموا	على رجال لغل النفس قد تركوا
على الألى عرك الأيام أظهرهم	عرَكًا طويلًا وللأيام قد عركوا

ومن يا ترى عركتهم الأيام مثل الزهاوي؟ ولكن الشاعر يخدم بلاده فيما لا يحسن الخدمة أحد مثله. فقد تقلَّد الزهاوي مناصب في الدولة كثيرة، وكانت يومًا له ويومًا عليه، وكان في ذلك واحدًا من كثيرين، وقد تعددت صفاته في فنون الأدب، فشغف بالعلوم الطبيعية، وألَّف كتاب «الكائنات» وكتاب «الجاذبية وتعليلها»، وكان فيها واحدًا من مئات الغواة. ومن غرائب اجتهاده وتنوع علومه أنه كتب رسالة في سباق الخيل، وكتابًا في علم الداما. وفي هذا الكتاب العجيب ذكر ألف لعبة من مخترعاته؟ فلو لم يكن الزهاوي شاعرًا وطنيًّا لقلنا إن في تعليم الأمة لعب الداما وظيفته الأولى. ولكنه شاعر كبير بالرغم عما في شعره من

مبتذل القول مثل:

العلـــــم ثـــــروة أمـــــة ويســـــار والجهـــــل حرمـــــان لهـــــا وبـــــوار
إن التوقـــــف في زمـــــام حـــــازم فيـــــه تقـــــدمت الشـــــعوب لعـــــار
مـــــن راح يمشـــــي في طريـــــق مســـــتوٍ أمـــــن العثـــــار فمـــــا هنـــــاك عثـــــار

ومثل قوله في مطلع قصيدة «الجهل والعلم»:

ألا إن ليـــــل الجهـــــل أســـــود دامـــــس وإن نهـــــار العلـــــم أبـــــيض شـــــامس
وتشـــقى حيـــاة مـــا لهـــا مـــن مـــدرّب وتشـــقى بـــلاد لـــيس فيهـــا مـــدارس

هي حقائق لا ريب فيها، ولكنها من الحقائق المعروفة المبتذلة، وقد أصبح الاعتقاد بها عند الغربيين من باب الاعتقاد بوجوب الرياضة – مثلًا – أو الأكل، أما عند العرب فالأمر غير ذلك. وإنه ليغتفر للشاعر في أمة تطرب للشعر طرب الغربيين للموسيقى إذا وضع لها حقائق كل يوم – حقائق أيام العمل – في قوالب شعرية.

من مزايا الشاعر الحقيقي أن البؤس في الأمة يحزنه حتى الألم، فيصيح كأنه هو الأمة البائسة الموجوعة، فيسمع صيحته من قد خشنت أو تخدَّرت من الآلام أعصابهم، فيستفيقون طالبين الدواء والشفاء. هذه هي وظيفة الشاعر الكبرى في أمة كان للعلم فيها ربوع زاهرة أمست كالقفر اليباب.

ولكن في شعر الزهاوي غير هذه الحقائق ... حقائق أيام العمل، إن فيه كثيرًا من حقائق الآحاد أيضًا والأعياد، هو الشاعر الذي يبهجه أريج الأزهار، وبريق الأنوار، فيود لو كان بإمكانه أن يداوي بها البؤس والظلام ... البؤس الذي منشؤه الخمول، والظلام الذي هو الجهل.

إننا نقدس سرًّا في الأكوان، فحبذا ما نقدس دواءً لما نقاسيه! حبذا الحياة، حياة النمو العارم والتجدد الدائم، ولكن الجهل عدو هذه الحياة وعدو الله، والمتاجرون بالجهل رؤساء الأديان، ورؤساء الأديان في كل بلد لا يخفُّ شرهم إلا بمثل الزهاوي والرصافي وشعرهما. وها هنا في هذه الأمة الجديدة سبب التغيظ الجديد ومصدره. أولئك الجامدون في مكانهم وفي علومهم يكفِّرون الناس فيدفعون ذوي النبوغ فيهم إلى الكفر بالله، فيخرج الزهاوي إذ ذاك من المبتذلات، ومن الوطنيات، وينظم ديوانًا كاملًا في «نزعات الشيطان» فيسمعك من الحقائق التي هي كالنصل اليماني، ويسمعك بعد الزمجرة ضحكة لا تنسى زمانك صداها وصدى التهكم فيها:

توقفـــــت لا أدري تجـــــاه الحقـــــائق أأني خلقـــــت الله أم هـــــو خـــــالقي

إن الزهاوي في «نزعات الشيطان» مثل أبي العلاء في «رسالة الغفران»، وقد يفوق معري اليوم معري الأمس جسارة وبريقًا، فتصل يد شيطانه حتى إلى العرش الأقدس، وحتى إلى لحية صاحب العرش. على أنه

بعد التطاول والتجديف يستغفر الله ويعود إلى عمل كل يوم، فيرى الغرب في الشرق فاغرًا فاه، ضاربًا بعصاه، فيزجره بالمبتذلات ويهدده:

يا أيهـــا الغـــرب إن الشـــرق مضـــطرب
يا أيهـــا الغـــرب إن الشـــرق مغتَصـــب
خفـــف مـــن الـــوطء فـــالأيام تنقلـــب
الشـــرق يشـــبه بركـــانًا بـــه حمـــم
أخـــاف مـــن أنـــه يا غـــرب ينفجـــر
يا ســـرحة المـــاء أنـــت اليـــوم وافـــرة
وأنـــت ناعمـــة خضـــراء ناضـــرة
لا تأمـــني الـــدهر فـــالأيام قـــاهرة
يا ســـرحة المـــاء إن جـــاء الخريـــف غـــدا
فإنمـــا هـــذه الأوراق تنتشـــر

ثم بين التجديف والتعنيف يسمعنا الشاعر من نغماته الناعمة الصافية ما هو من صميم الشعر الذي يستأثر بمعناه الإيماء، فالسكوت، فترى الدمعة فيهما تروي الابتسامة، وترى الابتسامة تحضن الدموع كما يحضن ورق الورود الندى. من ذلك قوله مخاطبًا سماء العراق:

انظـــريني لـــيلًا إذا العنـــادل غنـــت ... ســـحرًا فـــوق منكـــب الشـــجراء
انظـــريني لـــيلًا إذا الشـــمس غابـــت ... بعيـــون النجـــوم في الظلمـــاء
انظـــريني إذا الطبيعـــة أصـــغت ... في الـــدياجي إلى خريـــر المـــاء
انظـــريني إذا الحـــوادث رامـــت ... هـــدأة في الصـــباح أو في المســـاء
انظـــريني إذا الخريـــف تـــراءى ... آســـيًا مـــن أشـــجاره الجـــرداء
انظـــريني إذا غـــدا الـــروض خلـــوًا ... مـــن زهـــور أو زهـــره مـــن وراء
انظـــريني مـــن الفـــروج خـــلال الـــ ... ـــسحب ســـرًّا بعينـــك الزرقـــاء
انظـــريني إذا نظـــرت بعيـــني ... وهـــي شـــكري إليـــك عنـــد البكـــاء

كاظم الدجيلي

إن في العراق من العلماء من لا يزال في المعقل الذي مات فيه «ملفان» المسيحية يوم قضي على ما كان للكنيسة من سيادة ثقافية في العالم. ومهمة الملفان في مراقبة آداب الدنيا والدين لم تكن لتنحصر

بالكنيسة الكاثوليكية، بل تجاوزتها إلى علماء أكسفورد[١] البروتستانتيين الذين كفَّروا في النصف الأخير من القرن الماضي داروين وأصحابه لقولهم بمبدأ النشوء والارتقاء، على أن زمن الـ «ملفان» في المسيحية قد ولى.

أما في الإسلام، ففي بعض الأقطار – كالعراق مثلًا – لا يزال العالم يحمل سهام التحريم والتكفير، يرمي بهما مَن خالفه رأيًا في آداب الدنيا والدين، ولا يحق للشيعة وحدها أن تفاخر بمثل هؤلاء العلماء وإن كثر عددهم عندها؛ فإن عند السنة منهم من يسوِّد الوجه حتى يخفي على «ملافين» كربلاء والنجف.

وهناك في تلك البقعة النائية عن دوائر العلم الغربية بعض رجال الدين المسيحيين الذين يضيق صدرهم كل مرة يُسمع في البلاد صوت حر كريم، فيصدرون الفتاوى بالتحريم والتكفير اقتداءً بفضيلة الشيخ الأعظم و«آية الله» الأكبر، وما الفرق يا ترى بين ثلاثة هم واحد تجاه الحقيقة؟ إلا أن الكرملي والألوسي والقزويني لثلاثة رءوس هي التقليد والتقييد والتعقيد، على جسم واحد، هو التعصب.

وكلهم يكفِّرون الزهاوي والرصافي والدجيلي، ثالث المغضوب عليهم هناك. على أنه في التساهل والصراحة والجرأة الفكرية علم من الأعلام، وقلما يُعد أحد قبله. الشيخ كاظم الدجيلي فيلسوف ينفر من الخيال، وشاعر يهوى صدق المقال، وليس في ظاهره ما ينبئ بوجود الشاعر فيه أو الفيلسوف. ليس في طلعته أو في صوته ما يستميلك إليه أو يستوقفك وأنت غريب، بل في وجهه المخروط الضامر ما يشير إلى النزق والتسرع، اللهم إذا قسنا التكوين الإلهي بمقياس الفن الإنساني، فنقول ونستغفر الله: قد ارتجفت يد المكون في تكوينه، أو إن الناظم أخل بالنظم فلم يك موزونًا. هاك وجه الدجيلي: عيناه بعيدتان الواحدة عن الأخرى، فمه وأنفه كبيران بالنسبة إلى صفحة وجهه، شعر رأسه – وهو دائمًا قصير – يظهر أنه ملتصق بجبينه.

أما الرأس ففيه من الأذن إلى القمة طول يخالف أيضًا قواعد التناسق، وهو الدليل الظاهر الوحيد على ما في الرجل من قوى التفكير والحكمة، وليس في صوته إذا حدَّثك ما ينسيك ظاهر صاحبه، أو يستغوي الغرض فيك، فهو دائمًا عالٍ رفيع لا منخفضات فيه ولا منعطفات. تنفر منه لأول وهلة ولا غرو، إلا أنك بعد أن تألفه ترتاح إلى الوتر الواحد فيه. وقد تكون المادة التي يحملها ويرمز إليها السبب في ذلك، إنما هي لب الرجل وكنهه، هي حقيقة وجوده.

إن الدجيلي عقل كله، عقل صافٍ لا يمازجه شيء من الروح والقلب، فيه نور الشمس ونارها، وليس فيه ظل أو خيال. وهو في حريته مثل نور الشمس يحرق وينير، ويحرق أحيانًا نفسه قبل أن يحرق سواه. ما اجتمعتُ في البلاد العربية برجل مثله في صراحته وجرأته وإخلاصه. وأنت في الشرق، حيث اللطف ضارب أطنابه والتجمل حامل أبدًا محرقة الطيب، لتعجب بالدجيلي ضعفَي إعجابك بمثله في أوروبا أو في أميركا.

[١] أكسفورد أكبر جامعات إنكلترا، وهي المدينة التي تدعى بهذا الاسم. والملفان يدعى في أكسفورد «دون» Don.

وما تأثير الظواهر بعد أن ينكشف النقاب عن هذه العقلية الباهرة.

رجل ولد في مهد التقليد والتقييد والتعقيد، وهو اليوم مطلق منها كلها، ينبذ المذاهب الدينية، ويحمل عليها، ولا يحتفظ بغير اللب من الدين. له في الحياة عقيدة مادية يجهر بها ويناضل عنها، شغف بالقوة القاهرة وهي عنده الحق، لا يرثي للضعيف، ولا توقفه زخارف التلطيف وأوهام الغيرة والإحسان. هو في شعره أقرب إلى شعراء الجاهلية من حيث لا يرى إلا ما يُرى من حقائق الوجود، ولكنه في ذلك عصري؛ أي إنه اتخذ هذه الطريقة لأنها تساعد أكثر من سواها في تجريد الآداب من ترهاتها، والأديان من خزعبلاتها، والإنسان من أوهامه كلها.

يذكرني الدجيلي بشاعر إنكليزي من شعراء الشطر الأخير من القرن الماضي جرَّد شعره من حلي التقاليد الصناعية كلها؛ من زخارف الخيال، من أوهام الآمال، من مصقول المقال، فجاءت قوافيه كالبرق يشق الظلمات، وكلماته كالنصال وقد جرِّدت من الأغماد. هو الشاعر الكبير شعرًا لا شهرة أرنست هنلي[1] القائل:

ولـــو أحيقـــت بي الظلمـــات والأعصـــار،

وكـان الليـل مـن القطـب إلى القطـب كالقـار،

فــــــإلى الأمــــــام ولا انــــــدحار،

إني ربان هـــذه الـــنفس، إني ســـيد الأقـــدار.

وكأن هنلي – وقد كان معاصرًا لنيتشي الفيلسوف الألماني الشهير – يردد شعرًا إحدى كلماته الملتهبة أو شيئًا من فلسفته المكهربة: الإرادة الإرادة. العزم العزم. الاعتماد على النفس. قهر الضعف فلا تمكنه منك. القوة أولًا وآخرًا. خذ هذه الفلسفة نظمًا من شاعر عربي عصري، من «هنلي» الشيعة، من «نيتشي» العراق. قال الدجيلي في مطلع قصيدة «الحياة الاجتماعية»:

حـــديثك عـــن غـــير القـــويِّ حـــرام ... وســـعيك في نصـــر الضـــعيف أثام

تحـــدث بمجـــد الأقـــوياء ففـــيهم ... قعـــود بأحكـــام الـــورى وقيـــام

يؤلمـــه مـــذ صـــار ابـــن آدم قـــوة ... ومـــا الكـــون إلا قـــوة ونظـــام

إذا كنـــت بـــين العـــالمين أخـــا قـــوى ... رعتـــك عيـــون النـــاس حـــين تنـــام

حمـى الغـاب بأس الليـث مـن كـل طـارق ... ولم يـــنج مـــن فتـــك البـــزاة حمـــام

يقولـــون إن الحـــق مـــن فـــوق قـــوة ... ومـــا الحـــق إلا مـــدفع وحســـام

([1])ernest Henley.

لولا ما في هذه القصيدة مما لا يخلو شعر عربي منه؛ أي العادي المبتذل من الفكر والتعبير، لجاءت في تجردها، مثل شعر هنلي، من أوهام الخيال وزخرف الآمال، فريدة في بابها. وقد تطرق الشاعر فيها إلى ذكر الأديان فقال:

حكايــــــــة أديان الأنام عجيبــــــــة ... تجمــــــــع فيهــــــا فرقـــــــة ووئام

تريـــد الهـــدى والخـــير للنــاس كلهــم ... وكـــم ثار منهـــا فتنـــة وخصـــام

وغايتهـــا القصـــوى عبـــادة واحـــد ... حقيقتـــه مـــا إن تـــرى وتـــرام

عظـــيم لديـــه يصـــغر الحـــق كلـــه ... وتستصـــغر الأجـــرام وهـــي عظـــام

مهما كان من تزعزع عقيدة الشرقي فلا يحمله ذلك على الإلحاد، بل يظل مؤمنًا بالله فيما صفا وتعكر من أمره وخمره. وعلى ذكر الخمر، إن للدجيلي أسهمًا في شركة الخيام وأبي النواس كما له في شركة أبي العلاء المعري؛ فقد وصف الخمر ومدحها وذمها كذلك بعد الاختبار، فكان في الثلاثة صادقًا:

ألم يـــك مـــا نظمـــت بهـــا صـــحيحًا؟ ... فلـــي فيهـــا تجـــارب واختبـــار

وقد جاء في قصيدة له عنوانها «بوليس بغداد»، وهي إحدى «منظومات السجن»:

أدِرهـــا علينـــا بالكبـــير فإننـــا ... كبـــار ومـــن شـــأن الصـــغار صـــغيرها

مـــتى يهـــدر الإبريـــق عنـــد انســـكابها ... علينـــا يـــزدنا مـــن هواهـــا هـــديرها

وفي هذه القصائد من التجريد، ومن القول الصريح الشديد، ما يجيز المقابلة بينها وبين «منظومات المستشفى» للشاعر الإنكليزي الذي ذكرت:

إلى أن وردنا الســـجن والســـجن ضـــيق ... وقاعتـــه محـــدودبات صـــخورها

يشـــم حـــديث العهـــد منهـــا نتانـــة ... يزيـــد إذا اشـــتد الهجـــير ظهورهـــا

وفي الصـــبح ســـاقونا إلى مـــتحكم ... بأحكامـــه غـــر حكـــاه غريرهـــا

وعاقبنـــا كـــلًّا بعشـــرين جلـــدة ... فجـــيء بأســـواط دقـــاق ســـيورها

في آداب الإفرنج وفنونهم طرائق شتى تشمل أغراض الحياة وطبائع الناس كلها؛ منها ما يدعى الواقعية، وهي طريقة مَن يلتزم فيما يصف أو يفصح عنه الحقيقة المجردة، دون مبالغة ودون تنميق. وقد يجوز إهمال بعض أجزاء فيها حشمة ولياقة، فلا يتقزز القارئ ولا ترتعد فرائصه. وهناك طريقة أخرى نشأت بعدها لتسد فراغًا مزعومًا، فجاء أصحابها وفي مقدمتهم إميل زولا بكل ما هناك من هول الحقائق الواقعة ومرعبات الوجود، وفي شعر الدجيلي شيء من الطريقتين:

يا لـــك مـــن آمـــرة ناهيـــة ... أحكامهـــا نافـــذة ماضـــية

جامعـــــــة الأضـــــــداد شــــــيطانة إلهـــــــة رشــــــــيدة غاويـــــــة
قاســــــية رفيعـــــــة الحاشــــــية ســــــافلة عاليـــــــة راقيـــــــة
خبيثـــــــة شــــــريرة باغيـــــــة طيبـــــــة طـــــــاهرة زاكيـــــــة
يـــدفعها النفـــع علـــى حـــب مـــن ينفعهــــــا ولـــــو إلى الهاويـــــــة

ليست المرأة من يصف، بل هي ... النفس التي حيرت أفكار أرباب النهى السامية. وقد قال فيها ما لا يخرج عن الحقيقة، فكان في هجوه صادقًا ولكنه جائر. والجور من شيمة الـ «نيتشيين»، وقد قال في عبادة الناس لله:

عبـــــد النـــــاس إلهًـــــا مـــــــا رأوه ورآهـــــــم
طمعًـــــا فيــــــه وخوفًـــــا منــــه هــــل يخفــــى هـــواهم؟

بل قال أكثر من ذلك ولم يستثنِ حتى نفسه أو يتناسها:

أرى حيــــاة الـــورى جهـــادًا في معـــــرك دائـــــم النضـــــال
يخـــدع فيـــه الفـــتى أخـــاه والخـــدع قـــد جـــاز في القتـــال
كـــل امـــرئ ناصـــب حبـــالًا حـــتى أنا ناصـــب حبـــالي

إن أدب الشاعر الحقيقي وإن أفقره ليقيه من حبائل مثل هذه الحياة، وإن علم العالم وأخلاقه لَيرفعانه عليها فيسلك مسلكًا يغاير ما يسجله على نفسه. هذا – لعمري – فضل الأدب والعلم حتى فيمَن كانت عقيدتهم بالحياة مادية دهرية. والشيخ كاظم الدجيلي بعيد عن التعصب العلمي بُعده عن التعصب الديني. سألني مرة رأيي في الأرواح واستحضارها فقلت: لا أصدق ولا أنفي. يهمني درس الموضوع ولا يلذ لي التشيع. فقال: وأنا من رأيك. الحياة أضداد. وقد تتخذ الأرواح لها جسمًا من الكهرباء في الفضاء. وقد تكون الكهرباء البحر الذي تعيش فيه الأرواح بعد الموت كما يعيش السمك في الماء، بل قد تكون هي مصدر الكهرباء وكنهها فيمتزج بعضها بعد الانفصال عن المادة في الفيض العام، وبعضها تظل مدة على كونيتها الأرضية فتزورنا إذا رغبنا بزيارتها وتبلبل أفكارنا.

إن هذا مثال من عقلية الرجل العلمية. أما عقليته الوطنية فالحدة تغلب فيها، بل هي غالبًا في حالة الاضطرام. أذكر يوم كنا في كربلاء أنه تكلم في مجلس غص برجال الشيعة إخوانه، وكانت الصراحة تسابق التسخط في حديثه، فأشفقت عليه من نقمة المتعصبين. سمعته يمدح الأمة الإنكليزية لما فيها من علم وقوة ونظام، ثم صاح بهم قائلًا: أين العلم وأين القوة وأين النظام عندنا؟ أفي حكوماتنا العربية والعصر الماضي الذي تسمونه مجيدًا إنما كان عصر السفاحين؟ أفي مدارسنا وقد عشش الفساد حتى في الكتاتيب؟ أفي بيوتنا وقد تراكمت في زواياها وفي صحونها أوساخ التقاليد وعفونة العادات القديمة؟ أفي ديننا وقد حلت الخرافات

والقداسات المزعومة محل اليقين والعمل المفيد؟

هو ذا الدجيلي يقرع أبناء قومه، أبناء مذهبه، فلا عجب إذا أفتى المجتهدون غير مرة بتكفيره.

مجيد الشاوي

ها قد عرَّفتك أيها القارئ العزيز إلى ثلاثة ممن يكفِّرونهم في العراق. إليك الآن بسجل الكفرة كله. إن الرابع في السجل الكريم عربي تجاوز العقد الخامس من العمر ولا يزال فتيًّا ... فتيًّا برأيه، فتيًّا بلهجته، فتيًا بروحه وبواجب راحه. قد شغل هذا العربي مناصب متعددة في الحكومة، وما خرج من واحد منها آسفًا. هو من أولئك الموظفين القليل عددهم الذين يعطون المنصب أضعاف ما يأخذون؛ فيخلصون الخدمة، يعدلون ويصلحون، ولا يكون جزاؤهم غير جزاء من لا يعدل ولا يصلح. يبذلون من قواهم ومواهبهم خيرها، ويخرجون من دار الحكومة والفقر يشيعهم إلى البيت. على أن النزاهة ترافقهم أيضًا وتلزمهم دائمًا فتعزيهم بعض التعزية.

إن الرابع ممن أخص هذا الفصل بذكرهم هو عبد المجيد الشاوي، الشيخ عبد المجيد، الذي يشبه السياسي الإفرنسي كليمنصو، ليس فقط في وجهه، بل في ذكائه المتأجج وسلوكه البسيط الشاذ. وقد تكون صورة الأسد في وجه الشيخ عبد المجيد أظهر من صورة النمر، إلا أنه في صوته لا يهدر ولا يزمجر.

كنا في بهو الانتظار ننتظر الأمر لنصعد إلى بهو الاستقبال، فنسلم على جلالة الملك فيصل، نشترك بالواجب الآخر الذي دعينا له. وكان في المدعوين للمأدبة من الإنكليز العسكريين والمدنيين من جاءوا في أثوابهم الرسمية ونياشينهم تتلألأ على صدورهم، ومن جاءوا يلبسون الأسود القاتم وقد صقلته المكواة وعززت أطرافه وحروفه، ولم يكن بين الوطنيين الذين ارتدوا كذلك الأسود المصقول، والأبيض الناصح المكوي طوعًا للأمر الملكي المطبوع بماء الذهب على رقاع الدعوة، غير واحد لم يكلف نفسه الطاعة وما تستوجبه مثل هذه الرسميات. جاء في ثوبه الإفرنجي اليومي وقد أكسبه الزمان لمعة في حناياه، وهو يلبس قميصًا — أستغفر الله إذا العين أخطأت أو الذاكرة — لا تعرف النشاء حتى ولا المكواة؛ هو عبد المجيد الشاوي، شيخ المعريّين في بغداد.

كان أول اجتماعي به تلك الليلة فاتحة الحب والإعجاب، لم يزرني في الفندق، ولم يسعَ إليَّ في مكان آخر مثل غيره من الإخوان، ولكنه قال عندما تصافحنا: نحن أبناء عم وليس بيننا واجب المجاملة واللياقة. فلم أفقه مراده ولم أتظاهر بغير ذلك. فقال: أنت ابن المعري وأنا ابن الخيام، والاثنان إخوة، ليس في الأنساب أشرف من هذا النسب. أهنئك وأهنئ نفسي.

وإذا انتسبت وقلت: إني واحد   من خلقه فكفى بذاك تنسبا

أراد المعري بقوله: من خلق الله. ونحن فكرًا ومبدأ من خلق المعري.

فقال أحد الحضور: ولكن المعري كان متقشفًا إلى حد النسك.

فأجاب الشيخ مجيد على الفور: لزوم ما لا يلزم. ونحن كذلك نتقشف إلى حد الاضطرار.

فقال آخر: والمعري يذم بنت الحان.

فأجاب الشيخ الذي أمسى نقطة الدائرة: والخيام يمدحها، وهي تستحق الاثنين. الذي ينقص المعري يكمله الخيام. هما خير الرسل، رسولان صادقان كريمان سويان ... فبأي آلاء ربكما تكذبان؟

وقد برهن الشيخ عبد المجيد تلك الليلة على أنه من أتباع الاثنين الصادقَين. رأيته إلى المائدة يحسو من المشعشة الذهبية الكأس تلو الكأس، وسمعته يردد من اللزوميات، وهو يميل إلى جاره السيد أفنان:

رويـــدك قـــد غـــررت وأنـــت حـــر ... بصـــاحب حيلـــة يعـــظ النســـاء

يحـــرم فـــيكم الصـــهباء صـــبحًا ... ويشـــربها علـــى عمـــد مســـاء

يقـــول لكـــم: غـــدوت بـــلا كســـاء ... وفي لـــــذاتها رهـــــن الكســــاء

ثم رفع الكأس ولم يبقِ فيها غير النزر فشرب وقال:

وقـــد شـــرب الـــدهر صـــفو الأنام ... فلـــم يبـــقَ في الأرض إلا العكـــر

ليس الشيخ عبد المجيد[1] من أصحاب القوافي إلا أن تكون لغيره، وكأني به لا يضيع وقته في النظم وعنده اللزوميات يستعين بها على الزمان وأضاليله، ولا هو ممن يسوِّدون الأوراق ويبيضون مع أنه غزير المادة، صافي الذهن، سريع الخاطر، لا يكبو يراعه إذا راح عاديًا في مضمار الإنشاء، ولكنه مثل سقراط يفضل الكلمة المقولة على الكلمة المكتوبة. هو عبد المجيد كتاب لنفسه، يقرأ منه في المجالس، ويعيد كلماته ويمكِّنها حسبما تقتضي الحاجة. لا يداري، ولا يحابي، ولا يتهيب أحدًا. هو في صراحته مثل الدجيلي والرصافي، ولكنه في سرعة خاطره ونكتته وميله إلى الأحماض أشبه بالنقيب السيد عبد الرحمن.

كنا يومًا في مجلس ابن النقيب السيد محمود، فدار الحديث على حروب النبي مُحَمَّد، وما كان يظهر فيها من حنان صاحب النبوءة وحلمه. فقال الشيخ مجيد: حنان الذئب على الشاة! وأين الحنان وأين الحلم – رعاك الله – في تحليله الرق وإباحة النساء لرجاله؟ كانت حروبه مثل حروب تلك الأيام، ولا تختلف عنها إلا بالدعوة ... وما ذنب النساء في الحروب؟

فأجاب السيد محمود بأن النبي ﷺ أراد بالنساء خيرًا حينما كان يجيز سبيهن واسترقاقهن؛ لأنه إذا دخلت جنود الإسلام بلدًا فمن باب الشفقة على النساء يأخذ كل محارب قسمته منهن فيعولهن ويحميهن.

فقال الشيخ عبد المجيد: هذا من باب الاجتهاد. ما أظن في النساء قديمًا وحديثًا مَن ترضى أن تكون

[1] رحمه الله! جيء به مريضًا إلى بيروت في صيف عام ١٩٢٧ فما أفاده تغيير الهواء، ولا نجع فيه العلاج والدواء.

عبدة أسيرة خوفًا من أن تموت وهي حرة من الجوع. دفاعك مثل دفاع الذئب عن الشاة عندما وثب عليها ليحميها من الضبع ... لا نزال متأخرين، متأخرين جدًّا يا سيد محمود، إذا كنا نرى شيئًا من الحق في مثل هذا الدفاع عن مساوئ أجدادنا وفظائعهم ... الغريب في أمرنا نحن المسلمين أننا لا نتقدم إلا إذا رجعنا ألف سنة إلى الوراء، لا نرتقي حقًّا إلا إذا رجعنا إلى أبي العلاء المعري، فننبذ الأضاليل كلها وننبذ المتنطعين من علمائنا الذين يبثون الأضاليل ويثبتونها في الناس:

تكذب العقل في تصديق كاذبهم ... والعقل أولى بإكرام وتصديق

وقد قال أيضًا المعري، ونعم القول:

ولا تطيعن قومًا ما ديانتهم ... إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إن الشرائع ألقت بيننا إحنًا ... وأودعتنا أفانين العداوات

نعم، وفي قلوبنا منها السم، وفي عقولنا العفونة. يضحكني ويبكيني صياح شعرائنا وخطبائنا؛ يهددون الغرب بنهضة الشرق. ولعمري يجب أن ينهض الشرق على نفسه، قبل أن ينهض على الغرب ومدنيته. ولا نتقدم نحن المسلمين إلا إذا عدنا ألف سنة إلى الوراء ... إلى المعري أبي العلاء[١].

ابن خلكان والعراق

وفي العراق من الأدباء كثيرون من هم شغفون بالحرية وبروح الأدب الجديد، ولكن هذا الفصل يضيق دون ذكرهم، وهذا الكتاب، «ملوك العرب» لا يسمح بفصل آخر أخصه بهم، إلا أني أفسح لكبيرهم عملًا لا سنًّا، فنقف – ولا كرسي آخر للجلوس بين من ذكرت.

هو ذا دائرة معارف أدباء العراق وابن خلكانهم، صديقهم الأكبر، حامل لوائهم، وناشر آثارهم، روفائيل بطي. وهو منهم في الصف الأول؛ فقد حمله حب الآداب العصرية على تأليف كتاب «الأدب العصري في العراق العربي»، هو عمل أدبي كبير جدير بالبطي المعروف بنشاطه وإخلاصه، وبذوقه وغزارة علمه؛ لذلك سميته دائرة معارف أدباء العراق وابن خلكانهم.

ولروفائيل أسلوب في الإنشاء سهل منسجم جلي، لا تكلف فيه ولا إغراب، وله في معالجة المواضيع مزية مستحبة، هي أنه يقف عند حد بين الإسهاب والاقتضاب، فلا يطولها على نفسه فيمل، ولا يقصرها على القارئ فيضل.

---

[١] ما أصدقها كلمة، وما أبلغها، وما أجدرها بالنقل والترداد! خذوها عن الشيخ مجيد واسترحموا له الله. إنها لمن الحكم التي تضمن الخلود لأصحابها: فكم من شاعر وكم من أديب تغلب على النسيان والفناء بكلمة بليغة ذهبت مثلًا أو ببيت من الشعر تغنت به الركبان.

هاك مثالًا من الكتاب الذي أشرت إليه:

قال في الزهاوي:

نشأ الزهاوي في بيئة تصوَّحت أزاهير الأدب فيها بعد الازدهار، ودرست معالم العلم بعد أن ناطحت بعلوها الفضاء، فراعه الجمود الهائل المستولي على المفهوم والأقلام، واستنكر الطريقة البالية التي يتبعها النظامون مقلدين غير مبتكرين ... فلم تأنس روحه الناهضة هذه الخطة، وعز على عقله المتوقد ذكاء أن يبقى مصفدًا بأغلال تقليدية.

وقال في الرصافي:

هو أول شاعر جاء قومه العرب بما يحبون وصارحهم بما لا يحبون. لم يعرف للتقليد أو الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا أفكاره، كان من شعره صيحات عملت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي، كما أنه ما لبث بعد تحية الدستور العثماني، واستبشاره به أن رجع ينعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم من الرجعة.

وقال في الدجيلي:

لو كان للعلم والأدب قيمة في هذه الديار لكان للشيخ كاظم الدجيلي مجال واسع لإظهار مواهبه وجلده على البحث، ولو كان لحرية الفكر حرمة في هذا القطر لرنت حقائق الدجيلي في شعره رنة تحدثت بها المجالس.

إن روفائيل أيضًا من الشعراء العاملين في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير، وسيكفرونه – ولا شك – تكفيرًا مضاعفًا؛ لأنه يسيء إلى أصحاب العقائد والآداب العتيقة إساءتين في الفكر وفي الطريقة. أجل، هو من أنصار الشعر المنثور، وقد قال قصيدة له عنوانها «النابغة»:

وجدتني في مجاهل أرض كل ما فيها يثير الدهش والذهول.
ورأيت نفسي مكبلًا بسلاسل التقليد، سجينًا في قفص
الأوهام، أسير عادات، ورهين أوصاب.
حطمت السلاسل، وكسرت القيود، وقوضت جدران الوهم،
وانعتقت مما درج عليه أجدادي،
فصاح إخواني وضجوا، وأعولوا وبكوا.
رأوني خارجًا من سجنهم أتمتع بحرية هم منها محرومون.
شاهدوني أرفل بصحة وسلامة، وهم في آلامهم يتعذبون.
أولئك الذين يتخذون من جهل الشعب علمهم، ومن ضعفه قوتهم.

(١٥) حجر الزاوية

ليس بالشعراء والأدباء يُستدل على ترقي الأمة، ولا بالسياسيين والصحفيين تُسير العقلية المدنية فيها؛ فقد تمتاز أمة بتعدد شعرائها وأدبائها ولا تمتاز بوطنيتها، وقد يدير المحنكون من السياسيين شئونها ولا يعززونها، وقد يقود الصحفيون الرأي العام وليس فيه روح مدنية ترفع البلاد المفككة الأوصال إلى أمة صحيحة سالمة موحدة المقاصد، موثقة العرى.

لم يبق إذن غير المدارس العامة نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة، بل هي سياج الوطن وفيها عز الملك وشرف الأمة.

ولكنها لا تكون كذلك، لا تفلح في التكوين، إلا إذا كانت البوتقة واحدة لا تتغير بتغير المكان والمذهب واللغة، إن بلادًا تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ولغاتها، لا يتكون منها وطن عزيز الجانب، رفيع الشأن، مهما كان سلطانها، مهما كان جيشها، مهما كانت ثروتها، إلا إذا قامت فيها مدارس عامة، مجانية، لا مذهبية، تتمشى كلها على برنامج واحد، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة هي لغة البلاد الأصلية.

ماذا في العراق من هذه المدارس اليوم؟ استشرت بأول حفلة دعيت للخطابة فيها وكانت في دار المعلمين. فاجتمعت هناك بوزير المعارف يومئذ السيد هبة الدين الشهرستاني ومستشاره الإنكليزي والمدير الأستاذ ساطع الحصري، وبزهاء مائتين من المدرسين في المدارس الابتدائية، وفيهم نفر من السوريين والمصريين. كانت الحفلة عامرة بالخطباء والشعراء، وكان الحديث بعد الحفلة موضوع المدارس والتدريس، فنم عن أشياء نثبتها بعدئذ من مصادر شتى، وهي مما يستوجب الأسف.

لقد ارتكب الإنكليز في العراق أغلاطًا هم أنفسهم يعترفون بها أو ببعضها. فمنها ما كانوا فيه مسيرين، ومنها ما كانوا فيه متعمدين، وهم لا يعتبرون هذه من الأغلاط. مثال ذلك: التعليم الابتدائي.

عندما دخل الإنكليز العراق كانت الطريقة في التعليم تركية؛ أي إن الدولة أجازت إنشاء المدارس الأجنبية الطائفية، وكانت تخصها بشيء من المساعدة المالية، وفي هذه المدارس كان يتعلم التلاميذ دينهم ولغتهم أولًا، ثم مما لا يضر بالروح الطائفية العنصرية من العلوم. لا يخفى ما في هذه الطريقة من عوامل التفريق وأسباب الشقاق، وإذا خفي على الشرقيين فلا يخفى على الإنكليز الذين تمشوا مع ذلك في التعليم العام على طريقة الأتراك. وهذا ما يؤسَف له جدًّا، كأنهم أرادوا أن يثبتوا الأمة في طائفياتها وتقسيمها، ومع أن في العراق من ينصرون الطريقة الحديثة المجردة من المذهبية، ويطالبون ببرنامج واحد في التعليم وبلغة واحدة، والأستاذ الحصري في مقدمة هؤلاء المصلحين، فحكومة الانتداب لا تقبل بذلك. وما عذرها غير عذر الخائف من تسليح خصمه فيخرج عليه متحد القوى.

أما قول الإنكليز أن أهل العراق غير مستعدين اليوم لبرنامج يوحد التعليم العام، وأن الحكومة لا توحد

اللغة في الأقل فتجعل العربية لغة التدريس في الموصل وفي كركوك مثلها في بغداد والبصرة، فهو قول يحتاج إلى برهان. لم تقدم الحكومة على هذا العمل ولا الإنكليز أذنوا به. قد كان في إمكانهم أن يقوموا في البداءة بنصف الإصلاح فقط، فتمنع الحكومة عن المدارس الخاصة – الطائفية – المساعدة المالية وتقدم هذا المال، الذي لا يزال يبذل في سبيل التفريق، لوزارة المعارف، وهي أحوج إليه لسد نفقات مدارس الحكومة الابتدائية.

إن هذه المدارس تزداد عددًا كل سنة فتضاعف لدى وزارة المعارف الصعوبات في إدارتها. والحقيقة هي إقبال الأمة العراقية على العلم أكثر من اهتمام الحكومة في تخصيص النفقات وتسهيل الأسباب. وقد يكون بعض التبعة عليها؛ أي على الأمة. إن عدد التلاميذ تضاعف في السنتين الأخيرتين، صعد من ثمانية آلاف إلى سبعة عشر ألفًا. وإن عدد المدرسين لم يزدد أكثر من ثلاثين بالمائة، ولم يتخرج من دار المعلمين في السنة الأخيرة غير خمسة وعشرين مدرسًا. فما السبب في ذلك؟ هناك أسباب أولها الميزانية وآخرها الوطنية العراقية. وإليك البيان والبرهان:

ليس في العراق ما يكفي من المعلمين العراقيين لسد الحاجة في ازدياد عدد الصفوف والمدارس، ولم تكن في ذلك النفر منهم تلك الجدارة التي يتطلبها التعليم الحديث، حتى وإن كانت الجدارة فدار المعلمين لا تكفي لتخريج العدد اللازم كل سنة. إن خير ما يعملون في حل هذا المشكل هو أن يستعينوا بمعلمين من سوريا أو من مصر، ولكن الوطنية العراقية تحول دون ذلك.

هبْ أنها وطنية صحيحة، أفيستغني العراق اليوم عن المساعدة الأجنبية؟ هذا إذا عددنا سوريا من أوروبا، ولكن القطرين شقيقان لغة، وقومية، وروحًا، ومذهبًا. فحبذا وطنية في التعليم أعلى من الوطنية في السياسة! حبذا وطنية مثل التي في مديرية المعارف! إن الأستاذ أبا خلدون ساطع الحصري لمن الأخصائيين في علم التدريس الذي مارسه مدة في أماكن مختلفة وحكومات عديدة، وما هو بسوري ولا بعراقي، هو عربي لا غبار على عربيته غير لهجتها؛ ذلك لأنه، وإن كان ولد في صنعاء اليمن، فقد أقام مدة في الآستانة يخدم الأمة التركية، ثم تجرَّد لخدمة العرب عندما دخلوا الشام، فكان وزير المعارف في الحكومة الفيصلية، ثم سافر مع من سافر إلى بغداد من رجال النهضة وهو لا يزال في وزارة المعارف يدير أهم شئونها.

والأستاذ أبو خلدون من أولئك القلائل الذين حرروا أنفسهم وبيوتهم من قيود التقاليد الاجتماعية. أظن مجلسه هو الوحيد في بغداد الذي تستقبل فيه ربة البيت الزائرين سافرة وتشاركهم في الأحاديث.

أول مرة زرت الأستاذ وحرمه الفاضلة المهذبة اجتمعت في بيتهما بعدد من المعلمين السوريين، الذين يعلِّمون في المدارس الابتدائية، وأكثرهم من خريجي الجامعة الأميركية ببيروت. وكانت وزارة المعارف يومئذ هدفًا لانتقاد فريق من الناس شقَّ عليهم أن يروا بعض التفضيل في معاملة المعلمين السوريين، فقاموا يحتجون

على وجود معلمين أجانب في سلك المعلمين. ظننت لشدة الاحتجاج أن أكثرهم من الأجانب، فسألت الأستاذ الحصري فقال: عدد المدرسين اليوم سبعمائة، وعدد غير العراقيين منهم خمسة وعشرون.

ثم قالت حرمه باللغة الإنكليزية: لو كان في العراق دار معلمين ثانية! ولكن من أين المال؟ الإنكليز لا يساعدون، والعراقيون لا يستطيعون. وهم يظنون أن دار المعلمين تعطيهم المعلمين بالمئات. ليست دار المعلمين مثل معمل الشوكولاتة يعمل مائة صندوق كل يوم ... ومن هم الأجانب بين المدرسين؟ نشكر الله ليسوا بأتراك. تأمل يا مستر ريحاني (كانت تكلمني بالإنكليزية؛ لأنني لا أحسن التركية) إنهم ينظرون إلى السوري وإلى المصري نظرهم إلى الأجانب، وليس في السلك كله أكثر من ثلاثة بالمائة. عندنا عشرة معلمين سوريين وستة مصريين وتسعة إنكليز، خمسة وعشرون معلمًا أجنبيًّا، إذا دعوناهم كذلك، بين سبعمائة معلم من العراق.

اثنان ونصف في المائة كان يجب أن تكون عشرين. إن في نفورنا من الأجانب الأوروبيين شيئًا من التعصب في بعض الأحايين، فكيف به إذا كان يشمل من ليس من قطرنا من البلاد العربية! الأجانب السوريون، الأجانب المصريون، الأجانب الأوروبيون. إن هذه العصبية لشبيهة بالمذهبية. والويل لنا إذا كانت تحل محل الوطنية العربية والقومية العامة، ما السوري؛ خصوصًا في دوائر التعليم التي هي غير دوائر السياسة، إلا عربيًّا يساعد في تهذيب ناشئة عربية أينما كانت، في العراق أو في الكويت أو في الحجاز. إني إذا لمت الإنكليز لاتخاذهم في التعليم طريقة الأتراك، ألوم العراقيين أشد اللوم في تضييقهم نطاق الوطنية إلى حد العصبية المذهبية، أو بالحري القُطرية، فعدوا السوريين والمصريين من الأجانب.

ليست دار المعلمين بمعمل شوكولاتة كما قالت حرم الأستاذ أبي خلدون، وليس المدرس من يحسن العلوم التي يدرسها فقط، كما أوضح الأستاذ في كتابه[1]. أما وزارة المعارف في مثل هذه الحال؛ أي بين عجزين في المال والرجال، فهي تضطر أحيانًا أن تعين من ليس فيهم الجدارة ليسدوا بعض النقص في المدرسين. وكثيرًا ما يؤدي ازدياد عدد التلامذة بالنسبة إلى عدد المعلمين إلى الجمع بين صفين أثناء التدريس، فيخسر في هذا الجمع تلاميذ الصفين. أفلا يجدر بالحكومة العراقية أن تستعين بجارتها، بسوريا أو بمصر، لتتلافى النقص والخلل؟

من يسكن في المدن الحديثة يألف نظره الإعلانات في الشوارع فيراها ولا يقرأها، كأنها جزء من الحائط أو نقش على العمود الملتصقة به، وتمسي عمد الأسلاك البرقية وعمد المصابيح مثل الأشجار لدى الفلاح يصطدم بها، فيظنها حجرًا في طريقه فيسب بقرته أو حماره ولا يسب الشجرة، كذلك كنت في بغداد وهي

[1] دروس في أصول التدريس.

في عمد مصابيحها، وفي جدران شارعها الأوحد[1]، أشبه بمدينة أميركية يجبهك الإعلان فيها كيفما سرت، وكيفما نظرت، ولكني ما سببت بقرتي ولا حماري، بل كنت أمشي في ذاك الشارع «الجديد» كأني في الدهناء، أنظر إلى الأرض تارة وطوراً إلى السماء، فتقاضتني الأقدار يومًا ثمن هذه المكابرة. نعم، نطحت عمودًا من حديد، فاضطررت أن أقف هنيهة ليعود إليَّ صفاء نظري، فقرأت كرهًا الإعلان الملصق به:

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

فقلت: والحمد لله! هو ذا في الشرق شيء جديد ... إعلان للعلم! بل أخذتني نارية صديقي الزهاوي فصحت مبتهجًا: أيها الغرب! تعالَ انظر ما في الشرق من جديد مفيد. أيها الغرب! هو ذا إعلان يستحيل وجوده في بلادك؛ ليس لأنه غير لازم، بل لأنه لا يُستثمر مباشرة وليس من يقوم بنفقاته.

قرأت الإعلان ثم قرأته معجبًا به مبتهجًا، وصرت بعد ذلك أمشي وناظري لسببين على العمود. تباركت اليد الطابعة، واليد الناشرة، واليد الدافعة المال. وهذا إعلان آخر: اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. وهاك آية أخرى من آيات النور: لا حياة بغير العلم. وهو ذا إعلان للأمة جمعاء: العلم أساس العمران. وإليك على الحائط قاعدة النجاح والسعادة: تهذب وابتغِ ما شئت. والأعجب من ذلك كله هو عند باب الـ «سينما» على اللوحة التي تعلن الرواية الأخيرة. هنا تقرأ الإنذار الأخير: بالعلم تحيا وبالجهل تموت!

استطلعت خبر هذه الإعلانات فعلمت أن الحكومة بريئة منها، وأن المحسنين الأغنياء أو الأغنياء غير المحسنين لم يسمعوا بها. إن في بغداد جمعية ثقافية إصلاحية اسمها «المعهد العلمي»، هي مخترع إعلانات العلم، وهي طابعها وناشرها على نفقتها مجانًا لوجه الله. أيها الغرب – العفو يا صديقي الزهاوي – هو ذا الشرق ناهضًا، وقد نبذ النظريات والخيالات والأوهام. هو ذا الشرق أيها الغرب يحتذيك ويفوقك في الغيرة المدنية. هو ذا أسلوب في الإصلاح عملي ... هو ذا مثال واحد من مظاهر النهضة الحقيقية في العراق.

سألت عن المعهد العلمي وسددت خطواتي إليه، فاجتمعت هناك بعميده الأول، وهو فيه القوة الدافعة المحركة المدبرة ثابت عبد النور. حدثت ثابتًا فأبهجني وأزعجني معًا. ألفيته شابًّا في العقد الثالث، له من الحسن ما كان ليوسف، وعنده من التسخط ما كان لأيوب. وهو مع ذلك سليم الجسم والعقل، براق العين والجبين، صافي الذهن والصوت، وطنه فوق مذهب أجداده، وشرفه أكبر من دينه. شاب رائع تبسم له الحياة بكل ما فيها من بوادر الأمل وبوارق السعد والمجد، وهو مع ذلك مثل أيوب، بل مثل «دون كيشوت» حاملًا رمحه على الدنيا، كئيبًا على الدوام.

حدثت ثابتًا فأزعجني، سمعته يشكو ويتسخط ويئن، كأنه اصطدم بعمود في جادة الحياة ولا يزال

[1] شارع الرشيد.

الشرر يتطاير من عينيه – لماذا خلق الله الإنكليز؟ لماذا خلق الخواتين؟ لماذا خلق السادة الأشراف؟ لماذا خلق المنافقين والخونة؟ وجاءني منه بعد أيام كتاب يدعوني لتناول الشاي في بيته – «فتجتمع بصفوة الناهضين أو بأنموذج منهم في الأقل بشبان وطنيين أثبتت التجارب صدق عزيمتهم وإخلاصهم، ومقتهم المنافقين وغيرهم من ذوي الألقاب الضخمة والأبهة الفارغة، الذي ما برحوا يسوقون الأمة من سيئ إلى أسوأ ... إلخ». فنسي ثابت –كما ترى – «صفوة الناهضين» الذين دعاني لأجتمع بهم في بيته.

هم إخوانه في المعهد وفي الجهاد، يسلكون في الإصلاح أوسع السبل وأطولها، سبيل العلم، «تعلم يا فتى فالجهل عار». وهو عميدهم المسئول عن الإعلانات في شوارع بغداد. إن في هذا المعهد عقولًا عاملة مخترعة فلا مسوغ فيه للنفوس المكتئبة. وقد كانت باكورة أعماله واختراعاته أنه أعاد إلى بغداد الجديدة القديمة إحدى المفاخر العربية؛ أقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين، وكانت أول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج، حضرها جلالة الملك فيصل فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون، وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله أحد الفتيان الأذكياء، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها إحدى الأوانس المسلمات سافرة.

فاز ثابت وزملاؤه في إقامة هذه السوق التي تقام بعناية المعهد كل سنة، وحاز فوق ذلك الجائزة الأولى في النثر. وهو مع ذلك يمشي في جادة الحياة الضيقة فيصطدم بالعمُد فيها. أحببت ثابتًا ورافقته مرارًا، وكنت كل مرة نصل إلى عمود في الشارع الجديد أقف أمامه وأتلو الآية فيضحك. العلم أساس العمران. ليس في ذلك ما يُضحك يا ثابت. إن أمركم كله جد، وإن من يخترع مثل هذه الإعلانات ويسعى في نشرها لمن أكبر الوطنيين، ويحق له أن يفتخر ويفرك يديه، بل يجب عليه أن يشكر الله الذي هداه سواء السبيل. سرِّ عنك ودع المنافقين ينافقون. إن لله في خلقه مقاصد لا يدركها الناس، والإنكليز وأصحاب الألقاب الضخمة من خلق الله.

نعم، وعظت ثابتًا، بيد أن الوعظ ليس من شأني، ولم أتأسف لذلك، بل سررت بالنتيجة. وكيف لا تظهر النتيجة الحسنة وصديقي من الأذكياء النجباء الحكماء. صار يمشي في الجادة الضيقة الواسعة دون أن يصطدم بالعمد، ثم جاءني ذات يوم يخبرني أنه متابع للعمل الذي باشره بالإعلانات. قد فتحنا في المعهد مدرسة ليلية لتعليم الأميين مجانًا، ثم بشَّرني بعد أسبوع بفتح مدرسة أخرى خارج المعهد.

سافرت إلى نجد وعدت بعد أربعة أشهر إلى بغداد، فاجتمعت بثابت عبد النور، ودهشت لتغير ظاهر فيه ... في حديثه، وفي وجهه، وفي خطواته. حدثته فما ذكر المنافقين. مشينا في الشارع فكانت خطواته أكثر سدادًا من خطواتي، فلم يصطدم ببشر أو بحيوان أو بشيء من الأشياء الأخرى الجامدة. سألته عن مشروعه فقال: نجاحًا باهرًا يا أستاذ، صار عندنا أربع مدارس في المدينة وهي لا تكفي. تعالَ الليلة ترَ

بعينك.

مشيت وثابت في الغسق، في جادات بغداد الضيقة، وهو ينيرها بأنوار آماله العالية وأعماله الناجحة، وسرنا إلى مدرسة من مدارس المعهد فدهشت إذ دخلت مما شاهدت وسمعت. في الغرفة الأولى التي دخلناها صف الأولاد وسنهم تراوح بين الخمس والخمس عشرة، وكلهم يشتغلون في النهار فيحرمون التعليم في مدارس الحكومة. هم من الطبقة الثالثة في الأمة، من الشعب، من العمال، وفيهم بياع الخبز، وبياع الليمون، وفيهم من يساعد أباه الحداد، أو عمه السنكري، وفيهم من يخدم ليتعلم صنعة من الصناعات، وفيهم الحوذي والبويجي وأجير الحلاق.

وقفت عند صغير الصف فوقف ويده على رأسه يجيب على سؤالي، أخبرني بحرية أنه يشتغل في أحد الأفران في النهار، وأنه لا يحب الشغل ولا يحب المدرسة. فقلت: ولماذا تشتغل؟ فقال: عندي أم وعندها قضيب. فقلت: ولماذا تجيء إلى المدرسة؟ فأجاب: أمي تقول: إذا تعلمت القراءة والكتابة أتخلص من الشغل في الفرن. وأخبرني آخر لا يتجاوز الست سنًّا بأنه جاء المدرسة من تلقاء نفسه مع رفاقه في الحي. وقد بان لي من مجمل الأجوبة أن للأم في هذه النهضة الشريفة فضلًا يذكر.

دخلنا الغرفة الثانية في المدرسة، فإذا فيها صف الشبان وبينهم الكهول. جالت عيني في الصف فوقفت عند الكبير فيه، وهو رجل معهم حسن البزة يناهز الخمسين. همَّ بالوقوف ليجيب على سؤالي – النظام على الكبير والصغير – فأشار المعلم تلطفًا أن يقبل رجائي ويظل جالسًا. أخبرني أنه تاجر في السوق يتاجر بالسجاد، وأنه – والحمد لله – ناجح في تجارته مع أنه قضى السنين فيها وهو أمي. ثم قال: ولكن الزمان تغير يا أفندي والرجل الذي لا يحسن الكتابة والقراءة في هذه الأيام يحتقره الناس. فعقَّب جاره على كلامه قائلًا: ويحتقره خصوصًا الأجانب. عار علينا ونحن نطلب الاستقلال ألَّا نُحسِن القراءة والكتابة. وقال آخر، أفصح الصباغ على يديه بصنعته، إنه سمع بهذه المدارس الليلية وكان دائمًا يتوق إلى تعلم القراءة والكتابة بشرط ألَّا يمنعه ذلك عن متابعة عمله في النهار؛ لأنه صاحب عيال وعليه رزقها. ومثله في صف الشباب والرجال كثيرون، فيهم الحداد والدباغ والساعاتي والطيان والبنَّاء والحلاق والفران، وكلهم يؤمون المدرسة الليلية راغبين بجني ثمارها، شاكرين القائمين بها.

قطعنا الجسر لنزور مدرسة أخرى في الكرخ، فعندما وصلتُ إليها رأيت عند الباب جمهورًا من الأولاد والشبان يتسابقون ويتزاحمون كأنهم داخلون إلى «السينما» لا إلى مدرسة ألفباء. ها هي ذي أمة جُنَّت بالعلم. أخبرني مدير المدرسة بأن عندهم ثلاث غرف فقط للتدريس، وفي كل غرفة من الخمسة والسبعين إلى المائة طالب من الأولاد والشبان والرجال، وأنه لو كان عندهم ثلاث غرف أخرى لامتلأت كلها بليلة واحدة.

هنَّأت صديقي وزملاءه جماعة المعهد العلمي بنجاح مشروعهم هذا النجاح المدهش. ومما هو جدير بالذكر أنهم لا يقتصرون في تعليم الأميين على الكتابة والقراءة وبعض مبادئ العلوم[1]، فقد وضعوا لمشروعهم نظامًا أقتطف منه ما يلي:

قد رأى مجلس المعهد العلمي في بغداد أنه لا يتمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية إذا لم تستنر الأكثرية بنور العلم الصحيح، وتتلقن مبادئ الأخلاق الراقية ... ولهذا، فإنه عزم على مكافحة داء الأمية في بلاد العراق ... فوضع نظامًا لهذا المشروع العلمي وقرر إذاعته مع المبادئ الاجتماعية الآتية:

- حب الوطن من الإيمان.
- حب النظافة من الإيمان.
- طلب العلم من المهد إلى اللحد.
- مقت الكذب واحتقار الكاذبين.
- حب الخير وعمله.

ويجب على مدير المدرسة أن يلقن الطالب قبل كل شيء هذه المبادئ الخمسة الأساسية. مدارس ليلية تعلم الأميين أبناء الشعب الألفباء وحب الوطن والنظافة والصدق ... هو ذا حجر الزاوية في الرقي الحقيقي الثابت، هو ذا الأساس الأمتن في بناء الأمة الجديد، بناء الوطنية الصادقة، القائمة على العلم والتهذيب، المنيرة سبيل الاستقلال التام، هو ذا حجر الزاوية، وهو من صنع العراق.

إنه – وايم الله – لأجمل وأحب ما شاهدت من مظاهر نهضة العرب في الأقطار العربية كلها. مشروع تعليم بدأ بثلاثين طالبًا في غرفة صغيرة من المعهد العلمي، فعم في سنة واحدة مدن العراق الكبيرة كلها من البصرة إلى الموصل، وإن عدد الطلاب الأميين الذين يداومون ويتعلمون ليلًا مجانًا يتجاوز اليوم الخمسة آلاف، وقد يصل إلى العشرة آلاف غدًا بفضل إدارة المعهد المنظمة وأساليبه المبتكرة في التشويق، وفي جمع ما يقتضيه المشروع من المال؛ فقد قررت بلديات المدن التي فيها مدارس أن تشترك في نفقاتها.

وهناك عدد من المؤازرين المتبرعين، وفي مقدمتهم جلالة الملك فيصل، الذي يعطف على المعهد ومشروعه عطف المؤسسين، ويخصه سنويًّا بمبلغ من المال. أجل، قد اهتم جلالته اهتمامًا خاصًّا بمشروع تعليم الأميين، وزار متنكرًا المدارس الليلية فشاهد بعينه مظاهر الفلاح. وحبذا التنكر في غير سبيل اللهو

---

[1] الدروس مقسومة إلى دورات، فيتعلم الطالب:

– في الدورة الأولى: قراءة، إملاء، حساب، مبادئ معلومات أرضية، مبادئ معلومات مدنية.

– وفي الدورة الثانية: قراءة، إملاء، حساب، جغرافية، تاريخ، مبادئ الصرف والنحو، معلومات مدنية.

– وفي الدورة الثالثة: قراءة، إملاء، إنشاء، حساب، تاريخ، جغرافية، صرف ونحو، معلومات مدنية، مبادئ هندسية.

والسرور! حبذا بغداد الجديدة وقد جُنَّت بالعلم، ورشيدها الجديد ينشطها ويساعدها، فيطوف ليلًا كأحد عامة الناس لا ليحدث الصياد، ويضحك من العباد، بل ليقف أمام اللوح الأسود، الذي سيبيضُّ منه وجه الأمة، فيستطلع خبر المتهافتين عليه من رعيته.

والحق يقال: إن جلالة الملك فيصل، مهما كان من شأنه في السياسة والزعامة، لمن أكبر ملوك العرب غيرة على الثقافة، وله في بث روح العلم والعرفان، وفي تشجيع الأدب والمشاريع التهذيبية في الأمة، الفضل الذي سيجعل عهده – ولا شك – ذهبيًّا مجيدًا.

وإني أتمنى أن يكون في كل قطر من الأقطار العربية مشروع مثل مشروع المعهد العلمي وأمير مثل فيصل الأول يعضد المشروع، فيُقضى بعد ذلك على الأمية والجهل في البلاد كلها.

الخاتمة

عود إلى الوَحْدة العربية

إذا كنتَ تصفَّحتَ هذا الكتاب أيها القارئ وما جاء فيه من المباحث السياسية تجد من نفسك ميلًا مقرونًا بالعلم الذي لا يَشُوبه شائبُ الغرض والتحزُّب لتتبع هذه المباحث.

قلت في الفاتحة إن شرقي الأردن هي جزء من الحجاز، والحجاز جزء من تهامة التي تمتد جنوبًا إلى المخا، والمخا من اليمن، واليمن هو الأصل الذي تتفرَّع منه نجران وعسير سهولًا وحزونًا. هو ذا شطر من أساس الوَحْدة العربية لو كان للجغرافية السيادة على السياسة، أو لو كان للدين نفوذٌ في تلطيفِ مطامعِ الأمراء، أو لو كان للقومية العربية سطوةٌ في القلوب حقيقيةٌ تَسُوقها إلى محجة واحدة.

إن المذهب الديني في شبه الجزيرة لا يزال متغلبًا على الدِّين، وهناك مذهبان قويان عصبيةً وسياسيةً لا يقبلهما السُّنيون؛ هما الوهابية في نجد، والزيدية في اليمن. ومن عقبات القضية أن حاكِمَي البلدين، السلطان عبد العزيز والإمام يحيى يحكمان حكمًا مذهبيًّا، هما مليكان بفضل المذهب وباسمه، ويصح أن أقول أيضًا: ومن أجله. هما من أعظم ملوك العرب قوةً واقتدارًا.

فلو فرضنا أن أكثر الأقطار العربية دانَتْ لابن سعود فيظلُّ القُطْر اليماني عاصيًا خارجًا محاربًا، ولو فرضنا أن الإمام يحيى اكتسح الأقطارَ الغربية والجنوبية كلها فبسطَ سيادتَه من حضرموت إلى الطائف، ومن نجران إلى جيزان، وتقدَّم طالبًا تحقيقَ الوَحْدة كلها، فإنه لَيجدُ في نجد سدًّا لمَطامِعه عاليًا منيعًا.

هذا هو الداء الأول ومكروبه المذهبية، فهل تتحقَّق أماني الوَحْدة أو بعضها يا ترى إذا قُتل المكروب أو عُزل في الأقل من السياسة؟ إن نجاح القضية لا يتوقَّف على هذا الإصلاح وَحْده.

إن روح القبائل لا تزال سائدةً في البلاد العربية ومتغلبة في أكثر أقطارها على الروح القومية، فلو فرضنا أن الإمام يحيى خرج باسم القومية يجاهد في سبيل الوَحْدة العربية، وقد اتخذ لقبًا علمانيًّا وأنشأ في اليمن حكمًا مدنيًّا، فلا تخفى نهضته أن سيفها لا يزال سيف قحطان، وأن قحطان لا تزال نازعةً إلى عصبيتها، مثيرةً في نزوعها العصبيات الأخرى.

وبكلمةٍ أوضح: إن العداء بين قحطان وعدنان عمومًا، وبين قحطان وربيعة خصوصًا، لا يزال مستحكمًا في جنوبي نجد — مثلًا — وفي أعالي عسير. فضلًا عن أن نجدًا، والصولة فيها لا تزال لربيعة، تأبى السيادة العامة ليس في قحطان فقط، بل في مضر أيضًا، ومعقل مضر لا يزال الحجاز.

هذا هو الداء الثاني ومكروبه العصبية. فإذا تغلَّب أمراء العرب الكبار على العصبيات القديمة فيهم، وقاموا باسم القومية العربية المحضة الشاملة يبغون الوَحْدة، فهل يظفرون بها يا تُرى؟ إن نجاح القضية لا يتوقَّف على هذين الإصلاحَيْن وحدهما.

إن العوامل الطبيعية توجد في شكلِ أقسامٍ من الأرض، وفي سكانها ما يُسمَّى وَحْدة جغرافية تتشابه فيها القوميات والطباع والعادات والتقاليد، وتشترك فيها مصالح الأهالي وسياسات المتقدمين فيهم، غير أن هذه الوَحْدة لا تدوم إلا بثلاث: حكومة منظَّمة عادلة، ومدارس وطنية عامة، وطرق مواصلات حديثة. وليس في البلاد العربية اليوم، ما سوى العراق، غير قُطْرين في أحكامهما شيء من النظام المدني، هما الحجاز واليمن.

وليس في البلاد العربية اليومَ غير حكم واحد عادل، هو حكم ابن سعود. أمَّا المدارس الوطنية العامة فلا تجدها إلا في الحجاز ولحج والبحرين والكويت، وليس في شبه الجزيرة كلها — إذا استثنينا سكة حديد المدينة والتلغرافات السلكية واللاسلكية في اليمن والحجاز — شيء من البرق والبخار.

على أن في الحالة الجغرافية بعض الأمل، فيها اليسير مما يثبت وحدتها ويبشِّر بتعميم عواملها. وكأني بالقارئ يسأل سؤالًا آخر: إذا عمَّت هذه العواملُ الأقطارَ العربية كلها، فأُنشِئت الحكومات المنظَّمة، وطرق المواصلات الحديثة، والمدارس الوطنية العامة، فهل نفوز بضالتنا المنشودة؟

أجيب: نعم، ولكن بعد خمسٍ وعشرين سنة في الأقل من بداءة هذه المؤسسات، فتزول بوساطتها العصبيات القديمة لتحلَّ محلَّها روحُ القومية العربية الكبرى، وتُنبَذ السياداتُ المذهبية من الأحكام المدنية، فتقوم مقامَها سيادةُ العقل والعدل والتساهُل، بل سيادة العقلية العربية الجديدة التي تَرفع فوق كل مصلحة وفوق كل سياسة، مصلحةَ العرب المشتركة وسياسةَ العرب الموحَّدة.

إذن لا أملَ للعرب في تحقيق الوَحْدة العربية الكلية اليوم. فهل من الممكن أن يتفاهم ملوكُها ويتآلفون؟ أجيب: نعم. وأقول فوق ذلك: إنه من الممكن أن يؤلِّفوا وَحْدتَين أوليتَين تقسِّمان شبه الجزيرة شطرَيْن في الحكم كما قسَّمتها الطبيعة؛ أي الشطر الغربي والشطر الشرقي. وما كان هذا ليتم اليومَ لولا سقوط الخلافة وتنازُل الأتراك عنها.

أمَّا رأيي، فها أنا ذا أعرضه على سادتي ملوك العرب. «الخلافة يا سادة في قريش» (حديث شريف). ومَن في قريش اليوم ومن سلالة الرسول أصلحُ وأشرفُ من جلالة الملك حسين؟ ولكننا في القرن الرابع عشر بعد البعثة النبوية، وسُنَّةُ التطوُّر سُنَّةُ الله، فإذا استنكرنا عمل الأتراك فلا يجوز أن نتعامى عمَّا هو صالح فيه، بدأ مصطفى كمال وزملاؤه في فصل الخلافة عن السلطنة، وهذا هو النصف الصالح في إصلاحهم، وإني أظنُّ أن الإسلام لا يعود بعد اليوم إلى التقليد القديم.

أَفَلا يجدرُ بالعرب أن يخطوا هذه الخطوة إلى الأمام فيقبلون من مصطفى كمال نصفَ برنامجِ إصلاحه؟ وهم إذا بايَعوا حسينًا بن علي على الخلافة فيجعلون مقرَّه مكة (أي كالبابا في رومة)، ويُقِيمون بعدئذٍ ملكًا غيره منهم.

إذا سلَّمتَ بهذا أتقدَّم وإياك إلى ما يليه. لنفرضْ أن الملك حسينًا قبِلَ الزعامةَ الدينية، فمَن من ملوك العرب اليومَ يستحقُّ الزعامةَ المدنية ويحقِّق آمالَ العرب بها؟ لا أظنك إذا كنت قرأتَ ما تقدَّم تتردَّد في الجواب.

نعم، ابن سعود وابن حميد الدين. فيحكم الأولُ شطرَ البلاد الشرقي، والثاني شطرَها الغربي. فلماذا لا نساعد كلًّا منهما إذن ليبسط حكمَه على سائر الشطر الذي هو اليومَ السيدُ الأكبر فيه؟

أني أحدِّثك أيها القارئ بلغةٍ فيها سدادُ المنطق وبساطةُ ألف باء. ولا أنتقل من مقدمةٍ إلى أختها قبل أن أبيِّنَ الحقيقة فيها. سلَّمنا بالخلافة للحسين، وبالملكية للملكين. ولكنما السبيل إلى ذلك، ما هي؟

إن في سبيل الفلاح عقبتين لا يُستخَف بهما؛ الأولى في داخل البلاد والأخرى خارجَها. اسم الأولى أمراء العرب، واسم الثانية بريطانيا، وإن بين الاثنتين صلةً لا تُقطَع اليوم، ولست ممَّن يُطالِبون بقَطْعِها، إنما أقترح أن تنتقل من الفروع إلى الأصل، أرتئي أن يتألَّف من الصلات المتعددة صلةٌ واحدة، أو بالحري صلتان لا غير.

أما إذا اعترض الإنكليز قائلين إن الأمراء لا يقبلون بذلك. فأجيب: إن للأمراء ولوُجَهاء العرب الحقَّ في معالجة الأمر دون تدخُّل حكومةِ بريطانيا، على شريطة أنهم منذ البدء يؤكِّدون لها أن مصالحها في البحر الأحمر والبحر العربي وخليج فارس لا تُمسُّ بضر بتاتًا.

أمَّا الأمراء الحاكِمون اليومَ فأول ما يجب إقراره هو أن الحكم يبقى في بيوتهم كما كان منذ القدم؛ أيْ إن آلَ صباح يظلون في الكويت، وآلَ خليفة في البحرين، والعبادلة في لحج، والأدارسة في عسير ... إلخ، ولا يتغير في استقلالهم غير اعترافهم بالسلطان الأكبر واشتراكهم وإياه في الدفاع عن البلاد وفي عَقْد المعاهدات، وفي نظام واحد يختص بالمسائل الاقتصادية والمصالح العامة.

ليس في هؤلاء الأمراء اليومَ واحدٌ مطلق من نفوذ الإنكليز مهما كان ضئيلًا، وليس فيهم مَن لا اتفاق أو معاهدة بينه وبين بريطانيا. فهل يعارض أن يكون النفوذ لأمير عربي كبير إذا توفرت فيه شروطُ الزعامة فيتعزَّز بذلك شأن الاثنين؟ وهل تخسر بريطانيا أو تفادي بشيء من مصالحها إذا عقد السلطانُ الأكبر مُعاهَدةً معها شبيهة مبدئيًّا بالمعاهدة أو الاتفاق الذي بينها الآن وبين الأمراء؟

إنني أدرك أنها تفضِّل أن يكون اتفاقُها مع كل أمير على حِدَة؛ لأن في ذلك تقسيم قواهم والاقتصاد

بقواها، ولكن الأمراء إذا هم فكَّروا مليًّا، يرون مصلحتهم الكبرى في غير هذه السياسة، فهم إذا وحَّدوا سياستهم يَعتزُّون ويتخلَّصون من تدخُّل عمال الإنكليز، ذلك التدخل الذي يَئِنُّون كلهم منه. وإن بريطانيا لَتكتسبُ ثقةَ العرب وحبهم إذا قبلتْ بمثل هذا الإصلاح وفيه ضمان مصالحها.

إن ابن سعود صديقها وحليفها، فما ضَرها إذا كان هو الموقِّع للمُعاهَدات والاتفاقات التي بينها وبين البحرين والكويت وقطر وعُمان؟ وما ضر هؤلاء لو كان ابن سعود، وهو صاحب الصولة والاقتدار، الضامنَ سلامتهم واستقلالهم، العاملَ في سبيلهم، على شرط ألَّا يكون لسيادته فيهم صبغة مذهبية. وأكثرُ هؤلاء الأمراء مثل ابن سعود من قبيلة واحدة، من ربيعة، ويَمُتُّون إلى بكر بن وائل.

ليس في ذا الأمر شيءٌ مستحيل. والخطوة الأولى في سبيله هو أن يُعقَد مؤتمرٌ عربي عام في مكة — مثلًا — يحضره كل الأمراء فتتم فيه مُبايَعة الملك حسين على الخلافة، ثم مُبايَعة الإمام يحيى على الملك في الغرب، والسلطان عبد العزيز في الشرق، ويكون بين المَلِكَين مُعاهَدة ولائية اقتصادية واتفاق بأن يكون أيضًا بينهما وبين بريطانيا مثل هذه المعاهدة أو ما يُقترَن بها مبدئيًّا.

أما الملك حسين فيشترط العرب في بيعتهم أنه يقبل بمَن يُقِيمونه مَلِكًا عليهم، وإذا بايَعَه كلُّ العرب يبايعه — ولا شك — المسلمون في الهند وفي الأقطار الإسلامية الأخرى. أَفَلا يَرْضى، وهو الحصيف الحكيم، أن يكونَ خليفةً يحترمه المسلمون أجمع، ولا يكون ملكًا في الحجاز همومُه السياسية الخارجية والداخلية هي أشدُّ من همومِ حاكمٍ من حكَّام الدول العظمى؟

إن في البلاد العربية اليومَ أربعةَ ملوكٍ كبار، وإن في نفسية الرعايا رعاياهم نصًّا على شخصية أولئك الملوك وشرحًا على حالة تسود سياستهم في البلاد.

- رعيةُ الملك حسين تطيعه وتخافه.
- رعيةُ ابن سعود تطيعه وتحبه.
- رعيةُ الإمام يحيى تطيعه دونَ حبٍّ ودون خوف.
- رعيةُ الملك فيصل لا تخاف ولا تُطِيع إلا مُكرَهة.

فمَن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحقُّ أن يَسُودَ العرب؟

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني